٣٥ درس

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة النساء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النساء)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
التفسير المحرر للقرآن الكريم (سورة النساء) المجلد الثالث/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٣٦هـ
٨١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٤-٣٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - سورة النساء - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٦/٨٥٢١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٨٥٢١
ردمك: ٤-٣٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ -بريدإلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

لِلقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النساء)

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثالث

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ النِّساءِ







سُورةُ النِّساءِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ النِّساءِ(١).

فعن مَعْدَانَ بن أبي طَلحةَ اليَعمُريِّ، قال: ((إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه خطَب يومَ جمعةٍ، فذكَر نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذكَر أبا بكرٍ، ثم قال: إنِّي لا أَدعُ بعدي شيئًا أهمَّ من الكَلالةِ، ما راجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شيءٍ ما راجعتُه في الكَلالةِ، وما أَغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيهِ! حتى طعَنَ بإِصبعِه في صَدْري، وقال: يا عُمرُ، ألَا تكفيك آيةُ الصَّيفِ التي في آخرِ سورةِ النساءِ؟! وإني إنْ أعِشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القرآنَ ومَن لا يقرأُ القرآنَ))(٢).

فضائلُ السُّورة وخَصائصُها:

١- عن عبدِ الله بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وهو على المنبر-: ((اقرأْ عليَّ القرآنَ، فقلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك وعليك أُنْزِل؟! قال: إنِّي أَشتهي أن أسمعَه من غيري، قال: فقرأتُ عليه سورةَ النِّساء حتى بلغتُ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤١-٤٢]، رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى

(١) قال ابنُ عاشور: (ووجه تَسميتها بإضافة إلى النِّساء أنَّها افتُتحت بأحكام صِلة الرَّحِم، ثم بأحكام تخصُّ النساء، وأنَّ فيها أحكامًا كثيرة من أحكام النِّساء: الأزواج، والبنات، وخُتِمت بأحكام تخصُّ النساء) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١١). وأيضًا لتكرر اسم النساء فيها مفردًا ومضافًا مرات عديدة، ومعلوم أن تكرار الاسم من دواعي التسمية به. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) رواه مسلم (١٦١٧).

جنبي- وفي رواية: بيده- فرفعتُ رأسي، فنظرْتُ إليه فرأيتُ عينيهِ تسيلُ))[١].

٢- عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((مَن أخَذ السَّبْعَ الأُولَ من القرآن، فهو حَبرٌ))[٢].

٣- عن واثلةَ بن الأسقعِ رضِي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أُعطِيت مكانَ التوراة السَّبْعَ الطِّوالَ... الحديث))[٣].

٤- عن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: (إنَّ في النِّساء لخمسَ آياتٍ، ما يسرُّني بهنَّ الدُّنيا وما فيها، وقد علِمتُ أنَّ العلماء إذا مرُّوا بها يعرفونها: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٥)، ومسلم (٨٠٠) واللفظ له.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٨٢) (٢٤٥٧٥)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٧/ ١٦٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٣/ ٤٠٧) (١٣٧٧)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (٧٢)، ورواه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (٦٩)، والحاكم (١/ ٧٥٢) بلفظ: (فهو خير).

قال ابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (١/ ١١١): لا يصح، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٥٥): غريب، وقال الهيثمي: رجال البزَّار رجالُ الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة، ورواه بإسنادٍ آخَرَ رجالُه رجالُ الصحيح. وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٩٧٩).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٠٧) (١٧٠٢٣)، والطبراني (٢٢/ ٧٥) (١٨٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢/ ٤٨٧) (٢٤٨٤).

قال البغويُّ في ((تفسيره)) (١/ ٦١)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (١/ ٥٥): غريب، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٤٩): فيه عمرانُ القَطَّان، وبقيَّةُ رجاله ثقات. وصحَّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه في ((السلسلة الصحيحة)) (١٤٨٠).

أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] [النساء: ١١٠]).

٥- عن حُذيفةَ بن اليمانِ رضي الله عنه، قال: ((صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ، فافتتَحَ البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المئةِ، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا))[2].

بيانُ المَكِّي والمَدنيِّ:

سورةُ النِّساء مدنيَّةٌ؛ حُكي في ذلِك الإجماعُ[3].

ويدلُّ على ذلك ما جاء عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنها قالت: (وما نزلتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلَّا وأنا عنده)[4].

ولا خِلافَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إنَّما بَنَى بها بالمدينة[5].

مقاصدُ السُّورة:

مِن أبرزِ المقاصدِ التي تَضمَّنتها سورةُ النِّساء:

١- الاهتمامُ بالعقيدة وتوحيدِ الله سبحانه وتعالى وقضايا الإيمان، والردُّ

---

(١) رواه سعيد بن منصور في ((سننه)) (٤/ ١٢٩٧)، والطبراني (٩/ ٢٥٠) (٩٠٦٩)، والحاكم (٣١٩٤).

قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٤): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه مسلم (٧٧٢).

(٣) قال الفيروزابادي: (هذه السُّورة مدنيَّة بإجماع القُرَّاءِ) ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ١٦٩).

وقال البقاعي: (سورة النساء مدنيَّة إجماعًا؛ كذا قال بعضهم) ((مصاعد النظر)) (٢/ ٨٦).

(٤) رواه البخاري (٤٩٩٣).

(٥) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٨٧).

على العقائد الباطلة، وإيضاح الحُجَّة على صِحَّة نبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتحذير من المنافقين.

٢- العناية بالأُسرة، وتنظيم العلاقة بين الزوجينِ، وحقوق الأرحام، وبيان نظام الإِرْث، وتقسيم التَّرِكات.

٣- الاهتمام بأُسُس بناء الدولة الإسلاميَّة، ومقوِّماتها، والجهاد في سبيل الله.

٤- الاهتمامُ بحِفظ الدِّماء وأحكامها، وحِفظ الأموال، ورعاية حقوق اليتامى.

موضوعاتُ السُّورةِ:

أبرزُ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ النساء:

١- الحديث عن المرأة، ففصَّلت الكثيرَ من أحكامها، وأوضحتْ كثيرًا من حقوقِها، وأطالتِ السورةُ الكلامَ في هذا الجانب.

٢- تنظيم الكثيرِ من العَلاقات القائمةِ بين الرجُل والمرأة؛ ومنها: موضوع القِوامة، وإباحة النِّكاح والتعدُّد فيه للرجل، وحق المرأة في الكرامة الإنسانية والمهر والميراث، وحُرمة عَضْل النساء، وأحكام الرَّضَاع،كما حثَّتْ على الفضيلة، وزجرت عن إتيان الفاحشة، وتطرَّقت أيضًا إلى العَلاقة مع مِلْك اليمينِ، إلى غير ذلك.

٣- الحديثُ عن حقوقِ الأيتام، وكيفيةُ التعامُل مع أموالِهم.

٤- فيما يتعلَّق بالأموالِ، تناولت السورة موضوعَ تحريمِ أكْل أموالِ النَّاسِ بالباطل، والتحذير مِن فِعل ذلك، والحثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وتوعُّد الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبُخل.

٥- تطرَّقت السورةُ إلى بيان الكثير من الأحكام الفقهيَّةِ مع بيان يُسْرِ الشَّريعةِ، وإرادة الله التخفيفَ عن عباده، ومراعاة ضَعْفهم، ومن هذه الأحكام: أحكامُ المواريث، وحُرمة صلاة السَّكران في حالة سُكرِه، ووجوب الاغتسال من الجَنابة لمن أراد الصَّلاة، ومشروعية التيمُّم وأحكامه، كما أَوضحتِ السورةُ بعضًا من أحكام الجناياتِ، والدِّيَات، مع بيان عِظَم حرمة دماء المؤمِن، وجزاء مَن يقتل مؤمنًا متعمِّدًا، وغير ذلك من الأحكام الفقهيَّة.

٦- تحدَّثت السورةُ عن أهلِ الكتابِ، وبيَّنت بعضَ ما هُمْ عليه من الضَّلال، وما حلَّ عليهم من الغضب واللَّعن، وذَكَرت بعضَ تعنُّتِهم، ونَقْضهم للعهود، وكُفْرهم بالآيات، ومعاملتهم السيِّئة لأنبياء الله، التي وصلت إلى قتْل بعضِهم، ثم تناولَتْ دعوتَهم إلى الدِّين الحقِّ، ونهيَهم عن الغلوِّ في الدِّين، ومن ذلك غلوُّهم في المسيح عيسى ابن مريمَ، وقولهم بالتثليث.

٧- تَطرَّقتْ السورة إلى قضيةِ الحُكم في الإسلام، وإلى ما يَنبغي أنْ يقومَ عليه الحُكمُ في الدَّولة الإسلاميَّة، وهو العدلُ، ووجوبُ الطاعةِ لله والرسولِ وأُولي الأمر، وأنْ يكون المرجعُ في التنازع هو شَرْعَ الله، حتى جعلَتِ الإيمانَ مربوطًا بتحكيمِ الشَّرع، والرِّضا والتسليم له.

٨- الحديثُ عن المنافقين، وفضْحُهم، وبيانُ الكثير من أعمالهم، وتصرُّفاتهم، ودَسائسهم، وعقوبتهم، ومكانهم في الآخرة، وأنَّهم في الدَّرْك الأسفل من النار.

٩- ومِن المواضيع التي تحدَّثت عنها السورةُ: الأمْرُ بالقتال في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته، ولنُصرة المستضعَفين من المؤمنينَ، موضِّحةً الأجرَ العظيمَ لِمَن يُقاتِل في سبيل الله، والفضل الجزيل للمجاهدين على القاعدين، ومبيِّنةً بعضَ الأحكام التي يحتاج لها المقاتلُ في سبيل الله؛ كالتعامُل مَع مَن يُلقِي السلام، وأحكام صلاة الخوف، والقَصْر للصَّلاة.

١٠- الحضُّ على عمَل الخير، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة؛ ومنها: العدل، وأداء الشَّهادة لله كما هي، ولو كانت على النَّفْسِ، أو الوالدينِ أو الأقربين، وتركُ اتِّباع الهوى، ومنها: أداءُ الأمانات، والحثُّ على الإحسانِ للخَلْق، ومراعاة الأقرَبينَ من الوالدينِ والأقاربِ والجيرانِ، وكذلك مراعاةُ المحتاجين من الفُقَراء والمساكينِ والضعفاءِ، والإحسانِ إليهم.

١١- بيانُ العداوة الأزليَّة بين الشيطانِ وبينَ بني آدمَ، وكيف أنَّ الشيطانَ توعَّد بإضلالِ جزءٍ من العِبادِ.

١٢- الحثُّ على الإيمانِ بالله ورُسله وكُتُبِه واليومِ الآخِر، وتوحيد العبادة، وبيانُ خطورةِ الشِّركِ، والنَّهْي عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنينَ، والأمرُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ، والاعتصام به، والتمسُّك بدِينه.

١٣- ذكرُ بعضِ أنبياءِ الله تعالى، وطرفٍ من خبرِ موسَى وعيسَى عليهما السَّلام.



الآية (١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَبَثَّ﴾: أي: ونشَر، وأصلُ البثِّ: التفريقُ، وكذلك إثارةُ الشَّيءِ وإظهارُه(١).

﴿تَسَآءَلُونَ﴾: تطلُبون حقوقَكم، والسُّؤال يأتي بمعنى الطَّلب والالتماسِ، ويأتي بمعنى الاستفسارِ؛ يُقال: سأل يسألُ سؤالًا ومسألةً(٢).

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾: أي: القَرابَاتِ، واحِدَتُها رحِم، والرَّحِمُ: عَلاقة القرابَةِ، وأصل (رحم): الرِّقَّةُ والعطفُ والرَّأفة، ثم سُمِّيت رحِمُ الأنثى رَحِمًا مِن هذا؛ لأنَّ منها يكونُ ما يُرحَم ويُرقُّ له من ولدٍ(٣).

﴿رَقِيبًا﴾: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلعًا، وأصل رقب: يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ(٤).

مُشكِل الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾:

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠١).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ قُرِئ بالنَّصب، والجرِّ؛ فعلى قِراءة النَّصب، فهو عَطفٌ على اسمِ الله تعالى، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقطَعوها، ويجوزُ أنْ يكونَ عطفُه على موضِع ﴿بِهِۦ﴾ كما في: مررتُ بزيد وعمرًا، بعطف (عمرًا) على موضع بزيد؛ لأنَّه مفعولٌ به في موضِع نصْب، وإنَّما ضعُف الفِعلُ عن التعديةِ بنفْسه، فتعدَّى بحَرْف جَرٍّ.

وعلى قِراء الجرِّ، فهو معطوفٌ على الهاء في ﴿بِهِۦ﴾، من بابِ العَطفِ على الضَّميرِ المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ[(١)].

المَعنى الإجمالي:

يُخاطِبُ الله تعالى جميعَ البَشَر آمرًا إيَّاهم بتقواه؛ فهو الذي أَوجدَهم جميعًا من نفْسٍ واحدة، من أبيهم آدَمَ عليه السَّلام، ومِن آدَمَ أوجد الله سبحانه حوَّاءَ، ونشَر منهما بشرًا كثيرًا من الرِّجال والنِّساء، وأمَرَهم سبحانه أيضًا أن يتَّقوه؛ فإنَّه سبحانه مَن يتساءلون به بينهم لعَظَمَتِه، وأمرهم أن يتَّقوا الأرحامَ فلا يَقْطَعوها؛ فإنَّهم يتساءلون بها أيضًا لِعظَمِها، فلْيؤدُّوا حقَّها، إنَّ الله سبحانه مطَّلعٌ على جميع أعمالِهم، مراقِبٌ وحافظٌ لها.

تَفسيرُ الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾.

---

(١) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٧-١٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٤)، (٣/ ٥٥٤).
والوجه المذكور في قِراءة الجرِّ، وإنْ كان لا يُجيزه البصريُّون، إلَّا أنَّه ينبغي أن يجوز مطلقًا؛ لكثرة السماع الوارد به، واعتضادِه بالقياس، وضَعْفِ دليل المانعين. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

مُناسَبةُ افتتاحِ السُّورةِ بالأمْرِ بالتقوى:

لقدِ اشتملتْ سورةُ النِّساء على أنواعٍ كثيرة من التكاليفِ؛ وذلك لأنَّه تعالى أمَرَ النَّاسَ في أوَّل هذه السورة بالتعطُّفِ على الأولاد والنِّساءِ والأيتام، والرأفة بهم، وإيصالِ حقوقِهم إليهم، وحِفْظ أموالِهم عليهم، وبهذا المعنى خُتِمت السورةُ، وهو قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وذكَرَ في أثناء هذه السُّورة أنواعًا أُخَر من التكاليف، وهي الأمْرُ بالطهارة والصَّلاة، وقِتال المشركين، ولَمَّا كانت هذه التكاليفُ شاقَّةً على النفوس؛ لثِقَلِها على الطِّباع، لا جرمَ افتَتَح السورةَ بالعِلَّة التي لأجلها يجب حمْلُ هذه التكاليفِ الشاقَّة، وهي تقوى الربِّ الذي خلَقَنا، والإلهِ الذي أَوْجَدَنا؛ فلهذا قال[١]:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾.

أي: يا أيها الناس[٢] حققوا تقوى الله عزَّ وجلَّ، بامتثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه؛ وذلك لأنَّه ربُّكم، أي: خالِقُكم ومالِكُكم ومُدبِّركم[٣].

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَر الله عزَّ وجلَّ بتقواه، وذكَر السبَّبَ الدَّاعيَ لهذه التَّقْوى، ذكَر سببًا آخَرَ موجِبًا لها[٤]، فقال:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٥).
(٢) قال الألوسي: (لفظ النَّاس يشملُ الذُّكور والإناث بلا نزاع) ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١-١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

أي: الذي أوجدَكم جميعًا -أيُّها الناس- من نَفْسٍ واحدةٍ، وهي آدَمُ عليه السَّلام[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: وأَوجَدَ مِن آدَمَ عليه السَّلامُ امرأتَه حوَّاءَ عليها السَّلام[٢].

كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((استوصُوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلقتْ من ضِلَعٍ[٣]، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُه كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصُوا بالنِّساءِ))[٤].

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩-٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٠٤).
قال الرازي: (أجمع المسلمون على أنَّ المراد بالنَّفس الواحدة هاهنا هو آدمُ عليه السَّلام) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٩).
وممَّن قال من السَّلف: إنَّ المقصود من قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءُ: مجاهد، والسُّدِّي، وقتادة، ومقاتل. ينظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٣).

(٣) الضِّلَع: مفرد أضلُع وأضلاع وضلوع، وهي عِظامُ الجَنبين. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٦٣).

(٤) رواه البخاري (٣٣٣١) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٨).
وقال النوويُّ: (وفيه دليل لِمَا يقوله الفقهاء -أو بعضهم- أنَّ حواء خُلقت من ضِلع آدَم؛ قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وبيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّها خُلِقت من ضِلَع). ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٥٧).

أي: ونشَر من آدَمَ وحواءَ عليهما السَّلام في أقطارِ الأرض أعدادًا كثيرةً من الرِّجال والنِّساء، فجميعُهم بنو أبٍ واحدٍ، وأمٍّ واحدةٍ[١].

كما قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

ثم ذكَر داعيًا آخرَ من دواعي تقواه جلَّ وعلا[٢]، فقال:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ تساؤُلَكم به، وتعظيمَكم له سبحانه، من الموجِبِ الدَّاعي لتَقْواه؛ حتى إنَّكُم إذا أرَدْتُم قضاءَ حاجاتِكم، توسَّلْتُم بها بالسُّؤالِ بالله، فيقول مَن يريد ذلك لغيرِه: أسألُك باللهِ أن تفعلَ كذا؛ لعِلمه بما قام في قلب الغيرِ من تَعظيمِ الله الذي يَمنعه أنْ يردَّ مَن سأله بالله؛ فكما عَظَّمتُم الله تعالى بذلك، فلْتعظِّموه أيضًا بتقواه سبحانه[٣].

﴿ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

أنَّ في إخبارِ الله سبحانه بأنَّه خَلَق النَّاسَ من نفسٍ واحدةٍ، وأنَّه بثَّهم في أقطارِ الأرض، مع رُجوعِهم إلى أصلٍ واحدٍ- عَطفًا لقلوبِ بعضِهم على بعضٍ، وترقيقَ بعضِهم على بعض. وقَرَن سبحانه الأمْرَ بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحامِ والنهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣-١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).

وقيل المراد بـ ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: تتعاهدون به وتتعاقدون؛ لأنَّ كلَّ واحد من المتعاقدين في النِّكاح وغيره، يسأل الآخَرَ تسليمَ مطلوبه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١١٣).

عن قطيعَتِها؛ ليؤكِّدَ هذا الحَقَّ، وأنَّه كما يلزم القيامُ بحقِّ الله تعالى، كذلك يجب القيامُ بحقوق الخَلْق، والأقربين منهم خاصَّة، بل القيامُ بحقوقِهم هو مِن حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي أمر به[١].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ قراءتان:

١- ﴿وَالْأَرْحَامِ﴾ على أنَّها معطوفةٌ على الهاءِ في (به)، أي: تساءلونَ باللهِ، وتَسَاءلون بالأرحامِ، أي: تتوسَّلونَ بها[٢].

٢- ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ على أنَّها معطوفة على لفظ الجلالةِ، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقْطَعوها[٣].

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

أي: واحْذَروا من أنْ تَقطعوا أرحامَكم، وتُفَرِّطوا في أداءِ حقِّهم[٤]، وكما تتوصَّلونَ بهذه الصِّلة فيما بينكم لعِظَمِها من أجْل قضاءِ حاجةٍ، أو نَيْل مأرب،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) قرأ بها حمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حُجَّة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٣٩، ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥).
وممَّن قال بنحو هذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس، والضَّحَّاك، ومقاتل بن حيَّان، وعِكرمة، والسُّدِّي، ومجاهد- في رواية عنه- والرَّبيع، وابن زيد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٤).

فآتوها حقَّها[١].

عن جَرير بن عبد الله رضِي اللهُ عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صَدرِ النهارِ، قال: فجاءَه قومٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجتابي النِّمارِ أو العَباءِ[٢]، مُتقلِّدي السيوفِ، عامَّتُهم من مُضَرَ، بل كلُّهم من مُضَرَ، فتمعَّر[٣] وجهُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا رأى بهم من الفاقةِ، فدخَل ثم خرج، فأمَر بلالًا فأذَّن وأقام، فصلَّى ثم خطَب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. والآيةَ التي في الحشرِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ تصدَّقَ رجلٌ من دينارِه، من درهمِه، من ثوبِه، من صاعِ بُرِّه، من صاعِ تَمْرِه حتى قال: ولو بشِقِّ تمرةٍ ، قال: فجاءَ رجلٌ من الأنصارِ بصُرَّةٍ كادت كَفُّه تَعجِزُ عنها، بل قد عجَزتْ، قال: ثم تتابَعَ الناسُ، حتى رأيتُ كَومَين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيتُ وجهَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يتهلَّلُ كأنَّه مَذْهَبةٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فله أجرُها، وأجرُ مَن عَمِل بها بعدَه، من غير أن يَنقُصَ من أجورِهم شيءٌ، ومن

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥، ١٩).

وممَّن قال من السَّلَف بنحو هذا القول: مجاهد- في رواية عنه- وإبراهيم، والحسَن- في رواية عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٥٣).

(٢) النِّمار- بكسر النون-: جمْع نَمِرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنميرٌ؛ كأنَّها أُخذت من لَونِ النَّمر؛ لِمَا فيها من السَّوادِ والبياض. والعَباء- بالمدِّ وبفتح العين-: جمْع عَباءة وعباية- لُغتان. وقوله: مجتابي النِّمار، أي: خَرَقوها وقوَّروا وسَطَها. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٠٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٨).

(٣) فتمعرَّ: أي: تغيَّر، وأصله قِلَّةُ النَّضارة، وعدَم إشراق اللون. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٤٢).

سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمِل بها من بعده، من غير أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مراقِبٌ لجميع أعمالِكم، وحافِظٌ لها، ومِن جُملةِ ذلك ما أمَرَكم به من تقوى ربِّكم، ورِعايةِ حُرمة أرحامِكم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- حقُّ الربِّ سبحانه مُقدَّمٌ على حقِّ القَرابةِ والرَّحِم؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدَّم ذِكْرَه هنا على ذِكْرِ غَيرِه من الخَلْقِ، فقد خلق العبدَ وخَلَقَ أبوَيْه وخَلَقَه من أبوَيْه، فالسبب الذي بينه وبين اللهِ هو الخلقيُّ التَّامُّ؛ بخلاف سبَبِ الأَبوَينِ؛ فإنَّ أصل مادَّتِه منهما، وله مادَّةٌ من غيرهما؛ ثمَّ إنَّهما لم يصوِّراه في الأرحامِ. واللهُ سبحانه هو خالِقُه وبارِئُه ومُصَوِّرُه ورازِقُه وناصِرُه وهاديه[٣].

٢- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، أنَّ الناس إذا عرَفوا كونَ الكلِّ من شَخْص واحد، ترَكوا المفاخَرةَ والتكبُّر، وأظهروا التواضُعَ وحُسنَ الخُلق[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، تَقْوى الأرحام:

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٣-١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٧).

تعبيرٌ عجيب، يُلْقي ظلالَه الشعوريَّةَ في النَّفْس! اتَّقوا الأرحامَ، أرْهِفوا مشاعِرَكم للإحساسِ بوشائِجِها، والإحساسِ بحقِّها، وتوقِّي هَضْمِها وظُلْمِها، والتحرُّجِ مِن خَدْشِها ومسِّها، توقَّوْا أن تُؤذُوها، وأن تَجْرَحوها، وأن تُغْضِبوها، أرْهِفوا حساسيتكم بها، وتوقيرَكم لها، وحنينكم إلى نَداها وظلِّها[١].

٤- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ التحذيرُ من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، ومَن آمَن بأنَّ الله رقيبٌ عليه، فسيحذرُ من مخالفة الله عزَّ وجلَّ، ويوجِبُ له ذلك مراقبتَه، وشِدَّة الحياءِ منه، بلزوم تقواه[٢].

٥- في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ تنبيهٌ على مراعاةِ حقِّ الأزواجِ والزَّوجات والقيامِ به؛ لكَوْنِ الزوجاتِ مخلوقاتٍ من الأزواجِ؛ فبينهم وبينهنَّ أقربُ نسَبٍ، وأشدُّ اتصالٍ، وأقرَبُ عَلاقة[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- لَمَّا كان الغالبُ على سُورةِ النِّساءِ مُخاطبةَ النَّاسِ في الصِّلاتِ التي بينهم بالنَّسَبِ والعَقْدِ وأحكامِ ذلك؛ افتتَحها اللهُ تعالى بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لعُمومِ أحكامِها[٤].

٢- جعَل اللهُ تعالى قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ مَطْلعًا لسورتينِ في القرآن: إحداهما: هذه السُّورة، وهي السُّورة الرَّابعة مِن النِّصف الأوَّلِ من القرآن. والثانية: سُورةُ الحج، وهي أيضًا السورة الرَّابعة من النِّصف الثاني من القرآن، ثم إنَّه تعالى علَّل الأمرَ بالتقوى في هذه السُّورة بما يدلُّ على معرفةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).
(٤) ((المسائل والأجوبة)) لابن تيمية (ص: ٢٠٣).

المبدأِ، وهو أنَّه تعالى خلَق الخَلْقَ مِن نفْسٍ واحدة، وهذا يدلُّ على كمالِ قُدرةِ الخالق، وكمالِ عِلْمه، وكمالِ حِكمتِه وجلالِه، وعلَّل الأمرَ بالتَّقوى في سورة الحجِّ بما يدلُّ على كمالِ معرفةِ المَعادِ، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فجعَل صدْرَ هاتين السورتين دلالةً على معرفة المبدأِ ومَعْرِفة المعاد(١).

٣- في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ دليلٌ على المعادِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا كان قادرًا على أنْ يُخرِجَ من صُلْب شخص واحد أشخاصًا مختلفين، وأنْ يَخلُقَ من قَطرة من النُّطفة شَخصًا عجيبَ التركيبِ، لطيفَ الصُّورة؛ فكيف يُستبعَد إحياءُ الأمواتِ وبعثُهم ونشورُهم؟! فتكون الآية دالَّةً على المعادِ من هذا الوجه(٢).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾، في الآية تلويحٌ للمشركينَ بأحقيَّة اتِّباعِهم دعوةَ الإسلامِ؛ لأنَّ الناس أبناءُ أبٍ واحدٍ، وهذا الدِّين يدعو النَّاسَ كلَّهم إلى متابعته، ولم يَخصَّ أمَّةً من الأُمم أو نسبًا من الأنسابِ؛ فهو جديرٌ بأن يكون دينَ جميعِ البشر، بخلاف بقيَّة الشرائعِ، فهي مصرِّحة باختصاصِها بأُمَمٍ معيَّنة(٣).

٥- المَدْحُ والذَّمُّ والثوابُ والعِقابُ إنَّما يترتَّبُ على الإيمانِ والعمل الصَّالِح، أو على ضِدِّ ذلك من الكُفر والفُسوق والعصيان؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ حيث ذَكَرَ اشتراكَ جميعِ النَّاسِ في الأصل، وأمَرَهم بتقوى اللهِ تعالى(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٥).
(٤) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٦)، ((المسائل والأجوبة)) لابن تيمية (ص: ٢٠٣).

٦- في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ تعريضٌ للمشركين بأنَّ أَوْلَى الناسِ بأن يتَّبِعوه هو محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه مِن ذوي رَحِمِهم[(١)].

٧- في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ ردٌّ على الفِكرة المُلْحِدة أنَّ الناس تطوَّروا من القُرُود إلى البشريَّة؛ فالنَّفْسُ هي آدَمَ، الذي نحن مِن نَسْلِه[(٢)].

٨- التَّذكيرُ بنِعمة الله عزَّ وجلَّ بما خَلَق لنا من الأزواجِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، و(مِن) هنا للتبعيض، ويجوز أن تكونَ بيانيَّةً للجِنس؛ أي: مِن جِنْسِها، وهذا من النِّعم الكبيرة، فلو كانت أزواجُنا من غَير جِنْسِنا، فلا يمكن أن نركنَ إليها أبدًا؛ بل ننفِرُ منها نفورًا شديدًا؛ لأنَّه لا يركَنُ الإنسانُ إلَّا إلى مَن كان مِن جِنْسِه[(٣)].

٩- في قولِه تعالى: ﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ خصَّ رجالًا بذكرِ الوصفِ بالكثرةِ دونَ النِّساء، قيل: حذَف وصفَ الثَّاني؛ لدلالةِ وصفِ الأوَّل عليه، والتقديرُ: ونساءً كثيرةً، ولأنَّ الفعل (بَثَّ) يقتضى الكثرةَ والانتشارَ، وقيل: لا يقدَّر الوصفُ، وإن كان المعنى فيه صحيحًا؛ لأنَّه نبَّه بخصوصيةِ الرِّجال بوصفِ الكثرةِ على أنَّ اللائقَ بحالِهم الاشتهارُ والخروجُ والبُروز، واللائقَ بحالِ النِّساء الخمولُ والاختفاءُ، وقيل: لأنَّ كثرة الرِّجالِ أهمُّ من كثرةِ النِّساء؛ فالكثرةُ في الرِّجال عزٌّ وفخرٌ يفتخرُ النَّاس به، بخلافِ النِّساء، فإنَّ الكثرةَ منهنَّ عالةٌ وتعبٌ وعناءٌ، وقيل غير ذلك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧).

١٠- ذُكِرَ (الربُّ) أولًا في قوله ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وهو الاسمُ الذي يدلُّ على الإحسانِ والتربيةِ، وذُكِرَ ثانيًا (الله) في قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ وهو الذي يدلُّ على القَهْرِ والهَيْبة؛ لأنَّه بنى الأَمْر بالتقوى أولًا على التَّرغيب، وثانيًا على التَّرهيب. كقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، كأنَّه قال: إنَّه ربُّك أحسنَ إليك، فاتَّقِ مخالفته وغَضَبَه وعقابَه؛ فإن لم تتَّقِه لذلك، فاتَّقِه؛ لأنَّه شديدُ العقابِ(١).

١١- في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ تأمَّلْ كيف افتتَح هذه السُّورةَ بالأَمْرِ بالتقوى، وصِلَةَ الأرحامِ والأزواجِ عمومًا، ثم بعد ذلك فَصَّلَ هذه الأمورَ أتمَّ تفصيلٍ، من أوَّلِ السورة إلى آخِرِها؛ فكأنَّها مبنيَّةٌ على هذه الأمورِ المذكورةِ، مفصِّلَة لِمَا أُجْمِلَ منها، موضِّحَة لِمَا أُبْهِمَ(٢).

بَلاغَةُ الآيةِ:

١- **قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ...﴾ الآية، فيه بَراعةُ الاستهلالِ؛ فقد استهلَّ السورةَ بالإشارةِ إلى بَدء الخَلْق والتكوين، وألْمَع إلى دَورِ المرأةِ المهمِّ، وأَوْصى بصِلةِ الرَّحِم(٣)؛ حيث تَضمنَّت هذه الآيةُ المفتَتَحُ بها الأغراض الأصلية التي اشتملت عليها السورة، وما أكثرُ السُّورةِ في أحكامِه؛ من نِكاحِ النِّساءِ ومحرَّماتِه، والمواريثِ المتعلِّقةِ بالأرحام، وأنَّ ابتداءَ هذا الأمر كان بخَلْق آدمَ، ثم خَلَق زوجَه منه، ثم بَثَّ منهما رِجالًا ونساءً في غاية الكثرة؛ فالآية تمهيدٌ لِمَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٤٩٦)
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٤٨).

سيُبيَّن في هذِه السُّورةِ من الأحكامِ المرتَّبةِ على النَّسَبِ والقرابة، فكانتْ بمنزلةِ الدِّيباجةِ(١).

٢- **قوله:** ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾: عبَّر بـ ﴿رَبَّكُمُ﴾، دون الاسم العَلَم (الله)؛ لأنَّ في معنى الربِّ ما يَبعث العبادَ على الحِرص في الإيمانِ بوحدانِيَّتِه؛ إذ الربُّ هو المالك الذي يرُبُّ مملوكَه، أي: يُدبِّر شؤونَه، مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين؛ لتأييدِ الأمر، وتأكيدِ إيجاب الامتثالِ به على طريقةِ الترغيبِ(٢).

٣- **قوله:** ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾: إعادة الفِعل (خلَق)- مع جوازِ عطفِ مفعولِه على مفعولِ الفِعل-؛ لإظهارِ ما بين الخَلقينِ من التفاوُتِ؛ فإنَّ الأوَّلَ بطريقِ التفريعِ من الأَصْل، والثاني بطريقِ الإنشاءِ من المادَّة؛ فإنَّه تعالى خلَقَ حواءَ مِن ضِلَع آدَمَ عليه السلام، وتأخيرُ ذِكْر خَلْقِها عن ذِكرِ خَلْقِهم؛ لأنَّ تذكيرَ خَلقِهم أدخلُ في تحقيقِ ما هو المقصودُ من حمْلِهم على الامتثالِ بالأمْر بالتقوى من تذكير خَلْقِها(٣).

- وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهَا﴾؛ للاعتناءِ ببيانِ مبدئيَّةِ آدَمَ عليه السَّلام لها، مع ما فيه من التشويقِ إلى المؤخَّر، وإيرادُ حواء بعنوان الزوجيَّة تمهيدٌ لِمَا بعده من التناسُل(٤).

٤- **قوله:** ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾

- وإيثارُ (رجالًا- ونساءً) على (ذكورًا- وإناثًا)؛ لتأكيدِ الكثرةِ، والمبالغةِ

(١) ينظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٤- ٢١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٤- ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فيها بترشيح كلِّ فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئيَّة غيره[١].

- وترتيب الأمْر بالتقوى على هذه القِصَّة؛ للدَّلالة على القُدرة القاهرةِ التي من حقِّها أنْ تُخشى، والنِّعمةِ الباهرةِ التي تُوجِب طاعةَ مُولِيها[٢].

٥- **قوله:** ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾: فيه تكريرٌ للأمْر بالتقوى، وتذكيرٌ لبعضٍ آخَرَ من مُوجِبات الامتثالِ به؛ فإنَّ سؤالَ بعضِهم بعضًا باللهِ تعالى بأن يقولوا: أَسأَلُك بالله، وأَنْشُدُك اللهَ، على سبيلِ الاستعطاف، يَقتضي الاتِّقاءَ من مخالفةِ أوامرِه ونواهيه[٣].

- وتعليقُ الاتِّقاءِ بالاسمِ الجليل (الله)؛ لمزيدِ التأكيدِ والمبالغة في الحَمْلِ على الامتثالِ بتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعة؛ لوقوعِ التساؤُلِ به لا بغيرِه من أسمائِه تعالى وصِفاته[٤].

- وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ قرَنَ اللهُ سُبحانَه الأرحامَ باسْمِه الكَريمِ؛ إيذانًا بأنَّ صِلةَ الأرحامِ مِن اللهِ بمكانٍ عظيمٍ[٥].

٦- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾: خبرٌ جارٍ مجرَى التَّعليلِ للأمْرِ، ووُجوبِ الامتثالِ به[٦]، مع ما فيه من التوكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ لتَأكيدِه، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ١٧٦).

(٦) ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لِرعايةِ الفَواصِل[١].

- والتعبيرُ بصِيغة فَعيل في قوله: ﴿رَقِيبًا﴾؛ للمُبالغةِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

(٢) ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩).

الآيات (٢ - ٦)

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حُوبًا﴾: أي: إثمًا؛ يقال: فلانٌ يَتَحَوَّبُ من كذا، أي: يتأثَّم، والتَّحوُّبُ التوجُّع، والحَوْبَة الحاجةُ أو المسكَنة، وأصْلُ (حوب): الإثمُ أو الحاجةُ والمسكنةُ، وقيل: مأخوذ من قولهم: حَوْبُ؛ لزَجْرِ الإبل[١].

﴿تَعْدِلُواْ﴾: أي: تَجُوروا وتَميلوا، والعولُ: الميلُ إلى الجورِ في الحكمِ، ويُطلقُ كذلك على ما يُهلِك، وما يُثقِل، وأصْلُه: تركُ النَّصَفة بأخْذ الزِّيادة[٢].

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي: اثنتينِ اثنتينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، وهذه الألفاظُ لا تنصرفُ للعدلِ والوصفِ[٣].

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ٦٣٧) ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥،

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: أي: مُهورَهنَّ، واحدتُها صَدُقة، وأصل (صدق): القوَّة في الشَّيء قولًا كان أو غيره[١].

﴿نِحۡلَةٗ﴾: أي: هِبة، أو فريضةً عن طِيب نفْس من غيرِ مُطالَبة، وأصل النِّحلة: العَطيَّةُ على سبيل التبرُّع، وهي أخصُّ من الهِبة[٢].

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: الهَنِيء: كلُّ ما لا يَلحَق فيه مَشقَّةٌ، ولا يُعقِب وخامةً؛ يُقال: هَنِئَ الطَّعام، فهو هَنِيء، وأصل (هنأ): إصابةُ خيرٍ من غير مشقَّة، وقيل: إنَّ الهَنيءَ مُشتقٌّ مِن هَنَأت البعيرَ بالقَطِرانِ: إذا جَرِبَ فعُولِج بِه؛ فإنَّه شفاءٌ من الجَرَبِ. و﴿مَّرِيٓـٔٗا﴾: أي: بلا داءٍ، والمريءُ: المحمودُ العاقبة؛ يُقال: أَمْرأ الطَّعام، إذا انهضَمَ وحُمِدتْ عاقبتُه. فيكون المَعْنَى: فكُلوه دَواءً شافيًا؛ يُقالُ منه: هَنَأَنِي الطَّعامُ ومَرَأَني: أي صارَ لي دواءً وعلاجًا شافيًا[٣].

﴿قِيَمٗا﴾: أي: قِوامًا، وهو ما يقومُ به أمْرُكم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء والحِفظُ له، والانتصابُ والعزم[٤].

---

١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٥).

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١١٩، ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦، ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٩٦٣).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

﴿ءَانَسْتُم﴾: أي: وجدتُم وعلِمتُم، وتبيَّنتُم وعَرَفتُم، وأصل الإيناس: الرُّؤية والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيء، وكذلك: ظُهورُ الشَّيء، وكلُّ شيءٍ خالَفَ طريقة التوحُّش(١).

﴿رُشْدًا﴾: عقلًا، أو إصلاحًا، أو خيرًا، والرُّشد يُطلق كذلك على الدِّين والهِداية، وهو خلافُ الغيِّ، وأصل (رشد): استقامةُ الطَّريق(٢).

﴿وَبِدَارًا﴾: مُبادَرة، أو مسارَعة؛ يُقال: بدرتُ إليه وبادرتُ، ويُعبَّر عن الخطأِ الذي يقَعُ عن حِدَّةٍ؛ يُقال: كانتْ من فلان بوادرُ في هذا الأمرِ، وأصل (بدر): الإسراعُ إلى الشَّيء(٣).

﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: أي: ليترك، ولا يأكُلْ مِن مال اليتيم، والعِفَّة: الامتناعُ عن مقاربةِ المحرَّم، وهي أيضًا: حُصولُ حالةٍ للنَّفس تمتنعُ بها عن غلَبةِ الشَّهوة،، والاستعفافُ: طلبُ العِفَّة، وأصلُ (عفف): الاقتصارُ على تناوُلِ الشَّيءِ القليل(٤).

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾

﴿نِحْلَةً﴾: منصوبةٌ على المصدرِ، والعاملُ فيها الفعلُ قَبْلَها؛ لأنَّ ﴿آتُوهُنَّ﴾

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠، ٢٧٧، ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

بمَعْنى انحِلوهُنَّ، وذلِك نحو: قَعَدْتُ جُلوسًا. ويجوز أن تَكون ﴿نِحۡلَةٗ﴾ مَصدرًا واقعًا موقعَ الحالِ مِن واو الجماعةِ في قوله: ﴿وَءَاتُواْ﴾، أي: وآتوهنَّ ناحِلينَ، أو مِن ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: مَنحولاتٍ. وقيل غير ذلك(١).

﴿نَفۡسٗا﴾: منصوبٌ على التَّمييز، وهو هنا منقولٌ من الفاعِل؛ إذ الأصلُ: فإنْ طابتْ أنفسُهن، وجِيء بالتَّمييز هنا مُفردًا، وإنْ كان قبْله ﴿طِبۡنَ﴾ وهو جمْعٌ -حيث لم يقُل (أنفسًا)-؛ لعدمِ اللَّبْس؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ الكلَّ لَسْنَ مُشتركاتٍ في نفْسٍ واحدة، فالمعنى مفهوم، وحسُن المجيءُ بالتَّمييزِ مُفردًا؛ لأنَّ ﴿نَفۡسٗا﴾ هنا في مَعْنى الجِنس، فتَعُمُّ المفردَ والجَمْعَ(٢).

٢- **قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾**

﴿أَن يَكۡبَرُواْ﴾: مصدرٌ مؤوَّل بالصَّريح، أي: (كِبَرهم)، وإعرابُه فيه وجهان؛ الأوَّل: أنَّه مفعولٌ بالمَصْدَر ﴿وَبِدَارًا﴾، أي: وبِدَارًا كِبَرهم، كقوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ... يَتِيمٗا﴾ [البلد: ١٤-١٥]. والثاني: أنَّه مفعولٌ من أجْلِه على حذْفِ مضافٍ، أي: مَخافةَ أنْ يَكبَروا، وعلى هذا فمفعول ﴿بِدَارًا﴾، محذوفٌ(٣).

المَعنَى الإجمالي:

يأمُر اللهُ سبحانه وتعالى الأوصياءَ بإعطاء اليتامَى أموالهم، مُتْبِعًا ذلك الأمرَ بنهْيِهم عن استبدالِ الخبيثِ من المال بالطيِّب منه، وذلك حين يأخذونَ من مال

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٨٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٧١).
(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٧٣).
(٣) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٨٥- ٥٨٦).

الأيتامِ، ويتركونَ ما أحلَّه الله لهم مِن غَيره، أو أن يجعلوا رَديءَ المالِ لهم بدلَ الجيِّد، كما نهاهم عن ضمِّ أموالِ الأيتامِ إلى أموالهم بقَصْدِ أكلِها بالباطل؛ فإنَّه إثمٌ عظيم.

ثم يُرشِد اللهُ سبحانه وتعالى مَن يخافون ألَّا يعدِلوا- في حال تزوَّجوا بنساءٍ يتامى ممَّن تحت ولايتهم- أو أنْ يُقصِّروا في حقوقهن، يوصيهم أن يَدَعُوهنَّ ويتزوَّجوا غيرهنَّ ممَّن ترتضي نفوسهم، اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فإنْ خافوا ألَّا يُقيموا العدلَ في حالة عدَّدوا النساء، فليقتصروا على الزواج بزوجةٍ واحدة، أو الاكتفاء بما يملكون من الجواري؛ فإنَّ ذلك أقربُ إلى ألَّا يَظلموا.

ثم يأمُر الله تعالى مَن أراد الزواجَ بإعطاء النِّساءِ المرادِ الزواجُ منهن مهورَهنَّ عطيَّةً واجبةً، طيِّبة بها نفوسُهم، فإنْ طابت نفوسُ النِّساء عن بعضِ المهر أو كلِّه، فوهبْنَه لأزواجهنَّ، فلا حرَجَ عليهم من أخْذه.

ثم يَنهى اللهُ الناسَ أن يُعطوا أموالَهم التي يقوم بها عيشُهم، مَن لا يُحسِن التصرُّفَ فيها، كذلك نهاهم أن يُعطوا مَن لا يحسنون التصرُّفَ في أموالِهم التي يملكونها، إنْ كانوا أوصياءَ عليهم، ولكن عليهم أن يُنفِقوا عليهم منها فيما يحتاجونه في حياتِهم؛ من طعام وشراب، وملبس ومسكن، وأن يقولوا لهم قولًا طيِّبًا تطيبُ به نفوسُهم.

ثم يأمُر تعالى الأوصياءَ أن يختبِروا الأيتامَ في دِينهم، وعقولِهم وتصرُّفِهم، قبل بلوغهم، فإذا ما بلغوا الحُلُمَ، ورأَوْا فيهم حُسْنَ التصرُّف، والقُدرة على إصلاح المالِ، فلْيعُطوهم أموالَهم، ونهاهم سبحانه عن أنْ يأخذوا مِن أموالِ اليَتامى شيئًا مِن غيرِ حاجةٍ، أو أنْ يُبادِروا بأكْلِها في حال صِغَرِهم؛ قبل أنْ يَكبَروا فيأخُذوا أموالَهم ويمنعوهم منها، وأمَرَ الله تعالى مَن كان غنيًّا أن يتركَ للأيتام

أموالَهم، ويكتفيَ بما رزقه الله، ومَن كان منهم ذَا حاجةٍ فليأخُذْ ما تعارَفَ عليه الناسُ أنه يسدُّ حاجةَ أمثالِه من الفقراء، وأَرشدَهم اللهُ أن يُشهِدوا على الأيتامِ حين يُسلِّمونَهم أموالَهم، وكفَى باللهِ شهيدًا ومُحاسِبًا، ورقيبًا عليهم.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

مناسبةُ عطفِ الأمْر على ما قَبلَه: أنَّه مِن فروعِ تقوى اللهِ في حقوقِ الأرحام؛ لأنَّ المتصرِّفين في أموال اليتامى في غالبِ الأحوالِ هم أهلُ قَرابتهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا افتتَح السُّورةَ بذِكر ما يدلُّ على أنه يجبُ على العبدِ أن يكون منقادًا لتكاليفِ الله سبحانه، محترزًا عن مساخِطِه، شرَعَ بعد ذلك في شَرْح أقسامِ التكاليفِ، فبدأ بما يتعلَّق بأموال اليتامى[(٢)]؛ لأنَّهم صاروا بحيث لا كافِلَ لهم، ففارق حالُهم حالَ مَن له رحِمٌ ماسَّة[(٣)].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

أي: أعطُوا- يا مَعشرَ أوصياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم كاملةً، إذا بلغوا الحُلُمَ ورَشَدُوا[(٤)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠).

إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾.

أي: لا تأخذوا مالَ اليتيمِ بغيرِ حقٍّ، وتَتركُوا ما أحلَّ اللهُ تعالى لكُم مِن غيرِ ذلك، ومِن استبدالِ الخبيثِ بالطيِّبِ أنْ يأخُذَ الوليُّ مِن مالِ اليتيمِ النَّفيسَ، ويجعل بدلَه من مالِه الخسيسَ(١).

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾.

أي: لا تضُمُّوا أموالَ اليتامَى إلى أموالِكم؛ بقصد أن تأكلوا أموالَهم بالباطلِ(٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾.

أي: إنَّ ضمَّ أموالِ اليتامى إلى أموالكم بقَصْد أكلِها بالباطل، إثمٌ عظيم(٣).

كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾.

سببُ النُّزولِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠-٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٢٠).

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ رجلًا كانت له يتيمةٌ فنكَحَها، وكان له عَذْق[١]، وكان يُمسكها عليه، ولم يكُن لها من نفْسِه شيءٌ، فنزلت فيه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾- أحسَبه قال: كانتْ شريكتَه في ذلِك العَذْق وفي مالِه[٢].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾.

أي: وإنْ خِفتُم ألَّا تعدلوا في يتامى النِّساء اللاتي تحتَ ولايتِكم؛ بعدم إعطائِهنَّ مهورَ مثلِهنَّ، أو عدمِ القيامِ بحقوقهنَّ[٣].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا...﴾ الآية. قالت: أُنزلتْ هذه في الرَّجُل يكونُ له اليتيمةُ، وهو وليُّها ووارِثُها، ولها مالٌ، وليس لها أحدٌ يُخاصِمُ دونها، فلا يَنكحُها حبًّا لمالها، ويَضْرِبها ويُسيءُ صُحبتَها، فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يقول: ما أحللتُ لكم، ودَعْ هذه التي تضرُّ بها[٤].

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

أي: فإنْ خَشِيتُم عدَم إقامة العدل معهنَّ، فانكحوا غيرهنَّ ممَّن تطيبُ بهنَّ

(١) العَذْق- هُنا بفَتْح العين المُهمَلة-: وهو النَّخلة بكَمالِها. وأمَّا العِذْق- بكسر العين المهملة- فهو الغُصنُ (العُرجُون بما فيه من الشَّماريخ) من النَّخلة، وليس مرادًا هنا. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٣٣) و(١٨/ ١٥٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٩).

(٢) رواه البخاري (٤٥٧٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٨) بنحوه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦).

قال القرطبيُّ: (اتَّفق كلُّ مَن يعاني العلوم على أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ ليس له مفهوم؛ إذ قد أجمع المسلمون على أنَّ من لم يخف القسط في اليتامى له أن ينكِحَ أكثرَ من واحدة: اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا كمَن خاف. فدلَّ على أنَّ الآية نزلت جوابًا لمن خاف ذلك، وأنَّ حُكمها أعمُّ من ذلك) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٣).

(٤) رواه البخاري (٤٥٧٣) بنحوه، ومسلم (٣٠١٨) واللفظ له.

نفوسكم[١].

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

أي: مُباحٌ لكم أن تتزوَّجوا باثنتين من النِّساء، أو بثلاث، أو بأربعٍ[٢].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾.

أي: فإنْ خَشِيتُم عدمَ إقامَةِ العَدلِ بتَعدادِ النِّساء، فلْتَقْتصروا على التزوُّج بواحدةٍ فحسبُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧-٢٨).

قال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ لا خلافَ أنَّ المراد به العَقْد) ((أحكام القرآن)) (٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨-٢٩).

وكلُّ واحد من هذه الأعدادِ يدلُّ على المكرَّر من نوعِه، وعلَّة التكرار هنا (أنَّ الخطاب لجماعةٍ؛ فيجوز لكلِّ واحد منهم أن ينكحَ ما أراد من تِلك الأعداد، فتكرَّرت الأعدادُ بتَكرار الناس، والمعنى: انكِحوا اثنتينِ أو ثلاثًا أو أربعًا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٧٨).

قال القرطبيُّ: (اعلم أنَّ هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدلُّ على إباحة تسع، كما قال من بعُد فَهمُه للكتاب والسُّنة، وأعرض عمَّا كان عليه سلفُ هذه الأمَّة، وزعم أنَّ الواو جامعة، وعضَّد ذلك بأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم نكَح تِسعًا، وجمع بينهن في عِصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال هذه المقالة الرافضةُ وبعضُ أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع. وذهب بعضُ أهل الظاهر أيضًا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمْع بين ثمان عشرة، تمسُّكًا منه بأنَّ العدل في تِلك الصِّيغ يُفيد التَّكرار، والواو للجمع، فجعل مثنى بمعنى اثنين اثنين، وكذلك ثلاث ورُباع. وهذا كلُّه جهل باللِّسان والسُّنَّة، ومخالفة لإجماع الأمَّة؛ إذ لم يُسمعْ عن أحد من الصَّحابة ولا التابعين أنَّه جمَع في عِصمته أكثرَ من أربع) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧).

وقال محمد رشيد رضا: (آية: ﴿فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ لم تُنسَخ بالإجماع، فإذًا يلزمُ العملُ بمدلولها ما دام الكتاب) ((تفسير المنار)) (٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن

﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾.

أي: أو اقتصِروا على الجواري السَّراري؛ فإنَّه لا يجب عليكم القَسْمُ بينهنَّ[1].

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

أي: الاقتصارُ على واحدةٍ، أو ملكِ اليمينِ، أقربُ إلى تحقيقِ العَدلِ، والبُعدِ عن الجَور والظُّلْم[2].

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠).

شرَع الله تعالى تعدُّدَ النساء للقادرِ العادلِ لمصالح جَمَّة:

- منها: أنَّ في ذلك وسيلةً إلى تكثير عدد الأمَّة بازدياد المواليد فيها.

- ومنها: أنَّ ذلك يُعين على كفالة النِّساءِ اللائي هنَّ أكثرُ من الرِّجال في كلِّ أمَّة؛ وذلك لأنَّ الأنوثةَ في المواليد أكثرُ من الذكورة، ولأنَّ الرِّجال يَعرِض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشَّدائد ما لا يعرِض للنِّساء، ولأنَّ النساء أطولُ أعمارًا من الرِّجال غالبًا.

- ومنها: أنَّ الشريعة قد حرَّمت الزِّنا، وضيَّقت في تحريمه؛ لِمَا يجرُّ إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونِظام العائلات، فناسَب أن تُوسِّع على الناس في تعدُّدِ النساء لِمَن كان من الرجال ميَّالًا للتعدُّد، مجبولًا عليه.

- ومنها: قصدُ الابتعاد عن الطَّلاق إلَّا لضَرورة. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

قال الواحديُّ: (ومعنى ﴿تَعُولُواْ﴾: تَميلُوا وتَجورُوا، عن جميعِ المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٩).

وما حكاه الواحدي إجماعًا هو في الواقعِ قولُ الجمهور؛ لأنَّ الخلافَ في ذلك واقعٌ بين السَّلف. يُنظر: ((الإجماع في التفسير)) للخضيري (ص: ٢٥٣-٢٥٤).

لَمَّا كان هناك جانَبانِ مُستضعَفانِ في الجاهليَّة: اليتيمُ، والمرأة، وحقَّانِ مغبونًا فيهما أصحابُهما: مالُ الأيتام، ومالُ النِّساء؛ فلذلك حرَسَهما القرآنُ أشدَّ الحراسةِ، فابتدأ بالوصايةِ بحقِّ مالِ اليتيم، وثنَّى بالوصاية بحقِّ المرأةِ في مال ينجرُّ إليها لا محالةَ، وكان توسُّطُ حُكم النِّكاح بين الوصايتين أحسنَ مناسبةٍ تهيِّئ لعطف هذا الكلام[١].

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

أي: وأعطُوا من أَرَدْتم الزواجَ بهنَّ من النساء مهورَهنَّ، عطيةً واجبةً، طيبةً بها نفوسُكم[٢].

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾.

أي: فإنْ وهَب لكم نساؤُكم- أيُّها الأزواج- مُهورَهنَّ أو بعضًا منها، عن رِضًا وطيبِ نفْس منهنَّ بذلك[٣].

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾.

أي: فخذوه حلالًا طيِّبًا لكم، لا حرجَ عليكم في ذلك، ولا تَبِعة[٤].

﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ٥﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥).

وقيل: الخطابُ لأولياءِ المرأة أيضًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

عُطِفتْ هذه الآيةُ على قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾؛ لبيانِ الحالِ التي يُمنَع فيها السَّفيهُ من مالِه، والحال التي يُؤتَى فيها مالَه، كأنَّه تعالى يقول: إنِّي وإنْ كنتُ أمرتُكم بإيتاءِ اليتامى أموالَهم، وبدَفْع صدقاتِ النِّساء إليهنَّ، فإنَّما قلت ذلك إذا كانوا عاقِلين بالغِين، متمكِّنين من حِفظِ أموالهم، فأمَّا إذا كانوا غيرَ بالغين، أو غير عقلاء، أو إنْ كانوا بالغين عقلاءَ إلَّا أنهم كانوا سفهاءَ مُسرِفين، فلا تدفعوا إليهم أموالهم، وأمسكوها لأجْلهم إلى أن يزولَ عنهم السَّفَهُ[١].

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾.

أي: لا تُعطوا- أيُّها الناس- أموالَكم التي جعَلَها الله لكم قِيامًا- يقوم بها عيشُكم، وتحقيق مصالحكم- لا تعطوها لِمَن لا يُحسِن التصرُّفَ في المال، والقيام عليه وحِفظه؛ إمَّا لعدم عقْله كالمجنون، أو لعدم رُشده كالصَّغير، أو لغير ذلك من أسباب، حتَّى لو كان هذا المالُ مالَهم على الحقيقةِ، وأنتُم عليه أوصياءُ، فلا تُعطوهم إيَّاه طالَما كانوا سفهاءَ لا يُحسنون التصرُّفَ فيه؛ كي لا يَهلِك، وليكُنْ حرصُكم على أموالهم كحِرصِكم على أموالِكم[٢].

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾.

أي: ولكنْ أنفِقوا من تلك الأموالِ على طعامِهم وشَرابِهم ومَلابِسهم، وما يتعلَّق بضروراتِ عَيشِهم؛ كمَسكنِهم، وليتكم تتَّجِرون لهم في مالِهم؛ كي ينموَ ويكونَ الإنفاقُ عليهم من الرِّبح، لا مِن أصلِ المالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٣٩٤-٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨-٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أي: وقولوا لهم قولًا طيِّبًا، كأنْ تَعِدُوهم إنْ طلبوا أموالَهم، بأنَّها ستُدفَع إليهم بعدَ رُشدهم(١)، أو حينَ إعطائِكم لهم رزقًا أو كسوةً ونحو ذلك، قولوا لهم قولاً هيِّنًا وليِّنًا، بغير منٍّ ولا أذًى(٢).

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: واختبِروا عقولَ الأيتامِ ممَّن تحت ولايتِكم، وذلك قُبيلَ وصولِهم سِنَّ البلوغ، واختبِروا أفهامَهم، وصلاحَ دِينهم، وقُدرتَهم على إصلاحِ أموالهم(٣).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾

أي: اختبِروهم إلى أن يَصِلوا سِنَّ البلوغِ، فإذا بلغوا الحُلُمَ، وأدركتم منهم حُسنَ تصرُّفٍ، وقدرةً على إصلاح الأموال(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾

سورة النساء)) (١/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩-٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٤-٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢-٤٣).
قال الماوردي: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ يعني الحُلُم في قول الجميع) ((تفسير الماوردي)) (١/ ٤٥٣).

[الأنعام: ١٥٢].

﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾.

أي: فأعطوهم في هذه الحالِ أموالَهم كاملةً، ولا تَحبِسوها عنهم(١).

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾.

أي: ولا تَأخُذوا من أموالِ اليَتامى شيئًا من غيرِ حاجةٍ، فتتجاوزوا في ذلك إلى غيرِ ما أباحَه اللهُ تعالى لكم مِن أموالِهم(٢).

﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾.

أي: لا تأكلوها في حالِ صغرِهم استعجالًا منكم قبل بلوغِهم، وإيناسِ الرُّشدِ منهم، فيأخذوها منكم، ويمنعوكم منها(٣).

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾.

أي: ومَن كان مِن أولياء اليتامى في غنيةٍ عن أموالِهم، لا يحتاجُ إليها، فليكفَّ عن أكلِها- الذي أُبيح له منها- وليستعففْ بمالِه(٤).

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: ومَن كان ذا حاجةٍ من أولياء اليَتامى، أخَذَ من أموالهم بحسَب ما جرَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣-٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣-٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤١).

العُرْف على أنَّه يَسدُّ حاجتَه، ويَكفي مِثلَه من الفُقراء[١].

عن عبد الله بن عمرٍو رضِي اللهُ عنهما ((أنَّ رجلًا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنِّي فقيرٌ ليس لي شيءٌ، ولي يتيمٌ؟ قال: فقال: كُلْ من مالِ يتيمِك غيرَ مُسرفٍ، ولا مبادرٍ، ولا مُتَأثِّل[٢]))[٣].

(١) وهذا اختيارُ ابن عاشور في ((تفسيره)) (٤/ ٢٤٥)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٤٤).

قال ابنُ عاشور: (وهو تخصيصٌ لعموم النَّهي عن أكْل أموال اليتامى في الآيتين السابقتين؛ للترخيصِ في ضَربٍ من ضروب الأكل، وهو أنْ يأكل الوصيُّ الفقيرُ من مال محجوره بالمعروف، وهو راجعٌ إلى إنفاق بعض مال اليتيم في مصلحتِه؛ لأنه إذا لم يُعطَ وصيُّه الفقير بالمعروف ألْهاه التدبيرُ لقُوتِه عن تدبيرِ مال محجوره، وفي لفظ ﴿المَعْرُوف﴾، حوالةٌ على ما يناسب حالَ الوصي ويتيمه بحسَب الأزمان والأماكن) ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٤٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: فليأكلْ أكلًا بالمعروف، أي: بما جرَى به العُرف، فلا يأكُل أكْلَ الأغنياء، وإنما يأكُل أكْلَ مثله) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤).

وقال أيضًا: (وظاهرُ الآية أنه يأكل بالمعروف ولو زادَ على قدْر الأجرة...؛ لأنَّ الوليَّ محبوسٌ على التصرُّف لليتيم؛ فلا بدَّ له مِن مَأْكلٍ ومَشربٍ، فليأكل بالمعروف، وأيضًا فإنَّ هذا الوليَّ ليس كالأجير الأجنبي في مراعاة مال اليتيم؛ فلا ينبغي أن نلحقَه بالأجيرِ الأجنبي، لكن المعروف عند الفقهاء أنه يأخُذُ الأقلَّ من أجرته أو كفايته) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦).

واختار ابنُ جرير أنَّ المعنى: أكْل مال اليتيم عندَ الضرورةِ والحاجة إليه على وجهِ الاستقراض منه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٦).

ولكن قال القرطبيُّ: (رُوي عن إبراهيمَ وعطاءٍ والحسنِ البصري والنخعي وقتادةَ: لا قضاءَ على الوصيِّ الفقير فيما يأكل بالمعروف؛ لأنَّ ذلك حقُّ النظر، وعليه الفقهاء؛ قال الحسن: هو طُعمةٌ من الله له؛ وذلك أنه يأكل ما يسدُّ جوعته، ويَكتسي ما يسترُ عورته، ولا يلبس الرفيعَ مِن الكَتَّان ولا الحُلل، والدليل على صِحَّة هذا القول إجماعُ الأمَّة على أنَّ الإمام الناظر للمسلمين لا يجبُ عليه غرمُ ما أكل بالمعروف؛ لأنَّ الله تعالى قد فرَضَ سهمَه في مال الله؛ فلا حُجَّة لهم في قول عمر: فإذا أيسرتُ قضيتُ- أنْ لو صحَّ) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤٢).

(٢) غير متأثِّل: أي: غير جامع؛ يقال: مال مُؤثَّل، ومجد مؤثَّل، أي: مجموع ذو أصل، وأثَلَةُ الشيء أصلُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ٨٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٣).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٢)، والنسائي (٣٦٦٨)، وابن ماجه (٢٧١٨)، وأحمد (٧٠٢٢).

وعن عُروةَ بن الزُّبَيرِ رضِي اللهُ عنه، أنَّه سمِع عائشة رضِي اللهُ عنها تقول: ((﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أُنزِلَت في والي اليتيم الذي يُقيم عليه، ويُصلح في مالِه إنْ كان فقيرًا، أكَل منه بالمعروف))[١].

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾.

أي: فإذا سلَّمتُم -يا معشرَ أولياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم، فأَشْهِدوا عليهم بقبضها كاملةً منكم؛ لئلَّا يقعَ منهم لاحقًا إنكارٌ لِمَا تَسلَّموه[٢].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

أي: وكفَى باللهِ محاسبًا وشهيدًا ورقيبًا على والي اليتيمِ في حالِ نظرِه لليتيمِ، وحالِ دفعِه الأموالَ إليه[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- عِظَم أمْرِ اليَتامَى؛ يُبيِّنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[٤].

٢- يجبُ على الإنسانِ الاحتياطُ إذا خاف الوقوعَ في المحرَّم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: ولا تُعرِّضوا

قال ابن حجر في ((العجاب)) (٢/ ٨٣٣): رِجاله إلى عمرِو بن شعيب رجالُ الصَّحيح. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/ ١٩٢)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٨٧٢): حسن صحيح.

(١) رواه البخاري (٢٢١٢) واللفظ له، ومسلم (٣٠١٩) بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٨-٤٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤-٤٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ١٠٨).

أنفسكم للجَور؛ فالعافيةَ من خيرِ ما أُعطِيَ العبدُ[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أنَّه سُبحانه دلَّهم على ما يتخلَّصونَ به مِن ظُلْم اليَتامى، وهو نكاحُ ما طابَ لهم من النِّساءِ البَوالِغِ، وأباح لهم منه، ثم دَلَّهُم على ما يتخلَّصونَ به من الجَوْر والظُّلْم في عَدَمِ التَّسويَة بينهُنَّ، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ثُمَّ أخبر سبحانه أنَّ الواحدةَ ومِلْكَ اليمينِ أدنى إلى عَدَمِ المَيل والجَوْر، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾[٢]؛ فالله عزَّ وجلَّ إذا سدَّ بابَ حرامٍ، فتَح أبواب الحلال، وهذا من طريقة القرآن والسُّنة[٣].

٤- تحريمُ الوسائلِ المؤدِّية إلى المحرَّم؛ لقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، فأوجب الاقتصارَ على الواحدة إذا خافَ الإنسانُ عدمَ العدل، وهذه قاعدةٌ عظيمةٌ في أصول الفقه: (أنَّ للوسائِل أحكامَ المقاصِدِ)؛ فما لا يتمُّ الواجب إلَّا به، فهو واجبٌ، وما لا يتمُّ المندوبُ إلا به، فهو مندوبٌ، وما يحصُل به المحرَّم، فهو حرام[٤].

٥- مَن ولَّاه الله على أحدٍ فعليه ألَّا يُغلِظَ له القولَ، بل يقول له القولَ المعروفَ؛ حتى يجمعَ بين الإحسانِ القوليِّ والفِعليِّ؛ قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١).
(٢) ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قدَّم الله تعالى ذِكر الأمْر بالتقوى، وكون الخَلْق بأسْرِهم مخلوقين من نفْس واحدة، وذَكر عَقيبه الأمرَ بالإحسان إلى اليَتامى والنساءِ والضُّعفاءِ؛ قيل: ليَصيرَ ذلك سببًا لزيادة شفقةِ الخَلقِ بعضِهم على بعضٍ(١).

٢- أنَّ اليتيمَ يملك، وملكُه تامٌّ؛ لقولِه تعالى: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ويتفرَّع على هذه الفائدة: أنَّ الزكاة واجبةٌ عليه؛ لأنَّ الزكاة تبَع للمِلْك؛ قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، فإذا ثبتَتِ الملكيَّةُ ثبَت وجوبُ الزكاة، والزكاة ليستْ تكليفًا محضًا، بل هي تكليفٌ لحقِّ الغير، وهم الفقراء، فهي شبيهةٌ بالدَّين؛ ولهذا وجبتْ في أموالِ اليتامى والمجَانينِ، وإنْ كانوا غيرَ مكلَّفينَ(٢).

٣- أنَّ اليتيمَ تَجِب النفقةُ في مالِه على مَن تجِبُ عليه نفقتُه، فالنفقةُ واجبةٌ على كلِّ غنيٍّ لكلِّ فقير، والبلوغ ليس بشَرْط؛ لأنَّ الله تعالى أثبت الماليَّةَ لليتامى في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، وإذا ثبتت المالية؛ ترتَّب عليها ما يترتَّب على ذوي الأموال(٣).

٤- ليس قيد ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ محطَّ النهيِ، بل النهيُ واقعٌ على أكْلِ أموالهم مطلقًا، سواءٌ كان للآكِلِ مالٌ يَضمُّ إليه مالَ يتيمِه أم لم يكُنْ، ولكن لَمَّا كان الغالبُ وجودَ أموالٍ للأوصياءِ، وأنَّهم يريدون مِن أكْلِ أموالِ اليتامى التكثُّرَ، ذكَر هذا القيد؛ رعيًا للغالب(٤)، ولأنَّ بعضَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٢١).

الأولياءِ يتستَّرُ، فيُدخِلُ مالَ اليتيمِ في مالِه، ولا يَعلمُ به أحدٌ[(١)].

٥- في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أنَّ اليَمينَ أفضلُ من اليَسارِ؛ لأنَّه أضافَ المِلْكَ إليها، ولا شكَّ أنَّ اليمينَ أفضلُ من اليَسار؛ ولهذا تُعدُّ اليمينُ للإكرامِ، واليَسارُ للإهانةِ؛ فالشيءُ الطيِّب يُتناوَلُ باليمينِ، والشيءُ الخبيثُ يُزال باليَسارِ[(٢)].

٦- تفاضُل الأعمال؛ فبعضُها أعلى من بعضٍ في الحُسْن، وأَدْنى من بعضٍ في السُّوء؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾؛ لأنَّ الأدْنى اسمُ تفضيلٍ؛ فلا بدَّ أن يكونَ هناك فاضلٌ ومفضولٌ[(٣)].

٧- أنَّه لا يجوزُ للوليِّ أن يأخذ شيئًا من صَداق النِّساء؛ لأنَّه أضاف الصَّداقَ إليهن؛ فهو مِلْكُهن، ولأنَّا أُمِرْنا بإيتائهنَّ صداقَهنَّ قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾[(٤)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أنَّه يجِبُ إعطاؤهن الصَّداقَ على وَجْه النِّحلة؛ أي: العطيَّة التامَّة، فلا يكون فيه مِنَّةٌ في المستقبلِ[(٥)].

٩- العقودُ تصحُّ بكلِّ ما دلَّ على مَقْصودِها مِن قولٍ أو فِعلٍ؛ يدلُّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾، فلم يشترطْ لفظًا مُعَيَّنًا، ولا فِعلًا معَيَّنًا يدلُّ على التَّراضي وعلى طِيبِ النَّفْسِ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٣-١٥).

١٠- قولُه تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ حِفظَ العِلْمِ مِمَّن يُفْسِدُه ويضرُّه أولى، وليس الظُّلْمُ في إعطاءِ غَيْرِ المستحِقِّ بأَقَلَّ مِن الظُّلْم في مَنْعِ المستحِقِّ(١).

١١- في إضافتِه تعالى الأموالَ إلى الأولياءِ في قولِه سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ عليهم أنْ يَعمَلوا في أموالِ السُّفهاءِ ما يَفعلونَه في أموالهم؛ من الحِفْظ والتصرُّف، وعدم التعريضِ للأخطارِ(٢).

١٢- في التعبير بـ (فيها) دون (منها) في قوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ تنبيهٌ إلى ما يَنبغي من الاتِّجارِ في مالِ اليتيم؛ قصدًا إلى إنمائِه؛ كي لا يَنفدَ بالإنفاقِ والزَّكَاة(٣).

١٣- في إضافةِ الأموالِ إلى ضَمير المخاطَبينَ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ -في أوَّل السورة- إشارةٌ بديعةٌ إلى أنَّ المالَ الرائج بين الناس هو حقٌّ لمالكيه المختصِّين به في ظاهر الأمْرِ، ولكنَّه عند التأمُّل تَلُوح فيه حقوقُ الأمَّة جمعاءَ؛ لأنَّ في حصوله منفعةً للأمَّة كلِّها؛ لأنَّ ما في أيدي بعضِ أفرادِها من الثروةِ يعودُ إلى الجميع بالصَّالحة، فمِن تلك الأموالِ يُنفِق أربابُها، ويستأجِرون ويشترون، ويَتصدَّقون، ثم تُورَثُ عنهم إذا ماتوا، فينتقل المالُ بذلك مِن يدٍ إلى غيرها، فينتفع العاجزُ والعاملُ والتاجِر، والفقيرُ وذُو الكَفافِ، ومتى قلَّتِ الأموالُ من أيدي الناس، تقارَبوا في الحاجةِ والخَصاصة، فأصبحوا في ضَنْكٍ وبؤس، واحتاجوا إلى قبيلةٍ أو أمَّةٍ أخرى، وذلك من أسبابِ ابتزازِ عِزِّهم، وامتلاكِ بلادِهم، وتصييرِ منافِعِهم لخِدمة غيرهم؛ فلأجْل هاتِه الحِكمة أضافَ اللهُ تعالى

(١) يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (١/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٤).
(٣) ينظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥١٧- ٥١٨).

الأموالَ إلى جميعِ المخاطبين(١).

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ العملُ بالتَّجرِبة؛ لأنَّ الابتلاء يعني: الاختبارَ عِدَّةَ تجارِب(٢).

١٥- الصَّغيرُ المميِّزُ يصِحُّ لَفْظُه مع إذْنِ وَلِيِّه، كما يصِحُّ إحرامُه بالحَجِّ بإِذْنِ الوَلِيِّ، وكما يصِحُّ تصرُّفُه في البيع وغيرِه بإذْنِ وَلِيِّه عند أكثَرِ العُلماءِ، كما دل على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ الآية، فأمَرَ بالابتلاءِ قَبْلَ البُلوغِ؛ وذلك قد لا يأتي إلَّا بالبيعِ(٣).

١٦- قَوْلُه تَعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ استدَلَّ به مَن يرى جوازَ الاستئجارِ على تعليمِ القُرآنِ والحديثِ والفِقْه والإمامَةِ والأذانِ، وغيرِها ممَّا يختصُّ أن يكون فاعِلُها مِن أهْلِ القُرَب، مع الحاجَةِ؛ دون الغِنَى(٤).

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ إنَّما قال: ﴿حَسِيبٗا﴾ ولم يَقُلْ: (شهيدًا) مع مناسبته؛ تهديدًا للأوصياءِ لِئَلَّا يكتموا شيئًا من مالِ اليتامى، فإذا عَلِموا أنَّ اللهَ يُحاسِبُهم على النَّقير والقِطْمير، ويعاقِبُهم عليه، انزَجَروا عن الكتمانِ. والله تعالى أعلم(٥).

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله:** ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾: هذا شروعٌ في تَفصيلِ مواردِ الاتِّقاءِ ومظانِّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢٠٥- ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((البحر المديد)) لابن عجيبة (١/ ٤٦٦).

بتكليفِ ما يُقابلها أمرًا ونهيًا؛ وتقديمُ ما يَتعلَّق باليتامى؛ لإظهارِ كمال العنايةِ بأمرهم، ولملابستِهم بالأرحام؛ إذ الخطابُ للأولياءِ والأوصياء، وقلَّما تُفوَّضُ الوصايةُ إلى الأجانب[١]، وعبَّر بالإيتاء؛ للإيذان بأنَّه ينبغي أن يكونَ مرادُهم بذلك إيصالَها إليهم، لا مجرَّدَ ترْكِ التعرُّضِ لها[٢].

- وقوله: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾: فيه تسميةُ الشيء باسم ما كان عليه، حيث سمَّاهم يتامى بعدَ البُلوغِ[٣].

٢- **قوله**: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾: فيه تَكرارٌ؛ حيث نهى عن أخْذ مال اليتيمِ على الوجه المخصوصِ بعدَ النهيِ الضِّمنيِّ عن أخْذه على الإطلاق[٤]، وفي هذا تأكيدٌ على النهيِ.

٣- **قوله**: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾: عبَّر عن أخْذِ أموالِ اليتامى بقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾ من بابِ إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السَّببِ وشِبهه؛ لأنَّ الأخْذ سببٌ للأكْلِ[٥].

- ونهَى عن أكْلِ مالِ اليَتامَى مع أموال المنهيِّين عنها، فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾، مع أنَّه حرَّم عليهم أكْلَ مالِ اليتامَى وحْدَه ومع أموالِهم؛ لأنَّهم إذا كانوا مُستغنِينَ عن أموالِ اليَتامَى بما رزَقهم اللَّهُ من مالٍ حلالٍ، وهم على ذلِك يَطمَعون فيها- كان القبحُ أبلغَ، والذمُّ أحقَّ؛ ولأنَّهم كانوا يَفْعلون كذلك، فنَعَى عليهم فِعلَهم وسمَّعَ بهم؛ ليكونَ أزْجَرَ لهم[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩-١٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٩-١٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٣).

- وفيه مِن أسرارِ البلاغة:

تَخصيصُ الأعْلَى بالنَّهيِ دُونَ الأَدْنى؛ إذ إنَّ أعْلى دَرجاتِ أكْلِ مالِ اليَتيمِ في النَّهيِ أنْ يَأكلَه وهو غنيٌّ عنه، وأدْناها أنْ يأكلَه وهو فقيرٌ إليه- مع أنَّ أهل البيان يقولون: المنهيُّ متى كان درجاتٍ فطَريقُ البَلاغةِ النهيُ عن أدْناها تنبيهًا على الأعْلى- فكان المتبادر أنْ يَنهَى عن أكْل مالِ اليتيمِ مَن هو فقيرٌ إليه؛ حتى يَلزمَ نهيُ الغنيِّ عنه من طريق الأَوْلى، وفائدةُ تخصيصُ الصُّورة العُليا بالنهي في هذه الآية: أنَّ أبلغَ الكلام ما تعدَّدتْ وجوه إفادتِه، والنهي عن الأدْنى وإنْ أفاد النَّهيَ عن الأعْلى إلَّا أنَّ للنَّهي عن الأعْلى أيضًا فائدةً أخرى جليلةً لا تُؤخَذ من النهي عن الأدْنى؛ وذلك أنَّ المنهيَّ كلَّما كان أقبحَ كانتِ النفسُ عنه أنفرَ، والدَّاعية إليه أبْعَد، ولا شكَّ أنَّ المستقرَّ في النُّفوسِ أنَّ أكْلَ مالِ اليتيمِ مع الغِنى عنه أقبحُ صُورِ الأكْل؛ فخُصِّص بالنهي تشنيعًا على مَن يقَعُ فيه، حتى إذا استحكَم نفورُه مِن أكْل مالِه على هذه الصورة الشَّنعاء، دعاه ذلك إلى الإحجامِ عن أكْل ماله مطلقًا؛ ففيه تدريبٌ للمخاطَب على النُّفورِ مِن المحارِم، ولا تكادُ هذه الفائدةُ تحصُل لو خُصِّص النَّهيُ بأكْلِه مع الفقر؛ إذ ليستِ الطِّباعُ في هذه الصُّورة مُعِينةً على الاجتنابِ كإعانتها عليه في الصُّورة الأولى.

ويُحقِّق مراعاةَ هذا المعنى تخصيصُه الأكْلَ، مع أنَّ تناوُلَ مالِ اليتيم على أيِّ وجهٍ كان، منهيٌّ عنه، كان ذلك بالادِّخار، أو بالْتباس، أو ببذله في لذَّة النكاح مثلًا، أو غير ذلك، إلَّا أنَّ حِكمة تخصيص النَّهي بالأكل: أنَّ العرب كانت تتذمَّم بالإكثار من الأكْل، وتَعُدُّ البِطنةَ من البهيميَّة، وتعيب على مَن اتَّخذها ديدنَه، ولا كذلك سائرُ الملاذِّ؛ فإنهم ربَّما يتفاخرون بالإكثار من النِّكاح، ويَعدُّونه من زينةِ الدُّنيا، فلمَّا كان الأكلُ عندهم أقبحَ الملاذِّ خُصَّ النهي به، حتى إذا نفرتِ النَّفسُ منه بمقتضَى طبعِها المألوفِ جرَّها ذلك إلى النُّفور مِن صرفِ مالِ اليتيمِ في

سائرِ الملاذِّ أو غيرِها، أكلًا أو غيره[١].

٤- **قوله:** ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: في وصْف الحوب بالكبير مبالغةٌ في بيان عِظَم ذَنْب الأكْل المذكور، كأنَّه قيل: من كِبار الذُّنوبِ العظيمة لا مِن صِغارها[٢].

٥- **قوله:** ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: عبَّر عن النِّساءِ بـ﴿مَا﴾ التي لغيرِ العاقلِ غالبًا، ولم يقُل: (مَن طاب) كما هو المتبادَر في استعمالِ (مَن)؛ فإنَّها للعاقِل و(ما) لغيرِ العاقل تَغليبًا، والسرُّ في هذا: أنَّ (ما) تأتي لصِفاتِ مَن يَعقِلُ، وقدْ وصفَ الله النِّساءَ بالطيب، فصَحَّ استعمالُ (ما) هنا؛ فعبَّر عن النِّساءِ بـ﴿مَا﴾ ذَهابًا إلى الصِّفةِ، وقيل: لأنَّ الإناثَ مِن العُقلاءِ يَجرينَ مجرَى غيرِ العقلاءِ؛ لنُقصانِ عقْلِهنَّ[٣].

٦- **قوله:** ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾، **وقوله:** ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ تَكرارٌ في المعنى[٤]، وهو يُفيد تأكيدَ الأمْرِ بالعدل.

٧- **قوله:** ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ جاءَ العطفُ بالواو دون (أو)؛ لأنَّ الواو تدلُّ على تجويزِ الجَمْعِ بين أنواعِ القِسمةِ، بخِلافِ (أو)؛ إذ لو قيل: (مثْنى أو ثُلاث

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٥٩). وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٦)، ((البرهان)) للزركشي (٤/ ٣٩٩- ٤٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٥٤-١٥٥).
وهذا على القول المشهورِ بأنَّ (ما) تُغلَّب أو تختصُّ بغير العقلاء، و(مَن) تختصُّ بالعقلاء وربَّما استُعمل كلٌّ منهما في الآخر. وأمَّا على القول بأنَّ (ما) من صِيَغ العموم تقعُ على العاقل وغيرِه وعلى المجموعِ؛ فليس فيه هذا الوجهُ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٦٨٥)؛ حيث رجح أنها للعموم وضعف القول المشهور.

(٤) ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

أو رُباع) لعُلِمَ أنَّه ليس لهم أنْ يَجمَعوا بينها، فيَجْعَلوا بعضَ القسمِ على تَثنيةٍ، وبعضَه على تثليثٍ، وبعضَه على تربيعٍ، أي: لا يجوزُ ذلك إلَّا على أَحدِ هذه الأقسامِ، ولا يجوزُ لهم أنْ يَجمَعوا بين هذِه الأقسامِ، بمعنى: أنَّ بَعضَهم يأتي بالتثنيةِ، والبعضَ الآخَرَ بالتثليثِ والفريقَ الثالث بالتربيع، فلمَّا ذَكَره بحرْف (الواو) أفادَ ذلك أنَّه يجوزُ لكلِّ طائفةٍ أنْ يَختاروا قِسمًا من هذه الأقسام؛ فدلَّت الواو على إطلاقِ أنْ يأخذَ الناكِحون مَن أرادوا نِكاحَها من النساء على طريق الجمْع، إنْ شاؤوا مختلفين في تلك الأعداد، وإنْ شاؤوا متَّفِقين فيها، محظورًا عليهم ما وراء ذلك، ومثاله: قول الرجل للجماعةِ: اقتَسِموا هذا المالَ- وهو ألف- دِرهمين درهمين، وثلاثةً ثلاثة، وأربعةً أربعة، فيجوز لبعضهم أنْ يأخذ درهمين درهمين، ولبعضٍ آخَرينَ أن يأخذوا ثلاثةً ثلاثة، ولطائفةٍ ثالثة أن يأخذوا أربعةً أربعةً[(١)].

- وجاء بصيغة التكرير في ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾- التي تَعني اثنتين اثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا-؛ لأنَّ الخِطابَ للجميع فوجَب التكريرُ؛ ليصيبَ كلُّ ناكحٍ يُريد الجمعَ ما أراد من العدد الذي أُطلق له، كما يُقال للجماعة: اقتَسِموا هذا المال- وهو ألف درهم-: درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ولو أُفْرِد لم يكُن له معنًى[(٢)].

٨- **قوله:** ﴿فَكُلُوهُ﴾: فيه تخصيص الأكْل بالذِّكر؛ لأنَّه معظمُ وجوه التصرُّفات الماليَّة[(٣)].

٩- **قوله:** ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: صِفتان أُقيمتا مقامَ المَصْدَرينِ؛ كأنَّه قيل: هنأ ومرأ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).

وهذه عبارة عن التَّحليل والمبالغة في الإباحة، وإزالة التبعيَّة[١].

- وإتْباعُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ بـ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ ووَصْفه به؛ فيه تأكيدٌ[٢].

١٠- **قوله:** ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾: فيه إضافةُ أموال مَن لا رُشدَ لهم إلى الأولياء- على القولِ بأنَّ هذا النَّهيَ للأولياءِ عن أن يُؤتوا الذين لا رُشدَ لهم أموالهم فيُضيِّعوها-؛ تنزيلًا لاختصاصِها بأصحابِها منزلةَ اختصاصِها بالأولياء، فكأنَّ أموالَهم عينُ أموالِهم؛ لِمَا بينهم وبينهم من الاتِّحاد الجنسي والنِّسبي؛ مبالغةً في حمْلِهم على المحافظةِ عليها[٣].

- **وقيل:** أُضيفتِ الأموالُ للأولياء؛ لأنَّها في تصرُّفِ الأولياء، وتحتَ ولايتهم، وهو الملائمُ للآيات المتقدِّمة والمتأخِّرة[٤].

١١- **قوله:** ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾: فيه تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ على المفعول ﴿رُشۡدٗا﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر[٥].

- وتنكير ﴿رُشۡدٗا﴾ وتنوينه؛ لأنَّ معناه نوعٌ من الرشد، ولا يُنتظَر به تمامُ الرُّشد[٦].

١٢- **قوله:** ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾: (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه[٧]؛ ففي هذه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواعِ البيانِ يُطلَقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٧١)- ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٥).
(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي السعود))

عليه اسمُ (قوَّة اللَّفظ لقوَّة المعنى)؛ وذلك في قوله ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾؛ فإنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه؛ هضمًا لها، وحملًا على النَّزاهة، فالألفاظُ دالَّةٌ على المعاني، فإذا زِيدَ في الألفاظِ أوجبتِ الزِّيادةُ زيادةً في المعاني، وهذا النوعُ لا يُستعمل إلَّا في المبالغة(١).

- ولفظ (الاستعفاف) و(الأكْل بالمعروف) مُشعِرٌ بأنَّ الوليَّ له حقٌّ في مال الصَّبيِّ(٢).

١٣- **وقوله:** ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾: فيه تكرارٌ لقوله: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾(٣). وهو يُفيدُ تأكيدَ الأمْر.

- وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول الصَّريح ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾؛ للاهتمامِ به(٤).

١٤- **قوله:** ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾: الجملة تأكيدٌ للأمر بالدَّفع، وتقريرٌ لها، وتمهيدٌ لِمَا بعدَها(٥).

(٢/ ١٤٦).

لكن قال ابنُ المنير- تعقيبًا على قول الزمخشريِّ: إنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من نفْسِه-: (في هذا إشارةٌ إلى أنَّه من استفعَل بمعنى الطلب، وليس كذلك؛ فإنَّ استفعل الطلبيَّة متعدية وهذه قاصرة. والظاهر أنه ممَّا جاء فيه فَعَل واستفعل بمعنًى، واللَّه أعلم). ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٧٦).

(١) ينظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦١-١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧ - ١٠)

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ
فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿سَدِيدًا﴾: أي: قاصدًا إلى الحَقِّ، مِن السَّداد، وهو: الصَّوابُ والقصدُ في القول، وأصله: الاستقامة[1].

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا تَتسعَّر، أي: تشتعِل وتتَّقِد وترتِفع، والسَّعير اسمٌ من أسماءِ جهنَّمَ[2].

المَعنَى الإجمالي:

يُخبر اللهُ تعالى أنَّ للرِّجالِ والنِّساءِ نصيبًا من التَّرِكة التي يُخلِّفها المورِّثُ، من الوالدين أو الأقربينَ، سواء كان الإرثُ قليلًا أو كثيرًا، نَصيبًا واجبًا معيَّنَ المقدار.

ثم أمر تعالى المؤمنين إذا حضَرَ وقتَ تقسيمِ التركةِ الأقاربُ غيرُ الوارثينَ،

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).
(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

والأيتامُ وذوو الحاجة، أن يُعْطوهم منها، وأن يقولوا لهم قولًا حسَنًا جميلًا؛ تطييبًا لنفوسِهم.

ثم يأمُر اللهُ تعالى الأوصياءَ أن يخشَوْه ويتَّقُوه في أمْر اليتامى، فيفعلوا بهم مِثل ما يحبُّون أن يُفعَل بذريَّتهم الضِّعافِ بعدَ وفاتهم، وقِيل غير ذلك.

ثم يُخبر الله تعالى متوعِّدًا الذين يأكلونَ أموالَ الأيتام بغير حقٍّ، أنَّهم إنما يأكلونَ في بطونهم نارًا يوم القيامة، وسيكون مصيرُهم نارًا مشتعلةً شديدة الحرِّ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

أي: إنَّ الذكورَ والإناث يستوونَ في أصْل الوراثةِ في حُكم الله تعالى؛ فكلٌّ ينالُ من الإرث قِسطًا وحِصَّةً، مما خلَّفَه الميِّت، وإن تفاوتوا بحَسَب ما فرَض الله تعالى لكلٍّ منهم، بما يُدلي به إلى الميِّت من قرابةٍ، أو زوجيَّةٍ، أو وَلاء[(١)].

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ للرِّجال وللنساءِ نصيبًا من التَّرِكة، وربما يُتوهَّم أنَّ النساءَ والولدانَ ليس لهم نصيبٌ إلَّا من المالِ الكثير، أزالَ ذلك بقولِه[(٢)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

أي: للذُّكورِ والإناث نصيبٌ من الإرث، سواء كان قليلًا أو كثيرًا[١].

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّ لكلٍّ من الذكور والإناث نصيبًا في قليلِ الإرثِ وكثيره، بيَّن هنا أنَّ ذلك النَّصيب ليس راجعًا إلى العُرْف والعادة، وليس لهم أن يَتصرَّفوا فيه كما يَشاؤونَ[٢]؛ لذا قال:

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

أي: ذلك النَّصيب لكلٍّ منهم، حصَّةٌ واجبةٌ، معيَّنةُ المقدار[٣].

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى في الآيةِ الأُولى أنَّ النساءَ كالرِّجال في أنَّ لهنَّ حظًّا من الميراث، وعَلِم تعالى أنَّ في الأقاربِ مَن يرث ومَن لا يرث، وأنَّ الذين لا يرِثون إذا حضروا وقتَ القِسمة، فإنْ تُركوا مَحرومينَ بالكليَّة ثقُل ذلك عليهم؛ فلا جرمَ أمَرَ الله تعالى - على سبيل النَّدبِ - أنْ يُدفَعَ إليهم شيءٌ عند القِسمة؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٥٠-٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٠).

حتى يحصُل الأدبُ الجميل، وحُسن العِشرة[(١)]، فقال تعالى:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾.

أي: وإذا حضَر توزيعَ الميراثِ الأقاربُ غيرُ الوارثين، والأيتامُ، والمحتاجون[(٢)].

﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾.

أي: فأعطوهم شيئًا ممَّا تيسَّر من هذه التَّركة؛ برًّا بهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لخواطرهم بما لا يضُرُّكم؛ فإنَّ نفوسَهم متشوِّفةٌ إليه[(٣)].

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالإحسانِ إليهم بالفِعل، أمَرَ بعد ذلك بالإحسانِ إليهم بالقولِ[(٤)]، فقال سبحانه:

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أي: فلْتقولوا لهم قولًا حسنًا جميلًا، تَطِيبُ به نفوسُهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

قال القرطبيُّ: (قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال سعيد بن جُبير: يقال لهم خُذوا، بورِك لكم. وقيل: قولوا مع الرِّزق: وددتُ أنْ لو كان أكثرَ من هذا. وقيل: لا حاجةَ مع الرِّزق إلى عُذر، نعمْ إنْ لم يصرف إليهم شيءٌ، فلا أقلَّ مِن قولٍ جميل، ونوع اعتذارٍ) ((تفسير

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أعادَ الله تعالى الوصيةَ باليتامى مرةً بعدَ أخرى، وختَم بالأمرِ بإلَانةِ القول، وكان للتصويرِ في التأثيرِ في النَّفس ما ليس لغيرِه؛ أعادَ الوصيةَ بهم؛ لضعْفِهم، مصوِّرًا لحالِهم[١]، فقال:

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾.

قيل: المعنى: مَن سمِع مُحتضَرًا، قد ظلَم في وصيَّته أو أضرَّ بسببها بورَثَته، فعليه أن يتَّقيَ اللهَ تعالى، ويأمرَه بالعدلِ فيها، ويُسدِّدَه للصَّوابِ، كما يحبُّ أن يُصنَعَ بورثتِه إذا خَشِي عليهم الضَّيْعةَ[٢].

وقيل: المراد: أنَّ على أولياء اليتامى معاملتَهم في مصالحهم الدِّينيَّة والدنيويَّة، بما يحبُّون أن يُعامَل به ذُرِّيَّتُهم الضِّعافُ من بعدِهم، فلْيتَّقُوا الله تعالى في وِلايتِهم لهم، فكما تحبُّ أن تُعامَل ذرِّيتُك من بعدك، فعامِل الناسَ في ذرِّياتِهم إذا وَلِيتَهُم[٣].

القرطبي)) (٥/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).

وممَّن قال من السَّلف بهذا القول: ابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّي، وسعيد بن جُبَير، والضَّحَّاك، ومجاهد. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٤٦). و((تفسير ابن أبي حاتم)) (٣/ ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢).

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يعودني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إني أترُك مالًا، وإني لم أترُكْ إلَّا ابنةً واحدةً، فأُوصِي بثُلثَي مالي، وأتركُ الثُلثَ؟ فقال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالنِّصفِ، وأترك النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصِي بالثُّلثِ، وأترُك لها الثُّلثينِ؟ قال: الثُّلث، والثلثُ كثيرٌ))[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا طالَ التحذيرُ والزَّجرُ والتهويلُ في شأنِ اليتامى، وكان ذلك ربَّما أوجب النفرةَ من مخالطتهم رأسًا، فتضيع مصالحُهم؛ وصَل بذلك ما بَيَّن أنَّ ذلك خاصٌّ بالظَّالم في سياقٍ موجبٍ لزيادة التحذيرِ، متوعِّدًا على ذلك بـأشدِّ العذابِ[2]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾.

أي: إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى في الدُّنيا بغير حقٍّ، سيُعاقَبون على ذلك بأنْ تَتأجَّجَ في بطونهم نارٌ يومَ القيامةِ[3].

﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾.

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: ابن عبَّاس- في رواية عنه. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥١).

(١) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥-١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥-١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٢).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى عِقابَهم بالنارِ في أجوافِهم، ذكَر بعدَها عِقابَهم بالنارِ في ظاهرِ أجسادِهم[١]، فقال:

﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾.

أي: وسيُحرَقون بنارٍ مشتعلة، متوقِّدة، شديدٍ حرُّها[٢].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((اجتَنِبوا السبعَ الموبقاتِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليتيمِ، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- ما جاءَ به الإسلامُ من الآداب العالية، والأخلاق الفاضلة؛ حيث أمَرنا بأن نُعطيَ هؤلاء الذين حضَروا القِسمة؛ لأنَّ قلوبهم تتعلَّق بالمال، وتتشوَّفُ للنَّوال؛ فلهذا أمَرَ الشرعُ بإعطائهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾[٤]، يؤخَذُ من المعنى أنَّ كلَّ من له تطلُّعٌ وتشوُّفٌ إلى ما حَضَرَ بين يَدَي الإنسان، ينبغي له أن يُعْطِيَه منه ما تيسَّرَ[٥].

٢- أنَّه يَنبغي لمن أعطى أحدًا شيئًا أن يقول له قولًا معروفًا يُطَيِّب قلبَه، ويُبعِدُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٥-٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).
(٣) رواه البخاري (٦٨٥٧) واللفظ له، مسلم (٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٥).

من المنِّ بالعطاء؛ لأنَّ المنَّ بالصَّدقة من كبائر الذنوب، وهو مُبطِلٌ للأجْر؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[1] [البقرة: ٢٦٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴾ أمرٌ للأوصياء بأنْ يَخشَوُا اللهَ تعالى ويتَّقوه في أمْر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يُحبُّون أن يُفعَل بذراريِّهم الضِّعافِ بعدَ وفاتهم[2]، وفي ترتيب الأمْرِ على هذا: إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ منه، والعِلَّة فيه: أنْ يُحبَّ لأولادِ غيرِه ما يحبُّ لأولاده، وتهديدٌ للمُخالِف بحال أولاده[3]، فيجبُ على المرء أن يُعامِلَ الناس بما يحبُّ أن يعاملوه به؛ لأنَّه إذا كان يَكره لنفْسه أن يَعتديَ أحدٌ على أولاده بعد موته، فكذلك لا يَعتدي هو على أولادِ النَّاسِ، فإذا أراد أنْ يَجنيَ على غيرِه فليتذكَّرْ نفْسَه، فمثلًا إن كان يَهُمُّ بأنْ يَزنيَ بامرأة، فليتذكَّر هلْ يَرضَى أنْ يَزنيَ أحدٌ بإحْدى محارمِه؟! فإذا كان لا يرضَى؛ فلماذا يرضَى أنْ يَزنيَ بمحارمِ الناس[4]؟!

٤- في قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴾ ما يبعثُ الناسَ كلَّهم على أنْ يَغضَبوا للحقِّ مِن الظُّلم، وأنْ يأخُذوا على أَيدي أَولياءِ السُّوءِ، وأنْ يَحرُسوا أموالَ اليَتامى، ويُبَلِّغوا حقوقَ الضُّعفاءِ إليهم؛ لأنَّهم إنْ أضاعوا ذلك يُوشِكْ أنْ يَلحَقَ أبناءَهم وأموالَهم مِثلُ ذلك، وأنْ يأكُلَ قويُّهم ضعيفَهم؛ فإنَّ اعتيادَ السُّوءِ يُنسي الناسَ شَناعتَه، ويَكسِبُ النُّفوسَ ضراوةً على عَملِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٠- ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- تقديمُ الرِّجالِ على النِّساءِ حتَّى في الأمْر الذي يَشترِكون في الاستحقاقِ فيه، ووجهُ الدَّلالة: قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾، وهذا هو المشروعُ والمعقولُ والفِطري، وقد عَكَس ذلك مَن عكَس اللهُ قلوبَهم مِن الكفرةِ والمبهورين بهم؛ حيث قدَّموا النِّساءَ على الرِّجال، وهذا خطأٌ عظيم؛ لأنَّ الرِّجالَ مُقدَّمون على النِّساء، وهم قوَّامونَ عليهنَّ[١].

٢- أنَّ الأوامرَ قد تكون مُوكَلةً إلى المأمور غيرَ مقدَّرة؛ لقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، ولم يقل: الثُّلث، ولا الرُّبع، ولا العشر، بل جَعَل هذا مطلقًا؛ فهو يرجع إلى كرَم المعطي من وجهٍ، وإلى كثرة المال من وجهٍ آخَرَ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ قدَّمَ أُولي القُربى على اليتامى والمساكين؛ لأنَّ الإحسانَ إلى القَرابةِ أفضلُ من الإحسانِ إلى اليتيمِ والمسكينِ؛ ولهذا لَمَّا أخبرتْ ميمونةُ بنتُ الحارثِ رضِي اللهُ عنها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّها أعتقتْ جاريةً لها، قال لها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لو أَعطيتِها أخوالَكِ، كان أَعظمَ لأجْرِكِ))[٣]؛ فدلَّ هذا على أنَّ إعطاءَ ذَوِي الأرحامِ أفضلُ من إعطاءِ البَعيدِ[٤].

٤- أنَّ الجزاء مِن جِنس العمل؛ لأنَّه قابَل أكْلهم بالنار التي يُعذَّبون بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٥٩٢)، ومسلم (٩٩٩) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦).

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1].

بلاغَةُ الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ ﴾.

- **قوله:** ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾: فيه إيرادُ حُكمِ النساءِ على الاستقلال دون أن يُقال: (للرِّجال والنِّساء... إلخ)؛ للاعتناء بأمرهنَّ، والإيذان بأصالتهنَّ في استحقاق الإرث، والإشارة من أوَّل الأمْر إلى تفاوت ما بين نصِيبَي الفريقينِ، والمبالغة في إبطال حُكم الجاهليَّة؛ فإنَّهم لم يكونوا يورِّثون النساء والأطفال[2].

- **قوله:** ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾: فيه إطلاقُ الكلِّ على البعض؛ إذ المراد بـ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ أربابُ الفرائض، وليس كلَّ الأقارب[3].

- **قوله:** ﴿مَّفْرُوضًا ﴾: فيه إيجاز بالحذْف، فالفارض هو الله، لكن حُذِف، وبُني الوصفُ للمفعول؛ للعِلم به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، والذي خلَقَه هو اللهُ عزَّ وجلَّ[4].

٢- **في قوله تعالى:** ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾: قال: ﴿مِّنْهُ ﴾ ولم يقل: (فيه)؛ لأنَّ هؤلاء يُعطون من رأس المال، ومِن أصله، وأمَّا أموال اليتامى فقال الله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾، فقال: ﴿فِيهَا ﴾ ولم يقُل: (منها)؛ لأنَّهم يُرزقون بعدَ الاتِّجار

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢).

بها، فيُعطَون من الرِّبح، وهو إشارةٌ إلى أنه ينبغي لِوليِّ اليتيم أن يتَّجِرَ في ماله حتى يحصُلَ على ما يَرزقُه فيه، أمَّا هنا فقال: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: من هذا المال الذي يُقسَم أمامَهم[1].

٣- **قوله تعالى:** ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾:

- فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ حيثُ حُذِفَ مفعولُ ﴿وَلْيَخْشَ﴾؛ لتذهبَ نفْسُ السَّامعِ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ مُحتمَل؛ فينظر كلُّ سامعٍ بحسَبِ الأهمِّ عنده ممَّا يَخشاهُ أنْ يُصيبَ ذرِّيَّتَه[2].

- وفيه أيضًا حذْفُ مفعول ﴿خَافُوا۟﴾؛ لِتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، ولِتَفْتَنَّ في تصوير الخوف من المصير المحتوم الذي يَؤُول إليه أمرُ الضِّعاف في هذه الحياة، ويُمكن تقديرُه بمثل الضياع والتشرُّد في مسارب الحياةِ، ومسالِكِها المتشعِّبة، من دون كافلٍ يَكفُلهم، أو مُدبِّرٍ يُدبِّر شؤونَهم[3].

- وقوله: ﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾: أمَرَهم بالتقوى التي هي غايةُ الخشيةِ بعدَما أمرهم بها؛ مراعاةً للمبدأِ والمنتهى؛ إذ لا يَنفع الأوَّلُ دون الثاني، ثم أمَرَهم أن يقولوا لليتامى مثلَ ما يقولون لأولادهم بالشَّفَقة وحُسْن الأدب[4].

- قوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾، ﴿وَخَافُوا﴾ فيه تَكرارٌ من جِهةِ المعنى- على قولِ مَن جعَلَهما مُترادِفَين[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٢).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾: استئنافٌ جِيءَ به لتقريرِ مضمونِ ما فُصِّل من الأوامِر والنواهي[1].

- وقوله: ﴿يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ فيه من أنواع البلاغة ما يلي:

- التَّعريض؛ حيث عرَّض بذِكر البُطون لخِسَّتهم وسُقوطِ هِمَمِهم، والعربُ تذمُّ بذلك[2].

- تأكيدُ الحقيقةِ بما يَرفع احتمالَ المجازِ، وذلك بقولِه: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾[3].

- الاختِصاص؛ حيثُ خصَّ البُطونَ بالذِّكْر دون غيرِها؛ لأنَّها محلٌّ للمأكولاتِ[4]، وذِكْر البُطون- مع أنَّه معلوم أنَّ الأكْلَ لا يكونُ إلاَّ في البُطون-؛ للتأكيدِ والمبالغةِ، ولتَجسيدِ بشَاعةِ الجُرم المقترَفِ بأكْل مالِ اليتيم؛ حتى يَتأكَّدَ عِندَ السَّامِع بشاعةُ هذا الجُرمِ بمزيدِ تصويرٍ[5].

- تأكيدُ هذا التشنيعِ على الظالمِ لليَتيمِ في مالِه بتَخصيصِ ذِكْر الأكْلِ؛ لأنَّه أبشعُ الأحوالِ التي يُتناوَلُ مالُ اليتيمِ فيها[6].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (١/ ٤٧٩)، ((تفسير الرازي))، (٩/ ٥٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

الآيات (١١ - ١٤)

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ
فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ
مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ
فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ
أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ
مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن
لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ
وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ
أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ
فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ
﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ
عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾: الوصيةُ: التقدُّمُ إلى الغيرِ بما يَعملُ به مقترنًا بوعْظ، والوصيةُ مِن الله هي الأمرُ المؤكَّد، والتوصية تُعرِب عن تأكيدِ الأمرِ، والاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به، وأصل (وصي): يدلُّ على وصْلِ شيء بشيء؛ يقال: وطِئْنَا أرضًا واصية، أي: إنَّ نَبْتها متَّصِلٌ قد امتلأت منه، ومنه الوصية، كأنَّه كلامٌ

يُوصَى؛ أي: يُوصَل[١].

﴿حَظِّ﴾: أي: نصيبٌ مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصيب والجَدُّ[٢].

﴿كَلَٰلَةً﴾: الكَلالة: الذي يموتُ ولا ولدَ له ولا والدَ، مصْدَر مِن: تكلَّله النَّسب، أي: أحاطَ به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا ماتَ ولم يُخلِّفْهما، فقد ماتَ عن ذَهاب طَرَفيهِ، فسُمِّي مَن ذَهبَ طَرفاه كَلالةً[٣].

مُشكِلُ الإعراب:

١- قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾

﴿فَرِيضَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجُملةِ السَّابقة مِن الوصيَّة؛ لأنَّ معنى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ فرَضَ اللهُ عليكم، فصار المعنى: (يُوصِيكُم اللهُ وصيةَ فَرْضٍ)، أو منصوبةٌ بِفعلٍ محذوفٍ مِن لَفْظِها على أنَّها مَصدرٌ له، أي: فَرَض اللهُ ذلِك فريضةً. وقيل: إنَّها حالٌ؛ لأنَّها ليستْ مصدرًا[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾

﴿كَانَ﴾: يجوزُ هنا أنْ تكونَ ناقصةً، ويكونُ ﴿رَجُلٌ﴾ مرفوعًا على أنه اسْمُها، و﴿يُورَثُ﴾ خبرها في مَحلِّ نصْب، ويجوزُ جعْلُ ﴿كَانَ﴾ تامَّةً- فيُكْتَفى بالمرفوعِ، أي: وإنْ وُجِد أو وَقَع رجلٌ- وَ﴿رَجُلٌ﴾ فاعِلَها، وجملة

---

(١) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٨) ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦- ١٣٧).

(٤) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٠٦).

﴿يُورَثُ﴾ في محلِّ رفْعِ صِفَةٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾.

﴿كَلَٰلَةً﴾ منصوبةٌ على الحالِ من الضَّميرِ المُسْتَتِرِ في ﴿يُورَثُ﴾، على نيَّةِ حَذْفِ مضافٍ: والتقدير: يُورَثُ ذا كَلالةٍ، والكلالةُ على هذا: اسمٌ للمَيِّتِ الذي لم يَتْرُكْ ولدًا ولا والدًا. وفي إعرابِ ﴿كَلَٰلَةً﴾ توجيهاتٌ إعرابيَّة أخرى بِحَسَب تفسيرها ومعانيها المختلِفة[1].

٣- **قوله تعالى:** ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: ﴿وَصِيَّةٗ﴾: منصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ مؤكِّد لِفعلٍ محذوفٍ؛ أي: وصَّى أو يُوصيكم اللهُ بذلك وصيةً، ودلَّ على المحذوفِ قولُه: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾، وعلى هذا الوجه فمفعولُ ﴿مُضَآرّٖ﴾ محذوفٌ، والتقدير: غيرَ مضارٍّ ورثتَه بوصيةٍ. وقيل: إنَّ ﴿وَصِيَّةٗ﴾ منصوبةٌ باسمِ الفاعلِ ﴿مُضَآرّٖ﴾ على أنَّه مفعولُه، وجُعلتِ المُضارَّةُ الواقعةُ بالورثةِ كأنَّها واقعةٌ بنفس الوصية؛ مبالغةً في ذلك، ويؤيِّد هذا التخريجَ قِراءةُ الحَسَن: (غَيْرَ مُضارِّ وَصِيَّةٍ) بإضافةِ اسمِ الفاعِل إليها، وأصله: غيرَ مضارٍّ في وصيةٍ من اللهِ، فاتُّسِعَ في هذا إلى أنْ عُدِّيَ بنفسِه من غيرِ واسطة؛ لِقَصْد المبالَغة. وقيل غيرُ ذلك[2].

المَعنَى الإجمالي:

يَعهَد اللهُ إليكم في شأنِ ميراثِ أولادِكم من بعدِ موتِكم أن يكون نصيبُ الذَّكر منهم في الميراث مِثلَ نصيب الأُنثيين، فإنْ كانتِ البناتُ زائداتٍ على

(١) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٠٦-٦١٠).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٣).

اثنتينِ، وليس معهنَّ ذكَرٌ، فلهنَّ ثُلثَا ما ترَك المتوفَّى، وإنْ كانتْ واحدةً فقط فلها النِّصف، ولوالدَيِ الميِّت السُّدسُ من التَّرِكَة إذا كان له ولدٌ، سواء من الذُّكور أو الإناثِ، واحدًا أو جماعةً، فإنْ لم يترك الميِّتُ ولدًا، وكان أبوه وأمُّه وارثَيْهِ، فلأمِّه الثُّلُثُ، ولأبيه ما تبقَّى من مالِ التَّرِكة. وإنْ كان مع الأبوينِ الوارثينِ إخوةٌ للميِّت- أشِقَّاءُ، أو لأبٍ، أو لِأُمٍّ- فتستحقُّ الأمُّ في هذه الحال السُّدسَ من التَّرِكة، وما بقِي فللأب. هذه الفرائِض التي ذكَرها الله سبحانه وتعالى تُعطَى لأهلها مِن بعد أن تُنَفَّذ وصيةُ الميِّت، وتُقضى دُيونُه؛ إنَّكم لا تدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لكم، وأقربُ لحصولِ مقاصدِكم الدِّينيَّة والدنيويَّة، فلو رُدَّ تقديرُ الإرثِ إلى عقولِكم واختيارِكم، لحَصَل من الضَّرر ما اللهُ به عليمٌ؛ فهذا التقسيمُ المذكورُ فرَضَه اللهُ سبحانه على عِباده؛ فهو سبحانه العليمُ الحكيم.

ثم بيَّن اللهُ ميراثَ الزوجينِ؛ فأخبر أنَّ للأزواج النِّصفَ من تركة زوجاتِهم، إذا لم يكُن لهنَّ ولدٌ، سواءٌ من الذكور أو الإناث، واحدًا كان أو أكثر، وفي حالة وجودِ الولد فإنَّ الأزواجَ يستحقُّون الرُّبُعَ من ترِكة الزوجاتِ، من بعد استخراج الوصية التي أَوصينَ بها، وقضاءِ الدُّيون التي عليهنَّ، وللزَّوجاتِ الرُّبُعُ من ترِكة أزواجهنَّ إنْ لم يكُن لأزواجهِنَّ ولدٌ، فإنْ كان هناك ولد، فلهن الثُّمُنُ من الترِكة، من بعد الوصِيَّة وقضاء الدَّين، ثم أوضح الله تعالى حُكمَ مَن تُوفِّيَ بدون أن يترُكَ ولدًا ولا والدًا، وكان له أخٌ أو أخت من جِهة أمِّه؛ فإنَّ لكلٍّ من الأخ أو الأخت في هذه الحال سُدسَ التركة، فإنْ كانوا أكثرَ من واحدٍ فإنَّ نصيبَهم الثُّلُثُ من التركة، يقتسمونه بينهم بالتَّساوي ذُكورًا وإناثًا، وذلك بعد إخراج الوصيَّة وقضاءِ دُيون المتوفَّى، على ألَّا تكون تلك الوصيةُ مقصودًا بها الإضرارُ بالوَرَثَة، هذه الأحكامُ التي ذُكرت هي عَهدٌ مِن الله، يجب التزامُه، فالله سبحانه وتعالى عليمٌ حليم.

ثم يُخبِر تعالى أنَّ ما شرَعه من الفرائض والمقادير هي حدودُه، التي يجب ألَّا يتجاوزَها العبادُ، ويُبيِّنُ جزاءَ مَن يطيعُ الله ورسوله أنَّ له جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثينَ فيها على الدوامِ، وهذا هو الفلاحُ والرِّبحُ العظيم. وأمَّا مَن يَعصي اللهَ ورسوله، ويتجاوز حدودَ الله، فإنَّ الله سيُدْخِلُه نارًا يَمكُثُ فيها على الدَّوام، وله عذابٌ مُخْزٍ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى الحُكْمَ في مال الأيتامِ، وما على الأولياء فيه، بيَّن كيف يَمْلِك هذا اليتيمُ المالَ بالإرث، ولم يكُن ذلك إلَّا ببيان جملة أحكام الميراث[١].

وأيضًا لَمَّا أثبتَ اللهُ تعالى حُكمَ الميراثِ بالإجمالِ في قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النساء: ٧]، وأبْهَمَ المقدارَ ومَن يرِثُ- ذكر عَقيب ذلك المجمَل، هذا المفصَّل، فبيَّن المقاديرَ، ومَن يَرِثُ من الأقربينَ[٢].

سببُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رضِي الله تعالى عنه، قال: ((عادَني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٥).

وسلَّم، وأبو بكر في بني سَلِمة ماشِيَينِ، فوجدني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لا أعقِلُ، فدعا بماءٍ فتوضَّأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأفقْتُ، فقلْتُ: ما تأمُرني أن أصنعَ في مالي يا رسولَ الله؟ فنزَلَت ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾))(١).

وعن جابرٍ أيضًا رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءتِ امرأةُ سعدِ بنِ الرَّبيعِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بابنتَيها مِن سعدٍ، فقالت: يا رسولَ الله، هاتانِ ابنتَا سعدِ بنِ الرَّبيع، قُتِل أبوهُما معك في أُحدٍ شهيدًا، وإنَّ عمَّهما أخَذَ مالَهما، فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا يُنْكَحَان إلَّا ولهما مالٌ، قال: فقال: يَقضِي اللهُ في ذلك، قال: فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فأرسلَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى عَمِّهما، فقال: أعطِ ابنتَي سعدٍ الثُّلُثَينِ، وأُمَّهما الثُّمُنَ، وما بقِي فهو لك(٢)))(٣).

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾.

أي: يَعهَدُ إليكم ربُّكم، ويأمرُكم أمرًا مؤكَّدًا في شأنِ ميراثِ أولادِكم بالتَّسْويةِ بينهم، ذُكورًا وإناثًا في أصْلِ الاستحقاقِ من الميراثِ(٤).

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧) واللفظ له، ومسلم (١٦١٦).

(٢) قال ابنُ كثير: (الظاهر أنَّ حديث جابر الأوَّل إنما نزل بسببه الآيةُ الأخيرة من هذه السورة... فإنَّه إنما كان له إذ ذاك أخواتٌ، ولم يكن له بنات، وإنما كان يُورث كلالة، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعًا للبخاري، رحمه الله، فإنَّه ذكره هاهنا. والحديث الثاني عن جابر أشبهُ بنزول هذه الآية، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٩٢)، والترمذيُّ (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وأحمد (١٤٨٤٠) واللفظ له. قال أبو داود: هذا أصح. وصححه الترمذيُّ، واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (٩/ ٢٥٥)، وحسَّنه ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (٤/ ١٣٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤).

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالتَّسويةِ بين الأولاد- من الذُّكور والإناثِ في أصلِ الميراثِ- فاوَتَ بين الصِّنفيْن، وذَكر كيفيَّةَ إرْثِهم[(١)]، فقال:

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

أي: إذا اجتَمَع في أولادِ الميِّتِ ذكورٌ وإناثٌ، فللذكرِ ضِعفُ ما تُعطَى الأنثى، (وذلك إنْ لم يكُن معهم صاحبُ فرضٍ، أو ما أَبقتِ الفروضُ يَقتسمونَه كذلك)[(٢)].

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حالةَ اجتماعِ الذُّكور والإناث، أتْبَعَ ذلك بذِكر حالةِ انفرادِ الإناثِ[(٣)]، فقال:

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

أي: فإنْ كان بناتُ الميِّت أكثرَ في العدد من اثنتين- مهما بلغ عددُهن- فإنهنَّ يستحققْنَ ثُلُثَيِ التركة[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤).
وناسَب أن يُعطى الذَّكرُ ضِعْفي ما تأخُذه الأنثى لاحتياج الرجُل إلى مُؤنةِ النفقة والكُلْفة، ومعاناة التِّجارة والتكسُّب، وتجشُّم المشقَّة؛ فالرجُلُ باذلٌ، والمرأة آخِذةٌ، فهو مأمورٌ بالنَّفقة عليها، ويبذُلُ لها المهر، وترثه إذا ماتَ، وليس من العدلِ التَّسويةُ بينهما. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي))

ولَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ميراثَ البناتِ حالَ اجتماعِهنَّ، ذكَر ميراثَ البنتِ الواحدة، فقال:

﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾.

أي: وإنْ خلَّف الميِّتُ بنتًا واحدةً، فإنَّ لها نصفَ التَّرِكة[1].

ولَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مِيراثَ الأولاد، انتقَلَ إلى ذِكر ميراث الأبوين، فقال:

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ﴾.

أي: ولكلٍّ من والد الميِّت ووالدته السُّدسَ من التركة، إنْ كان للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو جماعةً[2].

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾.

أي: فإن لم يكن للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أُنثَى، وله أبٌ وأمٌّ، فإنَّ لأمِّه ثُلُثَ التَّركة، وللأبِ ما بَقيَ منها[3].

(ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٥).

قال الواحديُّ: (أجمعتِ الأمَّةُ على أنَّ للبنتين الثلثين، إلَّا ما رُوي عن ابن عبَّاس) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (قوله: ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تَقتضي ذلك قوَّةُ الكلام، وأمَّا الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النصُّ على الاثنتين، ويثبت الثُّلثان لهما بالإجماع الذي مرَّت عليه الأمصارُ والأعصار، ولم يُحفظْ فيه خلافٌ، إلَّا ما رُوي عن عبد الله بن عباس: أنَّه يرى لهما النِّصف) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦١-٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٧-٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٢-٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٨-٧٠).

عن عبدِ الله بن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ))(١).

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾.

أي: إذا وَرِث الميِّتَ أبواه، وكان له إخوةٌ، سواء كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ، وسواء كانوا اثنين أو أكثر، فإنَّ للأمِّ سدسَ التركة، وللأبِ ما بَقِي منها(٢).

عن عبد الله بن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكرٍ))(٣).

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

أي: هذه المواريثُ التي ذَكَرها الله تعالى، إنَّما تُستَحقُّ لأهْلِها ممَّا تبقَّى من تركة الميِّت، بعد تنفيذ وصيَّتِه المشروعةِ الثابتة عنه (على ألَّا تتجاوزَ الوصيةُ ثُلُثَ مال الميِّت- إلَّا إذا أجاز الوَرَثةُ تلك الزِّيادةَ- ولا تكون لوارثٍ، ولا تكون

قال الشنقيطي: (قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾، أي: ولأبيه الثلثان الباقيان إجماعًا) ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٦).

وإنَّما كان حظُّ الوالدين من الإرث أقلَّ مِن حظ الأولاد مع عِظَم حقِّهما على الولد; لأنَّهما يكونان في الغالب أقلَّ حاجةً من الأولاد، إمَّا لكبرهما، وقِلَّة ما بقِي من عمرهما، وإمَّا لاستقلالهما، وتمولهما، وإما لوجود مَن تجبُ عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء، وأمَّا الأولاد فإمَّا أن يكونوا صغارًا لا يَقدِرون على الكسب، وإمَّا أن يكونوا على كِبرهم محتاجين إلى نفقةِ الزواج، وتربيةِ الأطفال؛ فلهذا وذاك كان حظُّهم من الإرث أكثرَ من حظِّ الوالدين. ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٤٠).

(١) رواه البخاري (٦٧٣٥)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٣-٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٧-٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٠-٧١).

قال الواحديُّ: (أجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الأخوين يَحجُبان الأمَّ مِن الثُّلث إلى السُّدس، والأخ الواحد لا يَحجُب) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٠).

(٣) تقدم تخريجه.

لشيءٍ محرَّم)، وقضاء دُيونه[١].

عن سعد بن أبي وقَّاصٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((تشكَّيتُ بمكَّةَ شكوى شديدةً، فجاءني النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يعودُني، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، إنِّي أترك مالًا، وإني لم أترُكْ إلا ابنةً واحدةً، فأُوصي بثُلُثَي مالي، وأترك الثُلثَ؟ فقال: لا. قلتُ: فأُوصي بالنِّصفِ، وأتركُ النصفَ؟ قال: لا، قلتُ: فأُوصي بالثُّلُثِ، وأتركُ لها الثُلثين؟ قال: الثلثُ، والثلثُ كثيرٌ))[٢].

وعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في خُطبتِهِ عامَ حجَّةِ الوداعِ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالى، قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فلا وصِيَّةَ لوارثٍ))[٣].

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قسَّم سبحانه الميراثَ على ما اقتضتْه حِكمتُه؛ قطَعَ خطَّ الاعتراضِ على هذه القِسمة بقوله[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٣-٧٨).
وحكى ابن جرير الإجماع على أنَّ قضاء الدَّيْن مقدَّمٌ على الوصية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (٥٦٥٩) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذيُّ (٢١٢٠) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧١٣)، وأحمد (٢٢٣٤٨).
حسَّنه الإمام أحمد كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٢٨٦)، وقال الترمذيُّ: حسن صحيح، وحسَّنه ابن عبد البر في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٩)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٧/ ٢٦٣)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (٢/ ٣١٥)، وصحَّحه الذهبي في ((تنقيح التحقيق)) (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٨).

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾.

أي: إنَّما فرَضَ اللهُ تعالى للآباء والأبناء نَصيبَهم من الميراث، كلٌّ بحسَبه؛ لأنَّ الإنسان قد يأتيه مِن أبيه النفعُ- دُنيويًّا كان أو أخرويًّا أو هما معًا- ما لا يأتيه من ابنِه، وقد يكون الأمرُ بالعكس؛ فلا ينبغي أن يُمنَع أحدٌ حقَّه من الإرث؛ فإنَّه لو رُدَّ تقديرُ الإرث إلى عقول الناس واختيارِهم لحَصَل مِنَ الضَّررِ ما اللهُ به عليمٌ؛ لنقصِ العُقولِ، وعَدمِ مَعرفتِها بما هو اللائقُ الأحسن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فلا يدرون أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لهم، وأقربُ لحصول مقاصدِهم الدِّينيَّة والدنيويَّة[١].

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: هذا التقسيم المقدَّر للميراث، فرْضٌ من الله تعالى وحده، قد حَكم به على عِبادِه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عالمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يستحقُّ الأخذَ من الميراث، ومقدارِ ما يستحقُّه كلُّ أحد، وهو الحكيمُ الحاكم على عِبادِه، الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعها اللائقة بها، ومِن ذلك: وضْعُه حقَّ الميراث في أهلِه المستحقِّين له، وتقديرُه ما يستحقُّه كلُّ أحدٍ منهم على أحسنِ تقديرٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٧٩).

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ميراثَ الفُروعِ من الأصول، وميراثَ الأصولِ من الفُروع، أخَذ في ذِكْر ميراث المتَّصلين بالسَّببِ لا بالنَّسَب، وهو للزوجيَّة هنا[(١)]، فقال:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾.

أي: ولكم- أيُّها الأزواجُ- نصفُ تِركة زوجاتكم بعد وفاتهنَّ، إذا مِتْنَ عن غيرِ ولدٍ، ذكَرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر[(٢)].

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾.

أي: فإنْ كان لزوجاتكم ولدٌ، من ذَكَر أو أنثى، واحد أو أكثر، فلكم -أيُّها الأزواج- رُبُع تِركة زوجاتكم[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٥).

قال ابنُ عطيَّة: (الولد هاهنا بنو الصُّلب، وبنو ذكورهم وإن سَفُلوا، ذُكرانًا وإناثًا، واحدًا فما زاد، هذا بإجماعٍ من العلماء) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾.

أي: ذلك الفَرْض لكم- أيُّها الأزواج- تستحقُّونه ممَّا تبقَّى من ترِكة أزواجِكم، بعد تنفيذ وصيتهنَّ المشروعة الثابِتَةِ عنهنَّ، وقضاءِ ديونهنَّ(١).

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ﴾.

أي: ولأزواجِكم -أيُّها الأزواجُ- رُبُعُ ما تركتم بعدَ وفاتِكم، إنْ لم يكُن لكم ولدٌ(٢).

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ﴾.

أي: فإنْ كان لكم- أيُّها الأزواج- ولدٌ، وأصابَكم الموتُ، فإنَّ لزوجاتِكم ثُمُنَ ما تركتُم(٣).

﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ﴾.

أي: إنَّما تستحقُّ زوجاتُكم ذلك النَّصيبَ ممَّا تبقَّى من ترِكتكم، بعد تنفيذ وصيَّتكم المشروعة الثابتة عنكم، وقضاء دُيونكم(٤).

سورة النساء)) (١/ ٩٥-٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٦-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

اتَّفقتِ الأمَّة على أنَّ الرجُلَ إذا كانتْ له زوجاتٌ: أنهنَّ يَشترِكْنَ في الرُّبُع أو في الثُّمُن من غير زيادة لهنَّ؛ لأنَّ تعدُّد الزوجاتِ بيد صاحبِ المال، فكان تعدُّدهنَّ وسيلةً لإدخال المضرَّة على الورثةِ الآخَرين، بخِلاف تعدُّدِ البنات والأخوات، فإنَّه لا خيارَ فيه لربِّ المال. ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾.

أي: إنْ كان المتوفَّى، رجلًا كان أو امرأةً، قد تُوفِّيَ عن غير ولدٍ ولا والدٍ، وله من جهة الأمِّ أخٌ أو أختٌ، فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما- أي الأخ أو الأخت- سُدُسَ التَّركةِ[1].

عن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كنتُ آخرَ النَّاسِ عَهْدًا بعُمرَ، فسَمِعْتُه يقولُ: القَولُ ما قلتُ، قلتُ: وما قلتَ؟ قالَ: الكلالةُ من لا ولدَ لَهُ ولا والِدَ))[2].

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾.

أي: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ من جِهة أُمِّ الميِّت الموروثِ كلالةً -رجلًا كان الميِّت أو امرأةً- أكثرَ من واحد[3]، فلهم جميعًا ثُلُثُ التركة، يقتسمونها

سورة النساء)) (١/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٧٤-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٨-٩٩).
قال الواحديُّ: (قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾ [النساء: ١٢] يعني: من الأمِّ، بإجماع المفسِّرين) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٢٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في ((المصنف)) (١٩١٨٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤٩٣٣) واللفظ له.
صححه ابن كثير في ((تفسير القرآن))(٢/ ٢٠١)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير))(١/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).
قال البغوي: (فيه إجماع أنَّ أولاد الأمِّ إذا كانوا اثنين فصاعدًا يشتركون في الثُّلث ذكرُهم وأُنثاهم) ((تفسير البغوي)) (١/ ٥٨٢).
وقال ابن العربي: (اتَّفق العلماء على أنَّ التَّشريك يقتضي التَّسوية بين الذَّكر والأنثى) ((أحكام القرآن)) (١/ ٤٥٢).

ذُكورًا وإناثًا بينهم بالتَّساوي[١].

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾.

أي: هذا الذي فرَضَه الله تعالى لأخي الميِّتِ الموروث كلالةً وأخته، أو لإخوته وأخواته، إنَّما يستحقُّونه مِن بعدِ تنفيذِ وصيَّته المشروعةِ الثابتةِ عنه، وقضاءِ دُيونه[٢].

﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾.

أي: غير مقصودٍ بها الإضرارُ بالورَثة، بأيِّ وجهٍ من الوجوه، كأنْ يَحرِمَ بعضَ الورثة حقَّهم، أو يَنقُصه، أو يزيدَ عليه[٣].

﴿وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: هذا الذي ذَكَره الله تعالى من أحكامٍ فيما يجب من ميراثِ مَن مات منكم، عهدٌ مؤكَّدٌ من الله تعالى إليكم، وجَب عليكم أن تَلتزِموا به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٤-٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩٩-١٠٠).

قال الرازيُّ: (واعلمْ أنَّ الضرار في الوصية يقع على وجوه: أحدها: أن يُوصِي بأكثرَ من الثلث. وثانيها: أن يُقِرَّ بكلِّ ماله أو ببعضه لأجنبي. وثالثها: أن يُقرَّ على نفْسه بدَين لا حقيقة له؛ دفعًا للميراث عن الورثة. ورابعها: أن يقرَّ بأنَّ الدَّين الذي كان له على غيره قد استوفاه ووصل إليه. وخامسها: أن يبيع شيئًا بثمن بخس، أو يشتري شيئًا بثمن غال، كلُّ ذلك لغرضِ أنْ لا يصلَ المالُ إلى الورثةِ. وسادسُها: أن يوصي بالثُّلُث لا لوجهِ الله، لكن لغرضِ تنقيصِ حقوقِ الورثةِ، فهذا هو وجهُ الإضرارِ في الوصيةِ) ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٧-٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٠).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيء، ولا يَخفى عليه شيءٌ سبحانه، ومن ذلك: عِلمُه بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، وعِلمُه بمَن يستحقُّ أن يُعطى من الميراث، ومن يُحرَم، وعِلمُه بقدْر ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم، وهو سبحانه الحليمُ الذي لا يُعاجِل مَن عصاه بالعُقوبةِ(١).

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى سِهامَ المواريث، وقد كانوا في الجاهليَّةِ يَمنعون النِّساءَ والأطفالَ من الميراثِ، ذَكَر الوعدَ والوعيدَ ترغيبًا في الطَّاعةِ، وترهيبًا عن المعصيةِ؛ لئلَّا يُغترَّ بوصْف الحَليم، فقال- مُعظِّمًا للأمْر بأداة البُعدِ ﴿تِلْكَ﴾، ومشيرًا إلى جميعِ ما تقدَّم مِن أمْرِ المواريث وغيرها(٢)-:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: تِلك الفرائضُ والمقاديرُ التي جعَلها الله تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللهِ تعالى التي شرَعَها لعباده؛ فيجبُ الوقوفُ معها، وعدمُ تجاوُزِها(٣).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٨٩-٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٨-١٠٩).

أي: ومَن يتَّبعْ أمْرَ اللهِ تعالى وأمْرَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتَنِبْ نَهْيَهما، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريث، فإنَّ الله تعالى يُدخِلُه جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارِها وغُروسِها أنهارٌ متعدِّدةٌ، وهم في هذا النعيمِ ماكثونَ على الدَّوامِ[١].

﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: إنَّ إدخالَ اللهِ تعالى لِمَن أطاعه وأطاعَ رسولَه جِنانَه التي وصَف شيئًا منها، لهُوَ ربحٌ كبير، وفلاحٌ منقطعُ النظيرِ[٢].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾.

أي: إنَّ مَن يُخالفْ أمْرَ الله تعالى وأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، فيَترُكِ المأموراتِ، ويرتكِبِ المنهيَّاتِ، ويَتجاوزْ حدودَ ما شرَعه الله سبحانه، تغييرًا لما حكَم اللهُ به، ومضادةً للهِ في حُكمه، أو شكًّا فيما فرَض الله على عبادِه، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريثِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخِلُه نارَ جهنَّمَ، ماكثًا فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٠٩-١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ١١٨-١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٣-١١٤).

والعصيانُ إن أُريد به الكفرُ فالخلودُ على بابِه، وإن أُريد به الكبائرُ، وتجاوزُ أوامرِ اللهِ تعالى، فيكون المرادُ بالخلودِ طُولَ الْمُدَّةِ. ينظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٨).

قال السعديُّ: (يَدخُل في اسم المعصية الكُفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شُبهة

﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أي: وله عذابٌ مُذِلٌّ يُخزيه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾، يتبيَّنُ لنا قصورُ عِلم الإنسانِ؛ فأقربُ الناسِ إلى الإنسانِ آباؤه وأبناؤه، فإذا كان لا يَدري أيُّهم أقربُ نفعًا؛ فما بالُك بالبعيدِ؟! وهذا لا شكَّ يعود إلى قُصور عِلم الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فالرُّوح التي هي بين جَنبَيك لا تَعرِفُها؛ لأنَّك لم تُؤتَ من العِلم إلَّا القليلَ(٢).

٢- أنَّه إذا كان الحديثُ عن النِّساء والرِّجال؛ فإنَّ الحكمةَ أن يُقدَّم الحديثُ عن الرِّجالِ؛ لأنَّه سبحانه بدأ بميراثِ الأزواجِ قبل ميراثِ الزَّوْجات، وهذا هو الموافِقُ للفِطرة، خلافًا لِمَن حرف اللهُ فطرتَه، وغيَّرَ سليقتَه، فصار يُقَدِّم النِّساءَ على الرجال في الذِّكْر، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن

للخوارج القائلين بكُفر أهل المعاصي؛ فإنَّ الله تعالى رتَّب دخول الجنة على طاعتِه وطاعةِ رسوله. ورتَّب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمَن أطاعه طاعةً تامَّةً، دخل الجنة بلا عذاب. ومَن عصى الله ورسوله معصيةً تامَّةً- يَدخُل فيها الشرك فما دونه- دخل النار وخُلِّد فيها، ومَن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسَب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلَّت النصوص المتواترة على أنَّ الموحِّدين الذين معهم طاعةُ التوحيدِ، غيرُ مخلَّدين في النَّار، فما معهم من التوحيد مانعٌ لهم من الخلودِ فيها)) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٨).

لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾[١].

٣- طاعةُ اللهِ ورسولِه قُطبُ السَّعادةِ التي عليه تَدورُ، ومُستقَرُّ النَّجاةِ الذي عنه لا تَحورُ؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

٤- في ختمِ آياتِ المواريثِ بقولِه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا ...﴾ إشارةٌ إلى عِظَمِ أمرِ الميراثِ، ولزومِ الاحتياطِ والتحرِّي، وعدمِ الظلمِ فيه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ الله أرحمُ بالإنسان من والدِيْه؛ لقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾؛ فالذي يوصيكَ بالشيءِ هو أرحمُ به منك، وأشدُّ عنايةً به منك[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فيه اهتمامٌ بأحكامِ المواريثِ وما يَتعلَّق بها؛ لذا صدَّر تَشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لِمَا في الوصيَّةِ من التأكيدِ والحِرص على اتِّباعها؛ لأنَّ الوصايةَ هي الأمرُ بما فيه نفْعُ المأمور؛ لذا عدَل من صيغةِ (يأمُرُكم) إلى ﴿يُوصِيكُمُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤) (٣٥/ ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٨٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٦).

٣- بدأ الله تعالى بذِكر ميراثِ الأولاد، وإنما فعل ذلك؛ لأنَّ تعلُّقَ الإنسانِ بولده أشدُّ التعلُّقات، وهم أقربُ النَّاسِ إليه، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[1]، أو لأنَّ الأولاد بَضْعٌ من أبيهم أو أمِّهم؛ فلذلك قدَّم ذِكرَهم على الأبوينِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ جعَلَ حظَّ الأنثيينِ هو المقدارَ الذي يقدَّر به حَظُّ الذَّكر، ولم يكُن قد تقدَّمَ تعيينُ حظٍّ للأنثيينِ حتى يُقدَّر به، فعُلِمَ أنَّ المرادَ تضعيفُ حظِّ الذَّكرِ من الأولادِ على حظِّ الأنثى منهم، وأوثِرَ هذا التعبيرُ لنُكتةٍ لطيفةٍ، وهي الإيماءُ إلى أنَّ حظَّ الأُنثى صارَ في اعتبارِ الشَّرْعِ أهمَّ من حظِّ الذَّكر؛ إذ كانت مهضومةَ الجانب عند أهل الجاهليَّة، فصار الإسلامُ يُنادي بحظِّها في أوَّل ما يَقرَع الأسماعَ[3].

٥- في قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ دليلٌ على أنَّ المالَ كلَّه للذَّكرِ إذا لم يكُن معه أنثى؛ لأنَّه جعَل للذَّكر مثلَ ما للأنثيين، وقد جعَل للأنثى النِّصفَ إذا لم يكن معها ذكَرٌ بقوله: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ فدلَّ على أنَّ للذَّكَرِ حالةَ الانفرادِ مِثْلَيْ ذلك، ومِثْلَا النِّصفِ هو الكلُّ[4].

٦- في قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أنَّ الإرثَ شاملٌ لجميع التركةِ من عَقارٍ، ومنقولٍ، وحيوانٍ، ومنافعَ، وحقوقٍ؛ فكلُّ ما ترك فهو داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجب التنبُّه لِمَن كان له وَرَثةٌ في غير البيت الذي هو فيه، فإنَّ من الناس مَن إذا مات ميِّتُهم، وورِثَه آخرونَ خارجَ البيت، يتمتَّع بما في البيتِ مِن طعامٍ وغيره، ويَسكُن أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعدَ إذن بقيَّة الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَم مِن ميراثِه، وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٣٥).

تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الذين في البيت مِن حينِ موتِ الرَّجُل[١].

٧- قال تعالى: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: ممَّا ورِثه الأبوانِ، ولم يقلْ: (فلأُمِّه الثلثُ ممَّا ترَك) كما قال في السُّدس، فالمعنى أنَّه إذا لم يكنْ له ولدٌ، وكان لأبويه مِن مالِه ميراثٌ، فللأُمِّ ثلثُ ذلك الميراثِ الذي يختصُّ به الأبوان، ويبقَى الباقي للأبِ، ولهذا السرُّ - والله أعلمُ - حيث ذكَر اللهُ الفروضَ المقدَّرةَ لأهلِها، قال فيها: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، أو ما يدلُّ على ذلك، كقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، ليبينَ أنَّ ذا الفرضِ حقُّه ذلك الجزءُ المفروضُ المقدَّر له مِن جميعِ المالِ بعدَ الوصايا والدُّيون، وحيث ذكَر ميراثَ العصباتِ، أو ما يقتسمُه الذُّكور والإناثُ على وجهِ التعصيبِ، كالأولادِ والإخوةِ، لم يقيِّدْه بشيءٍ مِن ذلك؛ ليبينَ أنَّ المالَ المقتسمَ بالتعصيبِ ليس هو المالَ كلَّه، بل تارةً يكونُ جميعَ المالِ، وتارةً يكونُ هو الفاضلَ عن الفروضِ المفروضةِ المقدَّرةِ، وهنا لمَّا ذكر ميراثَ الأبوين مِن ولدِهما الذي لا ولدَ له، ولم يكنِ اقتسامُهما للميراثِ بالفرضِ المحضِ، كما في ميراثِهما مع الولدِ، ولا كان بالتعصيبِ المحضِ الذي يعصبُ فيه الذكرُ والأُنثى، ويأخذُ مثلَيْ ما تأخذُه الأُنثى، بل كانت الأمُّ تأخذُ ما تأخذُه بالفرضِ، والأبُ يأخذُ ما يأخذُه بالتعصيبِ، قال: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ يعني أنَّ القدرَ الذي يستحقُّه الأبوانِ مِن ميراثِه تأخذُ الأمُّ ثلثَه فرضًا، والباقي يأخذُه الأبُ بالتعصيب[٢].

٨- وصْف الوصيَّة بأنَّها ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ لتأكيدِ أمرِها، والتَّحقُّق من نسبتها إلى الميِّت؛ لأنَّ الحقوقَ يجب التثبُّت فيها[٣]؛ ولئلاَّ يُتوهَّمَ أنَّ المراد الوصيَّةُ التي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٤٣).

كانت مفروضةً قبل شَرْع الفرائض، وهي التي في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(١)] [البقرة: ١٨٠].

٩- من الفوائد اللُّغَوِيَّة: أنَّ (كان) في قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قد تُسْلَبُ دَلالتَها على الزَّمان؛ لأنَّها لو دلَّت على الزَّمانِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لكان الربُّ عزَّ وجلَّ الآن ليس عليمًا ولا حكيمًا، لكنَّها أحيانًا تُسلَب دَلالتَها على الزَّمان، ويكون مدلولُها مجرَّدَ الحدَثِ، أو مجرَّدَ الوَصْفِ إذا كان صِفةً[(٢)].

١٠- أُعْقِبَتْ فريضةُ الأزواج بذِكْرِ ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ لئلَّا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّهنَّ ممنوعاتٌ من الإيصاءِ ومِن التَّداينِ، كما كان الحال في زمان الجاهليَّة، وأمَّا ذِكْرُ تلك الجملةِ عَقِبَ ذِكر ميراثِ النِّساء من رجالهنَّ فجريًا على الأسلوبِ المتَّبَعِ في هذه الآيات، وهو أن يعقبَ كلَّ صِنفٍ من الفرائضِ بالتنبيه على أنَّه لا يُستَحَقُّ إلَّا بعد إخراجِ الوصيَّة، وقضاءِ الدَّيْن[(٣)].

١١- أَوْرِدَ اللهُ تعالى أقسامَ الوَرَثَة في هذه الآياتِ على أَحسنِ التَّرتيباتِ؛ وذلك لأنَّ الوارثَ إمَّا أنْ يكونَ متَّصلًا بالميِّت بغيرِ واسطةٍ أو بواسطةٍ، فإنِ اتَّصلَ به بغيرِ واسطةٍ فسببُ الاتِّصال إمَّا أن يكونَ هو النَّسبَ أو الزوجيَّةَ، فحصَل هاهنا أقسامٌ ثلاثةٌ؛ أشرفُها وأعلاها الاتِّصال الحاصلُ ابتداءً من جِهة النَّسب، وذلك هو قرابةُ الولاد، ويَدخُل فيها الأولادُ والوالدان؛ فاللهُ تعالى قدَّم حُكْمَ هذا القسم. **وثانيها**: الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة الزوجيَّة، وهذا القسمُ متأخِّر في الشَّرفِ عن القِسم الأوَّل؛ لأنَّ الأوَّل ذاتيٌّ، وهذا الثَّاني عَرَضيٌّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٣).

والذاتيُّ أشرفُ من العَرَضيِّ. **وثالثها**: الاتِّصالُ الحاصلُ بواسطة الغير، وهو المسمَّى بالكلالة، وهذا القسمُ مُتأخِّرٌ عن القِسمينِ الأوَّلَينِ لوجوه؛ **أحدها**: أنَّ الأولادَ والوالدينِ والأزواجَ والزوجاتِ لا يَعْرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة، وأمَّا الكَلالةُ فقد يَعرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة. **وثانيها**: أنَّ القِسمَينِ الأوَّلينِ يُنسَبُ كلُّ واحدٍ منهما إلى الميِّت بغير واسطةٍ، والكلالةُ تُنسَب إلى الميِّت بواسطةٍ، والثَّابتُ ابتداءً أشرفُ مِن الثَّابتِ بواسطةٍ. **وثالثها**: أنَّ مخالطةَ الإنسانِ بالوالدين والأولاد والزَّوج والزَّوجة أكثرُ وأتمُّ من مخالطتِه بالكلالة، وكثرةُ المخالطةِ مَظِنَّةُ الأُلفة والشَّفقة، وذلك يُوجِبُ شدَّةَ الاهتمام بأحوالهم؛ فلهذه الأسبابِ الثلاثةِ وأشباهِها أخَّرَ الله تعالى ذِكْرَ مواريثِ الكلالةِ عن ذِكر القِسمَينِ الأَوَّلين؛ فما أحسنَ هذا الترتيبَ! وما أشدَّ انطباقَهُ على قوانينِ المعقولاتِ[١]!

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ناسَبَ الخَتْمُ بالعذابِ المهين؛ لأنَّ العاصيَ المتعدِّيَ للحدود برَزَ في صورةِ مَنِ اغترَّ وتجاسرَ على معصيةِ الله، وقد تقلُّ المبالاةُ بالشَّدائد ما لم يَنضمَّ إليها الهوانُ؛ ولهذا قالوا: (المنِيَّة ولا الدَّنِيَّة)[٢].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله**: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ...﴾ الآية: فيه تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ الذي في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾، وتَخصيصُ الذَّكَرِ بالتَّنصيصِ على حَظِّه والابتداءِ به؛ لإظهارِ مزيَّتِه على الأُنثى؛ لأنَّ القصدَ إلى بيانِ فضْلِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١) ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٢).

والتَّنبيهِ على أنَّ التَّضعيفَ كافٍ للتَّفضيلِ، فلا يُحرَمْنَ بالكليَّةِ وقد اشتركا في الجِهة، والمعنى: للذَّكَرِ منهم، فحُذِفَ للعِلم به[١].

- وإيثار اسمَيْ (الذَّكر) و(الأُنثى) على ما ذُكر أوَّلًا من (الرِّجال) و(النِّساء)؛ للتَّنصيصِ على استواءِ الكِبارِ والصِّغارِ من الفريقينِ في الاستحقاقِ، من غَيرِ دخْلٍ للبلوغِ والكِبَرِ في ذلك أصلًا، كما هو زَعْمُ أهلِ الجاهليَّة؛ حيث كانوا لا يُورِّثون الأطفالَ كالنِّساءِ[٢].

- وقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ دون أن يقولَ: (للأنثى نِصفُ الذَّكَر)؛ لأنَّ الحظَّ والنَّصيب فضلٌ وزيادة، والنِّصف نقص؛ فلهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾، فهو أحسنُ تعبيرًا ممَّا لو قال: (للأُنثى نِصفُ ما للذَّكَر)[٣].

٢- قوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ **وقوله:** ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾: أي: ممَّا ترَكَ الميِّتُ الموروثُ؛ ففيه إعادةُ الضَّمير إلى غيرِ مذكورٍ قبْلَه، وهو الضَّميرُ المستكِنُّ في الفِعل (ترَكَ)، أي: ترك هو؛ لقوَّةِ الدَّلالةِ على ذلك؛ لأنَّ الآيةَ لَمَّا كانتْ في الميراثِ، عُلِم أنَّ التارِكَ هو الميِّتُ الموروثُ[٤].

٣- قوله: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾: فيه تكرار للوَصيَّةِ والإيصاء[٥]، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٤٩)- ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٦٤)

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥٢).

- وتقديمُ الوصيَّة على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَة في الحُكم؛ لأنَّه لَمَّا كانت الوصيَّةُ مُشْبِهَةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَضٍ، كان إخراجها مما يشقُّ على الوَرَثة ويتعاظَمُهم، ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتفريطِ، بخلاف الدَّيْنِ فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ إلى أدائه؛ فلذلك قُدِّمَت على الدَّيْن بعثًا على وجوبِها، والمسارعةِ إلى إخراجِها مع الدَّيْن؛ ولذلك جِيءَ بكلمة (أو) للتَّسويةِ بينهما في الوجوب. وقيل: قُدِّمتِ الوصيةُ أيضًا؛ إذ هي حظُّ مساكينَ وضِعافٍ، وأُخِّر الدَّينُ إذ هو حظُّ غريمٍ يطلُبُه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه، ثم أكَّد ذلك ورغَّبَ فيه بقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾، وهي جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدة لوجوبِ تنفيذ الوصيَّة[١].

٤- في الآية: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞ...﴾ قدَّم ذِكْر ميراث سببِ الزوجيَّة على ذِكْر الكلالةِ وإنْ كان بالنسب؛ لتواشُجِ ما بين الزوجين واتصالهما، واستغناءِ كلٍّ منهما بعِشْرَةِ صاحبه دون عِشْرَةِ الكَلَالة[٢].

٥- قوله: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: فيه تكرارٌ لاسم الجلالة[٣]، وإظهارُ الاسم الجليل في موضعِ الإضمار؛ لتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرَّوعةِ، والمبالغةِ في التهديدِ، والتشديدِ في الوعيد[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٠) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٤).

٦- قوله: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جمَع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ في الطَّائعين، وأفرَد ﴿خَٰلِدٗا﴾ في العاصين؛ قِيل: لأنَّ أهلَ الطاعةِ أهلُ الشَّفاعة، وإذا شفَع في غيرِه دَخَلها؛ فلمَّا كانوا يَدْخُلون هم والمشفُوعُ لهم ناسَبَ ذلِك الجمْعُ، والعاصِي لا يَدخُل النارَ به غيرُه، فبَقِي وحيدًا؛ فناسَبَ ذلِك الإفرادُ[1].

وقيل: في هذِه الآية نوعٌ طريفٌ من أنواع البَلاغة يُطلَق عليه اسم (جمْع المختلفة والمؤتَلِفَة)[2]؛ فقد جمَعَ ضميرَ الخالدينَ في الجنة؛ لأنَّ كلَّ مَن دخل الجنَّة كان خالدًا فيها أبدًا، أمَّا أهلُ النار فعبَّر بالمفرَد (خالدًا)؛ إذ بينهم الخالِدون وغيرُ الخالِدين من عُصاةِ المؤمنين؛ فساغَ الجمعُ هناك، ولم يَسُغْ هنا[3].

وقيل: لَعلَّ إيثارَ الإفراد في ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾- نظرًا إلى ظاهِر اللفظ- واختيارَ الجمْع في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾- نظرًا إلى المعنى-؛ للإيذان بأنَّ الخلودَ في دار الثَّوابِ بصفة الاجتماعِ أجلَبُ للأنْسِ، ولأنَّ منادمةَ الإخوانِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٥٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٦).

(٢) جمْع المختلفة والمؤتلفة: هو عبارةٌ عن إرادة المتكلِّم التسويةَ بين ممدوحين، فيأتي بمعانٍ مؤتلفة في مدحهما، ثم يُريد بعد ذلك ترجيحَ أحدهما على الآخَر بما لا ينقُص من الآخر، فيأتي لأجْل ذلك الترجيح بمعانٍ تخالف معاني التسويةِ بحسَب تفاوت درَجاتهم، كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩]، فسوَّى بينهما في الحُكم والعلم، وزاد فَضْل سليمان عليه السَّلام بالفَهْم.

ينظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الإصبع (١/ ٦٦)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٤/ ٤٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٧٨).

مِن أعلَى نعيمِ الجنانِ، كما أنَّ الخلودَ في دار العذابِ بصفةِ الانفرادِ أشدُّ في استجلابِ الوَحْشةِ، وهذا الانفرادُ نوعٌ مِن أنواعِ العذابِ والهَوان[١].

٧- **قوله:** ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ فيه تفصيلٌ بعد إجمال؛ للتَّأكيد[٢].

٨- **قوله:** ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾: تنكيرُ لفظ ﴿وَصِيَّةً﴾ وتنوينُه؛ للتفخيم، و﴿مِّنَ﴾ متعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مؤكِّدَةً لفخامته الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، أي: يوصيكم بذلك وصيَّةً كائنةً من الله[٣].

٩- **قوله:** ﴿وَلَهُۥ﴾، أي: للرجل، ففيه تأكيدٌ للإيذان المذكور؛ حيث لم يَتعرَّضْ للأنثى بعدَ جريانِ ذِكْرها أيضًا، وقيل: الضَّميرُ لكلٍّ منهما[٤].

١٠- **قوله:** ﴿وَذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى ما مرَّ من دخولِ الجنَّات الموصوفة بما ذُكر على وجهِ الخُلود، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذان بكمالِ علوِّ درجتِه[٥].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١١٨-١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٤).

الآيات (١٥ - ١٨)

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: أي: الزِّنا، وأصل الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مستقبَح ومستشنَع؛ من قولٍ، أو فِعْل[١].

﴿سَبِيلٗا﴾: فعلًا وطريقًا، والسَّبيل: الطَّريقُ الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): يدُلُّ على إِرْسالِ شيءٍ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ[٢].

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾: الأذى هنا السَّبُّ والشَّتم، وقد ورَد في القرآن على أحدَ عَشَرَ وجْهًا، وأصلُ الأذى: كل ما يُكرَه، ويُغْتَمُّ به[٣].

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٧٢، ٧٣).

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾: أي: لا تُعَيِّروهما بالفاحشةِ، والإعراضُ أن تُوَلِّيَ الشيءَ عُرْضَك؛ أي: جانبَك، ولا تُقْبِلَ عليه[1].

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: الجهالةُ: هي فِعلُ الشيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، وأصل جَهِلَ: خِلافُ العِلم، والخِفَّةُ، وخلافُ الطُّمأنينةِ[2].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، ومثله قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾:

﴿وَٱلَّٰتِي﴾: اسمٌ موصول مبنيٌّ في محلِّ رفْعٍ بالابتداء، وخبره جملةُ ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، وجاز دخولُ الفاءِ زائدةً في الخبَرِ؛ لأنَّ المبتدأ أشْبَهَ الشَّرطَ في كونه موصولًا عامًّا، صِلتُه فعلٌ مستقبَلٌ، والخبر مستحقٌّ بالصِّلة. وقيل: الخبر محذوف، والتَّقدير: (فيما يُتلى عليكم حُكمُ اللَّاتي)، فـ(فيما يُتلَى) هو الخبر، و(حُكمُ) هو المبتدأ، و(اللاتي): مضافٌ إليه، فحُذف الخبرُ والمضافُ إلى المبتدأ؛ للدَّلالةِ عليهما، وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه، ويكون قوله ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ دالًّا على ذلك الحُكم المحذوف؛ لأنَّه بيانٌ له. ومثله إعراب ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا ...﴾، إلَّا أنَّ ﴿اللَّذَانِ﴾: معرَبٌ وليس مبنيًّا؛ لأنَّه مُلحَقٌ بالمثنَّى، فهو مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِه الألفُ. وقيل: يجوزُ أن يكون موقعهما الإعرابيُّ النَّصبَ بفِعل مقدَّر؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه لا على جِهة الاشتغال، والتقدير: اقصِدوا أو تَعمَّدوا اللاتي يأتِينَ، وقيل: يجوزُ النصبُ على الاشتغالِ كذلك، وفيه بحثٌ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩١).
(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩).

وتوجيهٌ طويل؛ يُراجَعُ في مَظانِّه[(١)].

المَعنَى الإجماليّ:

يَأمرُ اللهُ تعالى عِبادَه- وذلك قبل تشريعِ حدِّ الزِّنا- بحَبْسِ مَن يَقعنَ في الزِّنا من نِسائِهم في البيوت، وألَّا يَسمحوا لهنَّ بالخروجِ حتى يأتيَهنَّ الموتُ، أو يجعلَ الله لهنَّ مخرجًا، سواءٌ كُنَّ متزوجاتٍ أو غيرَ متزوِّجاتٍ، بعد أن يَشهدَ عليهنَّ أربعةٌ من الرِّجال المسلمينَ العُدول بوقوعهنَّ في الزِّنا.

كما أمَرَ اللهُ المؤمنين بإيذاءِ مَن زَنَى مَن الرِّجال والنِّساء إيذاءً قوليًّا بالتعييرِ والتوبيخِ وغيرِ ذلك مِن أنواع الإيذاء، فإنْ تابَا من هذا الجُرْمِ العظيمِ، وأصلحَا فَلْيَكُفَّ المؤمنون عن أذيَّتِهما، إنَّ الله كان توَّابًا رحيمًا، وهذه الأحكامُ السَّابقةُ جميعُها منسوخةٌ.

ثم بيَّنَ تعالى أنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ ممَّن يقَعُ منهم الذنبُ عن سفَهٍ منهم، ثم يتوبونَ قبل معايَنَتِهم للموت، فهؤلاء يَقبلُ اللهُ توبَتَهم، وكان الله عليمًا حكيمًا. وأمَّا الذين يَقعون في المحرَّمات، ثم إذا عاينوا الموتَ بادروا حينَها بالتَّوبَةِ، فإنَّ اللهَ لا يَقبَلُ توبتَهم تلك، تمامًا كما أنَّه سبحانه لا يَقبَلُ توبةَ مَن مات وهو كافرٌ؛ فكلاهما ميؤوسٌ من قَبولِ توبَتِه، وهؤلاء قد أعدَّ الله لهم عذابًا مؤلِمًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا

(١) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٨- ٣٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦١٧- ٦١٩).

﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

النَّاسِخُ والمَنسُوخ:

هاتانِ الآيتانِ الكريمتانِ، منسوختانِ بالاتِّفاق(١)، والنَّاسخُ لهما قولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خُذوا عنِّي، خُذوا عنِّي؛ قد جعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْرُ بالبِكْر: جَلْدُ مئةٍ، ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ، والرَّجْمُ))(٢).

وعليه؛ يكونُ حُكمُ الجَلْدِ لغيرِ المحصَنين ثابتًا بالقرآنِ، وحُكمُ الرجمِ

---

(١) قال ابنُ الجوزي: (لا يَختلف العلماء في نَسْخ هذين الحُكمين عن الزانيين ، أعني: الحبس والأذى، وإنما اختلفوا بماذا نُسِخَا، فقال قومٌ: نسخ بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور: ٢]... وقال قومٌ: نُسِخ هذان الحكمان بحديث عُبادة بن الصَّامت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: «خُذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا: الثيِّب بالثيب جَلْدُ مئةٍ، ورجْم بالحجارةِ، والبِكْر بالبِكر جَلْد مئة، ونَفْيُ سَنَة») ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٣٥٤، ٣٥٦).

وقال ابنُ كثير: (كان الحُكم في ابتداء الإسلام أنَّ المرأة إذا زنت، فثبَت زناها بالبيِّنة العادلة، حُبِسَت في بيتٍ، فلا تُمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يعني: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. قال ابن عبَّاس: كان الحُكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجَلْد، أو الرجم. وكذا رُوي عن عِكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعطاء الخُراساني، وأبي صالح، وقَتادة، وزيد بن أسلم، والضَّحَّاك: أنَّها منسوخة، وهو أمرٌ متَّفَق عليه) ((تفسير القرآن العظيم)) (٢/ ٢٣٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (... مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾، وقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قدْ جعلَ الله لهنَّ سبيلًا)) فبعض الناس يُسمِّي ذلك نسخًا، وبعضُهم لا يُسمِّيه نسخًا، والخلافُ لفظي) ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٣٩).

(٢) رواه مسلم (١٦٩٠).

للمُحصَنين ثابتًا بالسُّنَّة، وكان في آيةٍ مِن القرآنِ، ثم نُسخت تلاوتُها، وبقِي حكمُها.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سُبحانَه في هذه السُّورةِ الإحسانَ إلى النِّساء، وإيصالَ صَدُقاتِهنَّ إليهنَّ، وميراثهنَّ مع الرِّجال، ذكَر التَّغليظَ عليهنَّ فيما يأتينَ به من الفاحشة؛ لئلَّا يَتوهمْنَ أنَّه يَسوغُ لهنَّ تركُ التعفُّفِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾.

أي: إذا وقَع نساؤكم في الزِّنا[2]- متزوِّجاتٍ كنَّ أو غيرَ متزوِّجات- فاطلبوا لإثبات وقوعِهنَّ في الزِّنا أربعةَ رجالٍ من المسلمين العُدُولِ[3].

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

أي: فإنْ شهِدَ أربعةٌ من المسلمين العدولِ على وقوعِهنَّ في الزِّنا، فاحبِسُوهنَّ في البيوتِ؛ عقابًا لهنَّ، لا يُمَكَّنَّ من الخروجِ منها إلى أن يَـمُتْنَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٥٠٣).

(٢) قال السمعاني: (أَجمعُوا على أَنَّ المرَاد به [أي بالفاحشة] الزِّنَا) ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٣-١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٤-١٢٥).

قال ابنُ عثيمين: (وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يتوفَّاهن: أي: يَقبضهن؛ يُقال: توفيتُ حقِّي من فلان، أي: قبضتُه، وقوله: ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي: مَلَك الموت، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ

﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾.

أي: أو يُصَيِّرَ اللهُ تعالى لهنَّ طريقًا ومَخْرجًا للخلاصِ من هذا الإمساك[(١)]؛ بتشريعِ حُكمٍ لهنَّ، وقد كان؛ فقد جعَل الله لهنَّ سبيلًا، فعن عُبادَةَ بنِ الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي؛ قد جَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْر بالبِكْرِ: جَلْدُ مِئةٍ، ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مئةٍ، والرَّجْمُ))[(٢)].

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾.

أي: إنَّ الرجُلَ والمرأة إذا زَنيَا، فآذوهما بالتَّوبيخ، والتَّعييرِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ[(٣)].

﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾.

ٱلۡمَوۡتِ﴾[السجدة: ١١]، ولكن قد يُعبَّر عن ذلك بالموت توسعًا) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٤٩٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

قال ابنُ جرير -بعدَ أنْ ذكَر الخِلاف في تفسير قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا﴾- قال: (وأَوْلى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾: قولُ مَن قال: عُني به البِكرانِ غيرُ المحصنَينِ إذا زَنيَا، وكان أحدهما رجلًا والآخَر امرأة). وينظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٥٦).

قال ابن الجوزي: (لا يختلف العلماء في نسْخ هذيْن الحكمين عن الزانيين، أعني: الحبس والأذى)) ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٣٥٤).

أي: فإنْ رجعَا عن الوقوعِ في الزِّنا، ونَدِمَا عليه، وعزمَا على ألَّا يَعودَا إلى اقترافِ ذلك، وأصلحَا دِينَهُما بالعملِ بما يُرضِي الله تعالى، فكُفُّوا عن أذيَّتِهما[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُوفِّقُ عبادَه للتوبة، ويَقبَلُها منهم، وهو ذو الرَّحمةِ العظيمةِ بعِبادِه، ومِن رحمتِه أنْ هيَّأَهُم للتَّوبة، وقَبِلَها منهم[٢].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾.

أي: إنَّما يَقبلُ الله تعالى التَّوبة مِمَّن عَمِل عملًا سيِّئًا، صدر عن سَفَهٍ منه، وعملُه السُّوءَ هو الجهالةُ التي جهِلها، فكلُّ عاصٍ لله عزَّ وجلَّ، فهو جاهلٌ، وإنْ كان عالِمًا بالتَّحريمِ[٣].

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يَقبَلُ توبةَ العبد إذا تاب حالَ حياتِه، قبل مُعايَنَةِ الموتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣١-١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٠٦-٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

قال عبدالرزاق: (أنا معمر، عن قتادة، في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء: ١٧] قال: اجتمع أصحاب الرَّسول فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ به اللهُ تعالى فهو جهالة، عمدًا كان، أو غير ذلك) ((تفسير عبد الرزاق)) (١/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧١-١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

عن ابنِ عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[١]))[٢].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: فإنَّ هؤلاء الذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ، ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ، يَرزُقُهم اللهُ تعالى- دون مَن لم يَتُبْ- إنابةً إلى طاعتِه، ويَتقبَّلُ منهم أَوْبَتَهُم إليه[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك: عِلمُه بمَن تاب إليه مِن عبادِه، وهو الحكيمُ الذي من حِكمتِه توبتُه على مَن تابَ مِن عِبادِه[٤].

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾.

أي: إنَّ مَن يرتكبون المحرَّمات لا يقبلُ الله عزَّ وجلَّ توبتهم، إذا تابوا حين يأتيهم الموتُ، ساعة الاحتضار، وبلوغِ الرُّوحِ الحُلْقومَ[٥].

---

(١) ما لم يُغَرْغِرْ: أي: ما لم تبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلة الشَّيءِ الذي يَتغَرْغَر به المريضُ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجة (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).
قال الترمذيُّ: حسن غريب. وقال ابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): محتمَل أن يُقال فيه: صحيح. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٥-٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٨-١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤١-١٤٢).

عن ابن عُمَرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ))[١].

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾.

أي: ولا يَقبَلُ اللهُ تعالى أيضًا توبةَ مَن ماتوا على الكفر[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ الذين ماتوا على كُفرِهم أعدَّ الله تعالى لهم عذابًا مُوجِعًا شديدًا[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ حبْسَ المرأةِ في بيتِها من أسبابِ دَرْءِ الفِتنة؛ لقوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ هذا نوعٌ من العقوبة من وَجْهٍ، وكفٌّ لأسباب الفِتنة من وجهٍ آخرَ[٤]، قال الله

يُشترط لصِحَّة التوبة أن تكون في الزمن الذي تُقبل فيه التوبة، وذلك قبل حضور الموت، وهو شَرْط من خمسة شروط للتوبة، هي:

- الشَّرْط الأوَّل: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، بأنْ لا يكون الحامل له على التوبة إلَّا محبة الله والقُرب منه، والخوف من عذابه.
- الشَّرط الثَّاني: النَّدم على ما فعل من الذنب.
- الشَّرط الثَّالث: الإقلاع عن الذنب.
- الشَّرط الرَّابع: أن يعزمَ على أنْ لا يعود في المستقبل إلى ما تاب منه.
- الشَّرط الخامس: أن تكون التوبةُ في وقت تُقبَل من التائب، فإنْ كانت في وقت لا تقبل منه - كما لو حضَر الأجَل، أو طلعت الشمس من مغربها؛ فإنَّ التوبة لا تُقبل. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٧).

تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

٢- الإشارة إلى أنَّ البيت خيرٌ للمرأة؛ لقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾، وكما قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((بيوتُهنَّ خيرٌ لهنَّ))[١].

٣- يُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾، أنَّ كلَّ عاملِ سُوءٍ فإنَّما يعمَلُه بجهالةٍ وسَفَه، والسَّفَهُ ضدُّ الرُّشدِ، فمن عَمِلَ سيِّئًا فقدْ فُقِدَ منه الرُّشد[٢].

٤- أَصْلُ ما يُوقِعُ النَّاسَ في السَّيِّئاتِ الجَهلُ، وعَدَمُ العِلمِ بكَوْنِها تضرُّهم ضررًا راجحًا، أو ظنُّ أنَّها تَنفعُهم نَفعًا راجحًا؛ فإنَّ مَن عَمِل بخِلافِ الحقِّ فهو جاهلٌ وإنْ علِمَ أنَّه مخالفٌ للحقِّ؛ كما قال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]؛ فالعِلمُ الحقيقيُّ الرَّاسخُ في القلبِ يَمتنعُ أنْ يَصدُرَ معه ما يُخالفُه من قولٍ أو فِعلٍ؛ فمتَى صدَرَ خلافُه فلا بدَّ مِن غَفْلةِ القلبِ عنه، أو ضَعْفِه في القَلبِ بمقاومةِ ما يُعارِضُه، وتلك أحوالٌ تُناقِضُ حقيقةَ العِلمِ؛ فيصير جهلًا بهذا الاعتبارِ[٣].

٥- وجوبُ المبادرة بالتَّوبة؛ لأنَّ الله علَّق قَبُولَها على أمَدٍ لا يُعلَم، فإذا كان كذلك وجَبَ المبادرةُ بها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٧).
والحديث رواه أبو داود (٥٦٧)، وأحمد (٥٤٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. صححه النووي في ((المجموع)) (٤/ ١٩٧)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (٩١)، وذكر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٣/ ١٦٠) أنه روي نحوه بإسناد حسن وله شاهد، وصححه أحمد شاكر في تحقيق ((المحلى)) (٤/ ١٩٨)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٠-٢٩١)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٢٥٧).

يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ الرجل أقوى في الشَّهادة من المرأةِ وأثبتُ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لم يعتبِرْ في الزِّنا إلَّا شهادةَ الرِّجالِ(٢).

٢- أنَّ الحدَّ يُدْرَأُ بالشُّبْهَة؛ وذلك لأنَّ اشتراطَ أربعةِ رجالٍ من أجْلِ إثباتِ الشهادة، وشهادةُ النِّساءِ الأربعِ فيها شُبهةٌ؛ لأنَّهنَّ لم يَضْبطْنَ، كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾(٣) [البقرة: ٢٨٢].

٣- سَمَّى اللهُ تعالى الزِّنا فاحشةً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ دون الكُفر وقتْلِ النَّفْسِ، مع أنَّهما أكثرُ قبحًا من الزنا؛ قيل: لأنَّ القُوى المدبِّرة لبَدَن الإنسان ثلاثة: القوَّة الناطقة، والقوَّة الغضبيَّة، والقوَّة الشهوانيَّة؛ ففسادُ القوَّة الناطقة هو الكفرُ والبِدعة وما يشبههما، وفسادُ القوَّة الغضبيَّة هو القتلُ والغضَبُ وما يُشبههما، وفساد القوَّة الشهوانيَّة هو الزِّنا واللواط والسحاقُ وما أشبهها، وأخسُّ هذه القوى الثَّلاثة: القوَّة الشَّهوانيَّة؛ فلا جَرَمَ كان فسادها أخسَّ أنواعِ الفساد، فلهذا السَّبب خُصَّ هذا العملُ بالفاحشة، والله أعلمُ بمراده(٤).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٥٢٨).

ﵟٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗاﵞ قد يُستدلُّ به على أنَّ المُذْنِبَ إذا لم يُعرَفْ فيه حُكمٌ للشَّرْعِ، فإنَّه يُمسَكُ ويُحبسُ، حتى يُعرَفَ فيه الحُكمُ الشرعيُّ، فيُنفَّذَ فيه[١].

٥- إثبات الجَعْل لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﵟأَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗاﵞ، والجَعْل نوعان: جعْل شرعيٌّ، وجعل كونيٌّ قدَرِيٌّ، ومن أمثلة الجعل الشرعيِّ: قوله تعالى: ﵟجَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِﵞ [المائدة: ٩٧]. وأمثلة الجعل الكونيِّ كثيرة في القرآن؛ كقوله تعالى: ﵟوَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗاﵞ [النبأ: ٩ - ١١][٢].

٦- في قوله تعالى: ﵟإِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ...ﵞ أنَّ لله تعالى أن يوجِبَ على نفسه ما شاء، وليس للعباد أن يوجبوا عليه شيئًا؛ لقوله تعالى: ﵟلَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَﵞ [الأنبياء: ٢٣]، وله أن يُحَرِّم على نفسه ما شاء، قال الله تعالى في الحديث القُدُسيِّ: ((يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلْمَ على نفسي))[٣]، وقال تعالى: ﵟكَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَﵞ [الأنعام: ١٢]، فهذا إلزامٌ وفَرْضٌ، ومنه هذه الآية: ﵟإِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِﵞ[٤].

٧- قوله تبارك وتعالى: ﵟوَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِﵞ هنا قال: ﵟوَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُﵞ، ولم يَقُلْ: على الله؛ لأنَّ هذه التوبة منتفيَةٌ شرعًا، فهي ليست حقيقيَّة[٥].

---

(١) ((المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٨).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٤١).

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾: الجملة تعليلٌ للأمر بالإعراضِ عنهما، وفيها مبالغةٌ في قَبولِ التَّوبة[١]؛ حيث عبَّر بصِيَغ المبالغة فعَّال ﴿تَوَّابًا﴾، وفعيل ﴿رَّحِيمًا﴾، مع ما فيها مِن التأكيدِ بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.

٢- **قوله تعالى:** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى المذكورينَ من حيثُ اتصافُهم بما ذُكِرَ، وما فيه من معنى البُعد باعتبارِ كونهم بانقضاءِ ذِكرهم في حُكم البعيدِ[٢].

- قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: فيه تكرير الإسناد ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾؛ لتقويةِ الحُكم، وهذا وعدٌ بقبول توبتهم إِثْرَ بيان أنَّ التوبة لهم، والفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدَّلالةِ على سببيَّتها للقَبول[٣].

- قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: الجملة اعتراضيَّة، مقرِّرة لمضمون ما قبلها، وإظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضِع الإضمار؛ للإشعارِ بعلَّة الحُكم؛ فإنَّ الألوهيَّة منشأٌ لاتِّصافِه تعالى بصفاتِ الكمال، مع ما في ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ من المبالغة في الاتِّصاف بالعِلم والحكمة[٤].

٣- **قوله:** ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ﴾: نفيُ التوبة؛ للمبالغةِ في عدم الاعتدادِ بها في تلك الحالة، وكأنَّه قال: وتوبةُ هؤلاء وعدمُ توبة هؤلاء سواءٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٥).

- وأيضًا في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ ...﴾: تصريحٌ بما فُهِمَ من قَصْرِ القَبول على توبة مَن تاب من قريب، وزِيادةُ تعيينٍ له ببيان أنَّ توبة مَنْ عداهم بمنزلة العَدَم، وجمع ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ باعتبار تكرُّرِ وقوعها في الزَّمان المديد؛ لأنَّ المرادَ جميعُ أنواعها، وما مرَّ من السوء نوعٌ منها[١].

٤- **قوله**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾: ذكر (الآن) لمزيد تعيين الوقت، وإيثار (قال) على (تاب)؛ لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبارِ، والتحاشي عن تسميته توبةً[٢].

٥- **قوله**: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾، وهم الذين يُسوِّفون، وذَكَرَ هؤلاء الكفَّارَ مع أنَّه لا توبةَ لهم رأسًا؛ مبالغةً في بيانِ عدمِ قُبول توبةِ المُسوِّفين، وإيذانًا بأنَّ وجودَها كعدمها، بل في ذِكرِ حرْف النَّفي (لا) في المعطوف ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ ...﴾ إشعارٌ خفيٌّ بكَوْنِ حال المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى مِن حال الذين يموتون على الكُفر[٣].

٦- **قوله**: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: تأكيدٌ لعدمِ قَبول توبتِهم، وبيانُ أنَّ العذاب أعدَّه لهم مَن لا يُعجزه عذابُهم متى شاء[٤].

- قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين، وما فيه من معنى البُعد؛ للإيذانِ بترامي حالِهم في الفظاعة، وبُعْدِ منزلتهم في السُّوء[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٧).

- قوله: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾: تكريرُ الإسنادِ لتقويةِ الحُكمِ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصَّريحِ؛ لإظهارِ الاعتناءِ بكونِ العذابِ مُعَدًّا لهم، وتنكيرُ ﴿عَذَابًا﴾ ووصْفُه بـ﴿أَلِيمٗا﴾؛ للتفخيمِ الذاتيِّ والوصفيِّ[(١)].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٩ - ٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: أي: ولا تَمنعوهنَّ من التَّزوُّج، أو لا تَحبِسوهنَّ وتقهروهنَّ، وأصل (عضل): المنْعُ والشِّدَّة، والالتواء في الأمْر؛ من عضَلتِ المرأةُ إذا علَق ولدُها في بطنِها، وعَسُر خروجُه(١).

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: صاحِبوهنَّ وخالِطوهنَّ، وأصل (عشر): يدلُّ على مُداخلةٍ ومخالطةٍ(٢).

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: أي: ظلمًا، والبُهتان أيضًا الكذبُ، وكلُّ فِعل مستبشَع يُتعاطَى

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٥- ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧).

باليَد والرِّجْل، مِنْ تناوُلِ ما لا يجوز، والمشيُ إلى ما يقبُح[١].

﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: يعني الجِماع؛ يُقال: أفضى إلى امرأتِه: انتهى إليها، ولم يكنْ بينهما حاجزٌ، والإفضاءُ الخَلوة، وأصله يدلُّ على انفساحٍ في شيءٍ واتِّساع[٢].

﴿وَمَقْتًا﴾: بُغضًا، والْمَقْتُ: البُغْضُ الشَّديدُ لِمَن تراه تعاطَى القبيحَ، وأصل (مقت): شناءةٌ وقُبحٌ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: فيه وجهان: أحدُهما: أن (لا) نافية، والفِعل منصوبٌ عطفًا على ﴿تَرِثُوا۟﴾؛ أي: لا يَحِلُّ لكم أنْ تَرِثوا النِّساءَ، ولا أنْ تَعْضُلوهُنَّ. والثاني: أنَّ (لا) نَّاهِيَة، والفِعل مَجزومٌ بها؛ فهو مستأنَفٌ، أو من قَبيلِ عَطْفِ الإنشاءِ على الخَبرِ، حيث عُطِفت جملةُ النَّهْي على الجملةِ الخبريَّةِ[٤].

المَعنَى الإجمالي:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى المؤمنين مُبيِّنًا أنَّه محرَّمٌ عليهم أنْ يأخذوا نِساءَ موتاهم

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٢٨-٦٣٠).

بطريقِ الإرثِ، والحالُ أنهنَّ -بلا ريبٍ- مُكرَهاتٌ على ذلك، كما ينهاهم عن قَهْرِ النِّساءِ، والتضييقِ عليهنَّ من أجل أن يفتدينَ أنفُسَهنَّ منهم بمقابِلٍ؛ فيفارقوهنَّ، إلَّا إذا وقعْنَ في الزنا أو النُّشوز، فيحلُّ حينئذٍ معاملَتُهنَّ تلك المعاملةَ حتى يفتدينَ أنفُسَهنَّ، كما أمر الله تعالى عباده بحُسْنِ صحبة النِّساء بالمعروف، وألَّا يتعجَّلوا في مفارقتِهنَّ إنْ كَرِهُوهنَّ؛ فعسى اللهُ أنْ يَجعلَ في إمساكهنَّ مع ذلك خيرًا كثيرًا في الدُّنيا والآخِرة.

وإذا أراد الأزواجُ فِراقَ أزواجهنَّ، والتزوُّجَ بغيرهنَّ، فلا يحلُّ للزوجِ أن يأخُذَ مِن مهرِ زوجتِه التي يُريد طلاقَها شيئًا، ولو أمْهَرَها مهرًا كثيرًا؛ فإنَّ أَخْذَهُ هنا بهتانٌ وظُلْم وإثمٌ ظاهر، ولا يوجد ما يُبرِّر أخْذَ شيءٍ من ذلك، وقد حصَل بينهم علاقةُ استمتاعٍ وجِماع، وأَخَذَ الزوجاتُ منهم عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وهو عقدُ النِّكاحِ.

ثم نَهى اللهُ عِبادَه أن يتزوَّجوا زوجاتِ آبائهم مِن بَعْدِهم، إلَّا ما قدْ وقَعَ في أيَّامِ جاهليَّتِهم؛ فإنَّه معفوٌّ عنه، وذلك أنَّ هذا الفعلَ في غايةِ القُبْح، وهو أمرٌ مبغوضٌ من الله ومن النَّاس، وساء هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سَلَكَه!

تَفسيرُ الآيات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ قال: كانوا

إذا مات الرَّجُلُ كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحقُّ بها مِن أهلِها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك))[١].

وعن أبي أُمامةَ بنِ سهلِ بن حُنيفٍ، قال: ((لَمَّا تُوُفِّي أبو قَيسِ بنُ الأسلتِ، أراد ابنُه أنْ يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهليَّة، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾))[٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

أي: يحرُمُ عليكم- أيُّها المؤمنون- أنْ تَستحوِذوا على زَوجاتِ مَن ماتَ مِن آبائكم وأقاربكم، وكأنَّهنَّ مِن جملةِ تركتِهم، وذلك كأنْ تتزوجوهنَّ، أو تُزوِّجوهنَّ لغيركم، أو تمنعوهنَّ من الزَّواج، والحال أنهنَّ كارهاتٌ لذلك، مُكرَهاتٌ عليه[٣].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

أي: يحرُم عليكم- أيُّها الأزواج- أن تُضيِّقوا على أزواجكم في العِشْرة، وتقهروهنَّ؛ لتُلجِئوهنَّ إلى افتداء أنفسهنَّ منكم؛ بترك مهورهنَّ أو بعضٍ منها، أو بتنازلهنَّ عن أيِّ حقٍّ آخرَ من حقوقهنَّ؛ لتفارقوهنَّ[٤].

(١) رواه البخاري (٤٥٧٩).
(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٣٢١) (١١٠٩٥)، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٠٣٠).
حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٢١-٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥١-١٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٠-٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٢).

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾.

أي: يحلُّ لكم- أيُّها الأزواج- عَضْلُ زوجاتكم، والضِّرارُ بهنَّ بالعدل، إذا وقَعْنَ في الزِّنا أو النُّشوز، حتى يَفتدينَ أنفُسَهنَّ منكم؛ بالتنازُلِ عن بعضِ حُقوقهنَّ- كالمهرِ أو بعضِه- من أجْلِ أنْ تفارقوهنَّ[1].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: صاحِبوا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم كما أمرَكم الله تعالى، وذلك بالخُلق الحسَن؛ كالقول الطيِّب، وكفِّ الأذى، وبذْلِ الإحسان، وحُسن الهيئة، وغير ذلك، وصاحبوهنَّ بأداء حقوقهنَّ من النَّفقةِ والكُسوة، وغير ذلك ممَّا أمَرَ الله تعالى به، وبما يَتعارَفُ عليه النَّاس، ولا يُنكِرُه الشَّرعُ[2].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهلِه، وأنا خَيْرُكُمْ لأهلِي))[3].

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٢-٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٢-١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٣-١٥٤).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٩٥) واللفظ له، والدارمي (٢٢٦٠).

قال الترمذي: حسن غريب صحيح، وصحح إسناده ابن جرير الطبري في ((مسند عمر)) (١/ ٤٠٨)، ورواه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤١٧٧)، وصححه الشوكاني في ((فتح القدير)) (١/ ٦٣٥)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٧٧)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٥)، وصححه على شرط الشيخين الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٦١٦).

والحديث روي من طرق عن عبد الله بن عباس وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

أي: عاشِروا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم بالمعروف، وإنْ كرهتموهنَّ؛ فعسى أن يكونَ صَبْرُكم مع إمساكِكم لهنَّ وكراهيتِهنَّ، فيه خيرٌ كثيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرة؛ كأولادٍ تُرْزَقُونَهُمْ منهنَّ، أو تزولُ كراهتكم لهنَّ، وتَخْلُفُها محبتُهنَّ، وغير ذلك[١].

عن أبي هريرة رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً[٢]؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رضِيَ منها آخرَ، أو قال: غيرَهُ))[٣].

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى كراهيةَ الزَّوجِ لزوجِه في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ ولا جَرَمَ أنَّ الكراهيةَ تَعقُبها إرادةُ استبدالِ المكروهِ بضدِّه؛ فلذلك عطَفَ الشَّرْط في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ...﴾ على الذي قبله استطرادًا واستيفاءً للأحكام[٤].

وأيضًا لَمَّا نهى عن العَضْل تسبُّبًا إلى إذهاب بعض ما أُعْطِيَتْهُ المرأةُ- أَتْبَعَهُ التصريحَ بالنَّهي عن أخْذ شيءٍ منه في غيرِ الحالة التي أُذِنَ فيها في المضارَّة، وهي الفاحشة[٥]، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٤).

(٢) لا يَفْرَكْ مُؤمنٌ مُؤمنةً: أي لا يُبغضها، لأنه إن وجد فيها خلقًا يكره، وجد فيها خلقًا مرضيًّا كأنَّه حَثَّ على حُسْنِ العِشرةِ والصُّحْبة. ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٤١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٥٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٤٧٤).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣).

أي: وإذا أراد أحدُكم- أيُّها الأزواج- أنْ يُطلِّقَ زوجته، ويتزوَّج بأخرى[١].

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

أي: والحال أنَّكم قد أمهرتموهنَّ مهرًا كبيرًا، فإنَّه لا يحلُّ أخْذُ شيءٍ منه عَنوةً؛ لأنَّه حقُّها، والنهي عن ذلك بالأَوْلى لو كان المهر قليلًا[٢].

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

أي: أتأخذون ما آتيتموهنَّ من المهور ظلمًا بغير حقٍّ، وإثمًا ظاهرًا، قد أبان أمْرَ آخِذِه أنَّه بأخْذه إيَّاه ظالمٌ لِمَن أخَذَه منه[٣]؟

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٢١﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: على أيِّ وجهٍ تأخذون من نسائكم ما أعطيتُموهنَّ من مهور؟ والحال أنَّه قد حصلت بينكم عَلاقةُ استمتاعٍ وجماعٍ[٤].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وقد أخذ نساؤكم منكم- أيُّها الأزواج- عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٠-٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠).

بعقد النكاح، والقيام بحقوقهنَّ، ومن ذلك: إمساكُهنَّ بمعروفٍ، أو تسريحهنَّ بإحسانٍ(١).

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عباس رضِي اللهُ عنهما قال: ((كان أهل الجاهلية يُحَرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأب، والجمعَ بينَ الأختين، قال: فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾))(٢).

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾.

أي: لا تَتزوَّجوا- أيُّها المؤمنون- زوجاتِ آبائِكم مِن بَعدِهم، إلَّا ما وقَع منكم من ذلك في جاهليَّتِكم، أو قبل تحريمِه؛ فإنَّه معفوٌّ عنه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٢-٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٠-١٦١).

(٢) رواه ابن جرير في ((تفسيره)) (٨/ ١٣٢)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٥٢٣).
صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٧٩)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٧٥): رجالُه رجال الصحيح إلَّا محمد بن عبد الله المخرميَّ، وهو ثقة.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٤٨-٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٥-١٦٧، ١٧٠).
قال الرازي: (أجمعوا [أي المفسِّرون] على أنَّ سبب نزول هذه الآية هو أنَّهم كانوا يتزوَّجون بأزواج آبائهم، وأجمع المسلمون على أنَّ سبب نزول الآية لا بدَّ وأن يكون داخلًا تحت الآية، بل اختلفوا في أنَّ غيره هل يدخل تحت الآية أم لا؟ وأما كون سبب النزول داخلًا فيها فذاك مجمعٌ عليه بين الأمَّة، فإذا ثبت بإجماع المفسِّرين، أنَّ سبب نزول هذه الآية هو العقد لا الوطء، وثبت بإجماع المسلمين أنَّ سبب النزول لا بدَّ وأن يكون مرادًا، ثبت بالإجماع أنَّ

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾.

أي: إنَّ تزوُّجَكم بزوجاتِ آبائِكم لَهُوَ فِعلٌ في غايةِ البَشاعة والقُبح، وهو أمرٌ يُبغِضُه اللهُ تعالى، ويُبغضه الناسُ، وقد يُبغض الابنُ أباه بسببه؛ فإنَّ من تزوَّج بامرأةٍ قد يُبغض مَن كان زوجَها قبلَه[١].

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

أي: وبِئْسَ هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سلَكه[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ حثٌّ للأزواج أن يُمسِكوا زوجاتِهم مع الكراهية لهنَّ؛ فإنَّ في ذلك خيرًا كثيرًا؛ من ذلك امتثالُ أمر الله، وقَبولُ وصيَّته التي فيها سعادةُ الدنيا والآخرة، ومنها أنَّ إجبارَه نفسَه- مع عدم محبَّته لها- فيه مجاهدةُ النفس، والتخلُّق بالأخلاقِ الجميلة، وربَّما تزول الكراهيةُ وتخلُفُها المحبَّة، كما هو الواقع، وربما رُزِقَ منها ولدًا صالحًا، نفَعَ والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كلُّه مع الإمكان في الإمساك، وعَدَمِ وقوع المحذور[٣].

٢- قد تكونُ المصيبةُ للإنسانِ دواءً نافعًا ساقَه إليه الطبيبُ العليمُ بمصلحتِه،

النَّهي عن العقد مرادٌ من هذه الآية) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨).

وقال أبو السعود: (اسمُ الآباءِ ينتظِمُ الأجدادَ مجازًا فتثبُت حرمةُ ما نكحوها نصًّا وإجماعًا) ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ١٦٧-١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٢).

الرحيمُ به، وفي عُقبَى هذا الدَّواءِ مِن الشِّفاءِ والعافيةِ والصِّحَّةِ وزوالِ الألَم ما لم يَحصُل بدونِه؛ فإذا طالَعَتْ نفْسُه كراهةَ هذا الدَّواءِ ومَرارتَه؛ فلينظُرْ إلى عاقِبَتِه وحُسْنِ تأْثيرِه؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1].

٣- لَا يَنْبَغِي أَن يَجْعَل العبدُ المعيارَ على مَا يضُرُّه وينفَعُه، مَيْلَه وحُبَّه ونفرتَه وبُغْضَه، بل المعيار على ذلك ما اخْتارَه الله له بأَمْرِه وَنَهْيه، فأنفَعُ الأَشْيَاء له على الإِطْلاق طَاعَةُ ربِّه بِظَاهِرِه وباطِنِه، وأضَرُّ الْأَشْيَاء عليه على الإِطلاقِ مَعْصِيَتُه بظاهِرِه وباطِنِه، فَإِذا قامَ بِطَاعَتِهِ وعبوديَّتِه مخْلِصًا لَهُ؛ فكلُّ ما يجري عليه ممَّا يكرَهُه يكون خيرًا له، وإذا تخلَّى عن طاعَتِه وعبودِيَّتِه، فكلُّ ما هو فيه من محبوبٍ هو شَرٌّ له؛ فمن صَحَّتْ له معرفَةُ رَبِّه والفِقْهُ في أسمائِه وصفاتِه، عَلِمَ يقينًا أنَّ المكروهاتِ التي تصيبُه والمحَنُ التي تنزِلُ به؛ فيها ضروبٌ من المصالِح والمنافِعِ التي لا يُحْصيها عِلْمُه ولا فِكْرَتُه، بل مصلحةُ العبد فيما يكرَهُ أعظَمُ منها فيما يحِبُّ، فعامَّةُ مصالِحِ النُّفوسِ في مكروهاتها، كما أنَّ عامَّةَ مَضارِّها وأسباب هَلَكَتِها في محبوباتِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩] فالعبدُ قد يكرَه الْمَرْأَةَ لِوَصْفٍ من أوصافِها، وَله فِي إِمْسَاكِها خيرٌ كثيرٌ لَا يعرِفُهُ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- تحريمُ الحِيَل وبُطلانُها؛ فالمقاصدُ والنيَّاتُ معتبَرةٌ في التصرُّفِ والعاداتِ؛ يدلُّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٦- ٢٧٧).
(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾؛ فبيَّن تعالى أنَّه إذا عضَلَها لتفتَدِيَ نفسَها منه، وهو ظالِمٌ لها بذلك، لم يحِلَّ له أخْذُ ما بذلَتْه له ولا يَملِكُه بذلك(١).

٢- قال أهلُ العِلم: (عسى) من الله واجبةٌ، فإذا قال الله: (عسى) فهي واجبة، والأمرُ واجبٌ ويقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ [النساء: ٩٩]؛ وذلك لأنَّ الرجاءَ في حقه عزَّ وجلَّ غيرُ واردٍ؛ إذ إنَّه هو المتصرِّف المدبِّر، والرجاءُ إنَّما يكون مِمَّن لا يملِكُ الشيء فيرجوه من غيره، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وعدًا من الله أنَّ من صَبَر ابتغاءَ وجه الله على ما يكرهه، واحتسابًا لثواب الله، بأن يجعَلَ الله فيه خيرًا كثيرًا، فإنَّه يتحقَّق له هذا الوعدُ، فإنْ تخلَّفَ هذا الوعدُ فلوجودِ مانعٍ، وإلَّا فإنَّ وعْدَ الله حقٌّ(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ...﴾ الإرشاد إلى إعماقِ النَّظر وتغلغُلِ الرأي في عواقِبِ الأشياء، وعدم الاغترارِ بالبوارقِ الظَّاهرة، ولا بميلِ الشَّهوات إلى ما في الأفعال مِن ملائم، حتى يَسبُرَه بمِسْبَارِ الرأي، فيتحقَّق سلامةَ حُسْنِ الظاهرِ من سُوء خفايا الباطِن(٣).

٤- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ دَلالةٌ على عدم تحريمِ كثْرةِ المهرِ، مع أنَّ الأفضلَ واللائق الاقتداءُ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تخفيفِ المَهْر؛ ووجْهُ الدَّلالة أنَّ الله أخبَرَ عن أمْرٍ يقع منهم، ولم يُنْكِرْه عليهم، فدلَّ على عدم تحريمِه(٤).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣).

٥- الإشارةُ إلى سترِ ما بين الزوجين؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، وهذا الإفضاءُ معروفٌ أنَّه إفضاء سِرِّيٌّ؛ ولهذا فإنَّ الذي يُفشِي السرَّ فيما كان بينه وبين زوجته مِنْ شَرِّ الناسِ منزلةً عند الله يومَ القيامة[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، كنَّى الله تعالى عن الجِماعِ بالإفضاءِ، وهو الوصولُ إلى الشَّيءِ من غير واسطةٍ؛ تعليمًا لعباده؛ لأنَّه مِمَّا يُسْتَحْيَا منه[٢].

٧- غِلَظُ عقد النِّكاح، وأنَّه عقدٌ يجب أن يُهتمَّ به؛ لقوله: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى في الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، أي: اضبطوها بالحِساب، فالآيةُ الكريمةُ تُفيد خطرَ عقْدِ النِّكاح وأهميَّته، وأنَّه يجب أن يُعتنى به، ويُحتفَظ به وبشروطِه وكلِّ ما يلزم فيه؛ حتى لا يقعَ الإشكالُ بين الرجل وزوجته، وتحصُلَ أمورٌ لا تُحمَد عُقباها[٣].

٨- أنَّ نكاحَ المحارم أشدُّ من الزِّنا؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وفي الزِّنا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يَقُل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ ولهذا ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّ من زَنَى بامرأةٍ من محارمِه أو تزوَّجها، فإنَّه يُرجَم ولو كان غير مُحصَنٍ؛ لأنَّ نكاحَ ذواتِ المحارمِ أعظمُ من الزِّنا وأشدُّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧١).

٩- الفاحشةُ تتناولُ الفعلَ القبيحَ، وتتناولُ إظهارَ الفعلِ وأعضاءه، وتتناولُ أيضًا ما فحُش وإن كان بعقدِ نكاحٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فالفاحِشَةُ تتناوَلُ العقودَ الفاحِشَة، كما تتناوَلُ المباشَرَة بالفاحِشَة؛ فالنهي في الآية يتناول العَقْدَ والوَطْءَ[١].

بَلاغَةُ الآيات:

١- **قوله:** ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهًاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ لتأكيد النَّفي، يعني: لا يحلُّ لكم أن ترِثوا النِّساءَ ولا أنْ تعضلوهنَّ، أي: ولا تمنعوهنَّ من التَّزويج، أو: ولا أن تُضيِّقوا عليهنَّ[٢].

٢- **قوله:** ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: عبَّر بالذَّهابِ به لا بالأَخْذِ ولا بالإذهاب؛ للمبالغةِ في تقبيحِه ببيانِ تضمُّنه لأمرينِ، كلٌّ منهما محظورٌ شنيع، (الأَخْذ والإذهاب) منهنَّ؛ لأنَّه عبارةٌ عن الذَّهاب مستصحبًا به[٣].

٣- **قوله:** ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾: علَّة للجزاءِ، أُقيمتْ مقامَه؛ للإيذان بقوَّة استلزامها إيَّاه، كأنَّه قيل: (فإنْ كرهتموهنَّ، فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة؛ فلعلَّ لكم فيما تكرهونه خيرًا كثيرًا ليس فيما تحبُّونه)[٤].

- وذِكْر الفِعل الأول ﴿تَكۡرَهُواْ﴾ مع إمكان الاستغناءِ عنه، وانحصار العِلِّيَّة في الثاني ﴿وَيَجۡعَلَ ...﴾ للتوسُّلِ إلى تعميمِ مفعوله؛ ليُفيدَ أنَّ ترتيبَ الخيرِ

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٢).

(٢) ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٨).

الكثيرِ مِن الله تعالى ليس مَخصوصًا بمكروهٍ دونَ مكروه، بل هو سُنَّة إلهيَّة جاريَةٌ على الإطلاقِ حَسَبَ اقتضاء الحِكمة، وفيه من المبالغةِ في الحَمْلِ على ترْك المفارقةِ، وتعميمِ الإرشادِ ما لا يَخفَى[١].

- وتنكير ﴿خَيْرًا﴾ وتنوينه؛ لتفخيمِه الذاتي، ووصْفُهُ بالكثرةِ بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾؛ لبيان فخامتِه الوصفيَّة[٢].

٤- **قوله:** ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: استئنافٌ مَسُوق لتقريرِ النهي، والتنفيرِ عن المنهيِّ[٣]، والاستفهامُ إنكارٌ وتوبيخ، أي: تأخذونه باهتِين وآثِمين[٤].

٥- **قوله:** ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾: استفهامُ إنكارٍ لأخْذِه إثْرَ الإنكارِ الوارد في قوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾، وتنفيرٌ عنه بعد تنفيرٍ، على سبيلِ التعجُّب، أي: بأيِّ وجهٍ تَسْتَحِلُّون المهر، وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ[٥]؟!

- وفيه مبالغةٌ؛ حيثُ وجَّه الإنكارَ إلى كيفيَّة الأخْذِ؛ إيذانًا بأنَّه ممَّا لا سبيلَ له إلى التحقُّق والوقوعِ أصلًا؛ لأنَّ ما يَدخُلُ تحتَ الوجود لا بدَّ أن يكونَ على حالٍ من الأحوال، فإذا لم يكُنْ لشيءٍ حالٌ أصلًا، لم يكُنْ له حظٌّ من الوجودِ قطعًا[٦].

٦- **قوله:** ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: في قوله: ﴿أَفْضَىٰ﴾ كنايةٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩).

حسنة[١]؛ لأنَّ الإفضاءَ إلى الشيءِ عبارةٌ عن المباشَرة له، وعُني بالإفضاءِ في هذا الموضِع الجماعُ[٢].

٧- **قوله:** ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾: خُصَّ هذا النِّكاحُ بالنَّهي، ولم يُنْظَمْ في سلكِ نكاحِ المحرَّماتِ الآتيةِ بَعدَه؛ مُبالغةً في الزَّجرِ عنه؛ حيثُ كانوا مُصِرِّين على تعاطِيه مع الاستِهانةِ بذلك، فأفْرَدَه وقدَّمَه؛ تَعظيمًا لحُرمةِ أزواجِ الآباءِ[٣].

٨- **قوله:** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾: تعليلٌ للنهي، وبيانٌ لكون المنهيِّ عنه في غاية القُبح مبغوضًا أشدَّ البُغضِ، وأنَّه لم يَزَلْ في حُكمِ الله تعالى وعِلمه موصوفًا بذلك، ما رُخِّص فيه لأُمَّةٍ من الأمم؛ فلا يُلائِم أن يُوسَّط بينهما ما يُهَوِّن أمْرَه مِن ترْك المؤاخذةِ على ما سَلَف منه[٤].



(١) وحمله على الكِناية أبلغُ وأقربُ في هذا المقام؛ لوجوه؛ منها: أنه تعالى ذكر ذلك في معرض التعجب، فقال: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾، والتعجب إنما يتمُّ إذا كان هذا الإفضاء سببًا قويًّا في حصول الألفة والمحبَّة، وهو الجماع، لا مجرد الخلوة؛ فوجب حملُ الإفضاء عليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩).

(٢) ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٥٩)، وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٠).

الآية (٢٣)

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ وَرَبَائِبُكُمُ ﴾: أي: بناتُ نِسائِكم من غيرِكم، والرَّبائب جمْع: رَبيبةٍ، وهي مأخوذةٌ من التربية، وهو إنشاءُ الشيءِ حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام[1].

﴿ فِي حُجُورِكُمْ ﴾: أي: فِي ضَمانِكم وتَربيتكم، والحُجور جمْع حِجر، وحِجْرُ القميص: اسمٌ لِمَا يُجعل فيه الشيءُ فيُمنَع؛ يُقال: فلان في حَجْرِ فلان، أي: في منعٍ منه عن التصرُّف في ماله، وكثيرٍ من أحواله، وأصل الحَجْر: المنعُ، والإحاطة على الشَّيءِ[2].

﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ﴾: أي: أزواجِ البنين، جمْع حَليلة؛ وسُمِّيت الزوجةُ حليلةً، والزَّوجُ حليلًا؛ لنُزولِهما معًا؛ فتَحُلُّ معه ويَحُلُّ معها، أو لحَلِّ كلِّ واحدٍ

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢١).

منهما إزارَه للآخَر، وإمَّا لكونِها حَلالًا له، وأصل (حلَّ): فتْحُ الشَّيء[١].

﴿أَصْلَـٰبِكُمْ﴾: أي: ظُهورِكم، جمْع صُلب؛ وسُمِّي الظَّهرُ صلبًا باعتبارِ الصَّلابة والشدَّة، وأصل (صلب): الشِّدَّة والقوَّة، وكلُّ شيءٍ من الظَّهر فيه فَقَارٌ، فهو صلبٌ[٢].

المَعنَى الإجمالي:

يُخبرُ تعالى أنَّه حرَّم على المؤمنين التزوُّجَ بأمَّهاتِهم، وبناتِهم، وأخواتِهم، وعمَّاتِهم، وخالاتِهم، وبناتِ إخوانهم، وبناتِ أَخواتِهم، كما أنَّه حرَّمَ عليهم الزَّواجَ من أمَّهاتهم اللاتي قُمْنَ بإرضاعهم، وأخواتهم من الرَّضاعة، كما حرَّمَ أيضًا التزوُّجَ بأمِّ الزوجة مُطْلَقًا، سواء حصَل الدخولُ بالبنتِ أمْ لم يَحصُل، وحَرَّم كذلك الزواجَ ببنات الزوجات إذا تزوَّجوا أُمَّهاتِهن، وبَنَوْا بهنَّ، فإذا لم يكونوا بَنَوْا بأمهاتهنَّ فيجوزُ نكاحُ بِنتِ الزوجةِ بعدَ فِراق أمِّها، وحرَّم نِكاحَ زوجات الأبناء الذين ولدوهم، سواءٌ دخل الابنُ بزوجته أم لم يدخُلْ، كما أنَّه حرَّمَ الجمْعَ بين الأختين إلَّا ما وقَع في الجاهليَّة، أو حصَل قبلَ تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليهم فيه؛ إنَّ الله كان غفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآية:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧).

(٢) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٤).

ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى تحريمَ نِكاحِ ما نَكَحَ الآباءُ في الآيةِ السَّابقةِ تخلَّص إلى ذِكرِ باقي المحرَّمات في النِّكاح(١).

وأيضًا لَمَّا ابتدأَ بتعظيمِ الآباءِ واحترامِهم في أنْ يَنكِحَ الأبناءُ أزواجَهم على العمومِ، ثنَّى بخصوص الأمِّ بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾(٢).

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كان أهلُ الجاهليَّةِ يُحَرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأبِ والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾))(٣).

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾.

أي: حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ عليكم- أيُّها المؤمنون- التزوُّجَ بأمهاتِكم، وبناتِكم، وأخواتِكم، وعمَّاتِكم، وخالاتِكم، وبناتِ إخوانِكم، وبناتِ أخواتكم؛ فهؤلاء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي(٥/ ٢٢٨).
(٣) تقدم تخريجه.

محرَّماتٌ على الرجُلِ من جِهة النَّسب[١].

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾.

أي: وحرَّم اللهُ تعالى أيضًا عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نِكاح أمَّهاتِكم، وأخواتِكم من جِهةِ الرَّضاعة[٢].

عن عبدِ اللهِ بن عَبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ في بنتِ حمزةَ: ((لا تَحِلُّ لِي، يَحْرُمُ من الرَّضَاعِ ما يَحْرُمُ من النَّسَبِ، هيَ بِنتُ أخِي من الرَّضَاعَةِ))[٣].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنَّ عمَّها من الرَّضاعةِ، يُسمَّى أفلحَ، استأذنَ عليها فحَجَبَتْهُ، فأخبرتْ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال لها: ((لا تَحْتَجِبي منهُ؛ فإنَّهُ يَحْرُمُ من الرَّضاعةِ ما يَحْرُمُ من النَّسَب))[٤].

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نكاحَ أمِّ الزوجة مطلقًا، سواءٌ دخَلْتم بابنتِها أو لم تَدْخلوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٣- ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٢-١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٤-١٧٥).

قال ابنُ جرير: (فكلُّ هؤلاء اللواتي سمَّاهنَّ الله تعالى، وبيَّن تحريمهنَّ في هذه الآية، محرَّماتٌ، غير جائزٍ نِكاحُهنَّ لمن حرَّم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمَّة، لا اختلاف بينهم في ذلك، إلَّا في أمهات نِسائنا اللواتي لم يَدخُلْ بهن أزواجُهن) ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٦٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٤٧).

(٤) رواه مسلم (١٤٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٥-٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾.

أي: وحرَّمَ عليكم أيضًا نِكاح بناتِ زوجاتِكم اللاتي جامعتموهنَّ[١].

عن أمِّ حبيبةَ- رملةَ بنتِ أبي سُفيانَ- رضِي اللهُ عنهما، قالت: ((دخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقلتُ لهُ: هل لك في أُختي بنتِ أبي سفيانَ؟ فقال: أفعلُ ماذا؟ قلتُ: تنكِحُها، قال: أَوَ تُحِبِّينَ ذلك؟ قلتُ: لستُ لك بِمُخْلِيةٍ[٢]، وأَحَبُّ مَن شَرِكَني في الخيرِ أُختي، قال: فإنَّها لا تحلُّ لي! قلتُ: فإنِّي أُخْبِرْتُ أنَّك تخطبُ دُرَّةَ بنتَ أبي سلمةَ، قال: بنتَ أمِّ سلمةَ؟ قلتُ: نعمْ، قال: لو أنَّها لم تكُنْ رَبيبتي في حِجري، ما حلَّتْ لي؛ إنَّها ابنةُ أخي مِن الرَّضاعةِ، أَرضعَتْني وأباها ثُويبةُ، فلا تَعرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ))[٣].

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: فإنْ لم تكونوا دخلتُم بزوجاتِكم؛ فلم تُجامِعوهنَّ حتى طلَّقتموهنَّ، فلا حرجَ عليكم في نِكاح بناتِهنَّ[٤].

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نِكاحَ زوجات أبنائِكم، سواءٌ دخلوا بهنَّ أو لم يَدخُلوا، والمرادُ بأبنائكم: الذين ولدتموهم، دونَ أبنائِكم من جِهة الرَّضاعة،

عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٥٨-٥٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٥-١٧٧).

(٢) ولَسْتُ لك بمُخْلِيَةٍ: أي: لستُ بمنفردةٍ بك، ولا خالية مِن ضرَّةٍ، وليس مِن قولهم: امرأةٌ مُخلية، إذا خَلَتْ من الزوج. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٢٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٤).

(٣) رواه البخاري (٥١٠١، ٥٣٧٢)، ومسلم (١٤٤٩) واللفظ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٧).

ودونَ الأدعياءِ الذين تبنَّيتموهم في الجاهليَّة[١].

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾.

أي: وحرَّم عليكم أيضًا الجمْعَ بين الأختين بنكاحٍ، إلَّا ما وقَعَ منكم في جاهليَّتكم، أو قبل تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليكم فيه[٢].

وفي حديث أمِّ حَبيبةَ رضِي اللهُ عنهما، عندما عرضت على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الزواجَ من أختِها، فقال صلى الله عليه وسلم: ((فإنَّها لا تحلُّ لي!)). ثم قال: ((فلا تَعرِضْنَ عليَّ بناتِكُنَّ ولا أخواتِكنَّ))[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ، يَستُرُ ذنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عنها، ومِن ذلك: عدمُ مؤاخذتِهم على ما وقَع منهم؛ مِن الزواجِ بِمَن حرَّمهنَّ الله تعالى قبلَ نزولِ التحريمِ، وهو الرحيمُ بهم، ومن رحمتِه مغفرتُه لذنوبِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٠-٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٧-١٧٩).
قال الجصاص: (قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ قد تناول عندَ الجميع تحريمَ حليلةِ ولدِ الولدِ على الجدِّ، وهذا يدلُّ على أنَّ ولد الولد يُطلَق عليه أنَّه من صُلْب الجدِّ؛ لأنَّ إطلاقَ الآيةِ قد اقتضاه عند الجميعِ) ((أحكام القرآن)) (٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧٩-١٨٠).
قال ابنُ كثير: (قد أجْمَع العلماءُ من الصَّحابة والتابعين والأئمَّة قديمًا وحديثًا على أنه يحرُم الجمعُ بينَ الأُختين في النِّكاح، ومَن أسلمَ وتحته أُختان خُيِّر؛ فيُمسك إحداهما، ويُطلِّق الأخرى لا محالةَ) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨٠-١٨١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قولُه تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ ...﴾ الآية، يتناوَلُ ما يسَمَّى بنتًا حتى يَحْرُم عليه بنت بِنْتِه وبِنْتُ ابنِه؛ بخلاف قولِه سبحانه في الفرائِضِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ فإنَّ هذا إنما يتناوَلُ وَلَدَه ووَلَدَ ابنِه، لا يتناوَلُ ولَدَ بِنْتِه؛ ولهذا لَمَّا كان لفْظُ الابْنِ والبِنْت يتناول ما يُسَمَّى بذلك مُطْلَقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لِيُحْرِزَ عن الابنِ المُتبَنَّى- كزيد- الذي كان يُدْعَى: زيدَ بْنَ مُحمَّد؛ فإنَّ هذا كانوا يسمُّونه «ابنًا» فلو أُطْلِقَ اللَّفْظُ لظُنَّ أنَّه داخِلٌ فيه؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لِيُخْرِجَ ذلك[1].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ لَفْظَ (أُمَّهات) عندَ الإطلاقِ إنَّما يُرادُ به الأمُّ مِن النَّسَبِ[2]، فلا يَدخُل فيها الأمُّ مِن الرَّضاعة، ووجهُ ذلك: أنَّه لو كانتِ الأمُّ من الرَّضاع تَدخُل في الأمِّ عندَ الإطلاق، لَمَا احْتيجَ إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾؛ لأنَّها تدخُل في قولِه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾، ويتفرَّع عن هذه الفائدةِ: أنَّ أمَّ الزوجةِ من الرَّضاعِ لا تَدخُل في قولِه: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾؛ لأنَّه عندَ الإطلاقِ لا تدخُلُ فيها الأمُّ من الرَّضاع[3].

٣- أنَّ لبنَ الفحل مُحَرِّمٌ؛ أي: إنَّ الأختَ من الأبِ من الرَّضاعة حرامٌ؛ لعمومِ قوله سبحانه: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾، وهذا -والله أعلم- من فائدةِ ذِكرِ الأخواتِ دون البناتِ من الرَّضاعة؛ فإنَّ البناتِ مِن الرضاعة لم يُذْكَرْن،

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٤٠).
(٢) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٨٣).

وكذلك العمَّات لم يُذْكَرْن؛ لأنَّ الأخوات تُغنِي عن العمَّات؛ لأنَّهنَّ حَواشٍ، وهنَّ أقربُ الحواشي إلى الإنسان؛ فيُستفَاد من هذه الآية أنَّ الأخواتِ من الأب، أو الأخواتِ من الأمِّ، أو الأخواتِ من أمٍّ وأب من الرَّضاع؛ كلُّهُن حرامٌ[١].

٤- أنَّ أمَّ الزوجة حرامٌ بدون شرْط؛ لقوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾، فبمجرَّد العقدِ على المرأةِ عقدًا صحيحًا تَحْرُم أمُّها، وكذلك جدَّاتها وإنْ عَلَوْنَ[٢].

٥- جمهورُ الأئمَّة على أنَّ الرَّبيبةَ حرامٌ سواء كانت في حِجْر الرَّجُل أو لم تكُن في حِجره، قالوا: وهذا الخطابُ خرَج مخرجَ الغالب؛ فلا مفهومَ له[٣]، وفائدة التقييد في قوله: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ التنبيهُ على الحِكمة في تحريمِ الرَّبيبة، وأنَّها كانت بمنزلةِ البنت، فَمِنَ المستقبَح إباحتُها، والدلالة على جوازِ الخَلوة بالربيبة وأنَّها بمنزلةِ مَن هي في حجرِه من بناته ونحوهنَّ[٤].

٦- تحريمُ حلائل الأبناء من زوجاتٍ أو مملوكاتٍ؛ لقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾، لكنَّ المملوكة لا تكون حليلةً إلَّا بالوطء؛ ولذلك فلو أنَّ شخصًا اشترى أَمَةً ولم يَطأْها، ثمَّ ملَكها أبوه، فإنَّها تحلُّ لأبيه، لكنْ لو عقَدَ على امرأةٍ ولم يطأْها، ثم طلَّقها، فلا تحلُّ لأبيه؛ لأنَّ المملوكةَ لا تكون حليلةً إلَّا بالوطء، وأمَّا الزوجة فتكون حليلةً بمجرَّد العقد الصحيح[٥].

٧- أنَّ حليلةَ ابنِ الرَّضَاع لا تَحْرُم؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾[٦].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَلاغَةُ الآية:

١- قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ الآية: فيها من البلاغة: حُسْنُ النَّسَق[١] في ترتيب الجُمل، وعطْف بعضها على بعضٍ كما يَنبغي؛ حيث قدَّم تَحريمَ الأمهات، وعَطَفَ عليه باقيَ الآية[٢].

٢- قوله: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: فيه كنايةٌ في قوله: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾؛ إذ هي كنايةٌ عن الجماع، أو الخَلوة[٣].

٣- قوله سبحانه: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: فيهما احتراسٌ؛ حيث احترَزَ في الأوَّل من اللَّاتي لم يُدْخَل بهنَّ[٤]، واحترز في الثَّاني عن المتبَنَّيْنَ، لا عن أبناءِ الولدِ[٥].

٤- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تعليلٌ لِمَا أفاده الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فيتحتَّمُ أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعًا، أي: لكنْ ما قد مضَى لا تُؤاخَذُون به[٦]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخَبَر بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

---

(١) حُسن النَّسق: هو مِن محاسن الكلام، وهو إتيانُ الكلماتِ مِن النَّثر والأبيات مِن الشَّعر متتالياتٍ، متلاحماتٍ تلاحمًا سليمًا مُستحسَنًا، لا مَعيبًا مُستهجنًا، والمستحسَنُ من ذلك أن يكونَ كلُّ بيت إذا أُفرد قام بنفْسِه، واستقلَّ معناه بلفظِه، وإنْ رَدِفه مجاورُه صار بمنزلةِ البيت الواحد، بحيث يَعتقدُ السَّامع أنهما إذا انفصلَا تجزَّأ حُسنُهما، ونقَص كمالهما، وتَقسَّم معناهما، وهما ليسَا كذلك، بل حالهما في كمال الحُسن وتمام المعنى مع الانفرادِ والافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع. ينظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الأصبع، (١/ ٨٩)- ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٢) ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ١٩٢).

(٤) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٢).

الآيتان (٢٤ - ٢٥)

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: هنَّ ذواتُ الأزواجِ، والمحصَنات أيضًا: الحرائرُ، وإن لم يكُنَّ مزوَّجاتٍ، والعفائف، وأصلُ (حصن): الحِفظ، والحِياطة، والحِرز[1].

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: أي: غيرَ زُناة، أو غيرَ مجاهرين بالزِّنا، والسِّفاحُ: الزِّنا، وأصلُه مِن سَفَحْتُ القِربةَ: إذا صببْتَها؛ فسُمِّي الزِّنا سِفاحًا؛ لأنَّ الرَّجل يصُبُّ النُّطفةَ، وتصُبُّ المرأةُ النُّطفة، والمسافِحُ: الَّذي يصبُّ ماءَه حيث اتَّفق، وأصْل سفَح: يدلُّ على إراقةِ شيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

﴿طَوْلًا﴾: أي: فضلًا وسَعةً، وأصل (طول) يدلُّ على فضلٍ، وامتدادٍ في الشَّيء[1].

﴿طَوْلًا﴾: أي: زوانٍ سرًّا، أو أصدقاء، أو أخلَّاء في السِّرِّ، جمْعُ خِدن، أي: مصاحب، وأكثرُ استعمالِه فيمَن يُصاحبُ بشهوة؛ يُقال: خِدْن المرأة وخَدِينها، ويُطلق كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأصل (خدن): المصاحَبة[2].

﴿ٱلْعَنَتَ﴾: الفجور؛ يُقال: عَنَتَ فلان يَعْنَتُ عَنَتًا: إذا وقَع في أمرٍ يَخاف منه التَّلفَ، ويُطلَق العَنَت على: الضَّرَر والفساد، وأصْل (عنت): يَدُلُّ على مَشَقَّةٍ وما أَشْبَه ذلك[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَوْله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

﴿كِتَٰبَ﴾: منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجُملة المتقدِّمة قبلَه، وهي قوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾، ونصبُه بفعل مُقدَّر، أي: كتَب الله ذلك عليكم كتابًا، وقيل: تَقديرُه: الْزموا كتابَ الله. ويكون قولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسمَ فِعل للإغراءِ، حُذِف مفعولُه؛ للدَّلالة عليه، أي: (عليكم ذلك)؛ فيكون أكثرَ تأكيدًا.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٩).

وقيل: إنَّ ﴿كِتَٰبَ﴾ منصوبٌ على الإغراء بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾، والتقدير: عليكم كِتابَ الله، أي: الْزموه، كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقيل غير ذلك(١).

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾: ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ مصدر مؤوَّلٌ وهو بدلُ اشتمال مِن ﴿مَّا﴾؛ فيكون في مَحلِّ رفْعٍ على قِراءة ﴿أُحِلَّ﴾ بالبناء للمَفعول؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ حينئذٍ في موضِعِ رفِعِ نائب الفاعِل، والتقدير: أُحِلَّ لكم ابتغاؤُهنَّ بأموالِكم. وعلى قِراءة (أَحَلَّ) بالبناء للفاعِل يكون ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ في مَحلِّ نصبٍ؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ حينئذٍ في موضِع نصْب مفعول به، والتقدير: أَحَلَّ لكم ابتغاءَهنَّ بأموالِكم. وقيل غير ذلك(٢).

﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

﴿فَرِيضَةً﴾: منصوبةٌ على أنَّها حالٌ من ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، أي: مفروضةً، أو على أنَّها مصدر مُؤكِّد، أي: فَرَض اللهُ ذلِك فريضةً، أو مَنصوبةٌ على أنَّها مصدرٌ غير الصَّدر، أي: مصدرٌ مِن مَعنى الفِعْلِ الأوَّلِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ وليس مَصدرًا من لَفظِه؛ لأنَّه في معناه؛ إذ الإيتاءُ مَفروضٌ، فكأنَّه قيل: فآتوهنَّ أُجورَهنَّ إيتاءً مفروضًا(٣).

٢- **قولُه:** ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٤٨-٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٠- ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٣).

فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ﴾.

﴿طَوْلًا ﴾: مفعولٌ به لـ﴿طَوْلًا ﴾.

﴿أَن يَنكِحَ﴾: مصدرٌ مؤوَّلٌ، أي: نِكاح، وفي مَوْضِعِه الإعرابيِّ ثلاثةُ أوجُه؛ أحدُها: أنَّه في محلِّ نصبٍ، مفعولٌ به لـلمصدرِ المنوَّنِ ﴿طَوْلًا ﴾، والتقديرُ: ومَن لم يَستَطِعْ أنْ ينالَ نِكاحَ المحصناتِ...إلخ. والثاني: أنَّه بدلُ كُلٍّ من كلٍّ مِن ﴿طَوْلًا ﴾؛ لأنَّ الطَّوْلَ هو القدرةُ أو الفَضْلُ، والنكاحُ قُدرةٌ وفَضْلٌ. الثالث: أنَّه في محلِّ نصبٍ أو جرٍّ على حَذْفِ حَرفِ الجرِّ (إلى) أو (اللام)، والتقديرُ: طَوْلًا إلى أنْ ينكحَ، أو: طولًا لأنْ يَنكِحَ. وقيل غير ذلك[(١)].

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم ﴾: الفاءُ رابطَةٌ في جوابِ (مَن) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ ﴾، و﴿مِنْ﴾ تَبعيضيَّةٌ، و﴿مَّا ﴾ موصولةٌ، والجارُّ والمجرورُ (مِن ما) مُتعلِّقٌ بفِعلٍ مقدَّرٍ حُذفَ مفعولُه، والتقديرُ: فلْيَنكِحِ امرأةً أو أَمَةً مِنَ النَّوْعِ الذي مَلَكَتْه أيمانُكم، وهو في الحقيقةِ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ وَقَعَ صفةً لذلك المفعولِ المحذوفِ؛ أي: فلْيَنكِحِ امرأةً كائنةً مِن ذلك النَّوعِ، والجملةُ كلُّها في مَحلِّ جزمٍ، جوابُ الشَّرْطِ. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٣-٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٤٨-٣٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٥-٦٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٦).

﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ جملةٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ، وهي مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِن الإعراب[١].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾: مُبْتَدأ، وَمَا بعدَه ﴿لِمَنۡ ...﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ رفْع خَبر (ذلك)، أَي: الرُّخْصَة فِي نِكاحِ الإماءِ لِمَن خشِي العَنَت، أي: جائزٌ للخائِف مِنَ الزِّنا. و﴿مِنكُمۡ﴾: جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ نصْب، حالٌ من الضَّمير في (خشي)، أي: في حالِ كونِه مِنكم[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه ممَّا يحرُمُ على الرِّجال نِكاحُهنَّ من النِّساء: المتزوِّجاتُ منهنَّ في حالة بقائهنَّ في ذمَّةِ أزواجهنَّ، إلَّا ما ملَكوهنَّ بالسَّبي في قتال الكفَّار، فإنَّه يحِلُّ لهم وطؤُهنَّ، حتَّى وإن كنَّ متزوِّجاتٍ، لكن بعد استبرائِهنَّ، ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ ما سبق تحريمُه في هذه الآيات هو فرضٌ فرَضَه فلْيلزموه، مبيِّنًا تعالى أنَّه أحلَّ لهم نكاحَ ما عدا المذكوراتِ في الآياتِ إذا طلَبوهنَّ بأموالهم؛ إمَّا بالزَّواجِ بمهرٍ معلومٍ، قاصدين العفافَ لهم ولأزواجِهم، وإمَّا بشراء السَّراريِّ، غيرَ مُريدينَ الوقوعَ في الزِّنا، فمن نكَحوهنَّ فجامَعوهنَّ فليُعطوهنَّ مهورَهنَّ مقابلَ ذلك الاستمتاعِ؛ وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى، لا حرجَ على كلا الزَّوجينِ فيما تراضيَا به بعد فرضِ المهرِ؛ من الزِّيادةِ عليه، أو النُّقصانِ، أو الإعفاءِ منه، أو التَّأخيرِ له؛ إنَّ اللهَ كان عليمًا حكيمًا.

ومَن لم يكُنْ بمقدوره زواجُ الحرائرِ المؤمناتِ، فليتزوَّجْ من الإماءِ المؤمناتِ

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٤١، ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٥٨-٦٥٩).

المملوكاتِ للمؤمنينَ، واللهُ تعالى يعلَمُ حقيقةَ إيمانِ مَن آمن منكم، جميعُكم من ذرِّيَّةِ آدمَ، وكلُّكم سواسِيَةٌ في البشريَّة، فلا تأنَفوا مِن تزوُّجِ الإماء عند الضَّرورةِ، فتزَوَّجوهنَّ برضا مَن يملِكونهنَّ، وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ دون بخسٍ منه، أو مماطلةٍ في دَفْعِه، على أن يكُنَّ عفيفاتٍ عن الزِّنا، غيرَ واقعاتٍ فيه علانيةً؛ لا يمتنِعْنَ ممن أراد منهنَّ الفاحشةَ، كذلك غيرَ زوانٍ في السِّرِّ والخفيةِ باتِّخاذِهن أصدقاءَ وأخلَّاءَ يَزْنُونَ بهنَّ في الخفاء، فإذا أُحصِنَ الإماءُ بالزَّواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا، فيجب عليهنَّ مِن الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ اللَّاتي يزنينَ قبل الإحصان بالزَّواج، فيُجلَدْنَ خمسينَ جلدة، وتلك الرُّخصةُ بنكاحِ الإماءِ المؤمناتِ عند عدمِ القدرةِ على مهورِ الحرائرِ إنَّما هي لمن شقَّ عليه الصَّبرُ عن الجِماعِ، وخاف الوقوعَ في الزِّنا، ثمَّ يُرشِد اللهُ تعالى إلى أنَّ الصَّبرَ خيرٌ لهم من نكاحِ الإماء، واللهُ غفورٌ رحيم.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهُ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ يومَ حُنَينٍ بعَثَ جيشًا إلى أوطاس، فلَقُوا عدوًّا، فقاتَلوهم، فظهَروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناسًا من أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ تحرَّجوا من غِشيانِهنَّ من أجلِ أزواجِهنَّ من المشركينَ، فأنزَل

اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: فهنَّ لكم حلالٌ إذا انقضَتْ عدَّتُهنَّ))[١].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: وحُرِّمَ عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نكاحُ ذواتِ الأزواجِ، أي: ما دُمْنَ في ذمَّةِ أزواجِهنَّ[٢].

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

أي: ما عدا مَن ملَكتموهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّارِ، فإذا سبَيْتم الكافرةَ ذاتَ الزَّوج، حلَّ لكم وَطْؤُها، لكن بعد أنْ تُستَبْرأَ[٣]، وعلى ألاَّ تكونَ مِن النِّساء المحرَّماتِ السَّابقِ ذِكرُهنَّ[٤].

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: هذا التَّحريمُ فَرضٌ قد فرَضه اللهُ تعالى عليكم، فالزَموه، ولا تَخرُجوا عن حدودِه[٥].

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾.

(١) رواه مسلم (١٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٧- ١٩٨).

(٣) الاستبراء: طلبُ براءة رَحِم المرأةِ من الحَمْل، وتبيُّن هل هي حاملٌ أو لا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١١)، ((المصباح المنير)) للفيومي (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٩).

أي: أباح اللهُ تعالى لكم- أيُّها الرِّجال- نكاحَ ما عدا مَن حرَّمهنَّ عليكم من النِّساء، سواءٌ كان بعقدٍ أو مِلكِ يمينٍ[١].

﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾

أي: حلالٌ عليكم -أيُّها الرِّجالُ- أن تطلُبوا بأموالِكم نكاحَ مَن سِوى المحرَّماتِ من النِّساء -إمَّا نكاحًا بصداقٍ معلومٍ، أو تسرِّيًا بشراءِ السَّراريِّ- والحال أنَّكم تريدون إعفافَ أنفسِكم وزوجاتِكم عن الحرامِ، غيرَ قاصدينَ الوقوعَ في الزِّنا[٢].

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

أي: فمَن نكحتموهنَّ نكاحًا شرعيًّا دائمًا، فاستمتعتم بجِماعهنَّ، فآتوهنَّ مهورهنَّ في مقابلِ تلك المتعةِ، وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى عليكم[٣].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾

أي: ولا حرَجَ عليكم- أيُّها الأزواجُ والزَّوجاتُ- فيما تراضَيْتم به، من زيادةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٩٩-٢٠٢).
قال ابن عثيمين: (هنا أربعُ مُحرَّمات: العَمَّة من الرَّضاع، والخالة مِن الرَّضاع، والجمْعُ بين المرأة وعمَّتها، والجمْعُ بين المرأة وخالتها، وكل ذلك ممَّا جاءت به السُّنة، فيكون مُخصِّصًا لعموم قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾) ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٣-٥٨٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٨٤، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤). وذكَر السعديُّ معنًى آخَرَ لـ﴿فَرِيضَةً﴾، وهو: مُقدَّرة قد قدَّرتموها؛ فوجبتْ عليكم.

على المهر، أو نقصٍ، أو إعفاءٍ منه، أو تأخيرٍ له، من بعدِ فرضِ الصَّداقِ[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك علمُه بما يُصلِحُكم -أيُّها النَّاس- في مَناكحِكم، وهو سبحانه الَّذي يضعُ كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائقِ به، بلا خلَلٍ ولا زلَلٍ، ومِن ذلك: هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها ممَّا يتعلَّقُ بأمورِ النِّكاح[(٢)].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سبحانه وتعالى مَن يحلُّ ومَن لا يحلُّ، بيَّن فيمن يحلُّ أنَّه متى يحلُّ، وعلى أيِّ وجهٍ يحلُّ، فعطف اللهُ تعالى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: ٢٥] على قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] تخصيصًا لعمومه بغيرِ الإماء، وتقييدًا لإطلاقِه باستطاعةِ الطَّولِ[(٣)].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢).

أي: ومَن لم يكُنْ لَدَيهِ منكم- معشرَ الرِّجال- سَعةٌ وقدرةُ على تقديمِ مهرٍ كافٍ لنكاحِ الحرائرِ المؤمناتِ(١).

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: فليتزوَّجْ مِن الإماءِ المؤمناتِ اللَّاتي يملِكُهنَّ المؤمنون(٢).

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بإيمانِ مَن آمَن منكم، فيعلَمُ ما إذا كان أولئك الإماءُ اللَّاتي تريدون نكاحَهنَّ مؤمناتٍ حقًّا أم لا، وأمَّا أنتم فليس لكم إلَّا الظَّاهرُ، فكِلُوا سرائرَهنَّ إلى الله عزَّ وجلَّ(٣).

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩٤-٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٩٥-٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٦-٢١٧).

قال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي: فانكحوا مما ملكتْ أيمانُكم، والخطابُ هنا للجميعِ باعتبارِ المجموعِ، لا باعتبارِ كلِّ فردٍ، وإنَّما قلنا ذلك؛ لأنَّ المالكَ لا يصحُّ أن ينكحَ مملوكتَه، وإنَّما يتسرَّاها؛ لأنَّ الله جعَل مِلكَ اليمينِ معادلًا للزوجيةِ، فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠١-٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٧-٢١٨).

قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾ معناه: أنَّ الله عليمٌ ببواطن الأمور ولكم ظواهرُها، فإذا كانت الفتاةُ ظاهرها الإيمان فنكاحُها صحيحٌ، وعِلمُ باطِنها إلى الله، وإنما هذا لئلا يستريبَ متحيرٌ بإيمانِ بعضِ الإماءِ، كالقريبةِ عهد بالسباء، أو كالخرساء وما أشبهه. وفي اللفظ أيضا تنبيهٌ على أنَّه ربما كان إيمانُ أمةٍ أفضلَ مِن إيمانِ بعضٍ من الحرائر، أي: فلا تعجبوا بمعنى الحرية) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨).

أي: إنَّ الجميعَ متساوونَ في البشريَّةِ، وكلُّهم بنو آدمَ؛ فالحرائرُ والإماءُ من هذه الجهة سواءٌ، فلا تأنَفوا من تزوُّجِ الإماءِ عند الضَّرورةِ(١).

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾.

أي: فتزَوَّجوهنَّ بسماحِ ورضَا أسيادِهنَّ(٢).

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ تعالى، دون أن تبخَسوهنَّ شيئًا مِن مهورِهنَّ، أو تُماطِلوا في دَفعِه إليهنَّ(٣).

﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾.

أي: فانكِحوهنَّ، والحالُ أنَّهنَّ عفيفاتٌ عن الزِّنا؛ فهذا شرطٌ من شروط نِكاحِهنَّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٧-٢١٨).
قال ابنُ عطيَّة: (قوله: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾ قالت طائفةٌ: هو رفْعٌ على الابتداءِ والخبر، والمقصدُ بهذا الكلامِ، أي: إنَّكم -أيُّها الناسُ- سواءٌ؛ بنو الحرائرِ وبنو الإماءِ، أَكْرمُكم عندَ اللهِ أتْقاكُم؛ فهَذِه توطئةٌ لنفوسِ العربِ التي كانتْ تستهجنُ ولدَ الأَمَةِ، فلمَّا جاء الشرعُ بجوازِ نِكاحِها، أُعْلِموا مع ذلك أنَّ ذلك التهجينَ لا مَعْنَى له. وقال الطبريُّ: هو رفْعٌ بفِعلٍ، تقديره: فلينكحْ ممَّا مَلَكَتْ أيمانُكم بعضُكم مِن بعضٍ. فعلى هذا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٨-٢١٩).
قال النَّحاسُ في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: (فهذا بإجماعِ المهرُ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير))

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾.

أي: غيرَ الزَّانياتِ علانيةً، اللَّاتي لا يمتنِعْنَ مِن أحَدٍ أرادهنَّ بالفاحشةِ[(١)].

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾.

أي: ولا تنكِحوا أيضًا الزَّوانيَ المتستِّراتِ، اللَّاتي يتَّخِذْنَ أخلَّاءَ وأصدقاءَ؛ لاقترافِ الزِّنا معهم خفيةً[(٢)].

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾.

القِرَاءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ قراءتان:

١- قِراءة (أَحْصَنَّ)- بفَتحِ الألِفِ والصَّادِ على البِناءِ للفاعلِ- على مَعنى: أنَّ الإماءَ إذا أسلَمْنَ أَحصَنَّ فُروجَهنَّ بالإسلام، أي: أعْففْنَها، وقيل: أَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالتزويجِ، بإسنادِ الفِعْلِ إليهنَّ[(٣)].

٢- قِراءة (أُحْصِنَّ) على صِيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه -والفاعِلُ هو الأزواجُ- على جَعْلِ الإماءِ مَفْعولاتٍ بإحْصانِ أزواجِهنَّ إيَّاهنَّ، وقيل: إنَّه بمعنى أسلمْنَ

(٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

(٣) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَف وأبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٨٥).

فأَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالإسلامِ[١].

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾.

أي: فإن أُحصِنَ الإماءُ بالزواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا[٢].

﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

أي: فعليهنَّ من الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ، اللَّاتي زَنَيْنَ قبل الإحصان بالزَّواجِ، فيكون على الإماءِ خمسونَ جَلدةً[٣].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾.

أي: ذلك الَّذي أباحَه اللهُ تعالى لكم -مَعشرَ الرِّجال- مِن نِكاحِ الإماءِ المؤمناتِ العفيفاتِ، إنَّما أباحه جلَّ وعلا لِمَن شقَّ عليه منكم الصَّبرُ عن الجِماعِ؛ فخاف الوقوعَ في الزِّنا[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٠١).

(٢) واختار أنَّ الإحصانَ هنا: الزواجُ: ابنُ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٦٢)، وابنُ عاشور في ((تفسيره)) (٥/ ١٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٢٢٠-٢٢١).
وقيل: المرادُ: الإحصانُ بالإسلامِ أو بالنكاحِ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦١٢)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٢، ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢١).
قال ابن عطيَّة: (الرجم لا يتنصَّف، فلم يردْ في الآية بإجماع) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٤، ٦١٦)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).
قال ابنُ جرير: (وقدْ عمَّ اللهُ بقوله: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ﴾ جميعَ معاني العَنَتِ، ويجمعُ جميعَ ذلك الزِّنا؛ لأنَّه يُوجِبُ العقوبةَ على صاحبِه في الدنيا بما يُعنِتُ بَدَنَه، ويكتسبُ به إثمًا ومَضرَّةً

﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: وصبرُكم- أيُّها الرِّجالُ- عن نِكاحِ الإماء، إلى أن يتيسَّرَ لكم نكاحُ الحُرَّةِ، أفضلُ لكم[1].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ لِمن تزوَّج الإماءَ؛ إذ تجاوَز عن الإثمِ، فأباح نكاحَهنَّ بشروطِه رفعًا للحَرَج، وهو الرَّحيمُ، الَّذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ومن ذلك تشريعُه لنكاحِ الإماءِ، فلم يُضيِّقْ على عبادِه، بل وسَّع عليهم غايةَ السَّعةِ[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- ينبغي للمتكلِّم أن يخاطِبَ المخاطَبَ بما يهوِّنُ عليه الحُكمَ، ويكون سببًا لقبولِه، وهو ما يُمكنُ أن نُعبِّرَ عنه بتخفيفِ الأمر على المحكوم عليه؛ لقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ وذلك أنَّ العربَ كانوا يأنفون أَنَفةً كبيرة بالنسبةِ للأرقَّاء، ويرَوْن أنَّ مَن نكح رقيقةً فقد أتى شيئًا فاحشًا عظيمًا، ويقولون: الرَّقيقةُ مملوكةٌ، والبعيرُ مملوكٌ؛ ولهذا أرشَد الله إلى هذا الأمر بقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ

في دِينه ودُنياه، وقدِ اتَّفق أهلُ التأويلِ- الذي هم أهلُه- على أنَّ ذلك معناه). ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦).

وقال الرازيُّ: (ولم يَختلفوا في أنَّ ذلك راجعٌ إلى نكاحِ الإماءِ). ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦-٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٥).

قال ابنُ عاشور- مُعلِّلًا الأمْرَ بالصبرِ-: (لئلَّا يُوقِعَ أبناءَه في ذُلِّ العبوديةِ المكروهةِ للشارع لولا الضرورةُ، ولئلَّا يُوقِعَ نفْسَه في مَذلَّةِ تصرُّفِ الناس في زوجِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٥).

﴿بَعۡضٍ﴾؛ لتهوينِ الأمرِ على النَّاس[١].

٢- قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ﴾: الحكمةُ في ذِكرِ هذه الكلمة أنَّ العربَ كانوا يفتخرون بالأنسابِ، فأعلَمَ في ذِكر هذه الكلمةِ أنَّ اللهَ لا ينظُرُ ولا يلتفِتُ إليه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إثبات الرِّقِّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، وهذا أمرٌ مجمَعٌ عليه بين المسلمين، ولا يمكن لأحدٍ الإنكارُ؛ لأنَّه في القرآن، وفي السُّنَّةِ، وبإجماعِ المسلمينَ، ولكنْ لا يجوز أن يُسْتَرَقَّ الإنسانُ لأيِّ سببٍ، بل لا بدَّ من سببٍ شرعيٍّ[٣].

٢- صِحَّةُ إطلاقِ البعض على الكلِّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ لأنَّ (أيمان) جمعُ (يمين) وهي اليدُ، والمِلك في الحقيقة مِلكٌ للإنسان كلِّه، لكن عبَّر باليمينِ؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ الأخذَ والإعطاءَ يكونُ بها[٤].

٣- كتابُ الله سبحانه ينقسِمُ إلى قسمين: كتابٍ شرعيٍّ؛ كما في قوله تعالى في هذا الموضع: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكتابٍ كَوْنيٍّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا﴾ [النبأ: ٢٩]، أي: الكتاب القدريَّ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٥]

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

[الأنبياء: ١٠٥].

٤- أنَّ المحلَّلاتِ من النِّساء أكثرُ من المحرَّماتِ، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّه حصَر المحرَّماتِ، وعمَّم في المُحلَّلاتِ؛ لذا فمَن ادَّعى تحريمَ امرأةٍ فعليه الدَّليلُ، فلو خطَب إنسانٌ امرأةً، فقال له بعضُ النَّاس: إنَّ هذه المرأةَ مِن المحرَّماتِ عليك، فلا بدَّ أن يُقيمَ دليلًا على ذلك؛ لأنَّ المحرَّماتِ محصوراتٌ، والمحلَّلاتِ الأمرُ فيهنَّ مُطلَقٌ(١).

٥- وجوبُ بذلِ المال في النِّكاح ؛ لقوله: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾(٢).

٦- تحريمُ المتعة؛ لقوله تعالى: ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وصاحبُ المتعةِ لا يريد الإحصانَ، بل إنَّه يريد السِّفاح؛ لأنَّ مَن أراد الإحصانَ فإنَّ الإحصانَ لا يحصُلُ إلَّا بالملازمةِ، وزواجُ المتعة إنَّما هو للسِّفاحِ فقط، أي: لسَفْحِ هذا الماءِ الَّذي ضيقَ عليه؛ ولذلك فلا يثبُتُ به شيءٌ من أحكام النِّكاحِ؛ فليس فيه طلاقٌ، ولا نسَبٌ، ولا عِدَّة، ولا إحصانٌ، فكلُّ أحكام النِّكاح لا تترتَّبُ عليه، حتَّى عند القائلين بجوازه، فدلَّ هذا على أنَّه سِفاحٌ(٣).

٧- في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ تسميةُ المهرِ أجرًا، ووجهه: أنَّه عِوَضٌ في مقابلِ منفعةٍ، لا في مقابل عَينٍ، فلو كان في مقابل عينٍ لسُمِّي بيعًا، لكنَّه في مقابلِ المنفعة، وهو استمتاعُ الزَّوج بالزَّوجة، فصار مِثلَ الإجارة(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٤).

٨- في قوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ المهرَ لازمٌ كلزومِ الأُجرة على المستأجِر، ولكن إذا سمَح مَن له الحقُّ فإنَّه يسقُطُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[١] [البقرة: ٢٣٧].

٩- وجوبُ إيتاءِ النِّساءِ مهورَهنَّ؛ لقوله: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مفروضًا عليكم أن تؤتوهنَّ أجورَهنَّ[٢].

١٠- أنَّه إذا تراضى الزَّوجُ والزَّوجة على زيادةٍ أو نَقْصٍ أو إسقاطٍ، فلا حرجَ؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، ونأخُذُ مِن ذلك قاعدةً مهمَّةً، وهي: (أنَّ ما أوجَبه اللهُ عزَّ وجلَّ لحقِّ الإنسانِ، وأسقَط هذا الإنسانُ- صاحبُ الحقِّ - حقَّه، فلا إثْمَ على مَن لم يقُمْ به)[٣].

١١- الحثُّ على تزوُّجِ الحرائرِ المؤمناتِ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ لم يرخِّصْ في العدولِ عن نكاحِهنَّ إلَّا لحاجةٍ وعُذرٍ؛ لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ...﴾[٤].

١٢- يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ نقصُ مرتبةِ الرِّقِّ عن مرتبة الحرِّيَّة، وهو كذلك؛ فإنَّ الرَّقيقَ مملوكٌ يُباعُ ويُشترَى، ولا يملِكُ نفسَه، حتَّى إنَّه إذا قُتِل فإنَّ دِيَتَه قيمَتُه، وليس دِيَةَ حُرٍّ[٥].

١٣- مِلْكُ الإنسان لِما يملِكُ مِن آدميٍّ أو بهيمةٍ أو عقَارٍ أو غيره ليس

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٢٩).

مِلكًا تامًّا؛ ولذلك لا يتصرَّفُ الإنسانُ فيما يملِكُ كما يُحبُّ، بل تَصرُّفُه مقيَّدٌ بالشَّرعِ، ولكنَّ العُلماء رحمهم الله جعَلوا مَن مَلَكَ التَّصرُّفَ الَّذي جُعِل له على وجهٍ كاملٍ- جَعَلوه مالكًا، ومَن مَلَكَه على وجهٍ مُقيَّدٍ جَعَلوه مُستأجِرًا مثلًا أو مُستعيرًا، أو ما أشبَهَ ذلك[١].

١٤- أنَّه لا يحِلُّ لِمَن لا يَجِدُ طَوْلَ الحُرَّةِ المؤمنةِ أنْ يَتزوَّجَ أمَةً كتابيَّةً، ويُؤخَذُ من قولِه: ﴿فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾، أي: فلا يحِلُّ أن يتزوَّجَ أمَةً كتابيَّة، وإذا لم يعجِزْ عن طَوْلِ الحُرَّة المؤمنةِ، فلا يتزوَّجُ أمَةً كتابيَّةً من بابِ أَوْلى[٢].

١٥- أمَرَ الله تعالى بنكاح الإماءِ عند العجزِ عن الحرائرِ، وكانوا في الجاهليَّةِ لا يرضَوْنَ بنكاحِ الأمَة وجعْلِها حَليلةً، ولكن يقضُون منهنَّ شهواتِهم بالبِغاءِ، فأراد الله إكرامَ الإماءِ المؤمناتِ، جزاءً على إيمانهنَّ، وإشعارًا بأنَّ وَحدةَ الإيمانَ قرَّبتِ الأحرارَ من العبيدِ، فلمَّا شرَعَ ذلك كلَّه ذيَّله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾، أي: بقوَّتِه، فلمَّا كان الإيمانُ هو الَّذي رفَع المؤمنينَ عند الله درجاتٍ، كان إيمانُ الإماءِ مقنِعًا للأحرارِ بتركِ الاستنكافِ عن تزوُّجِهنَّ؛ ولأنَّه رُبَّ أمَةٍ يكونُ إيمانُها خيرًا من إيمانِ رجلٍ حرٍّ[٣].

١٦- تحريم اتِّخاذِ الأخدان من الرِّجال؛ لقوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، وحتَّى لو لم يحصُلِ الزِّنا؛ فإنَّ اتخاذَ الأخدان- يعني: الأصحاب والأصدقاء- سببٌ للزِّنا؛ ولهذا نُهِيَ عن الخَلوة بالمرأة خوفًا من ذلك، ونُهِيَ أن تخضَعَ بالقولِ خوفًا من ذلك[٤].

١٧- أنَّه لا يجوز للحرِّ المُسلمِ نكاحُ أمَةٍ إلَّا بأربعةِ شروطٍ ذكَرها الله:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٣).

إيمانهن- فلا يجوز التَّزوُّجُ بالأمَةِ الكتابيَّة، سواءٌ كان الزَّوجُ حرًّا أو عبدًا- والعفَّة ظاهرًا وباطنًا، وعدم استطاعة طَوْلِ الحُرَّة، وخوفُ العَنَتِ، فإذا تمَّتْ هذه الشُّروطُ جاز له نكاحُهنَّ[١].

١٨- الرُّجوعُ إلى العُرف، وتؤخَذُ من قوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وهذه قاعدةٌ للشَّيء الَّذي لم يحدِّدْه الشَّرع؛ أن نرجعَ فيه إلى العُرفِ[٢].

١٩- أنَّه لا حدَّ على الأمَةِ إلَّا بعد الإحصانِ؛ لقوله: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾، أي: فإن زنَتْ قبل الإحصانِ فلا حدَّ عليها، وإنَّما تُجلَدُ جَلدَ تعزيرٍ[٣].

٢٠- أنَّه لا رجْمَ على الأمَة إذا زنَتْ، ولو بعد أن تتزوَّجَ، وجهُ ذلك: أنَّ الرَّجمَ لا يتنصَّفُ، والله عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ ولهذا اشترط العلماءُ للرَّجمِ أن تكونَ الزَّانيةُ حُرَّةً[٤].

٢١- حُسْنُ التَّرتيبِ في سياق القرآن؛ لأنَّ اللهَ سبحانه ذكَر مسألة الزِّنا بين الشُّروطِ في نكاح الأمَةِ، للإشارةِ إلى أنَّ عند الأمَة مِن دنوِّ المنزلةِ ما لا يمنَعُها من الزِّنا، فهذا من حكمةِ النَّهي عن نكاحِ الإماءِ إلَّا بالشُّروطِ[٥].

٢٢- الصَّبر عن نكاحِ الإماء أفضلُ؛ وهذا إذا أمكَن الصَّبرُ، فإن لم يمكِنِ الصَّبرُ عن المحرَّمِ إلَّا بنكاحِهنَّ وجَب ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٣٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٤).

٢٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٌ لَّكُمۡۗ﴾ بعدَ إباحتِه نِكاحَ الإماءِ عند عدمِ الطَّوْلِ وخشية العَنَت؛ يدلُّ على أنَّه يمكن الصَّبرُ مع خشيةِ العَنَتِ، وأنَّه ليس إباحةُ نكاحِ الإماءِ كإباحةِ الميتةِ عندَ المَخْمَصةِ؛ فإنَّ الأخيرَ لا يُمكنُ الصبرُ عنه(١).

٢٤- الآية دالَّةٌ على التَّحذيرِ من نكاحِ الإماءِ، وأنَّه لا يجوزُ الإقدامُ عليه إلَّا عند الضَّرورةِ، وذلك لهذه الأسباب:

السَّبب الأوَّل: أنَّ الولدَ يتبَعُ الأمَّ في الرِّقِّ والحرِّيَّة، فإذا كانت الأمُّ رقيقةً عُلِّقَ الولدُ رقيقًا، وذلك يوجِبُ النَّقصَ في حقِّ ذلك الإنسانِ، وفي حقِّ ولدِه، **والثَّاني**: أنَّ الأمَةَ قد تكون تعوَّدت الخروجَ والبُروزَ والمخالطةَ بالرِّجال، وصارت في غايةِ الوقاحةِ، وربَّما تعوَّدت الفجورَ، وكلُّ ذلك ضررٌ على الأزواجِ، **الثَّالث**: أنَّ حقَّ المولى عليها أعظمُ مِن حقِّ الزَّوجِ، فمِثلُ هذه الزَّوجة لا تخلُصُ للزَّوج كخُلوصِ الحُرَّة، فربَّما احتاج الزَّوجُ إليها جدًّا، ولا يجِدُ إليها سبيلًا؛ لأنَّ السَّيِّدَ يمنَعُها ويحبِسُها، **الرَّابع**: أنَّ المولى قد يبيعُها من إنسانٍ آخرَ، فعلى قولِ مَن يقولُ: بيعُ الأمَةِ طلاقُها، تصير مطلَّقةً، شاء الزَّوجُ أم أبى، وعلى قول مَن لا يرى ذلك فقد يسافِرُ المولى الثَّاني بها وبولدِها، وذلك مِن أعظمِ المضارِّ، **الخامس**: أنَّ مهرَها مِلكٌ لمولاها، فهي لا تقدِرُ على هِبةِ مهرِها من زوجها، ولا على إبرائِه عنه، بخلاف الحُرَّةِ؛ فلهذه الوجوهِ ما أذِن اللهُ في نكاح الأمَةِ إلَّا على سبيل الرُّخصةِ، واللهُ أعلم(٢).

٢٥- أنَّ المباحَ قد يكون مستويَ الطَّرفينِ، كما هو الأصل، وقد يكون

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٤٨).

مرجوحًا، كما هنا؛ لأنَّ اللهَ تعالى أحلَّ لنا نكاحَ الإماء بالشَّرطينِ، لكن قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾[١].

٢٦- أنَّ الأمر بالشَّيء قد يُستفادُ من الثَّناءِ على فاعله؛ لقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾، فكأنَّه قال: اصبِروا، لكنَّه جعله على وجهِ التَّرغيبِ[٢].

٢٧- صيَّر الفقهاء هذه الآية ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أصلًا في نُقصانِ حُكمِ العبدِ عن حُكمِ الحُرِّ في غير الحدِّ، وإن كان في الأمورِ ما لا يجبُ ذلك فيه[٣].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: عطفٌ على قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ...﴾ إلخ، وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بينهما؛ للمبالغةِ في الحَمْلِ على المحافظةِ على المحرَّماتِ المذكورةِ[٤].

- وعلى قِراءة (وأَحَلَّ لَكَمْ) بالبِناءِ للفاعل؛ فالضَّميرُ المستترُ عائدٌ إلى اسمِ الجلَالةِ من قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فيكون فيه إسنادُ التَّحليلِ إلى اللهِ تعالى إظهارًا للمنَّة؛ ولذلك خالَف طريقةَ إسنادِ التَّحريم إلى المجهولِ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّحريم مشقَّةٌ؛ فليس المقامُ فيه مقامَ منَّةٍ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧).

- **قوله:** ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾: إشارة إلى ما ذُكِرَ من المحرَّماتِ المعدودة، وفيه إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ على التَّعبيرِ بالضَّميرِ؛ حيث لم يقُل (مَا وَرَاءَهُ)، واسمُ الإشارةِ يدلُّ على ذاتِ المشارِ إليه ووَصْفِه، والضَّميرُ يدلُّ على الذَّات فقط؛ فلعَلَّ في هذا تَذكيرًا بما في كلِّ واحدةٍ مِنَ النِّساءِ المحرَّمات مِنَ الصِّفة التي عليها يَدورُ حُكمُ الحُرمةِ؛ فيُفهَم مشاركةُ مَن في مَعناهنَّ لهنَّ فيها بطَريقِ الدَّلالةِ؛ كحُرمةِ الجمْع بينَ المرأةِ وعمَّتها، وبَينَها وبين خالتِها؛ فإنَّها ليستْ بطريقِ العِبارة، بل بطريقِ الدَّلالةِ[1].

٢- **قوله:** ﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: فيه طباقٌ؛ إذ المُحْصَن الَّذي يمنَعُ فَرْجَه، والمسافِحُ الَّذي يبذُله[2]، وهو يُبرِز المعنى ويوضِّحه، مع ما فيه مِن التَّأكيدِ.

٣- **قوله:** ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ احتراسٌ؛ إذ المُحصَنات قد يُراد بها الأنفُس المحصَنات، فيدخُل تحتَها الرِّجالُ، فاحترز عن ذلِك بقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3].

- **وفيه:** إطلاقُ المُحصناتِ على النِّساء اللَّاتي يتزوَّجُهنَّ الرِّجال، باعتبار المآلِ الَّذي يُصار إليه، أي: اللَّائي يَصِرْن مُحْصَناتٍ بذلك النِّكاح[4].

- وفيه وصفُ المُحَصنات بالمؤمناتِ؛ جريًا على الغالِبِ[5].

٤- **قوله:** ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ الإضافة في قولِه: ﴿أَيۡمَٰنُكُم﴾ وقوله: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ للتَّقريبِ، وإزالةِ ما بقِيَ في نفوسِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العربِ من احتقارِ العبيدِ والإماءِ، والتَّرفُّعِ عن نكاحِهم وإنكاحِهم، وكذلك وصْفُ المؤمناتِ(١).

- وقوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، و﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه تكرارُ لَفْظِ (المؤمنات)(٢)؛ للتَّأكيدِ على وصْف الإيمان.

٥- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾: جملةٌ مُعترِضة جيءَ بها؛ لتأنيسِهم بنِكاحِ الإماء، واستنزالِهم مِن رُتبةِ الاستنكافِ منه، ببيان أنَّ مناطَ التَّفاضُل، ومدارَ التفاخرِ هو الإيمانُ دون الأحسابِ والأنسابِ(٣).

٦- **قوله:** ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾: تذييلٌ ثانٍ، أكَّد به المعنى الثَّانيَ المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾(٤).

٧- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: جاءتْ خاتمةً للآية، وهذا كالمؤكِّد لِمَا ذكَره مِن أنَّ الْأَوْلى تركُ هذا النِّكاح، يعني: أنَّه وإنْ حصَلَ ما يَقتضي المنعَ مِن هذا الكلام، فإنَّه تعالى أباحه لكم؛ لاحتياجِكم إليه، فكان ذلك من بابِ المغفرةِ والرَّحمةِ(٥).

- وفيه مبالغةٌ في وصفِ المغفرةِ والرَّحمة(٦)، مع ما في الجملة الاسميَّة من التَّأكيدِ، والدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٦).
(٣) ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).

الآيات (٢٦ - ٢٨)

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ سُنَنَ ﴾: أي: طَرائِقَ ومَناهِجَ، جمْع سُنَّةٍ، وهي الطَّريقةُ المسلوكةُ، والمنهاج المُتَّبع(١).

﴿ تَمِيلُواْ مَيۡلًا ﴾: أي: تَجورُوا جَورًا، وتَنحرِفوا انحرافًا، والمَيل: العدولُ عن الوسَط إلى أحدِ الجانبَيْن، وأصلُه: الانحرافُ في الشَّيء إلى جانبٍ منه(٢).

المَعْنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عبادَه أنَّه يُريد بما يأتي به من أحكامٍ وتشريعاتٍ أن يُبيِّنَ لهم ما يحِلُّ لهم، وما يَحْرُمُ عليهم، كما يُريد أن يُرشِدَهم عزَّ وجلَّ إلى طرائق مَن كان قبلَهم؛ مِن الأنبياءِ، وأتباعِهم، ويريد أنَّ يوفِّقَهم سبحانه وتعالى للتَّوبة ويتقبَّلَها منهم، والله عليمٌ حكيم.

وبمقابل إرادةِ الله للتَّوبةِ على عباده، يريد منهم الَّذين يطلُبونَ لذَّاتِ الدُّنيا، وشهواتِ أنفسهم- مِن الكفرةِ وأهلِ الفِسق- أن يميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وعمَّا أحَلَّه اللهُ إلى ما حرَّمه.

واللهُ سبحانه وتعالى يريد التَّيسيرَ على العبادِ فيما يشرَعُه مِن أوامرَ ونواهٍ؛

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧-٤٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

لِعِلْمِه عزَّ وجلَّ بأنَّ الإنسانَ خُلِق ضعيفًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ المحَرَّماتِ من النساء، أخبر أنَّ في ذلك بيانًا وهدًى، حتَّى لا تكونَ شريعةُ هذه الأُمَّةِ دون شرائعِ الأُمَمِ الَّتي قبلها، بل تفُوقُها في انتظامِ أحوالها[١]، فقال تعالى:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾.

أي: يُريد اللهُ تعالى أن يبيِّنَ لكم ما أحَلَّ لكم، وما حرَّم عليكم، ممَّا تقدَّم ذِكرُه في هذه السُّورة وغيرِها[٢].

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

أي: ويريدُ الله تعالى أن يُرشدَكم إلى سُبل مَن قَبلكم مِن الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين وأتباعِهم، ويوفِّقَكم لتسلكوا طرائقَهم الحميدةَ، وتتَّبِعوا شرائعَه الَّتي يُحبُّها ويرضاها سبحانه[٣].

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

أي: ويريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه، ويقبَلَها منكم، فيرجعَ بكم إلى طاعتِه، مما كنتُم عليه مِن معصيتِه؛ ليتجاوزَ لكم بتوبتِكم عما سلَف منكم قبلَ الإنابةِ والتوبةِ[١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصْلِح عبادَه في دِينهم ودنياهم، ومن ذلك هذه الأحكامُ والحدودُ الَّتي علَّمهم إيَّاها.

وهو ذو الحِكمة، الَّذي مِن حكمتِه هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها لعباده، ومن حكمته أنَّه يتوب على مَن اقتضَتْ حكمتُه ورحمتُه التَّوبةَ عليه، ويخذُلُ مَن اقتضَتْ حكمتُه وعدلُه أنَّه لا يصلُحُ للتَّوبة[٢].

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧﴾.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يريد أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه، ويقبَلَها منكم[٣].

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾.

أي: ويريد الَّذين يطلُبون لذَّاتِ الدُّنيا، وشهواتِ أنفسِهم فيها؛ مِن أهل الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، أن تَميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وممَّا أحلَّ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٣٩).

تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكونوا أمثالَهم[(١)].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أعقَب الاعتذارَ الَّذي تقدَّم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بالتَّذكير بأنَّ اللهَ لا يزال مراعيًا رِفقَه بهذه الأمَّة، وإرادتَه بها اليُسرَ دون العُسرِ، إشارةً إلى أنَّ هذا الدِّين بيَّن حِفظَ المصالح ودَرْءَ المفاسد، في أيسرِ كيفيَّةٍ وأرفَقِها، فربَّما ألغت الشَّريعةُ بعضَ المفاسِدِ إذا كان في الحَملِ على تركِها مشقَّةٌ، أو تعطيلُ مصلحةٍ، كما ألغت مفاسدَ نكاحِ الإماء نظرًا للمشقَّةِ على غيرِ ذي الطَّول[(٢)].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾.

أي: يريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ييسِّرَ عليكم في أوامرِه ونواهيه، ومن ذلك إباحتُه نكاحَ الإماءِ بشروطٍ[(٣)].

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

أي: خفَّف اللهُ تعالى عنكم؛ لعِلْمِه بضَعف الإنسانِ في نفسِه، وبَدَنه، وضَعْف عَزمه، وهِمَّته، وصَبْره[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢١-٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- مراقبة اللهِ في السِّرِّ والعلانية، وتؤخذ مِن ثبوت صفةِ العِلم؛ لأنَّك متى علمتَ أنَّ اللهَ عالمٌ بك، فإنَّ ذلك يُوجِبُ لك مراقبةَ اللهِ سبحانه؛ فلا يَفْقِدُك حيث أمَرك، ولا يَجِدُك حيث نهاك، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١].

٢- في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إثباتُ اسمِ الله (الحكيم) وصِفةِ الحكمةِ له مما يجعلُ الإنسان مقتنعًا بأنَّ ما يُجريه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأحكام مقرونٌ بالحِكْمة، سواءٌ كان هذا في الأحكامِ الكونيَّةِ، أو في الأحكام الشَّرعيةِ، حتَّى المصائبُ الَّتي تنالُ العبادَ لا شكَّ أنَّ لها حِكمةً ينبغي أن يقتنعَ الإنسانُ بوجودِها، ولا يَعترِضَ على اللهِ تعالى بها[٢].

٣- الحَذَرُ من الَّذين يتَّبِعون الشَّهوات؛ لأنَّهم يريدون منَّا أن نَميل ميلًا عظيمًا، والشَّهواتُ قد تكونُ شهوةَ بطنٍ وفَرْجٍ، وقد تكون شهوةَ فِكرٍ وقَلْب، وكِلا الأمرين مرادٌ هنا، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[٣].

٤- الحَذَر مِن أهل البِدَع؛ لأنَّ أهلَ البِدَع ينقسمون إلى قِسْمين: قسمٍ عندهم شبهاتٌ، وقسمٍ عندهم شهواتٌ؛ فالجاهلُ منهم عنده شبهاتٌ حتَّى يلتبسَ عليه الحقُّ بالباطِلِ، والعالِم منهم عنده شهواتٌ؛ فهو يريد ما لا يريدُ اللهُ ورسولُه، ففي الآية التَّحذيرُ من هؤلاء وهؤلاء[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى انحطاط مرتبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذين يتَّبِعون الشَّهواتِ؛ حيث جعَلهم اللهُ أتباعًا تقُودُهم الشَّهواتُ، ومن الذُّلِّ أن يكونَ الإنسانُ تابعًا للشَّهوات؛ لأنَّ العزَّة أن يكونَ الإنسانُ متبوعًا، فإذا كان تابعًا فمعناه أنَّ شهواتِه ملَكَتْه حتَّى صار تابعًا، وكأنَّه مجبَرٌ على ذلك[(١)].

٦- أنَّ إرادةَ المتَّبِعين للشَّهواتِ بنا لا تقتصِرُ على أدنى مَيْلٍ، وتؤخَذُ من قوله: ﴿أَن تَمِيلُوا۟ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾، فإذا كان كذلك فإنَّنا إذا مِلْنا قليلًا تابَعوا حتَّى نميلَ ميلًا عظيمًا، نسأل اللهَ السَّلامةَ[(٢)]!.

٧- أنَّ الإنسانَ ينبغي له إذا شمَخَتْ به نفسُه، وعلا أنفُه أن يذكُرَ حقيقةَ نفسِه، وهي الضَّعفُ، حتَّى لا يطغَى؛ لقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- سَعةُ رحمةِ الله عزَّ وجلَّ بعباده؛ حيث أراد أن يبيِّنَ لهم؛ لأنَّ مِن لُطفِه وكرَمِه ألَّا يدَعَ النَّاسَ على جهلِهم؛ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾[(٤)].

٢- أنَّه ليس في الشَّرع شيءٌ مجهولٌ لكلِّ أحدٍ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ فالشَّرعُ لا يُمكِنُ أن يكونَ خفيًّا على كلِّ أحدٍ، لكنَّه يخفى على الإنسانِ لأسباب: إمَّا قلَّة العِلم، وإمَّا قصورُ الفَهم، وإمَّا التَّقصيرُ في الطَّلب، وإمَّا سوءُ القصد، فهذه أربعةُ أسبابٍ لخفاءِ الحُكم الشَّرعيِّ على الإنسانِ[(٥)].

٣- كمالُ هذه الأمَّةِ وشريعتِها؛ لقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٤٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فما من خيرٍ كانت عليه الأُممُ إلَّا ولهذه الأمَّةِ منه نصيبٌ[(١)].

٤- تكرَّر ذِكْرُ التوبة في قول الله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: لأنَّ الشَّهوةَ لَمَّا كانت في هذا البابِ غالبةً فلا بدَّ أن تُوجِبَ ما يُوجِبُ التَّوبةَ، فكرَّر سبحانه وتعالى ذِكْرَ التوبةِ مرَّتين[(٢)].

٥- في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾أنَّ اليُسرَ أحبُّ إلى اللهِ من العُسرِ؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ففيه الحثُّ على اتِّباعِ رُخَصِ اللهِ؛ لأنَّ الرُّخَصَ من التَّيسيرِ[(٣)].

٦- أنَّه إذا تعارَضَتِ الأدلَّةُ عند المستدِلِّ بين التَّيسيرِ والتَّعسيرِ، فالْأَوْلى أن يؤخَذَ بالتَّيسيرِ؛ لأنَّ هذا هو مرادُ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾[(٤)].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقولُه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ وقولُه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ له مناسبةٌ حَسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان العبدُ له في هذا البابِ ثلاثةُ أحوالٍ: حالةُ جَهْلٍ بما يَحِلُّ له ويَحرُمُ عليه، وحالةُ تقصيرٍ وتفريطٍ، وحالةُ ضَعْفٍ وقِلَّةِ صَبْرٍ- قابَل سبحانه جهْلَ عبدِه بالبيانِ والهُدى، وتقصيرَه وتفريطَه بالتَّوبةِ، وضَعْفَه وقِلَّةَ صَبْرِه بالتَّخفيفِ، والله أعلم[(٥)].

٨- الإشارةُ إلى العلَّة بإرادةِ التَّخفيفِ على العبادِ، وهي قوله: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٣).
(٢) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).

٩- أنَّ ما كان مكروهًا للعبدِ، فإنَّ الله يُعبِّرُ عنه بالبناءِ للمفعولِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ولم يقُلْ: خلَق اللهُ، مع أنَّ ذِكرَ اللهِ واردٌ في الجملة الَّتي قبلها، ويؤيِّد هذا قولُ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، ويؤيِّده أيضًا ما في سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف النِّعمةَ إلى اللهِ، وقال في الغضَب: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقُلِ: الَّذين غضِبْتَ عليهم، مع أنَّ أوَّلَ مَن غضِب عليهم هو اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾: تذييلٌ قُصِد منه استئناسُ المؤمنين، واستنزالُ نفوسِهم إلى امتثالِ الأحكامِ المتقدِّمة من أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا؛ فإنَّها أحكامٌ جَمَّةٌ، وأوامرُ ونواهٍ تُفضي إلى خَلْعِ عوائِدَ ألِفُوها، وصَرْفِهم عن شَهواتٍ استباحُوها، كما أشارَ إليه قولُه بعدَ هذا: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾(٢).

- وهو استئنافٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما سبَق من الأحكام، وبيان كونها جاريةً على مناهجِ المهتدينَ من الأنبياءِ والصَّالحين(٣).

- وعبَّر بصيغةِ المضارعِ هنا ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ البيانِ واستمرارِه؛ فإنَّ هذه التَّشريعاتِ دائمةٌ مستمرَّةٌ، فيكون بيانًا للمخاطَبينَ، ولِمَن جاء بعدَهم، وللدَّلالةِ على أنَّ الله يُبقي بعدها بيانًا متعاقبًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨-١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨-١٩).

- وزِيدت اللَّامُ في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ للتَّأكيدِ على إرادةِ التَّبيينِ، وكذلك لتأكيدِ معنى الاستقبال اللَّازم للإرادة[١].

٢- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: فيه مبالغةٌ في الوصْفِ بالعِلم بالأشياء، الَّتي مِن جملتِها ما شرَع لكم من الأحكامِ، كما فيه مبالغةٌ في وصْفِه بمراعاةِ الحِكمةِ والمصلحة في جميعِ أفعالِه سبحانه[٢]، مع ما في جمْعِ الوصفينِ من الكَمالِ والمبالغةِ كذلك.

٣- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾: جملةٌ مسُوقةٌ لبيانِ كمالِ منفعةِ ما أراده اللهُ تعالى، وكمالِ مَضرَّةِ ما يريد الفجرةُ، لا لبيانِ إراداتِه تعالى لتوبتِه عليهم؛ حتَّى يكونَ مِن بابِ التَّكريرِ للتقريرِ؛ ولذلك غيَّر الأسلوبَ إلى الجملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالةِ على دوامِ الإرادةِ[٣].

- وقد كرَّر قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بعدَ قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للتَّأكيدِ والمبالغةِ[٤]، وما في ذلك من سرور المؤمنين، وزيادة نشاطِهم في التَّعرُّضِ لتوبة الله عزَّ وجلَّ، وأيضًا توطئةً وتمهيدًا لقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ...﴾، والمعنى أنَّ اللهَ له هذه الإرادةُ، وللَّذين يتَّبِعون الشَّهواتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٨- ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

تلك الإرادةُ[١]. وقيل: كَرَّر قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ليُرتِّبَ عليه قولَه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾؛ فليس بتأكيدٍ لفظيٍّ، وهذا كما يُعادُ اللَّفظُ في الجزاءِ والصِّفةِ ونَحوِها، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا﴾[٢] [القصص: ٦٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخَبرِ الفِعليِّ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ الإضافيِّ، أي: اللهُ وحْدَه هو الذي يُريد أنْ يَتوبَ عليكم، وأمَّا الذين يَتَّبعون الشهواتِ فيُريدون انصرافَكم عن الحقِّ، ومَيْلَكم عنه إلى المعاصِي؛ ففي التعرُّضِ لإرادةِ الذين يتَّبعون الشَّهواتِ تنبيهُ المسلِمينَ إلى دَخائلِ أعدائِهم؛ ليَعْلَموا الفَرْقَ بَينَ مُرادِ اللهِ تعالى مِن الخَلْقِ، ومُرادِ أعوانِ الشياطينِ، وهم الذين يَتَّبِعون الشَّهواتِ[٣].

٤- **قوله:** ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبله من التَّخفيفِ بالرُّخصةِ في نكاحِ الإماء، وليس لضعفِ البِنية مدخلٌ في ذلك، وإنَّما الَّذي يتعلَّقُ به التَّخفيفُ في العبادات الشَّاقَّة[٤]، ففيه إظهارٌ لمزيَّةِ هذا الدِّينِ، وأنَّه أليقُ الأديانِ بالنَّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ ولذلك فما مضى من الأديانِ كان مُراعًى فيه حالٌ دون حالٍ[٥]، وحُذِفَ الفاعلُ للعلم به؛ فإنَّ الخالقَ هو الله عزَّ وجلَّ، وذلك معلومٌ بالضَّرورةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النِّساء)) (١/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠- ٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٤٩).

- **وقوله:** ﴿ضَعِيفًا﴾ فيه التَّعبيرُ باسمِ ما يؤولُ إليه، أو باسْمِ أصلِه[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٧).

الآيات (٢٩ - ٣١)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟
كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نُصْلِيهِ نَارًا﴾: نُدخِله فيها، ونَشويه بها؛ يقال: صَلَى النارَ، أي: دخَل فيها، وأصلُ (الصَّلَى): الإيقادُ بالنَّار[(١)].

﴿نُكَفِّرْ﴾: أي: نَغْفِر، ونَمحُ، ونستُر، وأصْل الكَفْر في اللُّغة: سَتْر الشَّيءِ وتَغطيتُه[(٢)].

مُشكِلُ الإعراب:

قَوْله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً﴾.

﴿تِجَـٰرَةً﴾: قُرِئت بالنَّصب، وبالرَّفْع؛ فعلى قِراءة النَّصبِ يكون قوله: ﴿تِجَـٰرَةً﴾ خبرَ ﴿تَكُونَ﴾، ويكون اسم ﴿تَكُونَ﴾ مُضمرًا فيها، تَقْديره: إِلَّا أنْ تكون الأموالُ أموالَ تِجَارَةٍ، ثمَّ حذف المُضَاف، وَأقَام الْمُضَاف إليه مقَامه، وَقيل: تَقْدِيره إِلَّا أنْ تكون التِّجَارَةُ تِجَارَةً، وَالتَّقْدِير الأوَّل أحسن؛ لتقدُّم ذِكرِ الْأَمْوَال. وأمَّا على قِراءة الرفع، فيكون قوله: ﴿تِجَـٰرَةٌ﴾ فاعلًا، بَجَعْل ﴿

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

تَكُونَ ﴾ تامَّة بِمَعْنى يَقَع، ومثلُ قولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً ﴾ قولُه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً ﴾ فِي النَّصب والرفع. والاستثناءُ هنا منقطِعٌ لوجهينِ؛ أحدُهما: أنَّ التِّجارةَ لم تندَرِجْ في الأموالِ المأكولةِ بالباطلِ حتى يُستثنَى عنها، والثاني: أنَّ المُسْتَثنى كَوْنٌ، والكونُ ليس مالًا من الأموالِ[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

ينهى اللهُ المؤمنين أن يأخذ بعضُهم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، لكنْ إن كان ما يأخُذُه بعضُهم من بعضٍ عن طريقِ التِّجارةِ المبنيَّة على رضا المتبايِعَيْن، فذلك حلالٌ لهم، كما ينهاهم سبحانه عن أن يقتُلَ أحدُهم نفسَه، أو يقتُل أخاه في الدِّين، إنَّه سبحانه كان بهم رحيمًا.

ثمَّ توعَّد سبحانه مَن يأخُذ أموالَ النَّاس بالباطلِ، ويقتُلُ الأنفُسَ الَّتي حرَّمها الله تعالى بغير حقٍّ، متجاوزًا حدودَ الله عن قصدٍ وعلمٍ بكونه محرَّمًا، بأنه سيُحرِقه سبحانه بنارٍ يُدْخِله فيها، وكان ذلك أمرًا سهلًا على الله.

ثمَّ يخاطِبُ اللهُ عباده: أنَّهم إن يبتعدوا عن الوقوع في كبائر السَّيِّئاتِ الَّتي نهى عنها، فإنَّ الله سيتجاوزُ عمَّا يصدُرُ منهم من صغائرِها، ويُدخِلُهم الجنَّةَ دارَ كرامَتِه.

تفسيرُ الآيات:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى كيفيَّةَ التَّصرُّف في النُّفوسِ بالنِّكاحِ، بيَّن كيفيَّةَ التَّصرُّفِ في

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٦٣-٦٦٤).

الأموالِ المُوصِلَةِ إلى النِّكاح، وإلى مِلْكِ اليمينِ، وأنَّ المهورَ والأثمانَ المبذولةَ في ذلك لا تكونُ ممَّا مُلِكَت بالباطِلِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان غالبُ ما مضى من السُّورة في معاملةِ اليتامى والأقارب والنِّساء، وسائر النَّاس، من أحكامٍ في المواريثِ والنِّكاحِ، وما يُفرَض للنساء وما يجب مِن إيتائِهنَّ أجورَهنَّ، ومن أوامرَ بإيتاءِ ذي الحقِّ في المال حقَّه إلى غير ذلك، وكان مدارُ الكلامِ في تلك المعاملات على المال، وبعد ذِكرِ تلك الأنواعِ من الحقوقِ الماليَّةِ ذكَرَ قاعدةً عامَّةً للتَّعاملِ الماليِّ، وتشريعًا عامًّا في الأموال والأنفُسِ(٢) فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، من وسائلِ الكَسْبِ المحرَّمةِ؛ كالرِّبا والقِمارِ، وغيرِ ذلك من الأمور الَّتي نهاكم اللهُ عزَّ وجلَّ عنها(٣).

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾.

أي: لكنْ إن كان هذا المالُ الَّذي يأخذُه بعضُكم من بعضٍ، إنَّما يؤخَذُ بسببِ تجارةٍ صادرةٍ عن رضًا بين المتبايِعَيْنِ منكم، فذلك حلالٌ لكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٢٦، ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٦، ٦٣٧) واقتصر في معنى الآية على النهي على أن يقتلَ بعضُ المسلمين بعضًا، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٨-٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥١-٢٥٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

أنَّ المال لَمَّا كان عديلَ الرُّوح، ونهى عن إتلافِه بالباطلِ، نهى عن إتلافِ النَّفسِ؛ لكونِ أكثرِ إتلافِهم لهما بالغارات لنَهْبِ الأموالِ، وما كان بسببها أو تسبيبها، على أنَّ مَن أُكِل مالُه ثارت نفسُه، فأدَّى ذلك إلى الفِتَن الَّتي ربَّما كان آخرَها القتلُ، فكان النَّهيُ عن ذلك أنسبَ شيءٍ لِما بُنِيَتْ عليه السُّورةُ من التَّعاطُفِ والتَّواصلِ[1].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: لا يقتُلْ أحدُكم نفسَه الَّتي بين جنبيه، ولا يُلقِ بنفسه إلى التَّهلُكة، بفعلِ ما يُفضي إلى التَّلَف، ولا يقتُلْ أيضًا أخاه في الدِّين، (فمن قتَل غيرَه من إخوانِه في الدِّين، فكأنَّما قتَل نفسَه؛ لأنَّهم أهلُ دِينٍ واحدٍ)[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

وعن ثابت بن الضَّحَّاكِ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((... ومَن قَتَلَ نفسَهُ بشيءٍ في الدُّنيا، عُذِّبَ بِهِ يومَ القيامةِ))[3].

وعن أبي هريرة رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ

قال ابن كثير: (ومن تمام التَّراضي، إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين [خ: ٢٠٧٩، م: ١٥٣٢]، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا» وفي لفظ البخاري [٢١١٢]: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٣-٢٥٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧) واللفظ له، ومسلم (١١٠).

قتَلَ نفسَهُ بحديدَةٍ، فحديدتُهُ في يدِهِ يتوَجَّأُ[١] بها في بطنِهِ في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومَنْ شرِبَ سمًّا فقتَلَ نَفْسَهُ، فهو يتحسَّاهُ[٢] في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جبَلٍ فقتَلَ نفسَهُ، فهو يتردَّى في نارِ جهنَّمَ، خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا))[٣].

وعن جُندُبِ بنِ عبد الله رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرحٌ، فجَزِع، فأخَذ سِكِّينًا فحزَّ[٤] بها يدَه، فما رقأ الدَّمُ[٥] حتَّى مات، قال اللهُ تعالى: بادَرني عبدي بنفسِه[٦]، حرَّمتُ عليه الجنَّةَ))[٧].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((اجتنِبُوا السَّبعَ الموبِقاتِ. قالوا: وما هنَّ؟ قال: الشِّركُ بالله، والسِّحر، وقتلُ النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ)).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو رحمةٍ بكم أيُّها العبادُ، ومن رحمتِه سبحانه بِكُم: أنْ نهاكم عن قتلِ نفوسِكم، وعن إتيانِ ما فيه هلاكُها، ومن رحمتِه أيضًا: أنْ حرَّم دماءَ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظَرَ أَخْذَ أموالِ بعضِكم من بعضٍ بالباطل، إلَّا عن تجارةٍ برضًا وطِيبِ نفسٍ، ولولا ذلك لهلَكْتم، ولأهلَك بعضُكم بعضًا،

(١) يتوجَّأ: يَطْعُنُ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٤٨).
(٢) يتحسَّاه: يَشْرَبُه في تمهُّلٍ، ويتجرَّعُه. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٢١).
(٣) رواه مسلم (١٠٩).
(٤) فحزَّ بها يدَه: الحزُّ: هو القطعُ بغيرِ إبانةٍ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٩٩).
(٥) فما رَقَأَ الدم: أي: لم ينقطِعْ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٠٠).
(٦) بادَرَني عبدي بنَفْسِه: هو كنايةٌ عن استعجالِ المذكورِ الموتَ. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٠٠).
(٧) رواه البخاري (٣٤٦٣) واللفظ له، ومسلم (١١٣).

قتلًا وسلبًا وغصبًا(١).

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾.

أي: إنَّ مَن يأكُل أموالَ النَّاس بالباطل، ويقتُل النُّفوسَ الَّتي حرَّم اللهُ تعالى قتلها بغير حقٍّ، متجاوزًا بذلك حدودَ الله تعالى إلى ما حرَّمه، ومتجاسرًا على انتهاكِ ذلك، عن قصدٍ وعلمٍ بتحريمِه، لا عن جهلٍ أو نسيانٍ(٢).

﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا﴾.

أي: فسوف ندخِلُه نارًا عظيمةً تُحرِقه(٣).

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: إنَّ إدخالَه النَّارَ وإحراقَه بها، أمرٌ سهلٌ على الله تعالى، لا يمتنعُ عليه(٤).

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٤٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٠).

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الوعيدَ على فِعلِ بعضِ الكبائر، ذكَر الوعدَ على اجتنابِ الكبائر؛ تبشيرًا للمُجتنب، كأنَّ قائلًا قال عن الوعيدِ المذكور: هذا للفاعل، فما للمُجتنِبِ؟ فقال على وجهٍ عامٍّ[١]:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

أي: إذا ابتعدْتُم عن كبائرِ السَّيِّئاتِ الَّتي نُهِيتم عنها[٢].

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يتجاوَزُ لكم عن صغائرِ الذُّنوبِ[٣].

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

أي: ونُدخِلْكم الجنَّةَ[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أضاف الأموالَ إلى الجميعِ، فلم يقُلْ: لا يأكُلْ بعضُكم مالَ بعضٍ؛ للتَّنبيهِ على تكافُلِ الأمَّةِ في حقوقِها ومصالحِها، كأنَّه يقولُ: إنَّ مالَ كلِّ واحد

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٦١)..

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦١- ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٢).

قال ابنُ عثيمين: (نُدخلكم في مكانِ دخولٍ كريمٍ، بناءً على أنَّ مدخلَ هنا اسمُ مكانٍ، ويجوزُ أن يكونَ مصدرًا ميميًّا، أي: ندخلكم إدخالًا كريمًا، ويجوزُ أن يرادَ بها هذا وهذا، أي: أنَّ الكريمَ وصفٌ للإدخالِ ولمكانِ الدخولِ).

منكم هو مالُ أمَّتِكم، فإذا استباح أحدُكم أن يأكُلَ مالَ الآخَرِ بالباطل، كان كأنَّه أباح لغيرِه أكلَ مالِه، وهَضْمَ حقوقِه; لأنَّ المرءَ يُدانُ كما يَدِينُ[١].

٢- يُستفادُ أيضًا من إضافةِ الأموالِ للجميع في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أنَّ صاحبَ المالِ الحائزَ له يجبُ عليه بذلُه- أو البذلُ منه- للمحتاجِ، فكما لا يجوزُ للمحتاج أن يأخُذَ شيئًا من مالِ غيرِه بالباطل- كالسَّرقةِ والغَصْبِ- لا يجوزُ لصاحبِ المال أن يبخَلَ عليه بما يحتاجُ إليه[٢].

٣- أنَّ مِن مقتضى الإيمانِ تجنُّبَ أكلِ المالِ بالباطل؛ لأنَّه وجَّه الخطابَ إلى المؤمنين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ تحريمُ التَّعامُلِ المحرَّمِ، ولو كان بِرِضًا من الطَّرَفينِ؛ لأنَّ التَّعاملَ المحرَّمَ أكلٌ للمالِ بالباطل، وعلى هذا فلو تراضى الطَّرفانِ على تعامُلٍ رِبويٍّ فإنَّ ذلك محرَّمٌ[٤].

٢- الأصلُ في العقودِ هو التَّراضي المذكورُ في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾[٥].

٣- يؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ أنَّه تنعقِدُ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٥).

العقودُ بما دلَّ عليها من قولٍ أو فِعل؛ لأنَّ اللهَ شرَط الرِّضا، فبأيِّ طريقٍ حصَل الرِّضا انعقَد به العقدُ[(١)].

٤- في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾: خصَّ التِّجارة بالذِّكرِ؛ لأنَّ أسبابَ الرِّزق أكثرُها متعلِّقٌ بها[(٢)].

٥- ذهب جمهورُ الفقهاء إلى عدم جوازِ التَّسعيرِ في الأحوال العاديَّة التي لا يظهَرُ فيها ظُلمُ التجَّار ولا غَلاءٌ في الأسعار، مستدِلِّينَ بقول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ ووجه الدَّلالة في الآيةِ الكريمة أنَّ النَّاسَ مُسَلَّطون على أموالِهم، والتَّسعيرُ حَجْرٌ عليهم، والإمامُ مأمورٌ برعاية مصلحة المسلمينَ، وليس نظَرُه في مصلحةِ رُخصِ الثَّمْن أَوْلى مِن نَظَرِه في مصلحة البائعِ بتوفير الثَّمَن، وإذا تقابل الأمران وَجَب تمكينُ الفريقين من الاجتهادِ لأنفُسِهم، وإلزامُ صاحِبِ السِّلعةِ أن يبيعَ بما لا يرضى به مُنافٍ لقَوْلِ الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[(٣)].

٦- أنَّ الله عزَّ وجلَّ أرحمُ بالإنسانِ من نفسِه؛ لأنَّه نهاه أن يقتُلَ نفسَه، فصار أرحَمَ به مِن نفسِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[(٤)].

٧- أنَّ فِعلَ المنهيَّاتِ المذكورةِ في الآية من كبائر الذُّنوب؛ لأنَّه تُوُعِّدَ عليه بالنَّارِ، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وكلُّ ذنْبٍ تُوُعِّدَ عليه بالنَّارِ فهو من كبائرِ الذُّنوب[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٠).

(٣) ((الحسبة)) لابن تيمية (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٠).

٨- دلَّتْ إضافةُ ﴿كَبَآئِرَ﴾ إلى ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ على أنَّ المنهيَّاتِ قسمان: كبائر، ودونها، وهي الَّتي تُسمَّى الصَّغائر، وصفًا بطريقِ المقابلةِ، وقد سُمِّيت هنا سيِّئات[(١)].

٩- قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ فيه تفاضُلُ النَّاسِ في الإيمانِ، وجهُه: أنَّ الإيمانَ يزدادُ بزيادة العملِ كَمِّيَّةً أو كيفيَّة أو نوعًا، وهنا قسَّم اللهُ المعاصيَ إلى قسمينِ، وكلَّما كان الإنسانُ في معصيةٍ أشدَّ، كان إيمانُه أنقَصَ وأقلَّ، فيؤخَذُ منه أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُصُ، وهذا هو الَّذي عليه جمهورُ أهلِ السُّنَّة، بدليلِ الكتاب والسُّنَّةِ والواقع[(٢)].

١٠- أنَّ الصَّغائرَ تقعُ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ؛ لقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، أي: فإن لم يَجتنِبِ الكبائرَ أُخِذَ بالصَّغائرِ، لكنَّ الكبائرَ والصَّغائرَ تحت المشيئةِ ما لم تكُنْ كفرًا[(٣)].

١١- سَعةُ فَضلِ الله سبحانه؛ وذلك بتكفير السَّيِّئاتِ باجتنابِ كبائرِ الذُّنوب، وإلَّا لو جازى النَّاسَ بالعدل لعاقَبهم على الصَّغائر وعلى الكبائرِ، كلٌّ منها بحسَبِه؛ فالكبائرُ عقوبتُها شديدةٌ، والصَّغائرُ دون ذلك، ولكن مِن فَضْله عزَّ وجلَّ جعَل الصَّغائرَ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ[(٤)].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ فيه إشارةٌ بألطفِ دَلالةٍ وأدقِّها وأحسنِها إلى أنَّه مَن اجتنبَ الشِّركَ جميعَه كُفِّرتْ عنه كبائِرُه، وأنَّ نِسبةَ الكبائرِ إلى الشِّركِ كنِسبةِ الصَّغائرِ إلى الكبائرِ، فإذا وقعتِ الصَّغائرُ مُكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ، فالكبائرُ تقَعُ مكفَّرةً بإذن الله تعالى باجتنابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٥).

الشِّركِ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: فيه تصديرُ الخِطاب بالنِّداءِ والتَّنبيهِ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لإظهارِ كمال العناية بمَضمونِه[٢]، مع ما في وصْفِ الإيمانِ من التَّرغيبِ في الامتثالِ اللَّائقِ بأهلِ هذا الوَصْفِ.

٢- **قوله:** ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: خصَّ الأكلَ ها هنا بالذِّكرِ، وإنْ كانت سائرُ التَّصرُّفات الواقعةِ على الوجه الباطل محرَّمةً؛ لأنَّ المقصودَ الأعظمَ من الأموال: الأكلُ؛ إذ إنَّ الأكلَ يعبَّرُ عنه في الانتفاعِ بالشَّيء انتفاعًا تامًّا، لا يعود معه إلى الغير؛ فأكلُ الأموالِ هو الاستيلاءُ عليها بنيَّةِ عدمِ إرجاعها لأربابها، وغالب هذا المعنى أن يكونَ استيلاءَ ظُلمٍ، وقد يُطلقُ على الانتفاعِ المأذون فيه؛ ولذلك غلَب تقييدُ المنهيِّ عنه من ذلك بقيدِ: «بالباطل» ونحوِه[٣].

٣- **قوله:** ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم ... وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: فيه تقديمُ النَّهي عن أكلِ الأموالِ على النَّهيِ عن قتلِ الأنفُس، مع أنَّ الثَّانيَ أخطرُ، إمَّا لأنَّ مناسبةَ ما قبله أفضَتْ إلى النَّهيِ عن أكلِ الأموالِ، فاستحقَّ التَّقديمَ لذلك، وإمَّا لأنَّ المخاطَبين كانوا قريبي عهدٍ بالجاهليَّةِ، وكان أكلُ الأموالِ أسهلَ عليهم، وهم أشدُّ استخفافًا به منهم بقتلِ الأنفُس؛ لأنَّه كان يقعُ في مواقعِ الضَّعف، حيث لا يدفَعُ صاحبُه عن نفسه؛ كاليتيمِ والمرأةِ والزَّوجة؛ فآكِلُ أموالِ هؤلاء في مأمنٍ من التَّبعاتِ، بخلاف قَتْلِ النَّفس؛ فإنَّ تبِعاتِه لا يسلَمُ منها أحدٌ، وإن بلَغ من

(١) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣).

الشَّجاعةِ والعزَّة في قومه كلَّ مبلغٍ[(١)].- أو لأنَّه أكثرُ وقوعًا، وأفشى في النَّاس من القتلِ، لا سيَّما إن كان المرادُ ظاهرَ الآية، مِن أنَّه نهى أن يقتُلَ الإنسانُ نفسَه، فإنَّ هذه الحالةَ نادرةٌ[(٢)]. ويُمكن أنْ يكونَ ذلِكَ من بابِ التدرُّجِ مِن الأدْنى إلى الأعْلى- كما هو الغالِبُ.

- والتَّعبير عنهم بالأنفُسِ؛ للمبالَغةِ في الزَّجرِ عن قتلِهم؛ بتصويرِه بصورةِ ما لا يكادُ يفعَلُه[(٣)].

٤- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾: تعليلٌ للنَّهي بطريق الاستئنافِ، أي: مبالِغًا في الرَّحمة والرَّأفةِ؛ ولذلك نهاكم عمَّا نهى؛ فإنَّ ذلك رحمةٌ عظيمةٌ لكم بالزَّجرِ عن المعاصي، وللَّذين هم في مَعرِضِ التعرُّضِ لهم بحفظِ أموالِهم وأنفسِهم[(٤)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٣٢ - ٣٥)

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿مَوَٰلِيَ﴾: أولياء، وهم الورَثة، أو العَصَبة، ويُطلَق المولى على ابنِ العَمِّ والحليف وغير ذلك، وأصل (وَلِي): قُرْب[1].

﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: الأيمانُ: جمعُ يمين، وهو الحَلِف، وعقدُ اليمين: توثيقُها باللَّفظ مع العزمِ عليها، وأصل (عقد): يدلُّ على شدٍّ، وشدَّةِ وُثوقٍ[2].

المَعْنى الإجماليّ:

يَنهى اللهُ عباده عن تمنِّي ما فضَّلَ به بعضَهم على بعضٍ، مخبرًا أنَّ لكلٍّ من الرِّجالِ والنِّساء جزاءً على ما عمِلوه، إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشرٌّ، ثمَّ أرشَدهم إلى ما هو خيرٌ لهم، فأمَرهم أن يسألوا اللهَ من فضلِه ليُعطيَهم، فهو سبحانه بكلِّ شيءٍ عليم.

ثمَّ أخبر تعالى أنَّه قد جعل لكلِّ إنسان عَصَبةً يرِثونه بعد موته، فيقتسمون ما حصَل هو عليه وراثةً من أبيه وأمِّه وأقاربه، والَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلْفٍ

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (١/ ١٢٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦).

معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ، وهذا الحكم قد نُسِخَ. ثم أخبر الله تعالى أنه مُطَّلِعٌ ورقيبٌ على كلِّ شيءٍ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهاهم الله تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ عن أكْلِ الأموال بالباطل، وعن قتلِ النَّفسِ، نهاهم عن تمنِّي ما فضَّل اللهُ به بعضَهم على بعضٍ؛ فإن التَّمنِّيَ يحبِّبُ للمتمنِّي الشَّيءَ الَّذي تمنَّاه، فإذا أحبَّه أتبعَه نفسَه، فرَامَ تحصيلَه، وافتَتَن به ووقَع في الحسدِ، وإذا وقَع في الحسدِ وقَع لا محالةَ في أخذِ الأموالِ بالباطلِ، وفي قتْلِ النُّفوس، فلم يكتفِ بالنَّهيِ عن تحصيلِ المالِ بالباطلِ وقتلِ الأنفُس، حتَّى نهى عن السَّببِ المحرِّضِ على ذلك.

وأيضًا فإنَّ أخذَ المالِ بالباطل، وقَتْلَ النَّفس، من أعمالِ الجوارحِ، فأمَرَ أوَّلًا بتركِهما؛ ليصيرَ الظَّاهرُ طاهرًا عن الأفعالِ القبيحة، ثمَّ أمَرَ بَعْده بتركِ التَّعرُّضِ لنفوس النَّاسِ وأموالِهم بالقلبِ على سبيل الحسدِ؛ ليصير الباطنُ طاهرًا عن الأخلاقِ الذَّميمةِ، وليوافِقَ العملُ القلبيُّ العملَ الخارجيَّ، فيستويَ الباطنُ والظَّاهرُ في الامتناعِ عن الأفعالِ القبيحةِ[(١)].

سَببُ النُّزول:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٨).

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((أتت امرأةٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، للذَّكرِ مِثلُ حظِّ الأُنثيَيْنِ، وشَهادةُ امرأتينِ برجُلٍ، أفنحن في العملِ هكذا؟ إن عمِلَتِ المرأةُ حسنةً كُتِبَت لها نصفَ حسنةٍ! فأنزَل اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا...﴾ الآية))[١].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

أي: لا تطمَعوا في أمرٍ قد فضَّل اللهُ تعالى به بعضَكم على بعضٍ؛ كالجهادِ والعِلم، والمال، والولد، وغيرِ ذلك من أمور الدِّين أو الدُّنيا[٢].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾

أي: كلٌّ له جزاءٌ على عمله بحسَبِه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[٣].

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٢٢٣)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١١٥).
وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧١).
قال ابنُ كثير: (ولا يَرِدُ على هذا ما ثبَتَ في الصحيح: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه على هلكتِه في الحقِّ، فيقول رجلٌ: لو أنَّ لي مثل ما لفلانٍ لعملتُ مثلَه. فهما في الأجرِ سواءٌ»؛ فإنَّ هذا شيءٌ غيرُ ما نهت الآية عنه؛ وذلك أنَّ الحديث حضَّ على تمنِّي مثلِ نعمةِ هذا، والآية نهت عن تمنِّي عينِ نعمةِ هذا) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).
وقال ابنُ رجب في معنى الآية: (فُسِّر ذلك بالحسد، وهو تمني الرجلِ نفسَ ما أُعطي أخوه مِن أهلٍ ومالٍ، وأن ينتقلَ ذلك إليه، وفسِّر بتمنِّي ما هو ممتنعٌ شرعًا أو قدرًا، كتمني النساء أن يكنَّ رجالًا، أو يكونَ لهنَّ مثل ما للرجالِ من الفضائل الدينية، كالجهادِ، والدنيوية، كالميراثِ والعقلِ والشهادةِ، ونحو ذلك. وقيل: إنَّ الآية تشملُ ذلك كلَّه) ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

لَمَّا نهاهم اللهُ تعالى عن تمنِّي ما فضَّل به بعضَهم على بعض؛ لأنَّه أمرٌ محتوم، والتَّمنِّي فيه لا يُجدي شيئًا، أرشَدهم إلى ما يُصلحُهم، فقال[١]:

﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

أي: ولكنِ اسألوا الله تعالى من فضله ليُعطيَكم؛ فإنَّه الكريمُ الوهَّاب جلَّ جلالُه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيء، ومن ذلك علمُهُ بمن يستحقُّ أن يعطيَه من فضلِه، وبمن يستحقُّ الحِرمان؛ وذلك كقَصرِه القتالَ في سبيله على الرجال؛ لعِلمِه بأنَّهم أقدَرُ عليه وأصلَحُ له[٣].

﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، عطَف عليها هذه الجملةَ باعتبارِ كونِه جامعًا لمعنى النَّهي عن الطَّمعِ في مال صاحب المال،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٢- ٢٧٣).

قال ابن عثيمين: (فمثلًا: إذا رأيت شخصًا قد فضلك في المالِ فلا تتمنَّ هذا المالَ الذي أعطاه الله هذا الرجلَ، ولكنِ اسأل الله من فضله، وإذا وجدت رجلًا فضلك في العلمِ فلا تتمنَّ هذا العلمَ الذي أعطاه الله غيرَك، ولكنِ اسألِ اللهَ مِن فضلِه ودعْ علمَه ومالَه يبقَى له) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨١).

قُصِد منها استكمالُ تبيينِ مَن لهم حقٌّ في المال(١).

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾.

أي: قد جعَل اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منكم أيُّها النَّاسُ عَصَبةً، كإخوتِه وبني عمِّه، يرِثونه ممَّا ورِثه هو مِن أبيه وأمِّه، وسائرِ قَرابتِه(٢).

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾.

النَّاسخ والمَنسوخ:

قيل: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وهذا قولُ جمهورِ العلماء(٣)، وقيل: هي مُحكَمةٌ(٤).

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾.

قيل: المعنى: وأمَّا الَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلفٍ معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ(٥).

وقيل: المرادُ: أعطوهم نصيبَهم من النُّصرةِ والمناصَحةِ، ونحوِ ذلك(٦).

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال: وَرَثَةً، ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾: كان المُهاجِرونَ لَمَّا قَدِموا المدينة

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: (تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٣٦٩).

(٤) وممن ذَهب إلى أنَّها محكمةٌ: ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦٧٣، ٦٨٦).

(٥) وهذا اختيارُ الواحديِّ في ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٤٤)، وابُن كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٢٨٨، ٢٩٢)، وابنُ عثيمينَ في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٢٨٢).

(٦) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٦/ ٦٧٣، ٦٨٦)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٧٦).

يَرِثُ المُهاجِرَ الأنصارِيُّ دون ذوي رحِمِه، للأخوَّةِ الَّتي آخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم، فلمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ نُسِخَتْ، ثمَّ قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من النَّصرِ والرِّفادَةِ[1] والنَّصيحةِ، وقد ذهَب المِيراثُ، ويوصِي له))[2].

وعن جُبَير بن مُطعِمٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّه قال: ((لا حِلفَ[3] في الإسلامِ، وأيُّما حِلفٍ كانَ في الجاهليَّةِ، لم يزِدْه الإسلامُ إلَّا شِدَّةً))[4].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رقيبٌ، شاهدٌ لا يغيبُ عنه شيءٌ، ومطَّلعٌ على كلِّ شيء؛ وذلك بعِلمِه لجميعِ الأمور، وبصَرِه لحركاتِ عبادِه، وسمعِه لجميع أصواتِهم، ومن ذلك: اطِّلاعُه عليكم- أيُّها المؤمنون- في مسألةِ إيتاء الموالي بالحِلفِ نصيبَهم، فيعلَم هل تؤتونهم ذلك أو لا؛ ولذا فاحذَروا من مخالفةِ أمرِه جلَّ وعلا[5].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- نهيُ الإنسانِ أن يَتمنَّى ما فضَّل اللهُ به غيرَه عليه؛ لقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، وهذا النَّهي للتَّحريمِ؛ لأنَّ هذا النَّوع مِن التَّمنِّي هو الحسَدُ بعينه؛ لأنَّه قال: ﴿مَا

---

(١) الرِّفادة- بكَسْرِ الرَّاء- هي الإعانةُ والإعطاء، ورِفادة قُرَيش: تعاونُها على ضِيافةِ الحاجِّ. ينظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (٣/ ١٧٣)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٤٢)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٨/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٠).

(٣) الحِلْفُ: هو المعاقدةُ والمعاهدةُ على التَّعاضُدِ والتَّساعُدِ والاتِّفاق. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٤٢٤).

(٤) رواه مسلم (٢٥٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٣)، وينظر أيضًا: ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٥).

فَضَّلَ ٱللَّهُ ﴾[١]، وقد كان أوَّلُ جُرمٍ حصَل في الأرض نشأ عن الحسدِ، ولقد كثُر ما انتُهِبَتْ أموالٌ، وقُتِلت نفوسٌ؛ للرَّغبةِ في بسطةِ رزقٍ، أو فتنةِ نساء، أو نَوالِ مُلك، والتَّاريخُ طافحٌ بحوادثَ من هذا القَبيلِ[٢].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ ...﴾ عامٌّ في النَّهيِ عن تمنِّي ما فضَّل اللهُ بعضَ المؤمنين على بعضٍ من أيِّ أنواعِ التَّفضيلِ؛ في الوظيفةِ والمكانة، وفي الاستعداداتِ والمواهبِ، وفي المال والمتاعِ، وفي كلِّ ما تتفاوَتُ فيه الأنصبةُ في هذه الحياة، لكن يجوزُ أن يتمنَّى الإنسانُ مِثلَ ما فضَّل اللهُ به غيرَه عليه، وجْهُه قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، فنحن لا نقول لك: لا تتمَنَّ أن يعطيَك اللهُ مثلما أعطى فلانًا، بل نقول: لا بأس، ولكن لا تتمَنَّ ما أعطاه اللهُ فلانًا، وبينهما فرق[٣].

٣- إذا مَنَعَ اللهُ عبادَه المؤمنين شيئًا تتعلَّقُ به إرادَتُهم، فتح لهم بابًا أنفَعَ لهم منه، وأسهَلَ وأَوْلَى، وهذا من لُطْفِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فنهاهم عن تمنِّي ما ليس بنافعٍ، وفتَحَ لهم أبوابَ الفَضْلِ والإحسان، وأمَرَهم أن يسألوه بلسانِ الحالِ[٤].

٤- سَعةُ فضلِ الله عزَّ وجلَّ وكرمِه؛ لقوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ فهو سبحانه لم يأمُرْنا بالسُّؤالِ إلَّا ليُعطيَنا؛ لأنَّه لو أمَرنا بالسُّؤالِ مِن غير أن يُعطيَنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٤).

لكان هذا عبَثًا لا فائدةَ منه، ولكنَّه عزَّ وجلَّ كريمٌ، هو الَّذي يتعرَّضُ لعبادِه ويقول: اسألوني[١].

٥- التسليمُ بما حكَم اللهُ به شرعًا أو قدَرًا؛ وذلك لأنَّ العبدَ إذا علم أنَّه صادرٌ عن عِلمِ الله سلَّمت، وقال: لولا أنَّ المصلحةَ في وجود هذا الشَّيء ما فعَله اللهُ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه لا يفعَلُ إلَّا عن علمٍ، فيَزيدُه هذا تسليمًا بما قضاه اللهُ شرعًا أو قدَرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[٢].

٦- يُستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ وجوبُ مراقبةِ الله؛ لأنَّ العاقلَ إذا علِم أنَّ الله سبحانه عليمٌ به، فسوف يراقبُ ربَّه بلسانِه وجَنانِه وأركانه؛ بلسانِه: بألَّا يقولَ ما حرَّم اللهُ، وجَنانِه: بألَّا يعتقدَ شيئًا حرَّمه اللهُ، أو يقولَ شيئًا حرَّمه اللهُ بالقلب؛ لأنَّ قولَ القلب هو حركتُه وعملُه، وأركانه: جوارحه بألَّا يعملَ ما حرَّمه الله[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- حِكمةُ الله سبحانه في العطاءِ والمنع؛ حيث يفضِّلُ بعضًا على بعض، ولا شكَّ أنَّ هذا صادرٌ عن حِكمة، وليس مجرَّدَ اختيارٍ، خلافًا لِمَن أنكَر حكمة الله، وقال: إنَّ فِعلَه لمجرَّدِ الاختيار، بل هو لاختيارٍ صادرٍ عن حكمةٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[٤].

٢- فضَّلَ اللهُ تعالى الذَّكَر على الأنثى في الميراثِ والدِّيَة والشَّهادة والعقيقةِ وغيرِ ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٧٤).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فكان من تفضيله الذَّكَرَ على الأنثى أن خُصَّ الذَّكرُ بجوازِ نكاحِ أكثَرَ من واحدةٍ، والله أعلم(١).

٣- إذا كان اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ نهى عن مجرَّد التمنِّي، فكيفَ بمَن يُنكر الفوارقَ الشرعيَّة بينَ الرَّجل والمرأةِ، ويُنادي بإلغائِها، ويطالبُ بالمساواةِ، ويدعو إليها باسمِ المساواةِ بينَ الرَّجل والمرأةِ؟ فهذه بلا شكٍّ نظريةٌ إلحاديةٌ؛ لما فيها مِن منازعةٍ لإرادةِ اللهِ الكونيَّة القدريَّة في الفوارقِ الخَلقيةِ والمعنويَّة بينهما، ومنابذةٍ للإسلامِ في نصوصِه الشرعيَّة القاطعةِ بالفرقِ بينَ الذَّكر والأُنثى في أحكامٍ كثيرةٍ. ولو حصَلت المساواةُ في جميعِ الأحكامِ مع الاختلافِ في الخِلقةِ والكِفايةِ؛ لكان هذا انعكاسًا في الفطرةِ، ولكان هذا هو عينَ الظلمِ للفاضلِ والمفضولِ، بل ظلمٌ لحياةِ المجتمعِ الإنسانيِّ، لما يلحقُه مِن حرمانِ ثمرةِ قُدراتِ الفاضلِ، والإثقالِ على المفضولِ فوقَ قدرتِه، وحاشا أن يقعَ مثقالُ خردلةٍ مِن ذلك في شريعةِ أحكمِ الحاكمينَ(٢).

٤- إثباتُ أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ لقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾؛ فنصيبُ الرِّجال يليقُ بهم، ونصيبُ النِّساء يليقُ بهنَّ(٣).

٥- أنَّ إثباتَ الإرثِ يكونُ بالنَّسَبِ والسَّببِ: بالنَّسَبِ؛ لقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ

(١) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٤١).
(٢) ينظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٢١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٧٤).

﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وبالسَّبب؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فإنَّ هذا سببُه فعلُ الإنسان؛ كالزَّوجيةِ؛ فإنَّها سببٌ، وليست بنسَبٍ، والإرث بالعِتق سببٌ، وليس بنسَبٍ[1].

٦- قوله: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ هذه كلمةٌ واسعة، ولم يقُلِ: القَرابات، بل قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ لأنَّ الميراثَ يكونُ للأقربِ فالأقرب، حتَّى ذوو الفروضِ يُفضَّل الأقربُ على الأبعد؛ فالبِنتُ مع بنتِ الابنِ لها النِّصفُ، ولبنتِ الابنِ السُّدسُ، والبنتان يُسقطانِ بناتِ الابنِ، والأختُ الشَّقيقةُ مع الأختِ لأبٍ لها النِّصفُ، والأختان الشَّقيقتانِ تُسقطانِ الأخواتِ لأبٍ، وهلُمَّ جرًّا؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ أي: الأقربُ فالأقربُ[2].

٧- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إثبات اسم الشَّهيد لله[3].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾: إن أُريدَ بذِكر الرِّجال والنِّساء هنا قصْدُ تعميمِ النَّاسِ، مثلما يذكر: المشرِق والمغرِب، والبَر والبحر، فالنَّهيُ عن تَمنِّي ما فَضَّل اللهُ به الرِّجالَ على النِّساءِ على عُمومِه، وتكونُ جملةُ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ مسُوقةً مَساقَ التَّعليلِ للنَّهي عن التَّمنِّي؛ قطعًا لعُذرِ المتمنِّين، وتأنيسًا بالنَّهيِ؛ ولذلك فُصِلت- أي: لم تُعطَفْ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٨٧).

بالواوِ على الَّتي قبلها. وإن أُريدَ بالرِّجال والنِّساء كلٌّ مِن النَّوعينِ بخُصوصِه، بمعنى: أنَّ الرِّجال يَختصُّون بما اكتسَبوه، والنِّساء يَختصِصْن بما اكتسَبْنَ من الأموالِ، فالنَّهيُ المتقدِّمُ مُتعلِّقٌ بالتَّمنِّي الَّذي يُفْضي إلى أكْلِ أموال اليتامَى والنِّساءِ، أي: ليس للأولياءِ أكْلُ أَموالِ مواليهم وولاياهم؛ إذ لكلٍّ مِن هؤلاءِ ما اكتَسَب، وتكونُ هذه الجملةُ عِلَّةً لجملةٍ محذوفةٍ دلَّت هي عليها، تَقديرُها: ولا تتمنَّوْا فتأكُلوا أموالَ مواليكم[١].

- وعبَّر بالاكتِسابِ في قوله: ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾ **وقوله**: ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ تأكيدًا لاستحقاق كلٍّ منهما لنصيبِه، وتقويةً لاختصاصِه به، بحيث لا يَتخطَّاه إلى غيرِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا يوجِبُ الانتهاءَ عن التَّمنِّي المذكورِ[٢].

٢- **قوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: تذييلٌ مناسبٌ لهذا التَّكليفِ؛ لأنَّه متعلِّق بعملِ النَّفس، لا يراقبُ فيه إلَّا ربَّه[٣]، مع ما اشتملَتْ عليه من التَّأكيد بـ: (إنَّ) واسميَّة الجملة، وتقديمِ الجارِّ والمجرورِ (بِكُلِّ شَيْءٍ) على خبر كان (عَلِيمًا).

٣- **قوله**: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَا﴾، قُدِّم عليه؛ لتأكيد الشُّمولِ، ودفْعِ توهُّمِ تعلُّقِ الجَعْلِ بالبعضِ دون البَعض[٤].

٤- **قوله**: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ...﴾: جملة مبيِّنةٌ للجملة قبلها، ومؤكِّدةٌ لها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٣).

٥- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ على منْعِ نصيبهم(١)، مع ما فيه مِن التَّأكيد بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة، وتقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على خبَر كان ﴿شَهِيدًا﴾.



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٢).

الآيتان (٣٤ - ٣٥)

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا (٣٤) وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا (٣٥)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جمْع قوَّام، وهو مِن القِيامِ على الشَّيءِ، أي: مُراعاته وحِفْظه، وحِياطته بالاجتهادِ، والقِيامِ بمصالحِه، والرَّجُل قيِّم على المرأةِ، أي: هو رئيسُها وكبيرُها، والحاكِمُ عليها، ومؤدِّبها إذا اعوجَّتْ، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ أو عَزْمٍ[1].

﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: خاضِعاتٌ، مُداوماتٌ على طاعةِ الله، والقُنوت: دوامُ الطَّاعة، ولزومُها مع الخُضوع؛ وأصل (قنت): يدلُّ على طاعةٍ وخيرٍ في دِين، ثم سُمِّي كلُّ استقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قنوتًا[2].

﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾: أي: لا يفعلْنَ في غَيبة الزَّوجِ ما يَكرَهُه الزَّوج، أو

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٦/ ٦٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤- ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

يحفَظْنَ عهدَ الأزواج عند غَيبتِهن، وأصل (حفظ): مراعاةُ الشَّيء(١).

﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: أي: مَعصيتَهنَّ، وتعاليَهنَّ عمَّا أوجَب اللهُ عليهنَّ من طاعةِ الأزواج، وبُغْضَهنَّ لهم؛ فنُشُوزُ المرأة: بُغْضُها لزَوْجها، ورفْعُ نفْسِها عن طاعتِه، ورفْعُ عَيْنِها عنه إلى غيرِه؛ وأصل النُّشوز: الارتفاع، والنَّشز: المرتفِعُ من الأرْض، ومِنه قيل للمَرأةِ المرتفعةِ على زَوْجِها، التاركةِ لأمْره، المُعْرِضةِ عنه، المبغِضة له: ناشِز(٢).

﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: أي: فلا تَطلُبوا طريقًا إلى أذاهُنَّ؛ مِن بغيتُ الضالَّةَ: إذا التمستَها، والبَغيُ يُطلَقُ على: طَلَبِ الشَّيء، والظُّلم، والتَّرفُّع والعلوِّ، ومُجاوَزةِ المقدار(٣).

﴿شِقَاقَ﴾: أي: تباعُد، أو خلاف، أو فِراق، والشِّقاق: المخالَفة، وأصل (شقق): انصداعٌ في الشَّيء(٤).

﴿حَكَمًا﴾: أي: ثِقةً يُولَّى أمْرَ الحُكم بينهما، ويُوكَّلُ بالنَّظرِ في أمْرِهما، والحَكَمُ: هو المتخصِّصُ بالحُكم. والحُكْم بالشَّيء: القضاءُ بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيركَ، أو لم تُلْزمْه، وأصل (حَكَم): المنْع، والإحكامُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥، ٦١٧).

(٢) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٢، ٨٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨، ١٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٦/ ٧١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١، ٥٤٣).

هو الفصلُ والتمييز، والفرقُ والتحديدُ الذي به يتحقَّق الشيءُ ويَحصُل إتقانُه؛ ولهذا دخَل فيه معنى المنْعِ كما دخَل في الحدِّ، فالمنع جزءُ معناه لا جميع معناه. والحِكمة اسمٌ للعَقل، وإنَّما سُمِّي حِكمة؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الجَهل(١).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾:

قُرِئ برفْعِ لفْظِ الجلالةِ على أنَّه فاعِلٌ، وقُرِئ بنَصبِه على أنَّه مفعولٌ به؛ فعلى قِراءة الرَّفع يكونُ في ﴿مَا﴾ ثلاثةُ أوجه، أحدها: أنَّها مصدريَّة، والمعنى: حافِظاتٌ للغَيْبِ بحِفْظِ اللهِ إيَّاهنَّ. والثاني: أنْ تكون ﴿مَا﴾ موصولةً بمعنى الذي، والعائِد محذوف، والتَّقدير: بالَّذي حَفِظَه اللهُ لهنَّ مِن مُهورِ أزواجهنَّ والنَّفقة عليهنَّ. والثالث: أن تكونَ ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفة، والعائد محذوف أيضًا كما في الموصولةِ التي بمعنى الَّذي، أي: بشَيءٍ حَفِظَه اللهُ تعالى لهنَّ.

وعلى قِراءة النَّصب (بِمَا حَفِظَ اللَّهَ): فلفظُ الجلالةِ مَفعولٌ به على تَقديرِ حَذْفِ مُضافٍ، وفي ﴿مَا﴾ أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّها موصولةٌ بمعنى الَّذي، والثاني: أنَّ ﴿مَا﴾ نَكِرةٌ موصوفةٌ، والفاعِلُ على هَذينِ الوَجهينِ ضَميرٌ مُستتِرٌ في ﴿حَفِظَ﴾ يعودُ على ﴿مَا﴾، والتقديرُ على الأوَّل: حِافظاتٌ للغَيبِ بالْأَمْرِ الَّذي حَفِظَ حقَّ اللَّهِ وأمانةَ اللَّهِ، وهو التعفُّفُ والتحصُّنُ والشَّفقةُ على الرِّجالِ والنَّصيحةُ لهم، أو بالَّذي حَفِظَ دِينَ اللهِ مِن البِرِّ والطَّاعةِ. والتقديرُ على الثاني: بشَيءٍ حَفِظَ دِينَ اللهِ. وقِيل غيرُ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير الطبري)) (٦/ ٧١٩، ٧٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٤٧)، ((الإكليل في المتشابه والتأويل)) لابن تيمية (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٠٦)، ((التبيان

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ للرِّجالِ القِوامةَ على النِّساء، يُلزِمونهنَّ بحقوقِ اللهِ، ويحجُزونهنَّ عن الشَّرِّ والفسادِ، ويُؤدِّبونهنَّ، وتلك القِوامةُ سببُها ما فضَّل اللهُ به الرِّجالَ من خصائصَ على النِّساءِ، وكذلك بإنفاقِ الرِّجالِ أموالَهم على نسائهم، فالنِّساءُ اللَّاتي استقام دِينُهنَّ مطيعاتٌ للهِ سبحانه، ولأزواجِهنَّ، وهنَّ أيضًا حافظاتٌ لأنفسهنَّ عند غيابِ أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالِهم وغيرها، وذلك بحفظِ الله وتوفيقِه لهنَّ، ثمَّ يخاطبُ اللهُ الأزواجَ أنَّ النِّساءَ اللَّاتي يخافون ترفُّعَهنَّ عن طاعتِهم، بُغضًا وإعراضًا عنهم، فلْيُذكِّروهنَّ بالله، ويخوِّفوهنَّ وعيدَه لمن عصَتْ زوجَها، ويرغِّبوهنَّ في الطَّاعة بذِكر ما لهنَّ عند الله من ثوابٍ على ذلك، فإن لم يُفِدِ الوعظُ فلا يُجامعوهنَّ، فإن لم يتحصَّلْ مِن الهجرِ المطلوبُ فليضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح؛ تأديبًا لهنَّ، فإن أطَعْنَهم فليتركوا عتابَهنَّ على ما كان، ولْيَدَعوا تتبُّعَ كلِّ عثرةٍ تحصُلُ منهنَّ وإن كانت لا تضرُّ، وليس لهم ضربُهنَّ بعد ذلك، وختَمَ الآيةَ ببيان أنَّه سبحانه هو العليُّ الكبير؛ تهديدًا للرِّجال إذا بَغَوْا على النِّساءِ من غير سببٍ.

ثمَّ يخاطبُ اللهُ الحكَّامَ: أنَّهم إنْ خافوا من بلوغ الخلافِ بين الزَّوجين إلى مرحلةِ التباعد بينهما ووقوعِ العداوة، فليُرسلوا إلى الزوجين حَكَمًا من أقارب الزَّوج، وآخرَ من أقارب الزَّوجة، إن يُرِدْ هذانِ الحكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين فسيوفِّقُهما اللهُ لِما قصداه، كما سيوفِّقُ سبحانه وتعالى الزَّوجينِ ليعودا إلى الاستقرارِ، وحُسنِ المعاشَرة.

تفسيرُ الآيتين:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ

في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٧٠-٦٧١).

مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى كلًّا من الرِّجال والنِّساء عن تمنِّي ما فضَّل به بعضَهم على بعض، وأرشَدهم إلى الاعتماد في أمر الرِّزق على كَسبِهم، إلى غير ذلك، ولَمَّا كان من جملةِ أسباب هذا البيانِ ذِكرُ تفضيل الرِّجال على النِّساء في الميراثِ والجهاد، كان لسائلٍ هنا أن يسألَ عن سبب هذا الاختصاص، وكان جوابُ سؤالِه قولَه تعالى[1]:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: الرِّجالُ هم القائمون على نسائهم؛ فهم رؤساؤُهنَّ، والحاكمون عليهنَّ، بإلزامهنَّ بحقوقِ الله تعالى وأداء فرائضه، وتأديبِهنَّ، وكفِّهنَّ عن الشُّرور والمفاسد[2].

ثمَّ ذكر اللهُ تعالى السَّببَ الموجِبَ لقيام الرِّجال على النِّساء، فقال:

﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: بسببِ تفضيلِ الرِّجال على النِّساء؛ فقد جعَل اللهُ تعالى للرِّجال خصائصَ تفُوقُ ما لدَى النِّساء؛ كقوة البَدنِ، والعقل، وغيرهما[3].

---

(١) ينظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾.

أي: ومن أسباب جَعلِ القِوامةِ للرِّجال على النِّساء، إنفاقُ الرِّجال أموالَهم على نسائِهم، ومِن ذلك: إعطاؤُهنَّ مهورَهنَّ[(١)].

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾.

أي: إنَّ النِّساءَ المستقيماتِ الدِّينِ، مطيعاتٌ لله تعالى، ولأزواجِهنَّ[(٢)].

﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ومن صِفاتهنَّ أيضًا: أنهنَّ حافظاتٌ لأنفسِهنَّ عند غَيبة أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالهم، وغير ذلك، وذلك بحفظِ الله تعالى لهنَّ، وتوفيقِه لهنَّ، لا من أنفسِهنَّ؛ فإنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوء[(٣)].

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

أي: إنَّ الزَّوجاتِ اللَّاتي تتخوَّفون- يا مَعشرَ الأزواج- من استعلائِهنَّ عليكم، بمخالفتِهنَّ لأوامركم، وتركِهنَّ طاعتكم؛ بُغضًا منهنَّ لكم، وإعراضًا عنكم، فإذا تخوَّفتم من حدوثِ ذلك لظهور أماراته[(٤)].

سورة النساء)) (١/ ٢٨٩).

وهذا التفضيلُ باعتبار الجنس؛ لأنَّه يوجد من النِّساء من هي أفضلُ من كثيرٍ من الرِّجال، فقوله سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ من حيث الجُمْلة، لا باعْتبارِ كلِّ فرْد. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٨٧، ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٠، ٦٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٢، ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي))

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

أي: فذكِّروهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ، وخوِّفوهنَّ وعيدَه وعقابَه على معصيةِ أزواجِهنَّ، ورغِّبوهنَّ في طاعتهم؛ بذِكرِ ما لهنَّ في ذلك من ثوابٍ عند اللهِ تعالى[1].

﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

أي: فإنْ لم يُجْدِ الوعظُ معهنَّ، فلا تُجامِعوهنَّ، فيضاجعُها الزوجُ، ويُولِّيها ظهرَه[2]، وقيل: لا يضاجعُها؛ فيكونُ في فراشٍ، وهي في فراشٍ[3].

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

أي: فإنْ لم يُجْدِ معهنَّ الهِجرانُ في المضاجعِ، فاضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّح؛ لتأديبِهنَّ[4].

عن جابرٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ولكم عليهنَّ أن لا يُوطِئْن فُرشَكم أحدًا تكرهونه، فإنْ فعلْن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ))[5].

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

(ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٥) رواه مسلم (١٢١٨).

أي: فإنْ حصَل المقصودُ بواحدٍ من هذه الأمور، وأطَعْنكم، فقد حصَل لكم ما تحبُّون؛ فاترُكوا معاتبتَهنَّ على الأمور الماضية، والتَّنقيبَ عن العيوب الَّتي يضرُّ ذِكرُها، فلا سبيلَ لكم عليهنَّ بعد ذلك، وليس لكم ضربُهنَّ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لما مكَّن الله تعالى الرجلَ مِن ضربِ المرأةِ إذا انَشزت، وذلك في المرحلةِ الثالثةِ، فربَّما يتعالى عليها ويتكبَّر - أعْلَمه اللهُ أنَّه فوقَه مَن هو أعلى وأكبرُ وهو اللهُ فلا ينبغي للرجلِ أن يتعالى عليها ولا أن يتكبرَ، فقال عزَّ وجلَّ(٢):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو العُلوِّ المطلَقِ بذاته وصِفاتِه سبحانه، فلا تتعالَوْا على نسائِكم- أيُّها الأزواج-؛ فإنَّ علوَّكم هذا يوجَدُ فوقه ما هو أعلى منه، وهو علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ بذاتِه وصفاتِه، وهو الكبيرُ بذاته وصفاتِه سبحانه، فلا أكبرَ منه ولا أجلَّ ولا أعظمَ، فلا تتكبَّروا عليهنَّ؛ لأنَّ فوقكم مَن هو أكبرُ، وهو الله جلَّ وعلا(٣).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٣).

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى ما يفعلُه الزوجُ عندَ نشوزِ امرأتِه مِن وعظٍ ثم هجرٍ ثم ضربٍ، بيَّن أنَّه لم يبقَ بعد الضَّربِ إلَّا المحاكمةُ إلى مَن يُنصِفُ المظلومَ من الظَّالم[١].

وأيضًا لما ذكَر تعالى الحالَ الأوَّل، وهو إذا كان النُّفور والنُّشوزُ مِن الزوجةِ، ذكَر الحالَ الثانيَ، وهو إذا كان النفورُ مِن الزَّوْجينِ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾.

أي: وإن خِفتم - أيُّها الحكَّامُ - أنْ يَصلَ النُّفورُ والخلافُ الواقع بين الزَّوجينِ إلى حدِّ التَّباعُدِ عن بعضِهما، ووقوعِ العداوةِ بينهما[٣].

﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

أي: فلتُرْسلوا - أيُّها الحكَّامُ - إلى الزوجينِ حَكَمينِ؛ رجلًا من أقارب الزَّوج، وآخَرَ من أقارب الزَّوجة[٤].

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾.

أي: إن قصَد الحَكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين، يوفِّقِ اللهُ تعالى بين الحكَمينِ، بأن يصادفا الحقَّ، فتلتقيَ أقوالهما دون حدوثِ نزاعٍ بينهما، ويوفِّق اللهُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣).

(٢) ينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٤-٤٥).

قال القرطبي: (الجمهور من العلماء على أنَّ المخاطب بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ الحكام والأمراء) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٢٩٤).

أيضًا بين الزَّوجين، فييسِّر رجوعَهما إلى المعاشَرة الحسَنة بينهما[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بجميع الظَّواهِرِ والبواطن، ومن ذلك: عِلمُه بنيَّةِ الحكَمَينِ، هل يقصدانِ الإصلاح أو لا، ومن ذلك أيضًا: شَرْعُهُ لهذه الأحكامِ العظيمة، والشَّرائع المُحْكَمة[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

٦- التَّدرُّج في التَّأديب: ﴿فَعِظُوهُنَّ .. وَٱهْجُرُوهُنَّ .. وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾، فابتدأ اللهُ تعالى بالوعظ، الذي هو تليينُ القلبِ بالشَّرعِ، ثمَّ ترقَّى منه إلى الهِجرانِ في المضاجعِ، ثمَّ ترقَّى منه إلى الضَّرب، وذلك تنبيهٌ يجري مجرى التَّصريحِ في أنَّه متى حصَل الغرضُ بالطَّريق الأخفِّ وجَب الاكتفاءُ به، ولم يجُزِ الإقدامُ على الطَّريق الأشقِّ، فإذا أمكن التَّأديبُ بالخطابِ الدِّينيِّ الشَّرعيِّ، فإنَّه لا يرجعُ إلى التَّأديبِ بالفعل المحسوس[٣].

٧- الإشارة إلى أنَّ اللهَ يزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يزَعُ بالقرآنِ؛ حيث إنَّه ربَّما لا يُفيد الوعظُ، فينتقل إلى الهجرِ في المضاجع، أو الضَّرب؛ لأنَّه قد يكون أكثرَ نتيجةً[٤].

٨- يؤخَذ من قولِه تعالى: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ بُطلانُ قولِ بعضِ علماء التَّربية

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٢٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٨).

المعاصرين الَّذين يقولون: إنَّه لا تحصُلُ التَّربيةُ بالضَّرب، وإنَّما الضَّربُ يقسِّي القلبَ[(١)].

٩- في قوله: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ التغاضي عما مضَى، وتركُ الماضي وعدمُ البحثِ فيه أو إثارته؛ لأنَّه ربما يؤدِّي إلى استمرارِ النُّشوز، فالآية تشملُ الماضي، كما تشمل أيضًا المستقبلَ[(٢)].

١٠- الإشارة إلى أنَّ الَّذي له العلوُّ المطلَقُ هو اللهُ، فلا تتعالَ على غيرِك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[(٣)].

١١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ ذِكرُ هاتين الصِّفتينِ (العلوُّ والكبرياءُ لله تعالى) في هذا الموضع في غايةِ الحُسنِ، وبيانُه من وجوه:

الأوَّل: أنَّ المقصودَ منه تهديدُ الأزواج على ظُلم النساءِ، والمعنى أنهنَّ إن ضعُفنَ عن دفعِ ظُلمكم، وعجَزْنَ عن الانتصافِ منكم، فاللهُ سبحانه عليٌّ قاهرٌ كبيرٌ قادرٌ، ينتصفُ لهنَّ منكم، ويستوفي حقَّهنَّ منكم، فلا ينبغي أن تغترُّوا بكونِكم أعلى يدًا منهنَّ، وأكبرُ درجةً منهنَّ.

الثَّاني: لا تبغوا عليهنَّ إذا أطَعْنكم لعلوِّ أيديكم؛ فإنَّ اللهَ أعلى منكم، وأكبرُ من كلِّ شيء، وهو متعالٍ عن أن يكلِّفَ إلَّا بالحقِّ.

الثَّالث: أنَّه تعالى مع علوِّه وكبريائه لا يكلِّفُكم إلَّا ما تُطيقون، فكذلك لا تكلِّفوهنَّ محبَّتكم؛ فإنَّهنَّ لا يقدِرْنَ على ذلك.

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٣، ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٠).

الرابع: أنَّه مع علوِّه وكبريائه لا يؤاخذ العاصيَ إذا تاب، بل يغفِرُ له، فإذا تابت المرأةُ عن نشوزِها، فأنتم أَولى بأن تقبَلوا توبتَها وتتركوا معاقبتَها.

الخامس: أنَّه تعالى مع علوِّه وكبريائِه اكتفى من العبدِ بالظَّواهرِ، ولم يهتِكِ السَّرائرَ، فأنتم أَولى أن تكتفوا بظاهرِ حال المرأة، وألَّا تقَعوا في التَّفتيش عمَّا في قلبِها وضميرها من الحبِّ والبُغض[(١)].

١٢- الإشارةُ إلى حُسن النِّيَّةِ في الإصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾، وأنَّه يجبُ على الإنسان المحكَّمِ أن يكونَ رائدُه الإصلاحَ لا غيرُ، لا إرضاءَ فلان ولا فلان[(٢)].

١٣- أنَّ النِّيَّةَ الطَّيِّبَةَ سببٌ لصلاح العملِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾[(٣)].

١٤- أنَّ الجزاءَ من جِنس العملِ؛ لأنَّهما لَمَّا أرادا الإصلاحَ أثابهما الله عزَّ وجلَّ بالتَّوفيقِ؛ لقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- فضلُ الرِّجالِ على النِّساء؛ لأنَّ اللهَ جعَل الرِّجال قوَّامينَ على النِّساء، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[(٥)].

٢- بيانُ أنَّ أحكامَ اللهِ عزَّ وجلَّ الكونيَّةَ والشَّرعيَّةَ معلَّلةٌ بعِلَلٍ، فيلزم من

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٦).

كونِ أفعالِ أو أحكام الله الشَّرعيةِ معلَّلةً بعِلَل: إثباتُ الحكمةِ، وأنَّ الله تعالى حكيمٌ؛ قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ ...﴾[1].

٣- يُؤخذُ من قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أنَّ للمُنفِقِ على المُنفَقِ عليه فضلًا[2].

٤- كراهةُ سؤالِ النَّاسِ؛ لقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، فكونُ المنفِقِ له فضلٌ على المُنفَقِ عليه، فيكون سؤالُك إيَّاه ذلًّا؛ لأنَّك إذا سألتَه فقد أثبتَّ له فضلًا عليك[3].

٥- أنَّه لا ولايةَ للنِّساءِ على الرِّجال، لا في قضاءٍ، ولا إمارة، ولا أيِّ شيء؛ لقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فمن جعَل للمرأة الولايةَ فقد خالَف سُنَّةَ الله[4].

٦- أنَّ للزَّوجِ السُّلطةَ على زوجته، وتُؤخذ من قوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾[5].

٧- تحريم نُشوزِ المرأةِ على زوجِها؛ حيث قوبِلَ هذا النُّشوزُ بالموعظة، ثمَّ الهجر، ثمَّ الضَّرب[6].

٨- أنَّ للهِ الكبرياءَ الَّذي هو الكِبْرُ المعنويُّ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وكذلك أنَّ كلَّ شيء بالنِّسبة إلى ذاتِه ليس بشيء، وهذا المرادُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٢٩٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٩٩).

بالكبير في قوله: ﴿عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[١].

٩- أنَّ المبعوثَينِ حكَمانِ، وليسا وكيلَيْنِ، كما قاله بعضُ العلماء، لقوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا﴾، والحَكَمُ مستقِلٌّ[٢].

١٠- أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عند الحَكمينِ عِلمٌ بالشَّرع؛ لأنَّ الحَكَمَ لا يمكِنُ أن يحكُمَ إلَّا بعد العِلمِ، ولا بدَّ أن يكونَ لديهما أمانةٌ وثقةٌ دينيَّةٌ؛ لأنَّ غيرَ الثِّقةِ لا يؤمَنُ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، والحاكم مخبِرٌ وملزِمٌ وفاصل؛ فهو مخبِرٌ عن حُكمِ الله، مُلزِم بما يحكُمُ به، فاصلٌ بين الخَصمينِ، فلا بدَّ أن يكونَ عَدْلًا في دِينِه[٣].

١١- جوازُ حُكم القريب لقريبِه أو عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[٤].

١٢- أنَّ للحَكَمينِ التَّفريقَ والتَّوفيقَ بين الزَّوجين اللَّذينِ خِيفَ الشِّقاقُ بينهما، سواءٌ بعِوَضٍ أو بدون عِوَضٍ، وأنَّ حُكمَهما مُلزِمٌ؛ لأنَّ الله سمَّاهما حَكَمينِ، والحَكَم قولُه لازمٌ وحُكمُه فصْلٌ[٥].

١٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ..﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في جوازِ التَّحكيمِ في سائر الحقوق[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٤٧).

١٤- الإشارةُ إلى أنَّه ينبغي أن يكونَ الحاكمُ عالِمًا بأحوالِ مَن يحكُمُ فيهم؛ لقوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهِۦ﴾.. ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾؛ لأنَّ الَّذي مِن أهلِه وأهلِها أقربُ إلى العِلم بحالهما من الرَّجلِ الأجنبيِّ، وعلى هذا فلا ينبغي أن يُولَّى قاضٍ على قومٍ لا يعرِفُ طبائعَهم، ولا يعرِفُ لسانَهم، ولا يعرف أحوالَهم؛ فإنَّ هذا يحصل به شيءٌ كثيرٌ من الغلَطِ[1].

١٥- إثبات صفتي العِلمِ والخبرة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾، والخبرة أخصُّ من العِلم؛ لأنَّها علمٌ ببواطنِ الأمور، ولا يُستفاد من قوله: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أنَّه الآن ليس كذلك، بل كان ولا زال، والمراد بها تحقيقُ الصِّفة؛ فهي مسلوبةُ الزَّمانِ[2].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لبيانِ سببِ استحقاقِ الرِّجالِ الزِّيادةَ في الميراثِ تفصيلًا، إثرَ بيانِ تفاوتِ استحقاقهم إجمالًا، وإيرادُ الجملة اسميَّةً والخبرِ ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ على صِيغة المبالغة (فعَّالون)؛ للإيذانِ بعَراقتِهم في الاتِّصافِ بما أُسند إليهم، ورسوخِهم فيه، أي: شأنهم القيامُ عليهنَّ بالأمرِ والنَّهيِ قيامَ الولاةِ على الرَّعيَّة[3].

٢- **قوله:** ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ...﴾: وضْع (البعض) موضِعَ الضَّميرينِ- حيث لم يقُلْ: (فضَّلهم الله عليهنَّ)-؛ للإشعارِ بغاية ظهور الأمْر، وعدَم الحاجة إلى التَّصريحِ بالمفضَّلِ والمفضَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٣).

عليه أصلًا؛ ولِمِثل ذلك لم يصرِّحْ بما به التَّفضيلُ؛ من صفات كمال الرِّجال، الَّتي هي كمالُ العقل، وحُسن التَّدبير، ورزَانةُ الرَّأي، ومزيدُ القوَّةِ في الأعمال والطَّاعاتِ[1].

- وقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾ فيه حذْف المفعولِ؛ ليدلَّ على عُمومِ النَّفقةِ[2].

- وفيه مِن بديعِ الإعجازِ: صَوغُ قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في قالَبٍ صالحٍ للمَصدريَّةِ وللمَوصوليَّة؛ فالمصدريَّةُ مُشعِرةٌ بأنَّ القِوامةَ سَببُها تَفضيلٌ مِن اللهِ، وإنفاقٌ، والموصوليَّةُ مُشعِرةٌ بأنَّ سببَها ما يَعلَمه النَّاسُ مِن فَضلِ الرِّجالِ ومِن إنفاقِهم؛ ليَصلُحَ الخِطابُ للفريقين: عالِمِهم وجاهلِهم[3].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٩).

الآيات (٣٦ - ٤٢)

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾
ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا
فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا
وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ
بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: أي: الَّذي ليس بينَه وبين جارِه قَرابةٌ، أو مَن يقرُبُ مسكنُه مِن الجارِ، أو الغريبُ، وأصْل الجوار: الميل؛ وسُمِّي الجار جارًا لميلِه إلى جاره، والجنابة: البُعد؛ يُقال: رجلٌ جُنُب، أي: غريبٌ[1].

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: أي: الصَّاحِبِ إلى الجَنْبِ، القَريبِ مِنْه، ويَدخُل فيه الرَّفيقُ في السَّفرِ وغيرِه، والمرأةُ، والملازِمُ للمَرءِ رجاءَ نفْعِه؛ لأنَّ كلَّهم بجَنبِ الذي هو مَعَه، وقريبٌ منه، وأصْل (صحب) يدلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦، ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

ومُقاربتِه، وأصل (جنب) يدلُّ على النَّاحيةِ[(١)].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المنقطِع الضَّعيف ببلدٍ يُريد بلدًا آخرَ، أو المسافِر البعيد عن منزلِه، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولة[(٢)].

﴿مُخۡتَالٗا﴾: ذا خيلاءَ، أو مُتكبِّرًا يأنَفُ ويَستنكِفُ عن قَراباتِه وجِيرانه وأصحابِه لفقرِهم، والمختالُ البَطِرُ في مِشيتِه[(٣)].

﴿فَخُورًا﴾: الَّذي يُعدِّد مناقبَه كِبْرًا وتطاولًا، والفَخرُ: المباهاةُ في الأشياءِ الخارجة عن الإنسانِ؛ كالمالِ والجاهِ، وأصل (فخر) يدلُّ على عِظَم وقِدَم[(٤)].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: من العَتَادِ، وقيل: أصله: أَعدَدْنا، فأبدلَ من إحدى الدَّالين تاء، والعتاد: ادِّخارُ الشَّيءِ قبل الحاجة إليه؛ كالإعداد، والعَتيد: الشَّيء المُعَدُّ، وأصل (عتد) يدلُّ على حُضور وقُرب، ويدلُّ على تهيئة الشَّيء[(٥)].

﴿رِئَآءَ﴾: أي: مراءاةً، وأصل الرِّياء: فِعلُ شيءٍ ليراه النَّاس[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير الطبري)) (٧/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣) و (٣/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣، ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦، ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩، ١٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٥، ٥٥٠).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

﴿قَرِينًا﴾: أي: مَقرونًا به لا يُفارقُه، أو مقارنًا لاصقًا، مِن: قرنت الشَّيء بالشَّيء، ويُطلق القرين كذلك على: المصاحِب، وأصل (قرن): جمعُ شيءٍ إلى شيء[1].

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرة؛ يُقال: هذا على مثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا. وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة، والذَّرَّة هي أصغرُ النَّملِ، وتُطلَق كذلك على ما لا وزنَ له، وما يَرفَعُه الرِّيح من التُّرابِ، وأجزاء الهواء في الكُوَّةِ[2].

﴿لَّدُنْهُ﴾: أي: عِنده، أو لديه، لكن (لَدُن) أخصُّ من (عند)[3].

﴿بِشَهِيدٍ﴾: أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَر، وأصل (شهد): حضور، وعِلم، وإعلام[4].

﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ﴾: أي لو يُدخَلون فيها حتى تعلُوَهم، أو يكونون ترابًا، فيستوون معها حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا، أو يَهلِكون فيها، وأصل (سوي): استقامةٌ واعتدالٌ بين شيئين[5].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

(٣) ينظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥- ٤٦٧).

(٥) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (١/ ١٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٨/ ٣٣٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه بعِبادته وَحْدَه، غيرَ مشركين فيها معه غيرَه، كما أمرهم بالإحسانِ إلى الوالدَين، وإلى الأقارب، وأن يُحسنوا إلى اليتامى، وذَوِي الحاجاتِ الَّذين لا يجدون كفايتَهم، وإلى الجار الَّذي تربطهم به القرابة، والجار الَّذي لا قرابةَ بينهم وبينه، وأمرهم كذلك بالإحسان في صحبةِ كلِّ مصاحبٍ ومرافقٍ لهم؛ كرفيق السفر، وكالزَّوجة، وكذلك أن يُحْسِنوا إلى المسافرِ الَّذي يمرُّ بهم مجتازًا، وأن يُحسنوا إلى مَن يملِكونه مِن بَشَرٍ رقيقٍ، فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان معجَبًا بنفسه، متكبِّرًا على الخَلْق، هؤلاء هم الَّذين يُمسِكون أموالَهم عن الإنفاقِ فيما أمَر الله تعالى، بل ويأمرون غيرَهم بالإمساكِ أيضًا، ويُخفون ما أنعَم اللهُ به عليهم، وأعدَّ اللهُ لهؤلاء الكافرين الَّذين ذكَر صفاتِهم عقابًا مُخزيًا ومُذِلًّا.

وممَّا يتَّصفون به كذلك: أنَّهم يُنفِقون أموالَهم ليراهم النَّاسُ ويُثنوا عليهم، ولا يؤمِنون بالله ولا باليومِ الآخِرِ، سوَّل لهم الشَّيطانُ تلك الأفعالَ، ومَن يكُنْ للشَّيطانِ مُصاحِبًا، فيُطِعْه فيما يُمليه عليه، فبئس الصَّاحبُ هو.

وأيُّ حرجٍ سيُصيبُ هؤلاء لو أنَّهم آمنوا باللهِ وباليوم الآخِرِ، وأنفَقوا ممَّا تفضَّل اللهُ به عليهم، وكان اللهُ بهم عليمًا.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّه لا يظلِمُ أحدًا مِن خَلْقِه شيئًا ولو قلَّ، وإن توجد حسنة فإنَّه تعالى يضاعفُها لفاعلها، ويُعطي مِن عنده ثوابًا عظيمًا.

فكيف تكونُ الحالُ يوم القيامة إذا جاء اللهُ بشهيد مِن كلِّ أمَّةٍ، وهم الأنبياءُ، يشهَدون على أُمَمهم، وإذا جاء اللهُ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم شهيدًا على هذه الأمَّة، ذلك اليوم يتمنَّى مَن كفَر بالله وعصَى رسولَه لو ابتلعَتْهم الأرضُ فلا

يُحاسَبون، وفي ذلك اليومِ يعترفون بكلِّ ما فعَلوه، ولا يُخفونَ عن اللهِ شيئًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أرشَد اللهُ سبحانه وتعالى كلَّ واحدٍ من الزَّوجين إلى المعامَلةِ الحسَنة مع الآخَرِ، وإلى إزالة الخصومة، أرشَد في هذه الآيةِ إلى سائرِ الأخلاق الحسَنة، فأمره بالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، وإلى مَن عطَفَه على الوالدَيْنِ ممَّن ذُكر في الآية، فجاءت حثًّا على الإحسانِ، واستطرادًا لمكارمِ الأخلاق، وأنَّ المؤمنَ لا يكتفي مِن التَّكاليفِ الإحسانيَّة بما يتعلَّق بزوجتِه فقط، بل عليه غيرُها من برِّ الوالدَيْنِ وغيرِهم، وافتتح التَّوصُّلَ إلى ذلك بالأمرِ بإفرادِ الله تعالى بالعبادةِ؛ إذ هي مبدأُ الخيرِ الَّذي تترتَّبُ الأعمالُ الصَّالحةُ عليه[١] فقال:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾.

أي: وتذلَّلوا لله تعالى، واخضَعوا له بطاعتِه سبحانه، وأَخلِصوا العبادةَ له وحْدَه، دون أنْ تُساووا بينه وبين غيرِه فيما له من حقوقٍ على عباده[٢].

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمعاذٍ: ((أتَدْري ما حقُّ اللهِ على العِباد؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٤).

قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، ثمَّ قال: أَتَدْري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فَعَلوا ذلك؟ ألَّا يُعذِّبَهم))[١].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بعبادته، والقيام بحقِّه، أمَرَ بالقيام بحقوقِ العبادِ الأقربَ فالأقربَ[٢]، فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: وأحسِنوا إلى الوالدَيْنِ، بالقولِ الكريمِ، والخطاب اللَّطيفِ، وطاعةِ أمرِهما، واجتنابِ نهيهما، وبغيرِ ذلك من أنواع البِرِّ[٣].

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

نصَّ على الوالدَيْنِ أوَّلًا، وثنَّى بالقَرابة؛ وذلك لأنَّه لا قرابةَ إلَّا بواسطة الوالدَيْنِ[٤]، فقال سبحانه:

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

(١) رواه البخاري (٦٢٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٤-٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٥).

أي: وأحسِنوا إلى أقارِبكم[١].

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى اليتامى (وهم الَّذين فقَدوا آباءَهم ممن دون سنِّ البلوغِ)[٢].

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾.

أي: وأحسِنوا كذلك إلى ذَوي الحاجاتِ، الَّذين لا يَجِدون ما يقومُ بكِفايتِهم[٣].

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى جارِكم الَّذي بينكم وبينه قَرابةٌ[٤].

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾.

أي: وأحسِنوا كذلك إلى جارِكم الَّذي ليس بينكم وبينه قرابةٌ[٥].

عن عبدِ الله بن عمرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما زالَ جِبريلُ يوصيني بالجَارِ، حتَّى ظنَنتُ أنَّهُ سيورِّثُه))[٦].

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥-٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠-١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٦).

(٦) رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

أي: وأحسِنوا صُحبةَ مَن يصحَبُكم ويُرافِقُكم؛ كالرَّفيقِ في السَّفرِ، وكالزَّوجة[١].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى المسافرِ، الَّذي يمرُّ عليكم مجتازًا[٢].

﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾.

أي: وأحسِنوا إلى ما تملِكون مِن البشر (وهم الرَّقيق)[٣].

عن خَيْثَمَةَ قال: ((كنَّا جلوسًا مع عَبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، إذ جاءَه قَهْرَمانٌ له[٤]، فدخَل. فقال: أعطيتَ الرَّقيقَ قُوتَهم؟ قال: لا. قال: فانطلِقْ فأعطِهم، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كفَى بالمرءِ إثمًا أن يَحبِسَ عمَّن يملِكُ قُوتَه))[٥].

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((للمَملوكِ طعامُه وكِسْوَتُه، ولا يُكَلَّفُ من العَملِ إلَّا ما يُطيقُ))[٦].

وعن أبي هريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إذا أتَى أَحدَكم خادِمُه بطَعامِه، فإنْ لم يُجلِسْه معَه، فليُناوِلْه لُقمةً أو لُقمتينِ، أو أُكْلةً أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦-١٧)، ((تفسير السعدي)) (١/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨-١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٤) القَهْرَمان: لفظٌ فارسيٌّ معرَّبٌ، وهو الخَازنُ القائِمُ بحَوائجِ الإنسانِ وأُموره، والوكيلُ، والحافِظُ لِمَا تحتَ يدِه، وقيل: هو مِن أُمناءِ المَلِكِ وخَاصَّتِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٢٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٨٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٣/ ٣٢٢).

(٥) رواه مسلم (٩٩٦).

(٦) رواه مسلم (١٦٦٢).

أُكْلتَينِ؛ فإنَّه ولِيَ علاجَه[(١)]))[(٢)].

وعن أبي ذَرٍّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إخوانُكم خَوَلُكم، جعلَهم اللهُ تحتَ أيديكم، فمَن كان أخوه تحتَ يدِه، فلْيُطعِمْه ممَّا يأكُلُ، وليُلْبِسه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كلَّفتُموهم فأعينُوهم))[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإحسانِ للأصنافِ المذكورةِ وإكرامِهم، كان في العادةِ أنْ ينشأَ عمَّن اتَّصَف بمكارمِ الأخلاقِ أنْ يَجدَ في نفسِه زهوًا وخُيلاءَ، وافتخارًا بما صدَر منه من الإحسانِ، وكثيرًا ما افتخَرتِ العربُ بذلك، وتعاظَمَتْ في نثرِها ونَظْمِها به، فأراد تعالى أن ينبِّهَ على التَّحلِّي بصفةِ التَّواضُعِ، وألَّا يتكبَّرَ على مَن أحسَنَ إليه، وألَّا يفخَرَ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فنفى تعالى محبَّتَه عن المتحلِّي بهذينِ الوصفَينِ[(٤)].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الأمرَ بعبادتِه، والإحسان إلى عبادِه، ذكَر موانعَ هذا الإحسانِ الغالبةَ على البشَرِ[(٥)]، فقال جلَّ وعلا:

(١) قوله: ((وَلِيَ عِلاجَه)) أي: تَولَّى عَمَلَ الطَّعام، وقاسَى كُلْفَةَ اتِّخاذِه، وتحمَّلَ مشقَّةَ حَرِّه ودُخَانِه عند الطَّبْخ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٣/ ١١٤)، ((حاشية السِّندي على البخاري)) (٢/ ٣٩).

(٢) رواه البخاري (٢٥٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن كان ذا خُيَلاءَ، معجَبًا بنفسِه متكبِّرًا على الخَلْق، فلا يقوم بما أوجَبه اللهُ تعالى عليه من حقوقٍ، فَخُور بقولِه، فيُثني على نفسِه، ويمدَحُها على وجهِ الفخرِ والبطَرِ على عباد اللهِ تعالى بما أعطاه من النِّعم(١).

عن عبد الله بن عمر رضِي اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((من جرَّ ثوبَه خُيَلاءَ، لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامةِ))(٢).

و أيضًا عن عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بينما رَجُلٌ يَجرُّ إزارَه من الخُيلاءِ خُسِفَ به، فهو يتجَلْجَلُ(٣) في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ))(٤).

وعن عِياضٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإنَّ اللهَ أَوْحى إليَّ أنْ تواضَعوا؛ حتى لا يَفخرَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَبغيَ أحدٌ على أحدٍ))(٥).

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أربعٌ في أمَّتي مِن أمرِ الجاهليَّةِ، لا يَتركونهنَّ- وذَكَر منها-: الفَخْر في الأحسابِ))(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٥).

(٣) يتجَلْجَل: أي: يَغُوصُ في الأرضِ حينَ يُخسَفُ به، أوْ يتحرَّكُ ويَنزِلُ مُضطَرِبًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٨٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٤).

(٤) رواه البخاري (٣٤٨٥).

(٥) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٦) رواه مسلم (٩٣٤).

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ذمَّ المُختالِ الفَخور، شرَع في بيان صِفاتِه، فقال جلَّ وعلا[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ المختالَ الفخورَ الَّذي يُمسِك مالَه عن الإنفاق فيما أمَره الله تعالى به؛ كالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، والأقاربِ واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القربى، والجارِ الجُنُب، والصَّاحبِ بالجَنْبِ، وابنِ السَّبيل، وما ملَكتِ الأيمانُ، ولا يدفعون حقَّ الله فيها، ويأمُرون النَّاسَ بالبخلِ أيضًا بأقوالِهم وأفعالِهم، ومِن البُخلِ كذلك: البُخلُ بالعِلم[2].

عن جابرِ بن عبد الله رضِي اللهُ عنهما، قال: ((قال لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قدْ جاء مالُ البحرينِ، لقدْ أعطيتُك هكذا وهكذا- ثلاثًا- فلم يَقدَمْ مالُ البحرينِ حتَّى قُبِض رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا قدِم على أبي بكرٍ، أمَر مناديًا فنادَى: مَن كان له عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَيْنٌ أو عِدَةٌ فليأتِني، قال جابرٌ: فجئتُ أبا بكرٍ فأخبرتُه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: لو جاءَ مالُ البحرينِ أعطيتُك هكذا وهكذا- ثلاثًا- قال: فأعطاني، قال جابرٌ: فلقيتُ أبا بكرٍ بعدَ ذلك فسألتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه فلم يُعطِني، ثمَّ أتيتُه الثَّالثةَ فلم يُعطِني، فقُلْتُ له: قد أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم تُعطِني، ثمَّ أتيتُك فلم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١، ٢٢، ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٦-٣١٨).

تُعطِني، فإمَّا أن تُعطيَني، وإمَّا أن تبخَلَ عنِّي، فقال: أقُلْتَ: تبخَلُ عني؟ وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البُخلِ؟! قالها ثلاثًا، ما منعتُك من مرَّةٍ إلَّا وأنا أُريد أنْ أعطيَك! وعن عمرو، عن محمَّد بن علي: سمعتُ جابرَ بن عبد الله يقول: جئتُه، فقال لي أبو بكر: عُدَّها، فعدَدْتُها، فوجدتُها خَمسَ مئةٍ، فقال: خُذْ مِثلَها مرَّتينِ))[1].

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

أي: إنَّ البَخيلَ بالمالِ يُخفِي عن النَّاسِ ما لَدَيه من أموالٍ، فلا يُظهِر أثَرَ نِعمةِ الله تعالى عليه، ولا تَبِينُ في أكلِه ولا في ملبَسِه، ولا في غيرِهما؛ لأجل ألَّا يطلُبَ أحدٌ مالًا منهم، ولا يَلومهم أحدٌ إذا بَخِلوا، ويُخفي كذلك ما لَدَيه من عِلمٍ، فلا يُظهِرُه للنَّاس ليَسترشِدوا به، ومِن ذلك: إخفاءُ اليهودِ لصفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وأمْرِ بَعثتِه[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّارَ الَّذين يبخَلون، ويأمُرون النَّاسَ بالبُخل، ويكتمون ما آتاهم اللهُ تعالى من فضلِه، قد هيَّأ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم ولكلِّ كافرٍ عقابًا مُذلًّا مخزيًا، جزاءً على كفرِهم، واستكبارِهم على أداء حقوقِ الله تعالى وحقوقِ عباده[3].

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨)﴾.

(١) رواه البخاري (٤٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ سبحانه وتعالى المُقْتِرين، أتبعَه ذمَّ المسرِفين المبذِّرين، فقال[١]:

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ومِن صفاتِهم أيضًا: أنَّهم يبذُلون أموالَهم من أجلِ أن يراهم النَّاسُ فيُثنوا عليهم، ويمدحوهم بالكرمِ والعطاءِ، لا يُريدون بذلك وجهَ الله تعالى[٢].

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

أي: إنَّهم لا يُؤمِنون باللهِ تعالى؛ فيتقرَّبوا إليه، ولا يؤمِنون باليومِ الآخِرِ؛ فيرجوا ثوابَه[٣].

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

أي: إنَّما حمَلهم على صَنيعِهم القبيحِ هذا، وعدُولِهم عن فِعلِ الطَّاعة على وجهِها: الشَّيطانُ؛ فإنَّه سوَّل لهم وأمْلَى لهم، وقارنَهم فحَسَّن لهم القبائحَ، فمن يكُنِ الشَّيطانُ له خليلًا وصاحبًا يعمَلُ بطاعتِه ويتَّبعُ أمرَه فبئس الصَّاحبُ هو؛ لأنَّه يريدُ إهلاكَ مَن قارَنه، ويَسعى فيه أشدَّ السَّعي؛ إذ يأمُرُه بالمنكرِ، ويَنهاه عن المعروفِ[٤].

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢١-٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٢-٣٢٣).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: وأيُّ شيءٍ على هؤلاء الذين ينفقونَ أموالَهم رئاءَ الناس، ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخر، وأي حرجٍ ومشقَّةٍ تلحَقُهم لو سلَكوا الطَّريقَ الحميدةَ، فآمنوا باللهِ تعالى، وأخلصوا له، وآمنوا باليومِ الآخِرِ، وأيقنوا أنَّ اللهَ يجازيهم بأعمالِهم، وأنفَقوا ممَّا أعطاهم اللهُ تعالى فيما يحبُّه ويرضاه[(١)]؟!

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بنيَّاتهم وأحوالِهم وأعمالِهم، وهو حافظٌ لها، ومجازيهم عليها[(٢)]، وعليمٌ بمن يستحقُّ التَّوفيقَ منهم، فيوفِّقُه ويُلهِمُه رُشدَه، ويُقيِّضه لعملٍ صالحٍ يرضى به عنه، وبمن يستحقُّ الخِذلانَ والطَّردَ عن جَنابِه الأعظمِ[(٣)]، وهو عليمٌ أيضًا بما هم عليه مِن كُفرٍ، ولو آمنوا لعلِم الله سبحانه أيضًا إيمانَهم، وأثابهم عليه[(٤)].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ فكأنَّه قال: فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مَن هذه حالُه مثقالَ ذرَّةٍ، وإن تك حسنةً يضاعِفْها، فرغَّبَ بذلك في الإيمانِ والطَّاعةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٦-٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٠).

وأيضًا لَمَّا أمر اللهُ تعالى بعبادته تعالى، وبالإحسانِ للوالدَيْنِ ومَن ذُكِر معهم، ثمَّ أعقَب ذلك بذمِّ البُخلِ والأوصاف المذكورةِ معه، ثمَّ وبَّخ مَن لم يؤمِنْ، ولم يُنفِقْ في طاعةِ الله، كان هذا كلُّه توطئةً لذِكرِ الجزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فأخبَر تعالى بصفةِ عدلِه، وأنَّه عزَّ وجلَّ لا يظلِمُ أدنى شيء وبيَّن أنَّه لا يظلِمُ أحَدًا من العاملين بتلك الوصايا، قليلًا أو كثيرًا، بل يُوفِّيه حقَّه بالقِسطاسِ المستقيمِ[1]، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يبخَسُ أحَدًا مِن خَلْقِه حقَّه، ولو قدْرَ وزنِ ذرَّةٍ منه، فلا ينقصُ من حسناتِ عبدِه، ولا يَزيدُ في سيِّئاتِه[2].

قال تعالى حكايةً عن لقمانَ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ * فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٦- ٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخلُ النَّارَ أحدٌ في قلبه مثقالُ حبَّةِ خردلٍ من إيمانٍ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٤٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾.

أي: وإن توجَدْ حسنةٌ، فإنَّ اللهَ تعالى يضاعِفُها إلى عَشْرِ أمثالِها، إلى سَبعِمائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة[١].

﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطيه مِن عندِه أيضًا ثوابًا عظيمًا لا يتصوَّرُه إنسانٌ (قيل: هو الجنَّة)[٢].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ في الآخرةِ لا يجري على أحدٍ ظُلمٌ، وأنَّه تعالى يجازي المحسِنَ على إحسانِه، ويَزيدُه على قدرِ حقِّه- بيَّن تعالى في هذه الآية أنَّ ذلك يجري بشَهادةِ الرُّسلِ الَّذين جعَلهم اللهُ الحُجَّةَ على الخَلْقِ؛ لتكونَ الحُجَّةُ على المسيءِ أبلَغَ، والتَّبكيتُ له أعظمَ، وحسرتُه أشدَّ، ويكونَ سرورُ مَن قَبِلَ ذلك مِن الرَّسول، وأظهَر الطَّاعةَ أعظمَ، ويكونَ هذا وعيدًا للكفَّارِ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، ووعدًا للمُطِيعين الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾[٣] [النساء: ٤٠].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾.

أي: فكيف تكون الحالُ يوم القيامة حين يأتي اللهُ تعالى مِن كلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٣).

وهم الأنبياءُ عليهم السَّلامُ، فيشهَدون على أُمَمِهم بأعمالِها، وتصديقِ رسلِها، أو تكذيبِهم، وتبليغِهم رسالةَ ربِّهم عزَّ وجلَّ[(١)]؟

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

أي: وكيف تكون الحالُ أيضًا إذا شهِد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم على أمَّتِه بأنَّه بلَّغ رسالةَ ربِّه سبحانه[(٢)]؟

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له: اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أقرَأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ؟! قال: نعمْ، فقرأتُ سورةَ النِّساءِ، حتَّى أتيتُ إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: حسْبُكَ الآن، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذْرِفان[(٣)]))[(٤)].

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يتساءلُ عن الحالةِ المبهَمة المدلولة لقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١] ويتطلَّبُ بيانَها، فجاءت هذه الجملةُ مبيِّنةً لبعضِ تلك الحالةِ العجيبة، وهي حالُ الَّذين كفَروا حين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧-٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٥-٣٣٦).
(٣) تَذْرِفان: ذَرَفَتِ العينُ تَذْرِف: إذا جرى دَمعُها. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٩).
(٤) رواه البخاري (٥٠٥٠).

يرَوْن بوارقَ الشَّرِّ: مِن شهادةِ شُهداءِ الأممِ على مؤمنِهم وكافرِهم، ويوقِنون بأنَّ المشهودَ عليهم بالكفرِ مأخوذون إلى العذابِ، فينالُهم مِن الخوفِ ما يوَدُّون منه لو تُسوَّى بهم الأرضُ[١]، قال الله تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾.

أي: حينها يتمنَّى مَن كفَر باللهِ تعالى، وعصى رسولَه فلم يمتثِلْ أمرَه، ولم يجتنِبْ نهيَه، أنْ لو تبتلِعُهم الأرضُ، فيُدفَنونَ فيها ولا يَظْهَرون، ويكونون ترابًا منها، فلا يُحاسَبون[٢].

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

أي: إنَّهم يَعترفون بما فعَلوه، ويُقرُّون بما عمِلوه، وتَشهَدُ عليهم جوارحُهم بما كانوا يعمَلون[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ تحريمُ الإساءةِ إلى الوالدَيْنِ؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيء نهيٌ عن ضدِّه[٤].

٢- أنَّ مَن لم يُحسِنْ إلى والدَيْه ولم يُسِئْ لهما فهو مُقصِّرٌ؛ لأنَّ اللهَ أمَر بالإحسان، وخلافُ الإحسانِ شيئانِ: إساءةٌ، وعدمُ إساءةٍ وإحسانٍ، وهذا خلافُ ما أمَرنا اللهُ به؛ قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠-٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٧-٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- في الأمرِ بالإحسانِ إلى الأقاربِ في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تنبيهٌ على أنَّ مِن سَفالةِ الأخلاقِ أن يستخفَّ أحدٌ بالقريبِ؛ لأنَّه قريبُه، وآمِنٌ من غوائلِه، ويصرِفَ بِرَّه ووُدَّه إلى الأباعدِ؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ في القبائل بالذِّكرِ الحسَنِ(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ذمُّ مَن يكتُمُ ما آتاه اللهُ من فضلِه، والكتمانُ نوعانِ: كتمانٌ فِعليٌّ، وكتمانٌ قوليٌّ: فالكتمانُ الفِعليُّ: ألَّا يُرَى أثَرُ نعمةِ اللهِ على العبد، فيُعطيه اللهُ المالَ فيخرُجُ إلى النَّاسِ بلباس الفقراءِ، وبمركوبِ الفقراء، لا تعفُّفًا ولكن بُخلًا، والكتمانُ القوليُّ: أن يتحدَّثَ عند النَّاس؛ فيقول: أنا ليس عندي مالٌ، أنا متوسِّطُ الحالِ، أو يزيد ويقول: أنا فقيرٌ، أو ما أشبَهَ ذلك(٢).

٥- أنَّ مَن عدَل عن المشروعِ ابتُلِي بالممنوع؛ وذلك أنَّ الَّذين يبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضلِه ابتُلوا بإنفاقِ المالِ على وجهٍ لا خيرَ فيه، على أنَّهم يبذلونه رئاءَ النَّاس، وهذا وجهٌ لا خيرَ فيه، بل إذا وقَع تعبُّدًا كان شرًّا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾(٣).

٦- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ تنبيهٌ إلى تأثيرِ قُرَناءِ المرءِ في سِيرتِه، وما ينبغي من اختيارِ القَرين الصَّالحِ على قرين السُّوءِ(٤).

٧- في قول الله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ..﴾ الآية:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٢٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٢٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٨٣).

أنَّ الإنسانَ يجبُ أن يوازِنَ في الأمورِ بين النَّافعِ والضَّارِّ، فينظُرَ ماذا يترتَّبُ على إيمانِه أو على كُفرِه، حتَّى يختارَ خيرَ الطَّريقينِ[١].

٨- أنَّ المُنفِقَ لا يُنفِقُ من كِيسِه، لكنَّه مُنفِقٌ ممَّا رزَقه اللهُ؛ فالفضلُ كلُّ الفضلِ لله عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾[٢].

٩- في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بيانُ منَّةِ الله سبحانه على عبادِه بما أعطاهم، وأنَّ العطاءَ عطاؤُه، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: أن تعتمدَ على اللهِ في حصول الرِّزق، ولا يعني هذا ألَّا نفعَلَ الأسبابَ الَّتي نصِلُ بها إلى الرِّزق، بل لا بدَّ أن نفعلَ الأسبابَ، لكن مع الاعتمادِ على اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

١٠- إثباتُ العِلمِ للهِ تعالى بأحوالِ عبادِه؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا﴾، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الرَّغبةُ والرَّهبةُ؛ وذلك لأنَّ العبدَ إذا علم أنَّ اللهَ عليمٌ به، خاف من مخالفتِه، ورجا في موافقتِه؛ إذ لا يضيعُ شيءٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بعِلمِ اللهِ عزَّ وجلَّ يكسِبُ العبدَ مراقبةَ اللهِ سبحانه تمامًا؛ لأنَّ أيَّ شيءٍ يفعله فهو عليمٌ به، فهذا يحمِلُه على الرَّجاءِ في فعل ما يحبُّه اللهُ، وعلى الخوفِ مِن فعل ما يكرَهُه اللهُ عزَّ وجلَّ[٤].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ فيه إرشادٌ إلى أنْ يَشهدَ العبدُ حِكْمَةَ اللهِ سبحانَه في الوَعدِ والوعِيدِ؛ فيَشهدَ عدْلَه تعالى في وَعيدِه، وإحسانَه في وعْدِه، وكلٌّ قائمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٢٩).

بِحِكْمتِه[١].

١٢- أنَّ الحسنةَ تجذِبُ الحسنةَ، وتُؤخَذ من قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ هذا الأجرَ قد يكونُ سببُه زيادةَ الحسناتِ بسببِ الحسنةِ الأُولى، فمِن نعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ الإنسانَ إذا عمِل العملَ الصَّالحَ وُفِّقَ لعمَلٍ آخَرَ[٢].

١٣- وجوبُ العمل بما في السُّنَّةِ، وإن لم يكُنْ ذلك في القرآنِ، وتؤخذ من قوله: ﴿وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ﴾، فالأوامر الصادرةُ من الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يجب العملُ بها، وإن لم تكُنْ في القرآنِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ الإثباتَ المحضَ لا يدلُّ على التَّوحيدِ، ويُؤخَذُ ذلك مِن أنَّه لَمَّا أمَر بالعبادة قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟﴾؛ وذلك أنَّ الإنسانَ قد يَعبُدُ اللهَ لكن يعبُدُ غيرَه، فإذا عبَد مع اللهِ غيرَه فإنَّه لم يُخلِصِ العبادةَ لله، والمطلوبُ: إخلاصُ العبادةِ له[٤].

٢- وجوبُ الإحسانِ إلى الوالدينِ؛ لقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، ولكنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ ولم يقُلْ: وإلى الوالدين؛ لأنَّ المطلوبَ مباشَرةُ الإنسانِ بالإحسانِ إلى والدَيْه، لا إيصال الإحسانِ فقط، ولو قال: (إلى الوالدينِ إحسانًا) كان المطلوبُ إيصالَ الإحسانِ فقط[٥].

٣- أنَّ أعظمَ حقوقِ البَشر حقُّ الوالدينِ؛ لأنَّ اللهَ جعَله في المرتبةِ الثَّانية بعد حقِّه، ولا يرِدُ على هذا حقُّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ حقَّ الرَّسولِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٠٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

داخلٌ في حقِّ اللهِ، ووجهُه: أنَّ العبادةَ لا تتمُّ إلَّا بالإخلاصِ لله، والمتابعةِ لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذا تحقَّقَت متابعةُ الرَّسول فقد أدَّيْت حقَّه[١].

٤- أنَّ الوالدينِ من الأقاربِ أيضًا، إلَّا أنَّ قَرابةَ الوِلادِ لَمَّا كانت مخصوصةً بكونِها أقربَ القراباتِ، وكانت مخصوصةً بخواصَّ لا تحصُلُ في غيرِها، لا جرمَ ميَّزها اللهُ تعالى في الذِّكرِ عن سائرِ الأنواعِ، فذكَر في هذه الآيةِ قَرابةَ الوِلادِ، ثمَّ أتبعَها بقرابةِ الرَّحِمِ[٢].

٥- في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أنَّ الأقربَ فالأقربَ أَولى بالإحسان، ويؤخَذُ مِن أنَّ اللهَ قدَّم الوالدينِ، وهما أقربُ القَرابات، فقياسًا على ذلك نقول: مَن كان أقربَ مِن بقيَّةِ القَرابات فهو أحقُّ، هذا وجهٌ، والوجه الثَّاني: أنَّ المعلَّقَ على وصفٍ يقوَى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويضعُفُ بضَعفِ ذلك الوصفِ، والحُكمُ هنا معلَّقٌ على القَرابة؛ فكلُّ مَن كان أقربَ كان حقُّه أوكدَ، فصارتِ الدَّلالةُ على أنَّنا نقدِّمُ الأقربَ فالأقربَ من وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: قياسيٌّ، والثَّاني: معنويٌّ[٣].

٦- الأمرُ بالإحسانِ إلى المساكين؛ لقوله: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾، ومَن كان منهم أشدَّ مَسكنةً كانت الوصيةُ به أوكَدَ؛ لأنَّه عُلِّق على وصفٍ[٤].

٧- قدَّم اللهُ اليتيمَ على المسكينِ في قوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾؛ لأنَّ المسكينَ لكِبَرِه يمكِنُه أن يعرِضَ حالَ نفسِه على الغير، فيجلِب به نفعًا، أو يدفَع به ضررًا، وأمَّا اليتيمُ فلا قُدرةَ له عليه[٥].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٦).

٨- إثباتُ المحبَّةِ للهِ، وتؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾، فهذا وإن كان نفيًّا إلَّا أنَّه لو كانت المحبةُ منتفيةً عن اللهِ مطلقًا ولا تجوزُ عليه، لم يكُنْ لنفيها فائدةٌ هنا، وعلى هذا فإنَّها تدلُّ على إثباتِ المحبَّةِ لله، ومذهبُ السَّلفِ وأهلِ السُّنَّةِ إثباتُ المحبَّةِ لله حقيقةً، وأنَّه جلَّ وعلا يُحِبُّ، وأنَّ محبَّتَه تتعلَّقُ بالأعمالِ، وتتعلَّقُ بالأشخاصِ، وتتعلَّقُ بالأزمنةِ، وتتعلَّقُ بالأمكنةِ[١].

٩- عنايةُ اللهِ سبحانه بعِبادِه؛ يُستفادُ ذلك من وجوهٍ في هذه الآية: أوَّلًا: مِن جِهة القيامِ بحقِّ الوالدينِ والقَرابات، وثانيًا: من جِهة جَبْرِ النَّقصِ الَّذي يحصلُ على بعضِ النَّاس، مثل: المساكينِ واليتامى، وثالثًا: أنَّ حُسنَ الجوارِ سببٌ للالتحامِ وللالتئامِ بين النَّاس وعدم الكراهيةِ والبَغضاءِ[٢].

١٠- أنَّ اللهَ تعالى أرحمُ بالإنسانِ مِن أولاده، ويؤخَذُ مِن قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾؛ حيث أمَر الولدَ أن يُحسِن إلى والدِه، وهذا يدلُّ على أنَّ اللهَ أرحمُ بالإنسانِ من أولادِه، كما أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النِّساء: ١١] يدلُّ على أنَّ اللهَ أرحمُ بالإنسانِ من والديه، وهذا هو الواقعُ[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾، إنَّما خصَّ اللهُ تعالى هذينِ الوصفينِ بالذَّمِّ في هذا الموضعِ؛ لأنَّ مَن اتَّصَف بهاتينِ الصِّفتينِ حمَلَتاه على الإخلالِ بمَن ذُكِر في الآيةِ ممَّن يكونُ لهم حاجةٌ إليه، فالمختالُ هو المتكبِّرُ، وكلُّ مَن كان متكبِّرًا فإنَّه قلَّما يقومُ برعايةِ الحقوقِ، ثمَّ أضاف إليه ذمَّ الفَخورِ؛ لئلَّا يُقدِمَ على رعايةِ هذه الحقوقِ لأجل الرِّياءِ والسُّمعةِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١٢).

لمحضِ أمرِ اللهِ تعالى، فالفخر هو عدُّ المناقبِ على سبيلِ التَّطاولِ بها، والتَّعاظمِ على النَّاس(١).

١٢- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّه تعالى ذكَر في هذه الآيةِ مِن الأحوالِ المذمومة ثلاثًا: أوَّلها: كون الإنسانِ بخيلًا، وهو المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، وثانيها: كونهم آمِرين لغيرِهم بالبُخلِ، وهذا هو النِّهايةُ في حبِّ البُخلِ، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾، وثالثها: قوله: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فيُوهِمون الفقرَ مع الغنى، والإعسارَ مع اليَسارِ، والعَجْزَ مع الإمكانِ، ثمَّ إنَّ هذا الكتمانَ قد يقعُ على وجهٍ يُوجِبُ الكفرَ، مثل: أن يُظهِرَ الشِّكايةَ عن اللهِ تعالى، ولا يرضى بالقضاءِ والقدَرِ، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفرِ؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾(٢).

١٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ قد تُؤُوِّلَت في البُخلِ بالمال والمَنْع، والبُخْلِ بالعلم ونحوِه، وهي تعمُّ البخل بكل ما ينفَعُ في الدِّين والدنيا؛ من علمٍ ومالٍ وغيرِ ذلك؛ كما تأوَّلوا قولَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ النفقَة من المالِ، والنَّفَقة من العِلْم(٣).

١٤- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢١٢).

ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾(١).

١٥- من كانت الشَّياطينُ لهم أولياءَ فإنَّما تَؤُزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وتُزْعِجُهم إليها إزعاجًا لا يستقِرُّون معه، ويُزَيِّنون لهم القبائِحَ ويُخَفِّفُونها على قلوبهم، ويُحَلُّونها في نُفوسِهم، ويُثَقِّلون عليهم الطَّاعاتِ، ويُثَبِّطونهم عنها، ويُقَبِّحونها في أعيُنِهم، ويُلْقونَ على ألْسِنَتِهم أنواعَ القبيح من الكلامِ وما لا يُفيدُ، ويُزَيِّنونه في أسماعِ مَن يَسْمَعُه منهم؛ يبيتون معهم حيثُ باتوا ويَقِيلونَ معهم حيث قالوا، ويُشارِكونَهم في أموالِهم وأولادِهم ونسائِهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويُجامعونَ معهم، وينامون معهم؛ قال تعالى ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾(٢).

١٦- انتفاءُ الظُّلم عن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، وهذا النَّفيُ يتضمَّنُ إثباتَ كمالِ العدل، وليس المرادُ به مجرَّدَ انتفاءِ الظُّلم؛ لأنَّ مجرَّدَ انتفاء الظُّلمِ لا يدلُّ على كمالٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، أي: الوصفُ الأعلى(٣).

١٧- أنَّ ما ذُكِر على سبيل المبالغةِ لا مفهومَ له؛ لقوله: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ فلا يُفهَمُ مِن قوله: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ أنَّه يظلِمُ دون ذلك، بل لا يظلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ ولا دونها، لكنَّ عادةَ العربِ ضربُ المثَلِ في الشَّيء الحقيرِ بمِثقالِ الذَّرَّةِ(٤).

١٨- أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سبقَتْ غضَبَه؛ لأنَّ الحسناتِ تُضاعَفُ، والسَّيِّئاتِ

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦١- ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣).

لا تُزادُ؛ فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، فيه نفيُ زيادةِ السَّيِّئاتِ، وقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ فيه تضعيفُ الحسناتِ، وهو سبحانه يَجزي على الحسنةِ ثوابًا أكثرَ من المقابَلة، فليست الحسنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبع مِئةِ ضِعفٍ فقط، بل هناك شيءٌ فوق هذا، وهو قوله: ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بقوله: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ بزيادة الباء، وفي سورة البقرة عبَّر بـ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ بغيرِ الباء في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣]، وإعادةُ الباءِ تدلُّ على التَّوكيدِ والمبالغةِ؛ فبُولِغ في آيةِ النساءِ؛ لأنَّها في حقِّ هذه الأمَّة، ولم يُبالغْ في آية سورةِ البقرة؛ لأنَّها في حقِّ بني إسرائيل، والاعتناءُ بهذه الأمَّةِ أكثرُ مِن الاعتناء بغيرِها؛ إذ هي خيرُ أمَّة أُخرجت للنَّاس(٢).

وقيل: فائدةُ إعادةِ حرفِ الجرِّ ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الإحسانَ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٣١).

وقيل: أُعيدتِ الباءُ في سُورة النِّساء دون سورةِ البقرة؛ نظرًا للسِّياق؛ ففي سورة النساء، كان الكلامُ عن القَراباتِ من أوَّلِ السُّورةِ إلى آخِرها، وليس فقط في هذه الآيةِ؛ ففي الآيةِ الأولى من مطلعِ السُّورة قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، ثم بعدَها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾؛ إذنْ ذِكر (الباء) مع ذِي القُربى في هذه الآيةِ مِن سورة النِّساء كان لمراعاةِ التَّفصيلِ والتوكيدِ، أمَّا في آية سورة البقرة فليس السياقُ في القَرابات؛ فحُذِفت (الباء) في (ذي القربى)؛ مراعاةً للإيجازِ. يُنظر: ((لمسات بيانية)) لفاضل السامرائي (ص: ٢٤١).

إلى القَرابةِ مُستقلٌّ، بمعنى أنَّه لو فُرِض أنَّ الرَّجُلَ ليس له والِدانِ، فحقُّ القرابةِ ثابتٌ، وليس مبنيًّا على حقِّ الوالدينِ، وتابعًا له؛ لأنَّ الوالدينِ قد يَكونانِ ميِّتَينِ؛ فحقُّ القَرابةِ باقٍ(١).

وقيل: إنَّ إعادةَ الجارِّ لإفادة التَّنويع(٢).

٢- **قوله:** ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فيه التَّعبيرُ بالبَعضِ عن الكلِّ؛ حيثُ قال: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ومعلومٌ أنَّ المرادَ ما ملَكْتُم(٣).

٣- ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: فيه وَضْعُ الظَّاهر ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ موضِعَ المُضمَرِ (لهم)؛ للإشعارِ بأنَّ مَن هذا شأنُه فهو كافرٌ لِنعمةِ الله، ومَن كان كافرًا لنعمةِ الله، فله عذابٌ يُهينُه، كما أهان النِّعمةَ بالبُخلِ والإخفاءِ(٤).

- والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِما قبلها(٥).

٤- **قوله:** ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فيه تقديمُ إنفاقِهم رِئاءَ النَّاسِ على عدمِ إيمانِهم باللهِ واليومِ الآخِرِ، مع كونِ المؤخَّرِ أقبَحَ من المقدَّمِ؛ لرعايةِ المناسبةِ بين إنفاقِهم ذلك وبين ما قبله مِن بُخلِهم وأمرِهم للنَّاس به(٦).

٥- **قوله:** ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا...﴾ الآية: استفهامٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢١٦)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٣٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).

غرَضُه التَّوبيخُ لهم على الجهلِ بمكان المنفعةِ، والاعتقادِ في الشَّيء على خلافِ ما هو عليه، والتَّحريضُ على الفكرِ لطلبِ الجواب؛ لعلَّه يؤدِّي بهم إلى العِلم بما فيه من الفوائدِ الجليلةِ، والعوائدِ الجميلة[١].

- وفيه تنبيهٌ على أنَّ المدعوَّ إلى أمرٍ لا ضررَ فيه ينبغي أن يُجيبَ إليه احتياطًا؛ فكيف إذا تضمَّن المنافعَ[٢]؟!

- وتقديمُ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ على الإنفاقِ؛ لأهميَّة الإيمانِ في نفسِه، ولعدمِ الاعتدادِ بالإنفاقِ بدونه[٣].

٦- **قوله:** ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: فيه تكرير ﴿لَا﴾ النَّافية، وكذلك تكريرُ الباء؛ للإشعارِ بأنَّ كلًّا منهما منتفٍ على حِدَتِه[٤].

٧- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ...﴾: فيه مبالغةٌ بذِكْر المثقالِ[٥]، مع تأكيدِ الخبَرِ بـ: (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

- وفيه: التَّجوُّزُ بإطلاقِ الشَّيءِ على ما يُقارِبُه في المعنى؛ فقد أُطلِقَ الظُّلمُ على انتقاصِ الأجرِ من حيث إنَّ نقصَه عن الموعودِ به قريبٌ في المعنى من الظُّلم[٦].

- وقوله: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فيه: التَّنبيهُ بما هو أدْنَى على ما هو أعْلَى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه: إبهامٌ؛ إذ لم يُبيِّنْ فيه المضاعَفةَ في الأجرِ[(١)].

٨- **قوله تعالى:** ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ...﴾: الاستفهامُ فيه يدلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[(٢)].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٣٦).

الآية (٤٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ جُنُبًا ﴾: أي: إنْ أصابتكم الجَنابةُ، وسُمِّيتِ الجَنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّبِ الصَّلاة في حُكم الشَّرع، ولفظ جُنُب اسْمٌ خَرَجَ مَخْرجَ الفِعلِ، فيسْتَوي للواحِدِ والاثْنَيْنِ والجمِيع والمؤنَّثِ، فَيُقَال: هذا جُنُبٌ، وهذانِ جُنُبٌ وهؤلاء جُنُبٌ، فهُو على تَأْويلِ ذَوِي جُنُبٍ، وأصل (جنب): يدلُّ على الناحيةِ، والبُعد[(١)].

﴿ عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾: أي: مُجتازين في المساجدِ، أو مُجتازين غيرَ مُقيمين، ولا مُطمئنِّين، أو المسافرين، وأصل (عبر): تجاوزٌ من حالٍ إلى حال[(٢)].

﴿ الْغَائِطِ ﴾: الحدَث، وأصلُ الغائطِ: المطمئِنُّ مِن الأرض، وكانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجة أتَوْا غائطًا من الأرضِ ففعَلوا ذلك فيه؛ فكُني عن الحدَثِ بالغائطِ، وأصل (غوط): اطمئنانٌ وغَوْر[(٣)].

﴿ لَامَسْتُمُ ﴾: كِنَايَة عَن النِّكَاح والجِماع، وقيل: ملامسة من غير جماع،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

وأصْل (لمس): يدلُّ على تطلُّب شيءٍ، ومسيسِه أيضًا[1].

﴿ صَعِيدًا ﴾: أي ترابًا، والصَّعيدُ: الغبار الَّذي يصعَدُ، ويُطلَقُ أيضًا على وجهِ الأرض[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين عن إتيانِ المساجد، وعن أداء الصَّلاة وهم في حالِ سُكرٍ، حتَّى يحصُلَ لهم الصَّحوُ الكاملُ، كذلك ينهاهم عن إتيانِ المساجد، وعن أداء الصَّلاة وهم على جنابةٍ، حتَّى يغتسِلوا، إلَّا مَن كان مجتازًا عبْرَ المسجد فقط دون مُكثٍ، فله إتيانُه، ثمَّ يبيِّنُ اللهُ لعباده أنَّ لهم أن يتيمَّموا بدلَ الطَّهارةِ بالماء؛ وذلك بأن يقصِدوا التُّرابَ الطَّاهر النَّظيف، ويمسَحوا وجوهَهم وأكُفَّهم منه، في حالِ كانوا مَرْضَى يَتعذَّرُ استعمالُهم للماء، أو فقَدوا الماءَ وهم مسافرون، أو فقَدوه بعد أن أحدَثوا حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ، أو عقِبَ ملامستِهم للنِّساءِ، إنَّ اللهَ كان عفوًّا غفورًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، وأمَر ببرِّ الوالدينِ ومكارمِ الأخلاق، وذمَّ البُخلَ، واستطرَد منه إلى شيءٍ مِن أحوال القيامة، وكان قد

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

وقَع مِن بعضِ المسلِمين تخليطٌ في الصَّلاة الَّتي هي رأسُ العبادةِ بسبب شُربِ الخمر- ناسَب أن تُخَلَّص الصَّلاةُ من شوائبِ الكدَرِ الَّتي يوقِعُها على غيرِ وجهِها، فأمَر تعالى بإتيانِها على وجهِها دون ما يُفسِدها؛ ليجمَعَ لهم بين إخلاصِ عبادةِ الحقِّ، ومكارمِ الأخلاق الَّتي بينهم وبين الخَلْق(١).

وأيضًا لَمَّا وصَف الوقوفَ بين يديه في يومِ العرضِ والأهوال، وتضمَّن وصفُه أنَّه لا ينجو فيه إلَّا مَن كان طاهرَ القلبِ والجوارحِ بالإيمانِ به والطَّاعةِ لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصَف الوقوفَ بين يديه في الدُّنيا في مقامِ الأُنسِ، وحضرةِ القُدسِ المُنَجِّي من هولِ الوقوفِ في ذلك اليوم، وأمَر بالطَّهارةِ فيه عن الخبائثِ(٢).

وأيضًا لَمَّا أمَر اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقة بعبادتِه، وتَرْكِ الشِّركِ به، وبالإحسانِ للوالدَيْنِ وغيرهم، وتوعَّد الَّذين لا يقُومون بهذه الأوامر والنَّواهي- وقد عرَفْنا مِن سُوَرٍ أخرى أنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ بالاستعانةِ بالصَّلاة على القيامِ بأمورِ الدِّين وتكاليفِه- ناسَب ذِكْر الصَّلاةِ هاهنا عقِبَ تلك الأوامرِ والنَّواهي الجامعة(٣).

النَّاسخ والمَنسوخ:

المَنسوخ:

قول الله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾(٤) [النساء: ٤٣].

النَّاسخ:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٤٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٩٢).
(٤) قال النحاس: (أكثرُ العلماء على أنَّها منسوخة) ((الناسخ والمنسوخ)) (ص: ٣٣٦).

ﭐﻟﺸَّﻴۡﻄَٰﻦِ ﻓَﭑﺟۡﺘَﻨِﺒُﻮﻩُ ﴾ [المائدة: ٩٠][1].

الدَّليل:

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه، قال: (لَمَّا نزَل تحريمُ الخَمرِ، قال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في البقرة: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ ... ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]، قال: فدُعِي عمرُ فقُرِئت عليه، قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في النِّساءِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان مُنادِي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أقيمت الصَّلاةُ ينادي: ألَا لا يقربَنَّ الصَّلاةَ سَكرانُ، فدُعِي عُمرُ فقُرِئت عليه، فقال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت هذه الآيةُ ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، قال عُمرُ: انتَهَيْنا)[2].

سَببُ النُّزول:

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((صنَع لنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف رضِي اللهُ عنه طعامًا، فدعانا وسقانا من الخمرِ، فأخذتِ الخمرُ منَّا، وحضرتِ الصَّلاةُ فقدَّموني، فقرأتُ: (قل يا أيَّها الكافرون لا أعبُدُ ما تعبدون ونحن نعبُدُ ما تعبدون)، فأنزَل اللهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]))[3].

---

(١) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للزهري (ص: ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (٣٧٨).
صحَّحه عليُّ بن المديني كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) للسفاريني (١/ ٧٥٩)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١/ ١٨٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٧٠)، وقال الوادعيُّ في ((أحاديث مُعلَّة)) (٣١٧): سنده رجال الصَّحيح، ولكنَّه منقطع.

(٣) رواه الترمذي (٣٠٢٦) واللفظ له، والبزار في ((البحر الزخار)) (٥٩٨)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (٥٣٥٢).

وفي لفظٍ آخرَ: عن عليِّ بن أبي طالبٍ، رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ دعاه وعبدَ الرَّحمنِ بنَ عوف، فسقاهما قبل أن تحرَّمَ الخمرُ، فأمَّهم عليٌّ في المغربِ فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فخلَّط فيها، فنزلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]))(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون لا تقرَبوا المساجدَ، ولا تصلُّوا وأنتم في حالِ سُكرٍ، لا تدرون معه ما تقولون في الصَّلاة، إلى أن يحصُلَ لكم الصَّحوُ التَّامُّ(٢).

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾.

أي: ولا تُصلُّوا أيضًا، ولا تقرَبوا المساجدَ، والحالُ أنَّكم على جَنابةٍ، إلَّا لأجلِ الاجتيازِ عبْرَها فقط، دون مُكثٍ فيها، إلى أن تغتسِلوا(٣).

قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٩/ ٥٣): في إسنادِه عطاء بن السَّائب، لا يُعرَف إلَّا من حديثه، وقد قال يحيى بن معين: لا يُحتجُّ بحديثِه، وفرَّق مرةً بين حديثه القديم وحديثه الحديث، ووافقه على التفرقة الإمام أحمدُ. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٢٦).

(١) رواه أبو داود (٣٦٧١) واللفظ له ، والترمذي (٣٠٢٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٠٤١)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (١٨٢٨).
قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وقال الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢/ ٢٣٧): إن كان منقطعًا في رواية الفريابي عن سفيان؛ فإن غيره من رواة سفيان قد رفعه، ووثَّق رجالَ إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ١٩٤)، وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٠٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٨-٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٢-٣٤٥).
قال الرازي: (جميع المفسِّرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الآية إنَّما نزلت في شُربِ الخمرِ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨-٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٠٨، ٣١٣)، ((تفسير

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾.

أي: وإنْ كنتم ذوي مَرَضٍ، بحيث يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ(١).

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

أي: إنْ كنتُم مُسافِرين(٢).

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾.

أي: إنْ أحدَثَ أحدُكم حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ(٣).

﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

قيل: المرادُ الجِماعُ، وقيل المراد: كلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها(٤).

﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قالت: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ أسفارِه حتَّى إذا كنَّا بالبَيداءِ، أو

السعدي)) (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٦).

قال الكيا الهراسي: (قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ يمنعُ مِن التوضُّؤ، وأن يكونَ مِن إمساسِ الماءِ خطرُ الهلاكِ أو فسادُ عضوٍ، وليس المرادُ به مطلقُ المرضِ إجماعًا) ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣-٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٧).

بذاتِ الجيشِ انقطَع عِقدٌ لي، فأقام رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على التماسِه، وأقام النَّاسُ معه، وليسوا على ماءٍ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِي اللهُ عنه، فقالوا: ألَا ترى ما صنَعَتْ عائشةُ؟! أقامَتْ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكرٍ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم واضعٌ رأسَه على فَخِذي قدْ نام، فقال: حبَسْتِ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسَ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ! فقالت عائشةُ: فعاتَبني أبو بكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أن يقولَ، وجعَل يَطعُنُني بيدِه في خاصرتي، فلا يمنَعُني من التَّحرُّكِ إلَّا مكانُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على فخِذي، فقام رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حين أصبَح على غيرِ ماءٍ، فأنزَل اللهُ آيةَ التَّيمُّمِ، فتيمَّموا، فقال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ: ما هي بأوَّلِ بركتِكم يا آلَ أبي بكرٍ، قالت: فبعَثْنا البعيرَ الَّذي كنتُ عليه، فأصَبْنا العِقدَ تحتَه))[(١)].

﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها -كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصْدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ[(٢)].

﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

أي: فامسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَعفو عن ذُنوبِ عِبادِه، وتَقصيرِهم في طاعتِه، ويَسترُ

(١) رواه البخاري (٣٣٤) واللفظ له، ومسلم (٣٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٨٠، ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٨-٣٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٩-٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

عليهم، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها سبحانه وتعالى، ومِن عَفوِه عنهم وغَفرِه لهم: أنْ شَرَعَ التَّيمُّمَ، وأباح لهم فِعلَ الصَّلاة به إذا فقَدوا الماءَ، أو تعذَّر عليهم استعمالُه؛ توسعةً عليهم، ورُخصةً لهم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أهميةُ الصَّلاةِ، والعنايةُ بها؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى صدَّر الحُكمَ المتعلِّقَ بالصَّلاةِ بالنِّداءِ لاسترعاءِ الانتباهِ، وممَّا يدلُّ على العنايةِ بها أنَّ اللهَ صدَّر الخطابَ بذلك بوصفِ الإيمانِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فدلَّ هذا على أهميَّةِ الصَّلاةِ، وعلى العنايةِ بها[(٢)].

٢- الحثُّ على حُضورِ القلبِ في الصَّلاة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، والقلبُ إذا غاب، فإنَّ الإنسانَ لا يعلَمُ ما يقولُ، وإنَّما يقولُ على سبيلِ العادة فقط، وإلَّا لو أنَّه رجَع إلى نفسِه لتبيَّن له أنَّه لا يَدري ما يقولُ، أي: لا يَدري معنى ما يقولُ، وإنْ كان قد يَدري أنَّه لفظٌ[(٣)].

٣- في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، إشارةٌ إلى أنَّه يَنبغي لِمَن أراد الصَّلاةَ أنْ يَقطَعَ عنه كلَّ شاغلٍ يَشغَلُ فِكرَه؛ كمُدافَعةِ الأخبثَيْنِ، والتَّوقِ لطعامٍ، ونحوِه[(٤)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّه لا حُكمَ لقولِ السَّكرانِ؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾، فإنَّه يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).

على أنَّ السَّكرانَ لا يعلَمُ ما يقولُ، وإذا كان لا يعلَمُ ما يقولُ صار قولُه لغوًا لا عبرةَ به[(١)].

٢- يؤخَذُ مِن المعنى في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ منعُ الدُّخولِ في الصَّلاةِ في حالِ النُّعاسِ المُفرِطِ، الَّذي لا يشعُرُ صاحبُه بما يقولُ ويفعَلُ[(٢)].

٣- أنَّ الإنسانَ إذا غضِب غضبًا شديدًا حتَّى صار لا يعلَمُ ما يقولُ، فإنَّه لا عبرةَ بقولِه، حتَّى لو كان كفرًا، وحمَلَه على ذلك شدَّةُ الغضبِ، فإنَّه لا عبرةَ بقولِه؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ جهْلَ الإنسانِ بما يقولُ له أثرٌ في تغيُّرِ الحُكم، وكذلك لو طلَّق في شدَّةِ الغضبِ وهو لا يعلَمُ ما يقول[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ اكتفى بقولِه: ﴿تَقُولُونَ﴾ عن (تفعلون)؛ لظهورِ أنَّ ذلك الحدَّ من السُّكرِ قد يُفضي إلى اختلالِ أعمال الصَّلاةِ؛ إذ العملُ يُسرِعُ إليه الاختلالُ باختلالِ العقلِ قبل اختلالِ القولِ[(٤)].

٥- تحريمُ مُكثِ الجُنُبِ في المسجدِ؛ لقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[(٥)].

٦- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أنَّ العُبورَ ليس كالمُكثِ، وعليه: فإنَّ الإنسانَ لو مرَّ عابرًا بالمسجدِ، فإنَّه لا يَلْزَمُه أن يُصلِّيَ تحيَّةَ المسجدِ؛ لأنَّه عابر، بخِلاف ما إذا مكَث وجَلَس، فإنَّه لا يَجلِسُ حتَّى يُصليَ ركعتينِ[(٦)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، استُدِلَّ به على أنَّه لا يجِبُ على الجُنُبِ إلَّا الاغتسالُ ولا يجِبُ عليه الوُضوءُ، وأنَّه إذا اغتَسلَ جازَ له أنْ يَقرَبَ الصَّلاةَ، وأنَّ المغتسِلَ من الجنابةِ ليس عليه نِيَّةُ رفعِ الحَدَثِ الأَصْغرِ(١).

٨- الإشارةُ إلى القاعدةِ المعروفة المتَّفقِ عليها، وهي: أنَّ المشقَّةَ تجلِبُ التَّيسيرَ، ووجهُه: أنَّ اللهَ تعالى أجاز للمريضِ أن يتيمَّمَ، فقال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾(٢).

٩- أنَّ المسافرَ إذا لم يجِد الماءَ فإنَّه يتيمَّمُ، ولا يَنتظرُ حتَّى يجدَ الماءَ في البلد؛ لقوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾(٣).

١٠- أنَّ السَّفرَ ليس له حدٌّ معيَّنٌ، ووجهُه: الإطلاقُ في قوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ ولم يقُلْ مسافةَ كذا، بل حدُّ السَّفرِ أنْ يَقعَ عليه اسمُ السَّفرِ؛ فإذا وقَع عليه اسمُ السَّفر ثبتَتْ له أحكامُ السَّفر، ولم يحدِّدِ اللهُ ولا رسولُه السَّفرَ بمسافة معيَّنةٍ(٤).

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجِبُ على المتوضِّئِ أنْ يَتوضَّأ مرَّةً ثانيةً؛ إذ لو كانَ الوضوءُ واجبًا على مَن جاءَ مِن الغائِطِ ومَن لم يَجِئْ، لكانَ ذِكرُ المجيءِ مِن الغائطِ عبثًا(٥).

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٤).
(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٧٤).

١٢- أنَّ مجامَعةَ النِّساء حدَثٌ؛ لقوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وهو حدَثٌ أكبرُ، كما دلَّت على ذلك آيةُ المائدة، وعلى هذا فيجبُ على الإنسان إذا جامَع المرأةَ أن يغتسلَ، سواءٌ أنزَل أم لم يُنزِلْ[١].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿... أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استُدِلَّ به عَلَى أنَّ المسافِرَ يُجامِعُ أهْلَه وإنْ لم يَجِدِ الماءَ، ولا يُكْرَهُ له ذلِك[٢].

١٤- أنَّه يُشترَطُ في جواز التَّيمُّم عدَمُ الماء، أو التَّضرُّرُ باستعماله، وعدمُ الماء مأخوذٌ من قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾، والتَّضرُّر باستعماله من قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾[٣].

١٥- جواز التَّيمُّمِ على وجهِ الأرض كلِّه؛ من رملٍ، أو حصًى، أو ترابٍ، أو سَبِخةٍ، أو جِصٍّ، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا﴾ ولم يقيِّدْ[٤].

١٦- أنَّه لا بدَّ مع المسحِ من القَصد؛ لقوله: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ ﴿فَٱمْسَحُوا۟﴾[٥].

١٧- الحِكمة في التَّشريعِ، ووجه ذلك: أنَّ اللهَ فرَّق بين طهارةِ الماءِ وطهارة التَّيمُّم؛ فطهارةُ الماءِ من الجنابةِ لا بدَّ أن تعُمَّ جميعَ البدنِ، ومِن الحدَثِ الأصغرِ لا بدَّ أن تعُمَّ الأعضاءَ الأربعةَ: الوجهَ، واليدينِ، والرَّأسَ، والرِّجلينِ، أمَّا طهارةُ التَّيمُّمِ فإنَّها لا تكونُ إلَّا في عُضوينِ فقط، وهما: الوجهُ، واليدانِ، ولا فرق فيها بين الطَّهارتينِ الكبرى والصُّغرى، والحكمةُ من ذلك: أنَّ الطَّهارةَ بالماء

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٦).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٨).

فيها تطهيرٌ حسِّيٌّ واضحٌ، وطهارة التَّيمُّمِ فيها تطهير معنويٌّ، وهو كمالُ التَّعبُّدِ والتَّذلُّلِ لله عزَّ وجلَّ، بحيث إنَّ الإنسانَ يمسَحُ بالتُّرابِ وجهَه وكفَّيْهِ، وهذا دليلٌ على كمال التَّعبُّدِ[١].

١٨- وجوب التَّرتيبِ بين مسْح الوجهِ في التَّيمُّمِ ومسح اليدينِ، بحيث يقدَّمُ الوجهُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾[٢].

١٩- أنَّه لا يُشرعُ في التَّيمُّمِ مسْحُ الذِّراعِ؛ لقوله: ﴿بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ وأطلَق، واليدُ عند الإطلاق هي الكفُّ؛ ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وقد أجمَع العلماءُ على أنَّ السَّارقَ لا تُقطَعُ يدُه إلَّا مِن مَفصِلِ الكفِّ، ولا تُقطَعُ من المِرفَقِ، وهنا أطلَق اللهُ تعالى اليدَ، كما أطلقها في القطعِ في السَّرقةِ، وإذا أُطلِقت فالمرادُ الكفُّ[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: فيه تصديرُ الكلامِ بحَرْفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ (يا أيُّها)؛ للمبالغةِ في حمْلِهم على العملِ بموجِبِ النَّهي عن قُربان المساجد حالَ السُّكرِ أو الجَنابةِ[٤].

٢- **قوله:** ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فيه إطلاقُ لفظِ الصَّلاةِ على المسجِد، من بابِ حذْفِ المضاف، أي: لا تَقرَبوا موضِعَ الصَّلاةِ؛ فقدْ أراد بالصَّلاةِ مواضعَها، وهي المساجدُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٥).

- وعبَّر بالقُربِ عن التَّلبُّس بالفعلِ، وإنَّما اخْتِير هذا الفِعلُ ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ دون (لا تُصلُّوا) ونحوه؛ للإشارةِ إلى أنَّ تلك حالةٌ منافيةٌ للصَّلاة، وصاحبُها جديرٌ بالابتعادِ عن أفضلِ عملٍ في الإسلام(١).

٣- **قوله:** ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا﴾: جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ حاليَّة، وهي جُملةٌ اسميَّةٌ؛ فالتَّعبيرُ بها أبلغُ لتكرارِ الضَّمير؛ فالتَّقييدُ بها أبلغُ في الانتفاءِ مِنها من التَّقييدِ بالمفرَدِ الَّذي هو: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾(٢).

٤- **قوله:** ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: فيه تقديمُ المستثنى ﴿عَابِرِي﴾ قبلَ تمامِ الكلام المقصودِ قصرُه بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾؛ للاهتمامِ به(٣).

٥- **قوله:** ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾: فيه تسميةُ الشَّيءِ باسم مكانِه؛ إذ ﴿ٱلۡغَآئِطِ﴾: هو المكانُ المطمئنُّ من الأرضِ، وكان الرَّجلُ إذا أراد قضاءَ الحاجةِ طلَب غائطًا من الأرض يحجُبُه عن أعيُنِ النَّاس، ثمَّ سُمِّي الحَدَثُ نفسُه بهذا الاسمِ(٤)، ومجيئُه من الغائط كنايةٌ عن الحدَثِ بالغائطِ(٥)، ففيه التَّجوُّز بإطلاقِ المحَلِّ على الحالِّ فيه(٦).

- **وفي قوله:** ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم﴾: إسنادُ المجيءِ منه إلى واحدٍ من المخاطَبين دونهم كلِّهم؛ حيث لم يقُلْ: (أو جئتم) ونحوه؛ للتَّفادي عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٦٥).

التَّصريحِ بنسبتِهم إلى ما يُستحيا منه، أو يُستهجَنُ التَّصريحُ به[١].

- وفيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّه كِنايةٌ عمَّا يُستحيَا مِن ذِكرِه، فلمْ يُخاطِبْهم به[٢].

٦- **في قوله:** ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إيثارُ الكِنايةِ فيما عُطف عليه على التَّصريحِ بالجِماعِ[٣].

٧- **قوله:** ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾: فيه تغليبُ الخِطابِ؛ إذ قدِ اجتمَع خِطابٌ وغَيبةٌ؛ فالخِطاب في: ﴿كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، والغَيبةُ في: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا كنى عن الحاجةِ بالغائط، كرِه إسناد ذلك إلى المخاطَبين، فنزَع به إلى لفظِ الغائبِ بقولِه: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ﴾، ولَمَّا كان المرضُ والسَّفرُ ولمسُ النِّساءِ لا يفحُشُ الخِطابُ بها جاءتْ على سَبيل الخِطابِ[٤].

٨- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: تعليلٌ للتَّرخيصِ والتَّيسيرِ، وتقريرٌ لهما؛ فإنَّ مَنْ عادتُه المستمرَّةُ أنْ يعفوَ عن الخاطئين، ويغفرَ للمُذنبين، لا بدَّ أن يكونَ مُيسِّرًا لا مُعسِّرًا، وقيل: هو كنايةٌ عنهما؛ فإنَّ التَّرفيهَ والمسامحةَ مِن روادفِ العفوِ، وتوابعِ الغُفرانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢١-٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢١- ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١).

الآيات (٤٤ - ٤٦)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي: لا سمعتَ، أو مَدعوًّا عليك بصمَمٍ أو موت، أو غير مُجابٍ إلى ما تدعو إليه أو كلامٍ ترْضاه[١].

﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: تحريفًا بالكذب، واستهزاءً ومحاكاة؛ يقال: لَوَى لسانَه بكذا: كناية[٢] عن الكذب، وتخرُّصِ الحديث، وأصلُه: إمالةٌ للشَّيء[٣].

﴿وَأَقْوَمَ﴾: أي: أخلصَ، وأسَدَّ، والقيامُ للشيءِ هو المراعاةُ للشيء، والحفظُ له وأصل (قوم): الانتصاب أو العَزم[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) قال ابن عاشور: (اللَّيُّ أصله الانعطافُ والانثِناءُ، وهو يَحتمِل الحقيقةَ في كلتا الكلمتين: اللَّيُّ، والألسنةُ، أي: إنَّهم يَثنون ألسنتَهم؛ ليكونَ الكلامُ مشبهًا لُغتين؛ بأن يُشبِعوا حركاتٍ، أو يقصُروا مُشبَعاتٍ، أو يفخِّموا مرقَّقًا، أو يرقِّقوا مفخَّمًا، ليعطيَ اللَّفظُ في السَّمعِ صورةً تُشبهُ صورةَ كلمةٍ أخرى، فإنَّه قد تخرُجُ كلمةٌ مِن زِنَةٍ إلى زِنَةٍ، ومن لُغةٍ إلى لُغةٍ بمثلِ هذا، ويُحتمَل أن يكون المرادُ: أنَّهم يأتون في كلامِهم بما هو غيرُ مُتمحِّضٍ لمعنى الخيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾

﴿كَفَى﴾: فِعلٌ ماض، والبَاء في ﴿بِٱللَّهِ﴾ صِلة، ولفظْ الجلالة (الله) مجرورٌ لفظًا، وهو فاعلٌ مرفوع محلًّا بـ(كفَى) والتقديرُ: وكفَى اللهُ...، وإنَّما زِيدت الباءُ مع الفاعِل؛ ليؤدِّيَ الكلامُ معنى الأمر؛ إذ التقدير: اكتَفُوا باللَّهِ؛ فدلَّت الباءُ على هذا المعنى، وقيل غير ذلك. و﴿وَلِيًّا﴾: مَنْصُوبٌ على التَّمْيِيزِ. وقيل: على الحَال. ومِثلُه في الإعرابِ قولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾(١).

المَعْنى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: ألم تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين آتاهم اللهُ حظًّا من الكتاب من اليهود والنَّصارى يختارون الضَّلالةَ عِوضًا عن الهدى، ويُريدون مع ضلالتِهم أن تضلُّوا أنتم معهم، فتتركوا سبيلَ الهدايةِ.

واللهُ تعالى- أيُّها المؤمنون- أعلمُ مِنكم بأعدائِكم، وهو حسبُكم سبحانه، يتولَّاكم بحِفظِه ورعايتِه، كفى به نصيرًا يدافعُ عنكم، وينصُرُكم على عدوِّكم.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما في التَّوراةِ لفظًا أو معنًى، أو يُبدِّلهما معًا، ويقولون لمحمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وعصَيْنا أوامرَك، ويُسيئون أدبَهم معه صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولون له: اسمَعْ منَّا، لا سمِعْتَ؛ استهتارًا منهم واستهزاءً، ويقولون له: راعِنَا، يُظهِرون أنَّهم يريدون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما يَعنُون بذلك حقيقةَ الدُّعاءَ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفًا منهم وطعنًا في الدِّين بالقَدْحِ في النَّبيِّ عليه

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٩٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٨٦).

الصَّلاة والسَّلام.

ثمَّ يخبر تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ لو كانوا قالوا: سمِعْنا وأطَعْنا، واسمَعْ منا قولَنا، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك قولَك، لكان قولُهم ذلك خيرًا لهم وأصوبَ، ولكنْ أخزاهم اللهُ، وطرَدَهم من رحمتِه، فلا يُؤمِنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا يُفيدُهم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر مِن أوَّلِ هذه السُّورة إلى هذا الموضعِ أنواعًا كثيرةً من التَّكاليفِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ، انتقَل إلى ذِكْر أحوال أعداءِ الدِّين، وأقاصيص المتقدِّمين؛ فالانتقالُ من نوعٍ من العلوم إلى نوع آخر، يُنشِّطُ الخاطرَ، ويدفَع ما يُكدِّره، ويقوِّي القريحةَ[(١)].

وأيضًا هو استئنافُ كلامٍ راجعٌ إلى الآياتِ الَّتي سبقت من قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦] فإنَّه بعد نِذارةِ المشركين وجَّه الإنذارَ لأهلِ الكتاب، ووقعَتْ آياتُ تحريمِ الخمر وقتَ الصَّلاة، وآياتُ مشروعيَّةِ الطَّهارة لها فيما بينهما، وفيه مناسبةٌ للأمرِ بتركِ الخمر في أوقات الصَّلواتِ، والأمر بالطَّهارة؛ لأنَّ ذلك من الهُدى الَّذي لم يسبِقْ لليهود نظيرُه؛ فهم يحسُدون المسلِمين عليه؛ لأنَّهم حُرِموا مِن مِثلِه، وفرَّطوا في هدًى عظيمٍ، وأرادوا إضلالَ المسلمين عداءً منهم[(٢)]، قال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١) وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٨٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي: أَلَمْ تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين أُعطوا حظًّا من التَّوراةِ من اليهود[١].

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾.

أي: إنَّهم يَختارون الضَّلالةَ عِوَضًا عن الهُدَى، بالإقامةِ على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتركِهم الإيمان؛ ليَشتروا بذلك ثمنًا قليلًا من حُطام الدُّنيا الفاني[٢].

وهذا باعتبارِ ما يَختارونه لأنفسِهم، ولكنَّ شرَّهم ليس قاصرًا؛ ولذلك قال[٣]:

﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾.

أي: وهم يودُّون أيضًا- أيُّها المؤمنون- أنْ تَنحرِفوا معهم عن طَريقِ الإيمان، واتِّباعِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فتكفروا كما كَفروا، وتَتركوا ما أنتُم عليه من الهُدى والعِلم النَّافعِ[٤].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ٤٥﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).
ومن المفسرين من ذهب إلى أن المرادَ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٩٩-١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦١-٣٦٢).

أي: واللهُ تعالى أعلمُ بعَداوةِ أولئك منكم، وما هم مُنطَوون عليه من الغِشِّ والكيدِ والحسَدِ لكم(١).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾.

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى؛ يتولَّاكم بالحفظِ والرِّعاية، ويُيسِّر لكم ما فيه الفلاحُ والسَّعادةُ(٢).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى نصيرًا؛ يُدافِعُ عنكم، وينصُرُكم على أعدائِكم، ويُبيِّن لكم ما ينبغي أنْ تحذَروه منهم(٣).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٤٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم أنَّهم يَشترون الضَّلالة، شرَح كيفيَّةَ تلك الضَّلالةِ، فقال(٤):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٢).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾.

أي: إنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما جاء في التَّوراةِ؛ إمَّا بتغيير اللَّفظِ، أو المعنى، أو هما جميعًا[1].

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

أي: ويقولُ أولئك القومُ: سمِعْنا- يا محمَّد- قولَك، وعصَيْنا أمرَك، فتولَّوْا عن كتابِ اللهِ تعالى بعدما عقَلوه، وهذا أبلغُ في كُفرِهم وعِنادِهم[2].

﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾.

أي: ويقولون لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: اسمَعْ منَّا ما نقولُ، أصمَّك اللهُ فلا سمِعْتَ، يُسيئون الأدبَ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ استهزاءً منهم واستهتارًا به[3].

﴿وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾.

أي: إنَّهم يُوهِمون أنَّهم بقولهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «راعنا»: يعنُون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما قصدُهم الدُّعاءُ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفٌ منهم لهذه اللَّفظةِ عن معناها، أرادوا بذلك الطَّعنَ في الدِّينِ بعيبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقدحِ فيه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠١-١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٥-٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٤-١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٦-١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٠-٣٧١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

أي: ولو أنَّ هؤلاءِ اليهودَ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سمِعْنا قولَك، وأطَعْنا أمرَك، واسمَعْ منَّا ما نقول، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك ما تقولُ، لو أنَّهم قالوا ذلك، لكان أصوبَ وأعدَلَ في القولِ، وفي غيرِه من أمورِ دِينِهم ودنياهم[1].

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ تعالى قد أخْزَى أولئك اليَهودَ، فأقصاهم وأبعَدَهم وطرَدَهم من رحمتِه؛ وذلك بسبب كُفرِهم[2].

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فلا يُؤمنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا ينفَعُهم[3].

الفوائد التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ...﴾ الآية: أنَّ مِن النَّاس مَن يؤتى الكتابَ، ويُرزَقُ العِلمَ، ولكنَّه لا ينتفعُ به، مِثل هؤلاء الَّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك لم ينتفعوا به، واشترَوُا الضَّلالةَ بالهدى، فمن لم ينتفِعْ بعِلمِه فهو شَبيهٌ بهؤلاء المذكورين ولهذا قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ رحمه الله: (من فسَد من علمائِنا ففيه شَبَهٌ مِن اليهودِ، ومَن فسَد مِن عُبَّادِنا ففيه شَبَهٌ من النَّصارى)[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٢).

٢- التَّحذيرُ مِن هؤلاء اليهود أو النَّصارى أو غيرهم؛ لأنَّه إذا حذَّرنا اللهُ ممَّن أُوتوا نصيبًا من الكتاب، فتحذيرُنا ممَّن هم عُمْيٌ صُمٌّ بُكْمٌ، مِن باب أَولى[1].

٣- في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ تسليةُ المؤمنين، وتقويةُ عزائمهم؛ لكونِ اللهِ أعلمَ بأعدائنا، وأنَّه ناصرٌ لنا، ووليٌّ لنا[2]، وفيه إشارةٌ إلى التحذيرِ منهم، وتوبيخٌ على الركونِ إليهم، والمعنى: أنَّه تعالى قد أخبَر بعَداوتهم للمُؤمنين، فيجبُ حَذَرُهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾[3].

٤- أنَّ الإنسانَ يُحاسَبُ على ما أراد؛ لقوله: ﴿لَيًّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾، أي: على ما في قلوبِهم؛ قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾، أمَّا في باب الحكومة والخصومة مع الناس فيُحاسب على الظاهرِ[4].

٥- أنَّ المنكرَ إذا أنكره المُنكِرُ فإنَّ الأولى أن يُرشِدَ إلى البَدَل الذي لا محذورَ فيه؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ بدل ﴿وَعَصَيۡنَا﴾، ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ دون ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، ﴿وَٱنظُرۡنَا﴾ بدل ﴿رَٰعِنَا﴾؛ كما قال تعالى في خطابِ المؤمنين بهذا: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾[5] [البقرة: ١٠٤].

٦- أنَّ مَن لُعِن وطُرِد عن رحمةِ الله فإنَّه ينقلِبُ عليه الحقُّ باطلًا والباطلُ حقًّا؛ ولهذا لم يَسلُكوا الأحسنَ والخيرَ فيما قالوا؛ لأنَّ اللهَ لعَنهم، ويتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ العاقلَ لا يتعرَّضُ لِما فيه لعنةُ اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تعرَّض لِما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٥).

فيه لعنةُ اللهِ لُعِن وطُرِد وخُذِل[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- الحذَرُ من هؤلاء الَّذين ذُكِروا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا ...﴾ الآية؛ فإنَّهم لا يُريدون لنا الخيرَ إطلاقًا؛ لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾[٢].

٢- الثَّناء على المسلمين بكونِهم على السَّبيل؛ لقوله: ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، ولولا أنَّهم على السَّبيلِ ما حاوَلوا أن يُضلُّوهم[٣].

٣- أنَّه لا بدَّ للمُسلِمين من عدوٍّ، بل مِن أعداءٍ، وكلُّ مَن كان غيرَ مُسلِمٍ، فإنَّه عدوٌّ للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾[٤].

٤- أنَّ المحرِّفينَ للكلِمِ عن مواضعِه يُشبِهون اليهودَ في طريق استعمالِ الوحيِ[٥].

٥- شدَّةُ عنادِ اليهودِ الَّذين يُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعِه؛ لقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فإنَّهم لو قالوا: لم نسمَعْ، أو قالوا: سمِعْنا ولم نفهَمْ، لربَّما قال قائلٌ: إنَّ هذا عُذرٌ، لكن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فلم يمنَعْهم شيءٌ عن الطَّاعةِ إلَّا مجرَّدُ عصيانٍ[٦].

٦- شدَّةُ حقدِ اليهودِ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث كانوا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٣).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُجيبون بهذه الكلمةِ السَّيِّئة: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾[(١)].

٧- تَعالِي هؤلاء اليهودِ، حتَّى عند الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقولهم: ﴿اسمَعْ﴾؛ لأنَّ كلمةَ (اسمَعْ) إنَّما تكونُ في الغالبِ في المخاطَباتِ من الأعْلى إلى الأدْنى[(٢)].

٨- أنَّ الطَّعنَ في الدِّين يكونُ بالصَّريح، ويكون باللَّازم؛ فالصَّريحُ أن يقولَ: هذا الدِّينُ يوجِبُ لأهلِه التَّأخُّرَ والتَّقهقرَ والتَّزمُّتَ، وما أشبهَ ذلك؛ هذا صريحٌ. الثَّاني: ألَّا يكونَ صريحًا، لكن مِن لازم القول، فهنا إذا نظرتَ إلى كلامِهم لم تشعُرْ بالطَّعنِ على وجهٍ صريحٍ، ولكن من لازمِ القولِ[(٣)].

٩- قوله تعالى: ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ﴾ فيه أنَّ الطَّعنَ في الدِّين من خصالِ اليهودِ؛ فمَن طعَن في الدِّين فهو مُشبِهٌ لليهودِ، والعياذُ بالله[(٤)].

١٠- أنَّ الكفرَ سببٌ للَّعنِ؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾[(٥)].

١١- الرَّدُّ على الجَبريَّةِ والقدَريَّةِ؛ فالجبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ مجبَرٌ على عملِه، والقدَريَّةُ يقولون: الإنسانُ مستقِلٌّ بعمَلِه، وليس للهِ فيه تدبيرٌ، والآيةُ ترُدُّ عليهم جميعًا، أمَّا على الجهميَّةِ الَّذين هم الجَبريَّةُ، فلقوله: ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾، فأضاف العملَ إليهم، وهم يقولون: لا يُضافُ العملُ إلى العامل إلَّا على سبيل المجاز، وإلا فالحقيقة أنَّه ليس فعلَه؛ لأنَّه ليس باختياره، أمَّا على القدَريَّةِ: فلإثبات الأسبابِ في قوله: ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾، وهم يقولون: إنَّ فعلَ الإنسان مستقلٌّ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٧٧).

ليس لله فيه تدخُّلٌ إطلاقًا، فأنت تفعَلُ وتترُكُ، وتقومُ وتقعدُ، وتذهَبُ وتجيءُ، وليس لله تعالى فيه أيُّ تعلُّقٍ، وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: عمَلُ الإنسان باختيارِه ولا شكَّ، ولكن الَّذي جعَله باختياره هو اللهُ، فيكون ناتجًا عن مشيئةِ الله وخَلْقِ الله، وخالقُ السَّببِ التَّامِّ خالقٌ للمسبَّبِ(١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾: في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهام المرادُ به التَّعجُّبُ(٢).

- والتَّعبيرُ بالاشتراء ﴿يَشْتَرُونَ﴾- الَّذي هو عبارةٌ عن استبدالِ السِّلعة بالثَّمنِ، أي: أخْذِها بدلًا منه أخذًا ناشئًا عن الرَّغبةِ فيها، والإعراض عنه-؛ للإيذانِ بكمالِ رغبتِهم في الضَّلالة الَّتي حقُّها أن يُعرَضَ عنها كلَّ الإعراضِ، وإعراضُهم عن الهداية الَّتي يتنافَس فيها المتنافِسون(٣).

- وفيه من التَّسجيلِ على نهاية سَخافةِ عقولهم، وغاية رَكاكةِ آرائِهم ما لا يَخفَى؛ حيث صُوِّرت حالُهم بصورةٍ ما لا يَكاد يتعاطاه أحدٌ ممَّن له أدْنى تمييزٍ(٤).

- وعبَّر بصيغةِ المضارع في ﴿يَشْتَرُونَ﴾، و﴿وَيُرِيدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥، ٦٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٢).

٢- قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ جملةٌ معترِضةٌ؛ لتقريرِ إرادتِهم المذكورةِ[(١)].

- وفيها تَعريضٌ؛ فإنَّ إرادتَهم الضَّلالةَ للمؤمنينَ عن عَداوةٍ وحسَدٍ[(٢)].

- وفيه تهديدٌ للمُشركين وتحذيرٌ لهم[(٣)]؛ إذ اللهُ يَعلمُهم ويعلمُ ما يَفعلون.

٣- قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾: تذييلٌ؛ لتطمئنَّ نفوسُ المؤمنين بنصرِ الله؛ لأنَّ الإخبارَ عن اليهودِ بأنَّهم يُريدونَ ضلالَ المسلمين، وأنَّهم أعداءٌ للمسلمين، مِن شأنِه أن يُلقيَ الرَّوعَ في قلوب المسلمين؛ إذ كان اليهودُ المجاورون للمسلمين ذَوي عَدَدٍ وعُدَدٍ، وبيدِهم الأموالُ، فكان قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ مناسبًا لقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، أي: إذا كانوا مُضمِرين لكم السُّوءَ، فاللهُ وليُّكم؛ يَهديكم ويتولَّى أمورَكم، شأنُ الوليِّ مع مولاه، وكان قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ مناسبًا لقوله: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾، أي: فاللهُ ينصُرُكم[(٤)].

- وفعل (كَفَى) مُستعمَلٌ في تقويةِ اتِّصافِ فاعلِه بوصفٍ يدلُّ عليه التَّمييزُ المذكورُ بعده، أي: إنَّ فاعل (كَفَى) أجدرُ مَن يتَّصفُ بذلك الوصفِ، ولأجل الدَّلالة على هذا غلَب في الكلامِ إدخالُ باءٍ على فاعلِ فِعل (كفى)، وهي باءٌ زائدةٌ؛ لتوكيدِ الكِفاية، بحيث يحصُلُ إبهامٌ يشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ تفصيله، فيأتون باسمٍ يميِّزُ نوعَ تلك النِّسبة؛ ليتمكَّنَ المعنى في

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٢).

ذهنِ السَّامع[١].

- وتكرير الفِعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ في الجملتين، مع إظهارِ الجلالة (الله) في مقامِ الإضمار، لا سيَّما في الثَّاني؛ لتقويةِ استقلالها المناسبِ للاعتراض، وتأكيد كفايتِه عزَّ وجلَّ في كلٍّ من الولاية والنُّصرة[٢].

٤- **قوله:** ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: فيه الإبهام، أو الكلام الموجَّه، أو المحتمِل للضِّدَّيْنِ؛ فهو ذو وجهين: وجه يحتمل الذَّمَّ: أي استمِعْ منَّا مدعوًّا عليك بلا سمِعْتَ، أي: أصابَك اللهُ بالصَّمَمِ والموت، ولعلَّه هو المراد هنا؛ لِما انطوَوْا عليه من خِسَّةٍ، ووجه يحتمل المدحَ، أي: اسمَعْ غيرَ مُسمَعٍ مكروهًا[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٢٧).

الآيتان (٤٧ - ٤٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾: أي: نمحوَ تخطيطَ صُوَرِها، أو نمحوَ ما فيها من عينٍ وأنفٍ وحاجبٍ وفمٍ، والطَّمس: إزالة الأثَر، وأصل (طمس): يدلُّ على محوِ الشَّيء ومسحِه[1].

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: نجعَل وجوهَهم من قِبل أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوجه قَفًا، والقَفَا وَجْهًا، وأصل الردِّ: صرفُ الشيء بذاتِه، أو بحالةٍ من أحواله؛ يقال: رَدَّه عن وجهه: صرفَه. وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيء وخلفُه، ضد القُبل[2].

﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: كَذَب واختَلَق، وافترى فلانٌ على فلان: إذا قذَفه بما ليس فيه، أو قذَف أبوَيْه، والافتراء الاختلاقُ، وهو ما عظُم مِن الكذبِ، وكذلك استُعمِل في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلم، وأصل (فرى): قطعُ الشيءِ، والفَرْي هو: قطْعُ الجِلد للخرزِ والإصلاح والإفراءُ للإفسادِ والافتراءُ فيهما، وفي الفساد أكثرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨- ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ أهلَ الكتابِ من اليهود والنَّصارى بالإيمان بالقُرآنِ المنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ فيه تصديقًا وشَهادةً على ما معهم من الكتب، أمَرهم سبحانه أن يؤمنوا قبل أن يطمِسَ وجوهَهم، فيحوِّلَها إلى جهةِ ظهورهم، أو يطرُدَهم من رحمتِه سبحانه، ويُنكِّل بهم، كما فعَل بأصحاب السَّبتِ الَّذين احتالوا على الاصطياد فيه بعد أن نُهُوا عن ذلك، فمسَخهم اللهُ تعالى قِردةً، وكان أمرُ الله حاصلًا لا مردَّ له.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّه لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ أشرَك معه غيرَه، ويغفِرُ ما دون الشِّركِ من الذُّنوبِ، سواءٌ الكبائرُ والصَّغائرُ، لمن يشاءُ مِن عبادِه، ومَن يُشرِكْ بالله تعالى فقد اختَلَق إثمًا عظيمًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن اليهودِ أنواعَ مَكرِهم وإيذائِهم، ورجَّاهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ ...﴾ الآية- أمَرهم بالإيمانِ، وقرَن بهذا الأمرِ الوعيدَ الشَّديدَ على التَّركِ؛ ليكونَ أدعى لهم إلى الإيمانِ والتَّصديقِ به[1] فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾.

٦٣٤- ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧).

أي: يا أيُّها اليهود والنَّصارى الَّذين أُنزِل إليهم التَّوراةُ والإنجيلُ فأُعطُوا العِلمَ، آمِنوا بما أنزَلْنا إلى محمَّدٍ من الفُرقان، مصدقًا للَّذي معكم من التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ القرآنَ شاهدٌ بما جاءت به تلك الكتبُ، وإنَّه حقٌّ، كما أنَّه مهيمِنٌ على غيرِه من الكتب السَّابقةِ الَّتي قد صدَّقها، فإنَّها قد أخبرَتْ به[١].

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾.

أي: آمِنوا قبل أن نَطمِسَ وجوهَكم، فنحوِّلَها إلى جهةِ الأدبارِ، أي: من قِبَل ظهورِكم.

والمراد بطَمْس الوجوهِ والرَّدِّ على الأدبارِ: قيل: ألَّا يبقى للوجوهِ سمعٌ ولا بصَر ولا أثَر، ونرُدُّها مع ذلك إلى ناحيةِ الأدبارِ، وقيل المراد: نطمِس أبصارَها ونمحو آثارَها، ونجعَل أبصارَها في أقفائِهم، فيمشون القَهْقرى، وقيل غير ذلك[٢].

﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾.

أي: أو نطرُدَهم من رحمتِنا، ونوقِعَ بهم من النَّكالِ مثلما وقَع لأصحابِ السَّبتِ الَّذين اعتدَوْا في سَبتِهم بالحيلةِ على الاصطيادِ فيه، فمُسِخُوا قردةً ذليلةً[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٠-٣٨٠).
قال أبو حيان: (و﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ هو القرآن بلا خلاف) ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٥-١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨١-٣٨٢).

وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أي: إنَّه تعالى إذا أمَر بأمرٍ، فإنَّه واقعٌ لا محالةَ؛ فأمرُه عزَّ وجلَّ لا يُخالَف ولا يُمانَع(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا رجَّاهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟** ...﴾ الآية، خاطَب مَن يُرجَى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقرَن بالوعيدِ البالغِ على تركِه، ثمَّ أزال خوفَهم من سوءِ الكبائرِ السَّابقةِ معلِّلًا لتحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا بوقوعهم في الشِّركِ(٢)، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٠-١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٧).

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ من المخلوقين يَلقَى اللهَ سبحانه وقدْ جعَل معه شريكًا في ربوبيَّتِه أو ألوهيَّتِه أو أسمائِه وصفاتِه[1].

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

أي: ويغفِرُ اللهُ تعالى ما دون ذلك الشِّركِ من الذُّنوبِ- صغائرِها وكبائرِها- للَّذي يشاءُ مِن عبادِه مِن أهل الذُّنوبِ والآثام، إذا اقتضَتْ حكمتُه أن يغفِرَ له[2].

عن أبي ذرٍّ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ:... ومن لَقِيَني بقُرابِ الأرضِ خطيئةً لا يشركُ بي شيئًا، لقِيتُهُ بمثلِها مغفرةً))[3].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ مَن يقع في الإشراكِ باللهِ العظيمِ، فقد اختَلَق وِزْرًا عظيمًا، وجُرمًا كبيرًا[4].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ عِندَ اللهِ؟ قال: أنْ تجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خلَقَك، قلتُ: إنَّ ذلك لَعظيمٌ...))[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٩).

(٥) رواه البخاري (٤٤٧٧) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا ...﴾، أقبَل سبحانه على خِطابِ أهل الكتاب، وكذلك شأنُ القُرآن؛ لا يُفوِّتُ فرصةً تعِنُّ مِن فُرَصِ الموعظة والهُدى إلَّا اغتَنَمَها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحُكماءِ والخُطباء أن يتوسَّموا أحوالَ تأثُّر نفوسِ المخاطَبين ومظانَّ ارعوائِها عن الباطلِ، وتبصُّرِها في الحق، فيُنجِدوها حينئذٍ بقوارعِ الموعظةِ والإرشادِ[1].

٢- أنَّ ما دون الشِّركِ تحتَ المشيئةِ؛ لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وليس مجزومًا بمغفرتِه، ولا مجزومًا بالمؤاخَذةِ عليه، وإنَّما هو تحت المشيئةِ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: ردُّ كلامِ المسوِّفينِ الَّذين يفعَلون ما يفعَلون من المعاصي ثمَّ يقولون: إنَّ الله يغفِرُ ما دون الشِّركِ لمن يشاء، فنقول لهم: ما الَّذي أدراك أن تكونَ أنت ممَّن شاء اللهُ أن يغفِرَ لك؟ فلو فرَضْنا أنَّ عملَك المعصيةَ يمكِنُ أن يُغفَرَ، لكنَّه ليس بمتيقَّنٍ؛ فالمعصيةُ مفسَدةٌ ظاهرةٌ حاصلةٌ، ومغفرتها مصلحةٌ؛ لكنَّها تحت المشيئةِ؛ فقد تحصُلُ، وقد لا تحصُلُ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- إثبات علوِّ اللهِ، ووجهُه قولُه: ﴿نَزَّلْنَا﴾؛ لأنَّ النُّزولَ إنَّما يكون من الأعلى، وعلوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ ينقسِمُ إلى قسمينِ: قسمٍ حِسيٍّ، وقسمٍ معنويٍّ؛ فالقسمُ المعنويُّ: متَّفقٌ عليه بين أهل الملَّة، حتَّى أهلُ التَّعطيلِ يدَّعون أنَّهم يُعطِّلون تنزيهًا للهِ عن النَّقص؛ فالعلوُّ المعنويُّ لا أحدَ يُنكِرُه من أهلِ الملَّةِ؛ فكلُّ أهلِ القِبلة يُقرُّون به، والعلوُّ الحسيُّ الذَّاتيُّ: هو الَّذي أنكَره طوائفُ مِن أهل البدعِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ مصدِّقٌ للكتُبِ السَّابقة، يشهَدُ لها بالصِّدقِ، ومصدِّقٌ لها؛ حيث جاء مطابقًا لِما أخبَرَت به؛ فهو لا يتنافى معها ولا يتنافَرُ معها، لكنَّ الشَّرائعَ تختلفُ باختلاف الأممِ، حتَّى باختلاف الأحوال، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، لكنَّ أصولَ المِلَلِ ثابتةٌ واحدة، وهذا الكتابُ العزيز مُصدِّقٌ لِما بين يديه، مُهيمِنٌ على ما سبَق، وإذا كان كذلك لزِم أن يكونَ ناسخًا لِما سبق(١).

٣- أنَّ الإحالةَ على المعلومِ تصِحُّ ولو بلفظِ الإبهام، وتؤخَذُ من قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾؛ لأنَّه إذا قال قائل: ما هي اللَّعنةُ الَّتي حلَّتْ بأصحابِ السَّبتِ؟ ومَن هم أصحابُ السَّبتِ؟ فنقول: ذُكِروا هنا على سبيلِ الإجمال؛ لأنَّ أمرَهم معلومٌ(٢).

٤- إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله عزَّ وجلَّ، وكثيرٌ من المعطِّلة الأشاعرةِ والمعتزلة ونحوِهم يُنكِرون أنْ يقومَ باللهِ فِعلٌ متعلِّق بإرادته؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ الأفعالَ المتعلِّقة بالإرادة حادثةٌ، والحادثُ لا يقومُ إلَّا بحادثٍ، ولا شكَّ أنَّ هذا كذِبٌ في التَّصوُّرِ؛ لأنَّ الشَّيء الحادثَ يمكِنُ أن يقومَ بالأزلِ، كما أنَّ الشَّيءَ الحادث الَّذي حَدَثَ اليومَ يمكن أن يقومَ بمخلوقٍ خُلِقَ قبْلَ خمسين سنةً، فلا يلزمُ مِن حدوثِ الفعلِ أن يكونَ الفاعلُ حادثًا(٣).

٥- التَّوحيدُ هو أصلُ الدِّينِ ورأسُه الذي لا يَقبلُ اللهُ عملًا إلَّا به، ويغفرُ لصاحبِه، ولا يَغفِرُ لِمَن تركَه؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩١).

بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[١].

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ...﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ اليهوديَّ يسمَّى مشرِكًا في عُرفِ الشَّرع، وإلَّا كان مُغايرًا للمُشرِكِ، فوجَب أنْ يكونَ مغفورًا له؛ ولأنَّ اتصالَ هذه الآيةِ بما قبلها إنَّما كان لأنَّها تتضمَّنُ تهديدَ اليهود؛ فاليهوديَّةُ داخلةٌ تحت اسم الشِّركِ[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ الكبائرَ لا تُغفر، وهم المعتزلةُ، وعلى مَن قال: إنَّ أصحابَ الكبائرِ مِن المسلمين لا يُعذَّبون، وهم المرجئةُ؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ نعمةٌ عظيمةٌ من وجهين؛ أحدهما: أنَّها تقتضي أنَّ كلَّ ميِّتٍ على ذنْبٍ دون الشِّرْكِ لا يُقطَع عليه بالعذاب، وإن مات مصرًّا. والثاني: أنَّ تعليقَه بالمشيئةِ فيه نفْعٌ للمسلمينَ، وهو أن يكونوا على خَوفٍ وطَمَعٍ[٤].

٩- في قَوْلِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. قُيِّدَت المغفرةُ بما دون الشِّرْك، وعُلِّقَت على المشيئةِ، بينما أُطْلِقَت وعُمِّمَتْ في قَوْلِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فدلَّ هذا التقييدُ والتَّعليقُ على أنَّ هذا في حَقِّ غيرِ التائبِ؛ ولهذا استدَلَّ أهْلُ السنَّة بهذه الآية على

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٧٢).
(٣) ينظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٩٣).
(٤) ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤١٧).

جوازِ المغفِرَة لأهلِ الكبائِرِ في الجملةِ؛ خلافًا لمن أوْجَبَ نفوذَ الوَعيدِ بهم من الخوارِجِ والمعتَزِلَة، وإن كان المخالِفونَ لهم قد أسْرَفَ فريقٌ منهم من المُرْجِئَة حتى توقَّفوا في لُحوقِ الوعيدِ بأحَدٍ مِن أهْلِ القِبلةِ، كما يُذْكَرُ عن غُلاتِهم أنَّهم نَفَوْه مطلقًا، ودينُ الله عزَّ وجلَّ وَسَطٌ بين الغالي فيه، والجافي عنه(١).

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اختلفتِ الصِّلةُ فيه عنِ الصِّلة في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جاءَ في مقامِ التَّعجبِ والتَّوبيخ، فناسبَتْه صِلةٌ مؤذِنةٌ بتهوينِ شأنِ عِلمهم بما أوتوه مِن الكِتاب، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جاءَ في مقامِ التَّرغيبِ، فناسبَتْه صِلةٌ تؤذِنُ بأنَّهم شُرِّفوا بإيتاءِ التَّوراة؛ لتُثير هِممَهم للاتِّسامِ بمِيسَمِ الرَّاسخين في جرَيانِ أعمالهم على وَفْقِ ما يُناسِبُ ذلك، وليس بين الصِّلتينِ اختلافٌ في الواقعِ؛ لأنَّهم أوتوا الكتابَ كلَّه حقيقةً، باعتبار كونِه بين أيديهم، وأُوتوا نصيبًا منه باعتبارِ جرَيانِ أعمالهم على خلافِ ما جاء به كتابُهم؛ فالَّذي لم يَعمَلوا به منه كأنَّهم لم يؤتَوْه(٢).

- وجِيء بالصِّلتينِ في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ وقوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ دون الاسمينِ العَلَمين، وهما: القرآنُ والتَّوراة؛ لِما في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِن التَّذكيرِ بعِظَمِ شأنِ القرآنِ أنَّه منزَّلٌ بإنزالِ اللهِ، ولِما في قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ من التَّعريضِ بهم في أنَّ التَّوراةَ كتابٌ مستصحَبٌ عندهم لا يعلَمون منه حقَّ عِلمِه، ولا يعمَلون بما فيه(٣).

(١) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ أو وعيدٌ، وهذا تهديدٌ بأن يحُلَّ بهم أمرٌ عظيمٌ(١).

- وفيه تحاشِي التَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذة، فهنا قال: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهًا﴾ ولم يقُلْ: (وجوهكم)، وكان مقتضى السِّياقِ أن يقول: (مِن قبْلِ أنَّ نطمِسَ وجوهَكم)؛ لأنَّهم هم المهدَّدون، لكن أتى بها على صيغةِ النَّكرةِ؛ تحاشيًا للمواجهةِ بالمؤاخَذةِ(٢).

- وفي تنكير ﴿وُجُوهًا﴾ -المفيدِ للتَّكثيرِ- تهويلٌ للخَطْبِ العظيمِ، الَّذي يُثير الخوفَ، وفي إبهامِها لُطفٌ بالمخاطَبين، وحُسنُ استدعاءٍ لهم إلى الإيمانِ(٣).

وقد يقال: إنَّ المرادَ بالتَّنكيرِ هنا التَّعظيمُ، أي: وجوهًا معظَّمةً عندكم فتُطمَس، وهي وجوهُ زعمائِهم الَّذين صدُّوهم عن سبيلِ الله عزَّ وجلَّ(٤).

٣- قوله: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ﴾: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ يَرجِع إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على طَريقةِ الالتفاتِ- على أحدِ وجوهِ التَّأويل(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥١٩).
وقال ابنُ جرير: (يعني بقولِه جلَّ ثناؤه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾، أو نَلْعنكم فنُخزيكم ونجعلَكم قردةً... قيل: ذلك على وجه الخِطاب في قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، وقد يُحتمل أن يكونَ معناه: مِن قبلِ أن نطمسَ وجوهًا فنردَّها على أدبارِها، أو نلعنَ أصحابَ الوجوه، فجَعل الهاءَ والميم في قولِه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾، مِن ذِكر أصحاب الوجوه، إذ كانَ في الكلامِ دلالةٌ على ذلك) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١١٩).

٤- **قوله:** ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ، مقرِّر لِما سبق[(١)].

- ووَضْع الاسمِ الجليلِ موضعَ الضَّمير بطريقِ الالتفاتِ؛ لتربيةِ المَهابةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ ما في الاعتراضِ من الاستقلالِ[(٢)].

٥- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾: كلامٌ مستأنَفٌ مسُوقٌ لتقريرِ ما قبْلَه مِن الوعيدِ، وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ بالأمر بالإيمان، ببيانِ استحالةِ المغفرةِ بدونه[(٣)].

- وجيء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ لتوكيد الخبرِ؛ لقصدِ دفْع احتمال المجازِ، أو للمبالغةِ في الوعيد، وهو إمَّا تمهيدٌ لِما بعده؛ لتشنيعِ جُرم الشِّرك بالله؛ ليكون تمهيدًا لتشنيعِ حال الَّذين فضَّلوا الشِّركَ على الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التَّعجبِ مِن شأنهم الآتي في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ٥١]، أي: فكيف ترضَوْن بحالِ مَن لا يَرضَى اللهُ عنه، والمغفرةُ على هذا الوجهِ يصحُّ حملُها على معنى التَّجاوز الدُّنيويِّ، وعلى معنى التَّجاوز في الآخرةِ على وجهِ الإجمالِ[(٤)].

- وقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾: فيه إظهارُ الاسمِ الجليل في موضعِ الإضمار؛ لزيادة تقبيحِ الإشراك، وتفظيعِ حالِ مَن يتَّصفُ به[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٧).

الآيات (٤٩ - ٥٧)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ
بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم
بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ
فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾: أي: يَمدحُونها ويُثنون عليها، مِن التَّزكية، وأصلُ الزَّكاة: النَّماءُ والزِّيادة[1].

﴿ فَتِيلًا ﴾: الفَتيل: المفتولُ، وهو: الخيطُ في بطن النَّواة، وسُمِّي ما يكونُ في شَقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونِه على هيئته، وقيل: الفتيل: ما يُفتَلُ بالإصبعِ مِن الوسَخِ الَّذي يخرُجُ منه، ويُضرَبُ به المثلُ في الشيءِ الحقيرِ وأصل (فتل): يدلُّ على ليِّ شيء[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي(٨/ ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)،

﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: الجِبْت لفظٌ يُستعمل في كُلِّ باطل، ومن ذلك: كلُّ معبودٍ سوى اللهِ جلَّ اسمُه، من صُورةٍ أو شيطان، ويُطلق أيضًا على السَّاحر، والكاهن، والشَّيطان، والكافِر المعاند الَّذي لا خيرَ فيه[1].

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى اللَّهِ، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ اللَّهِ إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ: إنَسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثنًا، أو صَنَمًا كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه[2].

﴿نَقِيرًا﴾: النَّقير: النَّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المفضِي إلى النَّقب[3].

﴿صَدَّ عَنْهُ﴾: أي: أعرَض وانصرَف عنه، والصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرُ مُتعدٍّ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا بمعنى صَدَّ غيرَه. وأصل (صد): إعراضٌ وعدولٌ[4].

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨، ٧٠١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨، ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٢)، ((تفسير الراغب)) (٣/ ١٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٠) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

﴿نَضِجَتْ﴾: انشوتْ فاحترَقَتْ؛ يُقال: نَضِج اللَّحم: إذا أَدرَك شَيَّه، وأصل (نضج): بلوغ النِّهايةِ في طبخ الشَّيء[1].

﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: قيل: هو الظلُّ الدَّائم الَّذي لا تنسَخُه الشَّمس، وقيل: الَّذي لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا ريحَ ولا سَمومَ، وأصل (ظلل): يدلُّ على سَتْر شيءٍ لشيء[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- من الَّذين يُثنون على أنفسِهم من اليهود والنَّصارى وغيرهم، ويُبرِّئونها من الذُّنوب والعُيوب، مع أنَّ الأمرَ ليس كما زعَموا، بلِ اللهُ وحده هو الَّذي يُثني على مَن يشاءُ مِن عباده ممَّن هو أهلٌ لذلك، ولا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا من الخَلْقِ شيئًا مهمَا قلَّ، انظُرْ كيف يفتري هؤلاء المُثْنون على أنفسِهم الكذبَ، ويَختلِقونه على اللهِ، وكفى بهذا الصَّنيعِ منهم إثمًا ظاهرًا، وذنبًا واضحًا.

ثمَّ قال اللهُ تعالى أيضًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تعجَبُ مِن حالِ اليهود الَّذين آتاهم اللهُ نصيبًا مِن التَّوراةِ، ومع ذلك يؤمِنون بالجِبْتِ، وهو كلُّ ما لا فائدةَ فيه في الدِّين؛ كالسِّحرِ ونحوه، ويؤمنون كذلك بالطَّاغوت، وهو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع، ويقول هؤلاء اليهودِ للكفَّارِ: إنَّهم أقومُ وأعدلُ طريقًا من المؤمنين، أولئك اليهودُ قد طرَدهم اللهُ مِن رحمتِه، ومُن يَطرُدِ اللهُ مِن رحمتِه فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- أحدًا ينصُرُه ويتولَّاه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

فهل لهؤلاء اليهودِ نصيبٌ مِن المُلك حتَّى يفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائِهم، بل ليس لهم أيُّ نصيبٍ مِن المُلْك، فلو كان لهم لَمَا أعطَوْا أحدًا من النَّاس شيئًا أبدًا مهمَا قلَّ، أم أنَّ الدَّافعَ لهم حسَدُهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه على ما رزَقه اللهُ مِن النُّبوَّةِ؛ لكونِه مِن العربِ، وليس من بني إسرائيلَ، فلماذا يحسُدونهم، وليس هذا أوَّلَ فضلٍ يتفضَّلُ اللهُ به على عبادِه؟ فقد تفضَّل اللهُ على أسلافِهم من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فأعطاهم النُّبوَّةَ، وأنزَل عليهم الكتبَ، والحكمةَ، وآتاهم مُلكًا واسعًا كبيرًا؛ فمِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وبما أُنزِل إليه مِن قرآنٍ، ومنهم مَن لم يؤمِنْ بذلك، وصدَّ النَّاسَ عن الإيمانِ به، وحسْبُ هؤلاء الكفرةِ جهنَّمُ تُوقَدُ عليهم، ويُحرَقون فيها.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ الكافرينَ بآياتِ الله سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى نارًا تُحرِقُهم، كلَّما احترَقَتْ جلودُهم بتلك النَّارِ، أبدَلَهم اللهُ تعالى جلودًا غيرَها ليذوقوا ألَمَ العذابِ، إنَّ اللهَ كان عزيزًا حكيمًا.

وأمَّا مَن آمَن وعمِل صالحًا، فسيُدخلُهم اللهُ تعالى جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثين فيها على الدَّوامِ، لا انقطاعَ لتنعُّمِهم فيها، لهم فيها زوجاتٌ مطهَّراتٌ طهارةً حِسِّيَّةً من الأدناس، ومعنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلةِ، والصِّفات النَّاقصة، ويُدخِلُهم اللهُ تعالى ظلًّا ممتدًّا طيِّبًا.

تفسيرُ الآيات:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا هدَّد اللهُ سبحانه وتعالى اليهودَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فعند هذا قالوا: لسنا من المشركين، بل نحن خواصُّ اللهِ تعالى؛ كما حكى

تعالى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وحكى عنهم أنَّهم قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وحكى أيضًا أنَّهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، وبعضُهم كانوا يقولون: إنَّ آباءَنا كانوا أنبياءَ فيشفَعون لنا. وبالجملةِ فالقومُ كانوا قد بالَغوا في تزكيةِ أنفسِهم، فذكَر تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا عبرةَ بتزكيةِ الإنسان نفسَه، وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ اللهِ له[1]، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾

أي: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ هؤلاء اليهود والنَّصارى- ومَن نحا نحوَهم- في تزكيةِ أنفسهم؛ فيبرئونها من الذُّنوبِ والعيوب، ويزعمون لها من الخصائص والمُمَيِّزات ما ليس لها، افتراءً وكذبًا، ومن ذلك قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[2].

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تزعمون، وإنَّما المرجعُ في ذلك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ؛ فهو الَّذي يُزكِّي ويُثني على مَن يشاءُ مِن عبادِه ممَّن هو أهلٌ لذلك[3].

قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٤، ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩١-٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٨-١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٣-٣٩٤).
قال ابن عطية: (هذا لفظٌ عامٌّ في ظاهره، ولم يختلف أحدٌ من المتأولين في أنَّ المراد اليهود) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٥).

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: لا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين أخبَر عنهم أنَّهم يُزكُّون أنفسَهم، ولا غيرَهم مِن خَلقِه شيئًا، فلا يترُكُ لأحدٍ مِن الأجر شيئًا، حتَّى ما يوازنُ مقدارَ الخيطِ الَّذي في شَقِّ النَّواةِ وبطنِها[(١)].

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ تعالى أنَّ التَّزكيةَ إنَّما هي إليه بما له مِن العظَمةِ والعِلمِ الشَّاملِ، وكان ذلك أمرًا لا نزاعَ فيه، وشهِد عليهم بالضَّلالِ- زاد في توبيخهم فقال معجِّبًا لرسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من وقَاحتِهم واجترائِهم على مَن يعلَم كذبَهم، ويقدِرُ على معالجتِهم بالعذاب، مبيِّنًا أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الحضرةِ بعد بيانِ بُعدهم[(٢)]، قال:

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

أي: انظُرْ- يا محمَّدُ- كيف يفتري هؤلاء الَّذين يزكُّون أنفسَهم- مِن أهلِ الكتاب وغيرِهم- الكذِبَ والزُّورَ؛ مِن القولِ بتزكيتِهم أنفسَهم، فيختلِقون ذلك على الله جلَّ وعلا[(٣)].

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

أي: وحسبُهم بهذا الصَّنيعِ ذنبًا ظاهرًا، وافتراءً واضحًا يبيِّنُ كذبَهم لسامعيه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٢٩، ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٣-٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٢-٤٠٣).

ويوضِّحُ لهم أنَّهم أَفَكَةٌ فَجَرَةٌ، ويكون موجبًا لاستحقاقِهم العقوبةَ البليغةَ، والعذابَ الأليم[١].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا قدِم كعبُ بن الأشرفِ مكَّةَ، قالت له قريش: أنت خيرُ أهلِ المدينة وسيِّدُهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المُنبَتِرِ[٢] من قومِه، يزعُمُ أنَّه خيرٌ منَّا، ونحن أهلُ الحجيجِ وأهلُ السِّدانةِ[٣]؟ قال: أنتم خيرٌ منه، فنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ونزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾))[٤].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٣-١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) المُنْبَتِر: هو الذي لا وَلَدَ له. يُنظَر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٩٣).

(٣) السِّدانة: الخِدْمَة، وسِدانةُ الكَعبةِ: خِدْمَتُها وتَوَلِّي أَمْرِها، وفَتْحِ بابِها وإغلاقِه. يُنظَر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (١/ ٤٧٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٥).

(٤) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٥٢٤) (١١٧٠٧) واللفظ له، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ٤٦٦)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (١٨٨٢)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٤٤٠)، وابن حبان (٦٥٧٢).

صحح إسناده ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٥٢٥)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٤٨)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٧٧): الراجح إرسالُه.

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- مِن حال هؤلاء اليهود الَّذين آتاهم اللهُ تعالى حظًّا من التَّوراة، وقامتْ عليهم الحُجَّةُ، ومع ذلك يؤمِنون بالجِبْتِ والطَّاغوت[١]؟

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

أي: يقولُ أولئك اليهودُ عن الكفَّار بأنَّهم أقومُ وأعدَلُ طريقًا من المؤمِنين[٢].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: هؤلاء الذين وصفَهم بأنَّهم أوتوا نصيبًا من الكتابِ، وأنَّهم يؤمنون بالجبتِ والطاغوتِ، قد أبعَدهم اللهُ تعالى، وطرَدهم من رحمتِه[٣].

﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

أي: ومَن يطرُدْه اللهُ تعالى من رحمتِه، فلن تجدَ له- يا محمَّدُ- مَن ينصُرُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فيتولَّاه ويقومُ بمصالحِه، ويحفَظُه عن المكارهِ[٤].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٨).
قال ابن عطية: (الآيةُ ظاهرُها يعمُّ اليهودَ والنَّصارى، ولكن أجمَع المتأولون على أنَّ المرادَ بها طائفةٌ من اليهود، والقصص يبين ذلك) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤١-١٤٢، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٢-١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٩-٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٠).

لَمَّا كانت النَّفسُ الإنسانيَّةَ لها قوَّتانِ: القوَّةُ العالِمة، والقوَّة العاملة؛ وكمال القوَّة العالِمة: العِلم، ونقصانُها: الجهل، وكمالُ القوَّة العاملة: الأخلاقُ الحميدة، ونقصانها: الأخلاقُ الذَّميمة، وأشدُّ الأخلاقِ الذَّميمة نقصانًا: البُخل والحسَد؛ لأنَّهما مَنشآنِ لعود المضارِّ إلى عباد الله- لذا وصَف الله تعالى اليهودَ في الآية المتقدِّمةِ بالجهل الشَّديد، وهو اعتقادُهم أنَّ عبادةَ الأوثان أفضلُ من عبادة الله تعالى، ووصَفهم في هذه الآية بالبُخلِ والحسَدِ[1] فقال:

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

أي: أم لهم حظٌّ من مُلكِ الله تعالى حتَّى يُفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائهم، بحيث يمنَعون فضلَ الله سبحانه على نبيِّه وأتباعِه، ويجعلون الفضلَ لهؤلاء الكفَّار؟ والمعنى: ليس لهم حظٌّ من المُلكِ ليفعَلوا ذلك[2].

﴿فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾.

أي: ولو كان لهم حَظٌّ من المُلكِ، لَمَا أعطَوْا أحدًا مِن النَّاس شيئًا ولو كان قليلًا، ولا ما يملأُ النُّقطة الَّتي على ظهرِ النَّواةِ، مِن شدَّة بُخلِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٩، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٣).

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: أمِ الحاملُ لهم على ذلك حَسَدُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه على ما رزَقه الله تعالى من النُّبوَّةِ العظيمة؛ لكونه من العربِ، وليس من بني إسرائيلَ[١]؟

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

أي: ليس هذا أوَّلَ فضلٍ تفضَّلْنا به على عباد الله، بل إنَّ الفضلَ قد وُجِدَ من قبلُ في أسلافِكم من ذُرِّيَّة إبراهيمَ عليه السَّلام؛ حيث أعطاهم اللهُ تعالى النُّبوَّة، وأنزَل عليهم الكتبَ، وآتاهم الحِكمةَ، وهي ما أوحاه اللهُ تعالى إليهم ممَّا سوى الكتبِ الإلهيَّة، وآتاهم الملك الواسِعَ الكبير؛ كمُلك سليمانَ عليه السَّلام[٢].

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾.

أي: فمِن أهل الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبالقرآنِ الَّذي أُنزل إليه، ومنهم مَن أعرَض عن ذلك ولم يُؤمِنْ، وسعَى في صَرْف النَّاس عن الإيمانِ بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٥٣-١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٥٨، ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦١-١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣).

قال الواحديُّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، قال ابنُ عبَّاس، والأكثرون: مِن أهلِ الكتاب مَن آمَن بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم) ((التفسير الوسيط)) (٢/ ٦٨).

وقال ابنُ عطية: (﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ الآية، اختلَف المتأوِّلون في عَوْد الضمير مِن ﴿بِهِۦ﴾؛

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

أي: وحسْبُهم النَّارُ تُوقَدُ عليهم، فيُحرَقون فيها؛ عُقوبةً لهم على كفرِهم[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَما ذكَر الوعيد بالطَّائفة الخاصَّة مِن أهل الكتابِ، بيَّن ما يعُمُّ الكافرين مِن الوعيد فقال[٢]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾.

أي: إنَّ الكافرين بآياتِ الله عزَّ وجلَّ- سواءٌ الآياتُ الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّة- سيُدخِلُهم اللهُ تعالى النَّارَ؛ فيحترِقون فيها[٣].

﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾.

أي: كلَّما انشوَتْ جلودُهم بالنَّارِ فاحترقتْ، أبدَلهم اللهُ تعالى بجلودٍ أخرى؛

فقال الجمهور: هو عائدٌ على القرآنِ الذي في قولِه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا﴾ ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٨).

وقيل: فمِنْ آل إبراهيم مَن آمَن بالذي أُوتوه من الكتاب والحِكمة، ومِنهم مَن أعْرَض عن ذلك، فلم يُؤمِن، وسعَى في صَرْف الناس عن الإيمانِ بذلك. وهو اختيار ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٣٦)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (١/ ٤٢٠-٤٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٢-٤٢٣).

فهُم على هذه الحالِ دائِمون[(١)].

﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾.

أي: ليجِدوا أَلَمَ العذابِ، وكَرْبَه، وشدَّتَه[(٢)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغالبُ القاهرُ، العزيزُ في انتقامِه؛ فلا يقدِر على الامتناعِ منه أحدٌ أراده بضُرٍّ، ولا الانتصارِ منه أحدٌ أحلَّ به عقوبةً، وهو الحكيمُ الَّذي له الحكمةُ في خَلْقِه وقدَرِه، وثوابِه وعقابِه[(٣)].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى وعيدَ الكفَّار، أعقَب بوعدِ المؤمنين، فقد جرَتْ عادةُ الله تعالى في هذا الكتابِ الكريمِ بأنَّ الوعدَ والوعيدَ يتلازمانِ في الذِّكر على سبيل الأغلبِ[(٤)]، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٤-٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠-٤٣١).

أي: والَّذين آمَنوا بالله ورسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما أنزل اللهُ عليه، وأدَّوا ما أمرهم الله عزَّ وجلَّ به من الطَّاعات، واجتنَبوا ما حرَّم اللهُ عليهم من المنهيَّات، مخلِصين لله تعالى، ومتَّبِعين في ذلك نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ يوم القيامة جنَّاتٍ تجري الأنهارُ في جميع فِجاجِها ومحَالِّها وأرجائِها، ومن تحتِ أشجارِها وقصورِها[٢].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ماكثين في تلك الجنَّاتِ على الدَّوام، بغير نهايةٍ ولا انقطاعٍ[٣].

﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

أي: لهم في تلك الجنَّات زوجاتٌ مطهَّرات طهارةً حِسِّيَّة من الأدناسِ؛ كالحيضِ، والغائط، والبول، والحَبَل، والبُصاق، والرَّائحة المنتِنة، وسائر ما يكون في نساء أهلِ الدُّنيا، ومطهَّراتٌ طهارةً معنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلة، والصِّفات النَّاقصة[٤].

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٧-١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣١-٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٤-٤٣٦).

أي: ونُدخِلُهم ظلًّا كنينًا غزيرًا طيِّبًا ممتدًّا، لا يَستحيلُ ولا ينتقل[١].

كما قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- النَّهيُ عن تزكيةِ النَّفس، والإنكارُ على مَن يزكِّي نفسَه؛ وجه ذلك أنَّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، كما صرَّح به في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[٢] [النجم: ٣٢].

٢- أنَّ تزكيةَ الغيرِ لا بأس بها؛ لأنَّ النَّهيَ أو الإنكارَ مُنصبٌّ على تزكيةِ النَّفس، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾، أمَّا لو زكَّى غيرَه فإنَّ ذلك لا بأسَ به، ويَنبغي ألا يُزكِّي غيرَه بمجرَّدِ المَظْهرِ، بل لا بدَّ من خِبرةٍ[٣].

٣- أنَّه يجبُ على الإنسان أنْ يلجأَ في طلب التَّزكيةِ إلى الله؛ لقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾، فأنت إذا علِمتَ أنَّ اللهَ هو الَّذي يزكِّي فاسألِ اللهَ[٤].

٤- تزكيةُ النَّفس تكون بالعملِ الَّذي يجعَلُها زاكيةً، أي: طاهرةً كثيرةَ الخير والبركة، فتزكيةُ النَّفس بالفعل عبارةٌ عن تنميةِ فضائلِها وخَيراتها، ولا يتمُّ ذلك إلَّا باجتنابِ الشُّرور الَّتي تُعارضُ الخيرَ وتعُوقه، وهذه التَّزكيةُ محمودةٌ، وهي المرادةُ بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: نفسَه، وتكون بالقول، وهو ادِّعاءُ الزَّكاءِ والكمال، ومنه تزكيةُ الشُّهود، وقد أجمَع العقلاءُ على استقباحِ تزكيةِ المرء لنفسِه بالقول، ومدحِها ولو بالحقِّ، ولَتزكيتُها بالباطل أشدُّ قُبحًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾، وهذا النَّوعُ مِن التَّزكية

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٩٩).

مصدرُه الجهلُ والغرورُ، ومِن آثاره العتوُّ والاستكبارُ عن قَبولِ الحقِّ، والانتفاعِ بالنُّصحِ[١].

٥- التَّحذيرُ من التَّعرُّض لِلَعنة الله؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تعرَّض لِلَعنة الله، وحقَّت عليه لن يجدَ مَن يَنصُره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[٢].

٦- بيانُ أنَّ الله أنعَم على هؤلاء الحسَدةِ بما ذكَره في قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ الآية؛ فلا وجهَ للحسَدِ مع ما أعطاهم اللهُ تعالى من الفَضْل، وهذا أيضًا مِن الدَّواءِ الَّذي يُداوي به الإنسانُ الحسَدَ، فيقول مثلًا: ما لي أحسُدُ فلانًا، وقد أعطاني اللهُ كذا وكذا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- الرَّدُّ على القدَريَّةِ، الَّذين يقولون باستقلالِ الإنسانِ في عملِه، ويؤخذ من قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[٤].

٢- إثباتُ المشيئةِ لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، وأنَّ الله سبحانه له مشيئةٌ، يدبِّر الأمرَ بحسَب هذه المشيئة، ولكنَّ هذه المشيئةَ ليست مشيئةً مجرَّدةً عن الحكمة، بل هي مشيئةٌ مقرونة بالحِكمة[٥].

٣- نفيُ الظُّلم عن الله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وليس في صِفاتِ الله ما هو نفيٌ محضٌ؛ فكلُّ نفيٍ في صفاتِ الله فهو متضمِّنٌ لإثبات؛ فقوله: ﴿وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٠).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾، أي: لأنَّ الله كاملُ العدل، ومَن كان كاملَ العدل فإنَّه لا يَظلِمُ فتيلًا[(١)].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يدلُّ على أنَّ الله تعالى يَجزي كلَّ عاملِ خيرٍ بعمله، وإنْ كان مشرِكًا؛ لأنَّ لعملِه أثرًا في نفسه يكونُ مناطَ الجزاء، فإذا لم يصِلْ تأثيرُ عملِ المشرِكِ إلى الدَّرجة الَّتي يكون بها النَّجاةُ من العذاب ألبتَّةَ، فإنَّ عمله ينفعُه بكون عذابِه أقلَّ مِن عذابِ مَن لم يعمَلْ من الخير مِثلَ عملِه[(٢)].

٥- دعوة الإنسانِ إلى العجَبِ فيما يُتعجَّبُ منه، وأنَّ هذا من طُرُقِ القرآن؛ لقوله: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ ﴾[(٣)].

٦- تعظيمُ الكذِبِ على الله؛ لأنَّه لم يؤمَرْ بالتَّعجُّبِ منه إلَّا لأنَّه شيءٌ عظيم؛ ولقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾، يعني: ما أعظَمَه وما أكثَرَه، إذا افترى على الله الكذِبَ أن يأثَمَ هذا الإثمَ[(٤)]!

٧- بيانُ قُبحِ صَنيعِ المذكورينَ في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ...﴾ الآية؛ حيث إنَّ اللهَ قد أعطاهم نصيبًا من الكتاب، ومع ذلك قالوا للكفَّار: إنَّهم أهدى من المؤمنين، ومعلوم أنَّ مَن حكَم بخلاف ما يعلَمُ فهو أقبحُ ممَّن حكَم بما لا يعلَمُ، والكلُّ قبيحٌ، لكن الأوَّل أشدُّ[(٥)]!

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٠٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٠٤، ٤٠٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤١١).

٨- بيانُ استحقاقِ مَن آمَن بالجِبْتِ والطَّاغوت، وقال للَّذين كفروا: إنَّهم أهدى من الَّذين آمنوا سبيلًا- لِلَعنةِ الله، وبيانه أنَّ كلَّ مَن قال مِثل هذا القول فإنَّه مستحِقٌّ لِلَعنة الله؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾، وأحكامُ الله سبحانه الشَّرعيَّةُ والجزائيَّةُ لا تتعلَّقُ بالأشخاص أبدًا، فإذا استحقَّ هؤلاء اللَّعنَ بإيمانِهم بالجِبْتِ والطَّاغوت، وقولِهم: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾؛ فمَن جرى مجراهم استحقَّ ما يستحقُّون من العقاب(١).

٩- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ...﴾، هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ سببَ لعنِ اللهِ للأُمَمِ هو إيمانُها بالخُرافاتِ والأباطيل والطُّغيان، وأنَّه تعالى إنَّما ينصُرُ المؤمنين باجتنابِهم ذلك، فليُحاسبِ المسلِمون أنفسَهم بها وبما في معناها من الآياتِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]؛ ليتبيَّنَ لهم مِن كتابِ ربِّهم صِدقُهم في دعْوى الإيمان من عدمِه، ولعلَّهم يَرجِعون إليه، ويُعوِّلون في أمرِ دِينهم ودُنياهم عليه(٢).

١٠- تأثيرُ الدِّعاية بلَبْس الحقِّ بالباطل، وإلَّا فمن المعلومِ أنَّ الكافرَ فيما يرمي إليه أو فيما يذهب إليه، ليس فيه هدايةٌ إطلاقًا، ومع ذلك قالوا: إنَّهم ﴿أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾. ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: ما عليه بعضُ النَّاس اليومَ من قوله: إنَّ الكفَّار أوفى بالعهد من المؤمنين، وإنَّهم أخلصُ مِن المؤمنين، وأنصحُ من المؤمنينَ، وما أشبهَ ذلك، فمَن قال هذا في المسلمين، فإنَّ فيه شَبَهًا من اليهود، ونحن لا نُنكِر أنَّ في المسلمين مَن خالَف طريقَ الإسلامِ بعدمِ الصِّدق

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٢٩).

في القول، وعدمِ الوفاءِ بالعهدِ، وعَدَمِ الوفاء بالوعدِ، وعدم النُّصح في العمل، ولكنْ كلُّ هذه الأخلاق حذَّر منها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أشدَّ التَّحذير؛ فهي أخلاقٌ دخيلة على المُسْلمين، وسببُها ما كان عليه هؤلاء من النَّقصِ في العِلم وفي الإيمان(١).

١١- تحريمُ تفضيلِ الكفَّار على المؤمنين؛ لأنَّ الله تعالى أنكَره بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ إلى آخره(٢).

١٢- قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيه أنَّ الحسَدَ لا يحصُلُ إلَّا عند الفضيلة، فكلَّما كانت فضيلةُ الإنسان أتمَّ وأكملَ كان حسَدُ الحاسدينَ عليه أعظمَ، ومعلومٌ أنَّ النُّبوَّة أعظمُ المناصبِ في الدِّين، ثمَّ إنَّه تعالى أعطاها لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وضمَّ إليها أنَّه جعَله كلَّ يومٍ أقوى دولةً، وأعظَمَ شوكةً، وأكثرَ أنصارًا وأعوانًا، وكلُّ ذلك ممَّا يوجِبُ الحسَدَ العظيمَ(٣).

١٣- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فيه بيانُ أنَّ الحسَدَ كما يكونُ على المالِ والجاهِ، يكونُ على الدِّينِ والعِلْمِ(٤).

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ المراد بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ كمالُ العِلم، وأمَّا المُلكُ العظيمُ فهو كمالُ القُدرة، وقد ثبَتَ أنَّ الكمالاتِ الحقيقيَّةَ ليستْ إلَّا العِلمَ والقدرةَ؛ فهذا الكلامُ تنبيهٌ على أنَّه سبحانه آتاهم أقصى ما يَليقُ بالإنسانِ من الكمالاتِ، ولَمَّا لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٤).
(٤) ((جامع المسائل)) لابن تيمية (ص:٥٢).

يكُنْ ذلك مستبعَدًا فيهم لا يكونُ مستبعَدًا في حقِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

١٥- وتَضمَّن قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ...﴾ تسلية الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في كونِهم يحسُدونه ولا يتَّبِعونه، فذكَر أنَّهم أيضًا مع أسلافِهم وأنبيائِهم انقسَموا إلى مؤمنٍ وكافرٍ، هذا وَهُم أسلافُهم، فكيف بنبيٍّ ليس هو منهم[٢]؟!

١٦- أنَّ الإحساسَ إنَّما يكونُ في الظَّاهر؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ فهي الَّتي يقعُ عليها العذابُ، والعياذُ بالله، هذا هو الظَّاهرُ[٣].

١٧- إثباتُ الحكمة لله عزَّ وجلَّ في أفعالِه، وتؤخذ من قوله: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾، وهكذا كلَّما رأيتَ لامَ التَّعليلِ بعد حُكمٍ كونيٍّ أو شرعيٍّ، فإنَّها تُفيدُ إثباتَ الحكمة لله عزَّ وجلَّ[٤].

١٨- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ... لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ إثباتُ غضَبِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العذابَ لا يكون عن رضًا، بل عن غضَبٍ، لكن الاستدلالَ بهذه الآية على الغضبِ مِن بابِ الاستدلالِ باللَّازم[٥].

١٩- أنَّ أهلَ الجنَّة يُنعَّمون في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لقوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾؛ لأنَّ السِّينَ تدلُّ على القُربِ، وأنَّ أصحابَ الجنَّة هم في الجنَّة في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لأنَّه لا أحدَ أطيبُ عيشًا ممَّن آمَن وعمِل صالحًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٢٩).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٨).

٢٠- إنَّما قدَّم تعالى ذِكرَ الكفَّار ووعيدَهم، على ذِكرِ المؤمنين ووعْدِهم؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذِكْر المؤمنين بالعَرَض[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله تعالى:** ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ في تصدير الجملةِ بـ (بل) تصريحٌ بإبطالِ تزكيتهم، وأنَّ الَّذين زكَّوْا أنفسَهم لا حظَّ لهم في تزكيةِ الله، وأنَّهم ليسوا ممَّن يشاءُ اللهُ تزكيتَه، ولو لم يذكر (بل) فقيل: واللهُ يُزكِّي مَن يَشاء، لكان لهم مطمَعٌ أنْ يكونوا ممَّن زكَّاه الله تعالى[٢].

٢- **قوله:** ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ جعَل افتراءَهم الكذبَ لشِدَّة تحقُّقِ وقوعه، كأنَّه أمرٌ مَرئيٌّ ينظرُه النَّاسُ بأعينهم، وإنَّما هو ممَّا يُسمَعُ ويُعقَلُ[٣].

- وفيه تلوينُ الخِطاب في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ حيث أقام المضارعَ مقامَ الماضي؛ إعلامًا أنَّهم مستمرُّون على ذلك[٤].

٣- **قوله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيه مِن معنى البُعد مع قُربهم في الذِّكر؛ للإشعارِ ببُعدِ منزلتِهم في الضَّلال، والجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِهم، وإظهارِ مصيرِهم ومآلِهم[٥].

٤- **قال تعالى:** ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾:

- **قوله:** ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾: ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ تُفسَّرُ بـ(بل) وهمزةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٩).

الاستفهامِ، أي: بلْ أَلَهم، والاستفهامُ فيه إنكاريٌّ، حُكمُه حُكم النَّفي، ومعناه التَّوبيخُ والتَّقريع، وإنكارُ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ من المُلْك، وجَحْدٌ لِما زعَمَت اليهودُ مِن أنَّ المُلك سيصير إليهم، ويجوز أن يكون المعنى إنكارَ أنَّهم أوتوا نصيبًا من المُلك على الكِناية، وأنَّهم لا يؤتونَ النَّاسَ شيئًا[١].

- **قوله:** ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾: فائدة (إذًا) تأكيدُ الإنكار والتَّوبيخ؛ حيث يجعَلون ثبوتَ النَّصيبِ سببًا للمنعِ، مع كونه سببًا للإعطاء[٢].

- وفيه: تَعريضٌ؛ حيث عرَّض بشدَّة بُخلِهم[٣].

٥- **قال تعالى:** ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾:

- **قوله:** ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾: ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ بمعنى (بل)، وهمزةِ الاستفهامِ لإنكارِ الحسَدِ واستقباحِه[٤].

- **قوله:** ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: فيه إجراءُ الكلام على سَنَنِ الكبرياءِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ بطريق الالتِفاتِ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالأمر[٥].

- **قوله:** ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: في وصْفِ المُلك بالعِظَم، وتنكيرِه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٠).

التَّفخيميِّ مِن تأكيد الإلزامِ، وتشديدِ الإنكار ما لا يَخفَى[١].

٦- **قوله:** ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ كلمة (سوف) تُذكَر للتَّهديد والوعيد، وينوبُ عنها السِّين، وقد يُذكرانِ في الوعدِ فيُفيدان التَّأكيد، أي: ندخلُهم نارًا عظيمة هائلةً[٢].

٧- **قوله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ واقعٌ موقعَ التَّعليل لِمَا قبله؛ فالعزَّة يتأتَّى بها تمامُ القُدرة في عقوبةِ المجترئ على الله، والحكمة يتأتَّى بها تلك الكيفيَّةُ في إصلائِهم النَّارَ[٣]. مع تأكيد الخبرِ بـ: (إنَّ) واسميَّةِ الجملة.

- وإظهار الاسم الجليلِ (الله) بطَريقِ الالتفات؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المَهابة، وتعليلِ الحُكم[٤].

٨- **قوله:** ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: (ظليلًا) صفةٌ مشتقَّة من الظِّلِّ؛ لتأكيده[٥]؛ للدَّلالةِ على بلوغِه الغايةَ في جِنسِه[٦].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٠).

الآيتان (٥٨ - ٥٩)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: (نِعمَّا) كلمةٌ مركَّبة من (نِعم) و(مَا)، أي: نعمَ شيئًا يعِظُكم به[1].

﴿تَأۡوِيلًا﴾: أي: عاقبةً ومعنًى وثوابًا في الآخِرة، والتَّأويل مِن أَوَل، أي: رجَع إلى الأصل، ومنه قِيل: مَوْئِل، للموضِعِ الَّذي يُرجَع إليه، وهو ردُّ الشَّيء إلى الغاية المرادة منه[2].

مُشكِلُ الإعراب:

قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ... أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾

﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾: مصدر مؤوَّل بالصَّريح- أي: (تَأْدِية)، ومثله ﴿أَنْ تَحْكُمُوا﴾، أي: حُكْم- وهو في مَوضِع نصْب؛ إمَّا على إسقاط حرف الجرِّ (نزْع الخافض)، وأَصله: بِأَنْ تُؤَدُّوا، وَبِأَنْ تَحكُموا؛ لأنَّ حذفه يطَّرد مع (أنْ)[3] إذا أُمِن اللَّبس لطولهما بالصِّلة، وإمَّا لأنَّ الفعل (أَمَرَ) يَتعدَّى إلى المفعول الثاني بنفسه، نحو: (أمرتك الخير)[4].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠، ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٣) وعلى هذا يَجري الخلافُ في محلِّها: أهي في محلِّ نصب، أم جَرٍّ.

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾: معطوف على ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾، أي: يأمُركم بتأديةِ الأمانات، وبالحُكمِ بالعَدل، فيكون فيه فصلٌ بين حرْف العطف والمعطوف بالظَّرف[(١)].

وقيل: ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾ المذكور مفسِّرٌ للمحذوف مِن عامل ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ حيث إنَّه قد حُذِف فعلٌ، تقديرُه: يأمُركم أن تَحكُموا إذا حكمتم؛ فلا موضعَ لـ ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾؛ لأنَّه مُفسِّرٌ للمحذوف، والمحذوف مفعولُ ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾، ولا يجوز أن يعمل ﴿أَن تَحۡكُمُواْ﴾ في ﴿إِذَا﴾؛ لأنَّ معمولَ المصدر لا يَتقدَّم عليه[(٢)].

المَعْنى الإجماليُّ:

يأمُر الله عباده بردِّ الأمانات إلى أصحابها، وأن يحكُموا بالعدل إذا حكَموا بين النَّاس، ونِعْم ما يأمرهم اللهُ به من أداء الأمانات والحُكم بالعَدْل بين النَّاس، إنَّ الله كان سميعًا بصيرًا.

ثمَّ أمر الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بطاعَتِه سبحانه، وطاعةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنْ يُطيعوا من يتولَّون أمورَهم الدِّينيَّةَ والدُّنيوية، وهم العلماءُ والأمراء، يطيعونهم فيما لا يخالِفُ طاعةَ الله، وطاعةَ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُرشِدُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين إلى أنَّه في حال اختلفوا في شيءٍ مِن أَمْر دِينهم، فَلْيطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتاب الله تعالى، وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، إن كانوا يؤمنونَ بالله واليومِ الآخِر، ذلك خيرٌ لهم، وأفضلُ، في دِينهم ودنياهم وآخِرَتِهم.

(١/ ٣٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩-١٢).

(١) وهي مسألةُ خلافٍ. يُنظر في تفصيلها وتحريرها: ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (٤/ ١٠)، وكتُب النحو عمومًا.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩-١٢).

تفسيرُ الآيتين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حكى عن أهلِ الكتابِ أنَّهم كتَموا الحقَّ، وذَكَر مِن أحوالِهم في تحريفِهم الكلِمَ عن مواضعه، وليِّهم ألسِنَتَهم، وافترائِهم على الله الكذبَ، وحسَدِهم بإنكارِ فضلِ الله؛ إذ آتاه الرَّسولَ والمؤمنينَ، وقولِهم للَّذين كفروا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ كلُّ ذلك يشتمِلُ على خيانةِ أمانةِ الدِّين، والعِلم، والحقِّ، والنِّعمة، وهي أماناتٌ معنويَّة- فناسَب أن يُعقِّبَ ذلك بالأمر بأداءِ الأمانة الحسِّيَّة إلى أهلِها، ويتخلَّص إلى هذا التَّشريعِ، فأمَر المؤمنينَ بأداءِ الأماناتِ في جميعِ الأمور، سواءٌ كانت تلك الأمورُ من باب المذاهبِ والدِّياناتِ، أو من باب الدُّنيا والمعاملاتِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى وعْدَ المؤمنينَ، وما لهم من الثَّوابِ العظيم، وذكَر عمَل الصالحاتِ، نبَّه على عملينِ شريفينِ مِن أَجَلِّ الأعمالِ الصالحةِ، مَن اتَّصَفَ بهما كان أحرى أن يتَّصفَ بغيرهما من الأعمال الصَّالحة؛ فأحدُهما: ما يختصُّ به الإنسانُ فيما بينه وبين غيره؛ وهو أداءُ الأمانة، والثَّاني: ما يكونُ بين اثنينِ من الفَصْل بينهما بالحُكْم العدلِ الخالي عن الهوى، وهو مِن الأعمالِ العظيمة الَّتي أمر الله بها رسلَه وأنبياءه والمؤمنينَ، ولَمَّا كان الترتيبُ الصَّحيح أن يبدأَ الإنسانُ بنفسِه في جَلْبِ المنافع ودفعِ المضارِّ، ثمَّ يشتغلَ بحال غيره، أمَر بأداءِ الأمانة أوَّلًا، ثمَّ بعده أمَر بالحُكم بالحقِّ[(٢)] فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٤)، وينظر ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٨).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

أي: إنَّ مَن له الألوهيَّةُ والحُكم عزَّ وجلَّ، يأمركم بأن تردُّوا كلَّ ما اؤْتُمِنْتم عليه إلى أصحابه، سواءٌ كان من حقوقِ الله تعالى، أو مِن حقوقِ عباده؛ فرُدُّوه كاملًا موفَّرًا، من غير نقصٍ، ولا بخسٍ، ولا مماطلةٍ[١].

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾.

أي: ويأمُرُكم اللهُ تعالى أيضًا بالحُكم بالعدل في كلِّ شيء، ومع كلِّ أحدٍ من النَّاس؛ وذلك بالحُكم بشريعةِ الله تعالى، فهي العدل كُلُّه[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾.

أي: ونِعم الشَّيءُ يعِظُكم به ربُّكم سبحانه وتعالى في أمرِه لكم- أداءُ الأماناتِ إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

أي: إنَّه سبحانه سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأفعالكم، ومن ذلك أداءُ الأمانات إلى أهلِها، وحُكمُكم بين النَّاس[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٨-٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٣-١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤١).

شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمر سبحانه الرُّعاةَ والوُلاة بالعدلِ في الرَّعيَّة، ورغَّب فيه ورهَّب مِن تَرْكِه، أمَرَ الرَّعيَّة بطاعة الولاةِ[1].

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، قال: ((نزَلت في عبدِ الله بن حُذَافةَ بن قيس بن عدي؛ إذ بعَثه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في سَريَّة))[2].

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّه عنه، قال: ((بعَث النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَرِيَّةً، فاستعْمَل رَجُلًا مِن الأنصارِ، وأمَرهم أنْ يُطيعوه، فغَضِب، فقال: أليس أمرَكُم النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ تُطِيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجْمعوا لي حَطَبًا. فجَمَعوا، فقال: أوْقِدُوا نارًا. فأوْقَدوها، فقال: ادْخُلوها. فهَمُّوا، وجعَل بعضُهم يُمْسِكُ بعضًا، ويقولون: فرَرْنا إلى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النَّارِ. فما زالوا حتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فسكَن غضَبُه، فبلَغ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: لو دَخَلوها ما خَرَجوا منها إلى يومِ القيامةِ، الطَّاعةُ في المعروفِ))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣١٠).

وذلك لأنَّ الطَّاعةَ لهم هي مظهرُ نفوذ العدل الَّذي يحكُمُ به حكَّامهم؛ فطاعة الرَّسول تشتمل على احترام العدلِ المشرع لهم وعلى تنفيذه، وطاعة ولاة الأمور تنفيذٌ للعدل، وأشار بهذا التَّعقيب إلى أنَّ الطَّاعة المأمورَ بها هي الطَّاعةُ في المعروف. ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٥٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٣٤٠) ومسلم (١٨٤٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون أطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسوله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلك بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما[1].

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

أي: وأطيعوا أيضًا الوُلاةَ عليكم الَّذين يَلُون لكم أمورَ دِينكم ودنياكم، وهم الأمراء والعُلماء؛ فأطيعوهم فيما لم يكُنْ فيه مخالفةٌ لطاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام[2].

عن عليٍّ بن أبي طالب رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[3].

وفي رواية: ((لا طاعةَ في معصيةِ اللهِ، إنَّما الطَّاعة في المعروفِ))[4].

وعن عُبادة بن الصَّامتِ رضِي اللهُ عنه، قال: ((بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم على السَّمعِ والطَّاعة في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ[5]، وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، وأن نقومَ- أو: نقولَ- بالحقِّ حيثُما كنَّا لا نَخافُ في اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ))[6].

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

أي: فإن اختلفتم- أيُّها المؤمنون- في شيءٍ مِن أمرِ دِينكم؛ مِن أصولِه وفروعِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٧٤-١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٦-٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣-١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٧).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠) واللفظ له.

(٤) رواه مسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) المنْشَطِ والمَكْرَه: يعني المحبوب والمكروه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٦٩).

(٦) رواه البخاري (٧١٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

فاطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتابِ الله تعالى، وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم[(١)].

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

أي: افعلوا ذلك إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومؤمنين بالآخرة أيضًا[(٢)].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

أي: ردُّكم لِما اختلفتُم فيه إلى الكتاب والسُّنَّة خيرٌ لكم وأفضلُ، في دِينكم ودنياكم وآخرتِكم، وأحسنُ عاقبةً[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- معاملة الإنسانِ إمَّا أن تكونَ مع ربِّه أو مع سائر العبادِ، أو مع نفسِه، ولا بدَّ من رعايةِ الأمانةِ في جميع هذه الأقسام الثَّلاثة، أمَّا رعايةُ الأمانةِ مع الرَّبِّ: فهي في فِعلِ المأمورات وتَرْك المنهيَّاتِ، **وأمَّا القِسْم الثَّاني**: وهو رعايةُ الأمانة مع سائر الخَلْقِ، فيدخُلُ فيه ردُّ الودائع، ويدخُلُ فيه تركُ التَّطفيفِ في الكَيل والوزن، ويدخل فيه ألَّا يُفشيَ على النَّاس عيوبَهم، ويدخلُ فيه عدلُ الأمراء مع رعيَّتِهم، وعدلُ العلماء مع العوامِّ؛ بألَّا يَحْمِلوهم على التَّعصُّبات الباطلة، بل يرشدونهم إلى اعتقاداتٍ وأعمالٍ تنفَعُهم في دنياهم وأخراهم، ويدخل فيه أمانةُ الزَّوجة للزَّوج في حفظِ فرجِها، وفي ألَّا تُلحِقَ بالزَّوج ولدًا يُولَدُ من غيره، وغيرها، **وأمَّا القِسْم الثَّالث**: وهو أمانةُ الإنسان مع نفسِه؛ فهو ألَّا يختارَ لنفسه إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٤-١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

ما هو الأنفعُ والأصلحُ له في الدِّين والدُّنيا، وألَّا يُقدِمَ بسبب الشَّهوة والغضبِ على ما يضُرُّه في الآخرة[١].

٢- وجوبُ أداء الشَّهادة على الشَّاهد كما تحمَّلَها؛ لأنَّ الشَّاهدَ مؤتَمَنٌ، فيجبُ عليه أن يؤدِّيَ الشَّهادةَ كما تحمَّلَها من غير زيادةٍ ولا نقص، وهل يجوز أن يؤدِّيَها بالمعنى؟ الجواب: نَعم، إذا كان عالِمًا بالمعنى، ولم يحدُثْ ما يتغيَّرُ به المعنى، فإنَّه لا بأس أن يؤدِّيَها بالمعنى[٢].

٣- قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ فيه التَّعبيرُ بالعدل دون المساواة، التي شُغِف بالتعبير بها كثيرٌ من العصريِّين، ولا تكادُ تجدُ أحدًا منهم يقول: الدِّينُ الإسلاميُّ دِينُ العَدْلِ، بل يقولُ: الدِّينُ الإسلاميُّ دِينُ المساواة؛ مما جعل المرأة تقول: لا بدَّ أن أُعامَلَ كما يعامَلُ الرَّجلُ، وجعل الرَّجلَ السَّاقطَ الَّذي لا خيرَ فيه يقول: لا بدَّ أن أعامَلَ كما يعامَلُ الشَّريفُ، وهلمَّ جرًّا، لكن إذا استعملنا العَدْلَ، فمعناه أن نُنْزِلَ كلَّ إنسانٍ منزلتَه[٣].

٤- الرَّدُّ إلى اللهِ ورسوله شرطٌ في الإيمانِ؛ فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدلَّ ذلك على أنَّ مَن لم يرُدَّ إليهما مسائلَ النِّزاعِ فليس بمؤمنٍ حقيقةً[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ...﴾ هاتانِ الآيتانِ هما أساسُ الحُكومة الإسلاميَّةِ، ولو لم يَنزِلْ في القرآن غيرُهما لكَفتَا المسلِمين في ذلك، إذا هم بنَوْا جميعَ الأحكامِ عليهما[١]، فأداءُ الأماناتِ إلى أهْلِها، والحُكْم بين النَّاس بالعَدْل هما جِماعُ السِّياسة العادِلَة، والوِلاية الصَّالحَة[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ هذه الآيةُ من أمهَّات الأحكامِ؛ تَضَمَّنَت جميعَ الدِّينِ والشَّرْع[٣]، فأداءُ الأماناتِ إلى أهْلِها، والحُكْم بين النَّاس بالعَدْل هما جِماعُ السِّياسة العادِلَة، والوِلاية الصَّالحَة[٤].

٣- وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ دلالةٌ على أنَّها لا تُدفَع وتؤدَّى لغير المؤتَمِن، ووكيلُه بمنزلتِه؛ فلو دفعها لغير ربِّها لم يكُنْ مؤدِّيًا لها[٥].

٤- من الأمانَةِ التي أمَرَ اللهُ تعالى أن تؤدَّى إلى أهْلِها في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾: أنْ يَقْصِدَ من يتصرَّفُ لغيره؛ مَصْلَحةَ من يتصرَّفُ له، ولا يقصِد هواه[٦].

٥- في قَوْلِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ الأمرُ بالحُكْمِ بالعَدْلِ، والعدْلُ هو الشَّرْع، وكتابُ الله تعالى هو المُبَيِّنُ للشَّرْع؛ فالكِتابُ والعَدْلُ متلازمان، ومَن حَكَمَ بالعَدْلِ فقد حَكَمَ بالشَّرْع، ولكنَّ كثيرًا من الناس يَنْسُبون ما يقولونَه إلى الشَّرْع، وليس

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٣٦).
(٢) ((السياسة الشرعية)) لابن تيمية (ص: ٦).
(٣) ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٥٥).
(٤) ((السياسة الشرعية)) لابن تيمية (ص: ٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٣).
(٦) ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٨٣).

من الشَّرْع؛ بل يقولون ذلك إمَّا جهلًا، وإمَّا غَلَطًا، وإمَّا عَمْدًا وافتراءً، وهذا هو الشَّرْعُ المبَدَّل الذي يستحِقُّ أصحابُه العقوبةَ؛ ليس هو الشَّرعَ المنَزَّلَ الذي جاء به جبريلُ مِن عِنْدِ الله إلى خاتَم المُرْسَلينَ؛ فإنَّ هذا الشَّرْعَ المنَزَّلَ كُلُّه عدلٌ، ليس فيه ظُلْمٌ ولا جَهْلٌ[1].

٦- أنَّ الأحكامَ الشَّرعيَّةَ تُسمَّى موعظةً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، مع أنَّه ليس فيها وعيدٌ، وليس فيها تهديدٌ، وإنَّما فيها بيانُ أحكامٍ[2].

٧- التَّناسقُ بين المأمورِ به من التَّكاليف، وهو أداءُ الأماناتِ، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس، وبين كونِ الله سبحانه ﴿سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ مناسبةٌ واضحةٌ ولطيفةٌ معًا.. فاللهُ يسمَعُ ويُبصِرُ قضايا العدل وقضايا الأمانة، والعدلُ كذلك في حاجةِ إلى الاستماع البصير، وإلى حُسن التَّقدير، وإلى مراعاةِ الملابَساتِ والظَّواهر، وإلى التَّعمُّقِ فيما وراء الملابَساتِ والظَّواهر، وأخيرًا فإنَّ الأمرَ بهما يصدُرُ عن السَّميعِ البصيرِ بكلِّ الأمور[3].

٨- أنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ في هذه الآيات بالحُكمِ على سبيل العدلِ وبأداءِ الأمانة، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، أي: إذا حكمتَ بالعدلِ فهو سميعٌ لكلِّ المسموعاتِ، يسمَعُ ذلك الحُكم، وإن أدَّيْتَ الأمانةَ فهو بصيرٌ لكلِّ المُبصَراتِ، يُبصِرُ ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا أعظمُ أسبابِ الوعد للمُطِيع، وأعظمُ أسباب الوعيد للعاصي[4].

٩- كلَّما كان احتياجُ العبدِ أشدَّ، كانت عنايةُ الله أكملَ، والقضاةُ والوُلاةُ

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١١).

قد فوَّض الله إلى أحكامِهم مصالحَ العباد، فكان الاهتمامُ بحُكمهم وقضائِهم أشدَّ؛ فهو سبحانه مُنزَّه عن الغفلةِ والسَّهو، والتَّفاوت في إبصار المبصَراتِ، وسماعِ المسموعات، ولكن لو فرَضْنا أنَّ هذا التَّفاوتَ كان ممكنًا، لكان أَولى المواضعِ بالاحترازِ عن الغفلةِ والنِّسيان هو وقتَ حُكمِ الولاة والقضاة، فلمَّا كان هذا الموضعُ مخصوصًا بمزيد العنايةِ، لا جرَمَ قال في خاتمة هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ فما أحسَنَ هذه المقاطعَ الموافِقةَ لهذه المطالعِ[(١)].

١٠- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إنَّما أُعِيد فِعلُ: (وأطيعوا الرَّسول) مع أنَّ حرفَ العطف يُغني عن إعادته؛ إظهارًا للاهتمامِ بتحصيل طاعةِ الرَّسول؛ لتكونَ أعلى مرتبةً من طاعةِ أُولي الأمر، ولينبِّهَ على وجوب طاعتِه فيما يأمُرُ به، ولو كان أمرُه غيرَ مقترنٍ بقرائنِ تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهَّمَ السَّامعُ أنَّ طاعةَ الرَّسول المأمورَ بها ترجعُ إلى طاعةِ الله فيما يُبلِّغُه عن الله دون ما يأمُرُ به في غير التَّشريعِ؛ فإنَّ امتثالَ أمرِه كله خيرٌ[(٢)]، وأيضًا ليفيد بيان الدَّلالتين؛ فالكتاب يدلُّ على أمرِ الله، ثمَّ نعلَمُ منه أمرَ الرَّسول لا محالةَ، والسُّنَّةُ تدلُّ على أمرِ الرَّسول، ثمَّ نعلَمُ منه أمرَ الله لا محالةَ، فثبَت بما ذكرناه أنَّ قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يدلُّ على وجوب متابعةِ الكتاب والسُّنَّة[(٣)].

١١- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فيه الأمرُ بطاعةِ أُولي الأمرِ مِن العُلماءِ والأمراءِ إذا لم يَتنازعوا؛ وهو يَقتضي أنَّ اتِّفاقَهم حُجَّةٌ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٢).
(٤) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٦٧).

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يَقُلْ: وإلى الرَّسولِ؛ فإنَّ الرَّدَّ إلى القرآنِ رَدٌّ إلى اللهِ والرَّسولِ، فما حَكَمَ به اللهُ تعالى هو بِعَيْنِه حُكْمُ رَسولِه، وما يحكُمُ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم هو بِعَيْنِه حُكْمُ الله؛ فإذا رَدَدْتُم إلى اللهِ ما تنازَعْتُم فيه- يعني كتابَهُ- فقد رَدَدْتُموه إلى رَسُولِه. وكذلك إذا رَدَدْتُموه إلى رسولِه فقد ردَدْتُموه إلى اللهِ، وهذا من أسرارِ القرآنِ[١].

١٣- قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فيه الأمرُ بالردِّ عندَ التنازُعِ إلى اللهِ والرسولِ، فأبطَلَ الرَّدَّ إلى إمامٍ مُقَلَّد، أو قياسٍ عقليٍّ فاضِلٍ[٢].

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾: جملةٌ مستأنَفة مُقرِّرة لِما قبلها، متضمِّنةٌ لمزيدِ لُطفٍ بالمخاطَبينَ، وحُسْنِ استدعاءٍ لهم إلى الامتثالِ بالأمرِ، و(إنَّ) فيها لمجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبَر؛ لظهورِ أنَّ مِثلَ هذا الخبرِ لا يقبَلُ الشَّكَّ حتَّى يُؤكَّدَ؛ لأنَّه إخبارٌ عن إيجاد شيءٍ لا عن وجوده، فهو والإنشاءُ سواءٌ[٣].

- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ فيه بيانُ عظَمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك حيث عبَّر عن نفْسِه تباركَ وتعالى بصيغةِ الغائِبِ التي تدُلُّ على التَّعظيمِ[٤].

٢- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ واقع موقعَ التَّحريضِ على امتثالِ الأمرِ، فكان بمنزلة التَّعليلِ، وأغنَتْ (إنَّ) في صَدْرِ الجملة عن ذِكر فاءِ التَّعقيبِ، كما

(١) ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤١).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٤١).

هو الشَّأن إذا جاءت (إنَّ) للاهتمامِ بالخبرِ دون التَّأكيدِ[١].

٣- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعدٌ ووعيدٌ، وإظهارُ الجلالة فيه تأكيدٌ لكلٍّ من الوعدِ والوعيدِ[٢]، مع ما في تأكيدِ الخبر بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملةِ.

٤- **قوله:** ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ نكِرة متوغِّلة في الإبهام؛ فهو في حيِّز الشَّرط يُفيدُ العموم، أي في كلِّ شيءٍ، فيصْدُقُ بالتَّنازعِ في الخُصومة على الحقوق، ويصدُقُ بالتَّنازع في اختلاف الآراء عند المشاوَرةِ، أو عند مباشَرةِ عملٍ ما؛ كتنازُعِ ولاةِ الأمورِ في إجراءِ أحوالِ الأمَّةِ، ولقد حسَّن موقعَ كلمةِ (شيءٍ) هنا تعميمُ الحوادثِ وأنواعِ الاختلافِ[٣].

٥- **قوله:** ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ شرطٌ، وجوابُه محذوفٌ، أي: فردُّوه إلى اللهِ والرَّسولِ، وهو شرطٌ يُرادُ به الحضُّ على اتِّباع الحقِّ؛ لأنَّه ناداهم أولًا بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فصار نظير: إنْ كُنتَ ابني فأَطِعْني. وفيه إشعارٌ بوعيدِ مَن لم يَرُدَّ إلى اللهِ تعالى والرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، وهو تحريضٌ وتحذيرٌ معًا؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وازعانِ يَزعانِ عن مُخالفةِ الشَّرعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠١).

الآيات (٦٠ - ٦٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن
قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ
وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا
أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا
إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن
رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ
فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا
وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَزْعُمُونَ﴾: يَكذِبون، والزَّعم: يُطلَق غالبًا على حِكايةِ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، وعلَى اعتقادِ الباطِل بتقوُّلٍ، والقَولِ مع الظَّنِّ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الذي لا سَنَدَ له، وإنَّما يُحكَى على الْأَلْسُنِ على سَبيلِ البَلاغِ، وقدْ يكونُ الزَّعم حَقًّا، وأصلُ (زعم): القولُ مِن غير صِحَّةٍ ولا يقينٍ[1].

﴿بَلِيغًا﴾: أي: قويًّا يَبْلُغُ شَغَافَ قلوبِهم لبَلاغَتِه وفَصاحتِه، ومن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكون صوابًا في موضوعِ لُغتِه، وطِبقًا للمعنى المقصودِ به، وصِدْقًا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((معجم الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٨).

في نفْسه. وأصل (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ[(١)].

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: فيما اختلَفوا فيه، واختلَط بينهم، والتَّشاجُر: المنازَعةُ، وأصْلُ (شجر): تداخُلُ الشَّيءِ بَعْضِه في بعضٍ[(٢)].

﴿حَرَجًا﴾: أي: شكًّا وضِيقًا، والحَرَج: الضِّيقُ والإثْمُ، وأصْلُ الحَرَج: تجمُّع الشَّيء وضِيقُه[(٣)].

المَعْنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ألَا تتعجَّبُ- يا محمَّدُ- مِن حالِ أولئك الَّذين يدَّعون كَذِبًا أنَّهم يؤمنونَ بالقرآنِ وبِغيرِه من الكُتُب السَّماويَّةِ السَّابقةِ، ومع ذلك يُريدون أن يتحاكَموا إلى غيرِ ما أنزَل اللهُ، وقد أُمِروا أن يكفُروا بالحُكمِ إذا كان كذلك، ويريدُ الشَّيطانُ أن يُغويَهم عن طريقِ الهدايةِ غَوايةً شديدةً.

وإذا قيل لهم: تعالَوْا إلى ما أنزله اللهُ تعالى في كتابه وفي سنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، رأيتَ هؤلاءِ المنافقينَ مُعرِضين عنك وعمَّا تَدْعوهم إليه، ويمنَعونَ غيرَهم كذلك عنه.

فكيف سيكونُ حالُ هؤلاء المنافِقينَ إذا حلَّت عليهم مُصيبةٌ بسبب كفرِهم وذُنُوبِهم، ومنه تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزَل اللهُ تعالى، ثمَّ أتَوْا إلى النَّبيِّ صلَّى الله

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

عليه وسلَّم مُعتذرينَ يَحْلِفون بالله كذِبًا أنَّهم ما تَحاكَموا إلى غيرِه إلَّا بقصدِ الإحسانِ إلى المتخاصِمينَ، والتَّوفيقِ بينهم، ولم يكونوا معتقدينَ صحَّةَ تلك الحكومةِ، فأخبَرَ تعالى أنَّه يعلَمُ ما تنطوي عليه قلوبُهم من نفاقٍ وقصدٍ سيِّئٍ في فِعْلِهم ذلك، وسيجازيهم على ذلك، وأَمَرَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، وترغيبِهم في الانقيادِ للهِ ولرسولِه، وحذَّرهم من مخالفةِ ذلك، وأن ينصَحَهم سِرًّا نصيحةً مؤثِّرةً تصِلُ إلى قَرارةِ أنفسِهم.

ثمَّ يُخبِر تعالى أنَّه ما أرسَل رسولًا إلَّا والغرضُ من ذلك الإرسالِ أن يُطيعَه المرسَلُ إليهم، ويتَّبِعوه بتقدير الله وقضائه ومشيئتِه، ولو أنَّهم حين يقَعون في ظُلْم أنفسِهم بالذَّنبِ والخطيئةِ يأتون الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم -في حالِ حياتِه- مُقرِّينَ بذُنُوبِهم، طالبينَ من الله مغفرتَها، وطلَبَ الرَّسولُ مِن الله أن يغفِرَ لهم تلك الذُّنوبَ، حينها سيَجِدونَ من اللهِ الصَّفحَ عن ذنوبِهم تلك، وسيتوبُ عليهم وسيرحَمُهم.

ثمَّ أقسَم تعالى بنفسِه، فقال: فلا وربِّك يا محمدُ لا يؤمن أحدٌ إيمانًا يُقبَل منه حتَّى يُحكِّمَك في جميعِ الأمور الَّتي يحدُثُ فيها التَّنازعُ، ثمَّ لا يَجِدَ في نفسِه ضِيقًا وحرَجًا من الحُكم الَّذي يصدُرُ منك، وينقادَ له، ويُسلِّمَ تسليمًا كليًّا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أوجَب اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى على جميعِ المكلَّفين أن يُطيعوا اللهَ،

ويُطيعوا الرَّسولَ- ذكَر في هذه الآيةِ أنَّ المنافقينَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ لا يُطيعونَ الرَّسولَ، ولا يرضَوْن بحُكمِه، وإنَّما يريدونَ حُكمَ غيرِه متعجِّبًا من حالهم مع ادِّعائهم الإيمانَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ اليهودَ يؤمِنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوت... إلخ، وذكَر مِن سوء حالِهم ووعيدِهم ما ذكَر، ثمَّ أمر المؤمنين بعد ذلك بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحُكمِ بالعَدْل، وأَمَرَهم بطاعةِ الله ورسولِه في كلِّ شيءٍ، وطاعةِ أُولي الأمر، وبرَدِّ ما تنازَعوا فيه إلى اللهِ ورسولِه- بيَّن لنا بعْدَ هذا حالَ طائفةٍ أخرى بين الطَّائفتينِ، وهم المنافقون الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا، ومن مقتضى الإيمان: امتثالُ ما أُمِر به المؤمنونَ في الآيتين السَّابقتينِ، ولكنَّهم مع هذه الدَّعوى يريدونَ أنْ يَتحاكَموا إلى الطَّاغوتِ الَّذي عليه تلك الطَّائفةُ(٢).

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: كان أبو بَرْزةَ الأسلميُّ كاهنًا يَقضي بين اليهود فيما يَتنافَرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ مِن أسلَمَ، فأنزَل الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوۡفِيقًا﴾(٣) [النساء: ٦٠-٦٢].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾

أي: ألَا تتعجَّب- يا محمَّدُ- مِن حال أولئك الَّذين يزعُمون أنَّهم يؤمِنونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٥٤٧)، والطبراني (١١/ ٣٧٣) (١٢٠٤٥)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٤١).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٩): رجاله رجال الصَّحيح. وجود إسناده ابن حجر في ((الإصابة)) (٤/ ١٩)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٣٢).

بالقرآن، وبغيره من الكتب الإلهيَّة السَّابقة(١)؟!

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

أي: وهم مع ذلك يودُّون التَّحاكُمَ في فصلِ الخصوماتِ إلى غير الكتابِ والسُّنَّة(٢).

﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: والحالُ أنَّهم قد أُمروا أن يكفُروا بالحُكم بغيرِ ما أنزَل اللهُ جلَّ وعلا(٣).

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يريد أن يجُورَ بهؤلاء المتحاكِمينَ إلى الطَّاغوت جَورًا شديدًا بَعِيدًا عن سبيل الحقِّ والهُدى(٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر ضلالَهم بالإرادةِ، ورغبتَهم في التَّحاكمِ إلى الطَّاغوت، ذكَر فِعلَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٠-٤٦١).
قال الرازي: (اعلم أنَّ المفسِّرين اتَّفقوا على أنَّ هذه الآية نَزلتْ في بعضِ المنافقينَ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨-١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٨٨-١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٢).

فيه؛ في نُفرتِهم عن التَّحاكمِ إلى رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال[١]:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾.

أي: وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا وأقبِلوا على حُكمِ الله تعالى، الَّذي أنزَله في كتابِه وفي سنَّة رسوله محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام[٢].

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾.

أي: أبصرتَ أولئك المنافقينَ مُعرِضينَ وممتنِعينَ مِن المصيرِ إليك للحُكم بينهم؛ بسبب نفاقِهم، ويمنَعون غيرَهم كذلك[٣].

كما قال تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ٦٢ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.

أي: فكيف يكون حالُ هؤلاء المنافقينَ إذا ساقَتْهم المقاديرُ إليك، في مصائبَ حلَّتْ بهم بسبب كُفرِهم وذنوبهم، ومن ذلك تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزل اللهُ تعالى[٤].

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

أي: ثمَّ أتاك هؤلاء المنافقون- يا محمَّدُ- يُقسِمونَ بالله تعالى كذِبًا وزورًا، وجُرأةً على الله عزَّ وجلَّ، معتذرينَ بأنَّهم ما أرادوا بذَهابِهم للتَّحاكُمِ إلى غيرك إلَّا الإحسانَ إلى المتخاصمينَ، والتَّوفيقَ بينهم، ومداراةَ النَّاس ومصانَعتَهم، لا اعتقادًا منهم بصحَّةِ تلك الحكومةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[المائدة: ٥٢].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ حقيقةَ ما تُكِنُّه قلوبُهم من النِّفاقِ، والقصدِ السَّيِّئ في احتكامِهم إلى الطَّاغوت، وتركِهم الاحتكامَ إليك، وإن حلَفوا باللهِ ما أرَدْنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا، وسيَجزيهم على ذلك، فإنَّه لا تخفى عليه خافيَةٌ سبحانه، فاكتفِ به- يا محمَّدُ- فيهم؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ بهم(٢).

﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾.

أي: فدَعْهم، ولا تُبالِ بهم، ولا تعاقِبْهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٦-١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٦٩).

﴿وَعِظْهُمْ﴾.

أي: ورغِّبهم في الانقيادِ لله تعالى ولرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وخوِّفهم وحذِّرهم مِن تَرْكِه[1].

﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أي: انصَحْهم- يا محمَّدُ- سِرًّا فيما بينك وبينهم بكلامٍ بليغٍ مؤثِّر، يصِلُ إلى قرارةِ نفوسِهم؛ ليزجُرَهم ويردَعَهم عمَّا هم عليه[2].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧١).

ويتَعَلَّقُ قَوْلُه: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ بقوله: ﴿قُلْ﴾ وفيه معنيان، الأول أيْ: قُلْ لهم خاليًا بهم، لا يكونُ معهم أحدٌ. أو: قُلْ لهم في معنى أنفسِهم قولًا يَبْلُغ منهم ما يزجُرُهم عن العوْدِ إلى ما فعلوا. وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ متعلِّق بقولِه: ﴿بَلِيغًا﴾ على مذهب مَن يجيزُ تقديمَ معمولِ الصِّفة على الموصوفِ. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦).

قال ابنُ عثيمينَ: (قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: قل لهم قولًا يصلُ إلى قرارةِ نفوسِهم، ولهذا جُعل ظرفُ القولِ هو النَّفس، ويحتملُ أن يكونَ المعنى ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنِهم وحالِهم قولًا بليغًا يبلغُ قلوبَهم، والمعنيان لا يتنافيان، وعلى هذا فيكونان جميعًا حقًّا؛ أي: قل لهم في شأنِهم وفي أنفسِهم بأنَّكم فعلتُم كذا وفعلتُم كذا، أو قل لهم قولًا في النَّفس يصلُ إلى النُّفوس، وإلى قرارةِ القلوبِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٤٧٠).

والقولُ البليغُ قيل: هو التوعُّد بالقتلِ إن استداموا حالةَ النِّفاق، قاله الحسنُ. ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٦٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ سبحانه وتعالى بطاعة الرَّسولِ في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]، ثمَّ حكى أنَّ بعضَهم تحاكَمَ إلى الطَّاغوتِ، ولم يتحاكَمْ إلى الرَّسول، وبيَّن قُبحَ طريقِه وفسادَ منهجِه- رغَّب بهذه الآية مرَّةً أخرى في طاعةِ الرَّسول؛ فقال[1]:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لم يبعَثِ اللهُ تعالى الرُّسلَ- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم- إلَّا لأجلِ أن يُطيعَهم النَّاسُ ويتَّبِعوهم، وذلك بتقديرِ الله تعالى وقضائِه ومشيئتِه[2].

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

أي: ولو أنَّهم حين يقَعُ منهم الخطأُ والزَّلَلُ أتَوا إليك- يا محمَّدُ- في حال حياتِك، معترفينَ بذنوبهم، طالبينَ مِن الله تعالى سَترَها، والتَّجاوزَ عن المؤاخَذةِ بها، وطلبْتَ مِن الله تعالى أن يغفِرَ لهم[3].

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي: لو فعَلوا ذلك، لتاب اللهُ جلَّ وعلا عليهم بمغفرتِه ظُلْمَهم، ورحِمهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٠-٤٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٩-٤٨٠).

بالتَّوفيقِ للتَّوبة وقَبولِها والثَّوابِ عليها، وعدمِ مؤاخَذتِهم بذُنوبهم الَّتي تابوا منها[١].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

سَببُ النُّزول:

عن عبدِ الله بن الزُّبير رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ خاصم الزُّبيرَ عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في شِراجِ الحَرَّةِ الَّتي يسقون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ: سَرِّحِ الماءَ[٢] يمُرُّ، فأبى عليه، فاختصموا عند رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للزبيرِ: اسْقِ يا زبيرُ، ثمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِك»، فغضب الأنصاريُّ؛ فقال: يا رسولَ اللهِ، أنْ كان ابنَ عمَّتِك! فتلوَّنَ وجهُ نبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ قال: يا زبيرُ، اسْقِ، ثمَّ احبِسِ الماءَ حتَّى يرجعَ إلى الجَدْرِ[٣]، فقال الزُّبيرُ: واللهِ، إنِّي لأحسبُ هذه الآيةَ نزلت في ذلك[٤]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).

(٢) سَرِّحِ الماءَ: أي: أرْسِلْه. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٠٧).

(٣) الجَدْر- بفتح الجيم وكسرها-: هو ما رُفع حَوْلَ المَزْرَعَةِ كالجِدار، وقيل هو لُغة في الجِدارِ، وقِيلَ هو أصلُ الجِدار، والمرادُ به: أصلُ الحائطِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٠٨).

(٤) هذه الصيغة ليست صريحة في كونه سبب النزول.

وقد قال ابنُ جرير: (وهذا القولُ؛ أعني قولَ من قال: عُنِيَ به المحتكِمان إلى الطاغوتِ اللَّذان وصَف الله شأنَهُما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠] أَوْلى بالصواب؛ لأن قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] في سياق قِصَّة الذين ابتدأ الله الخبرَ عنهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ٦٠] ولا دلالةَ تدلُّ على انقطاع قصتهم؛ فإلحاقُ بعض ذلك ببعضٍ ما لم تأتِ دلالةٌ على انقطاعه أولى، فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا ﴾))[١].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

أقسَم تعالى بنفسه الكريمة على أنَّه لا يؤمن أحدٌ - يا محمَّدُ - الإيمانَ المطلوبَ والمقبولَ منه، حتَّى يحكِّمَك في جميع الأمورِ الَّتي يحصلُ فيها اختلافٌ[٢].

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾.

أي: ثمَّ لا يكفي هذا التَّحكيمُ الظَّاهر حتَّى يطيعوك في بواطنِهم أيضًا؛ بأن ينتفيَ الضِّيقُ والحَرَج من قلوبهم ممَّا حكَمْتَ به - يا محمَّدُ[٣].

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

أي: وينقادوا لِقَضائك؛ إذعانًا منهم بالطَّاعة، وإقرارًا بحُكْمِك، فيسلِّموا لذلك تسليمًا كلِّيًّا، من غير ممانَعةٍ ولا مدافَعة ولا منازَعة، تسليمًا بانشراحِ صدرٍ، وطمأنينةِ نَفْسٍ، وانقيادٍ بالظَّاهرِ والباطِنِ[٤].

الذي رُوِيَ عن الزبير وابن الزبير من قصَّتِه وقصة الأنصاريِّ في شِراجِ الحَرَّة، وقولُ من قال في خبرهما، فنزلت: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[النساء: ٦٥] ما يُنبئُ عن انقطاعِ حُكم هذه الآية وقِصَّتها من قِصَّة الآياتِ قبلها، فإنَّه غيرُ مستحيلٍ أن تكون الآيةُ نزلت في قصة المحتكمينَ إلى الطاغوت، ويكون فيها بيانُ ما احتكم فيه الزبيرُ وصاحبه الأنصاريُّ؛ إذ كانت الآيةُ دالةً على ذلك. وإذ كان ذلك غيرَ مستحيلٍ، كان إلحاقُ معنى بعضِ ذلك ببعضٍ أولى ما دام الكلامُ متَّسقةً معانيه على سياقٍ واحد، إلا أن تأتيَ دلالةٌ على انقطاعِ بعضِ ذلك من بعضٍ، فيُعدَلَ به عن معنى ما قبْلَه) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

(١) رواه البخاري (٢٣٥٩)، ومسلم (٢٣٥٧) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين-

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- وجوبُ الإعراضِ حيث لا ينفع الكلامُ؛ لقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ هذا دليلٌ على أنَّ مقترِفَ المعاصي وإن أُعرِض عنه فإنَّه يُنصَحُ سرًّا، ويبالَغُ في وعظِه بما يُظَنُّ حصولُ المقصودِ به[٢].

٣- أنَّه يَنبغي للإنسان إذا تَكلَّم أن يتكلَّم بكلامٍ بليغٍ يصِلُ إلى النَّفْس؛ لقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- كمالُ الإسلام والمتمسِّكين به؛ لأنَّ الإسلامَ يأمر النَّاسَ بالإيمانِ بكلِّ ما أنزلَ اللهُ، والمتمسِّكون به كذلك يؤمنونَ بكلِّ ما أنزَل اللهُ؛ فالَّذين اعتنقوا غيرَ الإسلام -كاليهود والنَّصارى- لا يؤمنون بكلِّ ما أنزل الله، أمَّا السَّابقون منهم فإنَّما يؤمنون به إيمانًا حُكميًّا، يعني: يؤمنون بما تأخَّر عن شرائعهم إيمانًا حُكميًّا؛ لأنَّهم لم يُدْركوه، ولكنَّهم يؤمنونَ به، يعني: أنَّ المؤمنين بموسى في وقتِه، والمؤمنين بعيسى في وقتِه، يؤمنونَ بالقرآن؛ لأنَّهم يجدونَ الرَّسولَ مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيلِ، لكنَّه إيمانٌ حُكميٌّ، أمَّا إيمانُ المسلمينَ بالقرآن وبالشَّرائع السَّابقة فهو إيمان حقيقيٌّ؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هو المتأخِّر[٤].

٢- أنَّ التَّحاكمَ إلى غيرِ الله ورسولِه تحاكمٌ إلى الطَّاغوتِ؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ

سورة النساء)) (١/ ٤٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٢).

أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[(١)].

٣- أنَّ التَّحاكُمَ إلى غير الله ورسولِه كفرٌ، وتؤخَذُ من تكذيبِهم في دعوى الإيمانِ، وذلك في قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾؛ لأنَّهم لو كانوا مؤمنِينَ ما أرادوا التَّحاكمَ إلى غَيرِ اللهِ ورسولِه[(٢)].

٤- أنَّه إذا كانت إرادةُ التَّحاكم إلى الطَّاغوت مُخرِجةً من الإسلام، فالتَّحاكمُ إليه فعلًا من بابِ أَولى؛ ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[(٣)] [النِّساء: ٦٥].

٥- أنَّ الإنسانَ مؤاخَذٌ على كَسْبِ القلبِ، يؤخَذُ ذلك من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، فمَن عزَم على المعصيةِ بقلبِه، ووطَّن نفسَه عليها أثِم في اعتقادِه وعزمِه، ويُحمَلُ ما وقَع في قولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تجاوَز عن أمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ))[(٤)] وأمثالِه على أنَّ ذلك فيمَن لم يوطِّن نفسَه على المعصيةِ، وإنَّما مرَّ ذلك بفكرِه مِن غيرِ استقرارٍ، ويسمَّى هذا همًّا، ويُفرَّقُ بينَ الهمِّ والعزمِ[(٥)].

٦- أنَّنا مأمورونَ بأن نكفُرَ بالطَّاغوت؛ لقوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾، ولا يتمُّ إيمانُنا إلَّا بالكُفْر بالطَّاغوت؛ لقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فلا بدَّ من الكُفْر

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٥) ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٦).

بالطَّاغوتِ، وإلَّا لم يصِحَّ الإيمانُ بالله[١].

٧- أنَّ للشَّيطانِ إرادةً، وتؤخَذُ من قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، بل وله أمْرٌ، وتؤخذ من قوله أيضًا: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]؛ فهو يريدُ ويأمر، ويُمكِننا أن نرُدَّ تلك الإرادةَ والأمرَ بالاستعاذةِ بالله منه؛ لأنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] فهذا هو العصمةُ منه[٢].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ عِصْمة الرُّسل فيما يبلِّغونَه عن الله، وفيما يأمرونَ به وينهَوْن عنه؛ لأنَّ اللهَ أمَر بطاعتِهم مُطلقًا، فلولا أنَّهم معصومونَ لا يَشْرَعون ما هو خطأٌ؛ لَمَا أمَر بذلك مطلَقًا[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ القضاء والقدَرِ، والحثُّ على الاستعانة بالله، وبيانُ أنَّه لا يمكنُ الإنسانَ- إن لم يُعِنْه اللهُ- أن يطيعَ الرَّسولَ[٤].

١٠- في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ...﴾ زِيدَتْ لفظةُ (مِن) قبلَ المفعولِ به؛ لتأكيدِ العمومِ، والأصلُ: (ما أَرْسَلْنَا رَسُولًا...)، وقد تقرَّر في الأصولِ أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زِيدتْ قبلَها لفظةُ (مِن) لتوكيدِ العمومِ، كانتْ نصًّا صريحًا في العموم[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ينظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٠٧).

١١- إيجابُ طاعة الرَّسول في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تُشْعِر بأن الرَّسول أخصُّ من النَّبيِّ(١).

١٢- ثبوتُ قيام الأفعال الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، بمعنى: أنَّه تتجدَّدُ له الأفعالُ الاختياريَّة حسَب المفعولاتِ، وتؤخَذُ من قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ لأنَّ إرسالَ الرُّسل يتجدَّدُ؛ فأوَّلُهم نوحٌ وآخِرُهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

١٣- إثباتُ تعليلِ أفعالِ الله، ويؤخَذُ من قوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وهذا الَّذي عليه أهلُ السُّنَّة والجماعة، أنَّ أفعالَ الله وأحكامَ الله معلَّلةٌ، لكنَّ العلَّةَ قد تكون معلومةً لنا، وقد تكون مجهولةً لنا(٣).

١٤- ثبوتُ الإذنِ لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، والإذنُ نوعان: شرعيٌّ، وكونيٌّ، فمِن الأوَّل قولُه تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، أي: شرعًا، ولا يصح حمله على الإذن الكوني؛ لأنَّه وقع، فقد أذِن الله به قدَرًا، لكن لم يأذَنْ به شرعًا، وأمَّا الإِذْنُ الكونيُّ فكثيرٌ، مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾(٤) [البقرة: ٢٥٥].

١٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ إنَّما قرن استغفارَهم الَّذي هو عنوان توبتِهم باستغفار الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم; لأنَّ ذنبَهم هذا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٨٥).

لم يكن ظلمًا لأنفسهم فقط، فيكفي فيه توبتُهم، بل تعدَّى إلى إيذاء الرَّسول، فكان لا بدَّ في توبتِهم وندمِهم على ما صدر منهم أن يُظهِروا ذلك للرَّسول؛ ليصفحَ عنهم فيما اعتدَوْا به على حقِّه، ويدعو الله تعالى أن يغفِرَ لهم إعراضَهم عن حُكمِه[1].

١٦- استدلَّ أهلُ الغلوِّ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ على أنَّ الإنسان ينبغي له إذا أذنب ذنبًا أن يأتيَ إلى القبر النَّبويِّ فيستغفرَ الله، ويستغفر له الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، والآية تدلُّ على بطلان هذا القول؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ و﴿إِذ﴾ للماضي، ولو قال: إذا ظلموا ربَّما يكون فيها شبهةٌ، على أنَّه لو قال: إذا ظلموا لم يكُنْ فيها دليل؛ لأنَّ قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يمنعُ أن يكونَ ذلك بعد موتِه قطعًا؛ إذ إنَّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يمكن أن يستغفرَ لهم بعد موته، فالمرادُ به: في حياتِه[2].

١٧- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ من المعهود في اللُّغة أنَّ مِثل هذا القسَم يُعدُّ تكريمًا[3].

١٨- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أنَّ إقسامَه سبحانه بنَفْسِه على نَفْيِ إيمانِ مَن لم يَجمَعْ أمرينِ؛ تَحكيمَه شَرْعَ الله تعالى، وألَّا يجِدَ في نفسِه حَرَجًا مِن حُكْمِه؛ يُوجِبُ أنَّه ليس في أمْرِه ونَهْيِه ما

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩١).

يُوجِبُ الحَرَجَ لِمَن امتَثَلَ ذلك(١).

١٩- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، التَّحكيمُ في مقام الإسلام، وانتفاءُ الحرَج في مقام الإيمان، والتَّسليم في مقام الإحسان، فمَن استكمل هذه المراتبَ وكمَّلها، فقد استكمل مراتبَ الدِّين كلَّها(٢).

٢٠- الرَّاضي بحُكم الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام قد يكون راضيًا به في الظَّاهر دون القلب، فبيَّن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أنَّه لا بدَّ من حصول الرِّضا به في القلب، وليس المرادُ من الآية ميلَ القلبِ ونفرتَه، فهو شيءٌ خارج عن وُسع البشر، بل المرادُ منه أن يحصُلَ الجزمُ واليقين في القلب بأنَّ الَّذي يحكم به الرَّسولُ هو الحقُّ والصِّدقُ، ومَن عرَف بقلبه كونَ ذلك الحُكم حقًّا وصدقًا قد يتمرَّد عن قَبوله على سبيل العناد، أو يتوقَّف في ذلك القَبول، فبيَّن تعالى أنَّه كما لا بدَّ في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب، فلا بدَّ أيضًا من التَّسليم معه في الظَّاهر، فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ المرادُ به الانقيادُ في الباطن، وقوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ المراد منه الانقيادُ في الظَّاهر، والله أعلم(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قال تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾:

(١) ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص:١٩٣).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٢٨).

- **قوله:** ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾: الاستفهامُ فيه مُرادٌ به التَّعجُّب[(١)].

- **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾ جِيء باسمِ موصولِ الجماعةِ؛ لأنَّ المقام مقامُ توبيخٍ، كقولهم: ما بال أقوامٍ يقولون كذا؛ ليشملَ المقصودَ، ومَن كان على شاكلتِه[(٢)].

- قوله: ﴿يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾: وصَفَهم بادِّعاءِ الإيمانِ بالقُرآنِ وبما أُنزِل مِن قبلِه (التَّوراة) حيث قال: ﴿يَزۡعُمُونَ﴾؛ لتأكيدِ التَّعجيب، وتشديدِ التَّوبيخِ والاستقباحِ[(٣)].

٢- **قوله:** ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: استئنافٌ سِيق لبيان محلِّ التَّعجيب، وهذا الاسم ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ مشتَقٌّ مِن طَغَى يَطغُو، إذا تعاظَم وترفَّع، وأصلُه مصدرٌ بوزن فَعلوت؛ للمُبالغة[(٤)].

٣- قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾: (ضلالًا) مصدر مؤكِّد، والضَّلال البعيدُ هو الكفر، ووصْفُه بالبعيدِ؛ لشدَّة الضَّلالِ بتنزيلِه منزلةَ جنسٍ ذي مسافةٍ إذا كان هذا الفردُ منه بالغًا غايةَ المسافةِ[(٥)].

٤- قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ ﴿صُدُودٗا﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ للتوكيدِ، ولقصْدِ التوصُّلِ بتنوينِ ﴿صُدُودٗا﴾؛ لإفادةِ أنَّه تنوينُ تعظيمٍ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٤).
(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٦).

٥- قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ ﴾: الاستفهامُ مستعمَلٌ في التَّهويلِ[(١)].

٦- قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ إشارةٌ إلى المنافقين، وما في ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ من معنى البُعد؛ للتَّنبيه على بُعدِ مَنزلتِهم في الكُفْر والنِّفاق[(٢)]، وفي قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المشارَ إليهم جديرونَ بالحُكم الذي سيُذكَر؛ لما تقدَّم من أحوالهم[(٣)].

٧- قوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴾ يجوزُ أن يتعلَّق قوله: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بقوله: ﴿بَلِيغًا ﴾، وإنَّما قدَّم المجرورَ؛ للاهتمامِ بإصلاحِ أنفسِهم، مع الرِّعاية على الفاصلةِ، وفيه أمْرٌ بتهديدِهم على وجهٍ مُبلغ صَميمَ قلوبِهم، ويجوزُ أنْ يَتعلَّق بفِعل ﴿قُل لَّهُمْ﴾، أي: قُلْ لهم قولًا في شأنِ أنفسِهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴾ كالشَّرحِ للوعظِ في قوله: ﴿وَعِظْهُمْ ﴾، ولذِكر أهمِّ ما يَعظُهم فيه، وهو نفوسُهم التي عَلِمَ اللَّه ما انطوتْ عليه من المذامِّ، وعلى هذا يكون المرادُ الوعظَ وما يَتعلَّق به[(٤)].

٨- قوله: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فيه التفاتٌ؛ حيث لم يقُلْ: (واستغفرْتَ لهم)؛ وذلِك تفخيمًا لشَأنِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم- لِمَا في هذا الاسمِ الظاهرِ مِن التَّشريفِ والتنويهِ بوصْفِ الرِّسالة- وتَعظيمًا لاستِغْفارِه، وتنبيهًا على أنَّ شَفاعةَ مَن اسمُه الرَّسولُ مِن اللَّهِ بمكانٍ، وعلى أنَّ مِن حقِّ الرسولِ أنْ يَقبَلَ اعتذارَ التَّائِبِ، وإنْ عَظُم جُرمُه، ويَشْفَعَ له، ومِن مَنْصِبه أنْ يشفعَ في كبائرِ الذُّنوبِ، وعَلى أنَّ هذا الوَصْفَ الشريفَ- وهو إرسالُ اللهِ إيَّاه- موجبٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٠٨).

لطاعتِه. وفي هذا النَّوعِ مِن الالتِفاتِ خصوصيَّةٌ، وهي اشتمالُه على ذِكرِ صِفةٍ مناسبةٍ (الرِّسالة) لِمَا أُضِيف إليه (الاستغفار لِمَن عَظُمتْ ذُنوبُهم)، وذلك زائدٌ على الالتِفاتِ بذِكرِ الأعلامِ[1]؛ فدَلَّ أيضًا على أنَّ هذا الاستغفارَ له مَزيَّةٌ، وهي كونُه صادرًا عن الرَّسولِ بوَصْفِه (رسولًا).

وقيل: إنَّ نُكتةَ وضْع الاسمِ الظاهِرِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ موضِعَ الضَّمير، هي أنَّ حقَّ الرَّسولِ عليهم في التحاكُم إليه إنَّما كان له بأنَّه رسولُ اللهِ، وأنَّه مأمورٌ بأنْ يحكُمَ بين الناسِ بما أراه اللهُ في وحْيِه، وما هداه إليه في اجتهادِه، ولو أنَّهم اعتَدَوْا في معصيتِهم على حقوقِه الشخصيَّةِ، كأكْلِ شيءٍ من مالِه بغير حقٍّ لقال: (واستغفرتَ لهم)؛ فإنَّ التوبةَ عن المعاصي المتعلِّقةِ بحقوقِ الناس لا تكونُ مقبولةً ولا صحيحةً إلَّا بعدَ استرضاءِ صاحِب الحقِّ. وهذا أظهرُ مِن جَعْل نُكتةِ وضْع الظَّاهِر موضِعَ الضمير إجلالَ منصبِ الرِّسالةِ، والإيذانَ بقَبولِ استغفارِ صاحِب هذا المنصب الشريفِ، وعدم ردِّ شفاعته؛ لأنَّ المنصبَ هو هو في شَرفِه وعُلوِّه، ولكنَّ اللهَ لا يَغفِرُ للمنافقينَ إذا لم يتوبوا، وإنِ استغفرَ لهم الرسولُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال له فيهم: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[2] [التوبة: ٨٠].

٩- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾:

- في هذه الآيةِ ألوانٌ مِن البلاغةِ، ومبالغاتٌ عَديدةٌ، وضُروبٌ مِن التأكيدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (١/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٨- ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ١٩٠).

بلَغَتْ أسْمَى مَراتبِ البيانِ، والغايةُ منها: زيادةُ الوَعيدِ والتَّهديدِ ممَّا ترتعدُ له الفرائصُ، وترتجِفُ منه الأفئدةُ؛ وتَفصيلُ ذلك كما يلي[1]:

- قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه تأكيدٌ بالقَسَمِ بنَفْسِه سبحانه، وإضافةُ الرَّبِّ إلى كافِ الخِطاب؛ لتعظيمِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو التفاتٌ راجعٌ إلى قوله: ﴿جَآءُوكَ ﴾.

- تَصديرُ الجملةِ المقْسَمِ عليها بحرْفِ النَّفي المتضمِّنِ لتأكيدِ النَّفْيِ المقسَمِ عليه، وهو في ذلك كتَصديرِ الجُملة المثبَتةِ بـ(إنَّ)؛ فـ(لَا) في قوله: ﴿ فَلَا ﴾ مَزيدةٌ لتأكيدِ القسَمِ، وقَدَّم (لَا) على القسَمِ؛ اهتمامًا بالنَّفي، ثمَّ كرَّرها بعدُ توكيدًا، وأصل الكلام: (فوربِّك لا يُؤمِنون)، والعرب تأتي بحرفِ النَّفيِ قبلَ القَسمِ إذا كان جوابُ القسمِ مَنفيًّا؛ للتَّعجيلِ بإفادةِ أنَّ ما بعدَ حرْفِ العطفِ قَسَمٌ على النَّفي لِمَا تضمَّنَتْه الجملةُ المعطوفُ عليها؛ فتقديمُ النَّفي للاهتمامِ بالنَّفي.

- أنَّه أتَى بالمقسَم عليه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغةِ الفِعلِ الدالَّةِ على الحُدوثِ، أي: لا يقعُ منهم إيمانٌ ما حتَّى يُحكِّموكَ.

- في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ أتَى في الغايةِ بـ(حتى) -دون (إلَّا)- المُشْعِرةِ بأنَّه لا يُوجَدُ الإيمانُ إلَّا بَعْدَ حُصولِ التحكيمِ؛ لأنَّ ما بعدَ (حتى) يَدخُل فيما قَبلَها.

- أنَّه أتَى المُحكَّمِ فيه بصِيغة الموصولِ الدالَّة على العمومِ، وهو قوله:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٢٨-٥٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩٢-٦٩٥، ٧٠٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٠- ٢٥١).

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: في جَميعِ ما تَنازَعوا فيه من الأمورِ الدَّقيقةِ والجليلةِ.

- وفي قوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: أتى بـ﴿حَرَجًا﴾ نَكرةً في سِياق النفيِ، أي: لا يَجِدون نوعًا مِن أنواعِ الحرجِ البتَّةَ، وأَطلَق اسمَ الحرَج -الَّذي هو من وصْفِ الشَّجْرِ إذا تضايَق- على الأمر الَّذي يشقُّ على النَّفس؛ للمناسبة الَّتي بينهما، وهو من الضِّيق.

- أنَّه أتى بذِكْر ما قَضَى به بصيغةِ العموم ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾؛ فإنَّ (ما) إمَّا مَصدريَّة، أي مِن قَضائِك، أو موصولة، أي: مِن الذي قَضيتَه، وهذا يَتناوَلُ كلَّ فردٍ من أفرادِ قَضائه.

- أنَّه سُبحانَه لَمَّا أَقسمَ -أوَّلًا- بنَفْسِه مؤكِّدًا لهذا القَسَمَ بحرْفِ النَّفيِ بأنَّهم لا يُؤمنون، والإيمانُ رأسُ مالِ الصَّالِحين من عِبادِ الله حتَّى تحصُلَ لهم غايةٌ من أشرفِ الغايات، وهي اللُّجوءُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وتحكيمُه فيما نشَب بينهم من خِلافٍ؛ لم يَكْتفِ سبحانَه بذلِك حتَّى قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فضمَّ إلى التَّحكيمِ أمرًا آخرَ، وهو عدَمُ وجودِ أيِّ حرجٍ في صدورهم، فلا يكون مجرَّدُ التَّحكيمِ والإذعانِ كافيًا، بل لا بدَّ أنْ يكون نابعًا من صُدورِهم، صادرًا عن رِضًا واطمئنانٍ وطِيب نفْسٍ، وهذا أجملُ تصويرٍ للعلاقةِ الَّتي يجِبُ أنَّ تترسَّخَ بين رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ.

ثمَّ لم يَكتفِ سبحانه بهذا كلِّه، بل ضمَّ إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾، أي يُذعنوا إذعانًا تامًّا، وينقادوا ظاهرًا وباطنًا، لا انقيادًا أعمى، ولكنَّه انقيادُ الواثقِ المطمئنِّ إلى سلامةِ موقفِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلم يكتفِ منهم بذلك حتى يُضيفوا إليه التسليمَ، وهو قدْرٌ زائدٌ على التَّحكيمِ وانتفاءِ الحرجِ؛ فما كلُّ مَن

حَكَّم انتفى عنه الحرجُ، ولا كلُّ مَن انتفى عنه الحَرَجُ يكونُ مُسلِّمًا منقادًا؛ فإنَّ التسليمَ يَتضمَّنُ الرِّضا بحُكمِه، والانقيادَ له.

وأكَّد فِعلَ التَّسليمِ ﴿يُسَلِّمُوا﴾ بالمصدرِ المؤكِّد ﴿تَسۡلِيمٗا﴾، وهكذا لا يَثْبُت الإيمانُ لعبدٍ حتَّى يقَعَ منه هذا التَّحكيمُ، ولا يجدَ الحرجَ في صدره بما قضى عليه، والتَّسليمُ لحُكم الله وشرعِه تسليمًا لا يخالطه ردٌّ، ولا تشوبه شائبةٌ، فسبحان قائلِ هذا الكلامِ!



الآيات (٦٦ - ٧٠)

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾: جمع صِدِّيق، وهو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه، أو صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، أو مَن كَمَل في صِدْقِه وتَصديقِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدق، وقيل: هو مَنْ لا يَكذِب قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّده الصِّدق، وأصل (صدق): يدلُّ على قوَّة في الشيء قولًا وغيرَه[1].

﴿رَفِيقًا﴾: أي: رُفقاء، وأصل (رفق): يدلُّ على موافَقةٍ، ومقاربةٍ بلا عنف[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّه لو فرَض على أولئك الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزِل إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمحتكمين إلى الطَّاغوتِ، لو فَرَض عليهم أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأن يفارقوا ديارَهم، فلن يفعل ذلك إلَّا القليلُ منهم، ولو أنَّهم فعَلوا ما يُذَكَّرون به مِن فِعل الأوامرِ، واجتناب ما نُهوا عنه، لكان فعلُهم هذا

(١) ينظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٨).

خيرًا، وأكثرَ تثبيتًا لهم، وسيعطيهم الله تعالى - كما وعد- أجرًا عظيمًا من عنده، وسيُرشِدهم إلى الصِّراط المستقيمِ.

ثمَّ يخبر تعالى أنَّه مَن يُطِعِ اللهَ ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه في الجنَّة مع الَّذين أنعَم الله عليهم بالهدايةِ إلى الصِّراط المستقيم من الأنبياءِ، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين، وحسُن هؤلاء رفقاءَ يُجتمع بهم في جنَّاتِ النَّعيم.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦)﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: ولو أنَّا فرضْنا على هؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزل إليك، من المحتكِمين إلى الطَّاغوت- أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأمرناهم بذلك[(١)].

﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾.

أي: أو أمرْناهم بالهجرةِ من ديارِهم إلى ديارٍ أخرى[(٢)].

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

أي: ما استجاب لتلك الأوامرِ إلَّا عددٌ قليلٌ منهم[(٣)].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.

أي: ولو أنَّ أولئك المنافقينَ فعَلوا ما يُذَكَّرون به من فِعل الأوامرِ، واجتنابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٠-٤٩١).

النَّواهي، ومِن ذلك التَّحاكمُ إلى الكتاب والسُّنَّة[(١)].

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي: لو أنَّهم فعلوا ما يُوعَظون به، لكان أفضلَ لهم من مخالفةِ الأمرِ، وارتكابِ النَّهي في عاجلِ دُنياهم، وآجلِ معَادِهم، ولكانوا من الأخيارِ المتَّصفينَ بأوصافِهم[(٢)].

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

أي: وأثبَتَ لهم في أمورِهم وعزائِمِهم، وأقومَ لهم عليها، وأشدَّ ثباتًا على الحقِّ؛ فالإنسانُ كلَّما ازداد طاعةً لله ازدادَ إيمانًا ويقينًا، وثباتًا عند ورود الفِتَن[(٣)].

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾.

أي: ولَأَعطيناهم كذلك جزاءً وثوابًا عظيمًا من عندِنا في العاجلِ والآجِلِ[(٤)].

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ولأرشدْناهم ووفَّقْناهم إلى الصِّراط المستقيم[(٥)].

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٠-٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٠٨-٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٤).

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بطاعة الله وطاعةِ الرَّسول بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، ثمَّ زيَّف طريقةَ الَّذين تحاكموا إلى الطَّاغوتِ وصدُّوا عن الرَّسول، ثمَّ أعاد الأمرَ بطاعة الرَّسول مرَّة أخرى فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، ثمَّ رغَّب في تلك الطَّاعة بقوله: ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا * وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا * وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ٦٦- ٦٨] أكَّد الأمرَ بطاعة اللهِ وطاعة الرَّسولِ في هذه الآية مرَّة أخرى(١).

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا رسول الله، إنَّك لَأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكُرُك فما أصبِر حتَّى آتيَ فأنظُرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنَّك إذا دخلْتَ الجنَّة رُفِعْتَ مع النَّبيِّين، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خَشِيتُ ألَّا أَراك، فلم يرُدَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا حتَّى نزل عليه جبريلُ بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾))(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٢).

(٢) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٧٧)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢٣٩) حسَّنه الضياء كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٤/ ٥٢٧)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠): رجالُه رجالُ الصَّحيح غير عبد الله بن عمران العابديِّ، وهو ثقة. ووثَّق رِجالَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (٢/ ٩١٤)، وصحَّحه لغيره أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٣٧)، وذكر الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ١٠٤٤) أن فيه

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

أي: ومَن يمتثِلْ أمرَ الله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتنِبْ نهيَهما، فهو في الجنَّة مع مَن أنعَمَ الله تعالى بهدايتِهم إلى الصِّراطِ المستقيم[1].

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: مِن الرُّسل والأنبياء الَّذين فضَّلهم الله تعالى بوحيِه، والصِّدِّيقين الَّذين كمَلَ صدقُهم وتصديقُهم، فعلِموا الحقَّ، وصدَّقوه بيقينهم، وقاموا به قولًا وعملًا وحالًا، والشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمتِه، والصَّالحين الَّذين صلَحَتْ سرائرُهم وعلانيتُهم[2].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ما من نبيٍّ يَمرَضُ إلَّا خُيِّرَ بين الدُّنيا والآخِرَةِ، وكان في شَكواه الَّذي قُبِض فيه، أخَذَتْه بُحَّةٌ[3] شديدةٌ، فسمِعتُه يقولُ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾،

عبدُ الله بن عمران صدوق، ويُقوِّيه أنَّ له شواهدَ مُرسلةً. وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٨٠): له شواهدُ تَزيده قُوَّةً.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

وقيل: المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ في الآخِرة وفي الدنيا أيضًا؛ لأنَّ كلَّ مَن اعتنق طريقَ شخص فهو معه في الواقع. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥-١٨٦).

(٣) بُحَّة شَديدة: البُحَّة: هي غِلَظُ الصَّوتِ وخُشُونَته. يُنظَر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٢٠٨) ((مرقاة المفاتيح)) للهروي (٩/ ٣٨٤٧).

فعلِمتُ أنَّه خُيِّر))[1].

﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

أي: وحَسُنَ هؤلاء- الَّذين وصفَهم اللهُ عزَّ وجلَّ- رُفقاءَ يُجتمَعُ بهم في جَنَّات النَّعيم، ويُؤنَس بقُربهم في جوار الرَّبِّ الرَّحيم[2].

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو صحيحٌ يقول: إنَّه لم يُقبَضْ نبيٌّ قطُّ حتَّى يرَى مَقْعَدَهُ في الجنَّةِ، ثمَّ يُحَيَّا، أو يُخيَّرَ، فلمَّا اشتكى وحضرَهُ القبضُ، ورأْسُهُ علَى فخِذِ عائِشَةَ غُشِيَ عليهِ، فلمَّا أفاقَ شخصَ[3] بَصرُهُ نحوَ سقفِ البيتِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ في الرَّفيقِ الأعلَى فقُلْت: إذًا لا يُجاوِرُنا، فعرفتُ أنَّه حديثُهُ الَّذي كان يُحَدِّثُنا وهو صحيحٌ))[4].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ٧٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ذلك الإنعامُ الَّذي نالوه عطاءٌ وفضلٌ من اللهِ تعالى عليهم؛ فهو الَّذي برحمتِه أهَّلهم ووفَّقهم لذلك، وأعانَهم عليه، لا بأعمالِهم؛ فقد أعطاهم من الثَّوابِ ما لا تبلُغُه أعمالُهم[5].

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٣) شَخَصَ أي: ارتفَعَ، وشُخوصُ البَصرِ: ارتفاعُ الأجفانِ إلى فوق، وتحديدُ النَّظَرِ وانزعاجُه. يُنظَر: ((النهاية))لابن الأثير (٢/ ٤٥٠)، ((شرح القسطلاني على البخاري)) (٦/ ٤٦٤).

(٤) رواه البخاري (٤٤٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

أي: وحسْبُ العبادِ باللهِ عالِمًا بأعمالهم وأحوالهم، فيعلَمُ مَن يستحقُّ منهم الهدايةَ والتَّوفيقَ، والثَّوابَ الجزيل[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي أن يلحَظَ العبدُ ضدَّ ما هو فيه من المكروهات، لتخفَّ عليه العباداتُ، ويزداد حمدًا وشكرًا لربِّه[(٢)].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ بيان ضَعْفِ الإنسان، وأنَّه لا يستطيعُ أن يتحمَّل كلَّ ما أُمِر به إذا كان لا يلائمه، لا سيَّما مع ضَعْف الإيمان[(٣)].

٣- أنَّ النَّاجيَ من العِباد قليلٌ؛ لقوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، فهل أنت من هؤلاء القليل أو من الكثير[(٤)]؟!

٤- أنَّ طاعةَ الله تعالى سببٌ لكلِّ خيرٍ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[(٥)].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٢).

تَثۡبِيتٗا ﴾ أنَّه ينبغي للعبدِ أن يَنظُرَ إلى الحالة الَّتي يَلزمُه القيامُ بها، وإلى ما وُظِّف عليه في كلِّ وقت بحَسَبه، فيَبذل همَّتَه، ويُوفِّر نفسَه للقيام به وتكميله، إلى أنْ يصلَ إلى ما قُدِّر له مِن العِلم والعمَل في أمر الدِّين والدُّنيا، وهذا بخِلافِ مَن طمَحَتْ نفسُه إلى أمرٍ لم يصِلْ إليه ولم يؤمَرْ به بعدُ، فإنَّه لا يكادُ يصلُ إلى ذلك بسبب تفريقِ الهمَّة، وحُصولِ الكسَل، وعدم النَّشاط(١).

٦- القولُ الثابتُ وفِعلُ ما أُمِرَ به العبدُ، بِهما يُثبِّتُ اللهُ عبْدَه؛ فكلُّ مَن كان أثبتَ قولًا وأحسنَ فِعلًا، كان أعظم تثبيتًا؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾ وقال سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾(٢) [إبراهيم: ٢٧].

٧- الإشارةُ إلى عَظيمِ ما يحصُلُ في المستقبلِ، وأنَّ الإنسانَ يُخشى عليه من الزَّللِ، إلَّا أنْ يُثبِّتَه الله؛ لقوله: ﴿ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴾؛ لأنَّ التَّثبيتَ على غيرِ مواطنِ الزَّللِ لا يُذكَر، إنَّما يُذكَر التَّثبيتُ في حالِ مواطنِ الزَّلل، ومعلوم أنَّ الإنسانَ يرِدُ عليه في حياته شبهاتٌ، ويرِدُ عليه شهواتٌ؛ فالشُّبهاتُ تدُكُّ العِلم وتُذهِبُه، والشَّهوات تدُكُّ الإرادةَ حتَّى يصبحَ الإنسانُ لا يريد إلَّا ما يهواه فقط، وهذه آفةٌ؛ فالإنسانُ يُحيط به شيئان: شبهةٌ يزولُ بها العِلمُ، وشهوةٌ تزولُ بها الإرادةُ، فإذا لم يثبِّتْه اللهُ بالعِلم، والإرادة الصَّادقة، والعزيمة الجازمة فإنَّه يهلِكُ(٣).

٨- أنَّ الإيمانَ يتفاوت؛ لأنَّ قوله: ﴿ خَيۡرٗا ﴾ اسمُ تفضيل، ويَقتضي وجودَ مفضَّل ومفضَّل عليه، وهذا هو التفاوتُ، وكذلك يؤخذ من قوله: ﴿ وَأَشَدَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٥).
(٢) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٢).

تَثۡبِيتٗا ﴾[١].

٩- أنَّ الجَزاءَ مِن جِنْسِ العَملِ؛ فالحسنَةُ الثَّانِيَة قد تكون من ثوابِ الأُولى. وكذلك السَّيِّئَة الثَّانية قد تكون من عقوبَةِ الأُولى؛ ولهذا يُجزى الرَّجلُ في الدُّنيا على ما فَعَلَه من خيرِ الهُدى بما يُفتَح عليه من هدًى آخَرَ؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا * وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا * وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[٢].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الحثُّ على توجُّه الإنسانِ إلى ربِّه في سؤالِ مطلوبه، ووجهُه: أنَّه إذا كان الفضلُ من الله، فلا تسألِ الفضلَ إلَّا ممَّن بيدِه الفضلُ[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ تفويضُ الأمرِ إلى الله، وأنَّ الله تعالى إذا فضَّل أحدًا على أحدٍ، فاعلَمْ أنَّ ذلك عن علمٍ وليس عبثًا؛ ولهذا لَمَّا قال المكذِّبون: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ ردَّ اللهُ عليهم فقال لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: وأنتم لستم أهلًا للرِّسالةِ[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- أنَّ قتلَ النَّاسِ بعضِهم بعضًا من أشقِّ ما يكون على النُّفوسِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٣).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠) و (١٨/ ١٧٥- ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[١].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم ﴾ دليلٌ على صعوبةِ الخروج من الدِّيار؛ إذ قرَنه اللهُ تعالى بقتل الأنفس[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ إنَّما سُمِّي هذا التَّكليفُ والأمرُ وعظًا؛ لأنَّ تكاليفَ الله تعالى مقرونةٌ بالوعد والوعيد[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ دليلٌ على بُطلان قولِ الصُّوفيَّة الَّذين يقولون: اعبُدِ اللهَ للهِ، ولا تعبُدْه لثوابِ اللهِ؛ ووجه الدَّلالة: أنَّه لولا أنَّ لذِكر الثَّواب تأثيرًا في العمل لكان ذِكرُه عبثًا ولغوًا؛ فالله عزَّ وجلَّ لم يذكُرِ الثَّواب، ويُرغِّبْ في العملِ من أجل الثَّواب إلَّا ليُبيِّن أنَّ نيةَ الثَّواب لا تُضعِف العملَ، ولا تنافي الإخلاص، وقد وصَف الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم والَّذين معه بأنَّهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، فقال تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وجاء في آيةٍ أخرى المدحُ للَّذين يبتغون وجهَ الله، فيكون هذا دليلًا على أنَّك إن أردتَ وجهَ الله فإنَّك مُثابٌ، وإن أردتَ ثواب الله فإنَّك مثابٌ أيضًا[٤].

٥- قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: ثوابًا، وسمَّى الله تعالى الثَّواب الَّذي جعلَه على الأعمال أجرًا، ليتبيَّن للإنسان أنَّ هذا الثَّوابَ لا بدَّ من حصوله، كما أنَّه لا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٦٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٥).

بدَّ من حصولِ الأجر لمن استأجر بيتًا أو نحوه، فلا بدَّ أن يحصُلَ على الأُجرة[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ جوازُ عطف الرَّسول على الرَّبِّ عزَّ وجلَّ بالواو في الطَّاعة، وكذلك في المعصية، كما في قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٦]؛ لأنَّ أمرَ الرَّسول من أمر الله؛ وشرعَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم هو شرعُ الله، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوبة: ٥٩]، وهذا إيتاءٌ شرعيٌّ، أمَّا في الأمور الكونيَّة، فإنَّه لا أحدَ يشارك الله تعالى في ربوبيَّته، فلا بدَّ أن يكونَ مذكورًا بحرف العطف الدَّالِّ على التَّرتيب (ثم)[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس المراد بكون مَن أطاع اللهَ وأطاع الرَّسول مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين، كونَ الكلِّ في درجة واحدة؛ لأنَّ هذا يقتضي التَّسويةَ في الدَّرجة بين الفاضل والمفضول، بل المراد كونُهم في الجنَّة، بحيث يتمكَّنُ كلُّ واحد منهم من رؤية الآخَر، وإن بعُد المكانُ، وإذا أرادوا الزِّيارة والتَّلاقيَ قدَروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعيَّةِ[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ بيانُ أنَّ مَن أطاع اللهَ ورسولَه أنَّه يكونُ مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، ليس ذلك فقط، بل ذكَر أنَّه يكون رفيقًا له، والرَّفيق هو الَّذي يُرتَفَق به في الحضَر والسَّفر، فبيَّن أنَّ هؤلاء المطيعين يرتفقونَ بهم، وإنَّما يرتفقونَ بهم إذا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٣)، وينظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٧٢).

نالوا منهم رفقًا وخيرًا، والإنسانُ قد يكون مع غيره ولا يكون رفيقًا له، فأمَّا إذا كان عظيمَ الشَّفقة، عظيمَ الاعتناءِ بشأنِه كان رفيقًا له، فبيَّن تعالى أنَّ الأنبياءَ والصِّدِّيقين والشُّهداءَ والصَّالحين يكونون له كالرُّفقاء، من شدَّةِ محبَّتِهم له، وسُرورهم برُؤيته[٤].

٩- الأنبياءُ أفضلُ مِن الأولياءِ؛ يُبيِّن ذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه رتَّب عِبادَه السُّعداءَ المُنعَمِ عليهم أَربعَ مراتِبَ، وبدأَ بالأنبياءِ لشَرَفِهم وفَضْلِهم؛ فقالَ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ فيه توبيخٌ عظيم؛ وهو مسوقٌ لتوبيخِ الذين يَتقاعَسون عن الاستجابةِ للرَّسول وطاعتِه[٦].

٢- قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾: جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في جُملةِ جوابِ الشَّرطِ؛ للتَّنبيهِ على جَدارتِهم بمضمونِ الخبرِ عن اسمِ الإشارة؛ لأجْلِ مضمونِ الكلامِ الَّذي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٧].

٣- قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه: تقسيمٌ بليغ[٨]،

---

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٦).
(٥) ((الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)) لابن تيمية (ص:٨٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٦).
(٨) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٩).

وحُسْنُ تَرتيبٍ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ، حيثُ قدَّم الأشرفَ بالفَضيلةِ(١)؛ فمرتبةُ النبوَّةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبةِ الصِّدِّيقيَّة، ومَرتبةُ الصِّدِّيقيَّةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبةِ الشَّهادةِ، ومرتبةُ الشَّهادةِ أشرفُ وأفضلُ من مرتبة الصَّلاح(٢).

- وجاءَ قوله: ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ على صِيغة المبالغةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُتقدِّمون في تَصديقِهم، مُبالِغون في الصِّدق(٣).

٤- **قوله:** ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِما قبله، مؤكِّدٌ للتَّرغيبِ والتَّشويق(٤).

- وفيه معنى التَّعجُّب، كأنَّه قيل: وما أحسَنَ أولئك رَفيقًا(٥)!

- وجاء قوله: ﴿رَفِيقًا﴾ مفردًا مع أنَّه صِفة لجمْع؛ لأنَّ الواحدَ في التمييزِ ينوبُ عن الجماعةِ، ولأنَّ الرَّفيقَ والرسولَ والبَريدَ تُعبِّر بها العربُ عن الواحدِ والجَمْع. وقيل: معنى قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، أي: حسُن كلُّ واحد منهم رفيقًا، كما قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾(٦) [غافر: ٦٧].

٥- **قوله:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ﴾ التعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وما فيه مِن مَعنى البُعد؛ للإشعارِ بعلوِّ رُتبته، وبُعدِ منزلتِه في الشَّرف(٧).

---

(١) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٢٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩). وينظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٢).
(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٦).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٩).

الآيات (٧١ - ٧٦)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١
وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ
شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ
مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ
ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ
ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَٱنفِرُواْ﴾: أي: فاخرُجوا إلى الجِهاد، وانفِروا للنُّصرة، وأصل (نفر): يدلُّ على تَجافٍ وتباعُد[(١)].

﴿ثُبَاتٍ﴾: أي: جماعاتٍ متفرِّقةً، أو جماعةً منفردة، واحدتها ثُبَة، والثُّبَة: الجماعةُ الثَّائب بعضُهم إلى بعض في الظَّاهِرِ[(٢)].

﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: أي: يُثبِّط غيرَه، ويَتأخَّر ويُؤخِّر غيره، والمقصود مَن يتثاقلون ويَتخلَّفون عن الجِهاد[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٢، ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

﴿كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: أي: حِيلَته، والْكَيْدُ: ضربٌ من الاحتيال، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، واستعمالُه في المذموم أكثرُ، وأصل (كيد) يدلُّ على مُعالجةٍ لشيءٍ بشدَّة[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾

﴿ٱلظَّالِمِ﴾: مجرورٌ، على أنَّه نعْتٌ سببيٌّ للقريةِ، و(أل) في ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ موصولةٌ بمعنى (التي). و﴿أَهْلُهَا﴾: مرفوعٌ على أنَّه فاعلُ اسم الفاعِلِ ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ العامِلِ عمَلَ فِعله، والتقدير: القريةُ التي ظَلَم أهلُها؛ فالظلمُ جارٍ على القرية لفظًا، وهو لِمَا بعدَها ﴿أَهْلُهَا﴾ معنًى، ولم يُؤنَّث اسمُ الفاعل ﴿ٱلظَّالِمِ﴾- حيث لم يَقُل: (الظالمة)- وإنْ كان نعتًا للقريةِ في اللَّفظِ؛ لإسنادِ ﴿ٱلظَّالِمِ﴾ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ الذي عَمِلَ فيه (أَهْل) وهو مُذكَّرٌ، كما تقولُ: مِنْ هذِه القَريةِ التي ظَلَم أهلُها؛ لأنَّ كلَّ اسمِ فاعلٍ إذا جرَى على غَيرِ مَن هو له، فتَذكيرُه وتأنيثُه على حسَبِ الاسمِ الظَّاهِرِ الذي عَمِل فيه[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين بأخْذِ الحذَر من أعدائهم، وأنْ يَخرُجوا لجِهادِهم متفرِّقين جماعةً بعدَ جماعةٍ، أو يَخرجوا كلُّهم مجتمعينَ.

ثمَّ يخاطب اللهُ تعالى المؤمنين مبيِّنًا لهم أنَّ في أوساطِهم منافقينَ، يتثاقَلون في الخروج للجهاد، ويتخلَّفون عنه، ويثبِّطون غيرَهم عنه، فإنْ حلَّت بالمؤمنين

---

(١) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨-٤٠).

الخارجينَ للجهاد مصيبةٌ، قال هذا المنافقُ المتخلِّفُ، والَّذي يدعو غيره للتَّخلُّف: قد منَّ الله عليَّ بعدم الخروج معهم للقتالِ، وإلَّا لكان حلَّ بي ما حلَّ بهم، وإن انتصرَ المؤمنون على عدوِّهم، وحصلوا منهم على غنيمةٍ، فسيقول هذا المنافقُ، وكأنَّه لم تكُنْ بين المؤمنين وبينه مودَّةٌ: ليتني شاركتُهم الخروجَ للجهادِ، فأُشارِكَهم في الغنائم الَّتي حصلوا عليها من عدوِّهم.

ثمَّ أمر اللهُ بالقتال في سبيله تعالى، ووجَّه الأمرَ لمن رغِبوا فيما عند الله؛ فباعوا الحياة الدُّنيا بالآخرة، ثمَّ وعَد سبحانه مَن يقاتل في سبيله، سواءٌ قتَله الأعداء، أو لم يُقتل، وإنَّما انتصر عليهم: أنَّ اللهَ سوف يعطيه أجرًا عظيمًا.

ثمَّ حثَّ المؤمنينَ على القِتال في سبيله قائلًا لهم: ما الَّذي يمنعُكم من القِتال في سبيل الله لإعلاء كلمَتِه، ومن أجْل استنقاذِ الضُّعفاء من الرِّجال والنِّساء والأطفال الَّذين يَدْعون ربَّهم أن يُخرجَهم من مكَّةَ الَّتي ظلَمهم فيها أهلُها من المشركينَ، ويَدْعون اللهَ أن يجعَلَ لهم من عنده وليًّا، ونصيرًا ينصُرُهم على عدوِّهم؟!

ثمَّ يُخبر تعالى أنَّ الَّذين آمنوا يقاتلون مِن أجل إعلاءِ كلمة الله تعالى، والَّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطَّاغوتِ، فأمَر الله بقتالِ من يتولَّى الشَّيطانَ ويُطيعه، مخبرًا سبحانه أنَّ كيدَ الشَّيطانِ كيدٌ واهنٌ وضعيفٌ.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

استئنافٌ وانتقالٌ إلى التَّحريضِ على الجهاد بمناسبةٍ لطيفة، فإنَّه انتقَل من طاعة الرَّسول إلى ذِكرِ أشدِّ التَّكاليفِ، ثمَّ ذكَر الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين، وكان الحالُ أدعى إلى التَّنويهِ بشأنِ الشَّهادة

دون بقيَّةِ الخِلال المذكورة معها الممكنة النَّوالِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى طاعتَه وطاعةَ رسولِه، وكان من أهمِّ الطَّاعات إحياءُ دِين الله، أمَر بالقيام بإحياءِ دِينه، وإعلاء دعوتِه، بالجهاد؛ لأنَّه أشقُّ الطَّاعات، ولأنَّه أعظمُ الأمور الَّتي بها يحصلُ تقويةُ الدِّين، وأَمَرهم ألا يقتحِموا على عدوِّهم على جَهالةٍ؛ فقال[٢]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون، احذَروا من عدوِّكم، وذلك بالأخْذِ بالأسبابِ الَّتي يُستعانُ بها على قِتالهم ودَفْعِهم[٣].

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾.

أي: فاخْرُجوا لقِتالِ عَدوِّكم متفرِّقينَ، جماعةً بعد جماعةٍ[٤].

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

قال ابن عثيمين: (فقولُه تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ يَشمل كلَّ ما يكون سلاحًا علينا، ومعلوم أنَّنا نأخذ لكلِّ سلاح ما يُناسبه؛ فالذي يُناسب السِّلاحَ الخُلُقي أن يُبصَّر الناس، وتُبيَّن لهم العاقبةُ السيِّئة في دَمار الأخلاق... ويُبيَّن لهم المضارُّ في سوء الأخلاق والفواحِش، وغير هذا. وفي الأفكار: يُبيَّن للناس العقيدةُ السَّليمة التي تَصِلُهم بالله، وتَجعل الإنسانَ دائمًا مع الله عزَّ وجلَّ، يَذكُر اللهَ بقلبه ولِسانِه وجوارحِه، قائمًا وقاعدًا وعلى جنب. والغزو المسلَّح بالسِّلاح، لا بدَّ أن نُعِدَّ له العُدَّة). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٥١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٥١٥-٥١٦).

أي: أو انفِروا كلُّكم مجتمعينَ[١].

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾.

أي: وإنَّ في عِدادِكم- أيُّها المؤمنون- منافقينَ، يتثاقَلون ويتخلَّفون بأنفُسِهم عن جهادِ عدوِّكم إذا أنتم نفَرْتم إليهم، ويثبِّطون غيرَهم، فيتخلَّفونَ عن الخروجِ في سبيل الله تعالى[٢].

﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾.

أي: فإنْ حلَّتْ بكم هزيمةٌ وقتلٌ، وظفِر الأعداءُ عليكم في بعض الأحوال لِمَا للهِ تعالى في ذلك من الحِكَمِ[٣].

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٥-٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

قال ابن عثيمين: (نتيجةُ القتالِ إمَّا أن تكونَ الغنيمةَ والغَلَبَةَ والنُّصرةَ، وإمَّا أن تكونَ العكسَ، فهو إذا أصابَتْكُم مُصيبةٌ... ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ فيتضمَّنُ كلامُه هذا الافتخارَ والاحتقارَ؛ الافتخارَ بنَفْسِه أنَّه لم يشهَدْ هذه المُصيبةَ، والاحتقارَ لِمَن أُصِيبوا بهذه المُصيبةِ، وهذا غايةُ ما يكونُ مِنَ التَّباعُدِ، وهذا الذي يقولُ- وهو منهم- هذا الكلامَ؛ كأنَّه لم يكُنْ بينه وبينهم مَوَدَّةٌ، وكأنَّه مِن أبعَدِ النَّاسِ عنهم، حين افتخَرَ بأنْ نجا من المُصيبةِ التي أصابَتْهم، واحتقَرَ هؤلاء الذين أُصيبوا، وصار كالموبِّخ لهم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨-٥١٩).

أي: فإنْ أصابَكم ذلك، قال هذا المنافِق الَّذي يَتباطَأُ، ويُبطِّئُ غيرَه عن الجِهاد: قد منَّ الله عليَّ بعدمِ الخُروجِ معهم للقِتال، وإلَّا لَأصابني ما أصابَهم من القَتْلِ أو الهزيمةِ[١].

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

أي: وإنْ أظفرَكم اللهُ بعدوِّكم فانتصرْتم عليهم، ونِلتم منهم غنيمةً[٢].

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.

أي: ليقولَنَّ هذا المنافقُ، وكأنَّه ليس من أهلِ دِينكم- يا مَعشرَ المؤمنينَ- لا يرتبطُ معكم فيه بالتزامِ أحكامِه، ومنها النُّصرةُ لكم[٣].

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أي: تمنَّى هذا المنافقُ أن يكونَ مع المؤمنين في الخروج للجهاد، فيُصيبَ معهم من الغنائم الَّتي ظفِروا بها من عدوِّهم[٤].

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢١٩-٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢١-٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٦).

﴿وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ سبحانه وتعالى المبطِّئين في الجهاد، عاد إلى التَّرغيب فيه، ودلَّهم بهذه الآيةِ على طريقِ تطهير نفوسِهم من ذلك الذَّنبِ العظيمِ؛ ذنبِ القعود عن القتال، مبيِّنًا أنَّ قَصْدَ المجاهد الآخرةُ، وإيثارُ ما عند الله[(١)]، فقال:

﴿فَلۡيُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

أي: فلْيجاهدْ أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله سبحانه، المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعونَ الحياة الدُّنيا بالآخرة، رغبةً فيما عند الله عزَّ وجلَّ[(٢)].

﴿وَمَن يُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾.

أي: ومن يُجاهِدْ أعداءَ الله تعالى لإعلاء كلمتِه جلَّ وعلا، فسواءٌ قتَله الأعداء، أو بقي حيًّا، وانتصَر عليهم[(٣)].

﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

أي: فهو غانمٌ على كلِّ حال؛ إذ سيُعطيه اللهُ تعالى ثوابًا جزيلًا[(٤)].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٠). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٢-٢٢٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٤-٥٢٥).

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾.

أي: ولِمَ لا تُجاهدون- أيُّها المؤمنون- لإعلاءِ كلمة الله تعالى، وتُجاهِدون للسَّعي في استنقاذِ الرِّجال والنِّساءِ والصِّبيان، الَّذين غُلِبُوا على أنفسِهم؛ بقَهْرهم وإيذائِهم وإذلالِهم وسَومِهم العذابَ، ولا يَستطيعون حيلةً للهجرة، ولا يهتدون إليها سبيلًا[١]؟!

عن عُبَيد اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتْبَةَ، قال: (سَمِعْتُ ابنَ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما يقولُ: كنتُ أنا وأمِّي مِن المستضعَفينَ، أنا من الوِلدانِ، وأمِّي من النِّساءِ)[٢].

وعن عَبدِ الله بن أبي مُلَيكةَ: (أنَّ ابنَ عبَّاسٍ تَلا: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾. قال: كنتُ أنا وأمِّي ممَّن عذَر اللهُ)[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾.

أي: يَدْعون ربَّهم بأن يخرجَهم من مكَّةَ؛ للنَّجاةِ من فتنةِ استضعافِهم من قِبَل مشركِي قريشٍ[٤].

﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٧).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٩-٥٣٠).
قال ابنُ عطية: (القريةُ هاهنا مكَّةُ بإجماعٍ من المتأوِّلين) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٧٩).

أي: وسخِّرْ لنا من عندك مَن يتولَّى أمرنا ويُنقذُنا، وسخِّرْ لنا من عندك مَن ينصُرُنا على عدوِّنا(١).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى وجوبَ الجهاد بيَّن أنَّه لا عبرةَ بصورةِ الجهادِ، بل العبرةُ بالقَصْدِ والدَّاعي، فالأمورُ بمقاصدها وغاياتها؛ فالمؤمنون يقاتِلون لغَرَضِ نُصرةِ دِين الله، وإعلاءِ كلمته، والكافرون يقاتِلون في سبيل الطَّاغوتِ ولم يكتفِ ببيان كونِ القتالِ المأمور به مقيَّدًا بكونه في سبيل الله، وهي سبيلُ الحقِّ والعدلِ، وإنقاذ المستضعَفين المظلومين من الظُّلم، حتَّى أكَّده بإعادةِ ذِكره، مع مقابلتِه بضِدِّه، وهو ما يقاتِلُ الكفَّارُ لأجله(٢)، فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المؤمنينَ حقًّا إنَّما يُقاتِلون من أجْلِ إعلاء كلمةِ الله تعالى(٣).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾.

أي: والكافرونَ يُقاتلونَ في طاعةِ الشيطانِ، وطَريقِه ومِنْهاجِه الَّذي شَرَعَه لأوليائِه من أهلِ الكفرِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٢). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي))

والطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه؛ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ[(١)].

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: فقاتِلوا- أيُّها المؤمنون- أولئك الَّذين يتولَّوْن الشَّيطانَ، ويُطيعون أوامرَه[(٢)].

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

أي: فلا تهابوا أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ إمامَهم الشَّيطانَ ذو كيدٍ واهنٍ وضعيفٍ، لا يقوَى على مقاومةِ الحقِّ والتَّغلُّب عليه[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّه يجب على الإنسانِ أنْ يكونَ كيِّسًا فطِنًا؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[(٤)].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّكاسلَ في الخير، والتَّراجعَ عنه من أسباب النِّفاق، وهو كذلك، والتَّباطؤُ عن الخير والتَّكاسل عنه ليس سببًا للنِّفاق فحسبُ، بل هو سببٌ للضَّلال والعمى، والعياذُ بالله! كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ

(ص: ١٨٧).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٢٩-٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٦).

أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[١] [ق: ٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فيه أنَّ هَؤُلَاءِ الْمُبَطِّئين لم يُحِبُّوا لإخوانِهم الْمُؤمنِينَ مَا يحِبُّونَ لأَنْفُسِهم، بل إِنْ أَصَابَتْهم مُصِيبَة فَرِحوا باختصاصِهم، وَإِن أَصَابَتْهم نعْمَةٌ لم يَفْرَحوا لهم بها، بل أَحبُّوا أَن يكون لهم منها حَظٌّ؛ فهم لَا يفرحون إِلَّا بدُنيا تَحصُل لهم، أَو شَرٍّ دُنْيَوِيٍّ ينْصَرف عَنْهُم؛ إِذْ كَانُوا لَا يحبُّونَ الله وَرَسُولَه وَالدَّارَ الْآخِرَة، وَلَو كانُوا كَذَلِك لأحبُّوا إِخْوَانهمْ وأَحبُّوا مَا وصَل إليهم مِن فَضْلِه، وتأَلَّموا بِما يُصيبُهم من المُصِيبَة، وَمن لم يَسرَّه مَا يَسُرُّ الْمُؤمنِينَ ويَسُوءُه مَا يسوءُ الْمُؤمنِينَ؛ فليس منهم[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المجاهِدَ ينبغي أن يثبُتَ في المعركةِ، وأن يوطِّنَ نفسَه على أنَّه لا بدَّ من أحدِ أمرين؛ إمَّا أن يقتلَه العدوُّ، فينالَ الشَّهادة، وإمَّا أن يغلبَ العدوَّ ويقهَرَه، ويعودَ بالظَّفَر والغَلَبة، فإنَّه إذا عزم على ذلك لم يفِرَّ عن الخَصم، ولم يُحجِمْ عن المحارَبة[٣].

٥- توبيخ مَنْ توانى عن الجهادِ؛ لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٤].

٦- ذِكْر ما يشجِّعُ على القتال من النَّاحية النَّفسية؛ لقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾؛ لأنَّ ذِكر ما يُثير الإنسانَ ويهيِّجُه أمرٌ مطلوب، ولا شكَّ أنَّ الإنسان إذا قيل له: إنَّ هناك رجالًا مستضعَفين ووِلدانًا ونساءً لا شكَّ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٢٢).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٤).

أنَّه سوف يزداد همَّةً وإقدامًا[(١)].

٧- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أنَّه بحسَب إيمانِ العبد يكون جهادُه في سبيل الله، وإخلاصُه ومتابعتُه؛ فالجهادُ في سبيلِ الله من آثارِ الإيمانِ ومقتضيَاتِه ولوازِمه، كما أنَّ القِتالَ في سبيل الطَّاغوتِ مِن شُعَبِ الكفرِ ومقتضياتِه[(٢)].

٨- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أنَّ الَّذي يقاتِلُ في سبيلِ الله ينبغي له، ويحسُنُ منه من الصَّبرِ والجلَدِ ما لا يقوم به غيرُه، فإذا كان أولياءُ الشَّيطانِ يَصبِرون ويُقاتِلون وهم على باطلٍ، فأهلُ الحقِّ أَولى بذلك؛ كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ الآية[(٣)].

٩- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أنَّ الَّذي يقاتِلُ في سبيل الله معتمدٌ على ركنٍ وثيقٍ، وهو الحقُّ، والتَّوكُّل على الله؛ فصاحبُ القوَّة والرُّكن الوثيقِ يُطلَب منه من الصَّبر والثَّبات والنَّشاط ما لا يُطلب ممَّن يقاتِلُ عن الباطل، الَّذي لا حقيقةَ له ولا عاقِبةَ حميدةً؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(٤)].

١٠- بيان أنَّ الإيمانَ يحمِلُ على الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٠).

١١- بيان ضَعفِ ما يعملُه الشَّيطان بالكيدِ أو بغير الكيد، لأنَّه إذا كان كيدُه ضعيفًا، فما يكيدُ به أضعفُ؛ لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(١)].

١٢- أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يَخشى أو يخافَ أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ أولياءَ الشَّيطان ضُعفاءُ، كما أنَّ الشَّيطانَ الَّذي هو وليُّهم كيدُه ضعيفٌ[(٢)].

١٣- أنَّ الشَّيطانَ يكيدُ للإنسان؛ لقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فاحذَرْ كيدَه لا يغرَّنَّك، فربَّما يوسوس لك في التَّهاونِ في العبادات المطلوبة، أو في غِشيان الأشياءِ الممنوعة، ويقول: اللهُ غفور رحيمٌ، والأمر سهلٌ، افعَلْ وتُبْ، حتَّى يكيدَ لك فتقعَ في الشِّباك، فاحذَرْ كيدَه[(٣)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ وجوبُ أخذِ الحذَر من أعدائنا، وكلُّ عدوٍّ يؤخذ منه الحذرُ فيما يخاف منه؛ فالَّذين يغزوننا بالسِّلاح نأخذ الحذرَ منهم بالسِّلاح، والَّذين يغزوننا بالأفكار نأخذ الحذر منهم بالعِلم، والَّذين يغزوننا بالأخلاق نأخذ الحذر منهم بالتَّرفُّع عن سفاسف الأخلاق، فكلُّ عدوٍّ يقابَلُ بسِلاحه[(٤)].

٢- في قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ وجوبُ النُّفور للجهادِ في سبيل الله، سواءٌ كنَّا مجتمعين أو متفرِّقين[(٥)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ﴾ الخِطابُ لعسكرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المؤمنين منهم والمنافقين، ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتأخَّرَنَّ وليتثاقَلنَّ عن القتالِ، وهم

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٤١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥١٧).

المنافقون؛ كعبدِ اللهِ بن أُبيٍّ المنافقِ وأصحابِه، وإنَّما قال: (مِنْكم)؛ لاجتماعِهم مع أهلِ الإيمانِ في الجنسيَّةِ والنَّسبِ وإظهارِ الإسلام، لا في حقيقةِ الإيمان(١).

٤- وجوبُ قِتالِ الأعداء؛ لقوله: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ﴾، ووجوبُ إخلاص النِّيَّةِ فيه؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢).

٥- أنَّ المقاتِلَ في سبيلِ الله ناجحٌ على كلِّ حال؛ لقوله: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ فهو غانمٌ ناجحٌ على كلِّ حال، سواءٌ قُتِل، أو غَلَب، فهو على أجرٍ عظيم(٣).

٦- قوله تعالى: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، وإنَّما اقتصَر على القتلِ والغلَبة في قوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، ولم يزِدْ: (أو يؤسَر) إبايةً مِن أن يذكرَ لهم حالةً ذميمةً لا يَرْضاها اللهُ للمؤمنينَ، وهي حالةُ الأَسْر، فسكَت عنها؛ لئلَّا يذكُرَها في معرِض التَّرغيب، وإنْ كان للمسلمِ عليها أجرٌ عظيمٌ أيضًا، إذا بذَل جُهدَه في الحربِ فغُلِب؛ إذ الحربُ لا تَخلو من ذلك، وليس بمأمورٍ أنْ يُلقيَ بيدِه إلى التَّهلُكة، إذا عَلِم أنَّه لا يُجدي عنه الاستبسالُ؛ فإنَّ مِن منافع الإسلامِ استبقاءَ رجالِه لدِفاع العدوِّ(٤).

٧- بيان عظَمة الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾، وجه ذلك: ضمير الجمعِ؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّ اللهَ إلهٌ واحد، فكلُّ ما أضيفَ إلى الله عزَّ وجلَّ من ضمائرِ الجمع، فالمراد بها التَّعظيمُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٢٧).

٨- قيل في الفرقِ بينَ المولَى والنَّصير: إنَّ المولَى هو الذي يتولَّى حفظَ الشيءِ في كلِّ حالٍ، والنَّصيرُ هو الذي ينصرُه إذا حزَبه أمرٌ، فكان الوليُّ هو النصيرَ في كلِّ حال، والنَّصير هو المولَى في حالٍ دونَ حالٍ[1].

٩- أنَّ للإنسانِ أنْ يطلُبَ من الله تعالى وليًّا من عنده؛ لقوله: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، ولا يقال: إنَّه لا بدَّ أن تقول: اللَّهمَّ تولَّني، فأنت إمَّا أن تدعوَ اللهَ بأن يتولَّاك، أو أن ييسِّرَ لك وليًّا، وكذلك يقال في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[2].

١٠- بيان علوِّ همَّة هؤلاء؛ حيث قالوا: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في الوليِّ، و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ في النَّصيرِ؛ لأنَّ الوليَّ إذا جاء من عند الله وكذلك النَّصيرُ، فهذا هو الَّذي ينفعُ، أمَّا الوليُّ الَّذي لا يأتي من عند الله عزَّ وجلَّ، وإنَّما حملَتْه الحمِيَّةُ والعصبيَّة، فهذا قد ينفعُ، وقد لا ينفع[3].

١١- وجوبُ الدِّفاع عن المستضعَفين عند الكفَّار؛ لأنَّ اللهَ تعالى وبَّخ على أمرين: على ترك القتالِ في سبيل الله، وعلى ترك القتالِ في سبيل هؤلاء المستضعَفين لتخليصِهم، وهذا أمرٌ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ- مع القدرة- أن يفُكَّ أسيرَ المسلمينَ، وأن يرفَعَ الظُّلمَ عنهم، بقدر المستطاع؛ لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[4] [التغابن: ١٦].

١٢- قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّ الجهادَ واجبٌ، ومعناه أنَّه لا عذرَ لكم في ترك المقاتَلة، وقد بلغ حالُ المستضعَفينَ من الرِّجال والنِّساءِ

(١) ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٣/ ١٣٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٣٤).

والوِلْدان مِن المسلِمين إلى ما بلَغ في الضَّعفِ؛ فهذا حثٌّ شديدٌ على القتال، وبيانُ العلَّة الَّتي لها صار القتالُ واجبًا، وهو ما في القِتال من تَخليصِ هؤلاء المؤمنين مِن أيدي الكفَرةِ؛ لأنَّ هذا الجمعَ إلى الجهادِ يجري مجرى فَكاكِ الأسير(١).

١٣- في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ذُكر الوِلْدان تكميلًا للاستعطافِ واستجلابِ المَرْحَمة، وتنبيهًا على تناهي ظُلمِ المشركين؛ بحيث بلغ أذاهم الصِّبيانَ لإرغامِ آبائِهم وأمهاتِهم، وإيذانًا بإجابة الدعاءِ الآتي، واقترابِ زمانِ الخَلاصِ؛ ببيانِ شَرِكَتِهم في التضرُّعِ إلى الله تعالى؛ كلُّ ذلك للمبالغةِ في الحثِّ على القتالِ(٢).

١٤- جواز التَّوسُّلِ بالحال؛ لقوله: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، توسَّلوا إلى الله تعالى بذِكر حالِ أهلِ هذه القرية بأنَّهم ظالمون لهم، وذِكْر الحال أنَّ الإنسانَ مظلومٌ يوجِبُ الرِّقَّة والعَطْف(٣).

١٥- استُدِلَّ بِقَوْلِه سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ على أنَّ إسلامَ الوليدِ صحيحٌ؛ لأنَّه جعَلَه من جملةِ مَن قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ وهو قولُ مَن يَطْلُب الهجرةَ، وطَلَبُ الهجرةِ لا يَصِحُّ إلَّا بعد الإيمانِ، وإذا كان له قولٌ في ذلك مُعتبَر كان أصلًا في ذلك ولم يكن تابعًا؛ بخلافِ الطِّفْل الذي لا تمييزَ له؛ فإنَّه تابعٌ لا قَوْلَ له(٤).

١٦- جوازُ الجهرِ بالسُّوء لِمَن ظُلِم، فتقول: فلان ظلَمني، وفلان أخذ مالي،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤١).
(٢) ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٤).
(٤) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٦).

وما أشبَهَ ذلك، ولا يُعَدُّ هذا من باب الغِيبةِ؛ لقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾(١) [النِّساء: ١٤٨].

١٧- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هذه الآيةُ كالدَّلالةِ على أنَّ كلَّ مَن كان غرضُه في فِعله رضَا غيرِ الله، فهو في سبيل الطَّاغوت؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَر هذه القِسمة، وهي أنَّ القتالَ إمَّا أن يكون في سبيلِ الله، أو في سبيل الطَّاغوت، وجَب أن يكون ما سوى الله طاغوتًا(٢).

١٨- أنَّ الكفَّارَ المحاربين من أولياء الشَّيطان؛ لقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وكانوا أولياءَه؛ لأنَّهم يمتثِلون لأمرِه ولنهيِه، فإذا أمَرهم بالفحشاء امتثلوا، وإذا نهاهم عن البِرِّ امتثلوا، فبذلك صاروا له أولياءَ(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ خبرٌ إنكاريٌّ، وقد جاء التَّأكيدُ بـ: (إنَّ)، وبلام التَّأكيدِ المُزحْلَقة، ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة، وفي استعمالِ الفعل المضعَّف- وزيادةُ الحروف زيادةٌ في المعنى- وفي مجموعِ هذه المؤكِّدات: تخويفٌ رهيبٌ لِمَن ثَبَّط نفسَه أو ثبَّط غيرَه(٤).

٢- **قوله:** ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراضٌ بين فِعْلِ القولِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ومَقولِه وهو: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ للتَّنبيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٠).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥٩).

على ضَعفِ عَقيدتِهم، وأنَّ قولَهم هذا قولُ مَن لا مواصلةَ بينكم وبينه، وإنَّما يريدُ أن يكونَ معكم لمجرَّدِ المالِ(١).

- وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ شبَّهَ حالَهم في حينِ هذا القولِ بحالِ مَن لم تسبِقْ بينه وبين المخاطَبين مودَّةٌ حقيقيَّة أو صوريَّة؛ فاقتضى التَّشبيهُ أنَّه كان بينه وبينهم مودَّةٌ من قَبلِ هذا القول، ووجهُ هذا التَّشبيه أنَّه لَمَّا تمنَّى أنْ لو كان معهم، وتحسَّر على فواتِ فوْزِه لو حضر معهم، كان حالُه في تفريطِه رُفقتَهم يُشبِهُ حالَ مَن لم يكُنْ له اتِّصالٌ بهم، بحيث لا يشهد ما أزمَعوا عليه من الخروجِ للجهاد، فهذا التَّشبيهُ مسُوقٌ مساقَ زيادة تنديمِه وتحسيرِه، أي إنَّه الَّذي أضاع على نفسِه سببَ الانتفاع بما حصَل لرفقتِه من الخير، وثواب النَّصر وفخرِه، ونعمةِ الغنيمة(٢).

- والظَّاهر أنَّه تهكُّم؛ لأنَّ المنافِقين كانوا أعْدَى عدوٍّ للمُؤمنين، وأشدَّهم حَسدًا لهم؛ فكيف يوصَفون بالمودَّةِ إلَّا على وجهِ العكس تهكُّمًا بحالهم(٣)؟!

٣- قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ خِطابٌ للمأمورين بالقِتالِ على طريقةِ الالتفات من الغَيبة إلى الخطابِ؛ مبالغةً في التَّحريض والحثِّ عليه، وهو المقصودُ من الاستفهامِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٣٣).

وهذا على أنَّ المرادَ به هم المنافِقُون، وأمَّا على أنَّ المرادَ ضَعَفةُ المؤمنين؛ فليس فيه هذا الوجهُ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٩٥).

- والاستفهامُ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا شيءَ لكم في حالِ لا تُقاتِلون، والمرادُ أنَّ الَّذي هو لكم هو أنْ تُقاتلوا، فهو بمنزلةِ أمرٍ، أي: قاتِلوا في سبيلِ الله لا يَصُدَّكم شيءٌ عن القتال[1].

٤- **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ كلامٌ مبتدأٌ سِيقَ لترغيب المؤمنين في القِتال، وتَشجيعِهم ببيان كمالِ قوَّتِهم بإمدادِ الله تعالى ونُصرتِه، وغاية ضَعْفِ أعدائهم[2].

- والفاء في ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لبيانِ استتباعِ ما قَبْلَها لِمَا بعدَها، وذكَّرهم بهذا العنوان ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك نتيجةٌ لقتالهم في سبيل الشَّيطان، والإشعارِ بأنَّ المؤمنين أولياءُ الله تعالى، لأنَّ قتالَهم في سبيله، وكلُّ ذلك لتأكيدِ رغبة المؤمنين في القتال، وتقوية عزائِمِهم عليه[3].

٥- **قوله:** ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أكَّد الجملةَ بمؤكِّدينِ (إنَّ) و(كَانَ) الدَّالَّة على تقرُّرِ وصْفِ الضَّعفِ لكيد الشَّيطانِ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠١)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٤).

الآيات (٧٧ - ٧٩)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾: أي: قُصورٍ عاليةٍ، أو حُصونٍ مُطوَّلة، أو البيوتِ الَّتي فوقَ الحُصونِ، وأصل (برج): من الظُّهور والبروزِ مِن: بَرجَتِ المرأة، إذا ظهَرت وبرَزت(١).

﴿يَفْقَهُونَ﴾: يفهَمون حقَّ الفَهْم، والفِقْه: هو التَّوصُّل إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلم شاهدٍ، وأصل (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشَّيء، والعِلم به(٢).

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾: الجارُّ والمجرورُ في محلِّ نَصْبٍ، نَعتٌ لمصدرٍ مَحذوفٍ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

أي: خشيةً كخشيةِ اللهِ، أو في محلِّ نصبٍ على الحالِ من الواو في ﴿يَخْشَوْنَ﴾، أي: مُشْبِهينَ لأَهْلِ خَشيةِ اللهِ.

﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: ﴿أَشَدَّ﴾ منصوبٌ عطفًا على محلِّ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، و﴿خَشْيَةً﴾ تمييزٌ منصوبٌ، ويجوز اعتبارُ ﴿خَشْيَةً﴾ مؤخَّرةً مِن تقديمٍ، والأصلُ: يَخْشونَ النَّاسَ مِثلَ خشيةِ اللهِ أو خَشيةً أشدَّ منها؛ وعليه فهي منصوبةٌ بالعطفِ على محلِّ ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وينتصِبُ ﴿أَشَدَّ﴾ على الحالِ مِن ﴿خَشْيَةً﴾ الذي كان في الأصلِ نعتًا لها، فلمَّا قُدِّم عليها صارَ حالًا منها؛ كقول القائلِ: لِمَيَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ، فلو تأخَّرَ (مُوحِشًا) لكان: لِمَيَّةَ طَلَلٌ مُوحِشٌ، ولكان نعتًا للطَّلَلِ، ولكن لَمَّا تقدَّم أصبحَ حالًا، وعلى هذا الوجهِ فلا ينتصِبُ ﴿خَشْيَةً﴾ على التَّمييزِ. وقيل غير ذلك في إعرابِ هذه الآيةِ[1].

المَعْنى الإجماليُّ:

يخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا له: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- من هؤلاء الَّذين قيل لهم: أمسِكوا عن قتال المشركين، وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة- وكان بعضٌ ممَّن مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد سألوا أن يُفرَض عليهم القتالُ- فلمَّا فرَض الله عليهم القتال إذا جماعةٌ منهم يخافونَ من النَّاس كخوفِهم مِن اللهِ أو أشدَّ من ذلك، وقالوا: ربَّنا لِمَ فرضْتَ علينا القتالَ؟! هلَّا أخَّرتَ فرضه إلى وقتٍ آخرَ غيرِ هذا الوقت، فأمر الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهم: إنَّ ما في الدُّنيا إنَّما هو متاعٌ قليل زائل، وما في الآخرة من نعيمٍ للمتَّقين هو خيرٌ وأفضلُ ممَّا في هذه الدُّنيا، ولا يُظلَمون شيئًا.

ثمَّ يخبِر تعالى أنَّ الموتَ سيُدرك الجميع في أيِّ بقعةٍ كانوا، ولو كانوا

(١) ينظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٧٤)، ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٤/ ٤١-٤٢).

محصَّنين في حصونٍ منيعةٍ وعاليةٍ، ويبيِّن تعالى أنَّ المكذِّبين لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إنْ أصابهم خيرٌ يقولون: هذا جاء من عند الله تعالى، وإنْ أصابهم سوءٌ وشرٌّ قالوا: إنَّ ما أصابهم هو بسبب ما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأمَرَ اللهُ نبيَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يقول لهم: إنَّ جميعَ ما أصابهم مِن خيرٍ أو شرٍّ هو بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ فما لِهؤلاءِ القومِ الصَّادرِ منهم هذا القولُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يفهمون حديثًا بالكلِّيَّة، ولا يقرُبون من فهمِه؟!

ثمَّ يخاطب اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: أنَّ ما أصابه من خير هو من عند الله تعالى، وما ناله من أذًى ومكروه هو بسبب ذنبٍ صدَر منه، ويخبره تعالى أنَّه بعَثه للناس رسولًا بينه وبين الخَلق يبلِّغُهم شَرْعَه سبحانه، وكفى بالله شهيدًا.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾.

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، ((أنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ وأصحابًا له رضِي اللهُ عنهم أتَوُا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا نبي الله، كنَّا في عزٍّ ونحن مشركونَ، فلمَّا آمنَّا صِرنا أذلَّة، قال: إنِّي أُمرتُ بالعَفْوِ، فلا تقاتلوا القَوْمَ، فلمَّا حوَّله الله إلى المدينة أمَرَه بالقتالِ، فكفُّوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية))[1].

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، والطبري في ((تفسيره)) (٨/ ٥٤٩)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٦٣٠)، والحاكم (٢/ ٧٦).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾.

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- من هؤلاء الَّذين أُمِرُوا بإمساك أيديهم عن حرْبِ أعدائهم المشركين، والامتناعِ عن قتالِهم[١].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وعليكم بأداء الصَّلاة بحدودِها وفروضها تامَّةً، كما أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ، وإيتاءِ الزَّكاة أهلَها المستحقِّين كما شُرِعت[٢].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾.

أي: فلمَّا فُرِض عليهم القتالُ- الَّذي كانوا قد سألوا أن يُفرَضَ عليهم- في وقتِه المناسبِ لذلك[٣].

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

أي: إذا جماعةٌ منهم يخافون النَّاسَ أن يقاتلوهم، خوفًا شديدًا كخوفِهم من اللهِ تعالى، أو[٤] أشدَّ خوفًا[٥].

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٠٨٦)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٦٣٣) وقال: رجالُه رجالُ الصَّحيح.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٧-١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤١-٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٢-٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٠-٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٣).

(٤) (أو) يحتملُ أن تكونَ للتنويع أي: أنَّ بعضَهم يخشون النَّاس كخشيةِ الله، وبعضَهم يخشون النَّاس أشدَّ خشيةً، ويحتملُ أن تكونَ (أو) للإضرابِ، فيكون المعنى: بل أشدَّ خشيةً، أو لتحقيقِ ما سبَق، وليست (أو) للشكِّ قطعًا. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي))

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾.

أي: وقالوا: لِمَ فرَضْتَ علينا القتالَ يا اللهُ[١]؟

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أي: هلَّا أخَّرتَ فرضَ القتال مدَّةً أخرى متأخِّرةً عن الوقتِ الحاضر، قيل: يعنونَ بذلك تأخيرَه إلى أن يموتوا على فُرُشِهم وفي بيوتهم[٢].

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- ردًّا عليهم: ما في الدُّنيا من نِعَمٍ قليلة كيفًا وكمًّا ووقتًا، فهي محدودةٌ وفانية[٣].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

أي: وما في الآخِرة من نعيمٍ أعدَّه الله تعالى للمتَّقين خيرٌ وأفضلُ ممَّا في الدُّنيا كيفًا وكمًّا ووقتًا؛ فنعيمُ الآخرة عظيمٌ، وكثيرٌ لا يُعَدُّ، وباقٍ لا يزولُ[٤].

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: إنَّ سعيَكم للآخِرةِ ستَجِدون أجْرَه كاملًا موفَّرًا غيرَ منقوصٍ منه شيئًا[٥].

(ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤-٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٤-٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٣-٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٨-٥٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي))

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾.

أي: في أيِّ مكانٍ كنتم، فإنَّ الموتَ آتِيكم لا مَحالةَ، لا يَنجو منه أحدٌ منكم، سواءٌ في ذلك مَن خرَج للجِهاد في سبيلِ الله تعالى، ومَن قعَدَ عنه[1].

﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

أي: إنَّ الموتَ واصلٌ إليكم حتمًا، ولو تَحصَّنتم منه بالحُصونِ المنيعة العاليةِ[2].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

أي: وإنْ ينَلِ المكذِّبين لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، رخاءٌ وخصبٌ ورزقٌ وأولادٌ وعافيةٌ وظفَرٌ وفتحٌ وغنائمُ، وغيرُ ذلك من الخيرات؛ فإنَّهم يقولون: هذا قدْ جاء من قِبَل اللهِ تعالى ومِن تَقديرِه، وليس لك علينا في ذلك فَضلٌ يا محمَّدُ[3].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾.

أي: وإنْ تنَلْهم شِدَّةٌ؛ كضيقٍ في الرِّزق وقحطٍ وجدبٍ ونقصٍ في الثَّمرات وموتِ أولاد وأحباب، وهزيمةٍ من عدوٍّ، وإصابةٍ بجراحٍ وآلام، وغير ذلك من

(ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٧-٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٨).

شدائدَ ومِحَنٍ، فإنَّهم يقولون: إنَّما أصابَنا ما أصابنا من بلايا بسببِ ما جئتَنا به يا محمَّدُ(١).

كما أخبر الله عن قوم فرعونَ في قولهم مثل ذلك لموسى عليه السلام؛ حيث قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وكما قال قومُ صالحٍ عليه السَّلام له: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧].

﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

أي: قُلْ - يا محمَّدُ - لهؤلاء القومِ: جميعُ ما أصابكم من حَسنةٍ أو سيِّئة، فهو بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه(٢).

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾.

أي: عجبًا لهؤلاء القومِ؛ ما شأنُهم لا يفهمونَ حديثًا بالكلِّيَّة، ولا يَقرُبون من فَهمِه! ومن ذلك حقيقةُ أنَّ كلَّ ما أصابهم فمِن عندِ الله تعالى، بتَقديرِه ومَشيئته، لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه(٣)؟!

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٥٥٨-٥٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٠-٢٤١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

أي: ما تُؤتاه -يا محمَّدُ- من نِعَم الدِّين والدُّنيا، فهو من فضلِ الله تعالى ورحمتِه[1].

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾.

أي: وما ينالُكَ من أذًى ومكروهٍ؛ فبسببِ ذنبٍ صَدَر منك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾.

أي: إنَّما بعثناك- يا محمَّدُ- رسولًا بيننا وبين النَّاس عامَّةً، تُبلِّغهم شرائعَ الله تعالى، وما يُحبُّه ويرضاه، وما يكرَهُه ويأباه[3].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾.

أي: وحَسْبُك اللهُ عزَّ وجلَّ شاهدًا على أنَّه أرسَلك، وشاهدًا على إبلاغِك رِسالتَه، وشاهدًا على مَن أُرسلتَ إليهم في قَبولهم أو رَفْضِهم رسالتَك[4].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- أنَّ الإنسانَ قد يتعجَّلُ الشَّيءَ فإذا نزَل به نكَص عنه، وهؤلاء تعجَّلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٣-٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

القتالَ، فلمَّا أُمِروا به نكَص بعضُهم عنه؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: ((لا تتمنَّوْا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبِروا؛ فإنَّ الجنَّةَ تحت ظلال السُّيوفِ))[١].

ويتفرَّعُ من هذه الفائدةِ: أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتدخَّل في أمرٍ يَعجِزُ عن الخروجِ منه؛ لأنَّ فيه إذلالًا للنَّفْس، ووجهُه أنَّ الإنسانَ إذا شرَعَ في الشَّيء ثمَّ عجَز عنه وتأخَّر، نزَلتْ قيمتُه عند النَّاس، وقالوا: هذا رجلٌ مُتسرِّع، مُتعجِّل؛ كيف يَدخُلُ في أمرٍ، وهو لا يَعرِفُ كيف يخرُجُ منه[٢]؟!

٢- أنَّ الإنسانَ إذا كان لا يستطيعُ أن يقومَ بالجِهاد، فليُحسِن الأعمالَ أو العباداتِ الخاصَّةَ؛ لأنَّه أُمِر بها؛ لقوله: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٣].

٣- التَّزهيد في الدُّنيا؛ لقوله: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾[٤].

٤- أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَستعدَّ للموتِ؛ لأنَّه لا مفرَّ له منه، وإذا كان لا مفرَّ فلْنستعدَّ له، ولْنعمَلْ، قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾[٥].

٥- ذمُّ مَن لا فِقهَ عنده؛ لقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾، ويتفرَّعُ على ذلك: مدحُ مَن وفَّقه اللهُ للفِقه في دِين الله[٦].

٦- في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ أنَّه يجبُ

(١) رواه البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبي أوفى.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٥٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦٢).

على العاقلِ الرَّشيد أن يطلُبَ فِقهَ القول دون الظَّواهر الحرفيَّة، فمن اعتاد الأخذَ بما يطفو مِن الظَّواهرِ دون ما رسب في أعماقِ الكلامِ، وما تغلغل في أنحائِه وأحنائِه، يبقى جاهلًا غبيًّا طول عمره[1].

٧- أنَّه يجبُ على الإنسانِ إذا أصابتْه الحسنةُ أن يُولِيَها شكرًا لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها منه تفضُّلًا وإحسانًا، وإذا أصابته السَّيِّئة فلْينظُرْ في نفسِه حتَّى يُحاسِبَها، ويستعتبَ فترتفعَ السَّيِّئةُ، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾[2]، فما أصابَ العبدَ مِن حُزنٍ وذُلٍّ وشَرٍّ؛ فبِذُنوبه وخطاياه[3].

٨- في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ نفيُ الشُّؤم والتَّطيُّر وإبطالُهما؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّ ما يُصيبهم من السَّيِّئات لا يصيبهم بشؤمِ أحدٍ يكونُ فيهم، وكانوا يتشاءمون ويتطيَّرون في الجاهليَّة، ولا يزال التَّطيُّر والتَّشاؤمُ فاشيًا في الجاهلين من جميع الشُّعوب، وهو مِن الخرافات الَّتي يرُدُّها العقلُ، وقد أبطلها دِينُ الفِطرة؛ قال تعالى في آلِ فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]، فقد جعَل التَّطيُّر من الجهلِ، وفقدِ العِلم بالحقائق[4].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- الدَّعوة إلى التَّعجُّبِ لِمَا يكونُ محَلَّ تعجُّبٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ في الآية للتَّعجيب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ ...﴾[5].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٠).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ ...﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ إيجاب الصَّلاة والزَّكاة كان مقدَّمًا على إيجابِ الجهاد، وهذا التَّرتيبُ هو المُطابِق لِما في العقول؛ لأنَّ الصَّلاةَ عبارةٌ عن التَّعظيمِ لأمر اللهِ، والزَّكاةَ عبارةٌ عن الشَّفقة على خَلْقِ الله، ولا شكَّ أنَّهما متقدِّمان على الجهاد[1].

٣- ذمُّ مَن خَشِي النَّاسَ كخشيةِ اللهِ أو أشدَّ؛ لقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾، وعلامةُ ذلك: أنَّ الإنسانَ يترُكُ ما أوجَب اللهُ عليه خوفًا مِن النَّاس، أو يفعَلُ المحرَّم خوفًا من النَّاس، فإنَّ هذا مذمومٌ، وقد يصِلُ أحيانًا إلى الشِّركِ بالله عزَّ وجلَّ[2].

٤- في قوله تعالى: ﴿كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ قد يُتوهَّمُ مِن ظاهرِ العَطفِ بـ(أو) الشَّكُّ، وذلك محالٌ على علَّام الغيوبِ سُبحانه؛ وجوابُ ذلك مِن وجوه:

الأوَّل: أنَّ المرادَ منه الإبهامُ على المخاطَب، بمعنى أنَّهم على إحدى الصِّفتين من المساواةِ والشِّدَّة؛ وذلك لأنَّ كلَّ خوفينِ فأحدُهما بالنِّسبة إلى الآخَرَ إمَّا أن يكونَ أنقصَ أو مساويًا أو أزيدَ، فبيَّن تعالى بهذه الآيةِ أنَّ خوفَهم مِن النَّاس ليس أنقصَ مِن خوفِهم من الله، بل بقِي، إمَّا أن يكونَ مساويًا أو أزيدَ، فهذا لا يوجِبُ كونَه تعالى شاكًّا فيه، بل يوجِبُ إبقاءَ الإبهام في هذين القِسمينِ على المخاطَبِ.

الثَّاني: أنْ يكون ﴿أَوۡ﴾ بمعنى الواو، والتَّقدير: يَخشونهم كخشيةِ اللهِ وأشدَّ خشية، وليس بين هذينِ القِسمينِ منافاةٌ؛ لأنَّ مَن هو أشدُّ خشيةً فمعه من الخشيةِ مِثلُ خشيتِه من الله وزيادةٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٣).

الثَّالث: أنَّ هذا نظيرُ قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، يعني أنَّ مَن يُبصِرُهم يقولُ هذا الكلام، فكذا ها هنا، واللهُ أعلم(١).

- قَوْلُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ...﴾ فيه ذمُّ الجُبْنِ، وما في القرآن من الحضِّ على الجهادِ والتَّرغيبِ فيه، وذمِّ النَّاكِلينَ عنه والتَّارِكينَ له؛ كلُّه ذمٌّ للجُبْنِ(٢).

٥- قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، وإنَّما كانت الآخرةُ خيرًا من الدنيا لوجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ نِعَمَ الدُّنيا قليلةٌ، ونِعَمَ الآخرة كثيرة. **والثَّاني**: أنَّ نِعَم الدُّنيا منقطعة، ونِعَم الآخرة مؤبَّدة. **والثَّالث**: أنَّ نِعَم الدُّنيا مَشُوبة بالهموم والغُموم والمكارِه، ونِعَم الآخرة صافيةٌ عن الكدرات. **والرابع**: أنَّ نِعَم الدُّنيا مشكوكةٌ؛ فإنَّ أعظمَ النَّاس تنعُّمًا لا يعرِفُ أنَّه كيف يكون عاقبتُه في اليوم الثَّاني، ونِعَم الآخرة يقينيَّة، وكلُّ هذه الوجوهِ توجِبُ رجحانَ الآخرةِ على الدُّنيا، إلَّا أنَّ هذه الخيريَّةَ إنَّما تحصُلُ للمؤمنين المتَّقين؛ فلهذا المعنى ذكَر تعالى هذا الشَّرطَ، وهو قوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾(٣).

٦- ذمُّ مَن اعترَض على أحكامِ الله الشَّرعيَّة، كما في هذه الآية: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، والكونيَّةِ؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ فإنَّ هذا يشمل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٣- ١٤٤).
وقيل: (أو) على بابها من الشك في حق المخاطب، وقيل: للتخيير. وقيل: بمعنى بل. وقيل إنها للتنويه، بمعنى: أن منهم من يخشى الناس كخشية الله، ومنهم من يخشاهم خشية تزيد على خشيتهم الله. ينظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٥).
(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٤).

الحُكمَ الكونيَّ والحُكم الشَّرعيَّ، فلا يجوز أن يعترضَ الإنسانُ على أحكام الله الشَّرعيَّة، ولا على أحكام اللهِ الكونيَّة، بل عليه أن يستسلمَ، أمَّا الشَّرعيَّة فمن النَّاس مَن يستسلمُ، ومنهم مَن لا يستسلمُ، وأمَّا الكونيَّةُ فالجميعُ مستسلِمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]، فهذا السُّجودُ الكونيُّ، كلُّ إنسانٍ ذليلٌ خاضعٌ لحُكم اللهِ الكونيِّ، ولا يمكِنُ أن يُدافِعَه أبدًا[١].

٧- جوازُ التَّفضيلِ بين شَيئينِ مُتباينينِ غايةَ التَّبايُنِ؛ لقوله: ﴿وَٱلْأَٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ لأنَّه لا نسبةَ بين الدُّنيا والآخرة، لكن لَمَّا كانت الدُّنيا عاجلةً، والنَّفسُ مُولَعةٌ بحبِّ العاجلِ، صار التَّفضيلُ بينهما مستحسَنًا؛ فالآخرةُ خيرٌ لِمَن اتَّقى[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَٰخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ جَمَع بينَ التزهيدِ في الدُّنيا، والترغيبِ في الآخِرَةِ، والحضِّ على فِعْلِ الخيرِ، والزَّجرِ عن فِعْلِ الشَّرِّ؛ إذ قولُه: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يتضمَّنُ حثَّهم على كَسْبِ الخيرِ، وزَجْرَهم عن كسْبِ الشرِّ[٣].

٩- في قوله تعالى: ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إسنادُ الإدراكِ إلى الموتِ، ويَتفرَّعُ عليها أنَّ الأسبابَ يصحُّ أن يُسنَدَ إليها الشَّيءُ، لكنْ بشرط أن يعتقدَ أنَّ هذه الأسبابَ لا تؤثِّرُ بنفسِها، وإنَّما هي من الله عزَّ وجلَّ[٤].

١٠- جوازُ حَذْفِ ما يُعلَم، ولا يُعدُّ ذلك خلَلًا في الكلام؛ لقوله: ﴿وَلَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٥) وينظر: أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢).
(٣) ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٠).

كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾، أي: لأدرَكَكُم الموتُ، ويَتفرَّعُ مِن هذه الفائدةِ ما يكونُ في عُقودِ البيعِ والإجارةِ والرَّهنِ والوقفِ وما أشبَهَها؛ فمثلًا: إذا قال الإنسانُ: وقفتُ هذا على فلانٍ ولو كان غنيًّا، المعنى: ولو كان غنيًّا فهو وقْفٌ عليه، وعلى هذا فيكونُ الوقفُ ثابتًا لهذا الموقوفِ عليه على كلِّ تقديرٍ[١].

١١- تَلبيسُ أعداءِ الرُّسل على العامَّة بما يقدِّر اللهُ سبحانه من البلاء والامتحان؛ كالجدبِ والفَقْر والمَرَض إذا بعَث الرُّسل، فيكون لله الحِكمةُ فيما قدَّره ليبتليَ العبادَ، أيقبَلون أم لا؟ لكنْ يتَّخذُ أعداءُ الرُّسل مِن هذا ذريعةً للتَّنفير من الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾[٢].

١٢- إقرارُ المكذِّبين للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، وتؤخَذُ من قولهم: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، فهم يُقرُّون بالله عزَّ وجلَّ، ويُقرُّون بأنَّ ما يحدُثُ في الكونِ فمِنَ الله، وأنَّ اللهَ هو الرَّزَّاق، وأنَّه المحيي المميتُ، يُقرُّون بهذا كلِّه، لكن لا يُقرُّون بلازمِه، وهو توحيدُ الألوهيَّةِ[٣].

١٣- بيانُ أنَّ ما يُصيبُنا من الحسناتِ فهو محضُ فضلٍ من الله؛ لقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، ويدلُّ لذلك: أنَّ الحسنةَ الَّتي تصيبُك إمَّا أن تكونَ ابتداءً، وإمَّا أن تكونَ ثوابًا، فإن كانت ابتداءً فكونُها فضلًا واضحٌ، وإن كانت ثوابًا على عمَلٍ فإنَّ توفيقَنا للعمل الَّذي كانت هذه الحَسنةُ ثوابًا له مِن الله عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٥٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٦٤).

١٤- جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَببِه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[(١)].

١٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاة والسَّلامُ لا يكونون سببًا لشرٍّ يحدُثُ، هم ولا ما جاؤوا به؛ لأنَّهم بُعِثوا بصلاح الدُّنيا والآخرةِ والدِّين[(٢)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ الاستفهامُ هنا معناه التَّعجُّب[(٣)]، وهو تعجيبٌ لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إحجامِهم عن القِتالِ مَع أنَّهم كانوا قَبلَ ذلكَ راغِبينَ فيه، حِراصًا عليه، بحيثُ كادوا يُباشرونه، كما يُنبئُ عنه الأمرُ بكفِّ الأيدي؛ فإنَّ ذلك مُشعِرٌ بكونِهم بصَددِ بَسْطِها إلى العَدوِّ بحيثُ يَكادون يَسطُونَ بهم[(٤)].

٢- **قال تعالى:** ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾

- دلَّت ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّة على أنَّ هذا الفريقَ لم يكُنْ تُترقَّب منهم هذه الحالةُ؛ لأنَّهم كانوا يظهَرون من الحريصينَ على القتال[(٥)].

- وقوله: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ مسُوقٌ مساقَ التَّوبيخِ لهم؛ حيث رغِبوا تأخيرَ العمل بأمر الله بالجهاد؛ لخوفِهم من بأس المشركين؛ فالتَّشبيهُ جارٍ على طريقة المبالَغة؛ لأنَّ حملَ هذا الكلامِ على ظاهر الإخبار لا يلائمُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٥).

حالَهم من فضيلةِ الإيمان والهجرة[1].

- وفي قوله: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ تشبيهٌ، أي: يخشَوْنهم مشبِهين لأهلِ خشيةِ الله تعالى[2].

٣- **قوله:** ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: وقَع موقعَ زيادة التَّوبيخ الَّذي اقتضاه قوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: ولا تُنقصون شيئًا من أعمارِكم المكتوبة؛ فلا وجهَ للخوفِ، وطلبِ تأخير فرْض القتال. وقيل: معنى نفي الظُّلم هنا أنَّهم لا يُظلَمون بنقصِ ثوابِ جهادهم، فيكون موقعُه موقعَ التَّشجيع؛ لإزالة الخوف[3].

٤- **قال تعالى:** ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

- قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ فيه حذفُ جوابِ لو؛ اعتمادًا على دَلالةِ ما قبلَهُ عليهِ، والتقدير: (وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مشيدةٍ يُدرككم الموتُ)، وجملةُ ﴿وَلَوْ كُنتُمْ...﴾ معطوفةٌ على أُخرى مِثلِها محذوفة، والتقدير: لو لم تكونوا في بُروج مُشيَّدةٍ ولو كُنتُم...إلخ، وقد اطَّردَ حذفُ الجملةِ الأولى المعطوفِ عليها؛ لِدلالة المذكورِ -أي: الجملة الثانية جملة المعطوف ﴿وَلَوْ كُنتُمْ﴾- عليها دَلالةً واضحةً؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا تَحقَّقَ عِندَ المانعِ، فلَأَنْ يَتحقَّقَ عِندَ عَدمِه أَوْلَى، وعلى هذِه النُّكتةِ يَدورُ ما في (لو) الوصليَّةِ من التأكيدِ والمبالغةِ[4].

٥- **قوله:** ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا استفهامٌ معناه التَّعجُّب من هذه المقالة، وهذا النَّوعُ مِن الاستفهامِ يَتضمَّنُ إنكارَ ما استُفْهِم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٥).

عِلَّتِه، وأنَّه يَنبغي أنْ يوجَدَ مُقابِلُه(١).

- وهو كلامٌ مُعترِضٌ بين المبيَّن وبيانِه، مسُوقٌ من جِهتِه تعالى؛ لتعييرِهم بالجهل، وتقبيحِ حالهم، والتَّعجُّبِ مِن كمال غَباوَتِهم، والفاء لترتيبِه على ما قبله(٢).

٦- **قوله:** ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ...﴾ بيانٌ للجوابِ المُجْملِ المأمورِ به في قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وإجراؤُه على لِسان النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ سَوْقُ البَيانِ من جهتِه عزَّ وجلَّ بطَريقِ تلوينِ الخطابِ وتوجيهِه إلى كلِّ واحدٍ من النَّاسِ، والالتفاتُ لمزيدِ الاعتناءِ به، والاهتمامِ بردِّ مقالتِهم الباطلةِ(٣).

٧- **قوله:** ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ ﴿رَسُولٗا﴾ حالٌ قُصِد بها التأكيدُ أو التَّعميمُ؛ فالتَّأكيدُ إنْ عُلِّق الجارُّ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ بالفِعل ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، والتَّعميمُ، إنْ علِّق الجارُّ بها، أي: رسولًا للنَّاس جميعًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾(٤) [سبأ: ٢٨].

٨- **قوله:** ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾: اعتراضٌ تذييليٌّ، وفيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيبة-حيث لم يقل: (وكفى بإلهك أو بربِّك شهيدًا)-؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَقويةِ الشَّهادةِ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٦).

الآيات (٨٠ - ٨٤)

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا
٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ
وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا
يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ وَإِذَا
جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي
ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ
وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ
تَنكِيلٗا ٨٤﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بَرَزُواْ﴾: خرَجوا إلى الفَضاءِ، والمتَّسعِ من الأرض، وأصل (برز): ظهور الشَّيء وبُدُوُّه، ومنه سُمِّي الفضاء؛ لأنَّه ظاهرٌ، وبادٍ غيرُ خفيٍّ[١].

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ﴾: أي: دَبَّروا وزوَّروا، أو قالوا وقدَّروا ليلًا، يقال: بيَّت فلان رأيَه: إذا فكَّر فيه ليلًا، وأصل البَيْت: مأوى الإنسان بالليل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام بالليل، ويُطلَق أيضًا على المآبِ، ومجمَع الشَّمل[٢].

﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: يتأمَّلون في معانيه، ويَتبصَّرون ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

الأمرَ تَدبُّرًا ، أي: نظرتُ في دُبُرِه، وهو عاقِبَتُه وآخِرُه، ودَبَّرتُ الأمرَ تَدبِيرًا، أي: فعلتُه عن فِكرٍ ورَويَّةٍ، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيء وخَلْفُه، خلافُ قُبُله[1].

﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: أي: أشاعُوه وأفشَوْه، وتحدَّثوا به، والإذاعة: الإفشاءُ والتَّفريق، وأصل (ذيع): يدلُّ على إظهارِ الشَّيء، وظُهورِه وانتشاره[2].

﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: أي: يَبْحثون ويُنقِّرون عنه ويَستخرجونه، مأخوذٌ من النَّبَطِ، وهو الماءُ يخرُجُ من البِئر أوَّلَ ما تُحفَر، وأصل (نبط): يدلُّ على استخراجِ شيءٍ[3].

﴿بَأْسًا﴾: أي: عَذابًا، وشِدَّةً في النِّكايةِ، وأصلُ (بأس): الشدَّة وما ضاهاها[4].

﴿تَنكِيلًا﴾: أي: نِكايةً في العَدوِّ، وعُقوبةً وتعذيبًا، وهو مَصدَر: نكَّلَ بفُلانٍ يُنكِّل به تَنكيلًا: إذا أوجعَه عُقوبةً، وفعَلَ به ما يَمْنَعُه من المعاودةِ، ويَمْنَعُ غيرَه مِن إتيانِ مِثلِ صَنيعِه، وأصلُ (نكل): يدلُّ على مَنْعٍ وامتناعٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٥٥-٢٥٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ كلَّ مَن أطاع رسولَه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاعه سبحانه، ومَن أعرَض عن طاعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلن يُسأَلَ عنه، فإنَّ اللهَ لم يُرسِلْه حافظًا لِما يعمَلُ العبادُ، ولا محاسبًا لهم، وإنَّما أرسَله مبلِّغًا.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المنافقين يقولون للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: سنُطيعُك ولن نعصيَك، فإذا خرَجوا مِن عنده أضمَر جماعةٌ منهم ليلًا معصيتَه، على غيرِ ما أظهَروه له مِن الطَّاعة، واللهُ يكتُبُ ما يُضمِرون، ويُخفون في أنفسِهم، ثمَّ أمَر اللهُ نبيَّه أن يُعرِضَ عن هؤلاء، وأن يتوكَّلَ عليه، وحسبُه اللهُ وكيلًا يتوكَّلُ عليه.

ثم يدعو الله تعالى إلى تدبر كتابه فيقول: أفلَا يتأمَّلُ ويتفكَّرُ هؤلاء المنافقون في القرآنِ الكريمِ؛ فتتَّضحَ لهم أدلَّتُه، وتظهَرَ براهينُه؟! ولو كان هذا القرآنُ مِن عند غيرِ اللهِ لوجَدوا فيه اختلافًا واضطرابًا كثيرًا.

ثمَّ يُخبِر تعالى أنَّ المنافقين إن أتاهم خبرٌ في مضمونِه أمنُ المؤمنين، أو فيه ما يخوِّفُهم، أشاعوه دون تثبُّتٍ مِن صحَّتِه، ولو ردُّوا هذه الأخبارَ قبل إشاعتِها إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى علمائِهم وأمرائِهم؛ ليرَوْا هل مِن المصلحةِ إذاعتُه أو لا! لو ردُّوها إليهم لعلِم حقيقةَ ذلك الخبرِ: الَّذين يبحثون عنه، ويُعمِلون أفكارَهم لاستخراجِ ما خَفِي مِن معانيه، ولولا فضلُ اللهِ عليكم لكنتم مثلَ المنافقين؛ فاتَّبعتُم الشيطانَ في إذاعة الأخبارِ، باستثناءِ القَليلِ من الإذاعةِ.

ثمَّ أمَر الله نبيَّه بالقتال في سبيله، مبيِّنًا أنَّه عليه ما كُلِّفَه هو، دون ما كُلِّفَه غيرُه، وأَمَره كذلك أن يرغِّبَ ويشجِّعَ المؤمنين على القتال؛ لعلَّ اللهَ أن يردَّ عنهم قوَّةَ الكَفَرة وشوكتَهم، واللهُ تعالى أشدُّ قوَّةً وصَولةً مِن أولئك الكفَّارِ، وأشدُّ عقوبةً، وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى عِلَل المنافقين في التَّخلُّفِ عن طاعةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أنْ ختَم بالشَّهادةِ برسالتِه- قال مرغِّبًا مرهِّبًا على وجهٍ عامٍّ يُسكِّنُ قلبَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويخفِّفُ مِن دوَامِ عصيانهم له، دالًّا على عصمتِه في جميعِ حركاتِه وسكَناته[1].

وأيضًا فهذه الآيةُ كالتَّكملةِ لقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النساء: ٧٩] باعتبارِ ما تضمَّنه مِن ردِّ اعتقادِهم أنَّ الرَّسولَ مصدرُ السَّيِّئات الَّتي تُصيبُهم، ثمَّ من قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ إلخ [النساء: ٧٩]، المؤذِن بأنَّ بين الخالقِ والمخلوق فرقًا في التَّأثير، وأنَّ الرِّسالة معنًى آخَرُ، فاحترَس بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠] عن توهُّم السَّامعين التَّفرقةَ بين الله ورسولِه في أمور التَّشريعِ، فأثبَت أنَّ الرَّسولَ في تبليغِه إنَّما يُبلِّغُ عن اللهِ؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله، وقد دلَّ على ذلك كلِّه قولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾؛ لاشتمالِها على إثباتِ كونِه رسولًا، واستلزامِها أنَّه يأمُرُ وينهى، وأنَّ ذلك تبليغٌ لمرادِ الله تعالى[2].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾.

أي: كلُّ مَنْ أطاعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاع اللهَ سبحانه؛ لكونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ٣٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

لا يَنطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى؛ فهو لا يأمُرُ ولا ينهى إلَّا بأمرِ الله تعالى وشرعِه ووحيِه[(١)].

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصَاني فقد عصَى اللهَ))[(٢)].

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾.

أي: ومَن أعرَض عن طاعتِك- يا محمَّدُ- فلا عليك منه، ولا تُسأَلُ عنه، إنْ عليك إلَّا البلاغُ؛ فإنَّا لم نُرسِلْك عليهم حافظًا لِما يعمَلون ومُحاسِبًا، بل أرسلناك مبلِّغًا ومبيِّنًا وناصحًا، وقد أدَّيتَ وظيفتَك، ووجب أجرُك على الله عزَّ وجلَّ، سواءٌ أطاعوا أم أعرَضوا[(٣)].

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾.

أي: ويقولُ المنافقون لك- يا محمَّدُ-: سنُطيعك ولا يكونُ منَّا عِصيانٌ[(٤)].

﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٥-٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦).

(٢) رواه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥-١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩).

قال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ...﴾ الآية نزلت في المنافقين باتفاقٍ من المفسِّرين) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٢).

أي: فإذا خرَجوا مِن عندك - يا محمَّدُ - وخلَوْا في حالةٍ لا تطَّلعُ فيها عليهم[١].

﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾.

أي: استسَرَّ جماعةٌ منهم ليلًا فيما بينهم بغيرِ ما أظهَروه لك، وغيَّروا ما تقولُ لهم؛ واستقرَّ رأيُهم على معصيتِك[٢].

ثم توعَّدهم الله على ما فعَلوا فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

أي: واللهُ تعالى يحفَظُ عليهم هذا العصيانَ الَّذي بيَّتوه، وسيُجازيهم عليه أتمَّ الجزاء، فلا تحزَنْ عليهم - يا محمَّدُ - ولا تكُ في ضَيقٍ ممَّا يفعَلون، فإنَّ أمرَهم لا يخفى على اللهِ جلَّ وعلا[٣].

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فأعرِضْ - يا محمَّدُ - عن هؤلاء المُنافِقين، وخَلِّهم وما هم عليه من الضَّلالةِ، ولا تؤاخِذْهم، ولا تخَفْ منهم، ولا تشغَلْ بالَك بهم[٤].

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾

أي: واعتمِدْ أنتَ - يا محمَّدُ - على اللهِ تعالى وثِقْ به[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٩-١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٠-١١).

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحَسْبُك باللهِ سبحانه وليًّا وناصرًا ومُعِينًا[1].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى عن المنافقين أنواعَ مَكرِهم وكيدِهم، وكان كلُّ ذلك لأجلِ أنَّهم ما كانوا يَعتقِدون كونَه محقًّا في ادِّعاء الرِّسالة صادقًا فيه، بل كانوا يعتقدون أنَّه مُفترٍ متخرِّصٌ؛ فلا جرَمَ أمَرَهم اللهُ تعالى بأن ينظُروا ويتفكَّروا في الدَّلائلِ الدَّالَّة على صحَّةِ نبوَّتِه، فاحتجَّ تعالى بالقرآنِ على صحَّةِ نبوَّتِه[2]، فقال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي: أفلا يتأمَّلُ هؤلاء المنافِقون معانيَ القُرآن، وينظُرون في مبادئِه وعواقِبه، ولوازمِ ذلك؛ فتظهَرَ لهم براهينُ الحقِّ، وتلوحَ أدلَّتُه، ويعلَموا حُجَّةَ اللهِ عليهم في طاعة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، واتِّباعِ أمرِه[3]؟

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

أي: ولو كان القرآنُ مفتَعَلًا ومختَلَقًا مِن عندِ أحدٍ، لاضطَرَبَتْ أحكامُه، واختلفَتِ اختلافًا كبيرًا، وتناقضت معانيه كثيرًا، وأبان بعضُه عن فسادِ بعضٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩-١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٤-٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦-١٧).

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ ﴾.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ ﴾.

أي: وإذا أتَى هؤلاء المنافِقِينَ خبرٌ يتعلَّقُ بأمْنِ المؤمنين، كأَمْنٍ مِن عدوٍّ، وغلبةٍ عليهم، أو أتاهم خَبرٌ يتعلَّق بتخوُّفِهم مِن عدوٍّ، وإصابتِه منهم[١].

﴿ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾.

أي: أفشَوْه، وأشاعوه على الفورِ، دون تثبُّتٍ وتحقُّقٍ من صحَّتِه أوَّلًا[٢].

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ ﴾.

أي: ولو أَرجَعوا هذا الأمرَ قبل بثِّه، إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى أُمرائِهم وعلمائِهم حتَّى يكونَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أو ذَوُو أمرِهم هم الَّذين يتولَّون الخبرَ عن ذلك، بعد أن تثبَتَ عندهم صحَّتُه أو كذبُه، إن رأَوْا في إذاعتِه مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين، وسرورًا لهم، وتحرُّزًا من أعدائِهم، وإن رأَوْا أنَّه ليس فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكنَّ مضرَّتَه تزيدُ على مصلحتِه، لم يُذِيعوه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

قال ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ... ﴾ الآية، قال جمهورُ المفسِّرين: الآية في المنافقين حسْبَمَا تقدَّم مِن ذِكرهم) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن

﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: لعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبرِ على الوجهِ المرادِ مِن الأمنِ أو الخوف، الَّذين يَبحَثون عنه، ويَستعلِمونه من معادنِه، ويَستخرجون ما خفِيَ من المعاني بفِكرِهم وآرائِهم السَّديدةِ، وعلومِهم الرَّشيدةِ، حتَّى يصِلوا إلى حقيقةِ الأمرِ بإذنِ الله تعالى[(١)].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾.

أي: ولولا إنعامُ اللهِ عليكم- أيُّها المؤمنون- بفضلِه وتوفيقِه ورحمتِه وإحسانِه، وتأديبِكم، وتعليمِكم ما لم تكونوا تعلَمون[(٢)].

﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: لكُنتُم مِثلَ المنافقين، فاتَّبعتم الشَّيطانَ في إذاعةِ الأخبار، باستثناءِ القليلِ مِن الإذاعةِ[(٣)].

وقيل: لاتَّبعتُم الشَّيطانَ في كلِّ ما تفعلونه إلَّا قليلًا مِن أفعالِكم وأحوالِكم[(٤)].

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ

عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

وممَّن قال مِن السَّلف: إنَّ المقصود بأُولي الأمْر في الآية هم العلماءُ: قَتادة، وابن جُرَيج، والحسن. انظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٦)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (١/ ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦١، ٢٦٥، ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢).

بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالجِهادِ، ورغَّبَ فيه أشدَّ التَّرغيبِ في الآياتِ المتقدِّمة، وذكَرَ في المنافقين قلَّةَ رغبتِهم في الجهاد، بل ذكَر عنهم شدَّةَ سعيِهم في تثبيطِ المسلمين عن الجهاد، وجميع ذلك قد أفاد الاهتمامَ بأمرِ القتال، والتَّحريضَ عليه- عاد في هذه الآيةِ إلى الأمرِ بالجهادِ، وتهيَّأ الكلامُ لتفريع الأمرِ به[١]، فقال تعالى:

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فجاهِدْ- يا محمَّدُ- بنفسِك أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله جلَّ وعلا[٢].

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

أي: ليس لك قدرةٌ على غيرِ نفسِك، وإنَّما عليك ما كُلِّفْتَه، دون ما كُلِّفَه غيرُك[٣].

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وحُضَّهم- يا محمَّدُ- على القتالِ، ورغِّبْهم فيه، وشجِّعْهم عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٤-٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩، ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩).

قال السعديُّ: (﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على القِتال، وهذا يَشملُ كلَّ أمْرٍ يَحصُل به نشاطُ المؤمنين

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: لعلَّ اللهَ تعالى أن يمنَعَ ويرُدَّ عنكم قوَّةَ الكافرين وشوكتَهم، وينصُرَكم عليهم بسببِ القتال في سبيلِ الله تعالى والتَّحريض عليه؛ فبالتَّحريض عليه تنبعِثُ الهِمَمُ على مناجَزةِ الأعداء، والمدافعةِ عن حَوزةِ الإسلام وأهلِه[1].

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾.

أي: واللهُ تعالى أشدُّ قوةً وصَولةً من أولئك الكفَّارِ، وهو قادرٌ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ[2].

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

أي: وهو سبحانه أشدُّ عقوبةً، وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه، من نِكايةِ الكفَّارِ بالمؤمنين[3].

الفَوائِد التربويَّة:

١- الانقيادُ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، طاعةٌ للهِ، وانقيادٌ لحُكم اللهِ؛ إذ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم في تبليغِه إنَّما يبلِّغُ عن الله؛ فأمرُه أمرُ الله، ونهيُه نهيُ الله، وطاعتُه طاعةُ الله؛ لذا قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ

وقوَّة قلوبهم، من تقويتِهم، والإخبارِ بضَعْف الأعداء وفَشلِهم، وبما أُعدَّ للمقاتلين من الثَّواب، وما على المتخلِّفين من العِقاب، فهذا وأمثاله كلُّه يدخُلُ في التحريض على القِتال. ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٩٤).

أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(١)].

٢- التَّحذيرُ من النِّفاقِ، وأنَّ الإنسانَ يجبُ أن يكونَ صريحًا بيِّنًا لا يَظهَرُ للنَّاسِ بوجهٍ، وإذا اختفَى عنهم أعطاهم وجهًا آخَرَ؛ ولهذا لا أحسَنَ مِن الشَّخصِ الصَّادقِ الَّذي لا يُباري ولا يُماري، ولا تأخُذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ، وهذا هو الواجبُ على كلِّ مسلمٍ؛ أن يكونَ ظاهرُه وباطنُه سواءً، ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾[(٢)].

٣- الإعراضُ عمَّن يئِسْنا من صلاحِه؛ لقوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن لا يعني هذا إعراضًا مطلَقًا، بحيث إنَّنا لا نُعيدُ عليه الكَرَّةَ مرَّةً ثانية، وإنَّما نُعرِضُ عنه ما دُمْنا قد أيِسْنا من صلاحِه[(٣)].

٤- كفايةُ اللهِ سبحانه لِمَن توكَّلَ عليه؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وهذا كقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[(٤)].

٥- الحثُّ على تدبُّرِ القُرآنِ؛ فقولُ الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يُرشِدُنا إلى تعلُّمِ معاني القرآنِ، وتدبُّرِ تفاصيله، وما فيه من المعاني البديعةِ، وفِقهِه وعَقْلِه، والتذكُّرِ به، والتفكُّرِ فيه، ولم يَستثنِ من ذلِك شيئًا؛ فنفيُ الاختلافِ عنه لا يكونُ إلَّا بتدبُّره كلِّه، وإلَّا فتدبُّرُ بعضِه لا يُوجِبُ الحُكمَ بنفي مُخالِفِه، ولو تأمَّلَ النَّاسُ وتدبَّروا هَدْيَ القرآنِ لحصَلَ لهم خيرٌ عظيمٌ[(٥)]. وكلَّما ازداد العبدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧).

تأمُّلًا فيه، ازداد عِلمًا وعملًا وبصيرةً؛ لذلك أمَر الله بذلك، وحثَّ عليه، وأخبر أنَّه هو المقصودُ بإنزال القرآن(١).

٦- مِن فوائد التَّدبُّر لكتاب الله: أنَّه بذلك يصلُ العبدُ إلى درجةِ اليقينِ والعِلمِ بأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه يراه يصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويوافق بعضُه بعضًا، فترى الحُكمَ والقِصَّةَ والإخبارات تُعادُ في القرآنِ في عدَّةِ مواضعَ، كلُّها متوافقةٌ متصادِقةٌ، لا ينقُضُ بعضُها بعضًا، فبذلك يُعلَمُ كمالُ القرآن، وأنَّه مِن عندِ مَن أحاط علمُه بجميعِ الأمور؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢).

٧- كلُّ شيءٍ في القرآن تظُنُّ فيه التناقُضَ فيما يبدو لك فتدبَّرْه؛ حتى يتبيَّنَ لك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ فإنْ لم يتبيَّنْ لك، فعليك بطريقِ الرَّاسخينَ في العِلْم الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وَكِلِ الأَمْرَ إلى مُنْزِلِه الذي يَعْلَمُه، واعلمْ أنَّ القصورَ في عِلْمِك أو في فَهْمِك، وأنَّ القُرآنَ لا تناقُضَ فيه(٣).

٨- التَّحذيرُ من التَّعجُّلِ في نشر الخبرِ، والحرصُ على عدم إذاعة الشَّيء إلَّا بعد التَّيقُّن من معناه، والمعرفةِ به؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ

(تدبُّرُ كتابِ الله مفتاحٌ للعلومِ والمعارف، وبه يُستنتَجُ كلُّ خيرٍ، وتُستخرَجُ منه جميعُ العلوم، وبه يزدادُ الإيمانُ في القلبِ، وترسَخُ شجرتُه؛ فإنَّه يعرِّفُ بالرَّبِّ المعبود، وما له مِن صفاتِ الكمال; وما يُنزَّهُ عنه من سماتِ النَّقص، ويعرِّفُ الطَّريقَ الموصلةَ إليه وصِفةَ أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّفُ العدوَّ الَّذي هو العدوُّ على الحقيقةِ، والطَّريقَ الموصلةَ إلى العذاب، وصِفةَ أهلِها، وما لهم عند وجودِ أسباب العقاب). ((تفسير السعدي)) (ص: ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٣) ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣١٧).

﴿ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾، وهذا إنكارٌ عليهم، وذمٌّ لهم، ثمَّ أرشَدهم إلى ما هو الأصوب[١].

٩- خوضُ العامَّةِ في السِّياسة وأمور الحربِ والسِّلم، والأمن والخوف، أمرٌ معتادٌ، وهو ضارٌّ جدًّا إذا شُغِلوا به عن عملِهم، ويكونُ ضررُه أشدَّ إذا وقَفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به، وهم لا يستطيعون كتمانَ ما يعلَمون، ولا يعرِفون كُنْهَ ضررِ ما يقولون، وأضَرُّه عِلمُ جواسيسِ العدوِّ بأسرار أُمَّتِهم، وما يكونُ وراء ذلك، ومِثلُ أمرِ الخوفِ والأمنِ وسائرِ الأمور السِّياسيَّة والشُّؤون العامَّة الَّتي تختصُّ بالخاصَّةِ دون العامَّةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾[٢].

١٠- الرُّجوع إلى الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم في حياتِه، وإلى سنَّتِه بعد وفاته، وإلى أولي الأمر في نَشْرِ الأخبارِ وإذاعتِها؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[٣].

١١- التَّعمُّقُ في التَّثبُّتِ، ويُؤخذُ من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ ولم يقُلْ: يَعلمونه، وهنا إظهارٌ في موضع الإضمار؛ لأنَّ الأصل: ولو ردُّوه إلى الرَّسول وإلى أُولي الأمرِ منهم لعلِموه، لكنَّه قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾، فأظهَر في موضعِ الإضمار لهذه الحِكمةِ[٤].

١٢- قوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فيه دليلٌ لقاعدةٍ أدبيَّة، وهي أنَّه إذا حصل بحثٌ في أمرٍ من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهلٌ لذلك، ويُجعَل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤، ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧).

إلى أهله، ولا يُتقدَّمَ بين أيديهم؛ فإنَّه أقربُ إلى الصَّواب، وأحرى للسَّلامة من الخطأ[١].

١٣- أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَلجأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في ابتغاء الفضلِ، لا إلى غيرِه؛ لقوله: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾[٢].

١٤- وجوبُ الإخلاصِ؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وما عدَا سبيلَ اللهِ، فيوصَفُ بأنَّه في سبيلِ الطَّاغوت؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[٣] [النِّساء: ٧٦].

١٥- أنَّه لا يُكلَّفُ أحدٌ هدايةَ أحدٍ، حتَّى الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي هو أهدى الخَلْق وأعظمُهم هدايةً، لا يمكِنُ أن يُكلَّفَ هدايةَ أحدٍ، دليلُه: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾، وعليه فإذا دعوتَ إلى اللهِ، أو أمرتَ بمعروفٍ، أو نهيتَ عن مُنكَرٍ، ولم يُستجَبْ لك، فلا حرَجَ عليك[٤].

١٦- أنَّه يجبُ على الإنسان مراعاةُ نفسِه، وقيادتُها للحقِّ؛ لأنَّه مكلَّفٌ إيَّاها؛ لقوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ﴾ فأنت مكلَّفٌ بنفسِك، يجب أن تجُرَّها إلى ما فيه الخيرُ، وأن تنهاها عمَّا فيه الشَّرُّ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾[٥] [يوسف: ٥٣].

١٧- أنَّ مَن قام بالواجب في حقِّ نفسِه، فلا ينسَ إخوانه؛ لقوله: ﴿وَحَرِّضِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).

ﱡﭐ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: حُثَّهم على القتالِ في سبيل الله، فإن استجابوا فذلك المطلوبُ، وإن لم يستجيبوا فقد أبرأتَ ذمَّتَك[١].

١٨- أنَّ الكافرينَ لهم بأسٌ وقوَّةٌ، لكنَّهم تحت قوَّةِ الله؛ لقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولكن ينبغي عدمُ الانبهارِ بقوَّةِ الأعداء؛ فإنهم ليسوا عند قدرةِ الله شيئًا[٢].

١٩- قول اللهِ تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ فيه تقويةٌ لقلوبِ المؤمنين؛ إذ إنَّ بأسَ اللهِ أشدُّ مِن بأس الكفَّارِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ مِن أقوى الدَّلائلِ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ في جميع الأوامرِ والنَّواهي، وفي كلِّ ما يُبلِّغه عن الله سُبحانَه؛ لأنَّه لو أخطأَ في شيءٍ منها لم تكُنْ طاعتُه طاعةَ الله[٤].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ يدلُّ على أنَّ كلَّ تكليفٍ كلَّفَ اللهُ به في القرآن، ولم يكُنْ ذلك التَّكليفُ مبيَّنًا في القرآن، فحينئذٍ لا سبيلَ لنا إلى القيام بتلك التَّكاليف إلَّا ببيان الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ يدلُّ على أنَّه لا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

طاعةَ إلَّا للهِ ألبتَّةَ؛ وأنَّه تعالى هو الَّذي يُطاعُ لذاتِه، وذلك لأنَّ طاعةَ الرَّسول لكونِه رسولًا فيما هو فيه رسولٌ لا تكونُ إلَّا طاعة الله، فكانت الآيةُ دالَّةً على أنَّه لا طاعةَ لأحدٍ إلَّا لله؛ لأنَّه ربُّ النَّاس، وإلهُهم، ومَلِكُهم[1].

٤- أنَّ الأصلَ فيما قاله الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسلام أنَّه شَرْعٌ؛ لعمومِ قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[2].

٥- قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ فيه الاحتجاجُ بالسُّنَّة، وأنَّها كالقُرآنِ في وجوبِ العملِ بها، ولكن نحتاجُ في السُّنَّةِ إلى إثباتِ نِسبتِها إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه ما دام أنَّها لم تثبُتْ فإنَّها ليست من كلامِ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

٦- أنَّ معصيةَ الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم معصيةٌ لله، تؤخَذُ بطريق المفهوم؛ لأنَّه إذا كانت طاعتُه طاعةً لله، فمعصيتُه معصيةٌ لله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[4].

٧- قول الله تعالى: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ﴾ قال: (بيَّت) بالتَّذكير، ولم يقل: (بيَّتَتْ) بالتَّأنيثِ؛ لأنَّ تأنيثَ (طائفة) غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّها في معنى الفريقِ والفَوجِ[5].

٨- أنَّ المنافقين يَحرِصون على أنْ يُخفُوا أعمالَهم؛ ولهذا يُوقِعونها ليلًا؛ لقوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٤٩-١٥٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢).

٩- بُطلانُ التَّقِيَّة الَّتي يتَّخذُها الرَّافضةُ دِينًا، وتؤخَذُ من تهديدِ الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين يتظاهرون بالطَّاعة، ويُبيِّتون خلافَ الطَّاعة؛ وذلك في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾(١).

١٠- إثباتُ العِلمِ للهِ تعالى؛ لقوله: ﴿يَكۡتُبُ﴾، ولا كتابةَ إلَّا بعد عِلمٍ(٢).

١١- قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في ذِكر تدبُّرِ القرآنِ دلالةٌ على أنَّ القرآن معلومُ المعنى؛ ففي ذلك ردٌّ على مَن قال مِن الرَّافضة: إنَّ القرآنَ لا يُفهَمُ معناه إلَّا بتفسيرِ الرَّسولِ والإمامِ المعصومِ، ولو كان كذلك لَمَا جاز أن يأمُرَ اللهُ تعالى المنافقين بتدبُّرِ القرآن، وأن يُجعَلَ القرآنُ حُجَّةً في صحَّة نبوَّتِه، ولا أن يُجعَلَ عجزُهم عن مثلِه حُجَّةً عليهم(٣).

١٢- في قولِ اللهِ تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ المرادُ من التَّقييد بالكثير المبالغةُ في إثباتِ الملازَمَة، أي: لو كان من عند غيرِ الله، للزِمَ أن يكونَ فيه اختلافٌ كثيرٌ فضلًا عن القَليلِ(٤)، وإذا كان مِن عندِ اللهِ فلن يَجِدوا فيه اختلافًا ولو قليلًا، لكنْ قولُه: ﴿ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ بيانٌ لواقِعِ ما كان مِن عندِ غيرِ الله، وليس هذا قيدًا في أنَّه لو كانَ مِن عند الله لوَجدوا فيه اختلافًا قليلًا؛ إذ إنَّه لا اختلافَ في كِتابِ الله عزَّ وجلَّ(٥).

١٣- إثباتُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله، يؤخَذ من قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ القرآن من عندِ الله عزَّ وجلَّ، فإذا كان مِن عند الله صار صفةً

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٨-٣١٩).
(٥) يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧).

من صفاتِه، ولا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ لأنَّه صفةٌ، وصفةُ الموصوف لازمةٌ له، ليست بائنةً منه[(١)].

١٤- إثباتُ العِنديَّة لله، كما في قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾، أي: إنَّ الشَّيءَ يكون من عنده، وهو كذلك، لكنَّ العنديَّة قد تكون صفةً، وقد تكون قُربًا؛ فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ العنديَّةُ هذه عنديَّةُ قُربٍ؛ لأنَّهم ملائكةٌ بائنونَ عن الله عزَّ وجلَّ، وإذا قلت: القرآنُ مِن عند اللهِ، فإن هذه عنديَّةُ صفةٍ[(٢)].

١٥- ما جرَتْ به العادةُ في أنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا نهى عن شيء بيَّن وجهًا آخرَ غيرَ مَنهيٍّ عنه؛ يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾[(٣)].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ القياسَ حُجَّةٌ في الشَّرع؛ فالله تعالى أمَر المكلَّف بردِّ الواقعة إلى مَن يستنبطُ الحُكمَ فيها، ولولا أنَّ الاستنباطَ حُجَّةٌ لَمَا أُمِر المكلَّفُ بذلك؛ فثبت أنَّ الاستنباطَ حُجَّةٌ، والقياسُ إمَّا استنباطٌ أو داخلٌ فيه، فوجَب أن يكونَ حُجَّة[(٤)].

١٧- قول الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ في أحكامِ الحوادثِ ما لا يُعرَفُ بالنَّصِّ، بل بالاستنباطِ[(٥)]، وأنَّ الاستنباطَ واجبٌ على العلماءِ[(٦)].

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).

﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ العاميَّ يجب عليه تقليدُ العلماء في أحكام الحوادث(١).

١٩- قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مكلَّفًا باستنباطِ الأحكام؛ لأنَّه تعالى أمَر بالرَّدِّ إلى الرَّسولِ، وإلى أولي الأمر، فلم يخصُصْ أولي الأمرِ بذلك دون الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

٢٠- أنَّه ليس أَمامَنا إلَّا سبيلانِ: سبيلُ السُّنَّة والرَّشاد، وسبيلُ الضَّلال؛ لقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾، فإذًا: لا يوجدُ إلَّا الحقُّ أو الضَّلالُ؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وفي هذا ردٌّ على المعتزلةِ القائلين بالمنزلةِ بين منزلتينِ(٣).

٢١- أنَّ محلَّ التَّحريضِ للقِتال- أي: قِتالِ المشركين- هم المؤمنون؛ لأنَّه لم يقُلْ: حرِّض النَّاس، بل قال: ﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالمؤمِنُ هو الَّذي ينفع فيه التَّحريضُ على القتالِ في سبيل الله(٤).

٢٢- أنَّه مهما بذَلْنا من الجهدِ والجهاد والإعداد فإنَّ الأمرَ بيدِ الله؛ لقول الله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، يعني: بعد اجتهادِك وتحريضِك المؤمنينَ على القتال واستعدادِكم وإعدادِكم، الأمرُ بيدِ الله(٥).

٢٣- الاستدلالُ لأهلِ السُّنَّة بأنَّ أعمالَ العباد مخلوقةٌ لله عزَّ وجلَّ، وتؤخَذ من قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فنسَب ذلك إليه، مع أنَّه يأتي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بفِعْل المؤمنين، لكن نسَبه اللهُ إليه، وأحيانًا يأتي بغيرِ فِعل المؤمنين، مثل قوله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥](١).

٢٤- ﴿عَسَى﴾ مِن الله في القُرآن واجبةٌ؛ أي: واقعةٌ حتمًا، وليستْ للترجِّي؛ لأنَّ الخلق هم الذين تعرض لهم الشكوك والظنون، والله تعالى منزَّهٌ عن ذلك(٢).

٢٥- إثبات البأسِ والتَّنكيلِ للهِ عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾(٣).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾

- فيه التعبيرُ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم بالاسم الظاهر ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دونَ التعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ- حيثُ لم يَقُلْ: (يُطِعْكَ)-؛ للإيذانِ بأنَّ مَناطَ كونِ طَاعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً له تعالى، ليس خُصوصيَّةَ ذاتِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل مِن حَيثِيَّةِ رسالَتِه(٤).

- وإظهارُ لفظِ الجلالةِ (الله)؛ لتربيةِ المهابةِ، وتَأكيدِ وُجوبِ الطَّاعةِ بذِكرِ عُنوان الألوهيَّةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩)، ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- **قوله:** ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: خبرٌ فيه تعريضٌ بهم، وتهديدٌ لهم بأنْ صَرَفه عن الاشتغالِ بهم، فيُعلَم أنَّ اللهَ سيتولَّى عِقابَهم(١).

- وفيه التفاتٌ؛ حيث خاطَب النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإعراضِ عن المتولِّين والمُعرضينَ عن طاعةِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على طريقةِ الالتفاتِ مِن الغَيبةِ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى الخطابِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، مبالغةً في التَّحريضِ والحثِّ عليه(٢).

٣- **قوله:** ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾

- تنكيرُ ﴿طَاعَةٞ﴾؛ للتَّعظيم بالتَّعميم(٣)، ورفعُها يدلُّ على ثباتِ الطَّاعةِ واستقرارِها، أي: إنَّ كلَّ طاعةٍ منَّا لك دائمًا، نحن ثابتونَ على ذلك(٤).

- قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فيه: التهديدُ بإعلامِهم أنَّه لن يُفلِتَهم من عقابِه، فلا يَغُرَّنَّهم تأخُّرُ العذابِ مدَّةً(٥).

- والتعبيرُ بصِيغة المضارعِ في قوله: ﴿يَكۡتُبُ﴾ فيه دَلالةٌ على تجدُّدِ ذلك، وأنَّه لا يُضاع منه شيءٌ(٦).

٤- **قوله:** ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾: فيه إظهارُ الجَلالةِ في مقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٥٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٣٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإضمار؛ للإشعارِ بعِلَّة الحُكمِ[(١)]، مع ما فيه مِن تربيةِ المهابةِ والجلالِ.

٥- **قوله:** ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: الاستفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والاستقباحُ؛ لعدم تدبُّرهم للقُرآن الكريمِ، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ للتوبيخِ والتعجُّبِ منهم في استمرارِ جهلِهم، مع توفُّرِ أسباب التدبُّرِ لدَيهم، وإعراضِهم عن التأمُّل فيما فيه من مُوجِباتِ الإيمان[(٢)].

٦- **قوله:** ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: كلامٌ مسوقٌ مساقَ التوبيخِ للمُنافقين، واللَّوم لِمَن يَقبَلُ مِثلَ تلك الإذاعة مِن المسلمين الأغرارِ[(٣)].

- والباء في قولِه: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ مزيدةٌ لتوكيدِ اللُّصوق؛ كما في: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾[(٤)] [المائدة: ٦]، أو لتضمُّن الإذاعةِ معنى التَّحدُّث[(٥)].

٧- **قوله:** ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: فيه تلوينٌ للخطاب، وتوجيهٌ له إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريق الالتفات، وهو جوابُ شرط محذوفٌ يَنساقُ إليه النَّظمُ الكريم، أي: إذا كان الأمرُ كما حُكي مِن عدمِ طاعة المنافقين وكَيدِهم، وتقصيرِ الآخَرين في مراعاةِ أحكامِ الإسلام، فقاتِلْ أنتَ وحْدَك غيرَ مكترِثٍ بما فعلوا[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٠٩).

٨- **قوله:** ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ هذا الأسلوبُ طريقٌ من طُرق الحثِّ والتحريض لغير المخاطَب؛ لأنَّه إيجابُ القِتالِ على الرسول، وقد عُلِم إيجابُه على جميع المؤمنينَ بقوله: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]؛ فهو أمرٌ للقُدوةِ بما يجب اقتداءُ الناسِ به فيه، وبيَّن لهم عِلَّةَ الأمر، وهي رجاءُ كفِّ بأسِ المشركينَ[١].

٩- **قوله:** ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّر لِمَا قبلها[٢]، وهي جملةٌ خبريَّة، مرادٌ بها التقريعُ والتَّهديد[٣].

- وإظهار الاسم الجليل ﴿الله﴾؛ لتربيةِ المهابة، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ استقلال الجملة[٤].

- وتكرير الخبر (أشدُّ- وأشدُّ)؛ لتأكيد التَّشديد[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).
(٣) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٣).
(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الآيات (٨٥ - ٨٧)

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يَشْفَعْ شَفَاعَةً﴾: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، والشَّفاعةُ: الانضمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، وأصْلُ الشَّفْع: ضمُّ الشَّيء إلى مِثلِه[1].

﴿كِفْلٌ﴾: أي: نصيبٌ، وأَصْل (كفل): يَدلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2].

﴿مُّقِيتًا﴾: أي: قَدِيرًا ومُقْتدِرًا، وقيل: شاهِدًا وحافِظًا، وحقيقتُه: القائِمُ على كلِّ شيءٍ يَحفظُه ويُقيتُه. وأصلُ (قوت): يَدلُّ على قُدرةٍ على الشَّيءِ، والإمساكِ، والحِفظِ[3].

﴿حَسِيبًا﴾: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدرًا، وعالِمًا ومحاسبًا، ومنه: أَحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢) ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧) ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧).

(٣) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٢)، ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢٧١- ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥، ٨٧٩).

(٤) ينظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨، ٤١٣).

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبِر تعالى أنَّ مَن يسعَ لمعاونةِ غيرِه في أمرٍ من الأمورِ فيه منفعةٌ وخيرٌ لذلك الغَيْرِ، فإنَّ للساعي حظًّا من ثوابِ الله تعالى، ومَن يسعَ في معاونة غيره على أمرٍ من أمور الشَّرِّ يكُنْ عليه جزءٌ من الإثمِ والوِزر المترتِّبِ على سَعيِه ونيَّته، وكان الله على كل شيءٍ مقتدرًا، وهو على كلِّ شيء حفيظٌ وحسيبٌ.

ثمَّ يأمر اللهُ تعالى مَن حُيِّي بتحيَّةٍ أن يرُدَّ بتحيةٍ أحسَنَ ممَّا حُيِّيَ بها، أو يكون الرَّدُّ بمثلها، إنَّ اللهَ كان على كلِّ شيءٍ - مِن طاعةٍ أو معصيةٍ - حفيظًا ومحصيًا، حتَّى يجازيَ فاعلَها عليها.

ثمَّ يقرِّرُ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو سبحانه وتعالى، وأنَّه سيحشُر جميعَ الخَلْق إلى موقفِ الحسابِ، لا شكَّ أبدًا أنَّ ذلك الجمعَ واقعٌ، فإنَّه لا أحدَ أصدقُ من الله تعالى في حديثِه وخبَرِه ووعدِه ووعيدِه.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾.

أي: مَن يَسعَ في معاونةِ غيرِه بما يجلِبُ له النَّفعَ والخير، ويدفعُ عنه الضُّرَّ والشَّرَّ(١).

﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٤-٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

أي: يكُنْ له حظٌّ من ثواب الله تعالى[(١)].

عن أَبي موسى الأشعري رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا جاءَه السائلُ، أو طُلِبَتْ إليه حاجَةٌ، قال: اشفَعوا تؤجَروا، ويَقضي اللهُ على لسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شاء))[(٢)].

﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾.

أي: ومَن يَسعَ في مُعاونةِ غيرِه على أَمرٍ من الشَّرِّ[(٣)].

﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾.

أي: يكُنْ عليه وِزرٌ وإثمٌ مِن ذلك الأمرِ الَّذي تَرتَّبَ على سَعيِه ونيَّتِه[(٤)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وحفيظٌ وحسيبٌ، فيُجازي كُلًّا بما يستحقُّه[(٥)].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).

(٢) رواه البخاري (١٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧-٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

لمَّا أمَر الله المؤمنينَ بالجهادِ أمرهم أيضًا إذا رضي الأعداءُ بالمسالمةِ أن يكونوا هم أيضًا راضين بها، فقولُه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ كقولِه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وأيضًا لما كان الرجلُ في الجهادِ يلقاه الرجلُ في دارِ الحربِ أو ما يقاربُها فيسلِّم عليه، فقد لا يلتفتُ إلى سلامِه عليه ويقتلُه، وربَّما ظهَر أنَّه كان مسلمًا، فمنع الله المؤمنينَ عنه، وأمَرهم أن يقابلوا كلَّ مَن يسلِّم عليهم، ويكرمُهم بنوع مِن الإكرامِ- أن يقابلوه بمثلِ ذلك الإكرامِ أو أزيدَ[(١)].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾.

أي: وإذا سُلِّم عليكم بسلامٍ، وحُيِّيتم بأيِّ تحيةٍ كانت، أو دُعِي لكم بطولِ الحياةِ والبَقاء[(٢)].

﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

أي: فرُدُّوا التَّحيةَ والسَّلام، وادْعُوا لِمَن دعَا لكم بأحسَنَ ممَّا حيَّاكم ودعا لكم به وأفضَلَ، لفظًا وبَشاشةً، أو رُدُّوا عليه بمثلِ دُعائِه وتحيَّتِه[(٣)].

عن أبي هُرَيرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خلَق اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٦).

قال القاسمي: (نكتةُ نظمِها مع آياتِ الجهادِ هو التمهيدُ لمنعِ المؤمنين مِن قتلِ مَن ألقَى إليهم السَّلام في الحربِ الآتي قريبًا، ببيانِ أنَّ لكلِّ مسَلِّم حقًّا يؤدَّى إليه؛ وذلك لأنَّ السَّلام نوعٌ مِن الإكرام. والمكرَم يُقابَل بمثلِ إكرامِه أو أزيدَ). ((تفسير القاسمي)) (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (١/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩-٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩-٤١).

آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذراعًا، فلمَّا خلَقه، قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك؛ نفرٍ من الملائكةِ جلوسٍ، فاستمِعْ ما يُحيُّونك؛ فإنَّها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك، فقال: السَّلامُ عليكم، فقالوا: السَّلامُ عليك ورحمةُ اللهِ، فزادوه: ورحمةُ اللهِ، فكلُّ مَن يدخلُ الجنَّةَ على صورةِ آدمَ، فلم يزَلِ الخَلْقُ ينقُصُ بعدُ حتَّى الآن))[1].

وعن عِمران بن الحُصين رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: السَّلامُ عليكُم، فردَّ عليهِ ثمَّ جلَسَ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: عشرٌ، ثمَّ جاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ، فردَّ عليهِ ثمَّ جلسَ، فقالَ: عِشرون، ثمَّ جاءَ آخرُ فقالَ: السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبرَكاتُهُ، فردَّ عليهِ فجلسَ، فقالَ: ثلاثونَ))[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ ممَّا يعمَل النَّاسُ من طاعةٍ أو معصيةٍ حفيظٌ ومُحْصٍ له، حتَّى يجازيَهم به[3].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧).

(٢) رواه أبو داود (٥١٩٥)، و الترمذي (٢٦٨٩)، وأحمد في ((المسند)) (١٩٩٤٨)، والدارمي (٢٦٨٢).

قال الترمذيُّ: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وحسن إسناده البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٤٨٠)، وقوى إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((تخريج المشكاة)) (٣/ ١٣١٨). وقال الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٠٢٩): حسن على شرط مسلم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠، ٤٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، تلاه بالإعلام بوحدانيَّة الله تعالى، والحشْرِ، والبَعثِ مِن القُبور للحساب[١]، فقال:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى وحْدَه هو المعبود بحقٍّ، فلا يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو سبحانه[٢].

﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: واللهِ ليحشرَنَّكم اللهُ تعالى جميعًا إلى موقِفِ الحساب، فيجمَعُ أوَّلَكم وآخِرَكم في صعيدٍ واحد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله[٣].

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۗ﴾.

أي: لا شكَّ بوجهٍ من الوجوه في حقيقةِ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمَعُ النَّاسَ يوم القيامة بعد مماتهم[٤].

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾.

أي: لا أحدَ أصدقُ منه في حَديثِه وخَبرِه، ووعْدِه ووعِيدِه سبحانه؛ فحديثُه وأخبارُه وأقوالُه في أعلى مراتبِ الصِّدقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي))

الفَوائِد التربويَّة:

١- الحثُّ على التَّعاونِ على البِرِّ والتَّقوى؛ وذلك بإعطاءِ المتعاونين نصيبًا من الأجرِ على ما تعاونوا عليه، قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾[(١)].

٢- الزجرُ عن التعاون على الإثم والعدوانِ، فمن مَن شارَك في عملٍ سيِّئٍ، كان له نصيبٌ منه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[(٢)].

٣- التَّحذيرُ مِن الشَّفاعةِ السَّيِّئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[(٣)].

٤- أنَّ اللهَ سبحانه مُقِيتٌ على كلِّ شيء، أي: مقتدرٌ عليه، ويلزَمُ مِن هذا أن يحذَرَ الإنسانُ من مخالَفةِ الله؛ لأنَّ الله تعالى حفيظٌ عليه ومقتدِرٌ عليه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾[(٤)].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ فيه أنَّ الردَّ على المسلم يكونُ بأحسنَ مِن سلامِه أو بما يماثله[(٥)]، وفي ذلك إشارةٌ إلى حُسنِ العِشرة وآدابِ الصُّحبة، وأنَّ مَن حمَّلك فضلًا زِدتَ على فِعلِه، وإلَّا فلا تنقُصْ عن مِثْله[(٦)].

(ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤).

٦- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ إنَّه من توحيدِ الله- سبحانه- وإفرادِه بالألوهيَّةِ تبدأُ خُطُواتُ المنهج الرَّبَّانيِّ- سواءٌ في تربية النُّفوس، أم في إقامةِ المجتمع، ووَضْع شرائعه وتنظيمِه، وسواءٌ كانت هذه الشَّرائعُ متعلِّقةً بالنِّظام الدَّاخليِّ للمجتمع المسلِمِ، أم بالنِّظام الدَّوليِّ، الَّذي يتعامَلُ هذا المجتمعُ على أساسِه مع المجتمعاتِ الأخرى[(١)].

الفوائد العلميَّة اللَّطائف:

١- قال تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَا﴾ من العِبرَةِ في الآيةِ أن نتذكَّرَ بها أنَّ الحاكمَ العادلَ لا تنفعُ الشَّفاعةُ عنده إلَّا بإعلامِه ما لم يكُنْ يعلَمُ من مظلِمةِ المشفوعِ له، أو استحقاقِه لِما يُطلَب له، ولا يقبَلُ الشَّفاعة لأجل إرضاءِ الشَّافعِ فيما يُخالِفُ الحقَّ والعدلَ، وينافي المصلحةَ العامَّةَ[(٢)].

٢- الأمرُ بردِّ السَّلام في قوله: ﴿فَحَيُّواْ﴾، يُفيد وجوبَ الرَّدِّ؛ لأنَّ أصلَ صيغةِ الأمرِ أن تكونَ للوجوبِ[(٣)].

٣- أنَّ ردَّ التَّحيَّة يكونُ على وجهين؛ مجزِئٍ وأفضلَ: فالمجزِئُ مأخوذٌ من قوله: ﴿أَوۡ رُدُّوهَآ﴾، والأكملُ والأفضل من قوله: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾، وقُدِّم الأحسنُ على المِثل؛ لأنَّه أكملُ وأفضلُ، فتقديُم قولِه: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك أفضلُ[(٤)].

٤- مراعاة الإسلامِ للعدل؛ لقوله: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠).

٥- أنَّه لا يُجزئُ الرَّدُّ بغير السَّلام، فإذا قال المسلم: السَّلام عليك، فقلت: أهلًا وسهلًا، فلا يُجْزئ؛ لأنَّ هذه التَّحيَّةَ ليست مِثلَها ولا أحسنَ منها؛ إذ إنَّ قولَ المسلم: السَّلام عليكم، دعاءٌ لك بالسَّلامةِ مِن كلِّ الآفات البدنيَّة والماليَّة والقلبيَّة وغيرِها[1].

٦- يُستفادُ مِن قوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾، أنَّه يُطلَب من المُسَلَّمِ عليه أن يرُدَّ بأكمَلَ، إمَّا بالكمِّيَّة وإمَّا بالكيفيَّة، فإذا قال: السَّلام عليك. فالأحسنُ: عليك السَّلامُ ورحمة الله، هذا بالكمِّيَّة. أمَّا الكَيفيَّة: فإذا قال: السَّلام عليك، بصوت مرتفعٍ مسموعٍ يدلُّ على التَّواضعِ فقلت: عليك السَّلام، بصوت مثلِه أو أبينَ فهذا ردٌّ صحيحٌ بالكيفيَّة[2].

٧- يُؤخذ من الآيةِ الكريمةِ ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾: الحثُّ على ابتداءِ السَّلام والتَّحيَّة من وجهين: أحدهما: أنَّ اللهَ أمَر بردِّها بأحسَنَ منها أو مثلِها؛ وذلك يستلزمُ أنَّ التَّحيَّة مطلوبةٌ شرعًا، الثَّاني: ما يستفاد من أفعل التَّفضيلِ، وهو (أحسن) الدَّالُّ على مشاركة التَّحيَّة وردِّها بالحَسن، كما هو الأصلُ في ذلك[3].

٨- لَمَّا صار لفظُ السَّلامِ تحيَّةَ المسلمين صارتِ التَّحيَّةُ به عنوانًا على الإسلامِ؛ كما في قوله تعالى من هذه السُّورة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[4] [النساء: ٩٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾ الفاء

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥٤).

في قوله (فحيُّوا) تفيد أنَّ الرَّدَّ يكونُ على الفَوْرِ[(١)].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ حَسِيبًا﴾، فِعل (كان) يدلُّ على أنَّ ذلك الوصفَ وصفٌ مقرَّرٌ أزَليٌّ[(٢)].

١١- أنَّ من أسماء الله الحسيب، فهو عزَّ وجلَّ حسيبٌ على كلِّ شيء؛ يحاسِبُ كلَّ مَن عمل عملًا بما يقتضيه عملُه، ويكفي مَن توكَّل عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ حَسِيبًا﴾[(٣)].

١٢- التَّوحيدُ والإيمان بالبعث والجزاء في الدَّار الآخرة هما الرُّكنانِ الْأَوَّلانِ للدِّينِ، وإنَّما الرُّسلُ يُبلِّغون النَّاسَ ما يجبُ مِن إقامتِهما ودعمِهما بالأعمال الصَّالحة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾[(٤)].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ القيامة والقِيام بمعنًى واحدٍ، وقيل: دخلتِ الهاءُ للمبالغة لشدَّةِ ما يقعُ فيه من الهولِ[(٥)].

١٤- إثبات الكلامِ لله عزَّ وجلَّ، يؤخَذ من قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، مِن قوله: ﴿أَصۡدَقُ﴾ ومن قوله: ﴿حَدِيثًا﴾، والصِّدقُ إنَّما يوصَفُ به الكلامُ، والحديثُ هو الكلام، وعلى هذا فيكونُ إثباتُ كلامِ الله عزَّ وجلَّ من الكلمتينِ جميعًا[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢)، ((صفات الله عز وجل)) لعلوي السقاف (ص: ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٥٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦، ٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧).

١٥- وجوبُ الإيمانِ بما أخبَرَ اللهُ به عن نفسِه، وعن أمورِ الغيبِ كلِّها؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾، فإذا أخبر اللهُ عن نَفْسِه بشيء، أو عن الأمور الغائبةِ بشيءٍ، وجَب علينا تصديقُه؛ فكلامُه وخبره صِدقٌ لا كذِبَ فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ أي: مِن اسم التَّفضيل؛ لأنَّ اسمَ التَّفضيلِ يجعَلُ المفضَّل في قمَّةِ الوصف، وعلى هذا فليس في كلامِ الله سبحانه تعالى شيءٌ من الكذِبِ إطلاقًا[١].

١٦- وصفُ كلامِ اللهِ تعالى بالحَديثِ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وهو كذلك[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾

- قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ و﴿كِفْلٌ مِّنْهَا﴾: فيه مناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ عبَّر عنِ الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة الحسنةِ بأنَّه ﴿نَصِيبٌ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه قد يكونُ له أجرٌ أكثرُ مِن ثوابِ مَن شفَع عندَه، وعبَّر بـ﴿كِفْلٌ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ إشارةً إلى أنَّ مَن يَشفَعُ شفاعةً سيِّئةً يكون له نصيبٌ من وِزْرها مُساوٍ لها في المِقْدارِ من غَيرِ أنْ يَنقُصَ منه شيءٌ؛ فالنصيبُ هو الحظُّ مِن كلِّ شيءٍ، والكِفلُ الحظُّ كذلك، ويُستعمَلُ الكِفلُ بمعنى المِثل؛ فيُؤخذُ من ذلك: أنَّ الكفلَ هو الحظُّ المماثِلُ لحظٍّ آخَر[٣]. وقيل: عبَّر بـ﴿كِفْلٌ﴾

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٤).

عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ لأنَّه يُفهَم منه النَّصيبُ ويُفهَمُ أكثرُ مِنه؛ تغليظًا في الزَّجرِ؛ إذ الكِفلُ اسمٌ للنَّصيبِ الذي عليه يَكونُ اعتمادُ الناسِ، في تَحصيلِ المصالحِ لأنفسِهم، ودَفْعِ المفاسِدِ عن أنفسِهم؛ والغَرضُ من قوله: ﴿كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾ التنبيهُ على أنَّ الشفاعةَ المؤدِّيةَ إلى سُقوطِ الحقِّ وقوَّةِ الباطلِ تكونُ عَظيمةَ العِقابِ عِندَ اللهِ تعالى[١].

٢- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾: تذييلٌ لجملة ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾؛ لإفادةِ أنَّ الله يُجازي على كلِّ عملٍ بما يناسبه مِن حُسنٍ، أو سوءٍ[٢].

٣- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾: تذييلٌ لقصدِ الامتنانِ بهذه التعليماتِ النافعة، وقيل: في هذا التَّذييلِ وَعْدٌ بالجزاءِ الحَسَنِ على قَدْرِ فَضْلِ ردِّ السَّلامِ، أو بالجزاءِ السَّيِّئ على ترْك الردِّ مِن أصلِه[٣]، فهو ترغيبٌ وترهيبٌ، أو للتَّحذيرِ مِن عَدمِ ردِّ التَّحيَّة بمثلِها أو أحسَنَ، فيُحْذَر من التعرُّضَ لمحاسبةِ الله عزَّ وجلَّ الذي هو على كلِّ شيءٍ حسيبٌ[٤].

- وقد أُكِّد وصفُ الله تعالى بأنَّه حسيبٌ بمؤكِّدين: حرف (إنَّ)، وفِعل (كان) الدالِّ على أنَّ ذلك وصفٌ أزليٌّ[٥].

٤- **قوله:** ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ، جمَع تمجيدَ الله، والتهديد، والتحذيرَ من مخالَفَة أمْرِه، والتَّقرير

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٧).

للإيمانِ بيومِ البَعثِ، والردُّ لإشراكِ بعضِ المنافقينَ وإنكارِهم البعث[١].

- وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إمَّا خبرٌ للمبتدأِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وإمَّا اعتراضٌ، والخبرُ جُملةُ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ وجِيءَ بالاعتِراضِ لتَمجيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

- وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ جوابُ قَسمٍ محذوفٍ، واقِعٌ جميعُه موقعَ الخبرِ عن اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وأُكِّد هذا الخبر: بلام القَسَم، ونون التوكيد دلالةً على تقديرِ القَسَم؛ لإنكارِ المنكِرين ليوم القيامة؛ لتقويةِ تحقيقِ هذا الخبر؛ إبطالًا لإنكار الذين أنكروا البعثَ[٣].

- وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لَمَّا كان التَّدريجُ بالإماتة شيئًا فشيئًا، عبَّر بحرفِ الغاية (إلى)؛ فالمرادُ ليجمعَنَّكم في الموتِ أو القُبورِ إلى يومِ القيامة[٤].

٥- **قوله:** ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ هذا استفهامٌ معناه النَّفيُ، والتَّقدير: لا أحدَ أصدقُ مِن الله حديثًا[٥]؛ فالاسْتِفهامُ عن أنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَصدَقَ مِنَ اللَّهِ تعالى هوَ اسْتِفهامٌ إنْكَارِيٌّ؛ فهو إنكارٌ أنْ يكونَ أحدٌ أكثرَ صِدقًا منه؛ فإنَّه لا يتطرَّق الكذبُ إلى خبرِ الله تعالى بوجهٍ؛ لأنَّ الكذبَ نقصٌ، وهو على اللهِ تعالى مُحالٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧).
(٦) يُنظَر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

- وفي قوله: ﴿حَدِيثًا ﴾ تتميمٌ؛ حيث أَتْبَعَ الكلامَ بهذه الكلمة التي تَزِيدُ المعنى تمكُّنًا وبيانًا للمعنى المراد[١].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٥١).

الآيات (٨٨ - ٩١)

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن
تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا
فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩)
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن
يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ
فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ
آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن
لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (٩١) ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فِئَتَيْنِ﴾: فِرْقَتينِ مُختلفتينِ، مُثنَّى فِئة، وهي: الجماعة المُتظاهرةُ الَّتي يرجع بعضُهم إلى بعضٍ في التعاضُد[١].

﴿أَرْكَسَهُم﴾: نَكَّسَهم وردَّهم في كُفرِهم، وأصل الرِّكْسِ: قلبُ الشَّيءِ على رأسِه، وردُّ أوَّله إلى آخره[٢].

﴿يَصِلُونَ﴾: يَنتسِبون، أو يتَّصلون بقوم، مِن قولِهم: اتَّصَلَ الرَّجلُ، بمَعْنَى:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣) ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

انْتَمَى وانْتَسَب، ويُقال: فلانٌ مُتَّصِلٌ بفلان: إذا كان بينهما نِسْبة أو مُصاهرةٌ، والوصلُ: ضِدُّ الهِجرانِ، وأصل (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يَعلَقَه(١).

﴿مِّيثَٰقٌ﴾: أي: عقدٌ وعَهْدٌ مؤكَّد بيمينٍ، أو عهدٌ مُحكَم، وأصلُه: العقدُ والإحكام(٢).

﴿حَصِرَتۡ﴾: أي: ضاقتْ، والحصْر: التَّضييق، وأصل (حصر): الحَبْسُ والمَنْعُ(٣).

﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾: اجتَنبُوكم وتَنَحَّوْا عَنكُم، والاعتزال: تجنُّب الشَّيء؛ بِالبَدنِ كان ذلِك أو بالقَلبِ، وأصلُ (عزل): يدلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ(٤).

﴿ٱلسَّلَمَ﴾: أي: الصُّلح، والسَّلَم اسمٌ بإزاء الحَرْب، وهو أيضًا التَّعرِّي من الآفاتِ الظَّاهرة والباطنة، والاستسلامُ والانقياد، وأصل (سلم): يدلُّ على الصِّحَّة والعافية(٥).

﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: أي: الشِّرْكِ والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصْل: الاختِبار والابتلاء والامتِحان؛ مأخوذة من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦، ١٤٢).

من رَداءتِه[1].

﴿سُلْطَانًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القوَّة والقهر، مِن التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطان سُلطانًا[2].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ تعالى المؤمنين: ما شأنُكم أيها المؤمنون في المنافقين فِئتَين مختلفتَينِ؛ فئةً منكم تُكفِّرُهم، وفئةً أخرى لم تكفِّرْهم، والحالُ أنَّ الله ردَّ هؤلاءِ المنافقين إلى الكُفر، وأوْقَعَهم فيه؛ بما عَمِلُوه واقترفُوه من السَّيِّئات، فلا ينبغي الشكُّ فيهم، فهل يريد الشَّاكُّون في أمرِهم من المؤمنين أن يَهْدُوا مَنْ خَذَلَه الله، ولم يُرِدْ هِدَايَته، بلِ الشَّأْنُ أنَّ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلا سبيلَ إلى هدايتِه أبدًا.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى المؤمنينَ أنَّ هؤلاء المنافقين يَرْجُون أن يقع المؤمِنون في الكُفر، كما وقعوا هم، فَيَسْتَوُوا معهم، ناهيًا سبحانه عبادَه المؤمنين أنْ يتَّخذوا من المنافقينَ أولياءَ حتَّى يُؤمِنوا ويُهاجروا في سبيل الله؛ مِنْ دارِ الكفر وأهلِه إلى دار الإسلام وأهلِه، فإنْ أعْرَضُوا عن الإيمانِ والهِجْرة فلْيُقاتِلْهم المؤمنونَ ويأسِرُوهم، ويَقْتُلوهم أينما وَجَدُوهم، ولا يُوالُوا منهم أحدًا، ولا يَتَّخِذوا منهم نصيرًا.

ثمَّ استثْنَى الله تعالى من هؤلاء المنافقينِ الَّذين أوْجَبَ قتالَهُم وأخْذَهم أسْرى، مَنْ لجأ إلى قومٍ بينهم وبينَ المؤمنين هُدْنة بترْك القِتال، فَلْيجْعَلُوا حُكْمَ هؤلاء المنافقين كحُكْمِ هؤلاء المُهَادَنينَ، أو إنْ أتى هؤلاء المنافقونَ المؤمنينَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

وقد أبغضوا قتالَهم، وأبغضوا القتالَ مع المؤمنين ضدَّ قَوْمِهم، فلا هُمْ مع المؤمنين ولا ضِدُّهم، فَلْيَتْرُكِ المؤمنون قتالَهُم أيضًا، ولو شاء الله لسلَّط هؤلاء المنافقين على المؤمنين فَقَاتلوهم، ولكنْ لِلُطْفه بهم كفَّهُم عنهم، فإنِ انْصَرَف المنافقون عن قتال المؤمنين، وآثروا المُسالمة والصُّلح، فعندها لا يُبيحُ الله للمؤمنين قتلَهُم ولا غُنْمَ أموالهم ولا سَبْيَهم أو سَبْيَ ذَرَارِيِّهم.

ثمَّ يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنين أنَّهم سيجِدُون صِنْفًا آخرَ من المنافقين، يُريدون أن يأمَنُوهم فيُظْهِرون الإسلام، ويريدون كذلك أن يَأْمَنوا قومَهم الكُفَّارَ، فيعبُدون مع قومهم ما يَعْبُدونه مِنْ دُون الله، كَلَّما دُعُوا إلى الشِّرْك والكفْرِ بالله تعالى أجابوا، فازدادوا تعمُّقًا فيهما، فهؤلاء الصِّنفُ من المنافقين إنْ لم يَتْرُكوا قتالَ المؤمنين، ويَمِيلوا للمُسالَمَة والصُّلح، فَلْيُقاتلْهم المؤمنون، وَلْيَأسِرُوهم، وَلْيَقْتُلوهم أينما وَجَدُوهم، وقد جعل الله للمؤمنين حُجَّةً واضِحةً على هؤلاء في استِحْقَاقهم للقتل.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تفريعٌ عن أخبارِ المنافقينَ الَّتي تقدَّمَت؛ لأنَّ ما وُصِف من أحوالهم لا يترُكُ شكًّا عند المؤمنين في خُبْثِ طَوِيَّتِهِم وكُفْرِهم. وقيل: هي تفريعٌ عن قوله ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ فقد حدَّث الله تعالى عنهم بما وُصِف من

سابِقِ الآيِ، فلا يَحِقُّ التَّردُّد في سوءِ نواياهم وكفْرِهم(١).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

فَلِمَ اختلفْتُم- أيُّها المؤمنون- في شأنِ المنافقين على قَوْلَينِ؛ ما بين مُكَفِّرٍ لهم وغَيْرِ مكفِّرٍ(٢)؟

﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾.

أي: والحالُ أنَّ الله تعالى قد ردَّهُم إلى الكُفرِ وأوقَعَهُم فيه؛ بسَببِ ما اقْتَرفوه مِن آثامٍ وسيِّئاتٍ؛ فلا يَنبغي لكم أنْ تَشْتَبِهوا فيهم، ولا تَشكُّوا، بل أمْرُهم واضحٌ غيرُ مُشكِلٍ، فالصَّوابُ مع مَن قال: إنَّهم كافِرون(٣).

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

أي: أتودُّون- أيُّها المؤمنون- أنْ تُوَفِّقُوا للإقْرَارِ بدِينِ اللهِ تعالى، والدُّخول فيه مَنْ خَذَلَه اللهُ عنه، فَلَمْ يُوَفِّقْهُ لذلك(٤)؟

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أي: ومَنْ خَذَلَه الله تعالى عن دِينِه، فلم يوفِّقْه لسُلُوك طريقِ الهدى، فلا طريقَ له إليه، ولا مَخْلصَ له إليه(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩-٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠).

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تَعَالى قبل هذه الآية: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ وكان ذلك استفهامًا على سبيل الإنكار- قرَّر ذلك الاستبعادَ بأنْ قال: إنَّهم بلغُوا في الكُفْر إلى أنَّهم يتمنَّوْن أنْ تصيروا- أيُّها المسلمون- كُفَّارًا، فلمَّا بلغُوا في تعَصُّبِهم في الكفر إلى هذا الحدِّ، فكيف تَطْمَعُون في إيمانِهم[١]؟

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المنافقِينَ الَّذين اختلفتُم فيهم- أيُّها المؤمنون- إلى فِئتينِ، يتمنَّوْن لكم الوقوعَ في الكُفْر، فتكونون كُفَّارًا مثلَهم، وتَسْتَوونَ أنتم وهُمْ في ذلك[٢].

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى للمؤمنينَ كفرَ هؤلاء وشِدَّة غُلُوِّهم في ذلك الكُفْر، شَرَح للمؤمنين بعدَ ذلك كيفيَّةَ الْمُخَالطة معهم؛ فقال[٣]:

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فلا تتَّخِذوا منهم أولياءَ وأخِلَّاءَ تُوالُونهم أو يُوالونكم، حتَّى يُؤمِنوا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٥-٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠).

ويقدِّموا إثباتًا على إيمانِهم، بمفارقَةِ دار الشِّرْك وأهلِه إلى دار الإسْلام وأهلِه؛ ابتغاءَ دينِ الله تعالى ومَرْضَاته(١).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

أي: فإنْ أعْرَضُوا عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى، وترَكوا الهجرةَ في سَبِيله سبحانه، فاحْمِلوا عليهم بالقِتال، وخُذُوهم أسرى، واقتلُوهم في أيِّ مكانٍ وجدتموهُم فيه(٢).

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا تُوالُوا أيَّ أحدٍ منهم ولا تتَّخذوا منهم خليلًا، يُوالِيكم على أموركم، ويكونُ موضِعَ أسرارِكم ومَشُورتكم ومَحبَّتكم، ولا تطلُبوا من أيِّ أحدٍ منهم نُصْرةً لكم على أعدائِكُم(٣).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ الله سبحانه وتعالى بِقَتْل هؤلاءِ الكُفَّارِ في الآيةِ السَّابقةِ، استثنَى مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٥-٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧١-٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٨).

ذلك ما في هذه الآيةِ[(١)]، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

أي: سِوَى مَن لَجَأ من هؤلاء المنافقينَ إلى قومٍ بينكم وبينهم مُهادَنَةٌ وعَهْد ومِيثاقٌ بترْك القتال، فدخلوا فيهم، فاجعلُوا حُكْمَهم كَحُكْمِهم في حَقْنِ الدِّمَاء والأمْوال[(٢)].

﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾.

أي: أو أَتَوْكم وقدْ ضاقتْ صُدورُهم عن قِتَالكم، أو قِتَالِ قومِهم، فيُبْغِضُون قِتَالكم، ولا يَهُون عليهم أيضًا قِتَالُ قومِهم معكم؛ فلا هُمْ لكم ولا عليكم، فاتْرُكوا قِتالَ وقَتْلَ هذه الطائفةِ أيضًا[(٣)].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكَفُّ عن هؤلاء ممَّا قد يثْقُل على الْمُسلمينَ؛ لِمَا جرَت عليه عادةُ العرب من الشِّدَّة في أمر الْمُعاهَدِين والْمُحالَفِين وتَكْلِيفهم قتالَ كلِّ أحدٍ يقاتِلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

قال الشنقيطي: (فالاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ ...﴾ الآية لا يرجع قولًا واحدًا، إلى الجملةِ الأخيرةِ، التي تليه، أعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ لأنَّه لا يجوزُ اتِّخاذ وليٍّ ولا نصيرٍ من الكفارِ أبدًا، ولو وصلوا إلى قومٍ بينكم، وبينهم ميثاقٌ، بل الاستثناءُ راجعٌ للأخذِ والقتلِ في قوله: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾) ((أضواء البيان)) (٥/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

مُخَالِفِيهم، ولو كانوا من الأهل والأقربين، قال تعالى مخفِّفًا ذلك عنهم، ومؤكِّدًا أمرَ مَنْعِ قتالِ الْمُسالِمِين[(١)]:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾.

أي: ولو شاءَ الله عزَّ وجلَّ لسلَّط عليكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقين فقاتَلوكم، ولكِنْ مِنْ لُطْفِه بكم أنْ كَفَّهُم عنكم[(٢)].

قيل المقصود بهم هنا: الطَّائفةُ الثَّانية[(٣)]، وقيل: كِلتَا الطَّائِفَتين الْمُسالِمتَيْنِ اللَّتيْنِ استثْنَاهما الله تعالى مِنْ قتالِهِم وقتلِهم[(٤)].

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾.

أي: فإنِ انْصَرَف عن قِتالِكم هؤلاء الَّذين أمَرْتُكم بالكفِّ عن قِتَالِهِم من المنافقين، وآثَرُوا الْمُسَالمة، وصالَحُوكم[(٥)].

﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: إذا استَسْلَمَ لكم هؤلاء المنافقون صُلحًا منهم لكم، فلم يَجعلِ اللهُ تعالى لكم على أنفسِهم وأموالِهم وذَرَارِيِّهم ونِسائِهم طريقًا مُباحًا إلى قَتْلٍ أو سِبَاءٍ أو غَنِيمة[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٦-٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى صِفةَ الْمُجِدِّين في إلْقاء السَّلَم، وتركِ قتالِ المسلمينَ، نبَّهَ على طائفةٍ أخرى مُخَادِعَة[1]، فقال:

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾.

أي: ستطَّلِعون- أيُّها المؤمنون- على صِنفٍ آخَرَ من المنافقين يُظْهِرون للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولأصحابه الإسلامَ؛ خوفًا منهم لِيَأْمَنوا بذلك على دِمَائهم وأموالِهم وذَرَارِيِّهم ونسائِهم، ويُصَانِعون قومَهُم الكُفَّارَ في الباطِنِ، فيعبدُون معهم ما يعبُدُون من دونِ الله تعالى؛ لِيَأمَنُوا كذلك عِنْدَهم على دمائِهم وأموالِهم وذرارِيِّهم ونسائِهم[2].

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾.

أي: كلَّما عَرَضَتْ لهم فتنةٌ بدَعْوَتهم إلى الكُفْر والشِّرْك بالله تعالى، أجابوا إلى ذلك، فازدادُوا إيغالًا وانْهِماكًا في الكُفْر والشِّرْك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).
قال السعديُّ: (فإنَّ الفِرقة الثانية تَركوا قتالَ المؤمنين احترامًا لهم، لا خوفًا على أنفسهم، وأمَّا هذه الفرقة فتركوه خوفًا لا احترامًا) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٠، ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾.

أي: فهؤلاء إنْ لم يتركوا قتالَكم، ولم يَستسلِمُوا إليكم ويُصالِحُوكم[1].

﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

أي: فخُذُوهم أسْرى، وأَعْمِلوا فيهمُ القتْلَ أينما لَقِيتُمُوهم؛ فإنَّ دماءَهم حلالٌ لكم[2].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

أي: وهؤلاء جَعَلْنا لكم حُجَّةً واضحةً في استحقاقِهم القتلَ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- الأعمالُ تتوالدُ مِنْ جِنْسِها، فالعملُ الصَّالِح يأتي بزيادةِ الصَّالِحاتِ، والعملُ السَّيِّئُ يأتي بالمعاصِي، فالعملُ سببٌ في بُلُوغ الغاياتِ مِنْ جِنْسِه؛ يرشدنا إلى ذلك قولُ الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ فقَد جعَل الله ردَّ الْمُنافقين إلى الكُفْر جزاءً لِسُوءِ اعتِقَادِهم، وقلَّةِ إخلاصِهم مع رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم[4].

٢- في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيد الله، ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: ألَّا تُسْأَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٦٩).

الهدايةُ من الضَّلالِ إلَّا من الله عزَّ وجلَّ، وأنْ يُجعلَ السؤالُ لبعضِ النَّاسِ كيف اهتدى، يُجْعل سؤالًا عن السَّبب والطَّريقِ، وأمَّا الَّذي بِيَدِه أزِمَّةُ الأمور فهو الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال الله لنَبِيِّه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(١) [القصص: ٥٦].

٣- التَّنْبيه على الإخلاص، نستفيدُ ذلك من قولِ الله تعالى ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقيَّدَ الهجرةَ بكونِها في سبيل الله؛ فإنَّه ربَّما كانتِ الهِجْرةُ مِنْ دارِ الكُفْرِ إلى دار الإسلام، ومِنْ شِعَار الكفر إلى شِعَار الإسلام لغَرَضٍ من أغراضِ الدُّنيا، إنَّما الْمُعتبَر وقوعُ تلك الهِجْرة لأجْلِ أمر الله تعالى(٢).

٤- التَّحذيرُ من الوقوعِ في الفِتَن، وأنَّ الإنسان كلَّما وقع في الفتنة أُرْكِسَ فيها، قال تعالى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- قولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ في هذه الآية دليلٌ على أنَّ المجتهدَ إذا استَنَد إلى دليلٍ ضعيفٍ ما كان من شأنِه أن يستدِلَّ به العالِمُ؛ لا يكون بعيدًا عن الْمَلَام -في الدُّنيا- على أنْ أَخطَأَ فيما لا يُخطِئُ أهلُ العِلْم في مِثْلِه(٤).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ قد أسند الله -تعالى- فِعْل هذا الإرْكَاس إليه وقَرَنَه بسببِه، وهو كَسْبُ أولئك الْمُرْكَسِينَ للسَّيِّئات والدَّنَايا من قَبْلُ حتَّى فسدت فِطَرتُهم، وأحاطت بهم خَطِيئَتُهم، فأَوْغَلوا في الضَّلال، وبَعُدُوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩)..
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠).

عن الْحَقِّ، حتَّى لم يَعُدْ يخطُرُ على بالِهِم، ولا يَجُول في أَذْهَانِهِم إلَّا الثَّباتُ على ما هم فيه، ومقاومةُ ما عداه، مقاومةً ظاهرةً عند القُدرة، وخَفِيَّةً عند العَجْزِ، هذا هو أَثَرُ كَسْبِهم للسَّيِّئات في نفوسهم، وهو أثرٌ طبيعيٌّ، وإنَّما أسندَهُ الله تعالى إليه؛ لأنَّه ما كان سببًا إلَّا بسُنَّتِه في تأثير الأعمالِ الاختيارِيَّة في نفوسِ العاملين[١].

٣- أنَّ الأعمالَ قد تكونُ سببًا لِردَّةِ الإنسانِ بكَثرةِ معاصيهِ، فالسَّيِّئةُ تَجذِبُ السَّيِّئةَ، والصَّغائرُ بَريدُ الكَبائرِ، والكبائِرُ بَريدُ الكُفْر، يُؤخَذُ هذا من قوله: ﴿أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾[٢].

٤- الرَّدُّ على الجبْرِيَّة، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾، فأثبَتَ لهم كَسْبًا، والْجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا كَسْبَ له، وأنه مُجْبَرٌ على عَمَلِه[٣].

٥- الرَّدُّ على القَدَرِيَّة، ويؤخَذُ من قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾، والقَدَرِيَّة يقولون: إنَّ أفعال العباد لا عَلَاقة لتقديرِ الله بها إطلاقًا، وأهلُ السُّنَّة والجماعة يقولون: للإنسان فِعْلٌ يُنْسَبُ إليه حقيقةً، والْمُقَدِّرُ لهذا الفعلِ هو الله عزَّ وجلَّ، وهذا هو الْمُطابِق للمَنْقُول والمعقُول والْمَحْسُوس[٤].

٦- أنَّ الكُفَّارَ يودُّون بكلِّ المحبَّة أن يَكْفُر المؤمنونَ كما كفروا؛ لقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة أنَّهُم إذا كان هذا وُدَّهُم فسوف يَسْعَوْن إليه بكلِّ وسيلةٍ، سواءٌ كانت الوسيلةُ في تدميرِ الاقتصادِ، أو بالسِّلاحِ، أو بنَشْرِ الأخلاق الرَّذِيلةِ السَّافِلَة؛ لأنَّ الأخلاقَ الرَّذيلةَ السَّافِلةَ إذا

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣).

انتشَرَتْ في الأُمَّةِ فعليها الوَداعُ[١].

٧- في قَوْلِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ أنَّ كثيرًا مِن أَهْلِ المُنْكَر يحبُّون من يوافِقُهم على ما هم فيه، ويُبْغِضون من لا يُوافِقُهم، وهذا ظاهِرٌ في الدِّيانات الفاسِدَة من مُوالاة كلِّ قَوْمٍ لِمُوافِقِيهم، ومعاداتِهم لمُخالِفِيهم. وكذلك في أمورِ الدُّنْيا والشَّهواتِ كثيرًا ما يختارونَ ويُؤْثِرون من يشارِكُهم إمَّا للمُعاوَنَة على ذلك، كما في المتَغَلِّبينَ مِن أَهْلِ الرِّياساتِ وقُطَّاع الطَّريقِ ونحوهم، وإمَّا بالمُوافقَة، كما في المجْتَمِعينَ على شُرْبِ الخَمْرِ، فإنَّهم يختارونَ أن يَشْرَبَ كُلُّ من حضر عِنْدَهم، وإمَّا لِكَراهَتِهم امتيازَه عنهم بالخَيْرِ: إمَّا حَسدًا له على ذلك؛ لئلَّا يعلوَ عليهم بذلك ويُحْمَدَ دونهم، وإمَّا لِئَلَّا يكون له عليهم حجَّةٌ، وإمَّا لِخَوْفِهم من معاقَبَةٍ لهم بنَفْسِه، أو بمن يَرْفَع ذلك إليهم، ولئلَّا يكونوا تحت مِنَّتِه وخَطَرِه ونحو ذلك من الأسبابِ[٢].

٨- أنَّ بَنِي آدَمَ بطبيعتِهم يَتَسلَّى بعضُهم ببعضٍ، ويَقْوَى بعضُهم ببعضٍ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾[٣].

٩- مِنْ مباحث اللَّفْظ في الآياتِ: أنَّ «الفاءَ» في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ للعَطْفِ لا للجَوَاب؛ كقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾[٤].

١٠- تحريمُ اتِّخاذ أولياءَ من الكُفَّار حتَّى يُهاجِرُوا في سبيل الله، فمَنْ تولَّى عن الهجرة في سبيل الله فليس وَلِيًّا لنا، ويجب علينا مُقاتلتُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٨).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٦٩).

تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ ﴾[1]، ففيها الحذَرُ من مُوَالاةِ المشركينَ والمنافقينَ والْمُشْتَهرين بالزَّنْدَقَة والإلْحَاد؛ وذلك لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ وأعْظَمَها عند جميعِ الخَلْقِ هو الدِّينُ؛ فهو الأمر الَّذي به يُتقرَّبُ إلى اللهِ تعالى، ويُتَوَسَّلُ به إلى طَلَبِ السَّعادة في الآخرة، فالعَداوة الحاصِلَة بسببه أعظمُ أنواع العَدَاوة، فهم مُضْمِرُون الكُفْرَ، ويحاولون ردَّ من يستطيعون ردَّه من المسلمين إلى الكفر، قال تعالى ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾[2].

١١- قوله: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ يستلزمُ عدمَ مَحبَّتهم؛ لأنَّ الوَلايةَ فرْعُ المحبَّة، ويستلزمُ أيضًا بُغْضَهُم وعداوتَهُم؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشَّيء أمرٌ بِضِدِّه، وهذا الأمر مُوَقَّتٌ بهجرَتِهم، فإذا هاجرُوا جَرَى عليهم ما جَرَى على المسلمينَ[3].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقُل: (حتَّى يُهاجِروا عن الكُفْر) مثلًا، بل قال: ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وذلك يَتناولُ كلَّ معاني الهجرة، فيدخل فيه مُهاجرة دارِ الكفر، ومهاجَرة شعارِ الكُفْر[4].

١٣- تمامُ وفاءِ الإسلام بالعهدِ؛ حيثُ حَمَى العهْدَ لِمَن باشَرَ عَقْدَ العَهْدِ معنا، ومَنْ لَجأ إليه، ويؤخَذُ من قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ الآية[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٠- ١٧١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٢).

١٤- أنَّ أفعال العِبَاد واقعةٌ بمشيئة الله؛ لقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾، فيُستَفَادُ منها الرَّدُّ على طائفةٍ مُبتدِعَةٍ زائغةٍ، وهُمُ: القَدَرِيَّة، الَّذين يقولون: إنَّ فِعْلَ الإنسان مُسْتَقِلٌّ به، لا علاقة لله به، ودليلُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[١].

١٥- وفي قوله: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ الرَّدُّ على الْجَبْرِيَّة؛ حيث نَسَب القتالَ إلى الإنسان، وهم لا ينسبون الفِعْل إلى الإنسان إلَّا على سبيل المجاز، فمثلًا: يقولون: الرَّجُل إذا صلَّى إنَّما صلَّى على سبيل المجاز، وإلَّا في الحقيقة أنَّه أُجْبِر على الصَّلاة[٢].

١٦- أنَّه إذا اعْتَزَلَنَا مَنْ بيننا وبينه عَهْدٌ وأمان، ولم يقاتِلْ، وألقى السَّلَمَ وَجَبَ الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ...﴾[٣].

١٧- الحاصِلُ بالمفهوم أنَّهم لو أخذوا منَّا الميثاقَ، ولكنَّهم خانُوا، فقاتَلُونا، فإنَّ العهد ينتقِضُ، ولا يكون بيننا وبينهم عهدٌ، يُؤخَذُ من مفهوم قوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[٤].

١٨- مَن أَلقَى السِّلاح وجَبَ الكفُّ عنه؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، لكن إنْ خِيفَ أنَّ إلقاءَهُ السِّلاحَ خيانةٌ وخِداعٌ، فإنَّه لا عِبْرَة بإلقائه؛ لأنَّ العَدُوَّ قد يُلْقي السِّلاحَ غَدْرًا وخيانةً، وقد ينهزم أيضًا أمام جيوشنا غَدْرًا وخيانةً، فالواجب التَّنَبُّهُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٣).

١٩- أنَّ الشَّرْع مَنْعًا ودفعًا وإذنًا كلُّه لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ بِيَدِ الله؛ فهو الَّذي يحكم بما شاء من حِلٍّ وحُرْمَةٍ وإيجابٍ وغيرِ ذلك[١].

٢٠- عِلْمُ الله عزَّ وجلَّ بالغيب؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾[٢].

٢١- إثباتُ الإرادة للعبدِ، وتؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾[٣].

٢٢- أنَّه لا يمكن الجمعُ بين الوَلاية والعَدَاوة، ولا يُمْكن أن يكون الإنسانُ وَليًّا لأولياءِ الله، ووليًّا لأعداءِ الله؛ لقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾، وهذا قالَهُ في مقامِ الذَّمِّ، لا في مقام المدْحِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾: الاستفهام للإنكارِ، والتعجُّبِ مِن الانقسامِ إلى فِئتينِ في شأنِ المنافقين؛ والنَّفيُ والخِطابُ لجميعِ المؤمنين، لكنْ ما فيه مِن معنى التَّوبيخ متوجِّهٌ إلى بعضِهم[٥].

٢- **قوله:** ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ، نشَأ عن اللَّومِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩).

والتعجُّب الذي في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ لأنَّ السَّامعين يَترقَّبون بيانَ وجْهِ اللَّوم، ويَتساءلون عمَّاذا يتَّخذون نحوَ هؤلاء المنافقين. والاستفهام للإنكار، وقد دلَّ هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ المشوبُ باللَّومِ على جملة محذوفةٍ، هي محلُّ الاستئنافِ البيانيِّ، وتقديرُها: إنَّهم قد أضلَّهم الله، أتُريدون أن تَهْدُوا من أضلَّ الله؛ هذا بناءً على أنَّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ليس المرادُ منه أنَّه أضلَّهم، بل المراد منه: أساءَ حالَهم، وسوءُ الحال أمرٌ مُجمَل يفتقرُ إلى البيان، فيكون فصْلُ الجملةِ فصلَ الاستئناف. وأمَّا على أنَّ المعنى: أنَّه ردَّهم إلى الكفر، تكون جملةُ ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، ووجْه الفَصْل -أي: عدم العطفِ- أنَّه إقبالٌ على اللوم والإنكار بعدَ جملة ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ التي هي خبريَّة؛ فالفصلُ لكمالِ الانقطاع؛ لاختلافِ الغرَضينِ[1].

- وفيه تجريدٌ للخِطاب، وتخصيصٌ له بالقائلين بإيمانِهم مِن الفئتين، وتوبيخٌ لهم على زعْمهم ذلك، وإشعارٌ بأنَّه يؤدِّي إلى محاولة المُحالِ الذي هو هدايةُ مَن أضلَّه الله تعالى؛ وذلك لأنَّ الحُكمَ بإيمانهم، وادِّعاء اهتدائِهم- وهم بمَعْزِلٍ من ذلك- سعيٌ في هدايتهم، وإرادةٌ لها[2]

- ووضْعُ الموصولِ (مَنْ) موضعَ ضميرِ المنافقين (تَهْدُوهم)؛ لتشديدِ الإنكارِ، وتأكيدِ استحالةِ الهدايةِ بما ذُكر في حيِّزِ الصِّلةِ[3].

- وفيه توجيهُ الإنكارِ إلى الإرادةِ في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ﴾، لا إلى مُتعلَّقها- حيث لم يَقُل: (أتهدون... إلخ)-؛ للمبالغةِ في إنكارِه؛ ببيانِ أنَّه ممَّا لا يمكن إرادتُه، فضلًا عن إمكانِ نفْسِه، وحمْل الهدايةِ والإضلالِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٢-٢١٣).

الحُكم بما يأباه(١).

- قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: فيه توجيهُ الخِطابِ إلى كلِّ واحدٍ من المخاطَبينَ؛ للإشعارِ بشُمول عدمِ الوجدان للكلِّ على طريقِ التفصيلِ. وعلى أنَّ الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر للإنكارِ السَّابق، ومؤكِّد لاستحالة الهداية؛ فحينئذٍ يجوز أن يكون الخِطاب لكلِّ أحد ممَّن يَصلُح له مِن المخاطَبين أولًا ومِن غيرهم(٢).

٣- **قوله:** ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، مسوقٌ لبيانِ غُلوِّهم، وتمادِيهم في الكُفر، وتصدِّيهم لإضلالِ غَيرِهم إثرَ بيانِ كُفْرهم، وضلالهم في أنفسهم(٣).

٤- **قوله:** ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ جاريةٌ مجرى التَّعليلِ لاستثناءِ الطائفةِ الأخيرةِ مِن حُكم الأَخْذ والقَتْل، ونظْمُهم في سلكِ الطائفةِ الأولى الجارِيَة مَجرى المعاهَدِينَ مع عدَمِ تَعلُّقهم بنا، ولا بمَن عاهدونا كالطائفةِ الأولى، أي: ولو شاءَ الله لسلَّطهم عليكم ببَسْطِ صدورهم، وتقويةِ قلوبهم، وإزالة الرُّعْب عنها(٤).

٥- **قوله:** ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ فيه حُسْنُ بلاغة القرآن؛ حيث قال هنا: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وهناك في الآيةِ الأولى قال: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٤).

اختلافَ الألفاظِ يؤدِّي إلى النَّشَاط، واتفاقها يؤدِّي إلى المَلَل غالبًا[١].

- وعبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكُمۡ﴾؛ لزيادةِ تمييزِ هؤلاءِ المنافقين[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٥).

الآيتان (٩٢ - ٩٣)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ضَرَبْتُمْ﴾: أي: سافرْتُم وسِرْتُم، وخرجتم وتباعدتُم في الأرض، وأصلُ الضَّرْب: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ[(١)].

﴿تَبْتَغُونَ﴾: تَطلُبون؛ يُقال: بَغَى الشَّيءَ، أي: طلبَه، وأصلُ البَغْيِ: جِنْسٌ من الفساد، ويُطْلَق على طلبِ الشَّيء، والظُّلْم، والتَّرفُّع والعُلُوِّ، ومُجاوَزَة المقدار[(٢)].

﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾: أي: الغَنيمةَ، أو المالَ، ويُطلقُ العَرَضُ على المتاع والحُطام[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١، ٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٦، ٣٣٩)،

﴿فَمَنَّ﴾: أي: أنْعَم، وصنَعَ الصُّنع الجَميل، والمِنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، وأصل (منن): اصطناعُ الخير[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾

﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾: الاستثناءُ هنا؛ قِيل: إنَّه استثناءٌ منقطِعٌ؛ أي: لكنْ إنْ قتَلَه خَطأً فجزاؤُه ما يُذْكَرُ. وقِيل: إنَّه استثناءٌ متَّصل -إنْ أُريدَ بالنَّفيِ التحريمُ- والمعنى: إلَّا خطأً بأنْ عَرَفه كافرًا فقتَلَه، ثم ظهَر أنَّه كان مؤمِنًا. وقيل: إنَّه استثناءٌ مُفرَّغٌ من أحوالٍ عامَّة- أو عِللٍ عامَّة- مَحذوفةٍ، وهو الاستثناءُ النَّاقِصُ المنفيُّ. وفي نَصْبِ ﴿خَطَـًٔا﴾ أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ لأجْلِه، أي: ما يَنبغي له أنْ يَقتُلَه لعلَّةٍ من العِلل إلَّا للخطأِ وحدَه. الثَّاني: أنَّه منصوبٌ على الحَالِ، والتقدير: ما يَنبغي أن يَصدُر منه قتلٌ له إلَّا مُخطِئًا في قتْله، أي: ما يَنبغي له أن يَقتُلَه في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الخَطأِ. الثالث: أنْ يكونَ نائبًا عن المفعولِ المُطْلَق؛ أي: إلَّا قَتْلًا خَطأً[٢].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخْبِر تعالى أنَّه ليس للمؤمن أن يقتُلَ أخاه المؤمِنَ إلَّا أن يكون ذلك القتلُ صادرًا عن خَطَأ غيرِ مقصودٍ، فإذا ما حصل القتلُ خطأً فعلى القاتل أن يُكَفِّر عن

((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٢٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

(٢) ينظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٠)، ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) للسمين الحلبي (٤/ ٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦-١٥٧)، ((تفسير الجلالين)) (١/ ١١٧).

فعله ذاك بتحريرِ رقَبَة مؤمن أو مؤمنة من الرِّقِّ، وعليه أيضًا دِيَةٌ كاملةٌ تتحمَّلُها عاقِلَتُه، تُدْفَعُ إلى وَرَثَة المقتول، إلَّا أن يَتَصَدَّقوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تَجِبُ عليه حينَها، فإنْ كان المقتولُ مؤمنًا، لكنَّه من قومٍ كُفَّار حَرْبِيِّينَ، فلا يجب على قاتله خطأً إلَّا تحريرُ رقبةٍ مؤمِن أو مؤمِنة من الرِّقِّ، وإن كان من قوم بين المؤمنين وبينهم عهدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا بحربيِّين، فعلى القاتل دفْعُ دِيَة إلى ورثة المقتول تتحمَّلها عاقلةُ القاتل، وعليه أيضًا تحريرُ رقبةِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من الرِّقِّ، فمن لم يجد الرَّقَبة لِيُعْتِقَها، أو لم يَجِدْ ثَمَنَها فعليه صيامُ شهرين متتابعينِ، شَرَعَ الله ذلك لعبادِهِ؛ توبةً منه تعالى عليهم ورحمةً، وكان الله عليمًا حكيمًا.

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يَقتُلُ مؤمنًا عن عَمْدٍ وقصْدٍ لإتلافِ رُوحِهِ- توعَّده بأنَّ عقوبَتَه هي المُكْثُ الطويلُ في جَهنَّم، وغَضِبَ الله عليه، وطَرَدَه من رحمته، وأعَدَّ له عذابًا عظيمًا، وهذه العقوبةُ هي ما يستحقُّه إنْ عاقَبَه الله تعالى.

ثمَّ يُخاطِبُ الله المؤمنينَ آمِرًا إيَّاهم أن يتبيَّنوا إذا خرَجوا للجهادِ في سبيل الله، ويتثبَّتوا في قتْل مَن أَشكَلَ عليهم أمرُه، فلم يتيقَّنوا مِنْ إسلامِهِ أو كُفْرِهِ، ولا يقولوا لِمَن أظهَرَ لهم إسلامَه، واستسلم ولم يُقاتِل: إنَّه ليس مُسلمًا، بل عليهم أن يأخذوا الظَّاهِرَ من حاله، ولا يقتلوه طلبًا لمتاع الحياةِ الدُّنيا، وذلك لسَلْب ما معه من مالٍ، مذكِّرًا إيَّاهم سبحانه أنَّهم كذلك كانوا من قبلُ يُخْفُون إيمانَهُم من قومِهِمُ المشركينَ، فتفضَّلَ الله عليهم بإعزازِ دينِهِ، فأظهروا ما كانوا يُخْفُون، فعليهم أن يتثبَّتوا قبل أن يُقْدِمُوا على قَتْلِ مَنْ أشْكَلَ أمرُه، إنَّ الله كان بما يعملون خبيرًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ

مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان الكلامُ في قِتالِ المتظاهرين بالإسلام الَّذين ظَهَر نفاقُهم، فلا جَرَمَ أنْ تتشوَّفَ النَّفسُ إلى حُكم قَتْلِ المؤمنين الخُلَّصِ، فانتَقَلَ من تحديدِ أعمال المسلمين مع العَدُوِّ إلى أحكامِ معاملةِ المسلمينَ بَعضِهم مع بعضٍ: من وجوبِ كفِّ عدوانِ بَعضِهِم على بعضٍ، وأحكام قتْل مَن لا يَحِلُّ قَتْلُه من مؤمنٍ ومعاهَدٍ وذِمِّيٍّ، وما يقع مِن ذلك خطأً[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

أي: وليس لمؤمنٍ أنْ يقتُل أخاه المؤمنَ، ولا يَحِلُّ له ذلك، كما أنَّه أمْرٌ ممتنِعٌ صدورُهُ من مؤمنٍ؛ لأنَّه منافٍ للإيمان، إلَّا أن يرتكِبَ ذلك غيرَ عامدٍ له، ولا قاصِدٍ إليه[2].

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

أي: وإذا ارتكبَ المؤمنُ القتْلَ لمؤمنٍ غيرَ عامدٍ له، ولا قاصِدٍ إليه، فعليه أن يُكَفِّرَ عن ذلك بتحريرِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من رِقِّ العبوديَّةِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٤-٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٨-٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٥-٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٦٩، ٧١).

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾.

أي: وعلى القاتِل دفْعُ دِيَةٍ كاملة- ولكنْ تتحمَّلُها عاقِلَتُه- إلى ورثَةِ المقتولِ عِوَضًا لهم عمَّا فاتَهُم من قريبهم، وجَبْرًا لقلوبهم، إلَّا إذا تصدَّقُوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تجب حينئذٍ[1].

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾.

أي: فإنْ كان هذا المقتولُ الَّذي قَتَلَه المؤمِنُ خطأً من كُفَّارٍ حربِيِّينَ، لكنَّه مؤمنٌ، فلا دِيَةَ لهم، وعلى القاتل عِتْقُ رقبةٍ مؤمنة لا غيرُ[2].

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾.

أي: وإنْ كان القَتيلُ الَّذي قتَلَه المؤمنُ خطأً من قومٍ بينكم- أيُّها المؤمنونَ- وبينهم عهْدٌ وذِمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا أهلَ حربٍ لكم[3].

﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾.

أي: فعَلى القاتِلِ دِيَةٌ- تتحمَّلُها عاقِلَتُه- يدفعها إلى ورثة المقتولِ، وعِتْقُ رقبةٍ مؤمنة، كفَّارةً لقتْلِه[4].

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٠٦، ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٨، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣١٨، ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).

أي: فمَن لم يَجِدْ رقبةً مؤمنةً يُعْتِقُها كفَّارةً لخطئه في القتل، أو لم يَجِدْ ثَمَنَها، بأنْ كان مُعْسِرًا، ليس عنده ما يَفْضُل عن حوائجِه الأصليَّة، فعليه صيامُ شهرين، يَسْرُدُ صومَهُما إلى آخرِهِمَا، دون إفطارٍ فيهما[١].

﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: هذه الكَفَّاراتُ الَّتي شَرَعَها اللهُ للمُؤمِنِ الذي قَتَلَ مؤمنًا خطأً؛ توبةً منه على عباده، ورحمةً بهم، وتكفيرًا لما عَسَاه أنْ يَحصُلَ منهم من تقصيرٍ، وعَدَمِ احترازٍ، ولو شاء اللهُ تعالى لشَقَّ عليهم، ولكان الواجبُ بقتلِ الخطإِ أكبرَ من ذلك[٢].

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بما يُصلِحُ عباده فيما يكلِّفُهم من فرائِضِه وغير ذلك، وهو سبحانه الحكيم في كلِّ شيء، فيَضَع كلَّ شيء في موضِعِه اللَّائق به، ومن ذلك حِكْمَته فيما يَشْرَعه لعباده من أحكام[٣].

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله سبحانه وتعالى حُكْمَ القتل الخطأ ذَكَرَ بعده بيانَ حُكْم القتل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).
قال الرازي: (والمراد به بالإجماع من لم يتمكَّن) ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٢).

العَمْد؛ لأنه هو المقصودُ من التَّشْرِيع لأحكام القَتْلِ؛ لأنَّه هو المتوقَّعُ حصولُهُ من النَّاس، وإنَّما أُخِّرَ لتهويلِ أمْرِه(١).

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾.

أي: ومَن يقتُلْ مؤمنًا مُتَعَمِّدًا قتْلَهُ، قاصدًا إتلافَ نفسِهِ، فإنَّما عقوبتُه الَّتي يستحِقُّها- إنْ عَاقَبَهُ الله تعالى- الخُلُودُ في نار جهنَّم- فقد يكون له من توحيدِ الله تعالى وتوبتِهِ وأعمالِه الصَّالِحَة ما يَصْرِف عنه هذه العقوبةَ- وقيل: بلِ المرادُ بالخلودِ هنا الْمُكْث الطويلُ؛ إذ لا يُخَلَّد مَنْ في قلبه إيمانٌ في النَّارِ أبَدَ الآبدينِ(٢).

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾.

أي: وسَخِطَ عليه الجبَّارُ سبحانه، وطَرَدَه، وأبعدَهُ من رحمته جَلَّ وعَلا(٣).

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

أي: وهَيَّأَ اللهُ تعالى له عقوبةً كبيرةً، لا يعلمُ قَدْرَ مَبْلغِها سِواه عزَّ وجلَّ(٤).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تَبيَّنَ بهذا المنعِ الشَّديد مِنْ قَتْلِ العمْد، وما في قتلِ الخَطَأ من المؤاخذةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦، ٣٥٠-٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٧٦، ٣٨٠-٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨١-٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٢، ٨٩).

الموجِبَة للتثبُّت، وكان الأمر قد بَرَزَ بالقتالِ والقَتْل في الجِهَاد، ومؤكَّدًا بأنواعِ التَّأكيد، وكان ربَّما التبس الحالُ؛ أتبعَ ذلك التَّصريحَ بالأمرِ بالتثبُّتِ، ولَمَّا كان خفاءُ ذلك منوطًا بالأسفارِ قال: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وإلا فالتثبُّت والتبيُّن لازمٌ في قتلِ من تظاهَرَ بالإسلامِ في السَّفَر وفي الحَضَر[١] فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾.

سَببُ النُّزول:

عنِ ابْنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ قال: (كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحِقَه المسلمون، فقال: السَّلامُ عليكم. فقتلوه، وأخذوا غُنَيْمَتَه، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تلك الغُنَيْمَة)[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾.

القراءات ذات الأثَرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ قراءتان:

١- ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾: من التثبُّت الَّذي هو خلاف العَجَلَةِ[٣].

٢- ﴿فتبيَّنُوا﴾: من التبيُّن، بمعنى: التَّأنِّي والنَّظَر، والكَشْف عنه حتَّى يتَّضِح[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٤٥٩١) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢٥).

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٤).

(٤) قرأ بها الباقون يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

أي: يا أيُّها المؤمنون إذا سِرْتُم في جهادِ أعدائِكم فتأنَّوْا في قتلِ من أشكَلَ عليكم أمرُهُ ، فلم تعلموا حقيقةَ إسلامِهِ ولا كُفْره، ولا تَعْجَلُوا فتقتُلُوه قبل أنَّ تتثبَّتوا وتتيقَّنوا أمرَه[1].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

القراءات ذات الأثر في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿السَّلَمَ﴾ قراءتان:

١- ﴿السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلامُ والانقياد، فالمعنى: لا تقولوا لمنِ استسلَمَ إليكم وانقاد: لستَ مُسلمًا[2].

٢- ﴿السَّلَامَ﴾ الَّذي هو تحيةُ الإسلام، فالمعنى: لا تقولوا لِمَن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام: لستَ مؤمنًا[3].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

أي: ولا تقولوا لِمَنِ استسلم لكم فلم يُقاتِلْكم، مُظْهِرًا لكم أنَّه مُسْلِمٌ مِثْلُكم:

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦١)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٩-٩٠).

قال الرازي: (أجمع المفسِّرون على أنَّ هذه الآياتِ إنما نزلتْ في حقِّ جماعةٍ من المسلمين لقوا قومًا فأسْلَموا فقَتَلوهم، وزعموا أنَّهم إنَّما أسلموا مِن الخوفِ) ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٨٣).

(٢) قرأ بها المدنيَّان، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ وخلفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٥).

لستَ كذلك، بل خُذُوه بظاهِرِ حاله[1].

﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾.

أي: فتقتلُوه لأجْلِ أخْذِ ما لديه من مالٍ، طلبًا لمتاعِ الحياة الدُّنيا. فلا يحمِلَنَّكُمُ العَرَضُ الفانِي القليلُ على ارتكابِ ما لا يَنبغي؛ فيفُوتَكم ما عند الله من الرِّزْق والمغانم الحلال، فما عندَ الله خيرٌ لكم من مالِ هذا[2].

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

أي: قد كنتُم- أيُّها المؤمنون- مِن قَبلُ تُخفُون إيمانَكم في قومِكم من المشركينَ، وأنتم بين أظْهُرِهم، كهذا الَّذي قتلتُمُوه يُسِرُّ إيمانَه ويُخْفِيه من قَوْمِه من المشركين، فتفضَّلَ الله عليكم بإعزازِ دينِه، وإظهارِ ما كنتم تَسْتَخْفُون به، فتثبَّتُوا حتَّى يتَّضِحَ لكم أمْرُه قبل أنْ تقتلوه[3].

عن أبي ظَبْيَانَ قال: سمعتُ أسامةَ بنَ زيدِ بنِ حارثةَ رضِي اللهُ عنه يُحدِّث، قال: ((بعَثَنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الحُرَقةِ[4] مِن جُهينةَ، فصَبَّحْنا القومَ فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجُلٌ من الأنصارِ رجُلًا منهم، فلمَّا غَشيناه قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ فطعنتُه برُمحي فقَتلتُه، فلمَّا قَدِمْنا بلَغَ ذلك النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا أسامةُ، أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥١-٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥٢، ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٣-٩٤).

(٤) الحُرَقَة-بضم الحاء وفتح الراء- : بَطْن من جُهَيْنَة، وإنَّما سُمُّوا الحُرقة؛ لأنَّهم أَحْرَقوا بني سهم بن مرَّة بِالنَّبلِ. يُنظر: ((توضيح المشتبه)) لابن ناصر الدين (٣/ ١٨٢)، ((تبصير المنتبه)) لابن حجر (١/ ٤٢٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥/ ١٥٤).

قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما كان مُتعوِّذًا! قال: أقتلتَه بعدَما قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ؟! قال: ما زالَ يُكرِّرها عليَّ حتَّى تمنيتُ أنِّي لم أكُنْ أسلمتُ قبلَ ذلك اليومِ))[1]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى بكلِّ ما تَعملونه وتَنْوُونَه ذو خبرةٍ وعِلْمٍ به، ومِنْ ذلك قَتْلُكم مَن تَقتُلون، وكَفُّكم عمَّنْ تكفُّون عن قتْلِه، فيَحفَظ عليكم ذلك، ويُجازيكم به[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- يُرشِدُ قولُ الله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ إلى فَضيلةِ العَفْو والحضِّ عليه، وأنَّه جارٍ مَجْرى الصَّدَقة، واستحقاقِ الثوابِ الآجِلِ به، دونَ طَلَبِ العَرَضِ العاجِل؛ حيثُ سَمَّى العفوَ صَدَقةً؛ حثًّا عليه، وتنبيهًا على فضلِه[3].

٢- ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ لم يَرِدْ في أنواع الكبائرِ دونَ الشِّركِ أعظمُ من هذا الوعيد، بل ولا مثلُه، ألَا وهو الإخبارُ بأنَّ جزاءَه جهنَّمُ خالدًا فيها، أي: فهذا الذَّنبُ العظيمُ قد انتهَضَ وَحْدَه أن يُجازَى صاحبُه بجهنَّم، بما فيها من العذابِ العظيم، والخِزْي المُهين، وسَخَطِ الجبار، وفَوَات الفوز والفلاح، وحُصُول الخَيْبَة والخَسَار. فعِياذًا بالله من كُلِّ سببٍ يُبْعِدُ عن رحمته[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٤-٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).

٣- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ فيه بيانُ حكمةٍ عظيمة في حِفْظِ الجامعة الدِّينيَّة، وهي بثُّ الثِّقة والأمان بين أفراد الأمَّة، وطَرْح ما من شأنه إدخالُ الشَّكِّ؛ لأنَّه إذا فُتِح هذا البابُ عَسُر سَدُّه، وكما يَتَّهِم الْمُتَّهِمُ غيرَه، فللغيرِ أنْ يتَّهِم مَنِ اتَّهَمه، وبذلك ترتفعُ الثِّقة، ويَسْهُل على ضعفاء الإيمان المُروقُ؛ إذ قد أصبحتِ التُّهْمَة تُظِلُّ الصادقَ والْمُنافِقَ[1].

٤- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ وجوب التثبُّت في الأمور، حتَّى في الجهاد في سبيل الله؛ فالتثبُّت يحصُل فيه من الفوائِد الكثيرة، والكفِّ لشرورٍ عظيمة، ما به يُعرَف دينُ العبد وعقْلُه ورَزَانته، بخلافِ المستعْجِل للأمور في بدايتها قبل أن يتبيَّنَ له حكمُها، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الَّذين عاتَبَهم الله في الآية لمَّا لم يتثبَّتوا، وقَتَلوا من سلَّمَ عليهم[2].

٥- متاعُ الدُّنيا حُطامٌ سريع النَّفَاد، وثوابُ الله تعالى موصوفٌ بالدَّوام والبقاء، كما في قول الله تعالى ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾[3].

٦- أنَّ العبدَ يَنبغي له إذا رأَى دَواعيَ نفْسِه مائلةً إلى حالةٍ له فيها هوًى، وهي مُضِرَّةٌ له، أن يُذَكِّرَها ما أعدَّ الله لمن نَهَى نفسَه عن هواها، وقدَّم مرضاةَ الله على رضا نفْسِه، فإنَّ في ذلك ترغيبًا للنَّفْس في امتثالِ أمْرِ الله، وإنْ شَقَّ ذلك عليها، قال تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ١٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فيه تربيةٌ عظيمةٌ، وهي أنْ يستشعرَ الإنسانُ عندَ مؤاخذتِه غيرَه أحوالًا كان هو عليها تُساوِي أحوالَ مَن يؤاخِذُه كمؤاخَذَة المعَلِّم التِّلميذَ، وكذلك وُلاة الأمورِ وكبار الموظَّفين في معاملةِ صِغارِ الموظَّفين، وكذلك الآباء مع أبنائِهم، إذا بلَغَتْ بهم الحماقةُ أن يَنْتَهِروهم على اللَّعِب المعتادِ أو على الضَّجَر من الآلامِ[1].

٨- في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تهديدُ الإنسانِ أنْ يعملَ ما لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ، يعني: لا تظُنَّ أنَّكَ إذا عَمِلْتَ شيئًا فإنَّه يخفى على الله أبدًا، ومتى آمَنَ الإنسانُ بهذا فإنَّه لن يُقْدِم على شيء لا يرضاه الله؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله يعلم بهذا، حتَّى في قلبه؛ يحفَظُ قلْبَه من الانحرافِ والانجراف إذا عَلِمَ بأنَّ الله تعالى خبيرٌ بما يعمل، لكنْ هذه المسائل تحتاج إلى فِطْنةٍ، وأنَّ الإنسان دائمًا يكون مراقِبًا لله سبحانه، خائفًا منه، وكلَّما هَمَّ بشيء ذَكَرَ عظمةَ الله عزَّ وجلَّ وعِلْمَه بما سيعمل حتَّى يمتنع[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- امتناعُ قَتْلِ المؤمِنِ للمؤمِنِ عمْدًا، ويُؤخَذُ من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، وإذا جاءت (ما كان) أو (لم يكن) أو (لا ينبغي) أو (ما ينبغي) فإنَّها تفيدُ الامتناعَ، ولكنْ هذا الامتناعَ شرعِيٌّ؛ لأنَّه قَدَرًا يمكن أن يقتله عمدًا لا خطأً[3].

٢- الإيمانُ الصَّحيحُ يَمنَعُ المؤمنَ مِنْ قتْل أخيه الَّذي قد عَقَدَ الله بينه وبينه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٢).

الأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ الَّتي مِنْ مقتضاها محبَّتُه ومُوالاته، وإزالةُ ما يَعْرِض لأخيه من الأذى، وأيُّ أذًى أشدُّ من القتل؟ لذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾[1].

٣- القتْلُ من الكُفرِ العِمليِّ، وأكبر الكبائر بعد الشِّرْكِ بالله، ولَمَّا كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًّا لجميع الأحوال، وأنَّه لا يصدُرُ منه قتلُ أخيه بوجهٍ من الوجوه، استثنى تعالى قتْلَ الخَطَأِ، فقال: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإنَّ المخطِئَ الَّذي لا يقصِدُ القتلَ غيرُ آثمٍ، ولا مجترِئ على محارِمِ الله، ولكنَّه لَمَّا كان قد فعل فعلًا شنيعًا وصُورَتُه كافيةٌ في قُبْحه، وإن لم يقصِدْه، أَمَرَ تعالى بالكَفَّارة والدِّيَة، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا ...﴾[2].

٤- أنَّ المؤمِنَ قد يَقتُلُ غيرَ المؤمِنِ عمدًا؛ لقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾، ولكن هل هذا جائزٌ؟ الجواب: فيه تفصيلٌ: إنْ كان محارِبًا فقتْلُه جائزٌ، ثمَّ قد يَجِب أو لا يجِب على حَسَب ما تَقتضيه الحالُ، وإنْ كان معاهَدًا أو مُسْتأمَنًا أو ذِمِّيًّا فقتْلُهُ حرامٌ[3].

٥- فضيلةُ العِتْقِ وعُلُوُّ منزلتِه؛ لأنَّه صارَ كفَّارةً لهذا الذنبِ، وهو قتْلُ المؤمِنِ؛ قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[4].

٦- تشوُّفُ الشَّارعِ إلى تحريرِ الرِّقاب من الرِّقِّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: الرَّدُّ على من أنكر على المسلمين الاسْتِرْقَاقَ، فيقال: إنَّ الاسترقاقَ جاء نتيجةً

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٣).

لأمرٍ ضروريٍّ، ومع ذلك فإنَّ هناك مُشَجِّعَاتٍ كثيرةً على التَّحْريرِ[١].

٧- اشتراطُ الإيمانِ في عِتْق الرَّقَبة في القتلِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[٢].

٨- جواز إعتاقِ الذَّكَر والأنثَى في كفَّارَةِ القتلِ، وتُؤخَذ من الإطلاقِ في قوله: ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ ولم يَقُلْ: ذَكَر ولا أنثى، فيكون مُطلقًا[٣].

٩- تعظيمُ القتلِ؛ ولهذا أوجب اللهُ فيه الكَفَّارة، مع أنَّ القاعدةَ الشَّرعيَّة أنَّ المخطِئَ لا كفَّارةَ عليه، وأنَّه مرفوعٌ عنه القَلَمُ، لكنْ تعظيمًا لشأنِ القتل صار الَّذي يصدُرُ منه القتلُ - ولو مخطئًا - عليه الكَفَّارةُ[٤].

١٠- الحِكمةُ تَقتضي أنْ لا يُجزئُ عتقُ المَعِيبِ في الكَفَّارةِ؛ لأنَّ المقصودَ بالعتقِ نَفْعُ العتيقِ، وملْكُه منافعَ نفسِه، فإذا كان يَضيع بعِتْقه، وبقاؤه في الرِّقِّ أنفعُ له فإنَّه لا يُجزئ عِتْقُه، مع أنَّ في قوله: ﴿تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ ما يدلُّ على ذلك؛ فإنَّ التحرير: تخليصُ مَنِ استحقَّت منافعه لغيرِه أنْ تكون له، فإذا لم يكن فيه مَنافعُ لم يُتَصَوَّرْ وجودُ التَّحرير. فتأمَّلْ ذلك فإنَّه واضح[٥].

١١- أشار قولُ الله تعالى: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ إلى أنَّ الدِّيَةَ تَرضيةٌ لأهلِ القتيلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٠).

١٢- أنَّه يجبُ على مَن وجبَتْ عليه الدِّيَةُ أنْ يُوصِلَها إلى أهلِ الميِّت؛ لقوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾، فأهله هُمُ الورثة(١).

١٣- يُؤخَذ مِن قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾، وهو مُستثنًى من قوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾، أنَّ العفو عن الدِّيَة من الصَّدقة، وذلك أنَّ الصَّدقة إمَّا إعطاءٌ وإمَّا إبراءٌ، فالإعطاءُ ظاهر، والإبراء هو: أن يُبْرِئ الإنسان شخصًا مَدِينًا من الدَّيْنِ ويُسْقِطه عنه، لكن هذا لا يُجْزِئ في الزكاة عن زكاة العَيْنِ(٢).

١٤- في سماحِ المعاهَد للمؤمِنِ بالدِّيَة مِنَّةٌ عليه، والكتابُ العزيز الَّذي وصَفَ المؤمنين بالعزَّة لا يَفتح لهم بابَ هذه المنَّة، ومِن محاسِن نَظْمِ الكلام وتأليفه أن يؤخَّرَ المعطوف الَّذي له متعلَّقٌ على ما ليس له متعلَّق، وما متعلقاتُه أكثرُ على ما متعلقاتُه أقلُّ، وهذه نكتة لفظيَّة لتأخير ذكر الدِّيَةِ في حقِّ المؤمن؛ إذ تعلَّق بها الوصف، وهو قوله: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾، والاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾(٣).

١٥- قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ دليلٌ على جواز البراءة من الدَّيْنِ بلفظِ الصَّدقة، وعلى أنَّه لا يُشترطُ القَبولُ في الإبراءِ(٤).

١٦- جوازُ العفْوِ عن الجَانِي، ولكن هذا مقيَّدٌ بما إذا كان في العفْوِ إصلاحٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فإنْ لم يكن فيه إصلاحٌ فترْكُ العفو أولى، بل قد يجب الأخْذُ بالحقِّ وترْكُ العفو؛ لأنَّ الإصلاحَ أهمُّ من المصلحة الخاصَّة، فالعفو عن الدِّيَة مصلحةٌ خاصَّة، لكنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٢٣).

الإصلاحَ مصلحةٌ عامَّة، فإذا كان هذا الَّذي قَتَلَ خطأً رجلًا متهوِّرًا لو عَفَوْنا عنه لذَهَب يقتلُ مرَّةً أخرى، وثالثة ورابعة، فإنَّ العَفْوَ عن هذا ليس من الإصلاحِ؛ وعليه فلا ينبغي العفْوُ(١).

١٧- أنَّ قتْلَ المعاهَد حرامٌ؛ لأنَّ الله أوجبَ في قتْل مَنْ بيننا وبينهم ميثاقٌ الدِّيَةَ والكفَّارةَ(٢).

١٨- أنَّ دِيَة الكافِرِ المعاهَد ليست كَدِيَة المُسلِمِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾ وهذه نكرة، وإعادة الكلمة بلفظ النكرة تدلُّ على أنَّ الثَّاني غير الأول، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا * إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾(٣) [الشرح: ٥-٦].

١٩- احترامُ الدِّين الإسلاميِّ للعهود والمواثيق؛ ولذلك لم يُهدِرْ حقَّ المعاهدِ الَّذي بيننا وبينه ميثاقٌ، بل أوجب الدِّيَةَ لأهْلِه؛ ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾(٤).

٢٠- وجوبُ الكَفَّارة في قتْل مَنْ بيننا وبينهم ميثاقٌ وإنْ كانوا غير مسلمينَ؛ لقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾(٥).

٢١- أنَّ مَن لم يجِدِ الرقبةَ أو ثَمَنَها فعليه صيامُ شَهرينِ متتابعينِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾، ومَن لم يَستطعِ الصِّيامَ فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
وينظر في القاعدة المذكورة ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٨٦١)
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شيءَ عليه، لا عِتْق رقبة؛ لأنَّه لا يَجِدُ، ولا صيامَ؛ لأنَّه لا يستطيع، ولا إطعام؛ لأنَّه لم يُذكَر في الآية؛ ولهذا لمَّا أراد الله عزَّ وجلَّ أن يكون الإطعام بدلًا عن الصيام ذكره كما في آيات الظِّهَار[١].

٢٢- قول الله تعالى: ﴿ تَوۡبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ تاب يُطلَق على معنى نَدِم، وعلى معنى قَبِلَ منه، وهي هنا بمعنى قَبِلَ التَّوبة بقرينة تعديته بـ (مِنْ)[٢].

٢٣- في قول اللهِ تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ إثباتُ اسمين من أسماءِ الله؛ أحدهما: العليم، والثَّاني: الحُكيم، واللهُ تعالى يَقرِن بين العليمِ والحَكيمِ في مواضعَ كثيرةٍ؛ ليُبيِّن أنَّ ما يَحكُم به سبحانه من الأحكامِ الشَّرعيَّة والأحكامِ الكونيَّة، فإنَّه صادرٌ عن علمٍ وحِكمةٍ لا عن جهلٍ وسَفَهٍ، وأصلُ الخطأِ في الحُكم إمَّا مِن الجَهل، وإمَّا من السَّفَه؛ فإنْ كان عن غير علمٍ فهو من الجهل، وإنْ كان عن غيرِ حِكمةٍ فهو من السَّفَه؛ ولهذا فالآياتُ الَّتي تتضمَّن أحكامًا يَختِمُها الله جلَّ وعلا كثيرًا بهذين الاسمين[٣].

٢٤- قال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ومِنْ حِكْمَته أنْ أَوْجَبَ في القتْل الدِّيَةَ ولو كان خطأً؛ لتكونَ رادعةً وكافَّةً عن كثيرٍ من القتل، باستعمالِ الأسبابِ العاصمةِ عن ذلك؛ قال تعالى: ﴿ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ ﴾. ومن حِكْمَته أيضًا أنْ وَجَبَتْ على العاقلةِ في قتْل الخطأِ، بإجماعِ العُلماء؛ لكونِ القاتلِ لم يُذنِبْ، فيَشُقُّ عليه أن يحمل هذه الدِّيَة الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك مَنْ بينه وبينهم المعاونةُ والمُناصرة والمُساعدة على تحصيل المصالحِ وكفِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٩).

المفاسِدِ[١].

٢٥- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ...﴾ في هذه الآية الكريمة دليلٌ على أنَّ قتْل المؤمن عَمدًا من كبائرِ الذُّنوب؛ لورودِ الوعيدِ عليه؛ وكل ذنبٍ رُتِّبَ عليه الوعيدُ والعقوبةُ فهو من كبائر الذُّنوب[٢].

٢٦- في قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ إثباتُ الغضَبِ لله عزَّ وجلَّ، والغضبُ صفةٌ من الصِّفات الفعليَّة الَّتي تقَعُ بمشيئةِ الله تعالى، وكلُّ صفةٍ مُرتَّبةٍ على سببٍ؛ فهي من الصِّفاتِ الفِعليَّة؛ لأنَّها تُوجَد بوجودِ ذلك السَّببِ، وتَنتفي بانتفائِه[٣].

٢٧- أنَّ مَن قَتَل مؤمنًا متعمِّدًا فمِنْ جزائِه أنْ يُلْعَنَ، بأنْ يُطرَدَ مِن رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾، لكن لا يجوزُ أنْ نلعنَ القاتِلَ بعينِه، ونقول: أنتَ ملعونٌ مغضوبٌ عليك؛ لأنَّه يجوز أن يتوبَ فتزولَ اللَّعنةُ[٤]، فلعنُ المطلَقِ لا يستلزمُ لعنَ المعيَّنِ الذي قام به ما يمنعُ لحوقَ اللعنةِ له[٥].

٢٨- القرآنُ مملوءٌ بِذِكْر سَخَطِ الله وغَضَبِه على أعدائه، وذلك صفةٌ قائمةٌ به، يترتَّبُ عليها العذابُ واللَّعْنَةُ، لا أنَّ السَّخَط هو نفْسُ العذابِ واللَّعْنَة، بل هما أثَرُ السَّخَط والغَضَب ومُوجِبُهما؛ ولهذا يُفَرَّقُ بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ففرَّقَ بين عذابِه وغضَبِه ولَعْنَتِه، وجعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٨).
(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٢).

كُلَّ واحدٍ غيرَ الآخَرِ[١].

٢٩- عِظَمُ عذابِ النَّار؛ لقوله: ﴿عَظِيمًا﴾، والعظيم إذا استعظم الشَّيء صار بقدْرِ عظمة هذا المستعظِم، أي: إنَّه شيء عظيم عِظَمًا كبيرًا[٢].

٣٠- أنَّ الواجِبَ علينا معاملةُ الخَلق بالظَّاهر؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ولم يقل: لستَ مسلمًا؛ لأنَّه ألقى السَّلامَ واستسلم، لكن لا تقولوا: لست مؤمنًا، يعني: لم يدخُلِ الإيمانُ في قَلبِك، فلا يجوزُ لنا أنَّ نتعدَّى الظَّاهِرَ الَّذي يبدو من الإنسان، حتَّى وإن وُجِدَت قرائنُ تدلُّ على خلافِ ظاهره، والدَّليل: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾[٣].

٣١- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المقصودُ من التقييدِ بـ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ زيادةُ التَّوبيخِ، والتحقير لعَرَض الدُّنيا بأنَّها نفْعٌ عارضٌ زائل، مع العلم بأنَّه لو قال لمن أظهر الإسلامَ: لستَ مؤمنًا، وقَتَلَه غيرَ آخذٍ منه مالًا لكان حُكمُه أوْلَى ممَّن قصَد أخْذَ الغُنَيْمة[٤].

٣٢- عِلْمُ الله سبحانَه ببواطِنِ الأمور؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ويدلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فقد فسَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الباطِنَ بأنَّه (الَّذي ليس دونه شيءٌ)[٥]؛

(١) ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥، ٩٦)، وينظر كذلك: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨- ١٦٩).
(٥) ينظر ما رواه مسلم (٢٧١٣).

فكلُّ شيءٍ بأمْره، وكلُّ شيء بعِلْمِه، وكلُّ شيءٍ بسَمْعِه، وكلُّ شيء ببَصَرِه، فَعُلُوُّهُ عزَّ وجلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ، ولا يمنَعُ مِنْ عِلْمِه بكلِّ شيءٍ[1].

٣٣- الإسلامُ يمنعُ قَتْلَ مَن يُظهر الإسلامَ، ومن يُلْقِي السَّلَم أو السَّلامَ، ومَنْ بينَه وبينَ المسلمين عهدٌ وميثاقٌ إمَّا على المناصَرة، وإمَّا على تَرْكِ القتالِ، ومن اتَّصل بأهلِ الميثاقِ المعاهَدِين، ومن اعتزل القتالَ فلم يساعدْ فيه قومَه المقاتلينَ، وبَعْدَ هذا كلِّهِ رغَّب عن ابتغاء عَرَض الدُّنيا بالقتالِ؛ ليكون لِمَحْضِ رَفْعِ البغْي والعدوان، وتقرير الحَقِّ والإصلاح، ولا هَمَّ لجميع الدول والأمَمِ الآن إلَّا الرِّبْحُ وجَمْعُ الأموالِ، وهم ينقضُون العهدَ والميثاق مع الضُّعفاءِ، ولا يلتزمونَ حِفْظَ المعاهدات إلَّا مع الأقوياءِ، وهو ما شدَّد الإسلامُ في حفظه، وحافظ عليه النَّبيُّ- صلَّى الله عليه وسلَّم- في عهده، وحافَظَ عليه خلفاؤه الرَّاشِدونَ من بعده، فأين أرقى أمَمِ المدنيَّةِ من أولئك الأئمَّة الْمَهْدِيِّين[2]!؟

بَلاغةُ الآيتين:

١- قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾: فيه انتقالُ الغرضِ الذي يُعيد نشاطَ السَّامع بتفنُّن الأغراض؛ فقدِ انتقلَ مِن تحديدِ أعمالِ المسلمين مع العدوِّ إلى أحكامِ معاملةِ المسلمين بعضِهم مع بعض، مِن وجوبِ كفِّ عُدوان بعضِهم على بعض[3].

- وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ جاءَ بِصيغة المبالغةِ في النَّفي ﴿مَا كَانَ﴾، وهي صِيغة الجُحودُ، أي: لا يَنبغي لمؤمنٍ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦).

يَقتُل مؤمنًا في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الخَطأ، أو أنْ يقتُل قتْلًا من القتْل إلَّا قتْلَ الخطأ، فكان الكلامُ حصرًا، وهو حصرٌ ادِّعائي مُرادٌ به المبالغةُ في النَّهي؛ كأنَّ صِفةَ الإيمانِ في القاتِلِ والمقتولِ تُنافي الاجتماعَ مع القَتْل في نفْسِ الأمرِ منافاةَ الضِّدَّينِ؛ لقصدِ الإيذانِ بأنَّ المؤمِنَ إذا قتَل مؤمنًا فقدْ سُلِبَ عنه الإيمانُ، وما هو بمؤمنٍ؛ على نحوِ: ((ولا يَشْرَبُ الخمرَ حينَ يَشرَبُها وهو مؤمنٌ))[١]؛ فتكونُ جملةُ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ مستقلةً عمَّا بعدَها، غيرَ مرادٍ بها التشريعُ، بل هي كالمقدِّمة للتشريعِ؛ لقصدِ تفظيعِ حالِ قتْلِ المؤمنِ المؤمِنَ قتلًا غيرَ خطأٍ، وتكونُ خبريَّةً لفظًا ومعنًى[٢].

- وقيل: إنَّ ﴿مَا كَانَ﴾ خبرٌ مرادٌ به النَّهي؛ فيكون فيه تَنبيهٌ على أنَّ صورةَ الخطأِ لا يَتعلَّقُ بها النَّهي؛ إذْ قد عَلِم كلُّ أحدٍ أنَّ الخطأ لا يتعلَّقُ به أمرٌ ولا نهي، يعني: إنْ كان نوعٌ مِن قتْل المؤمِن مأذونًا فيه للمؤمن، فهو قتْلُ الخطأ، وقد عُلِم أنَّ المخطئَ لا يَأتي فِعلَه قاصدًا امتثالًا ولا عِصيانًا، فرَجَع الكلامُ إلى معنى: وما كان لمؤمنٍ أن يقتُلَ مؤمنًا قتلًا تتعلَّق به الإرادة والقصد بحال أبدًا، فتكون الجملةُ مبدأَ التشريع، وما بعدَها كالتَّفصيلِ لها[٣].

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (وعلى هذين الوجهينِ [النفي- والخبر المرادُ به النهي] لا يُشكلُ الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾، وذهَب المفسِّرون إلى أنَّ ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ مرادٌ به النهي، أي: خبرٌ في معنى الإنشاء؛ فالْتجؤوا إلى أنَّ الاستثناءَ منقطِعٌ بمعنى (لكن) [أي: لكنْ إنْ قتلَه خطأً فجزاؤُه ما يُذكَر]؛ فرارًا مِن اقتضاءِ مفهومِ الاستثناءِ إباحةَ أنْ يقتُل مؤمنٌ مؤمنًا خطأً، وقد فهمتَ أنَّه غيرُ متوهَّمٍ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٥٧). وينظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٩-٢٠)، ((تفسير أبي السعود))

٢- **قوله:** ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ قيل: قَدَّم الدِّيَةَ هنا إشارةً إلى المبادرة بها حِفظًا للعهد، ولتأكيدِ أمْرِ التحريرِ بكونه ختامًا كما كان افتتاحًا في قوله: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ﴾؛ حثًّا على الوفاءِ به؛ لأنَّه أمانة لا طالبَ له إلَّا اللهُ[(١)].

وقيل: قدَّم هنا ذِكْرَ الدِّية، وأخَّرَ ذِكْرَ الكَفَّارة، وعَكَس في قتْل المؤمِن؛ لعلَّه للإشعارِ بأنَّ حقَّ الله تعالى في معاملةِ المؤمنين مُقدَّمٌ على حقوقِ النَّاس؛ ولذلك استثنى هنالك في أمر الدِّيَة فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾؛ لأنَّ مِنْ شأنِ المؤمنِ العَفْوَ والسَّماحَ، واللهُ يُرَغِّبُهم فيما يَليقُ بكرامَتِهم ومكارِمِ أخلاقِهم، ولم يَستثْنِ هنا؛ لأنَّ مِن شأنِ المعاهَدين الْمُشَاحَّةَ والتَّشديدَ في حقوقِهم، وليسوا مُذْعِنين لهدايةِ الإسلام، فيُرَغِّبُهم كتابُه في الفضائل والمكارِمِ[(٢)].

- وتكرَّرت جُملة: ﴿وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[(٣)]؛ للتَّأكيدِ على تحريرِ الرِّقاب، وحصْر الرِّقابِ المطلوب تحريرُها في الرِّقاب المؤمنةِ فقط.

٣- **قوله:** ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾: في هذه الآية فنُّ مراعاةِ النظير؛ حيث جاءَ التعبيرُ فيها دالًّا على تهديدٍ عظيمٍ بما يُناسِبُ المحتوى؛ إذ قدْ حفِلت هذه الآيةُ بالألفاظِ الدالَّة على الغَضَبِ، والتهديدِ والوعيدِ، والإرعاد والإبراق؛ للإشارةِ إلى أنَّ جريمةَ القتلِ مِن أكبرِ الجرائمِ وأشدِّها إمعانًا في الشرِّ؛ لِمَا يترتَّبُ عليها من هدْمٍ لبناءِ المجتمَع[(٤)].

(٢/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٣٤) (٤/ ٢٩).

(٤) ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لصافي (٥/ ١٣٦)،

- وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾: عطفٌ على مُقدَّر يدلُّ عليه الشَّرطيَّةُ دلالةً واضحة، كأنَّه قيل بطريقِ الاستئنافِ تقريرًا وتأكيدًا لمضمونها: حَكَمَ اللهُ بأنَّ جزاءَه ذلك، وغَضِبَ عليه، وهي جملةٌ استئنافيَّة، فيها تأكيدٌ لمضمونِ ما قَبلها من حُكم اللهِ بأنَّ جزاءه ذلك، بالإضافةِ إلى غَضبِ اللهِ عليه[1].

٤- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ خُوطب به المؤمنون؛ استقصاءً للتحذيرِ مِن قتْل المؤمِنِ بذِكر أحوالٍ قد يُتساهَل فيها، وتَعْرِض فيها شُبَهٌ[2].

- والتَّصدير بالنِّداء للمؤمنين؛ لبيانِ أهميَّةِ الحُكم، وأنَّ امتثالَه من مُقتضياتِ الإيمانِ، وفيه فضيلةُ المؤمنينَ؛ حيث يُخاطبهم الله عزَّ وجلَّ بما شاءَ من أحكام، ولا شكَّ أنَّ مخاطبةَ الله للإنسانِ لشَخْصِه أو لوصفِه- لا شكَّ أنها شَرَف، والنَّاس يَتدافعون عند ملوكِ الدُّنيا، فإذا قال هذا المَلِكُ: كيف أصبحتَ يا فلانُ؟! فإنَّه يَعُدُّهُ شَرفًا، فإذا وجَّه الله الخطابَ للمؤمنينَ كان ذلك شَرفًا لهم[3].

- قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾: جملة خبريَّة، فيها تعليلٌ للنهي عن ابتغاءِ مالِه بما فيه من الوَعد الضِّمْني؛ كأنَّه قيل: لا تَبتغوا مالَه؛ فعندَ الله

((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٥).

مغانمُ كثيرةٌ يُغنمكموها، فيُغنيكم عن ارتكابِ ما ارتكبتموه[١].

- قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾: تعليلٌ للنهيِ عن القول المذكور، ولعلَّ تأخيرَه لِمَا فيه من نوعِ تفصيلٍ ربَّما يُخلُّ تقديمُه بتجاوُب أطرافِ النَّظم الكريم، مع ما فيه من مراعاةِ المقارنة بين التعليل السابق، وبين ما عُلِّل به، كما في قوله تعالى ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ...﴾ إلخ [آل عمران: ١٠٦][٢].

- وتقديم خبَر كان ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ للقصرِ المفيدِ لتأكيد المشابهة بين طرفَي التشبيه، والفاء في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطف على ﴿كُنتُم﴾ أي: مِثلَ ذلك الذي ألْقى إليكم السلامَ كنتم أنتُم أيضًا في مبادِي إسلامِكم لا يَظهرُ منكم للناسِ غيرُ ما ظهَرَ منه لكم مِن تحيَّة الإسلامِ ونحوِها، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بأنْ قَبِل منكم تلك المرتبةَ، وعصَم بها دماءَكم وأموالكم، ولم يأمُرْ بالتفحُّص عن سرائرِكم[٣].

- وكرَّر قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ تأكيدًا لتعظيم الأمْر، وتَرتيبِ الحُكم على ما ذُكِر من حالهم[٤]، مع ما فيه من التأكيد بصِيغة التفعُّل التي بمعنى الاستفعال- أي: اطلبوا بيانَ الأمْر وثباته، ولا تَتهوَّكوا فيه من غير رويَّة[٥]، مع المبالغة في التَّحذير عن ذلِك الفِعل[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٨-١٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦).
(٥) ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣١).

- والتذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تعليلٌ لِمَا قَبْلَه بطريقِ الاستئنافِ، وفيه الجمْعُ بين الوعيدِ والوَعْدِ، أي: فيُجازيكم بِحَسَبِها إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ، فلا تَتهاونوا في القَتْلِ واحتاطُوا فيه [1]، مع ما في الجملةِ مِن تأكيدِ الخبرِ بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة.



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٩).

الآيتان (٩٥ - ٩٦)

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾: أي: أصحابِ العَجزِ، وأهْلِ العُذرِ بذَهابِ أبصارِهم، والزَّمَانةِ وغيرِ ذلك مِن العِلَلِ المانعةِ مِن الجِهادِ؛ يُقال: ضريرٌ بيِّنُ الضَّرر، وأصل (ضرر): خلافُ النَّفْع[1].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾

﴿غَيْرُ﴾: قُرِئت بالرَّفع، وبالنَّصب، وبالجرِّ؛ فالرَّفعُ على البَدلِ مِن ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ نفيٌ، والبَدلُ معه أرْجَحُ. والنَّصبُ على الاستثناءِ من ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾؛ لأنَّهم المحدَّثُ عنهم، أو يكون النَّصْبُ على الحالِ مِن ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أيضًا، وجازُ وقوعُ (غَيْر) حالًا وإنْ كانتْ مضافةً؛ لأنَّها نكرةٌ لا تتعرَّفُ بالإضافةِ. والجرُّ على الصِّفة لـ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وجاز ذلك وإنْ كان لا يَجوزُ اختلافُ النَّعتِ والمنعوتِ تَعريفًا وتنكيرًا، على اعتبارِ أنَّ (المؤمنين) أُريد بهم الجِنسُ؛ فأَشْبهوا النكرةَ فوُصِفوا كما تُوصَف، أو على أنَّ (غير) قد تتعرَّفُ إذا وقعتْ بين ضِدَّين[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦٥- ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبر تعالى أنَّه لا يَستوي مِن المؤمنين مَن قعَدَ عن الجِهادِ فلمْ يخرُجْ، ومَن خرَج للجهادِ في سَبيلِ اللهِ بمالِه ونفْسِه، وأخْبَر سبحانه أنَّه فضَّلَ المجاهدينَ بأموالهم وأنفُسِهم على القاعدينَ درجةً، وكِلَا هَذَينِ الفريقينِ من المجاهدين والقاعدينَ وَعَدَهما اللهُ الجنَّةَ، ولكنْ فضَّلَ المجاهدينَ على القاعِدينَ بأجرٍ عظيمٍ، هذا الأجرُ العظيمُ هو درجاتٌ عاليةٌ يَرفعُهم اللهُ بها في الجِنانِ، ومَغفرةُ ذنوبهم، ورَحمتُهم، وكان الله غفورًا رحيمًا.

تفسيرُ الآيتين:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا عاتبَهم الله تعالى على ما صَدَر منهم مِن قَتْلِ مَن تكلَّم بكلمةِ الشَّهادة، فلعلَّه يَقعُ في قلبِهم أنَّ الأَوْلى الاحترازُ عن الجهادِ؛ لئلَّا يقعَ بسببه في مِثل هذا المحذورِ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالى في عَقيبه هذه الآيَةَ، وبيَّنَ فيها فَضْلَ المجاهِدِ على غيرِه؛ إزالةً لهذه الشُّبْهة، وأيضًا كيلَا يكونَ ذلك اللومُ مُوهِمًا انحطاطَ فضيلَتِهم في بعضِ أحوالِهم، على عادَةِ القُرآنِ في تعقيبِ النِّذَارة بالبِشَارة؛ دَفعًا لليأسِ مِن الرحمةِ عنْ أنفُس المسلمينَ(١).

وأيضًا لَمَّا عاتبَهم اللهُ تعالى على ما صدَرَ منهم مِنْ قتْل مَنْ تكلَّم بالشَّهادة؛

(١/ ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٦-٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٦٩).

ذكَر عقيبَه فَضيلةَ الجِهاد، كأنَّه قيل: مَن أتَى بالجهادِ فقدْ فاز بهذه الدَّرَجةِ العظيمةِ عندَ اللهِ تعالى، فَلْيَحْتَرِزْ صاحبُها من تلك الهَفْوةِ[1] فقال تعالى:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

سَببُ النُّزول:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعديِّ، أنَّه قال: رأيتُ مَروانَ بنَ الحَكمِ جالسًا في المسجدِ، فأقبلتُ حتَّى جلستُ إلى جَنبِه، فأخْبَرَنا أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ رضِي اللهُ عنه أخْبَره ((أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْلى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال: فجاءَه ابنُ أمِّ مَكتومٍ وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ- وكان رجلًا أعْمَى- فأَنْزلَ اللهُ تبارَك وتَعالَى على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفَخِذُه على فَخِذي، فثَقُلَتْ عليَّ حتَّى خِفْتُ أنْ تَرُضَّ فَخِذي[2]، ثم سُرِّي عنه[3]، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾))[4].

وفي روايةٍ أخرى، عنِ البَراءِ، قال: ((لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ادعُ لي فلانًا، فجاءَه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ، أوِ الكَتِفُ، فقال: اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ وخلْفَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أنا ضَريرٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٢).

(٢) تَرُضَّ- بفَتْح التاءِ وضمِّ الراء، ويجوز العكسُ تُرَضَّ-: أي: تَدُقَّ وتَكسِر، أو تُدَقَّ وتُكسَر، من الرَّضِّ، وهو: الدقُّ، وكلُّ شيءٍ كَسرتَه فقدْ رَضضتَه. ينظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٤٧٩) و(٨/ ٢٦١)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/ ٣٤٤).

(٣) سُرِّيَ: أي: كُشِفَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٢٨٣٢).

فنزَلَتْ مَكانَها ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾))[1].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لا يَستوي مَن لم يَخرُجْ للجهادِ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا- إلَّا مَن تخلَّف عن الجهادِ لعُذْر- مع مَن جاهَدَ من المؤمنين بنَفسِه ومالِه[2].

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

أي: فضَّل اللهُ المجاهدين ببذْلِ أموالِهم وأنفسِهم على القاعدينَ بدرجةٍ رفيعةٍ[3].

عن أبي هُريرَةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن آمَنَ باللهِ ورسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقًّا على اللهِ أن يُدخلَه الجنَّةَ، هاجر في سبيلِ اللهِ، أو جلس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا نُنبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مائةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِه، كلُّ درجتَيْنِ ما بينهما كما بين السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فسلُوهُ الفردوسَ، فإنَّهُ أوسطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ))[4].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٤) واللفظ له، ومسلم (١٨٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٦٥-٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٩٨-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠١).

(٤) رواه البخاري (٧٤٢٣)، ورواه مسلم (١٨٨٤) بنحوه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أي: وعَدَ اللهُ كُلًّا مِن المجاهِدين بأموالهم وأنفسِهم، والقاعِدين: الجنَّةَ(١).

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وفضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهم على القاعِدينَ جزاءً كبيرًا، وثوابًا جزيلًا(٢).

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾.

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾.

أي: إنَّ هذا الأجْرَ العظيمَ يَشملُ رَفْعَهُم دَرجاتٍ في الجِنان العالياتِ، وسَتْرًا للذنوب، وتجاوزًا عن الزلَّاتِ، وحلولَ الرَّحماتِ والبركات؛ إحسانًا منه سبحانه وتكريمًا، وفضلًا منه وتشريفًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغفورُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عن مُؤاخذتِهم بها، وهو الَّذي يَرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بنِعَمِه سبحانه(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٨-٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة النساء)) (٢/ ١٠٧-١٠٨).

الفَوائِد التربويَّة:

١- قولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ فيه التَّرغيبُ في الجِهاد، والحثُّ عليه[١].

٢- فَضْلُ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى بالمالِ والنَّفس؛ ووجهُه: أنَّهم أعْلى درجةً من القاعدين الَّذين لا يُجاهدون، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ...﴾[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ نفْيُ التَّساوي بين النَّاس، والعَجَبُ أنَّنا نسمع مَن يُدندِنُ كثيرًا فيقول: إنَّ دينَ الإسلام دينُ المساواة، وهذا غلطٌ على دينِ الإسلامِ، فدينُ الإسلام ليس دينَ المساواةِ، ولكنَّه دينُ العدلِ، والعدلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحدٍ ما يستحقُّه؛ ولذلك تجد أكثرَ ما في القرآنِ نفيَ المساواة، وليس إثباتها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ فيه حِكمةُ الشَّريعةِ؛ حيث لا تُساوي بين المفترقَيْنِ، كما أنَّها لا تُفرِّق بين المتساويَيْن؛ فالشَّريعة الإسلامية من لدُنْ حكيمٍ خبيرٍ، فلا يمكن أنْ تجدَ فيها حُكمَينِ متناقضينِ، ولا يمكن أنْ تجد فيها شيئينِ متساويينِ ثمَّ يختلفانِ في الحكم أبدًا، بل إذا تراءى لك أنَّ هذين الشيئين متساويانِ، وقد اختلفا في الحكم شرعًا، فأَعِدِ النَّظَرَ مرَّةً بعد أخرى حتَّى يتبيَّنَ لك، فإنْ لم يتبينْ لك فاتَّهِمْ فَهْمَك، ولا تَتَّهِمِ الأحكامَ الشَّرعيَّة[٤].

٣- نفيُ التساوي أيضًا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٤).

يُفيدُ التَّذكيرَ بما بينهما مِن التفاوُتِ العَظيم، والبَوْنِ البَعيد؛ ليَأنفَ القاعدُ، ويَترفَّعَ بنَفْسِه عن انحطاطِ منزلتِه، فيهتزَّ للجِهاد، ويَرغبَ فيه وفي ارتفاعِ طبقتِه[١]، كذلك فهذا النفي للتساوي يقتضي العموم، فالقاعدون والمجاهدون لا يستوون مِن كلِّ وجهٍ[٢].

٤- أنَّ مَن قعَد عن الجِهاد لضَرَرٍ، فإنَّه كالذي أتى بالجهاد؛ لقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثمَّ استثنى فقال: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾، فأولو الضَّررِ مُساوُون للمجاهدين، فالمعذورَ يُكتَبُ له مِثلُ ثوابِ الصَّحيحِ إذا كانتْ نِيَّتُه أنْ يفعلَ، وقدْ عمِلَ ما يَقدِرُ عليه[٣].

٥- البِشارةُ بالحُسنَى لعامَّة المؤمنينَ من القاعدين والمجاهدين؛ لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤].

٦- عِظَم منَّةِ الله سبحانه على العِباد؛ حيثُ جَعَل إثابتَهُم على الأعمالِ مثلَ الأُجرة الَّتي استحقَّها الإنسان فَرْضًا على الْمُسْتَأجِر؛ لقوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فسمَّاه ﴿أَجْرًا﴾، كأُجرة الأجير، مع أنَّ الفضلَ للهِ تعالى أولًا وآخِرًا؛ فهو الَّذي وفَّق للعمل، وهو الَّذي منَّ بالجزاء عليه[٥].

٧- قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، هذا بيانٌ لمفهوم عدمِ استواء المجاهِدين والقاعِدين غيرِ أُولي الضَّرر، وهو أنَّ الله تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٣- ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٦٩، ٥٧٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٣١) و(٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٦).

رَفَعَ المجاهدين عليهم درجةً، وهي درجةُ العمل الَّذي يترتَّبُ عليه دفعُ شرِّ الأعداءِ عن الْمِلَّة والأمَّة والبلاد، وكُلًّا وَعَدَ الله الحُسنى[(١)].

٨- ذكَر تعالى في الآيةِ فَضْلَ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ على القاعِدين لغيرِ عَجزٍ؛ فعُلِمَ أنَّ العاجِزَ معذورٌ، قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ...﴾[(٢)].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ فرْضَ الجِهاد على الكِفايةِ، وليس على كلِّ واحدٍ بعينه؛ لأنَّه تعالى وَعَدَ القاعدين الحُسنى كما وعَد المجاهدينَ، ولو كان الجِهادُ واجبًا على التَّعيينِ لَمَا كان القاعدُ أهلًا لوعْدِ الله تعالى إيَّاه الحُسْنى[(٣)].

١٠- عِظَم دَرجاتِ المجاهدين في سَبيلِ الله، وجْهُ ذلك قولُه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، فأضافَها إلى نَفسِه، ومعلومٌ أنَّ العطاءَ يعظُم بعِظَم المُعطِي[(٤)].

١١- رفعةُ الدَّرَجات تعود إلى العِلْمِ والجهادِ اللَّذَيْنِ بهما قِوامُ الدِّينِ، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقد ذُكرت رفعةُ الدَّرجات في أربعةِ مواضِعَ؛ ثلاثة منها لأَهْلِ الإيمانِ الذي هو العِلْمُ النافِعُ، والعمَلُ الصَّالِحُ، والرَّابعُ الرِّفْعَةُ بالجهادِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٧).

(٥) ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠- ٥١).

١٢- إثباتُ الرَّحمةِ للهِ، والرَّحمةُ الَّتي أضافَها اللهُ تعالى إلى نفْسه نوعانِ: منها صِفةٌ لله، ومنها مخلوقٌ مِن مخلوقاتِ الله سَمَّاه اللهُ تعالى (رحمةً)(١).

١٣- لَمَّا وعَد المجاهِدِينَ بالمغفرةِ والرَّحمةِ الصَّادرَتَيْنِ عن اسْمَيهِ الكريمينِ ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ختَم هذه الآيةَ بهما، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

بَلاغةُ الآيتين:

١- **قوله:** ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: فيه تعريضٌ بالقاعِدين، وتَشْنيعٌ بحالِهم؛ حيثُ بيَّن أنَّ القاعدَ عن الجِهاد لا يُساوي المجاهِدَ في فَضيلةِ نُصْرة الدِّين، وبهذا يَظهرُ موقعُ الاستثناءِ بقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾؛ كيلَا يَحسبَ أصحابُ الضررِ أنَّهم مقصودونَ بالتَّحريض؛ فيَخرجوا مع المسلمين، فيُكلِّفوهم مؤونةَ نقْلِهم وحِفظهم بلا جَدْوى، أو يَظنُّوا أنَّهم مقصودونَ بالتعريضِ، فتَنكسِرَ لذلك نفوسُهم، زيادةً على انكسارِها بعَجزِهم، ولأنَّ في استثنائِهم إنصافًا لهم وعُذرًا بأنَّهم لو كانوا قادِرين لَمَا قعَدوا؛ فذلِك الظنُّ بالمؤمِن؛ فالاستثناءُ مقصودٌ، وله موقعٌ من البلاغةِ لا يُضاعُ، ولو لم يُذكَر الاستثناءُ هنا، لكان تجاوزُ التَّعريضِ أصحابَ الضررِ معلومًا في سياقِ الكلامِ؛ فالاستثناءُ عُدولٌ عن الاعتمادِ على القَرينةِ إلى التَّصريحِ باللَّفْظِ، وهو عدولٌ عن حِراسةِ المقامِ إلى صَراحةِ الكلامِ، وهو مِن البلاغةِ ومِن مراعاةِ مقتضى الحال أيضًا؛ لأنَّ السامعينَ أصنافٌ كثيرةٌ منهم الذَّكيُّ الذي يَفْهَم بالقَرينةِ، ومنهم غيرُه الذي لا يَفْهَم إلَّا بالتَّصريح(٣).

- وفيه: تقديمُ المفضولِ ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ في الذِّكرِ على الفاضِلِ ﴿الْمُجَاهِدُونَ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).

للإيذانِ مِن أوَّل الأمرِ بأنَّ القصورَ الذي يُنْبِئ عنه عدمُ الاستواءِ مِن جِهة القاعِدين، وليس مِن جِهةِ المجاهِدِينَ؛ فإنَّ مفهومَ عدمِ الاستواءِ بين الشَّيئين المتفاوتينِ زيادةً ونقصانًا، وإنْ جاز اعتبارُه بحسَب زيادةِ الزائد، لكن المتبادِر اعتبارُه بحسَب قُصورِ القاصِر، كقولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾[1] [الرعد: ١٦]، وبيانُ ذلك أنَّ الفرقَ بين المتفاوتين في الزِّيادة والنَّقصِ، يُمكن اعتبارُ التفاوتِ بالنِّسبةِ إلى النقصِ في الناقِص، ويمكن اعتبارُه بالنسبةِ إلى الزيادةِ في الزَّائد؛ فقُدِّم الجانبُ الناقِص؛ ليُبيِّنَ أنَّ التفاوتَ الذي حصَل بينهما، إنَّما هو بسببِ النَّقصِ الذي جاءَ منهم لا بسببِ الزيادةِ في الفريقِ الثاني، وفيه زيادةُ تأنيبٍ لجانبِ النقص[2]. وقدْ حَسُنَ هذا الانتقالُ مِن حالةٍ إلى أعْلى منها؛ لأنَّ هذا الانتقالَ مِن حالةٍ إلى أعلى منها عندَ التفضيل والمدْحِ، أو النُّزولِ مِن حالة إلى ما دونها عندَ القدح والذم- أحسنُ لفظًا، وأوقعُ في النَّفْس[3].

٢- **قوله:** ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾: فيه التفصيلُ بعد الإجمال؛ فإنَّه استئنافٌ مسوقٌ لتفضيلِ ما بين الفَريقينِ مِن التفاضُلِ المفهومِ مِن ذِكر عدمِ استوائِهما إجمالًا، ببيانِ كيفيَّتِه وكمِّيَّته، وهو مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه المقال، كأنَّه قيل: كيف وقَع ذلك؟ فقيل: فضَّلَ الله... إلخ[4]؛ فجملة: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ﴾ بيانٌ لجُملة: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[5]؛ فلمَّا بيَّن أنَّ المجاهِدين والقاعِدين لا يَستويانِ، وكان عَدمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان- تتمة الشيخ عطية سالم)) (٨/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٠- ٢٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٠).

الاستواءِ يَحتمِلُ الزِّيادةَ ويَحتملُ النُّقصانَ، وكان نَفيُ المساواةِ سببًا لترقُّبِ كلٍّ مِن الحِزبَينِ الأفضليةَ؛ لأنَّ القاعدَ وإنْ فاتَه الجهادُ، فقدْ تخلَّفَ الغازي في أَهلِه؛ إذ يُحيي الدِّينَ بالاشتغالِ بالعِلمِ ونحوِه- لا جرَمَ كشَفَ اللهُ سُبحانَه عن التَّفضيلِ فقال: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[(١)].

- وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاءَ هنا تقديمُ الأموالِ على الأنفُس، بَيْنما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] جاءَ تَقديمُ الأنفسِ على الأموالِ؛ وذلِك لأنَّ النَّفْسَ أشرفُ مِن المالِ، وقد تَبايَن الغَرضانِ في الآيتينِ؛ ولَمَّا كان الكلامُ هنا في سورةِ النِّساءِ عن المجاهِدِ وهو بائعٌ، أَخَّر ذِكرَ الأَنفُس؛ تنبيهًا على أنَّ المضايقةَ فيها أشدُّ؛ فلا يَرضَى بَبذلِها إلَّا في آخِرِ المراتِبِ، وأمَّا في سورةِ التوبةِ فالكلامُ عن الذي يَشتري- وهو اللهُ سبحانه وتعالى- فقَدَّم ذِكْرَ النَّفسِ؛ تَنبيهًا على أنَّ الرَّغبةَ فيها أشدُّ، وإنَّما يرغَب أولًا في الأنفسِ الغالِي[(٢)].

٣- **قوله**: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: جُملة معترِضة؛ جيءَ بها لبيانِ سَعة فضلِ الله عزَّ وجلَّ، ولكي يَطمئنَّ الأقلُّ درجةً أنَّ له نصيبًا من الأجرِ[(٣)]، وفيها حُسْنُ احتراسٍ أو احتراز؛ فإنَّه سبحانه إذا فضَّلَ شيئًا على شَيءٍ وكلٌّ منهما له فضلٌ، احترز بذِكرِ الفَضلِ الجامعِ للأمرينِ؛ لئلَّا يتوهَّم أحدٌ ذمَّ المُفضَّلِ عليه، أو القَدْح فيه[(٤)].

- وقوله: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿وَعَدَ﴾، قُدِّم لإفادةِ القَصرِ؛ تأكيدًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٦- ٣٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥، ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

للوعدِ، أي: كلَّ واحدٍ من المجاهِدين والقاعِدين[١].

٤- **قوله:** ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾: فيه التعبيرُ بالمصدر المؤكِّد لـ﴿فَضَّلَ﴾ على أنَّه بمعنى (أَجَرَ)، وإيثارٌ على ما هو مصدرٌ من فِعله؛ للإشعارِ بكون ذلك التفضيلِ أجرًا لأعمالهم[٢].

٥- **قوله:** ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾: جَمَعَ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾؛ لإفادة تعظيم الدَّرجة؛ لأنَّ الجَمْع- لِمَا فيه من معنى الكثرة- تُجعل صِيغتُه لمعنى القُوَّة[٣].

- وفي قولِه في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿دَرَجَةٗ﴾ بالإفرادِ، ثم قولِه في هذه الآيةِ: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالجمْع، مناسبةٌ حَسنةٌ؛ وذلك مِنْ وجوهٍ[٤]:

الوجه الأوَّلُ: أنَّ قوله: ﴿دَرَجَةٗ﴾ جِيءَ به بصِيغةِ الإفراد، وليسَ إفرادُها للوَحْدة؛ لأنَّ ﴿دَرَجَةٗ﴾ هنا جِنسٌ معنويٌّ لا أفرادَ له، فالمرادُ بالدرجة ليس هو الدَّرجةَ الواحدةَ بالعَدَدِ، بل بالجنس، والواحد بالجِنْسِ يدخل تحته الكثيرُ بالنوع، وذلك هو الأجرُ العظيم، والدَّرجاتُ الرفيعةُ في الجنَّة المغفرةُ والرَّحمة؛ ولذلك أُعيد التعبيرُ عنها في الجُملة، التي جاءتْ بعدَها؛ تأكيدًا لها بصِيغة الجَمْع بقولِه: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ﴾؛ لأنَّ الجَمْع أقوى مِن المفرد، وتنوين ﴿دَرَجَةٗ﴾ للتعظيم، وهو يُساوي مفاد الجمع في قوله الآتي: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ﴾.

الوجهُ الثاني: أنَّ المرادَ بالتفضيلِ بالدرجةِ تَفضيلُهم على القاعِدينَ بعُذر؛ لأنَّ لهم أجرًا لكونهم من الغُزاة بالهمَّة والقَصْد؛ ولهذا قال ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢١- ٢٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٢).

أي الجنَّة. والمرادَ بالتفضيلِ بالدَّرجات تفضيلُهم على القاعِدينَ بلا عذرٍ؛ لأنهم مُقصِّرون ومُسيئونَ؛ فكان فضلُ الغزاةِ عليهم دَرجاتٍ؛ لانتفاءِ الفضلِ لهم.

الوجه الثالث: أنَّ هذا من قبيل أُسلوبِ الإبهامِ ثمَّ التَّفسيرِ، والغَرَضُ منه مزيدُ التَّحقيقِ والتقريرِ، فكأنَّه قيل: فضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعِدينَ ﴿دَرَجَةً﴾ لا يُقادَر قَدرُها، ولا يُبلَغُ كُنهُها، ولَمَّا كانتْ معرفةُ هذا الفَرْقِ الواسعِ بين الفريقين تُوهِمُ حِرمانَ القاعدينَ، قيل: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ثم أُريدَ تفسيرُ ما أفادَه التنكيرُ بطريقِ الإبهامِ بحيث يقطَعُ احتمالَ كونِه للوَحْدة، فجيءَ بالجمع في قَوْلِه تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

الوجه الرابع: أنَّ التفضيلَ بالدَّرجةِ هو ما فضَّلَ الله المجاهدين في الدُّنيا بدَرجةٍ واحدةٍ، وهي الغنيمةُ، وأما الجَمْعُ فتفضيلُهم في الآخِرَةِ بدرجاتٍ كثيرةٍ في الجنَّة؛ بالفضلِ والرَّحمة والمغفرة.

الوجه الخامس: أنَّ المقصودَ بالمجاهِدِ الأَوَّلِ غيرُ المقصود به في الموضِعِ الثاني؛ لئلَّا يحصُلَ التَّكرارُ، فالمفضَّلون درجةً هم المجاهِدون بأموالِهم وأنفُسِهم كما نصَّت الآية، وأمَّا المرادُ بالثاني وهو المفضَّلُ بالدرجات مَن كان مجاهدًا على الإطلاقِ في كُلِّ الأمور، وهو الجهادُ بالنَّفْس والمال والقلب، وهو أشرفُ أنواعِ المجاهدةِ، وحاصِلُ هذا الجهادِ صَرْفُ القلب من الالتفاتِ إلى غير الله إلى الاستغراقِ في طاعة الله، ولَمَّا كان هذا المقامُ أعلى مما قبله؛ لا جَرَمَ جَعَل فضيلةَ الأول درجةً، وفضيلة هذا الثاني درجاتٍ.

- وقد جاءتِ اللَّفظتان: ﴿مَغْفِرَةً﴾، و﴿رَحْمَةً﴾ على المَصدرِ بإضمارِ فِعلَيْهما (غَفَر- رَحِم)؛ تَرغيبًا في الجِهاد[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٢).

٦- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا وعَد مِن المغفرةِ والرحمةِ(١).

- وجاء لفظ ﴿غَفُورًا﴾ على هيئة صِيغة المبالغة (فعول)؛ مبالغةً في وصْفِه تعالى بالمغفرة؛ لإفادةِ أنَّه يَغفِر له ما فرَط منه من الذُّنوب، التي مِن جملتِها القعودُ عن الهجرةِ إلى وقتِ الخروج، وكذَا جاءَ لفْظُ ﴿رَّحِيمًا﴾ على هَيئةِ صِيغةِ المبالغةِ (فعيل) أيضًا؛ ليدلَّ على المبالغةِ في وصْفِه تعالى بالرَّحمة؛ فيَرحمه بإكمالِ ثَوابِ هِجرتِه(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)

الآيات (٩٧ - ١٠٠)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ
مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا
يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞
وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا
إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿حِيلَةً﴾: الحِيلةُ ما يُتوصَّلُ به إلى حالةٍ ما، في خُفيةٍ، وأكثرُ استعمالِها فيما في تَعاطِيه خُبثٌ، وقد تُستعملُ فيما فيه حِكمةٌ، وأصل (حول): تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه، والتحرُّك في دَورٍ؛ ومنه الحِيلةُ؛ لأنَّه يُدارُ فيها حوالي الشَّيءِ لِيُدْرَكَ[1].

﴿مُرَاغَمًا﴾: أي: مُتَزَحْزَحًا عمَّا يَكرَهُه، أو مُتَحوَّلًا، والمُراغَم والمُهاجَر واحدٌ، وأصل (رغم): المَذهبُ والمهرَبُ[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِر اللهُ تعالى أنَّ الَّذين تَقبِض الملائكةُ أرواحَهم، وهم ظالِمو أنفسِهم بمعصيةِ الله؛ حيثُ أقاموا في دار الكُفر، ولم يُهاجِروا فرارًا بدِينهم، مع أنَّهم لا يَستطيعون إقامتَه في تلك الدَّار، وهم قادِرونَ على الهِجرة، تقولُ لهم الملائكةُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٠، ٣٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦- ٢٦٧).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٢).

حين قَبْض أرواحِهم موبخةً لهم: لِمَ بقِيتُم في هذا المكانِ، وتركتُم الهِجرةَ؟ فأجابوا أنَّهم كانوا ضُعفاءَ، مقهورِين، ليس لهم القُدرةُ على الهجرةِ، فتقول لهم الملائكةُ حِينَها: قد كانتْ أرضُ اللهِ واسعةً فسيحةً، وقد كان بوُسعِكم الانتقالُ إلى أيِّ مكانٍ منها تستطيعونَ فيه عِبادةَ الله. ثمَّ يُبيِّن اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء الَّذين ظلَموا أنفسَهم مَصيرُهم نارُ جهنَّمَ، وقَبُحتْ جهنَّمُ مآبًا ومرجعًا لهم.

واستَثْنَى اللهُ تعالى الَّذين استُضعِفوا حقًّا وقُهِروا، رِجالًا ونساءً ووِلدانًا، فلمْ يَقدِروا على الهِجرة؛ لعجزِهم عن تدبيرِ حِيلةٍ تخلِّصُهم من المشركين، ولا يَعرِفون الطَّريقَ الَّتي يَنبغي المرورُ فيها للخروجِ من دار الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، فأولئك وعَدَهم اللهُ بأنْ يعفوَ عنهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بترْكِ الهجرة، وكان اللهُ عفوًّا غفورًا.

ثمَّ حثَّ اللهُ على الهِجرة ورغَّبَ بها؛ حيثُ أخبَرَ أنَّ مَن يهاجرُ في سبيلِ الله فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا يَتزحْزَحُ فيه عمَّا يكرَهُ، وموضعًا فيه سَعةٌ في الدِّين، يمكِنُه إظهارُه فيه، وفيه سَعةٌ في الصَّدرِ، والرِّزق، وكلِّ شيء، وأخبَر تعالى أنَّ مَن يَخرج من بَيتِه مُهاجرًا قاصدًا رضَا الله، واتباعًا وحبًّا لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ يموتُ قَبلَ أنْ يَبلُغَ دارَ الإسلام الَّتي هاجَر إليها، فقد ثبَت أَجرُهُ على اللهِ، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ثوابَ مَن أقدَمَ على الجِهاد، أتْبَعَه بعِقابِ مَن قعَدَ عن الجِهادِ، وسكَن في بلادِ الكُفرِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى القاعِدِينَ عن الجِهادِ من المؤمنين بعُذْرٍ وبدونه، كان حالُ القاعِدِين عن إظهارِ إسلامِهم مِن الَّذين عَزَموا عليه بمكَّةَ، أو اتَّبَعوه ثمَّ صَدَّهم أهلُ مكَّةَ عنه، وفتَنوهم حتَّى أرجَعوهم إلى عِبادةِ الأصنام بعُذرٍ وبدونه، بحيثُ يخطُرُ ببالِ السَّامع أنْ يَتساءلَ عن مَصيرِهم إنْ هم استمرُّوا على ذلك حتَّى ماتوا، فجاءتْ هذه الآيةُ مجيبةً عمَّا يَجيش بنفوسِ السَّامعين من التَّساؤلِ عن مَصيرِ أولئك[٢].

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ أناسًا من المسلِمين كانوا مع المُشرِكين يُكثِّرون سوادَ المُشرِكين على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيأتي السَّهمُ يُرمى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُلُه، أو يُضرَبُ فيُقتَلُ، فأنزَل الله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ** ﴾))[٣].

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ** ﴾

أي: إنَّ الَّذين تَقبِضُ الملائكةُ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم اكتَسبوا غضَبَ اللهِ تعالى؛ بسببِ مَعصيتِه بإقامتِهم بينَ ظَهْرَانَي المشرِكين، مع عدمِ تمكُّنِهم من إقامةِ الدِّين، وهم قادِرونَ على الهِجرةِ، فلم يُهاجِروا حتَّى ماتوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٣).

(٣) رواه البخاري (٧٠٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٩).

﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾.

أي: قالتِ الملائكةُ توبيخًا لهم: لماذا بقِيتُم في هذا المكانِ، وتركتُم الهِجرةَ[١]؟

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قال الَّذين توفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم، مُعتذِرين عن تَركِ الهجرةِ: كنَّا ضُعَفاءَ مَقهورينَ، ليس لنا قُدرةٌ على الخُروجِ مِن بين ظَهْرانَي المُشركين[٢].

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾.

أي: قالتْ لهم الملائكةُ: إنَّ أرضَ اللهِ تعالى واسعةٌ، فإذا كان العبدُ في مَكانٍ لا يتمكَّنُ فيه من إظهارِ دِينِه، فإنَّ له متَّسعًا وفُسحةً من الأرضِ، بحيث ينتقلُ إلى الأرض الَّتي يتمكَّنُ فيها من عبادةِ اللهِ تعالى[٣].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: فهؤلاء الَّذين تقدَّم ذِكرُهم، ووصْفُ حالِهم، مصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ، وهي مسكَنُهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٩-١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٧٩-٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٠-١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١١).
قال السعديُّ: (قال اللهُ عن هؤلاء الذين لا عُذرَ لهم: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، وهذا- كما تقدم- فيه ذِكرُ بيان السَّبب الموجِب؛ فقد يترتَّب عليه مقتضاه، مع اجتماعِ شُروطِه

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

أي: وساءتْ جهنَّمُ لأهلِها الَّذين صاروا إليها مرجعًا ومرَدًّا[١].

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾.

أي: أمَّا الَّذين استضعَفَهم المشركون من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ وقهَروهم، فلم يقدِروا على الهجرةِ من بينِ أظهُرِهم؛ بسبب قلَّةِ الحِيلةِ في التخلُّص من أيدي المشركين، وعدمِ المعرفةِ بالطَّريق الَّتي ينبغي سلوكُها، للخروجِ من أرضِ الشِّرك إلى أرضِ الإسلام[٢].

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا قال: سمِع اللهُ لِمَن حمِدَهُ. في الرَّكعةِ الآخِرَةِ من صلاةِ العِشاءِ قنَت: اللَّهمَّ أَنجِ عَيَّاشَ بنَ أبي رَبيعَةَ، اللَّهمَّ أَنجِ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللَّهمَّ أَنجِ سلَمَةَ بنَ هِشامٍ، اللَّهمَّ أَنجِ المستضعَفِينَ من المؤمِنينِ، اللَّهمَّ اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَرَ[٣]، اللَّهمَّ اجعَلْها

وانتفاءِ موانعِه، وقد يَمنعُ من ذلك مانعٌ)) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠، ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٧-١١٩).

(٣) اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر: أي: اشْدُدْ بأسَك وعقوبتَك، وهو ما أصابَهم من الجوعِ والشِّدَّة. أو خُذْهم أخذًا شديدًا. ومُضَر: هُم أهلُ مَكَّة وما وَالَاها، وهذا إشارةٌ إلى قُريش؛ لأنَّهم مِن أولادِ مُضَر. ينظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٣٥٢)، ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٨/ ٢٢٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠٠).

عليهم سِنينَ كسِنِي يوسُفَ[(١)]))[(٢)].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: فهؤلاء مَوْعُودون بأن يصفَحَ اللهُ تعالى عنهم، ويتجاوَزَ عن مؤاخذتِهم بترك الهجرةِ؛ وذلك بمقتضى كرَمِه وإحسانِه سبحانه[(٣)].

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ قال: كانت أُمِّي ممَّن عذَر اللهُ[(٤)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾.

أي: يصفَحُ عن عبادِه، ويستُرُ عليهم ذنوبَهم، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها[(٥)].

﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رهَّب اللهُ تعالى مِن تركِ الهجرة، رغَّب فيها بما يُسلِّي عمَّا قد يُوسوِسُ

---

(١) سِنين كسِنِي يُوسَفَ: أي: سِنينَ شِدادًا ذواتَ قَحْطٍ وجَدْبٍ وغَلاءٍ، كالسِّبعِ السِّنين الشِّدادِ التي أصابَتْ أهلَ مِصرَ في عَهدِ يُوسُفَ عليه السَّلام، والسَّنَةُ: الجَدْبُ؛ يُقالُ: أَخَذتْهم السَّنةُ إذا أجْدبوا وأقْحطوا. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٣-٤١٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٧٧)، ((شرح المشكاة)) للطيبي (٤/ ١٢٣٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٩٣)، واللفظ له، ومسلم (٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).

(٤) رواه البخاري (٤٥٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠).

به الشَّيطانُ مِن أنَّه لو فارَق رفاهيةَ الوطنِ، وقَع في شدَّةِ الغُربة، وأنَّه ربَّما تجشَّمَ المشقَّةَ، فاختُرِمَ قبل بلوغ القصدِ، فذكر ما يترتَّب عليها من وجودِ السَّعةِ، والمذاهبِ الكثيرة؛ ليذهَبَ عنه ما يتوهَّمُ[1]، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومن يُفارِقْ أرضَ الشِّركِ؛ هربًا بدِينِه إلى أرض الإسلامِ؛ لإقامة دِينِ الله تعالى، ابتغاءَ مرضاتِه سبحانه[2].

﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾.

أي: فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا ومتزحزَحًا كثيرًا يمتنعُ فيه، ويتحصَّنُ ممَّا يكرَهُ، ويغلِبُ فيه أهلَ الشِّرك؛ بابتعادِه عنهم، ويتمكَّنُ فيه من إغاظتِهم وجهادِهم[3].

﴿وَسَعَةٗ﴾.

أي: ويجد سَعةً في الدِّين بإظهارِ دِينه وعبادةِ ربِّه سبحانه، وسَعةً في الصَّدرِ، وفي الرِّزقِ، وفي كلِّ شيءٍ[4].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣)، وينظر ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٣-١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٠-٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٤).
قال ابن عثمين: (قوله: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ قد تشير إلى تجمُّع القوم؛ لأنَّه كان المتبادَرُ أن يقال: «مراغَمًا عاصمًا»، لكنَّه قال: ﴿كَثِيرٗا﴾، ولعلَّ ذلك- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّه سيجتمع إليه من يكثُرُ بهم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠-١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء))

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا وعَد تعالى مَن يُهاجِرُ فيَصِلُ إلى دار الهجرةِ بالظَّفَرِ بما ينبغي من وُجدانِ المراغمِ والسَّعةِ، وعَد مَن يموتُ في الطَّريق قبل بلوغها بأجرٍ عظيمٍ يضمَنُه- عزَّ وجلَّ- له(١).

سبب النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((خرَج ضَمْرَةُ بنُ جُنْدُبٍ مِن بيتِهِ مهاجِرًا فقال لأهلِهِ: احْمِلوني فأخرِجوني مِن أرضِ المشرِكينَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمات في الطَّريقِ قبل أنْ يصلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنزَل الوحيُ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا ...﴾ الآيَةَ))(٢).

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: ومَن خرَج من منزلِه وموطنِه فرارًا بدِينه؛ ليُقيمَه، ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى، واتِّباعًا لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونصرًا له(٣).

(٢/ ١٢٥-١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٣).

(٢) رواه أبو يعلى (٢٦٧٩) والطبراني ١١/ ٢٧٢ (١١٧٠٩).

ورواه الطبري (٧/ ٣٩٨) وابن أبي حاتم (٣/ ١٠٥٠) بنحوه من حديث عبد الله بن عباس

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٣): رجاله ثقات، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٦٢)،

وذكر الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٧/ ٦٦٦): أن فيه أشعثَ بنَ سوار مختلفٌ فيه، ثم قال: لكن لعلَّه يتقوَّى بروايةِ شَريكٍ، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (٨٩):رجالهُ ثقاتٌ، وشريكٌ هو ابنُ عبدِ اللهِ القاضي النخعي وفي حفظه ضعفٌ، لكن الحديث له طريقٌ أخرى.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾.

أي: فمات في أثناء الطَّريق بقتلٍ أو غيرِه، قبل بلوغه أرضَ الإسلامِ، ودارَ الهجرةِ(١).

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

أي: فقد ثبَت له عند اللهِ تعالى ثوابُ مَن هاجَر، وبلَغ دارَ هجرتِه(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ يستُرُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رحمته أنْ أعطاهم أجرَهم كاملًا، ولو لم يُكمِلوا العملَ، وغفَر لهم ما حصَلَ منهم مِن التَّقصيرِ في الهجرةِ وغيرِها(٣).

الفوائد التَّربويَّة:

١- أنَّ العبرةَ في الأعمالِ بالخواتيم؛ لقوله: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، يعني: أنَّهم في وقتِ الوفاة ظالِمون لأنفُسِهم؛ فالعبرةُ بالخواتيم؛ ولهذا يجبُ على الإنسانِ أن يكونَ خائفًا من سوءِ الخاتمةِ، وأن يسألَ اللهَ سبحانه دائمًا حُسنَ الخاتمةِ، وألَّا يموتَ إلَّا وهو مسلِمٌ(٤).

٢- أنَّ مَن ترَك شيئًا للهِ عوَّضه اللهُ خيرًا منه، وتُؤخَذُ مِن قوله: ﴿يَجِدْ فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٢-٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٣).

﴿ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾؛ فقد خرَج مِن الضِّيق فوجَد السَّعة(١).

٣- أنَّ مَن أُذِلَّ بطاعةِ الله صار العِزُّ له في النِّهايةِ، وتُؤخَذُ مِن قوله: ﴿مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾؛ فهذا الَّذي أُذِلَّ هو الآن يُذِلُّ أنوفَ الَّذين أذَلُّوه بالأمسِ(٢).

٤- الحثُّ على الهجرةِ والتَّرغيبُ فيها، وبيان ما فيها من المصالح، فوعَد الصَّادقُ في وعدِه أنَّ مَن هاجَر في سبيلِه ابتغاءَ مرضاتِه، أنَّه يجِدُ مُراغَمًا في الأرضِ وسَعةً؛ فالمُراغَمُ مشتمِلٌ على مصالحِ الدِّين، والسَّعةُ على مصالحِ الدُّنيا: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾(٣).

٥- كلُّ مَن نوى خيرًا ولم يُدرِكْه، فالله تعالى موفِّيه إيَّاه؛ نستفيدُ ذلك مِن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فمن قصَد طاعةَ الله ثمَّ عجَز عن إتمامِها، كتَب اللهُ له ثوابَ تمامِ تلك الطَّاعة(٤).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ للملائكةِ ذواتًا حقيقيَّةً تقبِضُ الأرواحَ، وتُخاطِب وتتكلَّم، وكلامُها مفهومٌ، خلافًا لِمن يقول: إنَّ الملائكةَ هي القُوَى الخيِّرةُ، وإنَّ الشَّياطينَ هي القُوَى الشِّرِّيرةُ، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ يكذِّبه القرآنُ والسُّنَّةُ والإجماعُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾(٥).

٢- مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٣).

نستفيدُ وجوبَ الهجرةِ من المَوْضِع الَّذي لا يتمكَّنُ المسلمُ فيه من إقامةِ دِينِه، وأنَّ مَن لم يهاجِرْ فإنَّه يموت وقد ظلَم نفسَه، ولكنَّ وجوبَ الهجرةِ مشروطٌ بشروطٍ؛ منها: القُدرة؛ لقوله في الآية الكريمة الَّتي بعد هذه الآيةِ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ ولأنَّ القاعدةَ العامَّةَ العظيمةَ العميقةَ في الشَّريعة الإسلاميَّة: أنَّه لا واجبَ مع العجزِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فيُشترط لوجوب الهجرةِ القدرةُ[(١)].

٣- أن الظَّالم يحتجُّ بأيِّ حُجَّةٍ كانت؛ لقول هؤلاء: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والواقع أنَّهم غيرُ مستضعفين؛ لأنَّ الملائكة قالت لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾[(٢)].

٤- أنَّ الشَّريعة إن منَعَتْ بابًا ضيِّقًا فتَحت بابًا أوسعَ، ويؤخَذُ هذا من قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؛ فاللهُ تعالى لم يحجُرْ عليهم الأرضَ، بل جعَلها واسعةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[(٣)] [الشرح: ٥- ٦].

٥- أنَّ التَّخلُّفَ عن الهجرة الواجبة من كبائرِ الذُّنوبِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، ووجهُ الدَّلالة: أنَّه ترتَّب عليها عقوبةٌ خاصَّةٌ[(٤)].

٦- نستفيدُ مِن قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أنَّ مِن الرِّجالِ البالغين مَن لا تجبُ عليهم الهجرةُ؛ وذلك لكونهم مستضعَفين[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٤) وينظر ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤١)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٠).

٧- قول الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾، أدخَل الوِلدانَ في جملة المُستثنَيْنَ مِن أهل الوعيد، مع أنَّ الاستثناءَ إنَّما يحسُنُ لو كانوا مستحقِّين للوعيد؛ وذلك لأنَّ سقوطَ الوعيدِ بسبب العجز، والعجزُ تارةً يحصُل بسببِ عدم الأُهْبةِ، وتارةً بسبب الصِّبا، فلا جرمَ حسُنَ هذا[١]، وقيل أيضًا: لَمَّا توعَّد اللهُ تعالى على ترك الهجرة، أتبَعَ ذلك بما زاد القاعدَ عنها تخويفًا بذِكْرِ مَن لم يدخل في المحكوم عليه بالقدرة على صورة الاستثناءِ، تنبيهًا على أنَّهم جديرون بالتَّسويةِ في الحُكمِ لولا فضلُ الله عليهم[٢].

٨- أنَّ الدِّين الإسلاميَّ دِينُ اليُسر والسُّهولة، وأنَّه مع وجود المشقَّة ينتفي الحرَجُ؛ قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾[٣].

٩- ليس كلُّ ما يُسمَّى حِيلةً حرامًا؛ ففي قولِ الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أراد بالحِيلةِ التَّحيُّلَ على التخلُّصِ من بين الكفَّارِ؛ وهذه حِيلةٌ محمودةٌ يُثابُ عليها[٤].

١٠- أنَّ الواجبَ الوصولُ إلى القيامِ بالواجب بأيِّ حِيلةٍ تكونُ؛ لقوله: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾[٥].

١١- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ... وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ الإيمانُ بالملائكة ومدحُهم؛ لأنَّ اللهَ ساق ذلك الخطابَ لهم على وجهِ التَّقريرِ والاستحسانِ منهم، وموافقتِه لمحلِّه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٧).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٠).
(٤) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٨٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٦).

١٢- أنَّه تجبُ الهجرةُ على مَن يقدر عليها من أيِّ سبيلٍ؛ لقوله: ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾، وسبيلًا: نكرةٌ في سياقِ النَّفي فتعمُّ[١].

١٣- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ أنَّه يُرجَى لهؤلاء أن يعفوَ اللهُ عنهم؛ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡ﴾؛ فالرَّجاءُ هنا باعتبارِ ما يكونُ في قلبِ المخاطَبِ، أمَّا باعتبارِه منسوبًا إلى اللهِ فقال بعضُ السَّلفِ: ﴿عَسَى﴾ مِن الله واجبةٌ، يعني: أنَّ اللهَ وعَدهم أن يعفوَ عنهم[٢]، وقيل: إنَّ ذِكرَ لفظة (عسى) ها هنا مع أنَّ الله تعالى هو فاعلُ العفوِ، وهو عالمٌ بأنَّه يعفو عنهم، وذلك لفائدةِ الدَّلالة على أنَّ تركَ الهجرة أمرٌ مضيَّقٌ لا توسِعةَ فيه، فمثَّل حالَ العفوِ عنهم بحالِ مَن لا يقطَعُ بحصولِ العفوِ عنه، والمقصودُ من ذلك تضييقُ تحقُّقِ عُذرِهم؛ لئلَّا يتساهلوا في شروطِه اعتمادًا على عفوِ الله[٣].

١٤- في قوله: ﴿عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ إثباتُ اسمينِ مِن أسماء اللهِ، هما: العفوُّ، والغفورُ، وإثباتُ الصِّفتينِ الدَّالِ عليهما هذانِ الاسمانِ، والعفوُّ هو: المتجاوزُ عن السَّيِّئات، والغفورُ: هو الماحي لها، لكن إذا اجتمع العفوُّ والغفورُ، صار المرادُ بالعفوِّ ما يقابل تركَ الواجب، والغفورِ ما يقابِلُ فِعلَ المحرَّمِ، أي: عفوٌّ عن التَّفريط في الواجبِ، غفورٌ عن فِعل المحرَّمِ[٤].

١٥- قوله: ﴿مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: فيه عطفُ الرَّسولِ على اسم الجلَالةِ؛ للإشارةِ إلى خصوصِ الهجرة إلى المدينةِ؛ للالتحاقِ بالرَّسولِ وتعزيزِ جانبِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٢).

لأنَّ الَّذي يُهاجِرُ إلى غير المدينة قد سلِم من إرهاقِ الكُفْر، ولم يحصُلْ على نُصرةِ الرَّسولِ؛ ولذلك بادَرَ أهلُ هجرةِ الحبَشةِ إلى اللَّحاقِ بالرَّسولِ حين بلَغَهم مُهاجَرُه إلى المدينةِ[(١)].

١٦- أنَّ مَن سعى في الهجرةِ وأدرَكه الموتُ، فإنَّ أجره ثابتٌ كاملٌ، وتؤخذ من قوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ويقاسُ على ذلك بقيَّةُ الأعمال؛ فمن خرَج إلى المسجد يُريدُ الصَّلاةَ فمات في أثناء الطَّريقِ، يُكتَب له أجرُ الصَّلاة[(٢)].

١٧- قال تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يقُلْ: وقَع أجرُه على الله ورسولِه، مع أنَّ الهجرةَ كانت إلى اللهِ ورسولِه؛ لأنَّ الهجرةَ إلى الرَّسولِ وسيلةٌ، والغايةُ هي: الهجرةُ إلى الله عزَّ وجل؛ فلهذا كان الَّذي يُثِيب على الهجرةِ ليس الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بل هو اللهُ عزَّ وجلَّ[(٣)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: جملةٌ مستأنَفةٌ استئنافًا بيَانيًّا لسائل متردِّدٍ؛ ولذلك فُصِلت- أي: لم تُعطَف بالواو-، وصُدِّرتْ بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)؛ فإنَّ حالَهم يوجِبُ شكًّا في أن يكونوا مُلحَقِينَ بالكفَّار[(٤)].

٢- **قوله:** ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشأ مِن حِكايةِ سُؤالِ الملائكةِ؛ كأنَّه قيل: فماذا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا-مُتجانِفينَ عن الإقرارِ الصَّريحِ بما هُم فيه مِن التَّقصيرِ، مُتعلِّلين بما يوجِبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٦- ١٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٣).

على زَعْمِهم-: إنَّهم كانوا مُستضعَفين في الأرضِ[١].

- قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾: استفهامٌ يرادُ منه التَّوبيخُ والتَّقريعُ، والتَّقرير[٢].

- وقوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقَعَ جوابًا عن قولهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ لأنَّ معنى قوله: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ للتَّوبيخِ بأنَّهم لم يكونوا في شيءٍ مِن الدِّين؛ حيث قدَروا على المهاجَرةِ ولم يهاجِروا، فقالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ اعتذارًا ممَّا وُبِّخوا به، واعتلالًا بالاستضعافِ، وأنَّهم لم يتمكَّنوا من الهجرةِ حتَّى يكونوا في شيءٍ، فبكَّتَتْهم الملائكةُ بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾[٣].

٣- **قوله:** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ اسمُ الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّهم جَديرونَ بالحُكمِ الواردِ بعْد اسمِ الإشارةِ مِن أجلِ الصِّفاتِ المذكورة قَبْلَه؛ لأنَّهم كانوا قادرينَ على التَّخلُّصِ مِن فتنةِ الشِّركِ بالخروج من أرضِه[٤].

٤- **قوله:** ﴿**فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾:

- الإتيانُ باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم جَديرونَ بالحُكمِ المذكور من المغفرةِ[٥].

- وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِمَا قبلها[٦]

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٠).

مِن مقدرةِ الله عزَّ وجلَّ على العفوِ عنهم، ومغفرةِ ذنوبهم، مع ما فيها من التَّأكيدِ، والمبالغةِ في الوَصْفِ.

٥- **قوله:** ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ كلمة ﴿يُدْرِكْهُ﴾ فيها إشعارٌ بأنَّ المهاجِرَ كالفارِّ الَّذي يريد أن يصِلَ إلى مُهاجَرِه، لكنَّ الموتَ لحِقَه فأدرَكه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٢٦).

الآيات (١٠١ - ١٠٤)

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن
يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ
لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟
فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ
وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى
مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ
فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَقْصُرُوا۟﴾: قَصرُ الصَّلاةِ: جَعْلُها قصيرةً بتركِ بعضِ أركانها تَرخيصًا، وأصلُ (قصر): النَّقصُ، وعدمُ بلوغِ الشَّيء مَدَاهُ ونهايتَه[١].

﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: أي: يَقْتُلَكمْ أو يَأسِرَكُم، وتُطلَق الفِتْنةُ كذلك على: الشِّرْك والكُفر، والشَّرِّ والعذاب، وهي في الأصل: الاختِبارُ والابتلاء والامتِحان، مأخوذةٌ من الفَتْن: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه من رداءتِه[٢].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢- ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)،

﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: جَمْع مَتاع، وهو كلُّ ما حصَل التَّمتُّع والانتفاعُ به على وجهٍ ما، وأصلُ المتاع والمُتعةِ ما يُنتَفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل ينقضي عن قريبٍ، وأيضًا: منفعةٌ، وامتدادُ مدَّة في خيرٍ[1].

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾: أي: يتحامَلون عليكم، والمَيْل: العدولُ عن الوسَطِ إلى أحد الجانبين، وأصل (ميل): انحرافٌ في الشَّيء إلى جانبٍ منه[2].

﴿مَّوْقُوتًا﴾: أي مفروضًا محدَّدًا موقَّتًا بوقت، يقال: وقَّته اللهُ عليهم ووَقَتَهُ، أي: جعَله لأوقاتٍ، والوقتُ: نهايةُ الزَّمانِ المفروض للعمل، وأصل (وقت): يدلُّ على حدِّ شيءٍ، وكُنْهِه في زمانٍ وغيرِه[3].

المَعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى لعباده: إنَّهم إذا سافروا فلا حرَجَ عليهم ولا إثمَ في قَصْرِ صلاة الفرضِ، إذا ما خافوا أن يصُدَّهم الكفَّارُ عن دِينهم؛ بحَمْلِهم عليهم وهم في الصَّلاة؛ فإنَّ الكفَّارَ ذوُو عداوةٍ واضحةٍ لهم.

ثمَّ يخاطبُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أنَّه إذا كان في أصحابِه، وشهِد معهم القتالَ، وأراد أن يُقِيمَ لهم الصَّلاة، فليقسِمْ أصحابه قسمينِ، وبعد ذلك فلتقُمْ طائفةٌ منهم معه في الصَّلاةِ، والطَّائفةُ الأخرى تقفُ في وجه العدوِّ، ولْيَأخذوا أسلحتَهم، فإذا فرغت الطَّائفةُ الَّتي معه من صلاتِها، فلْيَكونوا مِن

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢- ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥، ٩٤٥).

ورائِه ووراء الطَّائفةِ الَّتي لم تكُنْ صلَّتْ معه الرَّكعةَ الأولى، وكانتْ في مقابِلِ العدوِّ، فإذا ما انصرَفَتِ الطَّائفةُ الأولى للحِراسَةِ، فلتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت قبلَ ذلك في الحِراسةِ، والَّتي لم تُصَلِّ بعدُ، فَلْيُصَلُّوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما تبقَّى له من ركعة، ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ فقد تمنَّى الكفَّارُ لو غفَل المسلمون عن أسلحتِهم وأمتعتِهم، فيَحمِلون عليهم، ويَستأصلونَهم بضَربةٍ واحدةٍ.

ثمَّ رخَّص اللهُ لعباده أنْ يَضَعوا أسلحتَهم، نافيًا عنهم الحَرَجَ والإثمَ، إذا ما تأذَّوْا بمطَرٍ، أو كانوا مَرْضَى، لكن لا بدَّ أن يكونوا حَذِرينَ، ثمَّ أخبر تعالى أنَّه أعدَّ للكفَّار عذابًا مُخزيًا في الدَّارينِ.

ثمَّ أمَر اللهُ المسلِمين إذا ما انتهَوْا مِن أداء صلاةِ الخوفِ أنْ يَذكُروه قِيامًا أو قُعودًا أو مُضْطَجِعين على جنوبِهم، فإذا زال الخوفُ عنهم وأمِنوا فليُقِيموا الصَّلاةَ كاملةً، إنَّ الصَّلاةَ كانت على المؤمنينَ فريضةً محدَّدةً بوقتٍ.

ثمَّ يوجِّهُ الله الخِطابَ إلى المسلمين ألَّا يكونوا ضُعفاءَ ولا كُسالى في طلبِهم للعدوِّ؛ فإنَّهم وإنْ كانوا يصيبُهم الألمُ، فإنَّ عدوَّهم أيضًا يتألَّمُ، فلا ينبغي أن يكونوا أضعفَ منهم، وهم مع ذلك يَرْجُون من الله ما لا يَرجو أولئك الكفَّارُ مِن النَّصرِ والثَّوابِ، وكان اللهُ عليمًا حكيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أوجب اللهُ تعالى السَّفرَ للجهادِ والهجرة، وكان مُطلَقُ السَّفر مظِنَّةَ

المشقَّة، فكيف بسفرِهما مع ما ينضمُّ إلى المشقَّة فيهما من خوفِ الأعداء، ولَمَّا كانت الصَّلاةُ فرضًا لازمًا في كلِّ حالٍ، لا يسقُطُ في وقتِ القتال، ولا في أثناءِ الهجرةِ، ولا غيرِ الهجرةِ من أيَّام السَّفَرِ، ولكن قد تتعذَّرُ أو تتعسَّرُ في السَّفرِ وحالِ الحرب إقامتُها فرادَى وجماعةً، كما أمَرَ اللهُ- ناسَب في هذا المقام أن يبيِّنَ اللهُ تعالى ما يريد أن يرخِّصَ لعباده فيه من القَصْرِ من الصَّلاةِ في هاتينِ الحالَتينِ[1]، فقال:

﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وإذا سافَرْتُم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أي: فلا حرَجَ ولا إثمَ عليكم[3] في قَصرِ كيفيَّةِ الصَّلاةِ المفروضةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٣) قال السعديُّ: (قوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ أي: لا حرَج ولا إثمَ عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كونَ القصر هو الأفضلَ؛ لأنَّ نفيَ الحرج إزالةٌ لبعض الوهم الواقع في كثير من النُّفوس، بل ولا يُنافي الوجوبَ؛ كما تقدَّم ذلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخر الآية، وإزالةِ الوهم في هذا الموضع ظاهرةٌ؛ لأنَّ الصَّلاة قد تقرَّر عند المسلمين وجوبُها على هذه الصِّفة التَّامَّة، ولا يُزيل هذا عن نفوسِ أكثرِهم إلا بذِكرِ ما ينافيه) ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٢-٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٨، ٢٥٣).

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾.

أي: إنْ خشِيتُم أنْ يصُدَّكم الكفَّارُ عن دِينكم، بقتالِهم إيَّاكم، وبحملِهم عليكم وأنتم في صلاتِكم، فيصدُّوكم عن إقامتِها وأدائِها، ويحُولوا بينكم وبين عبادةِ الله تعالى[١].

﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

أي: إنَّ عداوةَ جميع الكفَّارِ لكم - أيُّها المؤمنون - بيِّنةٌ واضحةٌ، قد أظهَروها لكم[٢].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ

قال الشِّنقيطيُّ: (ومعنى قصر كيفيَّتها أن يجوزَ فيها من الأمور ما لا يجوز في صلاة الأمن؛ كأن يصلِّيَ بعضُهم مع الإمام ركعة واحدة، ويقف الإمام حتى يأتي البعضُ الآخر، فيصلِّي معهم الرَّكعة الأخرى، وكصلاتهم إيماءً رِجالًا وركبانًا وغيرَ متوجِّهين إلى القِبلة؛ فكلُّ هذا من قَصْرِ كيفيَّتِها). ((أضواء البيان)) (١/ ٢٤٨).

وممَّن قال من السلف: إنَّ المقصود بالقصر هنا قصر كيفيَّة الصَّلاة: مجاهد، والضَّحاك، والسُّدِّيُّ؛ يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٣١، ١٤٠).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ متَّصل بما بعدَه مِن صلاةِ الخوفِ، منفصلٌ عمَّا قبلَه... ومثلُه في القرآنِ كثيرٌ؛ أن يجيءَ الخبرُ بتمامِه، ثم ينسَّق عليه خبرٌ آخرُ، وهو في الظَّاهر كالمتَّصل به، وهو منفصلٌ عنه. ينظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ٦٨٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٩ وما بعدها)، قال الطبريُّ: (وهذا تأويلٌ في الآيةِ حسنٌ لو لم يكنْ في الكلامِ ﴿إِذَا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ حُكمَ القَصرِ في السَّفرِ عندَ الخوفِ، عقَّبه ببيانِ كيفيَّةِ صلاةِ الخوف[1].

سببُ النُّزول:

عن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ قال: ((كنَّا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُسْفانَ، فاستقبَلَنا المشرِكون، عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القِبْلة، فصلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الظُّهر، فقالوا: قد كانوا على حالٍ لو أصَبْنا غِرَّتَهم[2]، ثمَّ قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحبُّ إليهم من أبنائِهم وأنفُسِهم، قال: فنزل جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآياتِ بين الظُّهرِ والعصرِ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال: فحضَرَتْ فأمَرهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخَذوا السِّلاحَ، قال: فصفَفْنا خَلْفَه صفَّيْنِ، قال: ثمَّ ركَع فركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع فرفعْنا جميعًا، ثمَّ سجَد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّفِّ الَّذي يلِيه، والآخَرون قيامٌ يحرُسُونهم، فلمَّا سجَدوا وقاموا جلَس الآخَرون، فسجدوا في مكانهم، ثمَّ تقدَّم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، قال: ثمَّ ركَع فركَعوا جميعًا، ثمَّ رفَع فرفعوا جميعًا، ثمَّ سجد النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والصَّفُّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسونهم، فلمَّا جلَس جلَس

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ٨٩٥).

(٢) أصَبْنا غِرَّتَهم: الغِرَّةُ: الغفلةُ، والمعنى: أصبْناهُم في حالِ كَونِهم غَافِلِينَ عَن حِفْظِ مَقامِهم، وما هُم فيه مِن مُقابلةِ العَدُوِّ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٥٥).

الآخَرون، فسجدوا ثمَّ سلَّم عليهم ثمَّ انصرَف، قال: فصلَّاها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مرَّتينِ: مرَّةً بعُسْفانَ، ومرَّةً بأرضِ بني سُلَيمٍ))[1].

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((خَرَجَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فلَقِي المشركين بعُسْفانَ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الظُّهرَ، فرَأَوْه يَركعُ ويَسجُدُ هو وأصحابُه، قال بعضُهم لبعضٍ: كان هذا فُرصةً لكم، لو أَغَرْتُم عليهم ما عَلِموا بكم حتَّى تُواقِعُوهم، فقال قائلٌ منهم: فإنَّ لهم صلاةً أخرى هي أحبُّ إليهم مِن أهْلِيهم وأموالِهم، فاستَعِدُّوا حتَّى تُغِيروا عليهم فيها، فأنزلَ اللهُ تبارَك وتعالى على نبيِّه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، وأَعْلَمَ ما ائْتَمَرَ به المشرِكون، وذَكَرَ صَلاةَ الخَوفِ))[2].

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وإذا كنتَ في أصحابِك- يا محمَّدُ- وأردتَ أن تُصلِّيَ بهم صلاةً كاملةً، تُقِيمُها بحدودِها ورُكوعِها وسُجودِها، وتُتِمُّ ما يجبُ فيها[3].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٥٩) (١٦٦٣٠)، وعبد الرزَّاق في ((المصنف)) (٤٢٣٧)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥٨٩٩)، والطبراني (٥/ ٢١٣) (٥١٣٢).
صحَّحه الدارقطنيُّ في ((سننه)) (٢/ ٢٠٠)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (٢/ ٣٥٤).

(٢) رواه الطبري في ((تفسيره)) (٩/ ١٥٦)، والحاكم (٣/ ٣٢).
صحَّحه الطبريُّ، وقال ابنُ حجر في ((الكافي الشاف)) (٩٢): أصله في مسلم.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٣-٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٢).
قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ ...﴾ الآية، قال جمهور الأمَّة: الآية خطاب للنبيِّ عليه السلام، وهو يتناول الأمراءَ بعده إلى يوم القيامة) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٠٥).
وقال ابنُ كثير: (وأما مَن استدلَّ بهذه الآية على أنَّ صلاة الخوف منسوخةٌ بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ﴾، فبَعْدَه تفُوتُ هذه الصِّفة- فإنَّه استدلالٌ ضعيف، ويُرَدُّ عليه مِثلَ قول مانعي الزَّكاة الذين احتجُّوا بقوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٣]، قالوا: فنحن لا ندفع زكاتَنا بعده صلَّى الله عليه وسلَّم إلى أحدٍ، بل نخرجها نحن بأيدينا على مَن نراه، ولا ندفعها [إلا] إلى مَن صلاتُه،

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾.

أي: فلتقُمْ فِرقةٌ مِن أصحابك معك في صلاتك، وليكنْ بقيَّتُهم في وجه العدوِّ[١].

﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾.

قيل: المأمورُ بأخْذِ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة[٢]، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجه العدوِّ[٣].

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾.

أي: فإذا فرغَتِ الطَّائفةُ الَّتي قامت معك- يا محمَّدُ- في الصَّلاة من صلاتها، فليتَّخِذْ أفرادُها موضعهم خلفَك، وخلفَ الطَّائفةِ الأخرى الَّتي ستدخُلُ معك

أي: دعاؤه، سكَنٌ لنا، ومع هذا ردَّ عليهم الصحابةُ، وأبَوْا عليهم هذا الاستدلالَ، وأجبَروهم على أداءِ الزَّكاة، وقاتَلوا مَن منَعها منهم) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: السِّلاح هو ما يقاتل به دفاعًا أو طلبًا، وينقسم إلى أقسام كثيرة: ثقيل، وخفيفٍ، ومتوسطٍ، وسلاح يكونُ من بعيدٍ، وسلاح يكون من قريبٍ، والآيةُ عامةٌ، فيكون المرادُ: أسلحتهم التي يحتاجون إليها في الدِّفاع عن أنفسِهم، والتي لا تشغَلُهم عن الصلاةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٠).

قال ابنُ عطية: (اختلف مَن المأمور بأخذ الأسلحة هنا؟ فقيل: الطائفة المُصلِّيَة، وقيل: بل الحارسة، قال القاضي أبو محمد: ولفظ الآية يتناول الكلَّ، ولكن سلاح المصلِّين ما خفَّ) ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٠٥)، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤).

وممَّن قال بهذا القول من السلف: ابنُ عباس رضي الله عنهما، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٢٤).

في صلاتِك، ممَّن لم يُصَلِّ معك الرَّكعةَ الأولى[١].

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾.

أي: ولْتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت في مقابلِ العدوِّ، ممَّن لم يُصلِّ معك الرَّكعةَ الأولى، وليُصلُّوا معك الرَّكعةَ الَّتي بقِيَتْ عليك[٢].

بعضُ الأحاديثِ الواردة في صلاة الخوف:

عن ابن عمرَ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((صلَّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم صلاةَ الخوفِ بإحدى الطَّائفتينِ ركعةً، والطَّائفةُ الأخرى مواجهةُ العدوِّ، ثمَّ انصَرَفوا وقاموا في مقامِ أصحابهم، مُقبِلين على العدوِّ، وجاء أولئك، ثمَّ صلَّى بهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ركعةً، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ قضى هؤلاء ركعةً، وهؤلاء ركعةً))[٣].

وعن صالحِ بنِ خوَّاتِ بن جُبيرٍ، عمَّن صلَّى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ ذاتِ الرِّقاعِ صلاةَ الخوفِ: ((أنَّ طائفةً صفَّت معه، وطائفةٌ وجاهَ العدوِّ، فصلَّى بالَّتي معه ركعةً، ثمَّ ثبَتَ قائمًا، وأتَمُّوا لأنفسِهم، ثمَّ انصَرَفوا فَصفُّوا وِجاهَ العدوِّ، وجاءتِ الطَّائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعةَ الَّتي بقِيَت مِن صَلاتِه، ثمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤).

قال ابنُ عاشور: (وقد أجمَلتِ الآيةُ ما تَصنَعُه كلُّ طائفةٍ في بقيَّة الصَّلاة، ولكنَّها أشارتْ إلى أنَّ صلاة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم واحدة؛ لأنَّه قال: ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، فجعَلهم تابعين لصلاته، وذلك مؤذِنٌ بأنَّ صلاتَه واحدةٌ، ولو كان يُصلِّي بكلِّ طائفة صلاةً مستقلَّة، لقال تعالى: فلتصلِّ بهم) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٦).

(٣) رواه البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩).

ثبَت جالسًا، وأتمُّوا لأنفسهم، ثُمَّ سلَّمَ بهم))[١].

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((شَهدتُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صلاةَ الخوف، فصَفَّنا خَلْفَه صفَّيْنِ، والعدوُّ خَلْفَه بيننا وبين القِبْلة، فكبَّر صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكبَّرْنا جميعًا، ثمَّ ركَع وركعْنا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع، ورفَعْنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّرُ في نَحْر العدوِّ، فلمَّا قضَى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَرَ المؤخَّرُ بالسُّجود، وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركَع وركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسه من الرُّكوع ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدر بالسُّجود والصَّفُّ الَّذي يليه، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحر العدوِّ، فلمَّا قضى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السُّجودَ والصَّفُّ الَّذي يليه، انحدَر المؤخَّرُ بالسُّجود وقاموا، ثمَّ تقدَّم الصَّفُّ المؤخَّر، وتأخَّر الصَّفُّ المقدَّم، ثمَّ ركع وركعنا جميعًا، ثمَّ رفع رأسَه من الركوع ورفعنا جميعًا، ثمَّ انحدَر بالسُّجودِ والصَّفُّ الَّذي يليه الَّذي كان مؤخَّرًا في الرَّكعةِ الأُولى، وقام الصَّفُّ المؤخَّر في نحرِ العدوِّ، فلمَّا قضى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقام الصَّفُّ الَّذي يليه، انحدر الصَّفُّ المؤخَّرُ بالسُّجود، وسجد، ثمَّ سلَّم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وسلَّمْنا جميعًا))[٢].

﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡ﴾.

قيل: المأمورُ بأخْذ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة[٣]، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجْهِ العدوِّ الَّتي صلَّتْ أوَّلًا[٤].

(١) رواه البخاري (٤١٢٩)، ومسلم (٨٤٢).

(٢) رواه مسلم (٨٤٠).

(٣) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٤٠)، والسعدي في ((تفسيره)) (ص: ١٩٨)، وابن عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (٢/ ١٥١).

(٤) وهذا اختيار الواحدي في ((الوجيز)) (ص: ٢٨٥).

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾.

أي: تمنَّى الَّذين كفروا بالله لو تَنشغِلون بصلاتِكم عن أسلحتِكم الَّتي تُقاتلونهم بها، وعن أمتعتِكم الَّتي بها بَلاغُكم في أسفارِكم، فتَسهُون عنها؛ حرصًا منهم على الإيقاعِ بكم[(١)].

﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

أي: فيَحملون عليكم جميعًا، حالَ غَفلتِكم، وانشغالِكم بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتِكم، فيُصيبون منكم غِرَّةً بذلك، ويُجهِزون عليكم بضربةٍ واحدة[(٢)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

ولَمَّا كان الخطابُ عامًّا لجميع المحارِبين، وكان يعرِضُ لبعض الناسِ مِن العُذرِ ما يشُقُّ معه حملُ السِّلاح، عقَّبَ على العزيمةِ بالرُّخصةِ لصاحب العُذرِ فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[(٣)].

سببُ النُّزول:

عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنه قال: نزلت ﴿إِن كَانَ بِكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٤-١٤٥، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٠٥).

أَذَى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ في عبدِ الرَّحمن بن عوفٍ وكان جريحًا[(١)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

أي: ولا حرجَ عليكم ولا إثمَ- إن نالكم أذًى بسبب مطرٍ تُمطَرُونه، أو أصابكم مرضٌ- في تركِ حملِ أسلحتكم، إن ضعُفْتُم عن حملِها[(٢)].

﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾.

أي: ولكنْ إن وَضعتُم أسلحتَكم من أذى مطرٍ أو مرضٍ، فكونوا متيقِّظينَ، واحترِسوا مِن عدوِّكم أن يميلَ عليكم، وأنتم عنه غافلون[(٣)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ للكفَّارِ عذابًا مذِلًّا في الدُّنيا والآخرة[(٤)].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بعضَ أحكام صلاة الخوفِ، وكان يقعُ فيها من التَّخفيفِ في أركانها، وغيرِ ذلك ممَّا لا يوجَد في غيرها، أعقبَه بالأمرِ بذِكره؛ لشدَّةِ تأكُّدِه

---

(١) رواه البخاري (٤٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٥).

في هذا الموطنِ، كذلك فإنَّ ما هُم عليه من الخوف والحَذَر مع العدوِّ جديرٌ بالمواظَبةِ على ذِكر الله والتَّضرُّعِ إليه[1] فقال:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

أي: فإذا فرَغْتم - أيُّها المؤمنون - من أداءِ صلاةِ الخوفِ، فاذكُروا اللهَ تعالى في جميعِ أحوالِكم وهيئاتكم؛ من قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ على جنوبِكم[2].

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: فإذا أمِنْتم - أيُّها المؤمنون - وزال خوفُكم من عدوِّكم، فأتِمُّوا الصَّلاةَ على الوَجْهِ الأكملِ كما أُمِرْتُم، ظاهرًا وباطنًا، بحدودِها وأركانِها وشروطها، وجميعِ شؤونها[3].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

أي: إنَّ الصَّلاةَ على المؤمنين فرضٌ مؤقَّتٌ بوقتٍ[4].

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

قال ابن كثير: (يأمر الله تعالى بكثرة الذِّكر عَقِيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعًا مرغَّبًا فيه أيضًا بعد غيرها، ولكن هاهنا آكَدُ؛ لِما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها؛ كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهيًّا عنه في غيرها، ولكن فيها آكدُ؛ لشدَّة حُرمتها وعِظَمها) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كانت آياتُ الجهادِ في هذه السُّورة معلِّمةً للحَذَرِ خوفَ الضَّررِ، مُرشِدةً إلى إتقان المكائد للتَّخلُّصِ من الخطرِ، وكان ذلك مَظِنَّةً لمتابعة النَّفس والمبالغةِ فيها، وهو مظنَّةٌ للتَّواني في أمرِ الجهاد- أتبَع ذلك بما ينبِّهُ على الجِدِّ في أمره[(١)] فقال:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾.

أي: ولا تضعُفُوا ولا تَكسَلوا في طلب عدوِّكم، بل جِدُّوا في جهادِهم، وانشَطوا لقتالهم[(٢)].

ثمَّ ذكَر سبحانه ما يُقوِّي قلوبَ المؤمنينَ[(٣)]، وبيَّن أنَّه لا وجهَ للوَهَنِ والضَّعفِ في تركِ طلبِهم[(٤)]، فقال تعالى:

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

أي: إنْ كنتم- أيُّها المؤمنون- تتوجَّعون ممَّا ينالُكم من عدوِّكم من جِراحٍ وأذًى في الدُّنيا، فإنَّهم مِثلُكم؛ يتوجَّعون أيضًا ممَّا ينالُهم منكم من جِراحٍ وأذًى، فليس من المعقولِ أن تكونوا أضعفَ منهم، وأنتم وهُم قد تساوَيْتُم في ذلك[(٥)].

كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥-٣٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٠).

١٤٠].

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

أي: وأنتم- أيُّها المؤمنونَ- تطمَعون فيما عند الله تعالى من الثَّوابِ والنَّصرِ لدِينه، وهم لا يطمعونَ في شيء من ذلك؛ فأنتم أَولى بالقتالِ منهم، والصَّبرِ على حربِهم، وأشدُّ رغبةً في إعلاءِ كلمة الله عزَّ وجلَّ(١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى له كمالُ العِلم، فلا يخفى عليه شيءٌ مطلَقًا، ومن ذلك عِلمُه بمصالحِ عباده؛ فعرَّفهم عند حضورِ صلاتِهم، ومواجَهةِ عدوِّهم كيفيَّةَ أداء فرضِ الله عليهم، مع السَّلامةِ من عدوِّهم، وله سبحانه كمالُ الحِكمة والحُكم؛ فهو الَّذي يُقدِّر ويُدبِّر كلَّ شيءٍ من أحكامه الكونيَّةِ والشَّرعيَّة، ويضعُ كلَّ شيءٍ منها في موضعه اللَّائقِ به(٢).

الفَوائِد التربويَّة:

١- التَّنبيهُ على عظيم قدرِ الصَّلاة؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾؛ فالسِّياقُ يُشير إلى شدَّة الاهتمامِ بشأن الصَّلاة، وأنَّه لا يُسقِطها عن المكلَّف شيءٌ، فلو أن فيها رخصةً بوجهٍ لوضَعَها اللهُ تعالى عن المسلمين في مثل هذه الحالة(٣).

٢- قول الله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ فيه تعليمُ المسلمين أنْ يطلُبوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦١-١٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٧٨).

المسبَّباتِ مِن أسبابها، أي: إن أخَذْتم حِذرَكم أمِنْتُم مِن عدوِّكم(١).

٣- الأمرُ بذِكر الله بعد انتهاء الصَّلاة؛ لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾(٢).

٤- إذا كنَّا مأمورين بالذِّكرِ على كلِّ حال نكونُ عليها في الحرب، كما يُعطيه السِّياقُ، فأجدَرُ بنا أن نؤمَرَ بذلك في كلِّ حالٍ مِن أحوالِ السِّلم، كما يُعطيه الإطلاقُ على أنَّ المؤمنَ في حربٍ دائمةٍ وجهاد مستمرٍّ، تارةً يجاهدُ الأعداءَ، وتارةً يجاهدُ الأهواءَ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾(٣).

٥- قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ من فوائدِ تخصيصِ الذِّكر بعد صلاة الخوفِ: أنَّ الخوفَ يوجِبُ مِن قلقِ القلبِ وخوفِه ما هو مَظِنَّةٌ لضَعفِه، وإذا ضعُفَ القلبُ ضعُفَ البدنُ عن مقاومة العدوِّ، والذِّكرُ لله والإكثارُ منه مِن أعظمِ مقوِّيات القلبِ، ومنها: أن الذِّكرَ لله تعالى مع الصَّبرِ والثَّباتِ سببٌ للفلاح والظَّفَرِ بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فأمَر بالإكثارِ منه في هذه الحالِ، إلى غيرِ ذلك من الحِكَم(٤).

٦- ما يُصيبُ المؤمنين فى الله تعالى مَقْرونٌ بالرِّضا والاحتسابِ، فإنْ فاتَهم الرِّضا فمُعَوَّلُهم على الصَّبْر، وعلى الاحتسابِ، وذلك يخَفِّفُ عنهم ثِقَلَ البلاء ومُؤْنَتَه؛ فإنَّهم كُلَّما شاهدوا العِوَض هان عليهم تحمُّلُ المشاقِّ والبلاء،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

والكُفَّار لا رِضا عندهم ولا احتِساب، وإن صَبَروا فصَبْرُهم كصَبْرِ البهائِم، وقد نبَّه تعالى على ذلك بِقوْله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾. فاشْتَركوا في الألم، وامتازَ المؤمنونَ برجاءِ الأَجْرِ والزُّلْفى من اللهِ تعالى[1].

٧- المؤمِنون أَولى بالمصابَرة على القتالِ من المُشركين؛ لأنَّ المؤمنين مُقرُّون بالثَّوابِ والعقابِ، والحشرِ والنَّشر، والمشركين لا يقرُّون بذلك، نستفيدُ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾[2].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ فيه إرشادٌ للمَرءِ أنْ يَرُدَّ حَرَّ المصيبةِ برَوْحِ التأسِّي بِمَن لَقِيَ مِثلَ ما لَقِي[3].

٩- أنَّه ينبغي للإنسان إذا عمِل العملَ الصَّالحَ أن يكون راجيًا؛ لقوله: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾، ويكون هذا الرَّجاءُ عند ابتغاء القومِ وطلَبِهم، وهكذا ينبغي للإنسانِ إذا وفَّقه اللهُ للعبادةِ أن يكون راجيًا، أي: راجيًا ثوابَها؛ لأنَّ مِن بشرى الإنسان أن يُوفَّق للعبادةِ؛ فمَن وُفِّق للعبادة على ما يُرضي اللهَ، فهي بُشرى بالقَبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّق للدُّعاءِ فهو بشرى بالإجابة[4].

١٠- أنَّ بني آدمَ في الأمور البشريَّة على حدٍّ سواءٍ، فإذا كان الكافرُ يتألَّم

(١) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٧- ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٥).
(٣) ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥٠٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٥).

فالمؤمنُ يتألَّم، حتَّى الأنبياءُ في الأمور البشريَّة كغيرِهم من النَّاسِ، لكنَّهم يختلفونَ عنهم في الصِّفات المعنويَّةِ؛ كالصَّبرِ، والتَّحمُّلِ، والإقدامِ، والعزيمةِ، وغيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[١].

١١- أنَّه يجب علينا التَّفويضُ التَّامُّ فيما لا نعلم حكمتَه مِن أحكام الله الكونيَّة أو الشَّرعيَّة؛ وجهُ ذلك: أنَّ الله عز وجل عليمٌ، وحكمتُه صادرةٌ عن علمٍ، وقد يخفى علينا وجهُ الحكمةِ، لقلةِ علمِنا[٢].

١٢- قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ذكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ شيئينِ يُقوِّيانِ قلوبَ المؤمنين:

الأول: أنَّ ما يُصيبُهم من الألم والتَّعبِ والجراح ونحوِ ذلك؛ فإنَّه يصيبُ أعداءَهم، فليس من المروءةِ الإنسانيَّة والشَّهامةِ الإسلاميَّة أن يكونوا أضعفَ منهم، قد تساوَوْا هم وإيَّاهم فيما يوجِبُ ذلك؛ لأنَّ العادةَ الجاريَةَ ألَّا يضعُفَ إلَّا مَن توالَتْ عليه الآلامُ، وانتصر عليه الأعداءُ على الدَّوامِ، لا مَن يُدالُ مَرَّةً، ويُدالُ عليه أخرى.

الثَّاني: أنَّهم يرجُون من الله ما لا يرجو الكَفَرةُ، فيرجون الفوزَ بثوابِه، والنَّجاةَ من عقابِه، بل خواصُّ المؤمنين لهم مقاصدُ عاليَة، وآمالٌ رفيعةٌ من نصر دِين الله، وإقامةِ شرعِه، واتِّساعِ دائرةِ الإسلام، وهدايةِ الضَّالِّين، وقمعِ أعداء الدِّين؛ فهذه الأمورُ توجِبُ للمؤمن المصدِّقَ زيادةَ القوة، وتضاعُفَ النَّشاطِ، والشَّجاعةَ التَّامَّة؛ لأنَّ مَن يُقاتِلُ ويصبِرُ على نيل عِزِّه الدُّنيويِّ إن ناله، ليس كمَن يُقاتِلُ لنَيل

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).

السَّعادةِ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، والفوزِ برضوانِ الله وجنَّتِه[١].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- الآيتان من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: في السَّفرِ، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أصلٌ في رخصةِ القَصْرِ، وصلاةِ الخوف[٢].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى جعل الضَّربَ في الأرض شرطًا لحصولِ هذه الرُّخصة، فلو كان الضَّربُ في الأرضِ اسمًا لمُطلَقِ الانتقالِ، لكان ذلك حاصلًا دائمًا؛ لأنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ طولَ عمره من الانتقالِ من الدَّار إلى المسجدِ، ومِن المسجد إلى السُّوقِ، وإذا كان حاصلًا دائمًا، امتنع جعلُه شرطًا لثُبوتِ هذا الحُكم، فلمَّا جعَل الله الضَّرب في الأرض شرطًا لثُبوت هذا الحُكم علِمْنا أنَّه في مطلق السَّفرِ[٣].

٣- أنَّ الخوفَ له أثرٌ في تغيير الأحكام؛ لقوله: ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٤].

٤- حِرصُ الكفَّار على فَتْنِ المُؤمنينَ حتَّى في العبادات؛ لقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٥].

٥- أنَّ جميعَ الكفَّار أعداءٌ لنا؛ لقوله: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأنَّ عداوتَهم لنا بيِّنةٌ ظاهرةٌ[(١)].

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ...﴾ هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ صلاةَ الجماعة فرضُ عينٍ مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ اللهَ تعالى أمَر بها في هذه الحالة الشَّديدةِ، وقتَ اشتدادِ الخوفِ من الأعداءِ، وحَذَرِ مهاجمتِهم، فإذا أوجَبَها في هذه الحالة الشَّديدةِ، فإيجابُها في حالة الطُّمأنينَة والأمن مِن باب أَوْلَى وأحرى.

والثَّاني: أنَّ المصلِّين صلاةَ الخوف يتركون فيها كثيرًا من الشُّروط واللَّوازم، ويُعفَى فيها عن كثيرٍ من الأفعال المُبطِلة في غيرها، وما ذاك إلَّا لتأكُّدِ وجوبِ الجماعةِ؛ لأنَّه لا تعارُضَ بين واجبٍ ومستحبٍّ، فلولا وجوبُ الجماعة لم تُترَكْ هذه الأمورُ اللَّازمةُ لأجلِها[(٢)].

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ...﴾: تدلُّ الآيةُ الكريمة على أنَّ الأَولى والأفضلَ أن يصلُّوا بإمامٍ واحدٍ، ولو تضمَّن ذلك الإخلالَ بشيءٍ لا يُخَلُّ به لو صلَّوْها بعدَّةِ أئمَّةٍ؛ وذلك لأجلِ اجتماعِ كلمةِ المسلِمين، واتِّفاقِهم، وعدمِ تفرُّقِ كلمتِهم، وليكون ذلك أوقعَ هيبةً في قلوبِ أعدائِهم[(٣)].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مَحمَلُ هذا الشَّرطِ جارٍ على غالب أحوالهم يومَئذٍ من ملازمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

قال ابن كثير: (وما أحسَنَ ما استدل به مَن ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة؛ حيث اغتُفِرَت أفعالٌ كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبةٌ لَمَا ساغ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).

لغزواتهم وسراياهم إلَّا للضَّرورة، فليس المرادُ الاحترازَ عن كونِ غيرِه فيهم، ولكن التَّنويه بكون النَّبيِّ فيهم(١).

٩- أنَّ الإمامَ مسؤولٌ عن صلاةِ المأموم، وتؤخَذُ من قوله: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾، كأنَّه يُقِيمُها لهم، وهذا يعني أنَّه يجبُ على الإمام أن يتَّبعَ السُّنَّةَ في صلاتِه، بينما لو كان يصلِّي وحده فله أن يخفِّفَ، وله أن يُثقِلَ حسَبَ ما يريد؛ لقول النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((وإذا صلَّى أحدُكم لنفسِه فليُطوِّلْ ما شاء))(٢).

١٠- وجوبُ صلاة الجماعةِ على الأعيانِ؛ لقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾؛ لأنَّها لو كانت فرضَ كفايةٍ لاكتفَى بالطَّائفةِ الأُولى، فلمَّا أُمِرَتِ الطَّائفةُ الثَّانية بالصَّلاة جماعةً، دلَّ هذا على أنَّها واجبةٌ على الأعيانِ(٣).

١١- قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، خصَّ آخرَ الصَّلاة بزيادةِ الحذرِ، إشارةً إلى أنَّ العدوَّ في أوَّلِ الصَّلاة قلَّما يَفْطِنون لكونِهم في الصَّلاةِ، بخلاف الآخرِ؛ فلهذا خُصَّ بمزيد الحذَرِ(٤).

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أنَّ السُّجودَ ركنٌ من أركانِ الصَّلاة؛ لأنَّه عبَّر به عن إتمامِ الصَّلاة(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٤٧).

والحديث رواه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٤٩).

١٣- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ جوازُ انفرادِ الإنسانِ عن الإمام لعُذرٍ، **وجهه**: أنَّ الطَّائفةَ الأولى انفرَدَت وأتمَّت صلاتَها، فإذا حصل للإنسان عذرٌ لا يستطيعُ معه إتمامَ صلاته؛ مِثلُ أن يطرأَ عليه حَقنٌ أو ما أشبهَ ذلك، فله أن ينفردَ ويُكمِلَ صلاتَه- إن كان يستفيدُ مِن هذا الانفرادِ- بحيث لا تكونُ صلاتُه مع الإمام أفضلَ من صلاتِه إذا انفردَ[١].

١٤- في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ جوازُ إقامة جماعتينِ في مكان واحدٍ للحاجة، ومثال الحاجة: أن يكون المسجدُ ضيِّقًا؛ كالمساجدِ الَّتي تكون في السُّوقِ المزدَحِم بالباعة والمشتَرِين، فلا يسَعُهم أن يُصلُّوا، ولا يتمكَّنونَ من المتابعة في السُّوقِ، فنقول: لا بأسَ أن تصلِّي جماعةٌ أُولى، ثمَّ تأتي جماعةٌ أخرى[٢].

١٥- وجوبُ أخْذ الأسلحةِ في هذه الصَّلاة؛ فقوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أمرٌ، وظاهِرُ الأمر للوجوب، فيقتضي أن يكون أخذُ السِّلاحِ واجبًا[٣].

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أمَر سبحانه بأخذِ السِّلاحِ، والحذرِ في صلاة الخوفِ، وهذا وإن كان فيه حركةٌ واشتغالٌ عن بعض أحوال الصَّلاةِ، فإنَّ فيه مصلحةً راجحةً، وهي الجمعُ بين الصَّلاةِ والجهادِ، والحَذَرُ من الأعداء الحريصينِ غايةَ الحِرص على الإيقاعِ بالمسلمينَ، والميلِ عليهم وعلى أمتعتِهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٠). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٨).

أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾[(١)].

١٧- قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ يُرشدُ إلى وجوبِ الحَذَرِ مِن العدوِّ، وعن جميع المضارِّ المظنونةِ، ويُرشِد إلى إتقانِ المكائِد للتَّخلُّص مِن الخطر[(٢)].

١٨- قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ فيه الرخصة في حملِ النَّجاسةِ إذا دعت الحاجة لذلك؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ الأسلحة ولا سيما بعد القتال لا تخلو مِن دماء، وهذا بناءً على القولِ بأنَّ الدمَ نجسٌ[(٣)].

١٩- يؤخذُ من قوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ...﴾ أنَّ الكفَّارَ يحرصونَ على عدم تسلُّحِ المسلمين، وهذا صحيحٌ؛ فالكفَّار يودُّون أن نغفُلَ عن أسلحتِنا، فكيف يُعْطوننا؟! وتدلُّ على شدَّةِ حَنَقِ الكفَّار بالنِّسبة للإغارةِ علينا؛ فإنَّ قوله: ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ يدلُّ على الحَنَقِ وشدَّةِ الغيظ، وأنَّهم مقبِلون بقوَّةٍ[(٤)].

٢٠- أنَّ أعداءَ المسلمين يحبُّون الإجهازَ على المسلمينَ بسُرعة، وتؤخذُ من قوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ فسياسةُ الكفَّار واحدةٌ مِن أوَّلِ الأمر إلى آخره، يريدونَ القضاءَ على المسلمينَ بسرعة، مرَّةً واحدة؛ لأنَّ التَّباطُؤَ يؤدِّي إلى فواتِ الفرصة عندهم، فيقولون: لا نفوِّتُ الفرصة[(٥)].

٢١- قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾ خصَّ رفعَ الجُناح في وَضْع السِّلاحِ بهاتين الحالتين؛ وذلك يُوجِب أنَّ فيما وراء هاتين الحالتين يكونُ الإثمُ والجُناحُ حاصلًا بسبب وضعِ السِّلاح، وهذا يُفيد إيجابَ حملِها عند عدم العُذر[١].

٢٢- قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ رخصةٌ لهم في وضعِ الأسلحة عند المشقَّة، وقد صار ما هو أكملُ في أداء الصَّلاة رخصةً هنا؛ لأنَّ الأمورَ بمقاصدها، وما يحصُلُ عنها من المصالح والمفاسد؛ ولذلك قيَّد الرُّخصةَ مع أخذِ الحَذَرِ[٢].

٢٣- قول الله تعالى: ﴿أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾، أي: متَّصفين بالمَرَض، وكأنَّ التَّعبيرَ بالوصف إشارةٌ إلى أنَّ أدنى شيءٍ منه لا يرخِّصُ في وضعِ السِّلاحِ[٣].

٢٤- التَّحذيرُ من الاغترار بما يُبديه الكافرُ من الموالاةِ، **وجهُه**: أنَّ العالِمَ بما في الصُّدورِ، والعالِمَ بكلِّ حالٍ- سبحانه وتعالى- أخبرنا بأنَّ الكافرين كانوا لنا عدوًّا مُبينًا، ولا أحدَ أعلمُ مِن الله بعبادِ الله: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[٤].

٢٥- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، إنَّما قال (عدوًّا) ولم يقُلْ (أعداء)؛ لأنَّ لفظ العدوِّ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ[٥].

٢٦- أنَّ الذِّكرَ بعد الصَّلاة لا يُشترط فيه أن يجلس الإنسانُ حتَّى ينهيَه، بل

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٠٤).

له أن يذكُرَ ولو كان قد انصرَفَ؛ لقوله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، أي: على أيِّ حال[١].

٢٧- في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أنَّ الذِّكر لا ينقُصُ إذا قعد الإنسانُ من قيامٍ، أو قام من قعودٍ أو اضطجع، وهذا هو الأصلُ؛ أنَّه لا ينقُصُ بكون الإنسان قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا، اللَّهمَّ إلَّا أن يترتَّب على ذلك أنَّه إذا كان قائمًا فهو أنشَطُ له، لكنَّ الغالب أن القاعدَ أخشَعُ؛ لأنَّ القائمَ لا يقوم ليقفَ، وإنَّما ليمشيَ[٢].

٢٨- الصَّلواتُ الخمسُ إنَّما كانت مَوْقُوتةً؛ لتكون مذكِّرةً لجميعِ أفراد المؤمنين بربِّهم في الأوقاتِ المختلفة؛ لئلَّا تحمِلَهم الغفلةُ على الشَّرِّ، أو التَّقصيرِ في الخيرِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[٣].

٢٩- قوله سبحانه: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على جميع الشُّروط، **وجهه**: أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر صلاةَ الخوف، ثمَّ صلاةَ الأمنِ- بيَّن أنَّ هذا مِن أجل مراعاةِ الوقتِ؛ ولهذا مَن لم يجدْ ماءً تيمَّم، حتَّى يصلِّيَ في الوقت، وإذا لم يجدْ ماءً ولا ترابًا صلَّى على حسَب حالِه، وإذا لم يجدْ ثوبًا يستُرُ به العورةَ صلَّى على حسَب حاله، ولا ينتظر حتَّى يحصُلَ على ثوبٍ؛ لأنَّ الوقتَ مقدَّمٌ على كلِّ شيءٍ[٤].

٣٠- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾، الابتغاءُ مصدرُ (ابتغى) بمعنى (بغى) المتعدِّي، أي: الطَّلَب، والمراد به هنا: المبادَأَةُ بالغزو، وألَّا يتقاعَسوا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٨).

حتَّى يكونَ المشركونَ هم المبتدَئينَ بالغزو، والمُبادِئُ بالغزوِ له رعبٌ في قلوبِ أعدائه(١).

٣١- الإشارةُ إلى أنَّه لا يُشهَدُ للشَّهيدِ بأنَّه في الجنَّة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ فالرَّجاءُ قد يتحقَّقُ وقد لا يتحقَّق؛ ولهذا نُهِيَ أن نقولَ عن شخص معيَّنٍ بأنَّه شهيد، إلَّا مَن شهد له الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فمن شهِد له الرَّسولُ بالشَّهادة شهِدنا له، وكذلك مَن شهِد له القرآنُ؛ كما في غزوة أُحُدٍ(٢).

٣٢- قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لا يدلُّ على أنَّه كان فمضى؛ لأنَّ ﴿كَانَ﴾ هنا مسلوبةُ الزَّمان، وإنَّما أُتِيَ بها لتحقيقِ هذين الاسمينِ وما تضمَّناه من صفةٍ(٣).

٣٣- إثباتُ كمالِ الله عزَّ وجلَّ في حكمته تعالى؛ حيث قرَنَ بين العِلم والحكمةِ إشارةً إلى أنَّ حكمتَه صادرةٌ عن عِلمٍ، وليست عن صُدفة؛ لأنَّ الإنسانَ قد يفعل الفِعلَ ويكون مُحكَمًا مُتقنًا، لكن على غيرِ علمٍ، بل صدفةً؛ كما يقال: (رُبَّ رميةٍ مِن غير رامٍ)، لكنَّ حكمةَ الله عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بالعِلْم، مبنيَّةٌ عليه(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جملة مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، مسُوقة لبيان أحكام قَصْرِ الصَّلاة(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٠٨).

- وفيه انتقالٌ إلى تشريعٍ آخَرَ بمناسبةِ ذِكْرِ السَّفرِ للخروجِ مِن سُلطةِ الكفر، على عادةِ القرآنِ في تَفنينِ أغراضِه، والتماسِ مُناسباتِها[(١)].

٢- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: تعليلٌ لِمَا قبْله، باعتبارِ تعلُّلِه بما ذُكر، أو لِمَا يُفهَم مِن الكلامِ من كونِ فِتنتِهم متوقَّعةً؛ فإنَّ كمالَ عداوتِهم للمؤمنين من موجِبات التعرُّض لهم بسوء[(٢)].

٣- **قوله:** ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ ...﴾ الآية، فيها بيانٌ لِمَا قبْلَها من النَّصِّ المُجمَلِ الواردِ في مَشروعيَّة قَصرِ الصَّلاةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ...﴾ الآيةَ، وفيها تَصويرٌ لكيفيَّةِ هذا القَصرِ عند الضَّرورةِ التَّامَّةِ، وتخصيصُ بيانِ القُرآنِ بهذه الصُّورةِ مع الاكتفاءِ فيما عَداها من الصُّورِ بالبيانِ بطَريقِ السُّنَّةِ؛ لمزيدِ حاجتِها إليه؛ لِمَا فيها مِن كثرةِ التَّغييرِ عن الهيئةِ الأصليَّة[(٣)].

- وفي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فإنَّه لَمَّا قال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ علم أنَّ ثمة طائفةً أخرى؛ فالضمير في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ للطَّائفةِ باعتبار أفرادها، وكذلك ضميرُ قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ للطَّائفةِ الَّتي مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٤)].

- قوله: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ﴾: فيه تكرار[(٥)]، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٣).

- قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: لعلَّ زِيادةَ الأَمْرِ بالحذرِ في هذِه المرَّةِ؛ لكونِها مظِنَّةً لوقوفِ الكَفَرة على كونِ الطائفةِ القائمةِ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في شُغلٍ شاغلٍ، وأمَّا قبْلَها فربَّما يَظنُّونَهم قائِمينَ للحربِ، وتكليفُ كلٍّ مِن الطائفتينَ بما ذُكِر؛ لأنَّ الاشتغالَ بالصَّلاة مظنَّةٌ لإلقاءِ السِّلاحِ والإعراضِ عن غيرِها، ومظنَّةٌ كذلك لهجومِ العدوِّ[١].

٤- **قوله:** ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ الجملة استئنافيَّةٌ، مسُوقةٌ لتعليل الأمرِ المذكورِ، وهو قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وفيها: التفاتٌ؛ إذ إنَّ الخِطابَ للفريقين بطريق الالتفاتِ، أي: تمنَّوْا أنْ ينالوا غِرَّةً، ويَنتهزوا فرصةً، فيشدُّوا عليكم شَدَّةً واحدةً[٢].

- قوله: ﴿مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: استُعمِلتْ صِيغة (المرَّة) هنا للكِناية عن القوَّة والشِّدَّة؛ وذلك أنَّ الفعلَ الشَّديدَ القويَّ يأتي بالغرَضِ منه سريعًا دون معاودةِ علاجٍ، فلا يتكرَّر الفعلُ لتَحصيلِ الغرض، وأكَّد معنى المرَّة المستفادَ من صِيغة (فَعْلة) بقوله: ﴿وَٰحِدَةٗ﴾؛ تَنبيهًا على قصْدِ معنى الكناية؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المصدرَ لمجرَّد التَّأكيدِ لقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ﴾[٣].

- قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وقوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾: فيه تكرارٌ[٤]، وهو يُفيدُ تأكيدَ نفْيِ الجُناح.

٥- **قَوْلُهُ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٢).

مُقرِّر لِمَا قبلها؛ من أجْل تشجيعِ المسلمين؛ لأنَّه لَمَّا كرَّر الأمْرَ بأخْذِ السِّلاح والحَذَر، خِيفَ أن تثُورَ في نفوسِ المسلمين مَخافةٌ من العدوِّ؛ من شدَّةِ التَّحذيرِ منه، فعقَّب ذلك بأنَّ اللهَ أعدَّ للكافرين عذابًا مُهينًا، وهو عذابُ الهزيمةِ والقتلِ والأَسْر، ولِيعلموا أنَّ الأمرَ بالحَذرِ ليس لذلك، وإنَّما هو تعبُّد من اللهِ تعالى بتَعاطي الأسبابِ المشروعةِ[1].

- وقيل: هو تعليلٌ للأمْر بأخْذِ الحذرِ؛ فإنَّه أعدَّ لهم عذابًا مُهينًا بأنْ يخذُلَهم وينصُرَكم عليهم، فاهتمُّوا بأموركم، ولا تُهمِلوا في مباشرة الأسباب؛ كي يحُلَّ بهم عذابُه بأيديكم، وليعلموا أنَّ الأمر بالحزم ليس لضعفِهم، وغلَبَةِ عدوِّهم، بل لأنَّ الواجبَ أن يُحافِظوا في الأمورِ على مراسم التَّيقُّظ والتَّدبُّر فيتوكَّلوا على الله سبحانه وتعالى[2].

٦- **قوله تعالى:** ﴿**فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾ تذييلٌ مسُوقٌ مساقَ التَّعليلِ؛ لوجوبِ المحافظةِ على الصَّلاة في أوقاتها حتَّى في وقتِ الخوفِ؛ ولو مع القَصْرِ منها[3].

- وقوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه إظهارٌ لِمَا كان الأصل فيه الإضمارُ- حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يَقُل: (إِنَّها)-؛ تَنبيهًا على عَظيمِ قدْرِ الصَّلاةِ[4].

٧- **قوله تعالى:** ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٨٥).

كَمَا تَأۡلَمُونَ ﴾ هذا تشجيعٌ لنفوسِ المُؤْمنين، وتحقيرٌ لأمْرِ الكَفَرة، ثم تأَكَّدَ التشجيعُ بقوله: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ ﴾ وهذا برهانٌ بَيِّنٌ، ينبغي بحَسَبِهِ أنْ تقوى نفوسُ المؤمنينَ[1].

٨- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ جاءتْ لفظة (عليمًا) و(حَكيمًا) على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغةِ في وصْف الله تعالى بالعِلم والحكمة؛ فإنَّه سبحانه يعلم كلَّ شيء، ويعلم الأعمالَ، ويعلَمُ ما في الضمائر[2]، وكذلك متَّصفٌ بالحِكمةِ في كلِّ أفعاله سبحانه، مع ما تُفِيدُه الجملةُ الاسميَّةُ من التَّأكيد.



(١) ((تفسير الثعالبي)) (٢/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٨).

الآيات (١٠٥ - ١٠٩)

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن
لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا
تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾
يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ
مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾: أي: مُخاصِمًا تُخاصِمُ عن الخائِنين، وتَدْفَعُ عنهُم مَن طَلَبَهم بِحَقِّه الَّذي خَانوه فيه، فالخَصِيمُ هنا بمعنَى المنتَصِر المدافِع، والخَصيمُ: المبالِغ في الخِصامِ، وأصل (خصم): المنازَعة[1].

﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: أي يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخِيانةِ، ويختانون: يخُونونَ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، وكذلك: تحرُّكُ شهوةِ الإنسانِ لتحرِّي الخيانةِ[2].

﴿خَوَّانًا﴾: أي: مُبالِغًا في الخيانةِ، مُصِرًّا عليها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣، ١٧٣).

﴿أَثِيمًا ﴾: أي: مبالغًا في إثمه، لا يُقلِع عنه، والإثم والآثام: اسمٌ للأفعال المُبَطِّئة عن الثَّواب، أو الذَّنبُ الَّذي يستحقُّ العقوبةَ عليه، وأصل الإثم: البُطء والتَّأخُّر[١].

﴿يُبَيِّتُونَ ﴾: يُدبِّرون ليلًا، يقال لكلِّ فعل دُبِّر فيه بالليل: بُيِّتَ، وأصل البيت: مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يقال: بات: أقام باللَّيل، ويُطلق أيضًا على المآب، ومجمع الشَّمل[٢].

﴿مُحِيطًا ﴾: أي: مُحصِيًا وعالِمًا، لا يَخْفَى عَليهِ شَيْءٌ من أعمالِهم، وحَافِظًا لذلكَ علَيْهم، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسِه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضه المقصود به، وبإيجاده، وما يكونُ به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا للهِ تعالى، وأصل (حوط) هو الشَّيْءُ يُطِيفُ بالشَّيْءِ، ومنه الحائِط؛ لإحاطتِه بما يدورُ عليه، واستُعمِلَ في القُدرة والعِلم والإهلاكِ[٣].

﴿وَكِيلًا ﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيل الرجل في مالِه هو الَّذي كفَلَه له، وقام به، وأصل (وَكَلَ): يدلُّ على اعتماد غيرِك في أمرِك[٤].

المَعنَى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه هو مَن أنزل إليه الكتاب بالحقِّ، ومشتملًا على الحقِّ، ليحكُمَ بين النَّاس بما علَّمه الله تعالى ممَّا أنزله في كتابه،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥١- ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥- ٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ناهيًا إيَّاه عن المخاصَمة والمدافعة عمَّن عِلِم خيانتَه، وأمَره تعالى أن يستغفر اللهَ؛ فإنَّه سبحانه غفورٌ رحيم.

ثمَّ نهاه تعالى عن المجادلة والدِّفاع عن الَّذين يخُونون أنفسَهم؛ فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ مَن اتَّصف بالخيانةِ، وارتكابِ الإثمِ.

ثمَّ ذكَر الله عن هؤلاء الخائنين أنَّهم يستترونَ عن النَّاس عند ارتكابِهم سيِّئَ العملِ، ولا يستترون من الله، وهو معهم أينما كانوا، مُطَّلِعٌ على كلِّ ما يفعلونه، خصوصًا حين يُدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه من القول، والله قد أحاط عِلمًا بجميع أعمالِهم.

ثمَّ يخاطبُ الله عباده قائلًا لهم: هَبْكُم جادلتُم عن هؤلاء الخَوَنة في الحياة الدُّنيا، ونفَعهم جدالُكم عند الخَلْق، فمن الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ حين تقومُ عليهم الحُجَّة، أمَّن سيكون وكيلًا عنهم؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى بمجاهدة الكفَّار بيَّن أنَّ الأمرَ وإن كان كذلك، فإنَّه لا تجوزُ الخيانةُ معهم، ولا إلحاقُ ما لم يفعَلوا بهم، بل الواجبُ في الدِّين أن يُحكَمَ للكافرِ أوْ عليهِ بما أنزَل على رسولِه، وألَّا يلحَقَ الكافرَ حَيْفٌ لأجلِ كُفْره، أو إرضاءً لطرفٍ آخر ينتسب إلى الإسلامِ[١].

وأيضًا لَمَّا أمَر المؤمنينَ بأن يأخذوا حِذرَهم من الأعداءِ، ويستعدُّوا لمجاهدَتِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١١).

حفظًا للحقِّ أن يُؤتَى من الخارج- أمرهم بأن يقوموا بما يحفَظُه في نفسِه، فلا يؤتى من الدَّاخل، وأن يُقِيموه على وجهِه كما أمر اللهُ تعالى، ولا يُحَابُوا فيه أحدًا[١]، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك- يا محمَّدُ- القرآنَ، وهو حقٌّ مِن الله تعالى، نزل نزولًا متلبِّسًا بالحقِّ، ومشتملًا أيضًا على الحقِّ؛ فأخباره صِدْقٌ، وأوامرُه ونواهيه عَدْلٌ[٢].

﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾.

أي: لتقضيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم لا بهواكَ، بل بما علَّمك اللهُ ممَّا أنزَلَه إليك من كتابه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٢١).

وقال عن وجه مناسبة هذه الآيةِ لمجموع الآياتِ التي سبقتْها: (وأمَّا اتِّصالها بمجموع ما قبلها فقد علِمْنا مما مرَّ أن أول السُّورة في أحكام النساء والبيوت إلى قوله -تعالى-: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، ومن هذه الآية إلى هنا تنوَّعت الآياتُ بالانتقال من الأحكام العامة إلى مجادلة اليهود، وبيان حالهم مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنين، وتخلَّل ذلك الأمر بطاعة الله ورسوله، والنَّعي على المنافقين الذين يُريدون أن يَتحاكموا إلى الطاغوت، كاليهود، وتأكيد الأمر بطاعة الرَّسول، وبيان أنه تعالى لم يبعَثْ رسولًا إلَّا ليُطاع، والترغيب في هذه الطَّاعة، ثم انتقل من ذلك إلى أحكام القتال وبيان حال المؤمنين والكافرين والمنافقين فيه، وقد عاد في هذا السياق أيضًا إلى تأكيد طاعة الرَّسول وحال المنافقين فيها، فناسَب أن ينتقل الكلام من هذا السياق إلى بيان ما يجب على الرَّسول نفسِه أن يحكُم به بعدما حتَّم الله التَّحاكم إليه وأمره بطاعته فيما يحكم ويأمر به).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٠-١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ١٩٩-٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أيضًا معنى الحُكم على أعمال الناس، فكما

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ بالحُكم بين النَّاس المتضمِّنِ للعدلِ والقِسط، نهاه عن الجَوْرِ والظُّلم الَّذي هو ضدُّ العدل، فقال[1]:

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾.

أي: ولا تخاصِمْ وتحاجِجْ عمَّن عرفتَ خيانتَه، من مدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عنه[2].

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

أي: واطلُبْ مغفرتَه، وهي سترُ الذَّنب، والتَّجاوُزُ عن المؤاخَذة به[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى هو الَّذي يغفِرُ الذُّنوب، ويرحم كلَّ مَن استَغْفره وطلَب رحمتَه[4].

يحكُمُ بينهم في فصل الخصومات، يحكُم بينهم أيضًا في أحكام أعمالهم، فيقول: هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ، وهذا واجبٌ، وهذا محرَّم، وما أشبه ذلك، وقيل: يحتمل قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أيضًا معنى الحُكم بالاجتهاد. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧، ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الخِصام لكلِّ من وقَعَت منه خيانةٌ ما، أتبَعَه النَّهيَ عن المجادلة عمَّن تعمَّد الخيانةَ، فقال سبحانه وتعالى[1]:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ ﴾.

أي: ولا تُدافِعْ - يا محمَّدُ - عمَّن يخُونون أنفسَهم، فيجعلونها خائنةً بارتكابهم الخيانةَ، فلا تُحاجِجْ وتخاصِمْ عنهم مَن يطالبُهم بحقوقه، وما خانُوه فيه[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ مَن كان من صفاتِه خيانةُ النَّاس، وركوبُ الإثم في ذلك، وفي غيره، ممَّا حرَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه[3].

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ ﴾.

﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: إنَّهم حريصونَ على إخفاءِ قبائحهم عن النَّاس، فيتوارَوْنَ منهم تجنُّبًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٠-٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٨٢-١٨٣).

للفضيحة بينهم، إمَّا حياءً منهم، أو خوفًا منهم، أو لئلَّا يُنكِروا عليهم سوءَ أعمالهم[١].

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

أي: إنَّهم لا يُبالون بنظرِ الله تعالى إليهم، واطِّلاعِه على قبائحِهم الَّتي يبارزونه بها، وهو الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ مِن أعمالهم، وبيدِه العقابُ وتعجيلُ العذابِ؛ فهو أحقُّ أن يُخافَ ويُستحيَا منه جلَّ وعلا[٢].

﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: حيث إنَّهم يُهيِّئون ويدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه سبحانه من القولِ؛ كتبرئةِ الجاني، ورميِ البريءِ بالجناية[٣].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أحاط علمًا بأعمالِهم، وأحصاها عليهم، حتَّى يجازيَهم عليها[٤].

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٢-٤٧٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٩).

أي: هَبْ أنَّكم جادَلْتم عنهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، ودفَعَ عنهم جدالُكم العارَ والفضيحةَ عند الخَلْق(١).

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: فمَن هذا الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ، حين تتوجَّه عليهم الحُجَّةُ، ويُقامُ عليهم من الشُّهودِ ما لا يُمكِنُ معه الإنكارُ؟ فيومئذٍ لا يدافعُ عنهم عنده سبحانه أحدٌ فيما يحُلُّ بهم من العذابِ(٢).

﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾.

أي: لا أحدَ يكونُ نائبًا لهؤلاء الخائنينَ في ترويجِ دعواهم عندَ الله تعالى يومَ القيامةِ(٣).

الفَوائِد التربويَّة:

١- يُستفادُ مِن قول الله تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ أنَّ الأحكامَ كلَّها من الله تعالى، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يحيدَ عن شيءٍ منها طلَبًا لرضا أحدٍ(٤).

٢- قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ فيه النَّهيُ عن معاونة الآثِم، وهذا مطابقٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾(٥) [المائدة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٢-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٣).

٢].

٣- ترهيبُ المسلِم مِن أن يعلَمَ مِن الظَّالم كونَه ظالِمًا، ثمَّ يُعِينَه على ذلك الظُّلم، ويحمِلَه عليه ويرغِّبَه فيه؛ يُستفادُ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[١].

٤- النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لم يكُنْ موجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً، وإنَّما هو تشريعٌ وُجِّه إلى المكلَّفينَ كافَّةً؛ فهؤلاء الخائنونَ يوجَدون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي جعلِ النَّهيِ بصيغة الخطابِ له- وهو أعدلُ النَّاسِ وأكمَلُهم- مبالغةٌ في التَّحذيرِ مِن هذه الخَلَّةِ المعهودةِ من الحُكَّامِ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (الاختيانُ) و(الخيانة) بمعنَى الجِناية والظُّلم والإثم، وهذا يشمَلُ النَّهيَ عن المجادَلةِ عمَّن أذنَب، وتوجَّه عليه عقوبةٌ مِن حدٍّ أو تعزيرٍ، فإنَّه لا يجادَلُ عنه بدفعِ ما صدَر منه من الخيانةِ، أو بدفعِ ما ترتَّبَ على ذلك مِن العقوبةِ الشَّرعيَّة[٣].

٦- أنَّ الخائن لغيرِه خائنٌ في الحقيقة لنفسِه؛ حيث أوقَعها في المآثِمِ والخيانةِ، فلا يظُنَّ الخائنُ الَّذي يكتسب بخيانتِه ما يكتسِبُ أنَّه رابحٌ، بل هو خائنٌ لنفسِه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾[٤].

٧- أنَّ الخيانةَ مِن كبائر الذُّنوب، يؤخذُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٣).

﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾؛ لأنَّه إذا رُتِّب على العملِ عقوبةٌ خاصَّة فهو من الكبائرِ[١].

٨- في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ التَّحذيرُ من الخيانةِ؛ لكونِ الله تعالى نفى محبَّته للخائن الأثيم، وفيه أيضًا التَّرغيبُ في أداءِ الأمانة؛ لأنَّه إذا وقع الذَّمُّ على وصفٍ لزِم أن يكونَ المدحُ في ضدِّه[٢].

٩- قول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ تضمَّنَ الوعيدَ الشَّديدَ والتَّقريعَ البالغَ؛ حيث يرتكبون المعاصيَ مستترينَ بها، مع علمِهم -إن كانوا مؤمنين- أنَّهم في حضرتِه لا سُترةَ ولا غفلةَ ولا غَيبةَ، وكفى بهذا زاجرًا للإنسانِ عن المعاصي[٣].

١٠- أنَّ اللهَ سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ، وأنَّ مَن حاوَل أن يُخفِيَ عن اللهِ شيئًا فإنَّه قد ظنَّ بربِّه ظنَّ السَّوء، ومع ذلك لن ينفعَه هذا الظَّنُّ؛ لقوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[٤].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾، والنُّزولُ لا يكون إلَّا من عُلوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ نازلًا لزِم أن يكونَ المتكلِّمُ به عاليًا[٥].

٢- في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جوازُ كتابةِ القرآنِ، وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه بين الأمَّة، بل قد تكون كتابتُه واجبةً[٦].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٧٥).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فيه دليلُ جوازِ اجتهاد النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ اجتهادَه كالنَّصِّ؛ لأنَّ الله تعالى أخبَرَ أنَّه يُريه ذلك[1].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ استُدلَّ به على وجوب الاجتهادِ في فهم الشَّريعةِ[2].

٥- إثباتُ العِلَل في أفعالِ الله الشَّرعيَّة والكونيَّة، وتؤخَذ من قوله: ﴿لِتَحْكُمَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ للتَّعليل، ولا شكَّ أنَّ تعليلَ أحكام الله عزَّ وجلَّ ثابتٌ ثبوتًا قطعيًّا لا إشكالَ فيه، والحكمةُ من تمامِ صفاتِه سبحانه[3].

٦- قول الله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (أراك) أي عرَّفك وأوحَى إليك، وأصل (رأى) للرُّؤية البَصريَّة، فأُطلِقت على ما يُدرَكُ بوجه اليقينِ؛ لمشابَهته الشَّيءَ المُشاهَدَ؛ لكونِها جاريةً مجرَى الرُّؤية في القوَّة والظهورِ، والخُلوص مِن وُجوهِ الريبِ[4].

٧- إذا ذكرَ اللهُ تعالى لِفِعْلٍ حكمةً لم يَلْزَمْ ألَّا تكونَ له حكمةٌ أخرى- ومثل ذلك كثيرٌ في كلامِ الله عزَّ وجلَّ - لكِنْ لا بدَّ لتخصيصِ تلك الحِكْمَة بالذِّكر في ذلك الموْضِع من مناسبةٍ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، وفي إنزالِه أيضًا تبشيرٌ وإنذارٌ، وأمرٌ ونهْيٌ، ووعْدٌ ووعيدٌ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٢).
(٥) ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٣٧- ٤٣٩).

٨- في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ دليلٌ على تحريمِ الخصومةِ في باطلٍ، والنِّيابةِ عن المبطِلِ في الخصوماتِ الدِّينيَّة والحقوقِ الدُّنيويةِ[١]. وهو بابٌ في غايةِ الأهميةِ للمُحامين وغيرِهم.

٩- يدُلُّ مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ على جواز الدُّخولِ في نيابةِ الخصومة لِمَن لم يُعرَفْ منه ظُلْم[٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فيه أنَّه لا يجوزُ الجدالُ عن الخائنِ، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يُجادِلَ عن نفْسِه إذا كانتْ خائنةً، لها في السِّرِّ أهواءٌ وأفعالٌ باطنةٌ تَخفَى على النَّاسِ؛ وقدْ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥]؛ فإنَّه يَعتذِرُ عن نفْسِه بأعذارٍ ويُجادِلُ عنها وهو يُبصِرُها بخِلافِ ذلك[٣].

١١- أنَّه يجبُ على الحاكمِ أن يتأنَّى في حُكمِه، وألَّا يتعجَّلَ، بل يتريَّثُ، لا سيَّما مع وجودِ قرائنَ، فمجرد هَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومَيلِه إلى هؤلاء فيه شيءٌ من التَّقصيرِ؛ ولهذا قال الله له: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾[٤].

١٢- استنبَط بعضُ العلماءِ: أنَّه ينبغي لمن استُفتِي أن يقدِّمَ بين يدَيْ فتواه الاستغفارَ؛ لأنَّ الله قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾؛ ولأنَّ الذُّنوب تحُولُ بين الإنسانِ وبين معرفةِ الصَّواب[٥].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (يختانون) بمعنى يخُونون،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٨١).

وهو افتعالٌ دالٌّ على التَّكلُّف والمحاولةِ لقصد المبالغةِ في الخيانة[(١)].

١٤- إثبات الرِّضا لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ووجهه: أنَّ نفي الرِّضا عن هؤلاء يدلُّ على ثبوتِه لغيرِهم؛ إذ لو كان منتفيًا عن الجميعِ ما حسُنَ أن يُنفى عن هؤلاء[(٢)].

١٥- أنَّ النَّاسَ قد يتناصَرون بالباطلِ؛ قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[(٣)].

١٦- في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تحريمُ المحاماةِ إذا علِم المحامي أنَّ صاحبَه مُبطِلٌ، وجهُ ذلك: أنَّ الله أنكَرَ على هؤلاءِ أن يجادلوا عن صاحِبهم، أمَّا إذا كان المحامي يريدُ أن يدافعَ عن الحقِّ بإثباتِه، فهذا جائزٌ، بل قد يكون واجبًا، كما لو وكَّلك شخصٌ لا يعرفُ ولا يكاد يُبِينُ، أن تدافعَ عنه، فهذا لا بأسَ به[(٤)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ الإتيانُ بلفظةِ ﴿خَصِيمًا﴾ على صِيغة (فعيل)؛ للمبالغة مِن خَصَم[(٥)].

٢- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أتى باللَّفظتين ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على صيغة (فعيل)؛ للمُبالغةِ في وصْفه سبحانه بالمغفرةِ والرحمةِ لمن يستغفرُه[(٦)]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) ينظر ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٦)، وفيه قال أبو حيَّان: (خصيمًا أي: مخاصمًا، كجليسٍ بمعنى مجالس، ويحتمل أن يكونَ للمبالغة من خصم).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٢٩).

وفيه تأكيدُ الخبر بـ: (إنَّ)، واسميَّةِ الجملة.

٣- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: الإتيانُ بصِيغة المبالغة (فعَّال) في الخِيانة، و(فعيل) في الإثم؛ للمبالَغة في شَناعةِ الاتِّصافِ بهذه الأوصافِ؛ فإنَّ قوله: ﴿خَوَّانًا﴾ يعني أنَّه كثيرُ الخيانة، مُفرِطٌ فيها، و﴿أَثِيمًا﴾ يعني أنَّه مُنهمِكٌ في الإثم، وتعليقُ عدمِ المحبَّة المرادُ منه البُغضُ والسَّخَط بصِيغة المبالغةِ[١]، مع ما فيه مِن تأكيدِ الخبر بـ: (إنَّ)، واسميَّة الجملة.

- وتَقدَّمت صِفةُ الخيانةِ على صِفةِ الإثم؛ لأنَّها سببٌ للإثم، ولمراعاة تواخِي الفواصِل[٢].

٤- **قوله:** ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

- فيه: توبيخٌ عظيمٌ وتقريعٌ؛ حيثُ يَرتكِبون المعاصِيَ مُستترِينَ بها عنِ الناسِ إنِ اطَّلعوا عليها[٣].

- وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾: فيه ما يُعرَف في البَلاغة بـ (التَّتميم)؛ للإنكارِ عليهم والتَّغليظِ لقُبْحِ فِعلهم؛ لأنَّ حياءَ الإنسانِ ممَّن يَصحبُه أكثرُ مِن حيائِه وحْدَه[٤].

٥- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: فيه كنايةٌ عن المبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلم، وفيه: وعيدٌ من حيث إنَّهم وإنْ كانوا يُخفُون كيفيَّةَ المكرِ والخِداعِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٦٢).

النَّاس، فإنَّها ظاهرةٌ في عِلْم الله(١).

٦- **قوله:** ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ ﴾ فيه: التفاتٌ؛ فقد انتقَل مِن ضميرِ الغَيبةِ إلى الخِطاب؛ وفيه إيذانٌ بأنَّ تَعديدَ جِنايتِهم يُوجبُ مشافهتَهم بالتَّوبيخ والتَّقريع(٢).

٧- **قَوْله:** ﴿ فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ ﴾: استفهامٌ معناه النَّفيُ، أي: لا أحدَ يُجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامةِ إذا حَلَّ بهم عذابُه(٣)، وهو وعيدٌ محْضٌ، أي: إنَّ الله يعلَمُ حقيقةَ الأمرِ؛ فلا يُمكِن أن يُلبَّسَ عليه بجدالٍ ولا غيرِه(٤).

٨- **قوله:** ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾: ﴿أَم ﴾ منقطعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ، و﴿مَنْ ﴾ استفهامٌ مُستعمَلٌ في الإنكار(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٥/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٥).

الآيات (١١٠ - ١١٢)

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا
١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١
وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢
وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿خَطِيٓـَٔةً﴾: الخَطيئة: فعيلةٌ من الخطأ، وهو العدولُ عن القصدِ والجِهةِ، يقال: خَطِئَ الرَّجلُ يَخطَأُ خِطْأً-: إذا تعمَّد الذَّنب[١].

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: أي: ظُلمًا، والبُهْتَانُ كذلك الكذِبُ، أو كلُّ فِعل مستبشَعٍ يُتعاطَى باليدِ والرِّجل مِن تناوُل ما لا يجوزُ، والمَشْي إلى ما يقبُحُ[٢].

﴿لَهَمَّت﴾: الهمُّ: جرَيان الشَّيءِ في القلب، وأصل (هَمَم): يدلُّ على ذَوبٍ وجريانٍ ودبيبٍ[٣].

المَعنَى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه مَن يعملْ عملًا يُسيءُ به إلى غيره، أو يكتسِبْ ما يجعلُه يستحقُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

العقوبةَ من الله، ثمَّ يستغفرِ اللهَ تعالى عمَّا اقترَف؛ فإنَّه سيجدُ مِن الله مغفرةً لذنوبه، ورحمةً به، ومَن يقترفْ ذنبًا متعمِّدًا فإنَّما يجني بذلك على نفسِه وبالَ الذَّنبِ وعاقبتَه، وكان الله عليمًا حكيمًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه مَن يصدُرْ منه ذنبٌ غيرَ متعمَّدٍ له، أو يرتكِبْه عامدًا ثمَّ يتَّهِمْ بهذا الذَّنبِ الَّذي اقترفه مَن هو بَريءٌ منه، فقد تحمَّلَ بعَمَله القبيحِ هذا فِرْيَةً على ذلك البريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا.

ثمَّ يخاطبُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لولا أنَّ الله تفضَّل عليه فحَفِظَه وعصَمه، لهمَّتْ طائفةٌ مِن الَّذين يختانون أنفسَهم أن يُضلُّوه عن طريق الحقِّ، وما يُضلُّون في الحقيقة إلَّا أنفسَهم، ولا يمكن أن يضرُّوه عليه الصَّلاة والسَّلام بشيءٍ، ثمَّ ذكَّره تعالى بنعمتِه عليه وفضلِه حين أنزل عليه القرآنَ، والسنَّة، ومعرفة أسرار الشَّريعة، وعلَّمه سبحانه وتعالى ما لم يكُنْ يعلَمُه مِن قبلِ تعليمِ الله سبحانه وتعالى له، وكان فضلُ الله عليه عظيمًا.

تَفسيرُ الآيات:

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن نُصْرةِ الخائن، وحذَّر منها، ندَب إلى التَّوبة مِن كلِّ سُوءٍ[١] فقال:

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ﴾.

أي: ومَن يعمَلْ ما يُسيءُ به إلى غيرِه، أو يظلِمْ نفسَه بإكسابه إيَّاها ما يستحقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٦).

به عقوبةَ الله من شِركٍ ومعاصٍ(١).

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

أي: ثمَّ يطلُبْ مِن الله تعالى أن يستُرَ ما عمِلَ مِن ذنوبٍ، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِه بها(٢).

﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: فإنَّه يجدُ اللهَ تعالى غفورًا لذنوبِه، رحيمًا به(٣).

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ندَبَ الله تعالى إلى التَّوبة ورغَّب فيها، بيَّن أنَّ ضررَ إثمِ الآثِم لا يتعدَّى نفسَه، حثًّا على التَّوبةِ، وتهييجًا إليها؛ لِمَا جُبِل عليه كلُّ أحدٍ مِن محبَّة نَفْع نفسِه، ودَفْع الضُّرِّ عنها(٤)، فقال:

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَن يَأتِ ذَنبًا عامدًا له، فإنَّما يَجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضُرَّه وخِزيَه وعارَه في الدُّنيا والآخرة على نفسِه دون غيرِه، فلا يَجني أحدٌ على أحدٍ، وإنَّما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٧).

على كلِّ نفسٍ ما عمِلَتْ، لا يَحمِلُه عنها غيرُها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى له العلمُ الكاملُ، والحِكمةُ التَّامَّة، ومِن عِلْمه وحِكمتِه أنَّه يَعلمُ الذَّنبَ وما صدَر منه، والسَّببَ الدَّاعي لِفعلِه، والعقوبةَ المترتِّبةَ على فِعلِه، ويَعلمُ حالةَ المُذنِب، فيوفِّقُ للتوبةِ مَن غلبتْه نفسُه الأمَّارة بالسُّوء، مع إنابتِه إلى ربِّه في كثيرٍ مِن أوقاتِه، ويخذلُ مَن تجرَّأ على المحارمِ تهاونًا، ولا يُوفِّقه للتوبةِ[٢].

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى ما يخصُّ الإنسانَ مِن إثمِه، أتبعَه ما يُعدِّيه إلى غيرِه[٣]، فقال:

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٦-٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٠-٢٠١).
قال السعديُّ: (لكن إذا ظهرت السيِّئات فلم تُنكَرْ، عمَّت عقوبتُها، وشمِل إثمُها، فلا تخرج أيضًا عن حُكم هذه الآية الكريمة؛ لأنَّ مَن ترَك الإنكارَ الواجب فقد كسَب سيِّئةً) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٨).

أي: ومَن يَرتكِبْ ذنبًا غيرَ عامدٍ له، أو يرتكبْ ذنبًا متعمِّدًا له[١].

﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾.

أي: ثم يُلصِقْ ذَنبَه الَّذي ارتكبَه بشخصٍ آخرَ بريءٍ من هذا الذَّنبِ[٢].

﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾.

أي: فقد تحمَّل بهذا الفِعلِ الشَّنيعِ فِريةً وكذبًا على ذلك البَريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا، يُبِينُ عن أمْرِ مُتحمِّلِه، وجَراءتِه على ربِّه سبحانه وتعالى[٣].

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لـمَّا وعَظ سُبحانه وتعالى في هذه النَّازلةِ، وحذَّر ونهى وأمَر- بيَّن نِعمَتَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عِصمتِه عمَّا أرادوه مِن مُجادلتِه عن الخائنِ

---

(١) وهذا اختيار ابن جرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٧٧)، والراغب الأصفهاني في ((تفسيره)) (٣/ ١٤٣٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٥).

قال العسكريُّ: (الفرقُ بينَ الخطيئةِ والإثمِ: أنَّ الخطيئةَ قد تكونُ مِن غيرِ تعمُّدٍ، ولا يكونُ الإثمُ إلَّا تعمدًا، ثم كثُر ذلك حتى سُمِّيت الذُّنوب كلُّها خطايا). ((الفروق اللغوية)) (١/ ٢٢٢).

وقيل: الخطيئةُ هي الذنبُ الكبير، والإثمُ ما دون ذلك. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

وقيل بعكس ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٨-٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٣).

بقوله تعالى[١]:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾.

أي: ولولا أنَّ اللهَ تعالى تَفضَّل عليك- يا محمَّدُ- فحفِظَكَ وعصَمك بتوفيقِه وتبيانِه لك أَمْرَ هذا الخائنِ[٢].

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾.

أي: لعزَمَتْ فِرقةٌ من أولئك الَّذين يختانونَ أنفسَهم أن يَحْرِفوكَ عن طريق الحقِّ[٣].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾.

أي: إنَّ كيدَهم ومكرَهم يعودُ على أنفسِهم، فما يُضلُّونَ بذلك في الحقيقةِ إلَّا أنفسَهم[٤].

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

أي: ولا يمكِنُ أن يُضرُّوك بأيِّ شيءٍ من الأشياءِ[٥].

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: ومِن فَضْلِ اللهِ تعالى عليك- يا محمَّدُ- مع سائرِ ما تفضَّلَ به عليك مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨).

نِعَمِه، أنَّه أنزَل عليك الكتابَ: وهو القرآنُ، والحِكمةَ: وهي السُّنَّة ومعرفةُ أسرارِ أحكامِ الشَّريعة[١].

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾.

أي: ومِن فَضْله تعالى عليك- يا محمَّدُ- أنْ علَّمَك ما لم تكُنْ تعلَمُه من قبلِ نزولِ الوحيِ عليك[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

أي: إنَّ ما منَحَك اللهُ تعالى إيَّاه من نِعَمٍ وعطايا- يا محمَّدُ- أمرٌ عظيمٌ من لَدُنِ العظيمِ الكريمِ سبحانه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٠-٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٩).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أنَّ المعاصيَ ظُلْمٌ للنَّفسِ؛ لقوله: ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾، وهذا شيءٌ ثابتٌ مُكرَّرٌ في القرآنِ(١).

٢- أنَّ الإنسانَ تصحُّ توبتُه من الذَّنبِ ولو تكرَّر، ووجهُه: العمومُ في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ﴾، وهذا عامٌّ فيمَّن تكرَّر منه ذلك، أو لم يتكرَّرْ(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يكون عدوًّا لنفسِه، كما أنَّ أقرَبَ النَّاسِ قد يكون عدوًّا له؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤]، فلْيَحذَرْ كلُّ إنسانٍ نَفْسَه؛ فإنَّها عدوُّه(٣).

٤- تحريم رميِ الغيرِ بما يفعله الإنسانُ من خطيئةٍ، والتَّحذيرُ منه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾(٤).

٥- الحذرُ من شَهادة الزُّورِ والبُهتان؛ فصاحبُ البهتان مذمومٌ في الدُّنيا أشدَّ الذَّمِّ، ومعاقَبٌ في الآخرةِ أشدَّ العقابِ؛ يُستفادُ ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾(٥).

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ عملُ السُّوءِ عند الإطلاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٦).

يشمَلُ سائرَ المعاصي، الصَّغيرة والكبيرة، وسُمِّي (سوءًا)؛ لكونه يسُوءُ عاملَه بعقوبَتِه، ولكونِه في نفْسِه سيِّئًا غيرَ حسَنٍ، وكذلك ظُلمُ النَّفسِ عند الإطلاقِ يشمَلُ ظُلمَها بالشِّرك فما دونه، ولكنْ عند اقترانِ أحدِهما بالآخَرِ قد يُفسَّرُ كلٌّ واحدٍ منهما بما يُناسِبُه، فيُفسَّرُ عملُ السُّوءِ هنا بالظُّلم الَّذي يسُوء النَّاسَ، وهو ظُلمُهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم، ويُفسَّرُ ظُلمُ النَّفس بالظُّلم والمعاصي الَّتي بين اللهِ وبين عبده(١).

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ سُمِّيَ ظُلْمُ النَّفسِ «ظُلْمًا»؛ لأنَّ نَفْسَ العبد ليست مِلْكًا له يتصرَّفُ فيها بما يشاء، وإنَّما هي مِلْكٌ لله تعالى، قد جَعَلَها أمانةً عند العبدِ، وأَمَرَه أن يُقيمَها على طريقِ العَدْلِ؛ بإلزامِها للصِّراطِ المستقيمِ عِلْمًا وعمَلًا، فيسعى في تعليمِها ما أُمِرَ به، ويسعى في العَمَل بما يجب؛ فسَعْيُه في غير هذا الطَّريقِ ظُلمٌ لنَفْسِه، وخيانةٌ وعدولٌ بها عن العدل، الذي ضِدُّه الجَوْر والظُّلْم(٢).

٣- قول الله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، أي: يتحقَّقُ ذلك، فاستُعِيرَ فعل (يجد) للتَّحقُّق؛ لأنَّ فعل (وَجَد) حقيقتُه الظَّفَرُ بالشَّيءِ ومشاهدتُه، فأُطلِقَ على تحقيقِ العفْوِ والمغفرة(٣).

٤- بيان عَدْلِ الله وحَكْمتِه؛ أنَّه لا يعاقِبُ أحدًا بذَنبِ أحدٍ، ولا يعاقِبُ أحدًا أكثرَ من العقوبة النَّاشئةِ عن ذَنبه؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾، أي: له العِلمُ الكاملُ والحكمة التَّامَّةُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٩٤).

(٢) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠١).

٥- قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا﴾ قدَّم البُهتَ؛ لقُربه من قوله: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾، ولأنَّه ذنبٌ أفظعُ مِن كَسْبِ الخطيئةِ أو الإثم[١].

٦- أنَّ السَّيِّئاتِ تتضاعَفُ بتعدُّدِ أوصافِها؛ لقوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهذا هو الواقعُ، وهو العدلُ؛ فمَن قذَف قريبًا له، ومَن قذَف أجنبيًّا عنه، كلاهما قد قذَفَ، لكنِ انضمَّ إلى قذفِ القريبِ قطيعةُ الرَّحِم، فتكونُ هذه السَّيِّئةُ متضاعِفةً، فلا جرمَ أن يتضاعَفَ إثمُها؛ لأنَّ الأحكامَ مرتَّبةٌ على أوصافِها[٢].

٧- إثباتُ الرَّحمة الخاصَّة، فإنَّ قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ رحمةٌ خاصَّةٌ لم تكُنْ لغيرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم[٣].

٨- بيانُ فضلِ اللهِ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه محتاجٌ لفضلِ اللهِ ورحمتِه، ولولا فضلُ الله عليه ورحمتُه لحصَل له ما يحصُلُ لغيره؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ...﴾[٤].

٩- أنَّ مَن أراد إضلالَ الخَلْقِ، فإنَّه لا يضُرُّ إلَّا نفسَه؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأنَّهم عَمُوا في الواقعِ عن الحقِّ، ودَعَوُا النَّاسَ إلى الباطل، فاكتسَبوا إثمًا إلى آثامِهم، فأضَلُّوا أنفسَهم بذلك[٥].

١٠- ليسَ كلُّ ظُلْمٍ يضرُّ المظلومَ، بل قدْ لا يَضرُّه ظُلمُه شيئًا وإنْ قصَدَ الظالمُ إضرارَه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٠).

مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾، ومعلومٌ أنَّ ذلِك مِنْ ظُلمِهم، ومع هذا فلا يَضرُّونَه، وكقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[١].

١١- إثباتُ علوِّ الله؛ لقوله: ﴿أَنْزَلَ﴾، والنُّزولُ يكون مِن أعلى[٢].

١٢- أنَّ القرآنَ (كتابٌ)، على وزن (فِعَال) بمعنى (مفعول)، وهو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظ، ومكتوبٌ في الصُّحُف الَّتي بأيدي الملائكةِ الكِرام البَرَرة، ومكتوبٌ في المصاحف الَّتي بأيدينا، قال جلَّ وعلا: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[٣].

١٣- فضيلةُ العِلم؛ لأنَّ الله امتنَّ به على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث قال: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾، فَذَكَر سبحانه فضْلَه ونعْمَتَه على خَاتَمِ أنبيائه ورُسُلِه بما آتاه مِن العِلْم، ولا شكَّ أنَّ العِلمَ أشرفُ ما يُلَقَّاهُ الإنسانُ بعد الإسلامِ؛ فهو خيرٌ مِن المال، وخيرٌ من الأولادِ، وخيرٌ من الأزواجِ، وخيرٌ من الدُّنيا كلِّها[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾: فيه مبالغةٌ في الغُفرانِ، كأنَّ المغفرةَ والرَّحمة مُعدَّانِ لطالِبِهما، مُهيَّآن له، متى طلَبهما وجَدَهما، فلا يتخلَّفُ عنه شمولُ مَغفرتِه ورحمتِه زمنًا. وصِيغةُ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فيها مبالغةٌ، أي: كثيرَ الغُفران، وكثيرَ الرَّحمةِ؛ وذلك كِناية عن العُمومِ والتَّعجيل؛ فهو عامُّ المغفرةِ

(١) ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢١٣).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٣).

والرَّحمة، فلا يخرج منها أحدٌ استغفَره وتابَ إليه[١].

٢- **قوله:** ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

- في لفظةِ (على) في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ دلالةٌ على استعلاءِ الإثمِ على فاعلِه، واستيلائِه وقَهْرِه له[٢].

- قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ (فعيل)؛ للدَّلالةِ على المبالَغةِ في الوصْف[٣].

٣- **قوله:** ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

- لفظ (احتَمَل) في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا﴾ أبلغُ من (حمَل)؛ لأنَّ افتَعل فيه للتَّسبُّب، كاعْتَمَل[٤]، وأيضًا في (احتمل) تمثيلٌ لحالِ فاعلِه بحالِ عَناءِ الحاملِ ثِقلًا[٥].

- وفي قوله: ﴿بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿مُّبِينًا﴾ صفةٌ لقولِه ﴿إِثْمًا﴾ أي: بيِّنًا فاحشًا، وقد اكتُفِيَ في بيانِ عِظَمِ البُهتانِ بالتنكيرِ التفخيميِّ[٦].

٤- **قول الله تعالى:** ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ (مِنْ) تدُلُّ على العمومِ نصًّا، أي: لا يضرُّونَك قليلًا ولا كثيرًا[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦١).

الآيات (١١٤ - ١٢٢)

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ
إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا
مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ
خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نَّجْوَاهُمْ﴾: أي: المُتَناجِينَ مِن النَّاسِ، وَتَكُون نجْوَى خَرَجَت مَخْرَجَ جَرْحَى ومَرْضَى، أو يكون المراد بـ ﴿نَّجْوَاهُمْ﴾ تَناجِيهم، وأصل النَّجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ؛ يُقال: ناجيتُه، أي: سَارَرْتُه، وأصلُه: أنْ تخلوَ به في نَجوةٍ مِن الأرضِ(١).

﴿مَعْرُوفٍ﴾: المعروفُ كلُّ ما كان معروفًا فِعْلُه، جميلًا مستحسَنًا غيرَ مستقبَحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢- ٧٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

عند أهل الإيمان، و(عَرَف) في الأصل يدلُّ على السُّكونِ والطُّمأنينةِ، ومنه العُرف والمعروف؛ سُمِّي بذلك؛ لأنَّ النُّفوسَ تسكُنُ إليه[1].

﴿يُشَاقِقِ﴾: يخالِفْ، أو صار في شقٍّ غيرِ شقِّ أوليائه، والشِّقاقُ: المخالَفة، وأصل (شق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[2].

﴿وَنُصْلِهِۦ﴾: أي: نَشْوِهِ بها، وصَلَى النارَ: أي: دخَل فيها، وأصل الصَّلْيِ: الإيقادُ بالنَّار، ويُقال: صَلِيَ بالنَّار وبكذا، أي: بَلِيَ بها[3].

﴿مَّرِيدًا﴾: أي: ماردًا، يعني: عاتيًا، قد عرِيَ من الخيرِ وظَهَر شرُّه، من قولهم: شجرة مَرْدَاء، إذا سقَط ورقها، فظهَرَتْ عِيدانُها، ومنه غلامٌ أمردُ: إذا لم يكُنْ في وجهه شَعَرٌ، والماردُ والمَريدِ: كلُّ عاتٍ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ، وأصل (مرد): يدلُّ على تَجريدِ الشَّيءِ مِن قِشْره، أو ما يَعْلوه من شَعرِه[4].

﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: أي: يُقطِّعُونها ويَشقُّونها، والبَتْكُ: القَطْعُ، ويُستعملُ في قَطْعِ الأعضاءِ والشَّعرِ؛ يُقال: بتَك شَعرَه وأُذنَه[5].

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: يُشوِّهون خَلْقَه بالخِصاءِ، وقطعِ الآذانِ، وفَقْءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩- ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

العيون، ونَتْفِ اللِّحيةِ، أو: يُبدِّلون حُكمَه ودِينَه، وأصل (غير): اختلافُ شيئينِ، والخَلْقُ أصله: التَّقديرُ المستقيم، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ[(١)].

﴿غُرُورًا﴾: الغرورُ: الباطل، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أريدُه، وأصل ذلك من الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهر من الشَّيء، والغَرور: كلُّ ما يغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[(٢)].

﴿مَحِيصًا﴾: أي: مَعْدلًا ومهربًا، وحاص عن الشَّيء: أي: عدَل، وأصل (المَحْص): تخليص الشَّيء، وتنقيتُه ممَّا فيه من عيبٍ[(٣)].

﴿قِيلًا﴾: قولًا ومقالًا، وأصل القول من النُّطق، ويستعمل على أوجهٍ كثيرة[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾: في هذا الاستثناءِ قولانِ، أحدُهما: أنَّه متَّصلٌ[(٥)]، على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣) و(٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦- ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤، ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠، ٧٣٩).

(٥) أي: أنَّ ما بعدَ أداةِ الاستثناءِ (المستثنى) مِن جنسِ ما قَبْلَها (المستثنى منه)، مثال ذلك حضَر الطلابُ إلَّا محمدًا. وما حضر الطلابُ إلَّا محمدٌ - ومحمَّدًا.

المرادَ بالنَّجْوَى: القومُ الَّذين يَتناجَون؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧]، أي: مُتناجُون، وهو مِن إطلاقِ المصدرِ على الَّذي صدَرَ منه، نحو: رجلٌ عَدْلٌ، أي: عادِل. أو على أنَّ في الكَلامِ حذْفَ مُضافٍ، تقديرُه: إلَّا نَجْوَى مَنْ أَمَرَ؛ فعَلَى هذا يَجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَنْ﴾ في موضعِ جرٍّ بدلًا مِن ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾، وأنْ تكونَ في مَوضِعِ نَصْبٍ على أَصلِ بابِ الاستثناءِ. والثَّاني: أنَّ الاستثناءَ مُنقطِعٌ[١]، وعليه فالمرادُ بالنَّجْوَى هنا المصدرُ فقط كالدَّعوى، و﴿مَنْ﴾ للأشْخاصِ، وليستْ مِن جِنسِ التَّناجِي، وعليه فـ﴿مَنْ﴾ في موضِعِ نصْبٍ على الاستِثْناءِ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لا خيرَ في كثيرٍ ممَّا يُسِرُّه النَّاسُ بينهم من الكلامِ، إلَّا ما كان مِن أمرٍ بالتَّصدُّق، أو أمرٍ بمعروف، أو إصلاحٍ بين النَّاس، ومَن يفعلْ ذلك مخلِصًا لله فسوف يُعطيه اللهُ ثوابًا عظيمًا.

ثمَّ توعَّد سبحانه وتعالى مَن يخالفُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويعاندُه مِن بعدِ ظهور الحقِّ له، ويتَّبِعُ خلافَ طريق المؤمنين، وينهَجُ غيرَ نهجِهم؛ توعَّده سبحانه بأن يَكِلَه إلى ما اختار لنفسِه، ويُحسِّنَه له استدراجًا له، ويُحرِقَه بنارِ جهنَّمَ، وقبُحَتْ جهنَّمُ مصيرًا.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه لا يغفِرُ لمن أشرَكَ به، ومات على ذلك، ويغفِرُ ما دون الشِّرك لمن يشاءُ سبحانه وتعالى، ومَن يُشرِكْ بالله فقد ضلَّ عن الحقِّ ضلالًا بعيدًا.

ثمَّ بيَّن أنَّ الذين يُشْرِكونَ بالله ما يَدْعُون إلَّا أصنامًا بمسمَّياتٍ مؤنَّثةٍ، وما

(١) أي: أنَّ ما بعدَ أداة الاستثناءِ (المستثنى) ليس مِن جنس ما قَبْلَها (المستثنى منه)، نحو: ما وصل المسافرون إلا سفينةً- بالنصب فقط عند غير بني تميم.

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٨٩).

يَدْعون في حقيقةِ الأمر إلَّا شيطانًا رجيمًا، متمرِّدًا على خالقِه جلَّ وعلا، قد طَرَده اللهُ مِن رحمتِه، فقال لربِّه حينها معزِّزًا قولَه بالقَسَمِ: إنَّه سيتَّخذُ مِن عباده جزءًا معلومًا مقدَّرًا، يكونون أولياءَه، وسيُضِلُّهم عن الطَّريقِ المستقيم، ويقذِفُ في أنفسِهم أمانيَّ يعِدُهم بها، تكونُ سببًا في ابتعادِهم عن التَّوحيدِ والطَّاعة، وسيأمُرُهم بتقطيعِ آذانِ الأنعامِ، وتغييرِ خَلْقِ الله وفِطرتِه، ثمَّ أخبَرَ تعالى محذِّرًا أنَّ مَن يتَّخذ الشَّيطانَ وليًّا مِن دون الله فقد خسِر خسرانًا ظاهرًا واضحًا؛ فإنَّ الشَّيطانَ يعِدُ أولياءَه، ويقذِفُ في نفوسهم الأمانيَّ، وما وعودُه وأمانِيُّه إلَّا باطلٌ وخداعٌ، أولئك الَّذين يتَّخذونه أولياءَ مصيرُهم جهنَّمُ، ولا يجِدون عنها مَهربًا.

وأمَّا الَّذين آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فسيُدخِلُهم اللهُ جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ، ماكثين فيها أبدًا، وَعْدَ اللهِ الَّذي وعدهم به، ووعدُه الحقُّ، ولا أحدَ أصْدَقُ منه جلَّ وعلا قولًا وخبرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا لم تَخلُ الحوادثُ الَّتي أشارت إليها الآيُ السَّابقةُ، ولا الأحوالُ الَّتي حذَّرَت منها؛ مِن تناجٍ وتحاورٍ، سرًّا وجهرًا، لتدبيرِ الخيانات وإخفائِها وتبييتِها؛ لذلك كان المقامُ حقيقًا بتعقيبِ جميعِ ذلك بذِكْرِ النَّجوى وما تشتملُ عليه؛ لأنَّ في ذلك تعليمًا وتربيةً وتشريعًا[1]، فقال تعالى:

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ١٩٨).

أي: لا خيرَ في كثيرٍ من الكلام الَّذي يُسِرُّه النَّاس بينهم؛ إمَّا لأنَّه لا فائدةَ فيه؛ كفضولِ الكلام المباح، وإمَّا لكونِه شرًّا ومَضرَّةً محضةً؛ كالكلام المُحرَّمِ بجميعِ أنواعه[١].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾.

أي: عَدَا الأمْرَ بالتَّصدُّقِ، سواءٌ كان بالمال أو بالعِلم، أو بأيِّ نفعٍ كان[٢].

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾.

أي: وعَدَا الأَمْرَ بالمعروفِ، وهو كلُّ ما أمَرَ الله تعالى به، أو ندَب إليه من أعمالِ البِرِّ والخيرِ والإحسانِ والطَّاعة، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعَقلِ حُسْنُه[٣].

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أي: وعَدَا الأمرَ بالإصلاحِ بين المتنازعَيْنِ والمتخاصمَيْنِ؛ ليزولَ ما بينهما من عداوة وبغضاء، ويتراجعا إلى ما فيه الأُلفةُ، واجتماعُ الكلمة على ما أذِنَ اللهُ تعالى وأمَرَ به[٤].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

أي: ومَن يأمُرْ بصدقةٍ أو معروف، أو يُصلِحْ بين النَّاس؛ طلبًا لرِضَا الله تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٨).

بفعله هذا، مخلصًا له فيه، ومحتسبًا ثوابَه عند الله عزَّ وجلَّ[١].

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: فسوف يُعطيه اللهُ تعالى - جزاءً لِمَا فعَل من ذلك- ثوابًا كثيرًا واسعًا، لا يعلَمُ قدرَه سواه[٢].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا رتَّب الله تعالى الثَّوابَ العظيم على الموافَقةِ، وبيَّن وعدَه بالجزاء الحسَنِ للَّذين يتناجَوْن بالخيرِ، ويبتغونَ بنفعِ النَّاس مرضاةَ الله عزَّ وجلَّ- رتَّب العقابَ الشَّديدَ على المخالَفة والمشاقَقة، ووكَل المخالِفَ إلى نفسِه[٣] فقال تعالى:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: ومَن يُخالِفِ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويعانِدْه فيما جاء به، سالكًا غيرَ طريقِ الشَّريعةِ الَّتي جاء بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فصار في جانبٍ، والشَّرعُ في جانبٍ آخرَ[٤].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

أي: وحَصَلتْ منه تِلك المُشاقَّةُ عن عَمْدٍ، بعدَما ظهَر له الحقُّ واتَّضَح(١).

﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ومَن يتَّبعْ طريقًا غيرَ طريقِ المؤمنين في عَقائدِهم وأعمالِهم، ويَسلُكْ منهجًا غيرَ منهجِهم(٢).

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾.

أي: إذا سلَك هذه الطَّريقَ نَتخلَّى عنه، ونتركُه إلى ما اختاره لنفْسِه، ونُحسِّنُه له في صدرِه استدراجًا له(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٣-٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا ملازِمٌ للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنصِّ الشارع، وقد تكون لِما أجمعت عليه الأمَّة المحمَّدية، فيما علم اتفاقُهم عليه تحقيقًا، فإنه قد ضُمِنت لهم العصمةُ في اجتماعهم من الخطأ، تشريفًا لهم، وتعظيمًا لنبيهم صلَّى الله عليه وسلَّم، وقد وردت في ذلك أحاديثُ صحيحة كثيرة، ... ومن العلماء مَن ادَّعى تواتر معناها، والذي عوَّل عليه الشافعيُّ رحمه الله، في الاحتجاج على كونِ الإجماع حجَّةً تحرُمُ مخالفتُه: هذه الآيةُ الكريمة، بعد التروِّي والفكر الطويل، وهو مِن أحسنِ الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك، واستبعد الدلالةَ منها على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٢-٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٦-٢٢٧).

أي: ونُدخِلْهُ نارَ جهنَّمَ، ونُحرِقْه بها[١].

﴿ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾.

أي: وما أسوَأَها مِن مرجعٍ ومآلٍ يصيرُ إليه[٢]!

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا توعَّد اللهُ تعالى على مُشاقَقةِ الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، واتِّباعِ غيرِ سبيلِ المؤمنينَ، وكان فاعلُ ذلك بعد بيانِ الهدى هم أهلَ الكتابِ، ومَن أضلُّوه من المنافقينَ، فردُّوهم إلى ظلامِ الشِّرك والشَّكِّ- حسُنَ إيلاؤُه ببيانِ خطورةِ الشِّرك؛ تعظيمًا لأهلِ الإسلام، وحثًّا على لزوم هديِهم، وذمًّا لِمَن نابَذهم، وتوعُّدًا له[٣]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لِمَن أشرَكَ به، ومات على شِرْكِه[٤].

﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

أي: وما دونَ الشِّرك من الذُّنوبِ والمعاصي فهو تحت المشيئةِ؛ إن شاء اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣).

غَفَرَه برحمتِه وحِكمتِه، وإنْ شاء عذَّبَ عليه بعَدلِه وحكمتِه[١].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أي: ومَن يجعَلْ لله تعالى شريكًا، فقد سلَك غيرَ طريقِ الحقِّ، وانحرَف عن سواءِ السَّبيلِ، وبَعُدَ عن الصَّوابِ بُعدًا شديدًا[٢].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ١١٧﴾.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾.

أي: ما يَدْعو هؤلاء المشرِكون مِن دونِ الله تعالى إلَّا أوثانًا وأصنامًا مسمَّياتٍ بأسماءِ الإناثِ؛ كاللَّات والعُزَّى ومَنَاةَ، والمؤنَّثُ دون المذكَّرِ في قوَّتِه ومرتبتِه ومقامِه؛ ممَّا يدلُّ على نقصِ المسمَّيات بتلك الأسماءِ، وفَقْدِها لصفات الكمال، فكيف تُتَّخذُ آلهةً تُعبدُ[٣]؟!

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.

أي: وما يعبُدُ هؤلاء الَّذين يعبُدون هذه الأوثانَ مِن دونِ الله تعالى - في حقيقةِ الأمر - إلَّا شيطانًا متمرِّدًا على الله سبحانه، هو الَّذي أمَرهم بذلك، وزيَّنه لهم فأطاعوه، مع أنَّه عدوُّهم الَّذي يريدُ إهلاكَهم، ويسعى في ذلك بكلِّ ما يقدِرُ عليه[٤].

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٠-٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣-٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥).

وقيل المعنى: إن يَدْعون إلا شيئًا مثلَ الإناث، لا يدفع عن نفسِه، فكيف يدفع عن غيره، وعلى هذا القول يدخلُ في ذلك الأصنامُ المُذكَّرة، مثل: هُبَل؛ فهُبَلُ مُذكَّر، ومع ذلك يُعبد من دون الله. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي))

﴿ لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾.

﴿ لَعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: قد أقصاه اللهُ تعالى وأبعَدَه، وطرَدَه مِن رحمتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

وكما أبعَدَه اللهُ تعالى من رحمتِه، يسعى في إبعاد العبادِ عن رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا أخبَرَ اللهُ عن سعيِه في إغواءِ العباد، وتزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ[2]؛ فقال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾.

أي: وقال الشَّيطانُ لربِّه حين لَعَنَه: واللهِ لأتَّخذَنَّ مِن عبادِك جزءًا معلومًا مقدَّرًا، أجعَلُهم أولياءَ لي، أتولَّاهم ويتولَّوْنَني، فيكونون من حزبِي أصحابِ السَّعيرِ[3].

كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

(ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٥-٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

قال ابن جرير: (وإنَّما أخبر جلَّ ثناؤُه في هذه الآية بما أخبَرَ به عن الشَّيطان من قِيلِه: ﴿ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾؛ ليعلَمَ الذين شاقُّوا الرَّسول من بعد ما تبيَّن لهم الهدى أنَّهم من نصيبِ الشَّيطان الَّذي لَعنه اللهُ المفروضِ، وأنَّه ممَّن صدَّق عليهم ظنَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢).

وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

بعد أن أقسَمَ الشَّيطانُ أنَّه سيتَّخذُ نصيبًا مفروضًا من العِباد، ذكَر ما يعتزمُ فعلَه بهم بقوله[1]:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾.

أي: واللهِ لأَصُدَّنَّهم عن طريق الحقِّ إلى سُبُلِ الضَّلالِ؛ ضلالٍ في العِلمِ، وضلالٍ في العمل[2].

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾.

أي: واللهِ لأجعَلَنَّ في نفوسِهم من الأمانيِّ الَّتي أعِدُهم بها، ما يُزيغُهم عن توحيدِك وطاعتِك؛ كأن يُزيِّنَ لهم ما هم فيه من الضَّلالِ، مع تمنِّيهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وكأن يُمنِّيَهم بطولِ العمرِ، مع أمرِهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ في التَّوبةِ حتَّى يَبغَتَهم الموتُ[3].

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٨).

أي: واللهِ لآمُرَنَّهم بأن يُقطِّعوا آذانَ الأنعامِ من الإبلِ والبقرِ والغَنَم علامةً على أنَّها محرَّمةٌ -قيل: يُقطِّعونها نُسُكًا في عبادةِ الأوثانِ- وهذا يقتضي تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ، أو تحليلَ ما حرَّمه[(١)].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولآمُرَنَّهم بتغييرِ خِلقتِهم الظَّاهرةِ بالوَشْمِ، والنَّمْصِ، والتَّفلُّجِ للحُسنِ، وغير ذلك[(٢)]، وتغيير خِلقتِهم الباطنة، فتتغيَّرُ فِطرتُهم الَّتي فُطِروا عليها من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ، ومِن اليقينِ إلى الشَّكِّ، ومِن قَبولِ الحقِّ والعملِ به إلى تركِه، والإعراضِ عنه، والتَّمرُّدِ عليه[(٣)].

عن عبدِ اللهِ بن مسعود رضِي اللهُ عنه، قالَ: ((لعنَ اللهُ الواشمَاتِ والمُتَوشِّماتِ[(٤)]، والمُتَنَمِّصَاتِ[(٥)] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠).
قال الواحدي: (قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ البَتْك: القطع، والتبتيك: التقطيع، وهو في هذا الموضع: قطعُ آذانِ البَحِيرة عند جميع أهل التَّفسير). ((التفسير الوسيط)) (٢/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).
قال السعديُّ: (وذلك يتضمَّن التَّسخُّطَ من خِلقتِه، والقدحَ في حكمته، واعتقاد أنَّ ما يَصنعون بأيديهم أحسنُ مِن خِلقةِ الرَّحمن، وعدم الرِّضا بتقديره وتدبيره) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٢-٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٠-٢٤١).

(٤) الوَشْم: أن يُغرَزَ الجِلدُ بإبرة، ثم يُحشَى بكُحل أو نيل، فيَزرقَّ أثرُه أو يخضرَّ. وقد وَشَمَتْ تَشِمُ وَشْمًا فهي واشمةٌ. والمستوشِمة والموتشِمة: التي يُفعَل بها ذلِك. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٨٩).

(٥) النَّمْص: نتفُ الشَّعر. والنَّامِصَةُ: الَّتِي تَنْتِف الشَّعَر مِن وجهِها. والمُتَنَمِّصَةُ: الَّتِي تأمُر مَن يَفْعل بِها ذلك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٠٦٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٩).

والمُتَفَلِّجاتِ للحُسْنِ[١]، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ، فبلغَ ذلكَ امرأةً من بني أسدٍ يُقالُ لها: أمُّ يعقوبَ، فجاءَت فقالت: إنَّهُ بلغَني أنَّكَ لعَنْتَ كيْتَ وكيْتَ، فقالَ: وما ليَ لا ألعَنُ مَن لعنَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومَنْ هوَ في كتابِ اللهِ، فقالت: لقدْ قرأتُ ما بينَ اللَّوحينِ، فمَا وجدْتُ فيه ما تقولُ، قالَ: لئنْ كنتِ قرَأتِيهِ لقد وجَدْتِيهِ، أمَا قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾، قالتْ: بلى، قالَ: فإنَّه قدْ نهَى عنه، قالت: فإنِّي أرَى أهْلَكَ يفعَلونَهُ، قالَ: فاذْهَبي فانْظُرِي، فَذَهَبتْ فَنَظَرتْ، فلمْ ترَ مِن حاجَتِها شيئًا، فقال: لو كانَتْ كذَلِك مَا جَامَعَتْنا))[٢].

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حكَى عن الشَّيطانِ دَعاويَه في الإغواءِ والضَّلالِ، حذَّر النَّاسَ عن متابعتِه[٣]، فقال:

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومَن يجعَلِ الشَّيطانَ وليًّا لنفسِه، ونصيرًا دون الله تعالى، فيتَّبِعْه ويُطِعْه[٤].

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

أي: فقد هلَك في الدُّنيا والآخِرةِ هلاكًا ظاهرًا، يُبِينُ عن عطَبِه وهلاكِه،

(١) التفلُّج: التشقُّق، والفَلَج بالتحريك: فُرْجة ما بين الثنايا والرَّبَاعيات، والفرق: فُرجة بين الثنيتين. و(المتفلِّجات للحسن)، أي: النِّساء اللاتي يفعلن ذلك بأسنانهن؛ رغبةً في التحسين. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٢٠٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٦٨).
(٢) رواه البخاري (٤٨٨٦)، واللفظ له، ومسلم (٢١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤١).

فيحصُلُ له الشَّقاءُ الأبديُّ، ويفُوتُه النَّعيمُ السَّرمديُّ[١].

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَعِدُهُمْ﴾.

أي: يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه بوعودٍ باطلةٍ لإضلالِهم؛ كأنْ يعِدَهم بأن يكونَ لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوءٍ، وكأن يعِدَهم بأنَّهم إذا أنفَقوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ افتقَروا، وإن جاهَدوا في سبيل الله تعالى قُتِلوا[٢].

كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

أي: ويُرجِّيهم، ويَفتَحُ أمامَهم الآمالَ الكاذبةَ، والأمانيَّ الباطلةَ؛ كأنْ يُمنِّيَهم بالظَّفَرِ على أعدائِهم، وكأن يُمنِّيَهم بأنَّهم هم الفائزونَ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

أي: وما يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه إلَّا باطلًا، وأوهامًا خادعةً لا حقيقةَ لها[٤].

فإنَّه إذا حَصْحَصَ الحقُّ، وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عدوُّ الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣-٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤١-٢٤٢).
قال ابنُ جرير: (لأنَّ الشَّيطان لا يملِكُ له نصرًا من الله إذا عاقَبه على معصيته إيَّاه في خلافِهِ أمرَه، بل يخذُلُه عند حاجتِه إليه) ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٣- ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وكما قال للمُشركين ببدرٍ، وقد زيَّن لهم أعمالَهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَن جِدَّ الأمرِ، ونزولَ عذابِ الله بحزبِه، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فصارَتْ عِداتُه إيَّاهم عند حاجتِهم إليه غرورًا، ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾[1] [النور: ٣٩].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: إنَّ هؤلاء الَّذين اتَّخذوا الشَّيطانَ وليًّا مِن دونِ الله تعالى، مصيرُهم الَّذي يَصيرون إليه، ومآلُهم ومستقَرُّهم يومَ حسابِهم: نارُ جهنَّمَ[2].

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

أي: ولا يَجِدون عن جهنَّمَ ملجأً ولا مفرًّا، ولا خَلاصًا منها، بل هم خالِدون فيها[3].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٦).

ﭐلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى ما للكفَّار ترهيبًا، أتبَعَه ما لغيرِهم ترغيبًا، فكما رتَّبَ تعالى مصيرَ مَن كان تابعًا لإبليس إلى النَّار؛ لإشراكِه وكفرِه، وتغييرِ أحكامِ الله تعالى، رتَّب هنا دخولَ الجنَّةِ على الإيمانِ وعملِ الصَّالحاتِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: إنَّ المؤمنين باللهِ تعالى وملائكتِه وكُتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه، على الوجهِ الَّذي أُمِروا به؛ عِلمًا وتصديقًا وإقرارًا، الَّذين يعمَلون الأعمالَ الصَّالحة مِن واجباتٍ ومستحبَّاتٍ على القلب، واللِّسانِ، وبقيَّةِ الجوارحِ، يَعمَلونها خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وعلى هَدْيِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ[2].

﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى يومَ القيامةِ - جزاءً لهم - دارَ النَّعيمِ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ، تَجري من تحت أشجارِها وقُصورِها أنهارٌ متنوِّعة[3].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

أي: ماكثين فيها أبدًا، بلا زوالٍ ولا انتقالٍ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤-٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٥-٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾.

أي: هذا وعدٌ مِن الله تعالى واقعٌ لا محالةَ، لا كعِدَةِ الشَّيطانِ الكاذبةِ الَّتي وعَدَها أولياءَه[١].

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾.

أي: لا أحدَ أصدَقُ مِن الله تعالى قولًا وخبرًا[٢].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ فضيلة الصَّدَقةِ، وجهُ ذلك: أنَّه إذا كان الآمِرُ بالصَّدقةِ في أمرِه خيرٌ، ففاعلُ الصَّدقةِ مِن بابِ أَوْلى[٣].

٢- فضيلةُ الأمر بالمعروف؛ حيث قرَنه اللهُ تعالى بالأمر بالصَّدقةِ؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾[٤].

٣- فضيلةُ الأمرِ بالإصلاحِ بين النَّاس؛ قال سبحانه: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[٥].

٤- الإصلاحُ لا يكونُ إلَّا بين مُتنازعَيْنِ مُتخاصمَيْنِ، والنِّزاعُ والخِصامُ والتَّغاضُبُ يوجِبُ مِن الشَّرِّ والفُرقةِ ما لا يمكِنُ حصرُه؛ فلذلك حثَّ الشَّارعُ على الإصلاحِ بين النَّاسِ في الدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ، بل وفي الأديانِ فقال

السعدي)) (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٦-٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الله تعالى: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[١].

٥- وجوبُ العناية بالإخلاصِ؛ فمع أنَّ هذه المذكوراتِ في قوله: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ أعمالٌ في غاية الشَّرفِ والجلالةِ، والخيرَ وصفٌ ثابتٌ لها؛ لِمَا فيها من المنافعِ؛ ولأنَّها مأمورٌ بها في الشَّرعِ- إلَّا أن الثَّوابَ لا يحصُلُ إلَّا عن فعلِها ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، ولا ينتفعُ بها المرءُ إلَّا إذا أتى بها لوجه الله؛ فقال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، فأمَّا إذا أتى بها للرِّياءِ والسُّمعةِ انقلَبَتْ فصارت مِن أعظمِ المفاسدِ. وأيضًا فكمالُ الأجرِ وتمامُه بحسَب النِّيَّةِ والإخلاص؛ فلهذا ينبغي للعبدِ أن يقصِدَ وجهَ الله تعالى، ويُخلِصَ العملَ لله؛ ليحصُلَ له بذلك الأجرُ العظيمُ[٢].

٦- أنَّ الإيمانَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من عملٍ، وأنَّ العمَلَ وحده لا يكفي، بل لا بدَّ من إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بين الإيمانِ والعملِ الصَّالح، وإذا ذُكِرَ ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو معلَّقًا بالإيمانِ وحده، فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣].

٧- أنَّ العملَ لا ينفَعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصَّوابُ، أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠). ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:

١- في قول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الصَّدقةُ، والمعروفُ، والإصلاحُ بين النَّاس، هذه الثَّلاثةُ لو لم تُذكَرْ، لدخَلَتْ في القليلِ من نجواهم، الثَّابتِ له الخيرُ، فلمَّا ذُكِرَتْ بطريقِ الاستثناءِ علِمْنا أنَّ نَظْمَ الكلام جرى على أسلوبٍ بديع، فأخرج ما فيه الخيرُ مِن نجواهم ابتداءً بمفهومِ الصِّفة، ثمَّ أُريدَ الاهتمامُ ببعض هذا القليلِ مِن نجواهم، فأُخرِجَ مِن كثيرِ نجواهم بطريقِ الاستثناءِ، فبقي ما عدا ذلك مِن نجواهم- وهو الكثيرُ- موصوفًا بأنْ لا خيرَ فيه[١].

٢- المعروفُ يَندرجُ تحته الصَّدقةُ والإصلاحُ، لكنَّهما جُرِّدا منه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، واختصَّا بالذِّكر؛ لعِظَمِ أهميَّتِهما[٢].

٣- الحِكمةُ في كونِ النَّجوى مظِنَّةَ الشَّرِّ في الأكثرِ، هي أنَّ العادةَ الغالبةَ وسُنَّةَ الفِطرةِ المتَّبَعة هي استحبابُ إظهارِ الخيرِ، والتَّحدُّثِ به في الملأِ، وأنَّ الشَّرَّ والإثمَ هو الَّذي يخفى، ويُذكَرُ في السِّرِّ والنَّجوى؛ لذا قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾[٣].

٤- قوله: ﴿مَعْرُوفٍ﴾ المعروفُ هو الإحسانُ والطَّاعةُ، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعقلِ حُسْنُه، وإذا أُطلِق الأمرُ بالمعروف من غيرِ أن يُقرَنَ بالنَّهيِ عن المُنكَرِ، دخَل فيه النَّهيُ عن المُنكَر؛ وذلك لأنَّ تَرْك المنهيَّاتِ مِن المعروفِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٣١).

وأيضًا لا يتمُّ فعلُ الخيرِ إلَّا بترك الشَّرِّ، وأمَّا عند الاقترانِ فيُفسَّرُ المعروفُ بفعل المأمورِ، والمُنكَرُ بترك المَنْهِيِّ(١).

٥- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيانُ أنَّ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ فيها خيرٌ، وإن فعَلها الإنسانُ مِن غيرِ استحضارِ نيَّةٍ، وجهُه: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نفى الخيرَ في كثيرٍ من النَّجوى استثنى هذه الثَّلاثةَ، ثمَّ قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

٦- أنَّه يصحُّ إطلاقُ الفعلِ على القولِ، وتؤخذُ مِن قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، مع أنَّ الَّذي حصَل أمرٌ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ(٣).

٧- في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يستعجِلَ الثَّوابَ؛ إذ قد يؤخِّرُ اللهُ الثَّوابَ لحكمةٍ؛ ﴿فَسَوْفَ﴾ دَّالَّةٌ على التَّسويفِ، وهي تدلُّ أيضًا على التَّحقيقِ؛ ولهذا لا ينبغي استعجالُ ثوابِ اللهِ، وإجابةِ اللهِ تعالى للدُّعاء(٤).

٨- عِظَمُ ثوابِ مَن فعَل ذلك ابتغاءَ وجهِ الله؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ تعظيمَ الشَّيءِ مِن العظيمِ يدلُّ على عظَمتِه(٥).

٩- تحريمُ مُشاقَّةِ الرَّسولِ، وأنَّها مِن كبائر الذُّنوب، وجهُه: أنَّه رتَّب عليها العقوبةَ، وهي: التَّخلِّي عنه، وصَلْيُه جهنَّمَ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٤).

الرَّسُولَ...﴾[١].

١٠- العُذْرُ بالجهل؛ لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾، فلو أنكَر الإنسانُ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام، وصار يُحاجُّ عليه، لكنَّه جاهلٌ، فإنَّه معذورٌ؛ لأنَّ الآيةَ صريحةٌ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾، ودلَّت الآيةُ أيضًا على أنَّه مع التَّردُّدِ لا تقومُ الحُجَّةُ، لكنْ على الإنسانِ أن يتبيَّنَ، فالذين لا يطلُبون التَّبيُّنَ، هم مُفرِّطون بلا شكٍّ، ولا يُعذَرون بجهلِهم[٢].

١١- أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو هُدًى ونورٌ، ويتبيَّنُ بأنْ يتأمَّلَ الإنسانُ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام من العباداتِ والأخلاقِ والمعاملاتِ وغيرِ هذا، فإذا تأمَّله بعِلمٍ وعدلٍ- يعني: كان مُنصِفًا- تبيَّن له الحقُّ، وعرَفَ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الحقُّ؛ قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾[٣].

١٢- قول الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾، فيه دَلالةٌ على أنَّ الإجماعَ حُجَّةٌ؛ لأنَّه لا يُتوعَّدُ إلَّا على مخالَفةِ الحقِّ[٤]؛ فالأمَّةُ إذا أجمَعَتْ على شيءٍ فإنَّه حقٌّ[٥]، و﴿سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مفردٌ مضافٌ، يشمَلُ سائرَ ما المؤمنونَ عليه من العقائدِ والأعمالِ، فإذا اتَّفقوا على إيجابِ شيءٍ أو استحبابِه، أو تحريمِه أو كراهتِه، أو إباحتِه- فهذا سبيلُهم؛ فمن خالَفهم في شيءٍ من ذلك بعد انعقادِ إجماعِهم عليه، فقد اتَّبَع غيرَ سبيلِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٣).

١٣- مَن لم يُشاقِقِ الرَّسولَ، واتَّبعَ سبيلَ المؤمِنين، بأن كان قصدُه وجهَ اللهِ، واتِّباعَ رسولِه، ولزومَ جماعةِ المسلمين، ثمَّ صدَر منه مِن الذُّنوبِ أو الهمِّ بها ما هو من مقتضياتِ النُّفوس، وغَلَبات الطِّباعِ، فإنَّ اللهَ لا يُولِّيه نفسَه وشيطانَه، بل يتدارَكُه بلُطفِه، ويمُنُّ عليه بحفظِه، ويعصِمُه من السُّوءِ، دلَّ على ذلك مفهومُ قولِه تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾[(١)].

١٤- قول الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ** ﴾، يدلُّ على أنَّه يجبُ الاقتداءُ بالرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام في أفعالِه؛ إذ لو كان فعلُ الأمَّةِ غيرَ فعلِ الرَّسول لزِم كونُ كلِّ واحدٍ منهما في شقٍّ آخرَ مِن العمل، فتحصُلُ المُشاقَّةُ، لكنَّ المُشاقَّةَ محرَّمةٌ، فيلزَمُ وجوبُ الاقتداءِ به في أفعاله[(٢)].

١٥- أنَّ سبيلَ المؤمنين طاعةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنه قال: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ** ﴾، ﴿ **وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾، إذًا: سبيلُ المؤمنين هي عدمُ المُشاقَّة، وهو كذلك، وكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اتِّباعًا لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٣)].

١٦- في قول اللهِ تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ** ﴾ علَّقَ سبحانه الوعيدَ بمُشاقَّةِ الرسولِ واتِّباعِ غيرِ سَبيلِ المؤمنينَ، مع العِلم بأنَّ مُجرَّد مُشاقَّةِ الرسولِ تُوجِبُ الوعيدَ،

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣١).

ولكنْ هما متلازمانِ؛ فلهذا علَّقَه بهما، كما يُعلِّقُه بمعصيةِ اللهِ ورسولِه، وهما متلازمانِ أيضًا[(١)].

١٧- كرَّر اللهُ تعالى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مرَّتينِ في هذه السُّورة، وكان بين الآيتين ذِكرُ قتلِ النَّفس، وقد قال أهلُ العلم: إنَّ قاتلَ النَّفس له توبةٌ، واستدلُّوا لذلك بأنَّ الله ذكَر قَتْلَ النَّفس بين آيتين كلتاهما تدلُّ على أنَّ ما سوى الشِّرك فاللهُ تعالى يغفِرُه[(٢)].

١٨- قوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، وفي الآية الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، فيؤخذُ مِن مجموعِ الآيتينِ أنَّ المشركَ مُفترٍ ضالٌّ، وهو كذلك؛ لأنَّ دَعْواه أنَّ لله شريكًا كذِبٌ وافتراءٌ عظيمٌ، وكونُه يَبني على هذه الدَّعوى أن يُشرِكَ بالله ويطبق ذلك في عمله يكونُ هذا ضلالًا[(٣)].

١٩- قول الله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾، كنى بالدُّعاءِ عن العبادةِ؛ لأنَّ مَن عبَد شيئًا دعاه عند حوائجِه ومصالحه، وما أنسَبَ التَّعبيرَ لعبَّاد الأوثانِ عن العبادة بالدُّعاءِ، إشارة إلى أنَّ كلَّ معبودٍ لا يُدعى في الضَّروراتِ فيسمَع، فعابدُه أجهلُ الجَهَلةِ[(٤)].

٢٠- أنَّ الطَّاعةَ تُسمَّى دُعاءً وعِبادةً؛ لقوله: ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾[(٥)].

٢١- التَّحذيرُ مِن الانصياعِ لأوامرِ مَن لَعَنَه اللهُ؛ لأنَّ هذه الجملةَ في قوله:

(١) ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٤-٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٣).

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ كالتَّعليلِ لذَمِّهم حينما عبَدوا الشَّيطانَ[١].

٢٢- إثباتُ القولِ للشَّيطان، وأنَّه يقولُ كما أنَّه يفعَلُ أيضًا، وقد أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه يأكل ويشربُ بشِماله؛ فهو يقولُ ويفعلُ ويُمَنِّي ويعِدُ ويضُرُّ[٢].

٢٣- أنَّ نصيبَ الشَّيطانِ من عباد الله مفروضٌ، أي: مُقدَّرٌ لا بدَّ أن يكونَ؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾[٣].

٢٤- أنَّ الشَّيطانَ أقسَم قَسَمًا مؤكَّدًا أن يُضِلَّ هؤلاء النَّصيبَ الَّذين فُرِضوا له، وهذا القَسَمُ له مدلوله، فيتفرَّعُ عليه أنَّه يجبُ علينا أن نحذَرَ مِن وساوسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّها كلَّها ضلالٌ؛ لقوله: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[٤].

٢٥- أنَّ هذا الإضلالَ الَّذي يقعُ مِن الشَّيطانِ لبني آدمَ مصحوبٌ بالأمنِيَّاتِ، بمعنى أنَّه يُدخِلُ عليهم الأمانيَّ، وأنَّهم ينالون خيرًا، وأنَّ المعاصيَ لا تضُرُّهم، وأنَّ التَّوبةَ قريبةٌ، وما أشبَهَ ذلك[٥].

٢٦- قول الله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، بدأ بالأمرِ بالتَّبتيكِ، وإن كان مندرجًا تحت عمومِ التَّغييرِ لخَلقِ اللهِ؛ ليكونَ ذلك استدراجًا لِمَا يكونُ بعده من التَّغييرِ العامِّ، واستيضاحًا من إبليسَ طواعيتَهم في أوَّلِ شيءٍ يُلقيه إليهم، فيَعلَمَ بذلك قَبولَهم له، فإذا قبِلوا ذلك أمَرَهم بجميع التَّغييراتِ الَّتي يُريدُها منهم؛ كما يفعلُ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٤).

الإنسانُ بمن يقصِدُ خداعَه: يأمُرُه أوَّلًا بشيءٍ سهلٍ، فإذا رآه قد قبِل ما ألقاه إليه من ذلك، أمَره بجميعِ ما يُريدُ منه[1].

٢٧- قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ بتقطيعِ آذانِها كالبحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحام، فنبَّه ببعضِ ذلك على جميعِه، وهو نوعٌ من الإضلالِ يقتضي تحريمَ ما أحلَّ الله، أو تحليلَ ما حرَّم الله، ويلتحقُ بذلك مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ، والأحكامِ الجائرةِ، ما هو مِن أكبرِ الضَّلال[2].

٢٨- في قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الأصلَ في تغيير خَلْقِ الله المنعُ؛ لأنَّه من أوامرِ الشَّيطانِ[3].

٢٩- أنَّه لولا وعودُ الشَّيطانِ لَمَا عُنِيَ أولياؤُه بنَشْرِ مذاهبِهم الفاسدةِ وآرائِهم وأضاليلِهم، الَّتي يَبتغون بها الرِّفعةَ والجاهَ والمال، وهؤلاء موجودون في كلِّ زمان، ويُعرَفون بمقاصدِهم، وقد دلَّ على هذا ما قبله، ولكنَّه ذكَرَه ليصِلَ به قولَه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[4].

٣٠- الأقوالُ الباطلةُ مَصدرُها وعْدُ الشَّيطانِ وتَمنِّيه؛ فإنَّ الشيطانَ يُمنِّي أصحابَها الظَّفَرَ بالحقِّ وإدراكَه، ويَعِدُهم الوصولَ إليه مِن غيرِ طريقِه؛ فكلُّ مبطلٍ له نصيبٌ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[5].

٣١- في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ أنَّ مرجعَ الطَّائعينَ للشَّيطانِ جهنَّمُ، وأنَّه لا يمكِنُ أن يخرُجوا منها، ويكونُ ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٢-٧٣).
(٢) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥١).
(٥) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

على مَن أطاعوه طاعةً مُطلَقةً، أمَّا مَن أطاعوه في بعضِ المعاصي فإنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّهم لا يُخلَّدون في النَّار، وإنَّما يُعذَّبون بقدر أعمالِهم، ثمَّ يُخرَجون من النَّارِ[(١)].

٣٢- جوازُ الشَّهادة لكلِّ مؤمنٍ عمِل الصَّالحات بأنَّه يدخُلُ الجنَّةَ؛ لقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، وهذا على سبيلِ العموم، فإنَّنا نشهَدُ لكلِّ مؤمنٍ عاملٍ للصَّالحاتِ أنَّه سيدخُلُ الجنَّةَ، لكن لا نُطبِّقُ الشَّهادةَ هذه على جميع أفراد العموم[(٢)].

٣٣- قول الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ أكثَرَ مِن التَّأكيدِ هنا؛ لأنَّه في مقابلةِ وعدِ الشَّيطان، ووعدُ الشَّيطان موافِقٌ للهوى الَّذي طُبِعَتْ عليه النُّفوسُ، فلا تنصرِفُ عنه إلَّا بعُسرٍ شديدٍ[(٣)].

٣٤- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، فصدَق اللهُ العظيمُ الَّذي بلَغ قولُه وحديثُه في الصِّدق أعلى ما يكونُ؛ ولهذا لَمَّا كان كلامُه صِدقًا، وخبرُه حقًّا، كان ما يدلُّ عليه مطابَقةً وتضمُّنًا وملازمةً كلُّ ذلك مرادًا مِن كلامه، وكذلك كلامُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لكونه لا يُخبِر إلَّا بأمرِه، ولا ينطِقُ إلَّا عن وحيِه[(٤)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه: التفاتٌ من الغَيبة في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

ﵟاللَّهِﵞ إلى التَّكلُّم بقوله: ﵟنُؤْتِيهِﵞ -على قِراءة الجُمهورِ بالنُّونِ-؛ ليُناسِبَ ما بَعدَه من قولِه: ﵟنُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦﵞ، فيكون إسنادُ الثوابِ والعِقابِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ العَظيمِ، وهو أبلغُ مِن إسنادِه إلى ضميرِ الغائبِ(١).

٢- قوله: ﵟوَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَﵞ: فيه عَطْفُ اتِّباعِ غَيْرِ سبيلِ المُؤمنينَ على مُشاقَّةِ الرَّسولِ في قوله: ﵟوَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰﵞ على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشنيعِ، وإلَّا فمَن يُشاقِقُ الرَّسولَ هو متَّبِعٌ غيرَ سبيلِ المؤمنين ضرورةً، ولكنَّه بدأ بالأعظمِ في الإثم، وأَتْبَعَ بلازِمه توكيدًا، وفائدتُه أيضًا الحَيْطَة لحِفظِ الجامِعةِ الإسلاميَّةِ بعدَ الرسولِ؛ فقد ارتدَّ بعضُ العَرَبِ بعد الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكانوا ممَّن اتَّبَعَ غيرَ سبيلِ المؤمنينَ ولم يُشاقُّوا الرَّسولَ (٢).

٣- قوله: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًاﵞ: استئناف ابتدائيٌّ، جُعِل تمهيدًا لِمَا بعده مِن وصفِ أحوال شِركِهم(٣).

- وقوله: ﵟلَا يَغۡفِرُﵞ، وﵟيَغْفِرُ... لِمَنْ يَشَاءُﵞ فيه: تكرارٌ للتَّأكيدِ، والتَّشديدِ(٤).

- وقوله: ﵟيُشۡرَكَﵞ، وﵟوَمَن يُشۡرِكۡﵞ فيه: تكرارٌ(٥)، وهو يُفيدُ التَّأكيدَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢) و(٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٧) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

- وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾: فيه تأكيدُ الخبرِ بحرف (قد)؛ اهتمامًا به؛ لأنَّ المواجَهَ بالكلامِ هنا المؤمِنون، وهم لا يَشكُّون في تحقُّقِ ذلك[(١)].

٤- **قوله:** ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ بيانٌ وتفصيلٌ بعدَ الإجمال في قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾[(٢)].

- قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ إيرادُها بهذا الاسم؛ للتَّنبيهِ على فَرْطِ حماقةِ عَبَدتِها، وتَنَاهِي جهلِهم[(٣)].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ عبَّر بصيغةِ «فعيل» ﴿مَّرِيدًا﴾- أي: عاتيًا صُلْبًا عاصيًا ملازمًا للعِصيان- الَّتي هي للمُبالغةِ في سياقِ ذمِّهم؛ تنبيهًا على أنَّهم تَعبَّدوا لِمَا لا إلباسَ في شَرِّه[(٤)].

٥- **قوله:** ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾: الجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لِمَا قبلها؛ فقد دلَّ على أنَّ ما دعاهم إليه الشَّيطانُ: مِن تَبْتيكِ-أي: تَقطيع- آذانِ الأنعامِ، وتغييرِ خَلْقِ الله، إنَّما دعاهم إليه؛ لِمَا يقتضيه من الدَّلالةِ على استشعارِهم بشِعاره، والتَّديُّنِ بدعوتِه[(٥)].

٦- **قوله:** ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ استئنافٌ لبيانِ أنَّه أنجزَ عزمَه، فوعَد ومنَّى وهو لا يزالُ يعِدُ ويُمنِّي؛ فلذلك جِيءَ بالمضارعِ[(٦)].

- وجملة: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٠٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٦).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾[١].

- وفيه تكرارُ فِعْل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾[٢]، وهو يُفيد التَّأكيدَ على كثرةِ وعودِه الكاذبةِ.

- وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾: فيه إظهارٌ لِلَفْظة ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في موضعِ الإضمار، وكان مُقتضى السِّياقِ أن يقولَ: (وما يعِدُهم إلَّا غرورًا)، لكنَّه أظهرَ في مقام الإضمارِ؛ لإظهارِ عداوتِه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٣] [فاطر: ٦].

٧- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾: جِيءَ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتنبيه السَّامعين إلى ما يرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ من الخبرِ، وأنَّ المشارَ إليهم جَديرونَ به عقِبَ ما تَقدَّم مِن ذِكرِ صِفاتهم[٤].

٨- **قوله تعالى:** ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى نونِ العظَمةِ؛ اعتناءً بأنَّه تعالى هو الَّذي يتولَّى إدخالَهم الجنَّة، وتشريفًا لهم[٥].

٩- **قوله:** ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾: كلمة ﴿حَقّٗا﴾ مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ جملة: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ إذ هذا في معنى الوَعدِ، أي: هذا الوعدُ أُحقِّقُه حقًّا، أي: لا يتخلَّفُ[٦].

١٠- **قوله:** ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾: الاستفهامُ فيه غرَضُه الإنكارُ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٢-٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤، ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

لا أحدَ أصدقُ قولًا من اللهِ تعالى[١].

- والجملةُ تذييلٌ للوعدِ، وتحقيقٌ له، وهي جملةٌ مؤكِّدةٌ بليغةٌ، وفائدةُ هذه التَّوكيداتِ معارَضَةُ مواعيدِ الشَّيطانِ الكاذبةِ لقُرنائِه بوعدِ اللهِ الصَّادقِ لأوليائِه، والمبالغةُ في تأكيدِه؛ ترغيبًا للعبادِ في تَحصيلِه[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٧).

الآيات (١٢٣ - ١٢٦)

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾: الأمانيُّ: الأكاذيبُ، ومَا يتمنَّاه الإنسانُ ويَشتهيه أيضًا، والأُمْنِيَّة -وهي التِّلَاوةُ المُجرَّدة عن المعرفة- تَجري عند صاحِبها مَجرَى أمنيَّةٍ متمنَّاة على التَّخمينِ(١).

﴿وَلِيّٗا﴾: أي: نصيرًا، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكانُ، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه(٢).

﴿نَقِيرٗا﴾: النَّقير: النُّقرة الَّتي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفِيف، والنَّقر: قرعُ الشَّيء المُفضِي إلى النَّقب(٣).

﴿مِلَّةَ﴾: المِلَّة: الدِّين، والطَّريقة، ويعبَّر بها عن أُصولِ الشَّرائع، مشتقَّة مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧- ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢- ٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

أملَلْت (أي أملَيْت)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومتلوٍّ، فإذا أُرِيد الدِّينُ باعتبارِ الدُّعاءِ إليه قِيل: مِلَّة، وإذا أُريد باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: (دِين)[١].

﴿خَلِيلًا﴾: أي وليًّا، والخُلَّةُ: المودَّةُ، ونهايةُ المحبةِ التي تخلَّلَتْ روحَ المحبِّ وقلبَه، حتى لم يبقَ فيه موضعٌ لغيرِ المحبوبِ، فلا تدعُ فيه خللًا إلَّا ملأتْه، وأصل (خلل): دِقَّة أو فُرْجَة[٢].

﴿مُحِيطًا﴾: أي: عالِمًا، والإحاطةُ بالشَّيء هي العِلْم بوجودِه، وجِنسه، وقَدْره، وكيفيَّته، وغرَضِه المقصودِ به، وبإيجاده، وما يكون به ومِنه؛ وذلك ليس إلَّا لله تعالى[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾

﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ الجارُّ والمجرورُ في محلِّ نصْبٍ خبرُ ﴿لَّيْسَ﴾، واسم ﴿لَّيْسَ﴾ مُضمَر، تقديرُه: (ذلِك)، يَعودُ على الجزاءِ المفهومِ مِن قَوْلِه: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، أي: ليس الجزاءُ تابعًا لأمانيِّ النَّاسِ ومُشتهاهم، بل هو أمْرٌ مُقَدَّرٌ مِن الله تعالى تقديرًا بِحَسَبِ الأعمالِ، وقيل: يعودُ المُضمَر على ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس يُنالُ ما وعدَ اللَّه من الثَّوابِ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا بأمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ، وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣-٧٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٤٠٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩٥-٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطب اللهُ المسلمين قائلًا لهم: إنَّ حصولَ النَّجاة والظَّفَرِ ليس بمجرَّدِ تمنِّيكم لها، ولا هي حاصلةٌ لأهل الكتابِ بمجرَّدِ أمانيِّهم، فإنَّ مَن يعمَلُ سوءًا يُجازى عليه، ولا يجدُ له أحدًا مِن دون الله يواليه، أو ينصُرُه.

ومَن يعمَل الأعمالَ الصَّالحةَ، سواءٌ كان ذكرًا أم أنثى، وهو مؤمنٌ بالله ورسولِه، فأولئك يدخلون الجنَّةَ، ولا يُظلَمون شيئًا ولو قلَّ، حتَّى ولو مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ على ظهر نواةِ التَّمرِ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه لا أحدَ أحسنُ دِينًا ممَّن أخلَص لله عزَّ وجلَّ، وهو متَّبعٌ شرعَ الله تعالى، واتَّبعَ دِينَ وطريقة إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، مستقيمًا على التَّوحيدِ، واتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا.

وللهِ جميع ما في السَّموات والأرضِ، وقد أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ سبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

أي: لا يَحصُلُ لكم- أيُّها المسلِمون ولا لليهود والنَّصارى- النَّجاةُ والظَّفَرُ بمجرَّدِ تمنِّي ذلك[١].

ومِن أمانيِّ أهلِ الكتابِ الَّتي أخبَرَ اللهُ تعالى عنها، قولُهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٧-٢٥٨).

إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

أي: إنَّ كلَّ مَن يعملُ منكم- أيُّها المسلمون أو مِن أهلِ الكتاب- سوءًا صغيرًا أو كبيرًا، فإنَّه يُجازى به، سواءٌ كان جزاءً قليلًا أم كثيرًا، دُنيويًّا، أم أُخرويًّا[١].

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزلتْ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغتْ مِن المسلمين مَبلغًا شديدًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قارِبوا وسدِّدوا؛ ففي كلِّ ما يصابُ به المسلمُ كفَّارةٌ، حتَّى النَّكبةِ[٢] يُنكَبُها، أو الشَّوكةِ يُشاكُها))[٣].

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).
قال السعدي: (والناسُ في هذا المقام درجاتٌ لا يعلَمُها إلا اللهُ، فمستقلٌّ ومستكثِرٌ، فمن كان عملُه كلُّه سوءًا، وذلك لا يكون إلا كافرًا، فإذا مات من دون توبةٍ جُوزِيَ بالخلود في العذاب الأليم.
ومَن كان عملُه صالحًا، وهو مُستقيمٌ في غالبِ أحواله، وإنما يصدُرُ منه بعضَ الأحيانِ بعضُ الذُّنوب الصِّغارِ؛ فما يُصيبه من الهمِّ والغمِّ والأذَى وبعضِ الآلام في بدنِه أو قلبِه أو حبيبه أو مالِه ونحو ذلك- فإنَّها مُكفِّراتٌ للذُّنوب، وهي ممَّا يُجزَى به على عملِه، قيَّضها اللهُ لُطفًا بعباده، وبَيْنَ هذين الحالينِ مراتبُ كثيرةٌ.
وهذا الجزاءُ على عملِ السُّوء العامِّ مخصوصٌ في غير التَّائبين؛ فإنَّ التَّائبَ مِن الذَّنبِ كمَن لا ذنبَ له؛ كما دلَّت على ذلك النصوصُ) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).
(٢) النَّكْبةُ: هي ما يُصِيبُ الإنسانَ مِنَ الحوادثِ. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١١٣).
(٣) رواه مسلم (٢٥٧٤).

أي: ولا يَجِد الَّذي يَعمل سوءًا أحدًا سوى الله تعالى يَلِي أمرَه، ويُحصِّل له ما يطلبُه، ولا يجِد ناصرًا سوى الله تعالى ينصُرُه، ويدفَعُ عنه ما يحذَرُه[١].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى الجَزاءَ على السَّيِّئاتِ، وأنَّه لا بدَّ أن يأخُذَ مستحَقَّها مِن العبدِ، إمَّا في الدُّنيا، وهو الأجود له، وإمَّا في الآخرةِ- شرَعَ في بيان إحسانِه وكرَمِه ورحمتِه في قَبولِ الأعمالِ الصَّالحة من عبادِه[٢]، فقال:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾.

أي: ومَن يعمَلِ الأعمالَ الصَّالحة، قلبيَّةً كانت أو بدنيَّةً، مِن ذُكور العِبادِ وإناثهم، وهو مؤمنٌ بي وبرَسولي محمَّد[٣].

﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ قِراءتان[٤]:

١- قِراءة ﴿ يُدْخَلُونَ ﴾ على البِناءِ لـما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّهم لا يَدخُلون الجنَّة

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٥-٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦١-٢٦٢).

(٤) قال ابن زنجلة: (اعلمْ أنَّ المعنيينِ متداخِلان؛ لأنهم إذا أُدخِلوا دَخلوا، وإذا دخَلوا فبإدخالِ الله إيَّاهم يَدخُلون) ((حجة القراءات)) (ص: ٢١٣).

حتَّى يُدخِلَهم اللهُ تعالى[١].

٢- قراءة ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بجَعْلِ الفِعل للدَّاخلين؛ لأنَّهم هم الدَّاخلون بأمرِ الله لهم[٢].

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: فإنَّ أصحاب هذه المنزلة العالية الَّذين جمَعوا بين الإيمانِ والعمل الصَّالح إنَّما يدخُلون الجنَّة بإذنِ الله تعالى، ويُنعَّمون فيها[٣].

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾.

أي: ولا يَنقُصُ اللهُ تعالى هؤلاء الَّذين يعمَلون الصَّالحاتِ من ثوابِ عملِهم ولا مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ في ظَهر النَّواة؛ فكيف بما هو أعظمُ من ذلك وأكثرُ؟! فهو سبحانه إنَّما يُوفِّيهم أجورَهم كما وعَدَهم[٤].

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

---

(١) قرأ بها أبو بكر وأبو عمرو وابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣١٨)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢١٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣١٨). ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥-٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٦-٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ أمرَ النَّجاة- بل السَّعادة- منُوطٌ بالعملِ والإيمان معًا، وذكرَ ثوابَ المؤمنينَ- أعقَبه بتفضيلِ دِينهم، وبيانِ أنَّ صفوةَ الأديانِ الَّتي ينتحلُها النَّاسُ هي مِلَّةُ إبراهيمَ في إخلاصِ التَّوحيدِ، وإحسانِ العملِ، وهو الدِّين القيِّمُ، ودرجةُ الكمالِ في ذلك(١)، فقال:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾.

أي: لا أحدَ أصوبُ طريقًا، وأصلحُ عملًا ممَّن أخلَص للهِ عزَّ وجلَّ، وانْقادَ له بالطَّاعةِ(٢).

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

أي: وهو مع هذا الإخلاصِ في العملِ، متَّبعٌ شَرْعَ اللهِ تعالى فيه(٣).

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾.

أي: واتَّبَع دِينَ وشرْعَ إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، وعن التَّوجُّهِ للخَلْق، مستقيمًا على التَّوحيدِ، مقبلًا بكُلِّيَّته على الخالقِ جلَّ وعلا(٤).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٨-٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾.

أي: واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ وليًّا قد وصَل إلى غايةِ ما يتقرَّبُ به العبادُ له، وانتهى إلى درجة الخُلَّةِ، الَّتي هي أرفعُ مقاماتِ المحبَّةِ الخالِصةِ لله تعالى(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).
قال ابن كثير: (وإنَّما سُمِّي خليلَ الله لشدَّةِ محبَّةِ ربِّه عزَّ وجلَّ له؛ لِما قام به من الطَّاعةِ التي يحبُّها ويرضاها) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٣).
وقال السعديُّ: (وإنَّما اتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا؛ لأنَّه وفَّى بما أُمِر به، وقام بما ابتُلِي به؛ فجعَله الله إمامًا للناس) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).
وقال ابنُ عثيمين: (الخليل هو ذو المحبَّة الخالصة، وسُمي بذلك؛ لأنَّ المحبَّة شمِلت جميعَ جسده حتى تخلَّلَت عروقَه، وفي ذلك يقول الشاعر:
قَدْ تخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منِّي = وبِذَا سُمِّي الخَليلُ خَليلَا).
((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠)، وينظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠).
قال ابن جرير: (فإن قال قائلٌ: وما معنى الخلَّةُ الَّتي أُعْطِيَها إبراهيمُ؟ قِيل: ذلك مِن إبراهيمَ عليه السَّلام العداوَةُ في اللَّهِ والبغضُ فيه، والولايَةُ في اللَّهِ والحُبُّ فيه، على ما يُعْرَفُ مِن معاني الخلَّةِ. وأمَّا مِن اللَّه لإبراهيمَ، فنصرتُه عَلى مَن حاوَله بسُوءٍ، كالَّذي فعَل به إذ أراده نمرُوذُ بما أرادَه به مِن الإحْراقِ بالنَّارِ، فأنْقَذَه منها، وأعْلَى حجَّتَه عليه إذ حاجَّه، وكما فعل ملِكُ مِصرَ إذ أرادَه عن أهْلِه، وتمكينُه مِمَّا أحَبَّ، وَتَصْييرُه إمامًا لمَن بعدَه مِن عِبادِه وقُدْوَةً لمَن خَلَقَه في طاعَتِه وعِبادَتِه ، فذلك مَعْنى مُخالَّتِه إيَّاه). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٩).
قال ابن تيمية: (والخلةُ هي كمالُ المحبَّة المستلزمةِ مِن العَبْدِ كَمالَ العُبودِيَّة لله، ومن الربِّ سبحانَه كمالَ الربوبيةِ لعِبادِه الَّذين يُحِبُّهم ويُحِبُّونه). ((العبودية)) (ص: ١٠٧).

لَمَّا ذكَر الله تعالى الخُلَّة لإبراهيمَ، ذكَر أنَّه مع الخُلَّةِ عبدُ الله، وأنَّ الخُلَّة ليست لاحتياجٍ، كما تكون خُلَّةُ الآدميِّينَ، وكيف يُعقَلُ ذلك وله مُلكُ السَّمواتِ والأرض؟! وما كان كذلك، فكيف يُعقَل أن يكونَ محتاجًا إلى البشر الضَّعيفِ؟! وإنما هي خُلَّةُ تشريفٍ منه تعالى لإبراهيمَ عليه السَّلام، مع بقائِه على العبوديَّة[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى الوعدَ والوعيدَ، ولا يُمكنُ الوفاءُ بهما إلَّا عند حصولِ أمرين: أحدهما: القدرةُ التَّامَّة المتعلِّقة بجميع الكائنات والمُمكِنات، والثَّاني: العِلم التَّامُّ المتعلِّق بجميع الجزئيَّات والكلِّيَّات حتَّى لا يشتبهَ عليه المُطيعُ والعاصي، والمُحسنُ والمسيءُ- دلَّ على كمال قدرتِه بقولِه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وعلى كمالِ عِلمِه بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾[٢].

وأيضًا لَمَّا تقدَّم ذِكرُ عامل السُّوء وعامِل الصَّالحات، أخبَر بعظيم مُلكه، وأنه المالكُ لجميع ما في السَّموات، وما في الأرض، والعالَمُ مملوكٌ له، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكِه[٣]، فقال تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يملِكُ وحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ، وجميعَ ما في الأرضِ؛ فالجميعُ عبيدُه وخلْقُه، وهو المُتصرِّفُ فيهم، المُتفرِّدُ بتدبيرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

قال ابن جرير: (يعني بذلك جلَّ ثناؤُه: واتَّخذ اللهُ إبراهيمَ خليلًا لطاعتِه ربَّه، وإخلاصِه العبادةَ له، والمسارعة إلى رِضاه ومحبَّته، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته، وكيف يحتاج إليه وإلى خُلَّته، وله ما في السَّمواتِ وما في الأرض من قليلٍ وكثيرٍ مُلكًا، والمالك الذي إليه حاجةُ مُلكِه

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾.

أي: لا تَخفى عليه خافيةٌ، ولا يغيبُ عن عِلمِه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلمًا وقُدرةً، وسمعًا وبصرًا، وتدبيرًا وغيرَ ذلك(١).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أبطَل اللهُ الأمانيَّ، وأثبَت أنَّ الأمرَ كلَّه معقودٌ بالعملِ الصَّالح، وأنَّ مَن أصلَح عملَه فهو الفائزُ، ومَن أساء عملَه فهو الهالك؛ قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، فوجَب قطعُ الأمانيِّ، وحسمُ المطامعِ، والإقبالُ على العملِ الصَّالح(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، الأعمالُ بدون الإيمان كأغصانِ شجرةٍ قُطِع أصلُها، وكبناءٍ بُنِي على موجِ الماءِ؛ فالإيمانُ هو الأصل والأساسُ والقاعدةُ الَّتي يُبنَى عليها كلُّ شيء، وهذا القيدُ ينبغي التَّفطُّنُ له في كلِّ عملٍ أُطلِقَ؛ فإنَّه مُقيَّدٌ به(٣).

٣- أنَّ التَّمنِّيَ لا يُجدي شيئًا؛ لقوله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ

دون حاجتِه إليه، فكذلك حاجةُ إبراهيم إليه، لا حاجته إليه، فيتَّخِذه من أجلِ حاجته إليه خليلًا، ولكنه اتخذه خليلًا؛ لمسارعتِه إلى رِضاه ومحبَّتِه، يقول: فكذلك فسارِعوا إلى رِضايَ ومحبَّتي لأتَّخِذَكم لي أولياءَ ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).

ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[١].

٤- الحذرُ مِن عقوبةِ الذُّنوبِ؛ فمِن النَّاسِ مَن يُعاقَبُ بذُنوبِه؛ إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخِرَة؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٢].

٥- كلُّ ظالمٍ مُعاقَبٌ في العاجِلِ على ظُلْمِه قبل الآجِلِ، وكذلك كلُّ مُذنِبٍ ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾، وربما رأى العاصي سلامةَ بَدَنِه ومالِه، فظَنَّ أنْ لا عقوبةَ، وغَفْلَتُه عمَّا عُوقِبَ به عقوبةٌ[٣].

٦- أنَّ المصائبَ في الدُّنيا كفَّارات؛ لأنَّها نوعٌ من الجزاء، وقد أخبر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه ما من غمٍّ ولا همٍّ ولا حزنٍ يُصيب العبدَ إلَّا كُفِّر به عنه، حتَّى الشوكةُ إذا أصابَتْه فإنَّ اللهَ يُكفِّرُ بها عنه[٤]؛ قال تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[٥].

٧- أنَّه لا بدَّ لقَبولِ العمل أن يكونَ صالحًا؛ لقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾، فإن كان فيه شِرْكٌ لم يُقبَلْ؛ لفواتِ الشَّرطِ، وهو الإخلاصُ، ومَن عمِل عملًا مبتدَعًا بإخلاصٍ تامٍّ، لكن ليس على شريعةِ الرسولِ، فإنَّه لا يُقبلُ منه؛ لأنَّه على غيرِ الاتِّباعِ، فالله تعالى لا يَقبَلُ مِن العَملِ إلَّا ما كان خالصًا لوَجْهِه، مع متابَعَةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه، وما عدَا ذلك فهو مردودٌ على عامِلِه؛ يُرَدُّ عليه أحوَجَ ما هو إليه هباءً منثورًا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٨).

(٢) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٥- ٣١٦).

(٣) ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٦٥).

(٤) ينظر ما رواه البخاري (٥٦٤١) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٥) و (٢/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة

٨- يُرشِدُ قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، إلى أنَّ كمالَ الإيمانِ لا يحصُلُ إلَّا عند تفويضِ جميع الأمورِ إلى الخالقِ، وإظهارِ التَّبرِّي مِن الحَولِ والقوَّة، ويُنبِّهُ على فساد طريقةِ مَن استعان بغيرِ الله تعالى[(١)].

٩- الحثُّ على الإخلاص؛ لقوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾[(٢)].

١٠- الحثُّ على المتابعة للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[(٣)].

١١- دلَّ قولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ على أنَّ إبراهيمَ- عليه السَّلام- إنَّما كان بهذا المنصبِ العالي، وهو كونه خليلًا لله تعالى، بسبب أنَّه كان عاملًا بتلك الشَّريعة، وذلك يُفيد التَّرغيبَ العظيمَ في هذا الدِّين، والعملَ بهذا الشَّرعِ للفوز بأعظمِ المناصِبِ في الدِّين[(٤)].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ذكَر المسلمينَ في الأمانيِّ؛ لقَصدِ التَّعميمِ في تفويضِ الأمورِ إلى ما حكَم اللهُ ووعَد، وأنَّ ما كان خلافَ ذلك لا يُعتَدُّ به، وما وافقه هو الحقُّ، والمَقْصِد المهمُّ هو قوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على نحو: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٥)] [سبأ: ٢٤].

النساء)) (٢/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).

٢- مجرَّدُ الانتسابِ إلى أيِّ دينٍ كان، لا يُفيد شيئًا إن لم يأتِ الإنسانُ ببرهانٍ على صحَّة دعواه؛ فالأعمالُ تُصدِّقُ الدَّعوى أو تُكذِّبُها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾(١).

٣- أَنَّ في هاتينِ الآيتينِ ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ و﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من العِبرة والموعظةِ ما يدُكُّ صروحَ الأمانيِّ ومعاقلَ الغرورِ، الَّتي يأوي إليها ويتحصَّنُ فيها الكُسالى والجُهَّال والفُسَّاق من المسلمينَ، الَّذين جعلوا الدِّين كالجنسيَّةِ السِّياسيَّة، وظنُّوا أنَّ الله العزيزَ الحكيمَ يحابي مَن يسمِّي نفسَه مسلِمًا، ويفضِّلُه على مَن يسمِّيها يهوديًّا أو نصرانيًّا بمجرَّد اللَّقَب، وأنَّ العبرةَ بالأسماءِ والألقابِ لا بالعِلم والعَمَل(٢).

٤- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ ...﴾ العَدْلُ بين المتخاصمينِ، حتَّى وإنْ كان أحدُهما على حقٍّ، والثَّاني على باطلٍ؛ فالواجبُ العدلُ، وأنْ يُحكَمَ لكلِّ واحدٍ بما يستحقُّ، وجه ذلك: نفيُ كونِ الشَّيء بالأمانيِّ بالنِّسبة للمُسلمين واليهود والنَّصارى، ثمَّ إثبات أنَّ مَن عمل سوءًا جُوزيَ به، وهذا غايةُ العدلِ(٣).

٥- الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ للملابَسة، وليستْ للسَّببيَّة، أي: ليس الجزاءُ حاصلًا حصولًا على حسَبِ أمانيِّكم(٤).

٦- دلَّ قولُه تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ على أنَّ مَن عمِل سوءًا سيُجزَى به، ولكنَّ اللهَ تعالى قال في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).

لِمَن يَشَآءُ ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن عمِل سوءًا قد يغفِرُ اللهُ له. ويُجاب عن ذلك بأنَّ قوله ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ المرادُ به التَّهديدُ، وهو مِن بابِ الوعيدِ، والعفوُ عن الوعيدِ مِن بابِ الكرمِ، وهو مدحٌ وليس بذمٍّ[١].

٧- أنَّ الإنسانَ لا يُجازى بأكثرَ ممَّا عمِل من السُّوء؛ لقوله: ﴿يُجۡزَ بِهِۦ﴾، والباءُ هنا للعِوَضِ، أو للبدل، بخلاف مَن عمل حسنًا، فإنَّه يعطى أكثرَ؛ كما في آياتٍ أخرى[٢].

٨- أنَّ القرآنَ الكريم- كما وصَفه اللهُ عزَّ وجلَّ- مثاني، أي: تُثَنَّى فيه الأمورُ، فإذا ذُكِر المؤمنُ ذُكِر الكافرُ، وإذا ذُكِر جزاءُ الكافر ذُكِر جزاءُ المؤمن، وهكذا، قال تعالى ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وذلك بعد قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[٣].

٩- أنَّه لا فرقَ بين الرِّجالِ والنِّساءِ فيما يستحقُّون مِن الجزاء، ووجهُ الدَّلالة: قولُه: ﴿ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾، ثمَّ ذكَر الجزاء فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ﴾[٤].

١٠- قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ (مِن) الأُولى للتَّبعيض؛ لأنَّ كلَّ واحد لا يتمكَّنُ من عمل كلِّ الصَّالحات، وليس مُكلَّفًا بها[٥]، وقيل «مِن» لبيان جنس العمل المبهَم، في قوله: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ ﴾

(١) ينظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٤).
(فإنْ قال لنا قائلٌ: وما وجهُ دخول «مِن» في قوله: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [النساء: ١٢٤]، ولم يقُلْ: (ومَن يعمل الصالحات)؟ قيل: لدخولها وجهانِ: أحدهما: أن يكونَ اللهُ قد علم أن عبادَه المؤمنين لن يُطِيقوا أن يعمَلوا جميعَ الأعمال الصَّالحات، فأوجب وعدَه لِمَن

فـ «من» هنا بيانيَّة[١].

١١- في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ جواز الشهادة لكلِّ مَن عمل صالحًا وهو مؤمن أنَّه في الجنَّة؛ لأنَّ هذا خبر من الله، والله تعالى لا يُخلِف وعدَه[٢] لكن الشَّهادة على سبيلِ العمومِ لا التَّعيينِ.

١٢- قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، لَمَّا كان المرادُ الإخلاصَ الَّذي هو أشرفُ الأشياءِ؛ عبَّر عنه بالوجه الَّذي هو أشرفُ الأعضاء[٣].

١٣- فضيلة إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ حيث أُمِرْنا باتِّباعِه، وهذا يعني: أنَّه إمامٌ؛ ولهذا يُطلِق عليه العلماءُ اسمَ أو لقبَ: إمام الحُنفاءِ[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الخُلَّة أعلى رتبةً من المحبَّةِ؛ لاختصاص إبراهيمَ ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّمَ بها، ولو كانت بمعنى المحبَّة، أو في مرتبتِها، لكانت ثابتةً لجميع مَن يستحقُّ المحبَّةَ،

عمِلَ ما أطاق منها، ولم يحرِمْه مِن فضله بسبب ما عجَزَتْ عن عملِه منها قواه، والآخرُ منهما: أنْ يكونَ تعالى ذِكرُه أَوجبَ وعدَه لِمَن اجتنَب الكبائر وأدَّى الفرائض، وإن قصَّر في بعض الواجب له عليه؛ تفضُّلًا منه على عبادِه المؤمنين؛ إذ كان الفضلُ به أَولى، والصَّفحُ عن أهلِ الإيمان به أحرى، وقد تقوَّل قومٌ مِن أهل العربية أنَّها أُدخِلَتْ في هذا الموضعِ بمعنى الحذف، ويتأوَّله: ومَن يعمل الصالحاتِ مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن، وذلك عندي غيرُ جائز؛ لأن دخولَها لمعنًى، فغيرُ جائزٍ أنْ يكون معناها الحَذْفَ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٢٧-٥٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧١).

ومِن المعلوم أنَّه لا يصحُّ أن تقول: إنَّ الله اتَّخذ المؤمنين أخلَّاء؛ لأنَّ الخُلَّة خاصَّة، ومن ثَمَّ نعلم خطأَ من يقول: إبراهيمُ الخليلُ ومحمَّدٌ الحبيب؛ لأنَّ هذا تنقُّصٌ للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ حيث أنزل مرتبتَه من الخُلَّة إلى المحبَّة الَّتي يشتركُ فيها حتَّى المؤمنُ المتَّقي المقسِط الصَّابر(١).

١٥- إثباتُ أفعالِ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، والاتخاذ حادثٌ بعد وجودِ سببِه، فهو تبارَك وتعالى يفعَلُ ما يريدُ، ومتى شاء(٢).

١٦- خَتْمُ هذا السِّياقِ بهذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ لفوائد: (إحداها): التَّذكير بقدرتِه تعالى على إنجاز وعدِه ووعيدِه في الآيات الَّتي قبلها؛ فإنَّ له ما في السَّموات والأرض خَلقًا ومُلكًا، وهو أكرم مَن وعَد، وأقدرُ مَن أوعد، (ثانيها): بيان الدَّليل على أنَّه المستحِقُّ وحده لإسلام الوجهِ له، والتَّوجُّهِ إليه في كلِّ حال، وهذا هو رُوحُ الدِّين وجوهرُه؛ لأنَّه هو المالكُ لكلِّ شيء، وغيرُه لا يملِكُ بنفسِه شيئًا، فكيف يتوجَّهُ العاقلُ إلى مَن لا يملِكُ شيئًا، ويترك التَّوجُّهَ إلى مالكِ كلِّ شيءٍ، أو يُشرِكُ به غيرَه في التَّوجُّهِ ولو لأجلِ قُربِه منه؟! (ثالثها): نفيُ ما قد يَسبِقُ إلى بعضِ الأذهان مِن اللَّوازم العاديَّة في اتِّخاذِ اللهِ إبراهيمَ خليلًا، كأن يتوهَّمَ أحدٌ أنَّ هنالك شيئًا من المناسَبة أو المقارَبة في حقيقةِ الذَّات أو الصِّفات، فبيَّن تعالى أنَّ كلَّ ما في السَّموات والأرض مِلكٌ له، ومِن خَلقِه، مهما اختلفتْ صفاتُ تلك المخلوقات ومراتبُها في أنفُسِها، وبنسبة بعضِها إلى بعض(٣).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٥٩).

١٧- عمومُ مُلكِ الله، ويؤخَذُ ذلك من ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ جميعَ أسماءِ الموصول تفيدُ العمومَ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّنويهِ بفضائلِ الأعمال، والتَّشويهِ بمساويها[٢].

- وقوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ و: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ﴾ فيه: تكرارٌ[٣]، وهو يُفيد التَّأكيدَ.

٢- قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

قوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ زيادةُ تأكيدٍ؛ لردِّ عقيدةِ مَن يتوهَّم أنَّ أحدًا يُغني عن عذابِ الله[٤]، مع ما يُفيده تَكرارُ حرفِ النَّفيِ (لا) من التَّأكيدِ، وما تفيده صيغة فعيل (نصيرًا) من المبالغة.

- قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ فيه: تَكرار[٥]، وهو يفيد التَّأكيد.

٣- قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

- وبين قوله: ﴿ذَكَرٍ﴾، وقوله: ﴿أُنثَىٰ﴾ طِباقٌ يُفيدُ التَّعميمَ، أي: إنَّ المقصودَ البشرُ كلُّهم، بدون تحديد جِنسٍ معيَّنٍ[٦]، كما أنَّه يُبرِزُ المعنى ويوضِّحه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٠٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).

- قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فيه: اختصاصٌ بذِكْر الإيمانِ[١]؛ إذ الإيمانُ من الشُّروطِ الأساسيَّة لقَبول العمل.

٤- قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

- قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ...﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: لا أحَدَ أحسنُ دِينًا مِمَّن فعل ذلك؛ فهو إنكارٌ واستبعادٌ لأنْ يَكونَ أحدٌ أحسنَ دِينًا ممَّن فعَلَ ذلك أو مُساويًا له[٢]. وفي هذا الاستفهامِ تنبيهٌ على أنَّ ذلك مُنتهَى ما تَبْلُغه القُوَّةُ البشريَّةُ[٣].

- وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾: يُفيد الحصرَ، في أنَّه أسلَمَ نفْسَه لله سبحانه، وما أسلَمَ لغيره[٤].

- وفيه كنايةٌ عن تمامِ الطَّاعةِ والاعترافِ بالعبوديَّة، وهو أحسنُ الكنايات؛ لأنَّ الوجهَ أشرفُ الأعضاء[٥].

- قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فيه: اختصاصٌ[٦]؛ حيث خَصَّ مِلَّة إبراهيمَ بالاتِّباع؛ للدَّلالةِ على أحقِّيَّتِها بالاتِّباعِ مِن كلِّ ملَّة.

- وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾: جُملةٌ معترِضةٌ، لا محلَّ لها من الإعرابِ؛ فائدتُها تأكيدُ وجوبِ اتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلام؛ لأنَّ مَن بلَغَ مِن الزُّلْفَى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

عند اللهِ أنِ اتَّخذه خليلًا، كان جديرًا بأنْ تُتَّبعَ مِلَّتُه وطريقتُه[١].

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ ليستْ اعتراضيَّة[٢]، بل هي معطوفةٌ على الجُملةِ الاستفهاميةِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ...﴾ التي معناها الخبرُ- لا أحدَ أحسنُ دِينًا ممَّن أسلمَ وجهَه لله- نَبَّهَتْ على شرفِ المتبوعِ، وأنَّه جديرٌ بأنْ يُتَّبع؛ لاصطفاءِ اللهِ له بالخُلَّة، وعلى فوزِ المتَّبِع له[٣].

- وفيه: إظهارُ اسمِ إبراهيمَ عليه السَّلام في موقِع الإضمار؛ لتفخيمِ شأنِه، والتَّنصيصِ على أنَّه الممدوحُ، وتأكيدِ استقلالِ الجملةِ الاعتراضيَّة[٤].

٥- **قوله:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: جملةٌ تذييليَّةٌ مبتدَأةٌ، سِيقَت لتقرير وجوبِ طاعةِ الله تعالى على أهلِ السَّموات والأرض[٥].

- وإنَّما قال: ﴿مَا﴾، ولم يقُل (مَن)؛ لأنَّه ذهَب مَذهَبَ الجنسِ، والَّذي يعقِلُ إذا ذُكِر وأُريد به الجنسُ ذُكر بـ: (ما)[٦].

- وفيه اختصاصُ مُلك ما في السَّموات والأرض باللهِ عزَّ وجلَّ، ويُؤخَذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٦٩)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣٠).

(٢) قالوا: لأنَّ الاعتراضَ المصطلحَ عليه في النَّحو لا يُعترض بِهِ إلاَّ بَين مُفتقرينِ كصلةٍ وموصول، وشرطٍ وجزاءٍ، وقَسَم ومُقسَمٍ عليه، وتابع ومتبوع، وعامل ومعمول. وهذه الجملة ليستْ كذلك.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٧- ٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٩٨- ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٢).

(ويحتمل أنَّه أتى بـ ﴿مَا﴾؛ ليعمَّ بذلك الأشخاصَ والأوصاف؛ لأنَّ تَعيينَ «مَن» للعقلاء و﴿مَا﴾ لغير العقلاء إنَّما هو في الأعيانِ، لكنَّ ﴿مَا﴾ للأعيانِ والأوصاف). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

ذلك مِن تقديمِ الخَبر ﴿ وَلِلَّهِ ﴾؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، يفيدُ الحصرَ[١].

- وهو كالاحتراسِ على أنَّ الخُلَّة ليستْ كخُلَّة النَّاسِ المقتضيةِ المساواةَ أو التَّفضيلَ[٢]، أو التي تقتضي الحاجةَ؛ فإنَّ لِلَّهِ ما في السَّموات وما في الأرض، فالكلُّ خَلْقُه وعبيدُه ومُلكه.

٦- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾: تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله على الوجوهِ المذكورةِ[٣]، مع ما فيه مِن المبالغةِ في الاتِّصافِ بالعِلمِ بِالشَّيْءِ مِن جميعِ جِهاته[٤]، وما تَضمَّنه من التَّهديدِ والوعيد لِمَن خالَف أمْرَ المحيطِ بكلِّ شيءٍ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٧٨).

الآية (١٢٧)

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: يَسألُونَك الفُتيا وبيانَ الحُكم؛ يُقال: استفتيتُ عن كذا، إذا سألتَ عن الحُكْمِ، وأفتى الفقيهُ في المسألةِ، إذا بَيَّن حُكمَها، والفُتيا والفَتوى: الجوابُ عمَّا يُشكِلُ من الأحكام، وأصل (فتي): تبيينُ حُكمٍ[(١)].

﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: أي: بالعدلِ، وأصل القِسط يَدلُّ على مَعنيينِ مُتضادَّيْنِ: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقال: أَقْسَط: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

﴿وَمَا يُتۡلَىٰ﴾: ﴿ما﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وهو مبنيٌّ في محلِّ رفع، على أنَّه معطوفٌ على ضَميرِ الفاعِلِ في ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾ العائدِ على اللهِ تعالى، والتقديرُ: اللهُ يُفتيكم فِيهنَّ والمتلوُّ في الكِتابِ. وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٣) وممَّا قيل في محلِّ إعراب ﴿مَا﴾: إنَّه عطفٌ على الضميرِ المجرور بـ﴿فِي﴾، أي: يُفْتيكم

﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: مجرورٌ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: ما يُتلى عليكم في يَتامَى النِّساء وفي المستضعَفين. وقيل: إنَّه في موضع جرٍّ، لكنَّه معْطوفٌ على المجرور في ﴿فِيهِنَّ﴾، وهذا مِن بابِ العَطفِ على الضَّمير المجرورِ من غيرِ إعادة الجارِّ. وقيل: إنَّه في مَوضِع نصبٍ عَطفًا على مَوضِع ﴿فِيهِنَّ﴾، والتَّقدير: ويُبيِّن لكم حالَ المُستضعفين، وقيل غيرُ ذلك[1].

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ مصدرٌ مؤولٌ، وهو معطوفٌ على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، والتقدير: ما يُتلى عليكم في يَتامَى النِّساء، وفي المستضعفينَ، وفي القيامِ لليتامَى بالعَدْلِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ منصوبًا بإضمارِ (يأمُرُكم)، أي: ويأمُرُكم أن تَقوموا، وهو خِطابٌ للأئمَّة بأَنْ ينظُروا إليهم، ويَسْتَوفوا لهم حُقوقَهم، ولا يَدَعُوا أحدًا يَهْتَضِمُ جانِبَهم[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: إنَّ أصحابَك يسألونَك عن أحكامِ النِّساءِ، فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُفتيهم فيما سأَلوا عنه من أحكام النِّساء، ويُفتيهم سبحانه وتعالى أيضًا بما يُتلى عليهم في القرآن في شأنِ اليَتيمات اللَّاتي هنَّ تحتَ وِلايتِهم، فيَظلِمونَهنَّ بمَنْعِهنَّ مِن أخذِ ميراثِهنَّ، أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لينتفِعوا بأموالِهنَّ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في

فيهنَّ وفيما يُتْلى، اختاره وصحَّح معناه أبو حيَّان، وضَعَّف هذا الوجهَ الزمخشريُّ والسَّمينُ الحلبي وغيرُهما؛ لاختلالِه من حيثُ المعنى؛ لأنَّه ليس المرادُ أنَّ اللهَ يُفتيكم في شأنِ ما يُتْلى عليكم في الكتاب. ينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠١- ١٠٢).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٣-٣٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٠-١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٦٦).

حالةِ رَغبتِهم عنهنَّ، أو يرغبون فيهنَّ، ويريدون نِكاحهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ، مع عدمِ إعطائهنَّ حقوقهنَّ مِن المهرِ كاملةً، كما يُفتيهم جلَّ وعلا في شأن المستضعَفين من الوِلدان الصِّغار، ومنه أن يعطوهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألَّا يستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعدوانًا، وأن يعدِلوا مع اليتامى عدلًا تامًّا، ثمَّ أخبر سبحانه أنَّ ما يفعلونه من خيرٍ فإنَّ اللهَ كان به عليمًا، وسيَجزيهم عليه أتمَّ الجزاءِ.

تفسير الآية:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

سببُ النُّزول:

عن عُرْوةَ بنِ الزُّبَيرِ، أنَّه سَأَلَ عائِشَةَ رضِي اللهُ عنها، عن قولِ اللهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، قالتْ: يا ابنَ أُختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليِّها تُشارِكه في مالِه، فيُعجبه مالُها وجمالُها، فيُريد وليُّها أنْ يَتزوَّجَها بغيرِ أنْ يُقسِطَ في صَدَاقِها، فيُعطيها مِثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهوا أنْ يَنكحوهنَّ إلَّا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويَبْلُغوا بهنَّ أعْلَى سُنَّتِهنَّ مِن الصَّدَاق، وأُمروا أنْ يَنكحوا ما طابَ لهم مِن النِّساء، سواهنَّ، قال عُروةُ: قالتْ عائشةُ: ثمَّ إنَّ الناسَ استَفْتَوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعد هذه الآيةِ فيهنَّ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، قالتْ: والَّذي ذكَرَ اللهُ تعالَى أنَّه يُتْلَى عليكم في الكِتابِ: الآيةُ الأُولَى الَّتي قال اللهُ فيها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

ٱلنِّسَآءِ ﴾، قالتْ عائِشَةُ: وقَوْلُ اللهِ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، رَغْبة أحَدِكم عَنِ اليَتِيمَةِ الَّتي تكونُ في حَجْرِه، حِينَ تكونُ قَليلَةَ المالِ والجَمالِ، فَنُهُوا أنْ يَنْكِحوا ما رَغِبوا في مالِها وجَمالِها مِنْ يَتامَى النِّساءِ إلَّا بِالقِسطِ؛ مِن أَجْلِ رَغْبَتِهِم عنهُنَّ[1].

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه في أوَّلِ هذه السُّورة أنواعًا كثيرةً من الشَّرائع والتَّكاليف، ثمَّ أتبَعها بشرحِ أحوالِ الكافرين والمنافقين، واستقْصَى في ذلك، ثمَّ ختَم تلك الآياتِ الدَّالَّةَ على عظَمةِ جلالِ اللهِ وكمالِ كِبريائِه- عاد بعد ذلك إلى بيانِ الأحكام[2]، فقال:

﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾.

أي: ويسألُك أصحابُك -يا محمَّدُ- أنْ تُفتيَهم في أحكامِ النِّساءِ[3].

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ﴾.

قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: اللهُ يفتيكم في النِّساء[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٤٩٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٣)، وقال في (١١/ ٢٣٢): (اعلَمْ أنَّ عادةَ اللهِ في ترتيب هذا الكتابِ الكريم وقَعَ على أحسنِ الوجوه، وهو أنه يذكُرُ شيئًا من الأحكام، ثم يذكُرُ عَقِيبه آياتٍ كثيرةً في الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، ويخلط بها آياتٍ دالَّةً على كبرياء الله وجلالِ قدرتِه، وعظَمة إلهيَّته، ثم يعود مرةً أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسنُ أنواع التَّرتيب، وأقربها إلى التَّأثير في القلوبِ؛ لأنَّ التَّكليفَ بالأعمال الشَّاقَّةِ لا يقعُ في موقع القَبولِ إلا إذا كان مقرونًا بالوعدِ والوعيد، والوعدُ والوعيد لا يؤثِّر في القلب إلا عند القطعِ بغاية كمالِ مَن صدَر عنه الوعدُ والوعيد، فظهَر أن هذا التَّرتيَب أحسنُ التَّرتيبات اللَّائقةِ بالدَّعوةِ إلى الدِّين الحقِّ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور))

ثمَّ خَصَّ سبحانه بعد التَّعميم، الوصيَّةَ بالضِّعاف من اليتامى والوِلدان؛ اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التَّفريط في حقوقِهم، فقال[1]:

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

أي: ويُفتيكم أيضًا بِما يُتلَى عليكم في القُرآنِ[2] في شأنِ اليتامى مِن النِّساءِ اللَّاتي تحتَ ولايتِكم، فتبخَسونهنَّ حقَّهنَّ، وتَظلِمونهنَّ بمَنْعِهنَّ مِن أخْذِ ميراثِهنَّ، أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لتنتفِعوا بأموالِهنَّ خوفًا من استخراجِها من أيديكم إنْ تزوَّجْنَ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في حالةِ رَغبتِكم عنهنَّ، أو تَرغبون فيهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ، ولكن تُعطونهنَّ مِن المهرِ دون ما يستحِقْقنَ[3].

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتلى عليكم في القُرآنِ، في شأنِ المستضعَفين من الوِلدانِ الصِّغار، ومن ذلك وجوبُ إعطائِهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألا تستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعُدوانًا[4].

(٥/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦).

(٢) قال ابن عاشور: (وقوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ على اسم الجلالة، أي: ويُفتيكم فيهنَّ ما يُتلى عليكم في الكتاب، أي القرآن، وإسنادُ الإفتاءِ إلى ما يُتلى إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ ما يُتلى دالٌّ على إفتاءِ اللهِ، فهو سببٌ فيه، فآلَ المعنى إلى: قل الله يُفتيكم فيهن بِما يتلى عليكم في الكِتابِ) ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٣)، وينظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٧-٢٧٨).

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتْلَى عليكم في القُرآن، في أن تقوموا بالعدلِ التَّامِّ مع اليتامَى، ومن ذلك إعطاؤُهم فرائضَهم على ما قَسَم اللهُ تعالى لهم في كتابِه، ومِن ذلك القيامُ عليهم بإلزامِهم بحقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده، والقيامُ عليهم في مصالحِهم الدُّنيويَّة[1].

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾.

أي: ومهما يكُنْ منكم- أيُّها المؤمنون- من عدلٍ في أموال اليتامى الَّتي أمَركم اللهُ تعالى أنْ تقوموا فيهم بالقِسطِ، والانتهاءِ إلى أمرِ الله في ذلك، وفي غيره- فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ به، ومُحصٍ ذلك كلَّه، وحافظٌ له، وسيجزيكم عليه أوفرَ الجزاءِ وأتمَّه[2].

الفوائد التَّربويَّة:

١- أنَّ كلَّ ما عمِلْناه من خيرٍ، قليلًا كان أو كثيرًا، فإنَّ الله يعلَمُه، ويترتَّب على هذه الفائدة: الحذرُ من الإخلالِ بالواجب؛ لأنَّه إذا كان يعلَمُ الخير الَّذي نعمَلُه، فهو يعلَمُ أيضًا ما لا نعمَلُه من الخيرِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾[3].

٢- الحثُّ على الخيرِ؛ لأنَّك إذا علِمْتَ أنَّ الله يعلَمُه، وأنَّه سيجازيك عليه، نشِطَتْ وقوِيَتْ همَّتُك لفعلِه؛ قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٧-٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٧٨-٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٤).

بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[1].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- حِرصُ الصَّحابة رضِي اللهُ عنهم على معرفةِ الأحكام الشَّرعيَّة؛ لقوله: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ ﴾[2].

٢- اعتناء الصَّحابةِ بشأنِ النِّساء، بل واعتناءُ الله عزَّ وجلَّ فوق ذلك بشأنهنَّ؛ لقوله: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ﴾؛ فالمستفتي الصَّحابةُ، والمفتي هو الله عزَّ وجلَّ، والواسطةُ بين المستفتي والمفتي هو الرَّسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام[3].

٣- الرُّجوعُ إلى ما في كتابِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ ما في الكتابِ من الفتوى صادرٌ من عند الله؛ لقوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهو كذلك؛ لأنَّ الكتابَ منزَّلٌ من الله عزَّ وجلَّ، هو الَّذي تكلَّمَ به وأنزَله على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمَره أن يُبلِّغَه النَّاسَ، وهو نفسُه تبارك وتعالى تكفَّل ببيانِه[4].

٤- في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ العناية بالنِّساء عمومًا، والعناية بيتامى النِّساء، وهذا أخصُّ؛ لأنَّ يتيمةَ النِّساءِ اجتمعَ في حقِّها الضَّعفُ من حيث الجنسُ؛ فجنسُ النِّساء أضعفُ من الرِّجالِ، والضَّعفُ من حيث فَقْدُ العائلِ، وهو الأبُ؛ فلهذا أوصى اللهُ بها بعنايةٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- جبروتُ أهل الجاهليَّةِ؛ وشدة ظُلمهم ليَتامَى النِّساء، بحيث لا يُؤتونهنَّ ما كُتِبَ لهنَّ، ويتحكَّمونَ فيهنَّ وفي مصيرهنَّ؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾[١].

٦- أنَّ مهرَ المرأةِ مفروضٌ لها؛ لقوله: ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [النِّساء: ٤]، وعلى هذا فصاحبُ المهرِ هو المرأةُ، وليس وليَّ المرأةِ، ولو كان أباها، فالمهرُ إليها؛ تقديرُه عددًا، وتعيينُه جنسًا، ولها أن تُبرِئَ منه إذا كانت عاقلةً رشيدةً[٢].

٧- أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يتزوَّجَ مَوْلِيَّتَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ هؤلاء اليتامى تحت ولاية هؤلاء الَّذين يرغبون أنْ ينكحوهنَّ، وهو أحقُّ النَّاس بتزويجها، لكنْ عليه بتقوى الله، فلا يَظلِمْها، ولا يَهضِمْها حقَّها[٣].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ العناية بالمستضعفين من الوِلدان؛ لأنَّ المستضعَفَ من الوِلدان، سواءٌ كان لصِغَره، أو لمرضِه أو لجنونه، أو لغيرِ ذلك من الأسباب الَّتي صار بها ضعيفًا، فالعنايةُ به لا شكَّ أنَّها دليلٌ على رحمة الإنسان[٤].

٩- وجوبُ القِيامِ لليتامى بالقِسطِ، والقيام بالقسط أمر عام، فيجب على كلِّ إنسان أن يقومَ لله شهيدًا بالقسطِ، لكن اليتامى لهم أمر خاصٌّ للعدل بينهم؛ لأنَّ اليتيمَ ليس له مَن يدافعُ عنه، وربَّما يأكُلُه وليُّه من حيث لا يشعُرُ؛ فلهذا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).

أُوصِيَ بهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

بَلاغةُ الآية:

١- **قوله:** ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وعدٌ باستيفاءِ الإجابة عن الاستفتاء، وهو ضربٌ من تَبشيرِ السَّائل المُتحيِّر بأنَّه قد وجَد طَلِبَتَه، وتقديمُ اسمِ الجَلَالةِ للتَّنويهِ بشأنِ هذه الفُتيا[2].

٢- **قوله:** ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فيه: إيجازٌ بالحذف؛ حيث إنَّ حَذْفَ حرْفِ الجرِّ بعدَ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ -هنا- وقَع موقعًا عظيمًا من الإيجازِ، وإكثارِ المعنى، أي: ترغَبون عن نكاح بعضِهنَّ، وفي نكاحِ بعضٍ آخرَ، فإنَّ فِعلَ رَغِبَ يتعدَّى بحرف (عن) للشَّيءِ الَّذي لا يُحَبُّ، وبحرفِ (في) للشَّيء المحبوب، فإذا حُذِفَ حرفُ الجرِّ احتمَل المعنيينِ إن لم يكُنْ بينهما تنافٍ[3]، وهذا ما يُسمَّى بالكلامِ الموجَّه، وهو الَّذي يحتملُ معنيينِ متضادَّيْنِ؛ فهنَّ إمَّا جميلات أو ذوات مالٍ، فترَغبون فيهنَّ، أو دميمات ولا مالَ لهنَّ، فترغَبون عنهن- حسَب تقديرِ الجارِّ[4].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٢، ٢١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٣٣).

الآيات (١٢٨ - ١٣٠)

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا
صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ
فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا
حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بَعۡلِهَا﴾: بَعْلُ المرأةِ: زَوجُها، والبَعْل في الأصل: الصَّاحِبُ[١].

﴿نُشُوزًا﴾: أي: بُغضًا، والنُّشوز: بُغضُ المرأةِ للزَّوج، أو بُغضُ الزَّوجِ للمَرأة؛ يُقال: نشَزت عليه، أي: ارتفَعَتْ عليه، والنَّشْز: المرتَفِع من الأرض؛ فأصل النَّشْز: الارتفاعُ والعُلوُّ[٢].

﴿وَأُحۡضِرَتِ﴾: أي: أُلزِمت، وجُعِلتْ حاضرةً له، مطبوعةً عليه، وأصل (حضَر): إيرادُ الشَّيء، ووُرودُه ومشاهدتُه[٣].

﴿ٱلشُّحَّ﴾: وهو الإفراطُ في الحِرص، وأيضًا: بُخْلٌ مع حِرصٍ، ويُطلَقُ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٧).

الظُّلم، وأصل (شحح): المنْع[١].

﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾: المُعَلَّقَةُ هي الَّتي لا تكونُ أيِّمًا، ولا ذاتَ بَعْلٍ، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، وأصله: أن يُناطَ الشَّيءُ بالشَّيء العالي[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾

قَوْله: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ﴾

﴿إنْ﴾: أداةُ شرطٍ لا يَليها إلَّا الفِعلُ. و﴿ٱمْرَأَةٌ﴾: فاعِل بِفعلٍ محذوفٍ وجوبًا، والتَّقدير: (وإن خافتِ امرأةٌ خافتْ)، واستُغني عن المحذوفِ بـ: ﴿خَافَتْ﴾ المذكور، وقيل: هي فاعل مُقدَّم على فِعلِه، أو مَرفوعةٌ بالابتداءِ[٣].

قوله: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥، ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧).

والتحقيق: أنَّ القولَ بأنَّها فاعلٌ مُقدَّم ارتفَع بما عادَ إليه من الفِعل من غيرِ تَقديرِ فِعلٍ هو مذهبُ الكوفيِّين، والقولُ بأنَّها مرفوعةٌ بالابتِداءِ محكيٌّ عن أبي الحَسنِ الأخفشِ. ونَسَب السَّمينُ الحلبيُّ جَوازَ وقوعِ المبتدأِ بعدَ (إن) الشرطيَّة للأخفشِ والكوفيِّين معًا، وهذا هو المشهور؛ وهذا لأنَّهم لا يشترطُون أنْ يليَ أداةَ الشرطِ فعلٌ، وإذن فهي مُبتدأٌ على الأصلِ، وأمَّا عندَ جمهور البَصريِّين فإنَّها فاعلٌ، وهي مِن بابِ الاشتغال، ولا يَجوزُ رفعُها بالابتداءِ؛ لأنَّ أداة الشَّرطِ لا يَليها إلَّا الفِعلُ عندهم. ينظر: ((الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)) للأنباري (٢/ ٥٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٧، ٤٦٢).

﴿صُلۡحٗا﴾: منصوبٌ، وفي نَصْبِه أوجهٌ بحسَبِ القِراءاتِ في قوله: ﴿يُصۡلِحَا﴾[(١)]؛ فعلى قِراءة (يُصْلِحَا) مِن أصْلَح؛ يكونُ في نصبِ ﴿صُلۡحٗا﴾ ثلاثةُ أوجهٍ؛ الأوَّل: أنْ يكونَ منصوبًا على أنَّه نائبٌ عن المفعولِ المُطلَق للفِعلِ المتقدِّم ﴿يُصۡلِحَا﴾؛ لأنَّ ﴿صُلۡحٗا﴾ اسمُ مَصْدرٍ أو مَصدرٌ على حَذْفِ الزَّوائد، كالعَطاءِ والنباتِ. الثاني: أن يكونَ مفعولًا مُطلَقًا منصوبًا بفِعلٍ مُقدَّر، أي: فيَصْلُح حالُهما صُلحًا. والمفعولُ به على هذينِ الوجهينِ قولُه: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ اتُّسِع في الظَّرفِ فجُعِل مفعولًا به. الثالث: أنْ يكونَ نَصْبُ ﴿صُلۡحٗا﴾ على أنَّه مفعولٌ به إنْ جُعِل اسمًا للشَّيءِ المصطلَح عليه؛ كالعَطاءِ بمعنى المُعطَى، والنَّباتِ بمعنى المُنْبَتِ. وعلى بقيَّةِ القِراءاتِ فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿صُلۡحٗا﴾ نائبًا عن المفعولِ المطلَق، ويكون واقعًا موقعَ (تصالُحًا، أو اصطلاحًا، أو مصالحةً)، حسَب القِراءات. ويجوزُ أنْ يكون ﴿صُلۡحٗا﴾ مفعولًا مُطلَقًا. ويَنتفِي عنه وجهُ المفعولِ به المذكورُ في قِراءة ﴿يُصْلِحَا﴾، وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾: (حضَر) فِعلٌ يتعدَّى بنَفْسِه إلى مَفعولٍ واحد، و(أَحْضَر) يَتعدَّى بالهمزةِ إلى مَفعولَيْنِ، فلمَّا بُني (أُحْضِرَ) هُنا للمفعولِ حُذِفَ الفاعِلُ، وقامَ المفعولُ الأوَّل ﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾ مقامَ الفاعِلِ، فرُفِع على أنَّه

(١) قوله: ﴿أَن يُصۡلِحَا﴾ قرأ الكوفيون: «يُصْلِحَا» من أصلح، وباقي السبعة «يَصَّالَحَا» بتشديد الصاد بعدها ألف، وقرأ عثمان البَتِّيُّ والجَحْدَريُّ: «يَصَّلِحَا» بتشديد الصاد من غير ألف، وعَبِيدة السَّلماني: «يُصَالِحَا» بضمِّ الياء وتخفيف الصاد وبعدها ألف من المفاعلة، وابن مسعود والأعمش: «أنِ اصَّالَحَا»، فأما قراءة الكوفيِّين فواضحة، وقراءة باقي السبعة أصلها «يَتصالحَا» فأريد الإدغام تخفيفًا، فأبدلت التاء صادًا وأُدغمت، وأمَّا قراءة عثمان فأصلها: «يَصْطَلِحَا» فخفِّف بإبدال الطاء المبدلة من تاء الافتعال صادًا وإدغامهما فيما بعدَها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٨-١٠٩)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٢٥).

نائبُ فاعلٍ، وانتصبَ المفعولُ الآخَرُ ﴿ٱلشُّحَّ﴾ على أنَّه مفعولٌ به ثانٍ؛ فإنَّ ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ هي الفاعلُ في الأصْل؛ إذ الأصلُ: (حضَرتِ الأنفسُ الشحَّ)، ثمَّ أحْضَر اللَّهُ الأَنفسَ الشُّحَّ. وهذا هو المشهورُ من مذاهبِ النُّحاةِ. وقيل: إنَّ القائمَ مَقامَ الفاعِل هو المفعولُ الثَّاني وهو ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ أيضًا، والأصلُ: وحضَر الشُّحُّ الأنفسَ، ثمَّ أحْضَر اللَّهُ الشُّحَّ الأَنفسَ، فلمَّا بُني الفِعْلُ للمَفعول أُقيمَ المفعولُ الثَّاني، وهو ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾، مقامَ الفاعِل، وأُخِّر المفعولُ الأوَّلُ ﴿ٱلشُّحَّ﴾، وبقِي منصوبًا[١].

المَعنَى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ الأحكام الَّتي تتعلَّقُ بالزَّوجين، وما يقعُ بينهما من خلافٍ ونُفرةٍ؛ فالمرأةُ إذا خافت ترفُّعَ زوجِها عنها، وعدمَ رغبتِه فيها، فلا حرجَ ولا إثمَ أن يُصلِحَا بينهما صُلْحًا، بأن تُسقِطَ المرأةُ بعضًا من حقوقِها على أن تبقى مع زوجِها؛ فلا حرجَ عليها في إسقاطِه، ولا حرجَ عليه من قَبولِه، والصُّلحُ ببعضِ التَّنازُلاتِ خيرٌ من الفِراقِ الكُلِّيِّ، وقد جُبِلت النُّفوسُ على الحرصِ على حقوقها، ممَّا قد يتعذَّرُ معه التَّصالُحُ، لكن ينبغي على المرءِ أن يحرِصَ على تركِ هذا الشُّحِّ جانبًا، والمسامحةِ ببعضِ الحقِّ، ثمَّ رغَّب اللهُ تعالى في الإحسان عمومًا؛ في عبادتِه، والإحسان إلى الخَلْق، ومنه الإحسانُ إلى الزَّوجات حتَّى ولو كرِهوهنَّ؛ وذلك بالصَّبرِ عليهنَّ، وحُسْنِ العِشرةِ، وإيفائِهنَّ حقَّهنَّ، وأن يتَّقوا اللهَ، فإن فعَلوا ذلك، فإنَّ اللهَ خبيرٌ بكلِّ ما عمِلوه، وسيُجازيهم عليه.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ الأزواجَ لا يمكِنُ أن يحقِّقوا العدلَ الكامل بين زوجاتِهم،

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٠).

ولو اشتَدَّ حرصُهم على ذلك، لكن نهى سبحانه عن الميلِ الكُلِّيِّ إلى واحدةٍ بحيث تظلُّ الأخرى كالمعلَّقة الَّتي ليست مطلَّقةً، ولا هي متزوِّجة، وأنَّهم إن يُصلِحوا بينهم وبين زوجاتهم، وبينهم وبين النَّاس، أو بين النَّاس إذا تنازَعوا، ويتَّقوا اللهَ؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، وإن ينفصلِ الزَّوجانِ عن بعضِهما، بعد تعسُّرِ الصُّلحِ، يُغْنِ اللهُ كلًّا منهما من فضله الواسع، وكان الله واسعًا حكيمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

الآيةُ عَطفٌ لبقيَّةِ إفتاء الله تعالى؛ فهي من جُملة ما أخبَرَ الله تعالى أنَّه يفتيهم به في النِّساء ممَّا لم يتقدَّمْ ذِكرُه في هذه السُّورة[١].

وأيضًا لَمَّا صاروا يَتزوَّجون ذواتِ الأموالِ من اليتامى، ويُضاجِرون بعضَهنَّ، عقَّبَ ذلك تعالى بالإفتاءِ في أحوالِ المشاقَقةِ بين الأزواج[٢].

سببُ النُّزول:

عن عائِشةَ رضِي اللهُ عنها في هذِه الآيةِ ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ قَالَتْ: ((الرَّجلُ تَكونُ عنده المرأةُ ليس بِمُستكْثِرٍ منها يُريدُ أنْ يُفارِقَها، فتقول: أَجْعَلُك مِن شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٠) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢١).

وعن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه، قال: قالتْ عائشةُ رضِي اللهُ عنها: ((يا ابنَ أُختي، كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُفضِّلُ بَعضَنا على بعضٍ في القَسْمِ مِن مُكْثِه عِندنا، وكان قلَّ يومٌ إلَّا وهو يَطوفُ علينا جميعًا، فيَدنو مِن كلِّ امرأةٍ مِن غيرِ مسيسٍ، حتى يَبلُغَ إلى التي هو يومُها فيَبيت عِندَها، ولقدْ قالتْ سَودةُ بِنتُ زَمْعةَ حين أسنَّتْ وفرِقَتْ[١] أنْ يُفارِقَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رسولَ اللهِ، يَوْمي لعائشةَ، فقَبِلَ ذلك رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منها، قالتْ: نقول: في ذلِك أنزلَ اللهُ تعالى وفي أشباهِها أُراهُ قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾))[٢].

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالتْ: ((كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إِذَا أرادَ سفرًا أقْرَعَ بَينَ نسَائِهِ، فأَيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُها خرَجَ بهَا معهُ، وكانَ يَقْسِمُ لكلِّ امرأةٍ منْهُنَّ يومَها وليلَتَها، غيرَ أنَّ سَوْدَةَ بنتَ زَمْعَةَ وهَبَتْ يَومَها وليلَتَها لعائِشَةَ زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَبْتَغِي بذلِكَ رِضَا رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ))[٣].

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾.

---

(١) أَسَنَّتْ: أي: كَبِرَتْ. وفَرِقَت: أي: خافَتْ. ينظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٩٢) و(٢/ ٤٧١).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٥)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢٤/ ٣١) (٨١)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٧٦٠)، والبيهقي (٧/ ٧٤) (١٣٨١٦).
قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢١٣٥): حسن صحيح. وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٦٢٩).
والحديث بدون ذكر قصة سودة جوَّد إسنادَه ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (٣٦٨)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٨٧): إسناده صحيح حسن.

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٣).

أي: وإذا خشِيَتِ المرأةُ استعلاءً من زوجها عليها، ونفورًا منها، وانصرافًا عنها، وعدمَ رغبتِه فيها[١].

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

أي: فلا حَرَجَ ولا إثمَ عليهما في أن يتَّفِقا على ما يُصلِحُ الأمورَ بينهما؛ فلها أن تُسقِطَ حقَّها أو بعضَه؛ من نفقةٍ أو كسوة، أو مَبيت، أو غيرِ ذلك من الحقوقِ عليه، على أن تبقى مع زوجها، وله أن يقبَلَ ذلك منها؛ فلا حرجَ ولا إثم عليها في بَذْلِها ذلك له، ولا عليه أيضًا في قَبولِه منها[٢].

﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

أي: إنَّ صُلحَهما على ترْكِ بعضِ حَقِّها للزَّوج، وقَبول الزَّوجِ بذلك؛ استدامةً لعقدِ النِّكاح- خيرٌ من المفارَقة بالكُلِّيَّةِ[٣].

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

أي: إنَّ النُّفوسَ قد جُبِلت على الإفراطِ في الحرصِ على أشيائِها وحقوقِها، وهذا ممَّا يمنَعُ وقوعَ التَّصالُح والاتِّفاقِ؛ فعند النِّزاعِ وطلبِ المصالحة تكونُ الأنفسُ حريصةً جدًّا على ما لها من حُقوقٍ، كلُّ نفسٍ تُريد أنْ يكونَ الصُّلحُ في جانبها وفي مصلحتِها، وكأنَّ اللهَ يقول: دعُوا هذا الشُّحَّ الَّذي جُبِلَتْ عليه الأنفسُ، واطلُبوا الخيرَ في المصالَحةِ، والتَّسامُحِ عن بعض حقوقكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٨-٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾.

أي: وإنْ تُحسِنوا- أيُّها الأزواجُ- في أفعالِكم إلى نسائِكم إذا كرِهتموهنَّ؛ بأن تتجشَّموا مشقَّةَ الصَّبرِ عليهنَّ، مع إيفائِهنَّ حقوقَهنَّ، وعِشرتِهنَّ بالمعروف، وتقسِموا لهنَّ أُسوةَ أمثالِهنَّ، وتُحِسنوا أيضًا في عبادة الخالق عمومًا، وتُحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طُرقِ الإحسانِ، وتتَّقوا اللهَ تعالى في أزواجِكنَّ؛ بتركِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجب عليكم من حقوقِهنَّ، وتتَّقوا اللهَ عمومًا، بفعلِ جميع المأمورات، وتركِ جميعِ المحظورات[1].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى بما تَعمَلون في أمورِ نِسائِكم- أيُّها الأزواجُ- من الإحسانِ إليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروف، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجبُ لهنَّ، وغير ذلك ممَّا تعمَلونه، عالِمٌ بظاهِرِه وباطِنِه، لا يَخفَى عليه منه شيءٌ، يُحصيه، ويحفَظُه لكم، حتَّى يوفِّيكم جزاءَ ذلك أوفرَ الجزاء[2].

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى أنَّ الوقوفَ على الحقِّ فضلًا عن الإحسانِ- وإنْ كانت المرأةُ واحدةً- متعسِّرٌ، أتبعَه أنَّ ذلك عند الجمعِ بين أكثرَ مِن واحدةٍ

(٥/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

أعسرُ، فقال تعالى(١):

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

أي: ولنْ تتمكَّنوا- أيُّها الأزواجُ- من إقامة العدلِ التَّامِّ بين زوجاتِكم من جميع الجوانب، ولو كنتم حريصين على ذلك، فإنَّه وإن حصَل القَسمُ الصُّوريُّ بينهنَّ، فلا بدَّ من التَّفاوُتِ في المحبَّةِ والشَّهوةِ والجِماعِ(٢).

﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾.

أي: فإذا مِلْتُم إلى واحدةٍ منهنَّ، فلا تبالِغوا في الميل بالكُلِّيَّة، وتميلوا ميلًا كثيرًا، حتَّى يحمِلَكم ذلك على أن تجُوروا على صواحِبِها في تركِ أداء الواجب لهنَّ مِن حقٍّ في القَسْمِ لهنَّ، والنَّفقةِ عليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروفِ، فتبقى كالمعلَّقةِ الَّتي ليست أيِّمًا ولا متزوِّجةً، فليست بالمطلَّقة الَّتي استراحَتْ، ورزَقها الله تعالى غيرَه، ولا هي بالمتزوِّجةِ الَّتي تسعَدُ بالزَّواجِ كغيرها(٣).

﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾.

أي: وإنْ تُصلِحوا أعمالَكم- أيُّها النَّاس- فتعدِلوا في قَسْمِكم بين أزواجِكم، وما فرَض الله لهنَّ عليكم من النَّفقة والعِشرة بالمعروف، فلا تجُوروا في ذلك، وتُصلِحوا أيضًا فيما بينكم وبين النَّاس، وتُصلِحوا أيضًا بين النَّاس فيما تنازعوا فيه، وتتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في الميل الَّذي نهاكم عنه- بأن تميلوا لإحدى الزَّوجاتِ على الأخرى، فتظلِموها حقَّها- وتتَّقوا الله تعالى في جميع أمورِكم وأحوالكم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٦-٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٧-٢٩٨).

بفعلِ ما أمَر، واجتنابِ ما نهى عنه وزجَر[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ عليكم ما سلَف منكم مِن مَيْلِكم وجَوْرِكم على زَوجاتِكم، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِكم بذلك، ويستُرُ ويتجاوَزُ عمَّا صدَر منكم من الذُّنوب عمومًا، وكما عطَفْتُم على أزواجِكم ورحمتموهنَّ، فاللهُ تعالى يرحَمُكم، وهو رحيمٌ بكم؛ إذ قبِلَ توبتكم، وتجاوَز عنكم[٢].

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى جواز الصُّلح إن أراد الزَّوجانِ ذلك، ذكَر في هذه الآية جوازَ المفارَقةِ إنْ رغِبَا فيها، ووعَد أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ منهما من سَعتِه[٣]، فقال:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

أي: وإذا انفصَل الزَّوجانِ عن بَعضِهما بطَلاقٍ أو فسخٍ أو خُلعٍ أو غير ذلك، فإنَّ اللهَ تعالى يعوِّض الزَّوجَ برزقٍ واسعٍ أو بزوجةٍ هي خيرٌ له من زوجته، ويعوِّضُها برزقٍ واسعٍ، أو بزوجٍ هو خيرٌ لها من زوجِها، وذلك مِن فضلِه وإحسانِه الواسعِ سبحانه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٦-٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٢).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى واسعٌ لهما في إغناء كلِّ واحدٍ من الزوجين وغيرهما مِن فضلِه، فهو سبحانه واسعُ الفضلِ، عظيمُ المَنِّ، وهو ذو سَعَةٍ في جميع صفاتِه؛ كالرَّحمة، والمغفرةِ، والعِلم، والقدرة، وغير ذلك مِن صفاتِه العُلى، حكيمٌ في جميع أفعالِه وأقداره وشَرْعِه، ومن ذلك أنَّه يعطي بحكمةٍ، ويمنَعُ لحكمةٍ، ومن ذلك حكمتُه فيما قضى بين الزَّوجين من الافتراق وغيره[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الصُّلحَ قد يكون ثقيلًا على النُّفوس، لكنَّ المؤمِنَ يهُونُ عليه ذلك إذا كان يؤمِنُ بأنَّ الصُّلح خيرٌ، فالإنسانُ بطبيعتِه قد يشقُّ عليه التَّنازلُ عن بعضِ حقِّه، لكنْ في المصالحة الَّتي هي خيرٌ لا بدَّ مِنْ ملاحظةِ هذا المعنى حتى يسهُلَ على النَّفس الَّتي أُحضِرتِ الشُّحَّ الموافقةُ على الصُّلحِ[٢].

٢- في قوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ ندَب تعالى إلى إحسانِ عِشرة النِّساء حتى مع الكراهة لهن وعدم الرغبة فيهن؛ وأمَر بالتَّقوى؛ لأنَّ الزَّوجَ قد تحمله الكراهةُ للزَّوجة على أذيَّتِها وخصومتِها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ يُستفادُ منه أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يستعملَ في خطابه ما يناسبُ المقامَ، فيستعمل أسلوبَ التنفيرِ فيما يُنفِّرُ منه، ويستعملَ أسلوب التَّرغيب فيما يُرغِّبُ فيه؛ فهذا من أسلوبِ الحِكمة[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

٤- في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ الاستعطاف في المقامِ الَّذي ينبغي فيه العطفُ؛ لأنَّه إذا تصوَّر الإنسانُ أنَّ هذه الزَّوجةَ الَّتي مال عنها كالمعلَّقةِ بين السَّماء والأرض؛ فإنَّ هذا يوجب العطفَ عليها، والرَّأفةَ بها ورحمتَها(١).

٥- أنَّ الإصلاح والتَّقوى سببٌ للمغفرة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، ووجهُه ظاهرٌ؛ لأنَّ الإصلاحَ خيرٌ، والحسناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ، ويجلُبْنَ الرَّحمةَ(٢).

٦- سدُّ باب اليأسِ مِن رحمة الله؛ حيث قال: ﴿يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ولم يقُلْ: (يُغنِ كلًّا) فقط، بل قال: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ إشارةً إلى أنَّ فضلَ الله واسع(٣).

٧- في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا﴾ إثباتُ الحكمةِ لله عزَّ وجلَّ، ويتفرَّعُ على هذا فائدةٌ عظيمةٌ مسلكيَّةٌ منهجيَّةٌ، وهي الرِّضا بقضاء الله وشرعِه، إذا علِم العبدُ أنَّ هذا صادرٌ عن حكمةٍ، حتَّى وإن كان فيه فواتُ مالٍ أو ولدٍ، فالله عزَّ وجلَّ ذو حكمةٍ عظيمةٍ فيما يُقدِّرُ(٤).

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾، عنايةُ الله عزَّ وجلَّ بما يكون بين الزَّوجين، وجهُه: أنَّ الله ذكَر هنا نشوزَ الزَّوجِ، وفي أوَّلِ السُّورة ذكَر نشوز الزَّوجة، ممَّا يدلُّ على عنايةِ الله تعالى بما يكون بين الزَّوجين؛ لأنَّ الزَّوجين هما الرَّابطةُ الَّتي تربِطُ بين الأولاد، وتربط أيضًا بين الصِّهرِ وصِهرِه، وهي أحدُ النَّوعينِ في الرَّبط؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٠٧).

مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[١] [الفرقان: ٥٤].

٢- العملُ بالقرائن، ويؤخَذ من قوله: ﴿خَافَتْ﴾ ولم يقُلْ: رأَتْ نشوزًا، بل خافت، ومِن المعلومِ أنَّها لم تخَفْ مِن النُّشوز والإعراض إلَّا بوجودِ القرائنِ، والعملُ بالقرائنِ ثابتٌ بالقرآن[٢].

٣- أفاد قولُه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا...﴾ أنَّ عروضَ الخلافِ والكراهة، وما يترتَّب عليها من النُّشوزِ والإعراض، وسوءِ المعاشَرة لِمَن يقِفُ عند حدودِ الله، من الأمور الطَّبيعيَّة الَّتي لا يمكِنُ زوالُها من بين البشَرِ، والشَّريعةُ العادلة الرَّحيمة هي الَّتي تُراعَى فيها السُّنَنُ الطَّبيعيَّةُ، والوقائعُ الفِعليَّةُ بين النَّاس، ولا يُتصوَّرُ في ذلك أكملُ ممَّا جاء به الإسلامُ[٣].

٤- أنَّه يجوزُ أنْ يصطلحَ الزَّوجان فيما بينهما على ما شاءَا- بما لا يخالفُ الشرعَ-؛ لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، ويتفرَّعُ عليها أنَّه يجوز للزَّوجةِ عند المصالَحةِ أن تُسقِطَ حقَّها من القَسْمِ، وأنَّه لا حرجَ على الزوجِ في أنْ تَبقَى عنده، ويُسقِطَ بعضَ الحقِّ، إذا صالحها على إسقاطِه[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ذكَر الله أوَّلًا قولَه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا﴾ فقولُه: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ يوهِمُ أنَّه رخصةٌ، والغايةُ فيه ارتفاعُ الإثم، فبيَّن تعالى أنَّ هذا الصُّلح كما أنَّه لا جُناحَ فيه ولا إثمَ، فكذلك فيه خيرٌ عظيمٌ، ومنفعةٌ كثيرة؛ فإنهما إذا تصالَحَا على شيءٍ، فذاك خيرٌ من أن يتفرَّقَا، أو يُقِيما على النُّشوزِ والإعراض[٥].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٦).

٦- ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾: هذه قاعدةٌ عظيمةٌ من الرَّبِّ سبحانه، وقد يظُنُّ بعضُ النَّاس أنَّه إذا تَنازَلَ عن الحقِّ أنَّ في ذلك غضاضةً وهضمًا لحقِّه، وأنَّ العاقبةَ غيرُ حميدةٍ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ الَّذي بيده ملكوتُ السَّمواتِ والأرضِ يقول: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾[١].

٧- قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾: يُؤخذُ مِن عموم هذا اللَّفظِ والمعنى: أنَّ الصُّلحَ بين مَن بينهما حقٌّ أو منازَعةٌ في جميع الأشياء أنَّه خيرٌ مِن استقصاءِ كلٍّ منهما على كلِّ حقِّه؛ لِمَا في ذلك من الإصلاح، وبقاءِ الأُلفة، والاتِّصاف بصفة السَّماح، والصلحُ جائزٌ في جميعِ الأشياء إلَّا إذا أحَلَّ حرامًا، أو حرَّمَ حلالًا، فإنَّه لا يكونُ صُلحًا، وإنَّما يكونُ جَوْرًا[٢].

٨- كلُّ حُكمٍ مِن الأحكام لا يتمُّ ولا يكمُلُ إلَّا بوجودِ مقتَضِيه وانتفاءِ موانعِه؛ فمن ذلك هذا الحُكمُ الكبير الَّذي هو الصُّلح، قال سبحانه: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾، فذكَر المقتضيَ لذلك، ونبَّهَ على أنَّه خيرٌ، والخيرُ كلُّ عاقلٍ يطلُبُه ويرغَبُ فيه، فإن كان- مع ذلك- قد أَمَر اللهُ به وحثَّ عليه، ازداد المؤمنُ طلبًا له ورغبةً فيه[٣].

٩- قال تعالى: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌ﴾ التَّعريفُ في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ﴾ تعريفُ الجنسِ، وليس تعريفَ العهدِ؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ أنَّ ماهيَّةَ الصُّلح خيرٌ للنَّاس؛ فهو تذييلٌ للأمرِ بالصُّلحِ والتَّرغيبِ فيه، وليس المقصودُ أنَّ الصُّلحَ المذكور آنفًا- وهو الخُلعُ- خيرٌ من النِّزاعِ بين الزَّوجين؛ لأنَّ هذا- وإن صحَّ معناه- إلَّا أن فائدةَ الوجهِ الأوَّلِ أوفرُ، ولأنَّ فيه التَّفاديَ عن إشكالِ تفضيل الصُّلح على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النِّزاعِ في الخيريَّةِ، مع أنَّ النِّزاعَ لا خيرَ فيه أصلًا[١].

١٠- الإحسان والتَّقوى والبِرُّ وما أشبَهَ ذلك، إذا أُفرِد أحدهما عن الآخَرِ شمِلَ الآخَرَ، وإن اقترنا فُسِّر كلٌّ منهما بما يليق به. ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الإحسانُ بفعل الأوامر، والتَّقوى بترك النَّواهي، أمَّا إذا أُفرد الإحسانُ فإنَّه يشملُ فِعلَ الأوامر، وتركَ النَّواهي، وكذلك التَّقوى إذا أُفرِدَت فإنَّها تشمَلُ هذا وهذا، وهذا يوجد كثيرًا في القرآنِ الكريم، فالمسكين والفقير إذا أُفرِد أحدُهما عن الآخَرِ صار أحدُهما شاملًا للآخَر، وإن قُرِنا صار الفقيرُ له معنًى، والمسكينُ له معنًى؛ فهما ممَّا إذا اجتَمَعا افترَقا، وإذا افترَقا اجتمعا[٢].

١١- القاعدةَ الشَّرعيَّة: أنَّ ما لا يُستطاعُ لا يُلزَمُ به العبدُ. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ...﴾[٣].

١٢- في قوله: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾ نبَّه تعالى على انتفاءِ استطاعةِ العدلِ بين النِّساء فيما لا يملكُه الزوجُ، وفي ذلك عُذْرٌ للرِّجال فيما يقعُ من التَّفاوتِ في الميل القَلْبيِّ، والتَّعهُّدِ، والنَّظر، والتَّأنيس، والمُفاكَهة؛ فإنَّ العدل بينهنَّ في ذلك محالٌ، خارجٌ عن حدِّ الاستطاعةِ، وعلَّق انتفاء الاستطاعةِ في ذلك الأمر، على تقديرِ وجودِ الحِرص من الإنسانِ على ذلك فلذلك قال: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾ وأقام الله ميزانَ العدلِ بقولِه: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾[٤].

١٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٨).

نهى سبحانه عن الجَوْرِ على المرغوبِ عنها، بمنعِ قسمتِها من غيرِ رضًا منها، واجتنابُ كلِّ الميلِ داخلٌ في الوُسعِ؛ ولذلك وقَع النَّهيُ عنه، أي: إنْ وقَع منكم التَّفريطُ في شيءٍ مِن المساواة، فلا تجُوروا كلَّ الجورِ(١).

١٤- يقرنُ اللهُ تعالى بين الغفور والرَّحيم في مواضعَ كثيرةٍ؛ وذلك لأنَّ بالمغفرة يزول المكروهُ، وبالرحمة يحصلُ المطلوبُ(٢).

١٥- إن قيل: ما وجهُ قولِه تعالى في الآية الأُولى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، وفي الثانيةِ ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ فالجوابُ عن الأُولى: أنَّ معناها: إنْ خافَت امرأةٌ مِن زوجِها ترفُّعًا أو إعراضًا، فلا إثمَ في أن يتَصالحا على أن تتركَ له مِن مهرِها، أو بعضِ أيامِها ما يتراضيان به، والصلحُ خيرٌ مِن أن يُقيما على التباعدِ، أو يصيرا إلى القطيعةِ، ونفسُ كلِّ واحدٍ منهما تشحُّ بما لها قِبَلَ صاحبِها. وقيل: المرادُ: شحُّهنَّ على النُّقصان مِن أموالهنَّ وأنصبائهنَّ مِن أزواجهنَّ، وهذا يقتضي مخاطبةَ الأزواجِ بمجانبةِ القبيحِ، وإيثارِ الحُسنَى في معاملتِهم، فبعَث اللهُ تعالى في هذا المكانِ على فعلِ الإحسانِ.

وأمَّا الثانيةُ فجاءتْ بعدَ قولِه: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في محبتهنَّ والشهوةِ لهنَّ؛ لأنَّ ذلك ليس إليكم، وإن حرصتُم على التَّسويةِ بينهنَّ ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ بأن تجعلوا كلَّ مبيتِكم وخَلوتِكم، وجميلَ عشرتِكم، وسعةَ نفقتِكم عندَ التي تشتهونها دونَ الأُخرى، فتبقَى تلك معلَّقةً لا ذات زوجٍ ولا مطلَّقة، فاقتضَى هذا الموضعُ أن يحثَّ الأزواجَ على إصلاحِ ما كان منهم بالتوبةِ مما سلَف، واستئنافِ ما يقدرون عليه مِن العدلِ، ويملكونه مِن الخلوةِ، وسعةِ النَّفَقة، وحُسنِ العِشرةِ، فقال: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للخطيب الإسكافي (١/ ٤٠٩).

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ رحمة الله عزَّ وجلَّ بعباده، وأنَّ المرأة والرَّجُل إذا انكسَرا بالفِراق بينهما، جبَرَهما الله عزَّ وجلَّ بالإغناءِ، فيُغني كلًّا مِن سَعتِه(١).

١٧- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الفِراقَ قد يكون خيرًا لهما؛ لأنَّ الفِراقَ خيرٌ من سوء المعاشَرة(٢).

١٨- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾، ناسَب ذِكرُ وصفِ الحكمةِ، وهو وضعُ الشَّيء في موضعِه المناسِب؛ لأنَّ السَّعةَ ما لم تكُنْ معها الحكمةُ كانت إلى فسادٍ أقربَ منها للصَّلاحِ(٣).

١٩- في قوله تعالى: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أنَّ هذه السَّعةَ الَّتي وعَد الله تعالى بالإغناء منها مبنيَّةٌ على حكمةٍ، وكأنَّ هذا- والله أعلم- إشارةٌ إلى أنَّه لو تخلَّف هذا الموعودُ، فإنَّه لن يتخلَّفَ إلَّا لحكمةٍ، فقد يمنَعُ الله سبحانه الإنسانَ ما يحِبُّ لحكمةٍ ومصلحةٍ عظيمةٍ(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾

- فيه دلالةٌ على شِدَّةِ التَّرغيبِ في هذا الصُّلح بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: وهي المصدرُ المؤكِّدُ في قوله: ﴿صُلْحًا﴾، والإظهارُ في مقامِ الإضمار في قوله: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، والإخبار عنه بالمصدرِ أو بالصِّفة المشبَّهة؛ فإنَّها تدلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٦).

على فِعلٍ سجيَّةٍ[١].

- وقوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ جملة اعتراضيَّة[٢]، تُفيد التَّرغيبَ في أمرِ الصُّلح، والحثَّ عليه.

٢- قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ مؤكِّدة للمطلوب، وأفاد هذا التَّعبيرُ أنَّ الشُّحَّ حاضرٌ للأنفُس، لا يغيبُ عنها أبدًا، ولا تنفكُّ عنه، يعني: أنَّها مطبوعةٌ عليه[٣].

٣- قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: فيه كنايةٌ عن وعيدٍ؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعلِ السُّوء- وهو قَديرٌ- لا يُعوِزُه أن يُعذِّبَه على ذلك، وأُكِّدت الجملةُ بـ: (إنَّ)، و(كان)[٤].

- قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فيه: اختصاصٌ؛ حيث خَصَّ العَملَ بالذِّكرِ[٥]؛ إذ هو مناطُ الحساب. وأيضًا فالعَملُ يَشمَلُ الفِعلَ والتَّرك؛ إذ التَّرْكُ فِعلٌ، وأدلَّة ذلك لا تَخفَى من الكِتابِ والسُّنَّة وكَلامِ العرَب[٦].

٤- قوله: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾ التَّعبير بـ: (لن) دون غيرها من حُروفِ النَّفي؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧١)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦).
(٦) قال الشنقيطي: (الأفعال الاختياريَّة، وهي باستقراءِ الشرع أربعة أقسام: ... الثالث: الترك، والتحقيق أنَّه فِعلٌ، وهو كفُّ النَّفس وصرفُها عن المنهيِّ عنه... والدليلُ على أنَّ التركَ فِعلٌ: الكتابُ والسُّنَّة واللُّغة...). ((مذكرة في أصول الفقه)) (ص: ٤٦) مختصرًا، ويُنظر: ((القواعد الأصولية المؤثرة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)) لناصر الغامدي (ص ٧٤٩ وما بعدها).

للمبالَغة في النَّفيِ[١].

٥- **قوله:** ﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ فيه: تشبيهٌ[٢]؛ حيث شَبَّه ما يفعَلُه الرَّجُلُ بامرأتِه بعد الزَّواج بأخرى مِن إهمالٍ لها، وعدمِ المراعاةِ لشؤونِها الواجبةِ عليه، بما هو مُعلَّقٌ، فلا هي ذاتُ زوجٍ، ولا هي أَيِّمٌ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦).

الآيات (١٣١ - ١٣٤)

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن
قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن
يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ
يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾.

المَعنَى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ له وحده جميعَ ما في السَّموات، وجميع ما في الأرض، ولقد عهِدَ سبحانه إلى أهل الكُتب السَّابقة، وإلى المسلمين أن يتَّقوه؛ بالتزامِ أوامِره، واجتنابِ نواهيه، وإن يكفُروا فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، ولن يضرُّوا اللهَ سبحانه بذلك؛ وإنَّما يضرُّون أنفسَهم؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ له جميعُ ما في السَّموات والأرضِ، وهو الغنيُّ الحميدُ.

ولله ما في السَّمواتِ والأرض، وكفى به قائمًا بتدبيرِ شؤونِ خَلْقِه، إنْ يشَأْ جلَّ وعلا أنْ يُذهِبَ كلَّ النَّاس بإهلاكِهم إذا ما عصَوْه، ويأتيَ بآخرينَ أكثرَ طاعةً له، وكان سبحانه وتعالى على كلِّ شيء قادرًا.

ثمَّ حرَّض اللهُ تعالى النَّاس على أنْ يجعلوا مَقصَدَهم الأعظَمَ: الفوزَ بنعيم الآخرة، مبيِّنًا أنَّ مَن كان يُريد ثواب الدُّنيا- كمن يُريد بجهاده الغنيمةَ والمنافع الدُّنيويَّة- فعند اللهِ ثوابُ الدُّنيا والآخرة، فلماذا قصَر الطَّلب على المنافعِ الدُّنيويَّة، مع أنَّ ثوابَ الآخرة خيرٌ وأبقى؟! وكان الله سميعًا لكلِّ ما يجهَرُ به النَّاس ويُسرُّونه، بصيرًا بأحوالهم الظَّاهرة والخفيَّة، وسيُجازيهم بما يستحقُّونه من ثوابٍ أو عقابٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾

مناسبة هذه الآية لِمَا قبلها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾ ذكَر هذه الآيةَ عقِبَها؛ ليُنبِّهَ خَلْقَه على موضعِ الرَّغبة عند فِراق أحدِهم زوجتَه؛ ليفزَعوا إليه عند الجزعِ من الحاجة والفاقة والوَحْشة بفِراق سَكَنِه وزوجتِه، وتذكيرًا منه له بأنه الَّذي له الأشياءُ كلُّها، وأنَّ مَن كان له مُلكُ جميع الأشياء فغيرُ مُتعذِّرٍ عليه أن يُغنيَه، ويُؤنِسَ وَحشتَه[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَر سبحانه أنَّه يُغْني كلًّا مِن سَعتِه، وأنَّه واسعٌ، أشار إلى ما هو كالتَّفسيرِ لكونِه واسعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني مَن كان كذلك، فإنَّه لا بدَّ أن يكونَ واسعَ القُدرة والعِلم والجُود والفضل والرَّحمة[(٢)].

وأيضًا لَمَّا أمَر بالعدلِ والإحسانِ إلى اليتامى والمساكينِ، بَيَّن أنَّه ما أمَر بهذه الأشياءِ لاحتياجِه إلى أعمال العباد؛ لأنَّ مالكَ السَّمواتِ والأرض كيف يُعقَلُ أن يكونَ محتاجًا إلى عملِ الإنسان، مع ما هو عليه من الضَّعفِ والقُصور؟! بل إنَّما أمَر بها رعايةً لِمَا هو الأحسنُ لهم في دُنياهم وأخراهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٨).
(اقتضَتْ حِكمةُ الله في ترتيب كتابِه أنْ يَجيءَ بعد تلك الأحكام العملية في شؤونِ النِّساء واليتامى أو بعدَها وبعد ما قَبلَها من الأحكام المتعلِّقة بأهل الكتاب أيضًا، أن يعقِّبَ عليها

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: ولله تعالى وحده مُلكُ جميع ما تَحويه السَّموات السَّبعُ، والأَرَضون السَّبع، وهو الحاكمُ فيها، ومُدبِّرُها بجميع أنواع التَّدبير[1].

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر سبحانه ما يتعلَّقُ بالرُّبوبيَّة، وهو مُلكُه الواسعُ العامُّ، ذكَر ما يتعلَّقُ بالألوهيَّةِ والعبادة، وهي: التَّقوى، فقال[2]:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أي: ولقد عهِدْنا عهدًا مؤكَّدًا إلى أهلِ الكتب السَّابقةِ، كاليهود والنَّصارى، وإليكم - أيُّها المسلمون - بأنْ تتَّقوا اللهَ تعالى بطاعةِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه[3].

﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: وإنْ تترُكوا تقوى اللهِ تعالى، وتُشرِكوا به، فإنَّكم لا تضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم، ولا تضُرُّونَ اللهَ شيئًا، ولا تنقصون شيئًا من مُلكه، وله عبيدٌ خيرٌ منكم وأعظمُ وأكثرُ، مُطِيعون له، خاضِعون لأمرِه، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده؛ من

بآياتٍ في العِلم الإلهيِّ، تُذكِّرُ المخاطَبين بتِلك الأحكامِ بعظَمتِه وسَعةِ مُلكِه واستغنائِه عن خَلقِه، وقُدرتِه على ما يشاءُ من التصرُّفِ فيهم، أو إثابتِهم على طاعتِه فيما شرَعَه لهم لخيرهم ومصلحتهم، تُذكِّرهم بذلك؛ ليزدادوا بتدبُّرِها إيمانًا يَحمِلهم على العملِ بها، والوقوفِ عندَ حدودها). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٨-٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

إعزازِ مَن أراد إعزازَه، وإذلالِ مَن أراد إذلالَه ومعاقبتَه، وغير ذلك من الأمور كلِّها؛ لأنَّ المُلكَ مُلكُه، والخَلْقَ خَلْقُه، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قِوامُهم، وبقاؤُهم وفَناؤُهم[1].

كما قال تعالى إخبارًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لقومه: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [التغابن: ٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾.

أي: وهو الغنيُّ الَّذي له الجودُ الكامل، والإحسان الشَّامل، الصَّادر من خزائن رحمتِه، الَّتي لا ينقُصُها الإنفاقُ؛ فلا حاجةَ به إلى شيءٍ ولا لأحدٍ، ومِن تمامِ غناه كمالُ أوصافِه سبحانه، وهو المحمودُ على غِناهُ وجميعِ صفاتِه، وعلى جميع ما يُقدِّره ويشرَعُه، قد استحَقَّ منكم- أيُّها الخلقُ- الحمدَ على صنائعِه الحميدةِ إليكم، وآلائِه الجميلة الَّتي أنعَم بها عليكم، وهو الحامدُ لِمَن يستحقُّ الحمدَ مِن عباده[2].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أعادَ تذكيرَهم بكونِه مالكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ أي: العوالمِ كلِّها؛ ليتمثَّلوا عظمتَه، ويستحضروا الدَّليلَ على غناه وحمدِه؛ فيعلَموا أنَّه إذا كان قد توكَّل بإغناءِ كلٍّ مِن الزَّوجين إذا أقامَا حدودَه في تفرُّقِهما، فإنَّه قادرٌ على ذلك، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٠-٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١١-٣١٢).

أنَّه قادرٌ على إنجازِ كلِّ ما وعَد وأوعَد به، فيجبُ أن يكتفوا به في التَّوكُّلِ لهم(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾.

أي: ولله تعالى مُلكُ جميعِ ما تحويه السَّموات والأرض، القيِّمُ بجَميعِه، الحافظُ والمدبِّرُ له بعلمِه وقدرتِه وحكمتِه، الرَّقيبُ الشَّهيدُ على كلِّ شيءٍ سبحانه(٢).

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾.

أي: إنْ يشَأِ اللهُ تعالى يُذهِبْكم- أيُّها النَّاس- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا عصَيْتموه، ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيرِكم، هم أتْقَى وأطوعُ للهِ عزَّ وجلَّ منكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على إهلاكِكم وإفنائِكم، واستبدالِ آخرين بكم(٤).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٠-٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥-٣١٦).

بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان شأنُ التَّقوى عظيمًا على النُّفوس؛ لأنَّها يَصرِفُها عنها استعجالُ النَّاس لمنافعِ الدُّنيا على خيراتِ الآخرة- نبَّهَهم اللهُ تعالى إلى أنَّ خيرَ الدُّنيا بيده، وخير الآخرة أيضًا، فإنِ اتَّقَوه نالُوا الخَيْرَيْنِ[1] فقال:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: مَن كانت هِمَّتُه وإرادتُه دنيَّةً غيرَ متجاوزةٍ ثوابَ الدُّنيا، الَّتي لا يحصُل له منها سوى ما كتَبَ اللهُ له وليس له إرادةٌ في الآخرة، فليعلَمْ أنَّ عند الله تعالى خيرَ الدُّنيا والآخرة، فإنَّه إذا سأَله مِن هذه وهذه أعطاه وأغناه، فلا يقتصِرَنَّ قاصرُ الهمَّةِ على السَّعيِ للدُّنيا فقط، بل ليطلُبْهما منه، ويَسْتَعِنْ به عليهما، مفتقِرًا إليه على الدَّوام[2].

كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ * وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى سامعٌ لكلِّ شيء، بصيرٌ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء سبحانه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٢-٣٢٤).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

الفَوائِد التربويَّة:

١- أهميةُ تقوى الله عزَّ وجل؛ لأنَّه أوصى بها الأوَّلِينَ والآخِرينَ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[١].

٢- قوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ الإخبارُ بأنَّ اللهَ أوصى الَّذين أوتوا الكتابَ من قبلُ بالتقوى: مقصودٌ منه إلهابُ هِمَمِ المسلمين للتَّهمُّم بتقوى الله؛ لئلَّا تفضُلَهم الأممُ الَّذين من قبلِهم مِن أهلِ الكتاب؛ فإنَّ للائتساءِ أثرًا بالغًا في النُّفوس؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٢] [البقرة: ١٨٣].

٣- تكرَّرَ كثيرًا في هذه السُّورة الأمرُ بالاتِّقاءِ، وبه افتُتِحَتْ: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ لكثرةِ ما يعرِضُ مِن رعيِ حظوظِ النُّفوس عند الزَّوجية ومع القرابة، ولكونه يدِقُّ ويغمُضُ[٣].

٤- قال تبارَك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾: التَّقوى المأمورُ بها هنا منظورٌ فيها إلى أساسِها، وهو الإيمانُ بالله ورُسُله؛ ولذلك قُوبِلت بجملة: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وبيَّن بها عدمَ حاجته تعالى إلى تقوى النَّاس، ولكنَّها لصلاح أنفسهم؛ كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٤] [الزمر: ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

٥- في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ جعَل الأمر بالتَّقوى وصيَّة؛ وهي الأمرُ المؤكَّد، والشَّأنُ في الوصية إيجازُ القول؛ لأنَّها يُقصَد منها وعيُ السَّامع، واستحضارُه كلمةَ الوصيَّة في سائر أحواله، والتَّقوى تجمع الخيراتِ؛ لأنَّها امتثال الأوامر، واجتناب المناهي؛ ولذلك قالوا: ما تكرَّر لفظٌ في القرآن ما تكرَّر لفظ التَّقوى[(١)].

٦- في هذه الآيةِ كمالُ مراقبةِ الله عزَّ وجلَّ لعباده؛ لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وأنَّ فيها الكفايةَ عن كلِّ مراقب[(٢)].

٧- قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في قوله: ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تبكيتٌ لمن اقتصَر على أحدِ السُّؤالين مع كون المسؤول مالكًا للثَّوابين، وحثٌّ على أن يُطلَبَ منه تعالى ما هو أكملُ وأفضل من مطلوبه؛ فمن طلب خسيسًا مع أنَّه يمكنُه أنْ يطلب نفيسًا فهو دَنيءُ الهِمَّة[(٣)].

٨- قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يجوز أن تكونَ الآية تعليمًا للمؤمنين ألا يصُدَّهم الإيمانُ عن طلب ثوابِ الدُّنيا؛ إذ الكلُّ من فضل الله، ويجوز أن تكونَ تذكيرًا للمؤمنين بألَّا يُلهيَهم طلبُ خير الدُّنيا عن طلَب الآخرة؛ إذ الجمعُ بينهما أفضلُ، وكِلاهما من عند الله[(٤)].

٩- ترتيبُ الثَّوابِ والجزاء على النِّيَّة؛ لقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾، وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يصحِّح نيَّته تمامًا، وألَّا ينويَ بعمل الآخرة إلَّا الآخرةَ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الراغب)) (٤/ ١٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٣).

أمَّا عملُ الدُّنيا فهو للدُّنيا[١].

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أنَّ الَّذي يعطي الثَّوابَ هو الله عزَّ وجلَّ لا غيرُه؛ فعند الله ثواب الدُّنيا والآخرة، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة: ألَّا نعتمدَ فيما نرجوه من ثواب الدُّنيا والآخرة إلَّا على ربِّنا عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو الَّذي بيدِه الأمورُ سبحانه وتعالى[٢].

الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه أنَّ الأمرَ بتقوى الله شريعةٌ عامَّةٌ لجميع الأُمَم، لم يلحَقْها نَسْخٌ ولا تبديلٌ، بل هو وصيَّةُ الله في الأوَّلين والآخِرين[٣].

٢- قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، ومِن تمامِ غناه أنَّه كاملُ الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، لكان فيه نوعُ افتقار إلى ذلك الكمالِ، بل له كلُّ صفةِ كمالٍ، ومن تلك الصفةِ كمالُها، ومن تمام غناه أنَّه لم يتَّخِذْ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكًا في مُلكِه ولا ظهيرًا، ولا مُعاونًا له على شيءٍ من تدابير مُلكِه، ومن كمالِ غناه افتقارُ العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ في جميع أحوالِهم وشؤونِهم إليه، وسؤالُهم إيَّاه جميعَ حوائجِهم الدَّقيقةِ والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومَنَّ عليهم بلُطفِه وهداهم[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ والحميدُ من أسماء الله تعالى الجليلةِ، الدَّالُّ على أنَّه هو المستحِقُّ لكلِّ حمد ومحبَّةٍ وثناء وإكرام؛ وذلك لِمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

اتَّصَف به من صفاتِ الحمد، الَّتي هي صفةُ الجمال والجلال، ولِمَا أنعَم به على خَلْقِه من النِّعمِ الجِزال؛ فهو المحمودُ على كلِّ حال(١).

٤- إثباتُ المشيئةِ لله، وتؤخَذُ من قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، والمشيئةُ الثَّابتة لله ليست مشيئةً مطلَقة مجرَّدة عن الحكمة، بل هي مشيئةٌ مقرونةٌ بالحكمة، فكلُّ شيءٍ علَّقه اللهُ بالمشيئة، فالمراد المشيئةُ الَّتي تقتضيها الحكمةُ، بدليلِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فدلَّ ذلك على أنَّ مشيئةَ الله مقرونةٌ بالعِلم والحكمة(٢).

٥- في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ الرَّدُّ على الجبريَّة؛ وذلك بإثباتِ الإرادة للعبدِ، والجبريَّةُ يقولون: إنَّ العبدَ ليس له إرادةٌ، وأنَّه مجبَرٌ على عملِه، وهذه الآية وغيرها تردُّ عليهم(٣).

٦- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إثباتُ اسمينِ من أسماء الله، هما (السَّميع) و(البصير)، وإثبات ما يترتَّب عليهما من وصفِ (السَّمع) و(البصر)، وإثبات ما يترتَّب عليهما من أثرٍ، وهو أنَّه يسمَعُ ويُبصِرُ(٤).

٧- قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يدلُّ على أنَّ الإسلامَ يَهدي أهلَه إلى سعادةِ الدَّارينِ(٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٧٠).

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۞ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

- قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ منبِّهةٌ على كمالِ سَعتِه، وعِظَم قُدرتِه، وهي كنايةٌ عن عظيمِ سلطانه واستحقاقِه للتَّقوى(١).

- وتَكرَّر قولُه تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ في آيتينِ مُتتالتَينِ هُما قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ۞ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾؛ وفائدةُ هذا التكرار تقريرُ ثلاثةِ أمورٍ:

الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾، والمرادُ منه كونُه تعالى جوادًا مُتفضِّلًا، فذَكَر عقيبَه قولَه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، والغرضُ تقريرُ كونِه واسعَ الجودِ والكرمِ؛ ففيه تَنبيهٌ على مَوضعِ الرَّجاءِ لهذَينِ المفترقين.

الثاني: أنَّه قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمرادُ منه أنَّه تعالى مُنزَّهٌ عن طَاعاتِ المطيعِينَ وعن ذُنوبِ المذنبِينَ؛ فلا يَزدادُ جلالُه بالطاعاتِ، ولا يَنقُصُ بالمعاصِي والسيِّئات، والغرضُ منه تقريرُ كونِه غَنيًّا لذاتِه عن الكلِّ؛ فجاء قولُه: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تَنبيهًا على استغنائِه سبحانَه عن العِباد، ومُقدِّمةً للخبر بكونِه غنيًّا حميدًا.

الثَّالث: أن قولَه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢١٩-٢٢١)

الموضع الثالث مُقدِّمةٌ للوعيدِ الذي بعدَه وهو قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾، والمرادُ منه أنَّه تعالى قادرٌ على الإفناءِ والإيجادِ؛ فإنْ عَصيْتُموه فهو قادرٌ على إعدامِكم وإفنائِكم بالكُلِّيَّةِ، وعلى أنْ يُوجِدَ قَومًا آخَرين يَشتغِلون بعُبوديَّتِه وتَعظيمِه؛ فالغرضُ هاهنا تقريرُ كونِه سبحانه وتعالى قادرًا على جميعِ المقدوراتِ.

فظهر أنَّ هذا التكريرَ في غايةِ الحُسنِ والكمالِ؛ لأنَّ الدليلَ الواحدَ إذا كان دليلًا على مدلولاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّه يَحسُن ذِكرُ ذلك الدليلِ؛ ليستدلَّ به على أحدِ تلك المدلولات، ثم يَذكُره مرَّةً أخرى ليستدلَّ به على الثاني، ثم يذكره ثالثًا ليستدلَّ به على المدلولِ الثَّالث، وهذه الإعادةُ أحْسَنُ وأَوْلى مِن الاكتفاءِ بذِكر الدليلِ مَرَّةً واحدة، لأنَّه عند إعادة ذِكر الدليلِ يَخطُر في الذِّهن ما يُوجِبُ العلمَ بالمدلولِ؛ فكان العلمُ الحاصلُ بذلك المدلولِ أقوى وأجْلَى[1].

٢- قوله: ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا**﴾: التَّعبير بصِيغة (فعيل) ﴿قَدِيرًا﴾؛ للمبالغةِ، وتبيينِ بليغِ القدرةِ، وأنَّه سبحانه لا يُعجِزُه مرادٌ[2].



(١) ينظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ١٢١-١٢٢)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٣٩). وينظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩١-٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٣).

الآيات (١٣٥ - ١٣٧)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ
أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن
تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن
قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا
﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ
لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ قَوَّٰمِينَ ﴾: جمْع قوَّام، وهو مُبالغةٌ من قائِم، وأصل (قوم): مراعاةُ الشَّيء وحِفظه(١).

﴿ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾: أي: مَيْلَ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، وأصلُ (هَوِيَ): الخُلوُّ والسُّقوط؛ ولذلك يُقال للآراءِ الزائفة: أهواءٌ(٢).

﴿ تَلْوُۥٓاْ ﴾: تَقْلِبوا الشَّهادةَ، وهو أنْ يلويَ الشَّاهدُ لِسانَه بالشَّهادة إلى غير الحقِّ بالتَّحريفِ والزِّيادة، والميلِ إلى أحدِ الخَصْمين، وأصلُ (اللَّيِّ): فتلُ الحبلِ، وإمالة الشَّيء كذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٢/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص:٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تذكرة الأريب))

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾

قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾

﴿شُهَدَاءَ﴾: منصوبٌ على أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ(كان) في قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾، أو يكون ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ منصوبًا على أنَّه حالٌ من الضَّمير المستكنِّ في ﴿قَوَّامِينَ﴾، وقيل: إنَّ ﴿شُهَدَاءَ﴾ نعتٌ لـ: ﴿قَوَّامِينَ﴾، و﴿لِلَّهِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّق بـ﴿شُهَدَاءَ﴾[(١)].

قوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾

﴿أَن تَعْدِلُوا﴾: مصدرٌ مؤوَّلٌ بالصَّريح، أي: (عَدْلَكم)، وهو في محلِّ نصْبٍ على أنَّه مفعولٌ مِن أجلِه، على حَذْف مضاف، والتَّقدير: فلا تتَّبِعوا الهوى إرادةَ أنْ تَعدِلوا عن الحقِّ وتَجورُوا. ويجوزُ أنْ يُعرَبَ على إسقاطِ حرْفِ الجرِّ وحذْف (لا) النَّافية، والأصل: فلا تتَّبِعوا الهوى في ألَّا تعدِلوا، أي: في تَرْكِ العدلِ، فحذف (لا)؛ لدلالةِ المعنى عليها، ولَمَّا حُذِفَ حرفُ الجرِّ مِن (أنْ) جرَى القولانِ الشَّهيران في موقِع إعرابه (النَّصب- والجرُّ)، وقيل غير ذلك[(٢)].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ المؤمنين أنْ يَعدِلوا في جميعِ أحوالهم؛ في حقوقِ الله تعالى،

لابن الجوزي (ص: ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٠٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٣-١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٧-٣٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٧-١١٨).

وفي حقوق الخَلْق، وأنْ يُؤدُّوا الشَّهادة ابتغاءَ وجه الله، ولو كانتِ الشَّهادةُ على أنفسِهم، أو والديهم، أو قَراباتهم، ولا تَستميلهم في أدائها أيُّ دوافع أخرى، فلا يراعوا غنيًّا لغناه، ولا فقيرًا شفقةً به فيجوروا بالشَّهادة، بل أَمرُ كلٍّ مِن الغنيِّ والفقير إلى الله، فهو سبحانه أَوْلى بهما، وأعلمُ بما فيه صلاحهما، ونهى الله المؤمنين أنْ يحملَهم الهوى على مجانبة العدلِ، فإنْ حصَل منهم تحريفٌ أو تغييرٌ متعمَّدٌ للشَّهادة، أو أعرَضوا عنها بكتمانها أو ترْكها، فإنَّ الله تعالى خبيرٌ بما عمِلوه، سيحفَظُه ويجازيهم به.

ثمَّ يأمرُ الله المؤمنين بتَحقيقِ الإيمان به سبحانه وتعالى، وبنبيِّه محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبالثَّبات والاستمرار عليه، وإكمال ما نقص من الدِّين، وأن يؤمنوا بالقرآنِ الكريم، وما أنزَله الله من الكتب السَّابقة، ومن يكفُرْ بالله تعالى وملائكته وكُتبه ورُسله واليومِ الآخِرِ فقد ضلَّ عن الطَّريق المستقيم، وانحرَف عنه انحرافًا بعيدًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّ مَن كان مؤمنًا ثمَّ كفر، ثمَّ عاد للإيمان ليرجعَ بعد ذلك إلى الكفر، ويستمرَّ عليه ويزدادَ كفرًا، لم يكُنِ الله تعالى ليغفرَ له، ولا ليوفِّقَه لطريق الحقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها:

لَمَّا تقدَّم ذِكر النِّساء والنُّشوزِ، والمصالَحة بينهنَّ وبين الأزواج، عَقَّبه بالأمرِ بالقيامِ بأداءِ حقوقِ اللهِ تعالى، وبالشَّهادةِ؛ لإحياءِ حقوق الله[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى طالِبَ الدُّنيا، وأنَّه سبحانه عندَه ثوابُ الدُّنيا والآخرة، ذكَر عَقِيبه هذه الآيةَ، وبيَّن أنَّ كمالَ سعادةِ الإنسانِ في أنْ يكونَ قولُه لله، وفِعلُه لله، وحركَتُه لله، وسُكونه لله[٢].

وأيضًا لَمَّا تقدَّم في هذه السُّورة أمرُ النَّاس بالقِسطِ وبالإشهاد عند دفْع أموال اليتامى إليهم، وأمرُهم بعد ذلك ببَذْل النَّفس والمال في سبيل الله، ثمَّ إنَّه تعالى أمَر في هذه الآيات بالمصالحة مع الزَّوجة، ومعلومٌ أنَّ ذلك أمرٌ من الله لعباده بأن يكونوا قائمينَ بالقِسط، شاهدينَ لله على كلِّ أحد، بل وعلى أنفسهم، فكانت هذه الآيةُ كالمؤكِّدِ لكلِّ ما جرى ذِكرُه في هذه السُّورة من أنواع التَّكاليفِ[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾.

أي: ليكُنْ مِن أخلاقِكم وصفاتكم- أيُّها المؤمنون- القيامُ بالعدلِ في كلِّ أحوالكم، في حقوق اللهِ، وفي حقوقِ عباده[٤].

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

أي: ليكُنْ أداءُ الشهادةِ بالعدلِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، لا يحمِلُكم على ذلك رياءٌ، ولا سُمعةٌ، ولا غيرُ ذلك[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

أي: ولو كانت شَهادتُكم على أنفسِكم، أو على والديكم، أو أقربائكم، فقُوموا فيها بالعدل، وقولوا فيها الحقَّ، ولو عاد ضررُها عليكم؛ فإنَّ الحقَّ حاكمٌ على كلِّ أحد، ومُقدَّمٌ على كلِّ أحد[١].

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

أي: فلا تراعوا الغنيَّ لغناه، ولا الفقير لفقرِه؛ شَفقةً عليه، ورحمةً له فتجُوروا؛ فإنَّ أمرَهما إلى خالقِهما ومالكِهما؛ فهو سبحانه أَوْلى وأحقُّ بهما منكم، وأعلمُ بما فيه صلاحُهما[٢].

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾.

أي: فلا يَحملَنَّكم هوَى أنفُسِكم المعارضُ للحقِّ على ترْكِ العدل؛ فإنَّكم إنِ اتَّبعتم أهواءَكم عدَلْتُم عن الصَّواب، ووقَعتم في الجَوْرِ والظُّلم[٣].

سورة النساء)) (٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٥).

قال الرازي: (شهادةُ الإنسانِ على نفْسِه لها تفسيران:

الأوَّل: أن يُقرَّ على نفْسه؛ لأنَّ الإقرارَ كالشهادة في كونه موجِبًا إلزامَ الحقِّ. والثاني: أنْ يكون المرادُ: وإنْ كانت الشهادة وبالًا على أنفسكم وأقاربكم، وذلك أنْ يَشهَدَ على مَن يتوقَّع ضَرره مِن سُلطان ظالِم أو غيره) ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٤-٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٨٥، ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨-٢٠٩).

وقولُه: ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ إمَّا مِن العدلِ، وهو القِسْط، ويكونُ التَّقديرُ على ذلك: فلا تتَّبعوا الهوَى كراهةَ أن تعدِلوا بينَ النَّاس. أو مِن العُدولِ عن الحقِّ، ويكونُ التَّقْديرُ: فلا تتَّبعوا الهوَى مخافةَ أن تعدلوا عن الحقِّ، أو كراهةَ أن تعدلوا عن الحقِّ. وقيل غير ذلك. ينظر: ((تفسير أبي حيان))

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

بعدَ أنْ أمَر الله تعالى ونهى وحذَّر، عقَّب ذلك كلَّه بالتَّهديد[1].

وأيضًا لما بيَّن أنَّ الواجبَ القيامُ بالقسطِ نهَى عمَّا يضادُّ ذلك[2]، فقال:

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ قراءتان:

١- قراءة ﴿تَلُوا﴾ من الولاية، والمعنى: إنْ وُلِّيتم إقامةَ الشَّهادة أو وُلِّيتُم الأمرَ[3].

٢- قراءة ﴿تَلْوُوا﴾ من لويتُ فلانًا حقَّه ليًّا، أي: دافَعْتَه وماطَلْتَه، والمعنى: وإنْ تَلْووا ألسنتكم عن شَهادةِ الحقِّ، أو حكومةِ العَدْل[4].

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾.

(٤/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٢٠٨).

(٣) قرأ بها ابن عامر وحمزة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٠)
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٨-١١٩)،

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٢٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١٨-١١٩)،

أي: وإنْ تُحرِّفوا الشَّهادة وتُغيِّروها، أو تُعرضوا عنها بكتمانِها وتركِها[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

أي: فإنَّ الله محيطٌ بما تفعَلون، ويعلَمُ ما ظهَر وما بطَن؛ مِن إقامتِكم الشَّهادةَ بالباطلِ، وتحريفِكم إيَّاها أو كِتمانِكم لها، فيَحفظ ذلك عليكم ويُجازيكم به[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر الله تعالى المؤمنينَ بالقيامِ بالقِسطِ والشَّهادةِ لله، بيَّن أنَّه لا يتَّصِفُ بذلك إلَّا مَن كان راسخَ القدَمِ في الإيمان بالأشياء المذكورة في هذه الآيةِ؛ فالإيمانُ هو الحامِلُ على ذلك، وهو الجامعُ لمعاني القيامِ بالقِسط والشَّهادة لله؛ فأمَر بأن يؤمنوا باللهِ والمُبلِّغ والكتابِ النَّاهج لشرائعه، ويدوموا على إيمانهم، ويَحذَروا مساربَ ما يُخلُّ بذلك[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: حقِّقوا- أيُّها المؤمنون- إيمانَكم بالله تعالى وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأكمِلوا ما نقَصَ لدَيكم منه، واثبُتوا واستمرُّوا عليه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٢٥، ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٢). ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٣٤). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

أي: وآمِنوا أيضًا بالقرآن[١].

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وآمِنوا أيضًا بالكُتب السَّابقة الَّتي أنزَلها اللهُ تعالى[٢].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.

أي: ومَن يكفُرْ بالله تعالى، وملائكتِه، وبما أنزله مِن كتبٍ، وبمَن بعَثهم من الرُّسلِ، وباليوم الآخِرِ، فقد خرَج عن الصِّراط المُستقيم، وانحرَف عن طريقِ الحقِّ والهدى انحرافًا بعيدًا[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ١٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإيمانِ، ورغَّب فيه، بيَّن فسادَ طريقةِ مَن يكفُرُ بعد

سورة النساء)) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة))

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

قال ابن عثيمين: (الضلالُ البعيد يعودُ على كلِّ من كفَر بالأربعِ، أو بواحدٍ منها؛ لأن الذي يؤمِنُ ببعضٍ ويكفُرُ ببعضٍ كالذي كفَرَ بالكلِّ) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

الإيمان، وأنَّه لا يغفِرُ له[١] فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾.

أي: مَن تكرَّر منه الكفرُ بعدَ الإيمان، فدَخَل في الإيمان ثمَّ رجع عنه، ثمَّ عاد فيه ثمَّ رجَع عنه، واستمرَّ على كفرِه، وازداد منه[٢].

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾.

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليستُرَ عليهم كُفرَهم وذُنوبهم، ويَتجاوزَ عن عُقوبتِهم؛ فإنَّ مَن كان هذا حالَه فهو بعيدٌ من المغفرةِ؛ لإتيانِه بأعظمِ مانعٍ يمنَعُه مِن حُصولها؛ فكُفرُه يكونُ عقوبةً وطبعًا لا يزول حتَّى مماتِه[٣].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾.

أي: ولم يكُنِ اللهُ عزَّ وجلَّ ليُسدِّدَهم لإصابةِ طريق الحقِّ والهدى، فيوفِّقَهم لها[٤].

الفوائد التَّربويَّة:

١- القيامُ بالقِسطِ من أعظم الأمورِ، وأدلُّ على دِينِ القائم به، وورعِه ومقامِه في الإسلام، فيتعيَّنُ على مَن نصح نفسَه، وأراد نجاتَها، أن يهتمَّ له غايةَ الاهتمام،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

وأن يجعَلَه نُصْبَ عينيه، ومحَلَّ إرادتِه، وأن يزيلَ عن نفسه كلَّ مانعٍ وعائق يعُوقُه عن إرادة القِسطِ، أو العمل به، قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[١].

٢- الإشارةُ إلى الإخلاص في أداءِ الشَّهادة؛ لقوله: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، فينبغي أن يُؤدِّيَها المسلمُ قُربةً إلى الله عزَّ وجلَّ، مخلِصًا بها للهِ؛ بامتثال أمرِه بأدائها[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ فيه تحريمُ اتِّباع الهوى الَّذي يُخالِفُ العدلَ، والهوى لا يُذَمُّ مطلَقًا، ولا يُحمَدُ مطلقًا، فإذا كان الهوى تبعًا لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو محمودٌ، وإذا كان مخالِفًا له فهو مذمومٌ[٣].

٤- وجوبُ الثَّباتِ على الإيمانِ، وتكميلِه؛ لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[٤].

٥- أنَّه يجبُ على الإنسان أنْ يَحذَرَ من التَّردُّدِ والتَّقلُّب؛ فإنَّ الغالبَ أنَّ مَن هذه حالُه لا يبارَكُ له في عمره، ولا في عملِه، فكونُه كلَّ يوم له رأيٌ، وكلَّ يومٍ له عَمَل، هذا لا شكَّ أنَّه يضيعُ عليه الوقتُ، ولا يستفيدُ مِن عُمرِه شيئًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[٥].

الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:

١- وجوبُ إقامةِ الشَّهادة؛ لقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤١).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٧).

٢- قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ مِن أعظمِ أنواع القِسطِ: القِسطُ في المقالات والقائلين، فلا يَحكُمُ لأحدِ القولين أو أحدِ المتنازعَيْن لانتسابِه أو مَيلِه لأحدِهما، بل يَجعل وِجهتَه العدلَ بينهما، ومن القِسطِ: أداءُ الشَّهادة الَّتي عندك على أيِّ وجهٍ كان، حتَّى على الأحبابِ، بل على النَّفس؛ ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾[1].

٣- وجوبُ العدلِ في الشَّهادة، بحيث لا يزيدُ فيها ولا يَنقُص، ولا يأبى أن يؤدِّيَها عند الحاجةِ إليها؛ لأنَّ هذا كلَّه داخلٌ في قوله: ﴿قَوَّامِينَ﴾[2].

٤- أوجَب اللهُ تعالى العدلَ لكلِّ أحدٍ على كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾[3].

٥- وجوبُ الإقرار على مَن عليه حقٌّ؛ لقوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، فيجبُ على الإنسانِ أن يُقرَّ بالحقِّ الَّذي عليه، ولو كان مُرًّا[4].

٦- وجوبُ الشَّهادة على الوالدَيْنِ والأقربين بما يلزَمُهم؛ لقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، وعلى هذا فتُقبَلُ شَهادة الولدِ على والدَيْه[5].

٧- قوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ جاء هذا التَّرتيبُ في الاستقصاءِ في غايةٍ مِن الحُسنِ والفصاحة، فبدأ بقوله:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٧).

(٣) ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص:٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٢٨).

﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنه لا شيءَ أعزُّ على الإنسانِ مِن نفسه، ثمَّ ذكَر الوالدَين، وهما أقربُ إلى الإنسان، وسبب وجوده، وقد أمر ببِرِّهما وتعظيمِهما، والحوطة لهما، ثمَّ ذكَر الأقربينَ، وهم مَظِنَّة المحبَّة والتَّعصُّب، وإذا كان هؤلاء أُمِر في حقِّهم بالقِسط والشَّهادة عليهم، فالأجنبيُّ أحرى بذلك(١).

٨- في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ قدَّم الأمْرَ بالقيام بالقِسط على الأمر بالشَّهادة؛ لوجوهٍ:

الأول: أنَّ أكثرَ النَّاس عادتُهم أنَّهم يَأمرون غَيرَهم بالمعروف، فإذا آلَ الأمرُ إلى أنفسهم ترَكوه، حتَّى إنَّ أقبحَ القبيحِ إذا صدَر عنهم كان في مَحلِّ المسامحةِ، وأَحْسَنَ الحُسنِ إذا صدَر عن غيرِهم كان في محلِّ المنازَعة!

الثاني: أنَّ القيامَ بالقِسط عبارةٌ عن دفعِ ضررِ العقابِ عن الغير، وهو الَّذي عليه الحقُّ، ودفعُ الضَّررِ عن النَّفس مقدَّم على دفعِ الضَّررِ عن الغير.

الثالث: أنَّ القيام بالقِسط فِعلٌ، والشَّهادةُ قولٌ، والفعلُ أقوى من القول(٢).

٩- أنَّ اللهَ سبحانه نهى عن المحاباةِ للغِنى أو للفَقْر، وتؤخَذُ من قوله: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾؛ فاللهُ سبحانه هو الوليُّ على كلِّ أحدٍ، فلا تُحابِ أحدًا لغناه ولا لفقره؛ فالله وليُّ الجميع(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ المقصودُ من ذلك التَّحذيرُ مِن التَّأثُّر بأحوالٍ يلتبس فيها الباطلُ بالحقِّ لِمَا يحفُّ بها من عوارضَ يُتوهَّمُ أنَّ رعيَها ضربٌ مِن إقامةِ المصالح، وحراسةِ العدالة، فلمَّا أبطلَتِ الآيةُ الَّتي قبلها وهي قولُه تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٥)

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٨).

عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ التَّأثُّر للحمِيَّةِ أُعْقِبت بهذه الآيةِ لإبطالِ التَّأثُّرِ بالمظاهر الَّتي تستجلبُ النُّفوسَ إلى مراعاتِها، فيتمحَّض نظرُها إليها، وتُغضِي بسببِها عن تمييز الحقِّ من الباطل، وتذهل عنه، فمن النُّفوس مَن يتوهَّمُ أنَّ الغنى يربأُ بصاحبه عن أخذِ حقِّ غيره، يقول في نفسه: هذا في غُنْيَةٍ عن أكلِ حقِّ غيره، وقد أنعَم الله عليه بعدم الحاجة، ومِن النَّاس مَن يميل إلى الفقير رقَّةً له، فيحسبه مظلومًا، أو يحسب أنَّ القضاءَ له بمالِ الغنيِّ لا يضرُّ الغنيَّ شيئًا؛ فنهاهم اللهُ عن هذه التَّأثيراتِ بكلمةٍ جامعة، وهي قوله: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾[1].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَا﴾ تحريمُ ما يسمَّى بالاشتراكيَّة؛ لأنَّ دعاة الاشتراكيَّة يقولون: إنَّنا نريد أن نرحَمَ الفقير، فنأخُذ من مالِ الغنيِّ، ونعطيه الفقيرَ رحمةً به، فيقال: إنَّ اللهَ أَوْلى به منكم، والله عزَّ وجلَّ له الحكمةُ في جَعْل النَّاس بعضُهم فقيرٌ وبعضُهم غنيٌّ[2].

١٢- بيَّن الله وجوب القيام بالقِسط، ونهى عمَّا يضادُّ ذلك في قوله: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ﴾، وهو ليُّ اللِّسان عن الحقِّ في الشَّهادات وغيرِها، وتحريف النُّطق عن الصَّواب المقصود من كلِّ وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخُلُ في ذلك تحريفُ الشَّهادة وعدمُ تكميلِها، أو تأويل الشَّاهد على أمرٍ آخَرَ، فإنَّ هذا مِن اللَّيِّ؛ لأنَّه الانحرافُ عن الحقِّ[3].

١٣- الشَّهادةُ لا بدَّ فيها مِن عِلْم الشَّاهِدِ وصِدْقِه وبيانِه؛ ولا يَحصُلُ مقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).

الشَّهادةِ إلَّا بهذه الأمورِ؛ ولهذا ذَمَّ سبحانَه مَن يَكتُمُ ويُحرِّفُ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].

١٤- ذكَر الله تعالى في مراتبِ الإيمان أمورًا ثلاثةً: الإيمان بالله وبالرَّسول وبالكتُب، وذكَر في مَراتبِ الكفر أمورًا خمسةً: الكفر بالله وبالملائكة وبالكتب وبالرُّسل وباليومِ الآخِرِ؛ وذلك أنَّ الإيمانَ بالله وبالرُّسل وبالكتُب متى حصَل فقَدْ حصَل الإيمانُ بالملائكةِ واليوم الآخِر لا مَحالةَ؛ إذ ربَّما ادَّعى الإنسانُ أنَّه يؤمِنُ بالله وبالرُّسل وبالكتب، ثمَّ إنَّه ينكِرُ الملائكة، وينكِرُ اليومَ الآخِرَ، ويَزعُم أنَّه يَجعل الآياتِ الواردةَ في الملائكةِ وفي اليوم الآخِرِ محمولةً على التَّأويلِ، فلمَّا كان هذا الاحتمالُ قائمًا، لا جرمَ نَصَّ أنَّ مُنكِرَ الملائكةِ ومُنكِرَ القيامةِ كافرٌ بالله[2].

١٥- قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ فيه أنَّ القرآنَ منزَّل، وأنَّه كلامُ الله؛ لأنَّه نزَل مِن عنده، فيكون كلامَه، وفيه علوُّ الله عزَّ وجلَّ أيضًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ﴾، والتَّنزيلُ يكون مِن أعلى إلى أسفلَ[3].

١٦- أنَّ القرآنَ منزَّلٌ على محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ومنتهى نزوله قلبُ النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[4].

١٧- أنَّ القرآنَ الكريمَ نزل مُفرَّقًا؛ لقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ويشهد على

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٥).

ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾[1] [الإسراء: ١٠٦].

١٨- وجوبُ الإيمانِ بالكتب السَّابقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾، فلو أنَّ أحدًا قال: أنا أؤمن بالقرآن، لكنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ لم تنزِلْ على رسولِنا فلن أؤمنَ بها، قلنا: إنَّك الآن كافرٌ مرتَدٌّ؛ لأنَّه لا بدَّ أن تؤمنَ بالكتابِ الَّذي أُنزِلَ مِن قبلُ كما أمَرك الله[2].

١٩- أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ ختامُ الكتب، وتؤخَذُ من قوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ ولم يقُلْ ومن بعدُ؛ إشارةً إلى أنَّه لا كتابَ بعد القرآن الكريم[3].

٢٠- الكفرُ بشيءٍ من هذه المذكوراتِ كالكُفرِ بجَميعها؛ لتلازُمِها وامتناعِ وجود الإيمان ببعضِها دون بعضٍ، فلا يصحُّ الإيمانُ المبعَّضُ؛ لقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾[4].

٢١- أنَّ الضَّلالَ يتفاوتُ، بعضُه أشدُّ من بعضٍ؛ لقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[5].

٢٢- أنَّ المتذبذبَ بين الإيمانِ والرِّدَّةِ يكونُ مآلُه أن يزداد كفرًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، وذلك -والله أعلم- أنَّ الإيمانَ لم يدخُلْ قلبَه[6].

٢٣- قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٩).

﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ دلَّتِ الآيةُ على أنَّ الكفرَ يقبَلُ الزِّيادة والنُّقصانَ، فوجَب أن يكونَ الإيمانُ أيضًا كذلك؛ لأنَّهما ضِدَّانِ مُتنافيان، فإذا قبِل أحدُهما التفاوتَ فكذلك الآخَر[١].

٢٤- الرَّدُّ على الجبريَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عمله، وأن فِعلَه لا يُنسَبُ إليه إلَّا مجازًا؛ فالرَّدُّ عليهم من قوله: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، فأضاف الأفعالَ إليهم، ففيه ردٌّ على الجبريَّة؛ لأنَّ الجبريَّةَ عندهم أنَّ العبدَ ليس له فِعلٌ اختياريٌّ، بل هو مجبَرٌ على العمل[٢].

٢٥- الرَّدُّ على القدَريَّةِ؛ لقوله: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾، فدلَّ هذا على أنَّ الهدايةَ بيدِ الله، وليس يستقلُّ بها العبدُ، والقدَريَّة يقولون: إنَّ الإنسانَ مستقلٌّ بفعلِه، وليس لله فيه مشيئةٌ ولا خَلْق[٣].

٢٦- أنَّ اللهَ سبحانه إذا علِم من حالِ العبد أنَّه لن يستقيم، فإنَّه لن يَغْفِرَ له ولن يهديَه؛ لأنَّ هؤلاء: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، ويَترتَّب على هذه الفائدةِ الَّتي دلَّتْ عليها هذه الآيةُ، ودلَّ عليها قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥] أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ تجلبُ الأعمالَ الصَّالحة، والأعمالَ السَّيِّئة تجلب الأعمالَ السَّيِّئة، فإذا منَّ اللهُ عليك بعملٍ صالح فأبشِرْ أنَّه سيمُنُّ عليك بعمل آخَرَ تُتبِعُه إيَّاه[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾: جاءت كلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ على صِيغة (فعَّال)؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٢).

للمبالِغة في لزُوم الاتِّصاف بالعدْلِ، وإقامةِ القسطِ في جميع الأمورِ؛ فصِيغة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكثرةِ المرادِ لازِمُها، وهو عدمُ الإخلالِ بهذا القيامِ في حالٍ من الأحوال[١].

٢- قوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مجيء (لو) هنا؛ لاستِقْصاءِ جميعِ ما يمكِنُ فيه الشَّهادة[٢].

٣- قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ استئنافٌ واقعٌ موقعَ العِلَّة[٣].

٤- قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ كنايةٌ عن وعيد؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعل السُّوء، وهو قديرٌ، لا يُعوِزُه أن يعذِّبَه على ذلك[٤].

٥- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: تذييلٌ عقَّب به أمرَ المؤمنين بأنْ يكونوا قوَّامين بالقِسطِ شُهداءَ لله، فأمَرَهم اللُّه عقِبَ ذلك بما هو جامعٌ لمعانِي القيامِ بالقِسط والشَّهادةِ لله، الَّذي هو الإيمانُ بالله ورسوله والكتُب[٥].

٦- قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ عبَّر في صِلةِ وصْف الكِتابِ الَّذي نزَّل على رَسوله بصِيغة التَّفعيل ﴿نَزَّلَ﴾، وفي صِلةِ الكتاب الَّذي أنزل من قبلُ بصيغة الإفعال ﴿أَنزَلَ﴾ تفنُّنًا، أو لأنَّ القرآنَ حينئذٍ بصدد النُّزول نجومًا، والتَّوراة يومئذ قد انقضَى نُزولُها[٦]؛ فقوله:

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٢٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٨).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٢٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٠).

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ المرادُ به هنا: القرآن، وعبَّر عنه بقوله: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنَّه يَنزِلُ شيئًا فشيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وفي قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾... عبَّر عن الكتُب السَّابقة بـ﴿أَنْزَلَ﴾؛ لأنَّها تنزِلُ جُملةً واحدة[١].

٧- **قوله:** ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ﴾ فيه: المبالغةُ في تأكيدِ النَّفيِ[٢]؛ فإنَّ النَّفيَ في قولِه: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أبلغُ مِن لو قال: (لا يغفر الله لهم)؛ لأنَّ أصلَ وضعِ هذه الصِّيغة للدَّلالة على أنَّ اسمَ كان لم يُجعَلْ ليصدُرَ منه خبرُها، ولا شكَّ أنَّ الشَّيء الَّذي لم يُجعْل لشيء يكون نابيًا عنه؛ لأنَّه ضدُّ طَبْعِه، ولقد أبدَع النُّحاةُ في تسميةِ اللَّام الَّتي بعد كان المنفيَّة (لام الجحود)[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣١-٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٢).

الآيات (١٣٨ - ١٤٣)

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: الغَلَبة، وهي حالةٌ مانعة للمُتَّصِفِ بها مِن أنْ يُغلَبَ، من قولهم: أرض عَزازٌ، أي: صُلْبة، وأصل (عز): يدلُّ على شدَّة وقوة، وغَلَبة وقهر[١].

﴿وَيُسْتَهْزَأُ﴾: أي: يُسخَر منها، والاستِهزَاءُ: ارتيادُ الهُزْءِ، ويُعبَّر به عن تَعاطِيه، والهُزْء: اللَّعِب والسُّخريَّة، وأصل الهُزْء: مزحٌ في خفية، وقد يقال لِمَا هو كالمزح[٢].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤١).

﴿يَخُوضُوا﴾: أي: يَتحدَّثوا ويَتفاوَضوا، ويتداخَلَ كلامُهم؛ يُقال: تَخاوَضُوا في الحديثِ والأمرِ، والخوض: هو الشُّروع في الماءِ، والمرورُ فيه؛ يُقال: خُضْتُ الماءَ وغيرَه، وأصل (خوض): توسُّط شيءٍ ودخول[1].

﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: يَنتظرون، والتَّربُّص: الانتظارُ والتَّمكُّث[2].

﴿فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: أي: نصْرٌ وتأييدٌ وظَفَرٌ وغنيمةٌ، وأصلُ الفتْحِ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ[3].

﴿نَسْتَحْوِذْ﴾: أي: نَغلِبْ ونَستولِ؛ يُقال: حاذَ الإبلَ يَحُوذها، أي: ساقَها سَوْقًا عنيفًا، وأصلُه: الخِفَّةُ والسُّرعةُ، وانكماشٌ في الأمر[4].

﴿كُسَالَىٰ﴾: أي: مُتثاقلين كالمُكرَه على الفِعل، والكَسلُ: التَّثاقُل عمَّا لا ينبغي التَّثاقُل عنه، وأصله: التَّثاقُل عن الشَّيء، والقعودُ عن إتمامِه أو عنه[5].

﴿يُرَآءُونَ﴾: أي: يَفعلون الشَّيء ليراه النَّاس، وأصلُه من الرُّؤيةِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٩).

﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾: أي: مُتردِّدين بين الإسلامِ والكُفر، أو مُضطرِبين مائِلين، وأصل الذَّبذبة: جَعْلُ الشَّيءِ مُضطربًا[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ﴾

﴿أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ...﴾: ﴿أَنۡ﴾ هي المخفَّفةُ من الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن محذوف، أي: أنَّه، والجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿إِذَا سَمِعۡتُمۡ ...﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُ أنْ، و(أنْ) وما في حيِّزها مصدرٌ مؤوَّلٌ في موضِعَ نصْبٍ على أنَّه مَفعولٌ به على قِراءة ﴿نَزَّلَ﴾ بفَتْح النُّونِ، والفاعلُ هو الضَّميرُ العائدُ على لفظِ الجلَالة الله تعالى، وفي موضِع رفْعٍ مفعولٌ لم يُسمَّ فاعلُه على قِراءة مَن قرأ (نُزِّل) بالضَّمِّ، أي: وقد نُزِّل عليكمُ المنعُ من مجالستِهم عند سماعِكم الكفرَ بالآياتِ والاستهزاءَ بها[2].

المَعنَى الإجماليُّ:

يأمرُ الله نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبشِّرَ المنافقين الَّذين يُظهِرون الإسلامَ، ويُبطِنون الكُفرَ بالعذابِ الأليمِ، هؤلاء المنافقون الَّذين يُوالُون الكفَّارَ من دونِ المؤمنين، فيُحبُّونهم ويَنصرونهم ويُعِينونهم، أيُّ شيءٍ حمَلَهم على ذلك؟ أيَطلُبون عندَ الكفَّارِ العزَّةَ؟ فلنْ يَجِدوها عندَهم؛ فالعِزَّة لله وحْدَه.

ثمَّ خاطَب اللهُ المؤمنين أنَّه قد أَنزَل عليهم في القرآنِ أنَّهم إذا سمِعوا استهزاءً وكُفرًا بآياتِ الله، فلا يَقعدوا مع هؤلاءِ المتحدِّثين حتَّى يَتحدَّثوا بحديثٍ غيرِ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٠-٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٣٩٨-٣٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٢٠-١٢١)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٢٩).

حديثِ الكُفرِ والاستهزاء، فإذا ما قعَدوا معهم في هذه الحالةِ فإنَّهم مِثلُهم، ثمَّ توعَّد اللهُ المنافقين والكفَّارَ بأنَّه سيجمَعُهم في جَهنَّمَ كلِّهم، هؤلاء المنافقون الَّذين يترقَّبون ما يحلُّ بالمؤمنين من خيرٍ أو شرٍّ، فإنْ فتَحَ الله على المؤمنين فتحًا على عدوِّهم بالنَّصر أو الظَّفَر أو الغنيمة، قال هؤلاء المنافقون للمؤمنين: ألم نكُنْ في صفِّكم، شاهدينَ معكم القتالَ؛ طالبيَن منهم نصيبًا من المَغْنَم، وإن كانت الكِفَّةُ للكفَّار فأصابوا من المؤمنين، قال المنافقون للكفَّار: ألَمْ نُساعِدْكم وننصُرْكم، ونَحْمِكُم من المؤمنين؛ فاللهُ سبحانه يحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، فيُجازي المؤمنين بالجنَّة، والمنافقين بدخولِ نارِ جهنَّمَ، ولن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ من التَّسلُّطِ التَّامِّ على المؤمنينَ في الدُّنيا، كما لم يجعَلِ اللهُ للكفَّار حُجَّةً على المؤمنينَ يغلِبونهم بها يومَ القيامة.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المنافقينَ يخادِعون الله بإظهارهم الإسلامَ، وإبطانِهم الكفرَ، فيعصِمون بذلك دماءَهم وأموالهم، ويظنُّون روَاجَ فِعْلِهم هذا عند الله يوم القيامة، كما راج عند النَّاسِ في الدُّنيا، وهو سبحانه وتعالى خادِعُهم بما حكَم عليهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائِهم وأموالِهم مع عِلمِه بهم؛ وذلك ليستدرجَهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة، فيُدخِلهم جهنَّمَ وبئس المصيرُ، ثمَّ أخبَرَ تعالى عن المنافقين أنَّهم إذا قاموا إلى الصَّلاةِ قاموا وهم متثاقِلون، متبرِّمون مِن فعلِها، يؤدُّونها ليراهم المؤمنون فيظنُّون أنَّهم منهم، ولا يذكُرونَ اللهَ فيها إلَّا قليلًا، هؤلاء المنافقون متردِّدون حائرونَ بين الإيمانِ والكُفر، فلا هم مع المؤمنين خُلَّصٌ ولا مع الكفَّار خُلَّصٌ، بل مع المؤمنين في الظَّاهر، ومع الكفَّار في الباطن، ومنهم مَن يُخالِجُه الشَّكُّ فيميل إلى هؤلاء أحيانًا، وإلى هؤلاء أحيانًا أخرى، ثمَّ خاطَب اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائلًا له: إنَّ مَن يُضلِلِ اللهُ عن طريق الهُدى، فلن تجِدَ له طريقًا آخَرَ لهدايتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾.

أي: أخبِرْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين أظهَروا الإسلامَ، وأبطَنوا الكُفر بأقبحِ بِشارةٍ وأسوئِها، وهي أنَّ لهم عندَ اللهِ تعالى عذابًا مؤلِمًا موجِعًا(١).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: هؤلاء المنافقونَ الذين صِفتُهم أنَّهم يَجعَلون الكفَّارَ أولياءَ لهم، يُحبُّونهم وينصُرونهم ويُعِينونهم لا عبادَ الله المؤمنين(٢).

ثمَّ قال اللهُ تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه مِن موالاةِ الكافرينَ(٣):

﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾.

أي: أيُّ شيءٍ حمَلهم على ذلك؟ أيطلُبون عندَ الكفَّار المنَعَةَ والقوَّة والغَلَبة باتِّخاذهم أولياءَ من دون المؤمنين(٤)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٢-٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦).

قال السعدي: (وهذا هو الواقعُ من أحوال المنافقين؛ ساء ظَنُّهم بالله، وضعُف يقينُهم بنصر اللهِ لعباده المؤمنين، ولحَظُوا بعضَ الأسباب التي عند الكافرين، وقَصُرَ نظرُهم عمَّا وراءَ ذلك؛ فاتَّخذوا الكافرين أولياءَ يَتعزَّزون بهم ويَستنصِرون) ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩-٢١٠).

﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

أي: فليستِ العِزَّةُ عند الكفَّار، إنَّما العِزَّةُ والمَنَعَةُ والنُّصرةُ والقوَّةُ من عند الله تعالى؛ فهو وحده القاهر لكلِّ شيء، الغالب لكلِّ شيء، ذو القَدْرِ العظيم، الَّذي لا يُماثِله شيءٌ، الَّذي يمتنع عليه كلُّ نقص وعيب، يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء؛ فالتمِسوا العِزَّة منه سبحانه، وانتظِموا في جملةِ عبادِه المؤمنينَ، واتخِذوهم أولياءَ؛ فإنَّ لهم النَّصرةَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويومَ يقوم الأشهادُ[1].

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧-٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

أي: وقد بَيَّن اللهُ تعالى لكم في القُرآنِ- أيُّها المؤمنون- حُكمَه الشَّرعيَّ عند حضورِ مجالسِ الكفرِ والاستهانةِ بآياتِ اللهِ تعالى وأوامره ونواهيه[2].

والآيةُ الَّتي أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إليها هي قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٨-٣٥٠).

فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] [الأنعام: ٦٨].

﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾.

أي: فلا تَمكثُوا فيها إلَّا أنْ يأخُذَ المُتحدِّثون في حديثٍ آخَرَ غيرِ حديثِ الكُفْر والاستهزاء[2].

﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾.

أي: إنِ ارتكبتُم هذا النَّهيَ بعد بُلوغِه إليكم، ورَضِيتم بالمُكثِ معهم في المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهان بها، وأقررتُموهم على ذلك، فقد شاركتُموهم إثمَ ذلك[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى جامعُ الفَريقينِ من الكفَّارِ والمنافقين في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامة، فكما أشرَكوهم في الكُفر، واجتمَعوا على عداوةِ المؤمنين، والتَّخذيلِ عن دِينِ الله، كذلك جمَع اللهُ بينهم في الخلودِ في نار جهنَّمَ[4].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٠-٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾.

أي: إنَّ المنافِقين ينتظرون ما يحلُّ بكم- أيُّها المؤمنون- من خيرٍ أو شرٍّ[١].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإنْ فتَح الله تعالى عليكم فتحًا مِن عَدوِّكم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والغنيمةِ[٢].

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

أي: قال لكم هؤلاء المنافقون: ألم نشهَدْ معكم قتالَ عدوِّكم؟ فأعطُونا إذًا نصيبًا من الغنيمةِ[٣].

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾.

أي: وإنْ كان لأعدائِكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم؛ بإصابتِهم منكم في بَعضِ الأحيان[٤].

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ألم نساعِدْكم، ونُحِطْ بكم إحاطةَ العنايةِ والنُّصرة، ونَحْمِكُم من المؤمنين، مِن أنْ ينالوكم بسوءٍ، وصرَفْناهم عنكم بتخذيلِهم، أو بالتَّجسُّسِ عليهم؛ لإبلاغِكم أخبارَهم، أو بإلقاء الأراجيف والفِتَن بين جيوشهم؛ لإضعاف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٦).

بأسِهم، وبغير ذلك من وجوهِ المنع، حتَّى انتصرتم عليهم؟[١].

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى سيحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين، ويفصل بينهم بالقضاءِ الفصل يوم القيامة؛ وذلك بإدخالِ المؤمنين جنَّتَه، وإدخالِ المنافقين مع أوليائِهم الكفَّارِ نارَه[٢].

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

أي: ولن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ في الدُّنيا مِن التَّسلُّط التَّامِّ على المؤمنين، واستئصالهم بالكُلِّيَّة، بل لا تَزالُ طائفةٌ من المؤمنين على الحقِّ منصورةً، لا يَضرُّهم مَن خذَلهم ولا مَن خالَفهم إلى يومِ القيامة، ولن يَجعلَ اللهُ تعالى للكفَّار حُجَّةً يَغلِبون بها المؤمنين يومَ القيامة، بل يُدخِل عِبادَه المؤمنين الجنَّةَ، ويُدخل الكفَّارَ وأولياءَهم المنافقين النَّارَ؛ فالعاقبة في الدُّنيا والآخرة للمؤمنين[٣].

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنَّ المنافقين يُخادِعون الله بإحرازِهم- بما أظهَروه من الإيمان، وأبطَنوه من الكُفران- دماءَهم وأموالَهم؛ إذ يعتقدون لجَهلِهم وقلَّةِ عقلهم أنَّ أمرَهم كما راج عند النَّاس، وجَرَتْ عليهم أحكامُ الشَّريعة ظاهرًا في الدُّنيا، يرُوجُ يوم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

القيامة عند اللهِ سبحانه وتعالى[١].

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى خادِعُهم بما حَكَم فيهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائهم؛ لكونِهم أظهروا الإيمانَ بألسنتِهم، مع علمِه باستبطانِهم الكفرَ؛ وذلك استدراجًا منه لهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة فيُورِدَهم نارَ جهنَّمَ[٢].

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

أي: وإذا قاموا لأداءِ الصَّلاةِ قاموا إليها وهم مُتثاقِلون، مُتبرِّمون مِن فِعلها؛ لأنَّهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا رَغبةَ، وغيرُ مؤمنين بها، ولا موقِنين بمعادٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

ولَمَّا ذكَر الله جلَّ وعلا صِفةَ ظواهِرِهم، أعقَبَ ذلك بذِكْرِ صفةِ بواطِنِهم الفاسِدة[٤]، فقال:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

أي: إنَّما يُؤدُّون الصَّلاةَ الَّتي يَقومون إليها كُسالى؛ ليراهم المؤمنون فيَحسَبوا أنَّهم منهم؛ وذلك إبقاءً على أنفسهم، وحَذَرًا من المؤمنين عليها؛ كيلَا يُقتلوا أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٧-٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨).

تُسلَبَ أموالُهم، ولا إخلاصَ لهم لله تعالى[١].

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا يذكُرون اللهَ تعالى في صلاتِهم بألسنتِهم، وجوارِحِهم، وقلوبِهم، ولا يَخشَعون فيها، ولا يَدْرُون ما يقولون، بل هم في صلاتِهم ساهُون لاهونَ؛ وذلك لامتلاءِ قلوبِهم بالرِّياء[٢].

عن أَنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ((تلك صلاةُ المنافق، يجلسُ يرقُبُ الشمسَ، حتَّى إذا كانتْ بين قَرْنَيِ الشَّيطانِ قام فنقَرها أربعًا، لا يذكُرُ اللهَ فيها إلَّا قليلًا))[٣].

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝١٤٣﴾.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٢-٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٠-٣٦١).

وحمل قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ على أنَّه في الصَّلاة- ابنُ كثير وابنُ عثيمينَ والشنقيطيُّ في ((أضواء البيان)) (١/ ٣٢٠).

قال ابن جرير: (فلعلَّ قائلًا أنْ يقولَ: وهل مِن ذِكر اللهِ شيءٌ قليل؟ قيل له: إنَّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، إنَّما معناه: ولا يَذكرون اللهَ إلَّا ذِكرًا رياءً؛ ليدفَعوا به عن أنفسهم القتلَ والسِّباءَ وسَلْبَ الأموال، لا ذِكر موقنٍ مصدِّقٍ بتوحيد الله، مخلِصٍ له الرُّبوبيَّة؛ فلذلك سماه الله قليلًا؛ لأنه غيرُ مقصودٍ به اللهُ، ولا مُبتغًى به التقرُّبُ إلى الله، ولا مرادًا به ثوابُ الله وما عنده، فهو- وإن كثُر من وجهِ نَصَبِ عاملِه وذاكرِه- في معنى السَّرابِ الذي له ظاهرٌ بغير حقيقةِ ماءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٣).

(٣) رواه مسلم (٦٢٢).

أي: إنَّ المنافقينَ مُتردِّدونَ مُتحيِّرونَ بين الإيمانِ والكُفرِ؛ فلا هُمْ مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرُهم مع المؤمنينَ، وبواطنُهم مع الكافرينَ، ومنهم مَن يَعتريه الشَّكُّ، فتارةً يميل إلى هؤلاء، وتارةً يميل إلى أولئك[(١)].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَثَلُ المنافقِ كمَثَلِ الشَّاةِ العائرةِ بين الغنمَيْن، تَعيرُ إلى هذه مرَّةً، وإلى هذه مرَّةً[(٢)]))، وفي روايةٍ: ((تكِرُّ في هذه مرَّةً، وفي هذه مرَّةً))[(٣)].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ تعالى عن طريقِ الهُدَى والحقِّ فلا يُوفِّقه له، فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- طريقًا لهدايتِه، ولا وسيلةً لتركِ غَوايتِه[(٤)].

الفوائد التَّربويَّة:

١- في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، أنَّه يَنبغي للإنسان أنْ يَقطَعَ العلائقَ عن الخلائق، وأنْ يُعلِّقَ قلبَه بالله عزَّ وجلَّ، يبتغي منه العِزَّة، والنَّصر، ودَفْعَ البلاء، ويبتغي منه تيسيرَ الأمور... وهكذا[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٦).

(٢) تَعِيرُ إلى هذه مرةً، وإلى هذِه مَرَّةً: أي: تتردَّد وتذهب، والعائرة هي المتردِّدةُ الحائرةُ لا تَدْري لأيِّهما تَتْبع. والرواية الأخرى (تكِرُّ) بمعنى تعير أيضًا؛ يُقال: كرَّ على الشيء وإليه: عطَف عليه، وكرَّ عنه: ذهب. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٨/ ٣١٣- ٣١٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٢٨).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٨-٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٧).

٢- قول اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ فيه جعَل القاعدَ المستمِعَ من غيرِ إنكارٍ بمنزلةِ الفاعِلِ؛ ولهذا يُقال: المستمعُ شريكُ المُغتابِ، والمحرَّم هو الاستماعُ لا السَّماعُ؛ فلو سمِعَ الإنسانُ الكُفْرَ والكَذِبَ والغِيبةَ والغِناءَ مِن غيرِ قصْدٍ منه؛ بل كان مجتازًا بطريقٍ فسَمِعَ ذلك لم يأثمْ بذلك باتِّفاقِ المسلمين، ولو جلَسَ واستمَعَ إلى ذلِك ولم يُنكِرْه لا بقَلبِه ولا بلِسانه ولا يَدِه، كان آثمًا باتِّفاقِ المسلمين[(١)].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فيه وجوبُ مغادرةِ المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهزَأُ بها، ولا يجوزُ للإنسانِ أن يبقى ويقولَ: أنا مُنكِرٌ بقلبي[(٢)].

٤- قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فيه أنَّ جليسَ الصَّالحين الَّذين يَعمَلون الصَّالحات مِثلُهم ومنهم، بقياس العكسِ؛ لأنَّه إذا وُزِرَ بالجلوسِ مع العصاةِ؛ أُجِرَ بالجلوس مع الطَّائعين[(٣)].

٥- يُفيدُنا قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الحذرَ مِن جُلَساءِ السُّوء، والتَّرغيبَ في جُلَساءِ الصَّلاح[(٤)].

٦- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّه لَمَّا اتَّخَذوهم في الدُّنيا أولياءَ، جمَع بينهم في الآخرة في النَّارِ، والمرءُ مع مَن أحَبَّ، وهذا توعُّدٌ منه تعالى تأكَّدَ به التَّحذيرُ من مجالَستِهم ومخالَطتِهم[(٥)].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢١٢- ٢١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٤).

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ فيه أنه يَنبغي للمؤمنِ أنْ يَتحرَّزَ مِن هذه الخَصْلةِ الَّتي ذُمَّ بها المنافِقون، وأنْ يُقبِلَ إلى صلاتِه بنشاطٍ وفراغِ قلبٍ، وتمهُّلٍ في فِعلها، ولا يتقاعَسَ عنها فِعلَ المنافقِ الَّذي يُصلِّي على كُرْهٍ، لا عن طِيبِ نفسٍ ورغبةٍ[(١)].

٨- الكسَلُ في الصَّلاة مُؤذِنٌ بقلَّةِ اكتراثِ المُصلِّي بها، وزُهدِه في فِعلِها؛ فلذلك كان مِن شِيَمِ المنافِقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، ومِن أجلِ ذلك حذَّرتِ الشَّريعةُ مِن تجاوزِ حدِّ النَّشاط في العبادةِ خشيةَ السَّآمةِ[(٢)].

٩- يُستفادُ مِن وصْفِ اللهِ تعالى للمُنافقين بقولِه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أنَّ مَن راءَى النَّاسَ بعمله الصَّالحِ ففيه شَبَهٌ بالمنافقين، والرِّياءُ بابه واسعٌ، ليس في الصَّلواتِ أو النَّفَقة أو الصَّوم أو الحجِّ فقط، بل هو أوسعُ مِن هذا، حتَّى الإنسان لو أنَّه لبِس ثيابًا رثَّةً؛ ليَظهَرَ للنَّاسِ بمظهَرِ الزَّاهد فهو مُراءٍ، فكلُّ شيءٍ تُظهِرُ فيه للنَّاسِ أنَّك تتقرَّبُ به إلى اللهِ؛ ليراكَ النَّاسُ، فإنَّه رياءٌ- والعياذ بالله[(٣)].

١٠- قولُه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه أنَّ الطُّمأنينة والاستقرار أمرٌ مطلوب؛ ولهذا نجدُ أشدَّ النَّاسِ استقرارًا وطُمأنينةً هم المؤمنون: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[(٤)] [البقرة: ٢٦٠].

١١- الإشارةُ إلى اللُّجوء إلى الله عزَّ وجلَّ في طَلَب الهداية؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٠).

١٢- إنَّ الإيمانَ صِلةٌ بالقوَّة الكبرى، الَّتي لا تضعُفُ ولا تفنى.. وإنَّ الكفرَ انقطاعٌ عن تلك القوَّة، وانعزالٌ عنها، ولن تملِكَ قوَّةٌ محدودةٌ مقطوعةٌ منعزلةٌ فانيةٌ أن تغلِبَ قوَّةً موصولةً بمصدر القوَّةِ في هذا الكون جميعًا، غيرَ أنَّه يجبُ أن نفرِّقَ دائمًا بين حقيقةِ الإيمان ومظهرِ الإيمان، إنَّ حقيقةَ الإيمان قوَّةٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ ثبوتَ النَّواميس الكونيَّة، ذاتُ أثَرٍ في النَّفس، وفيما يصدُرُ عنها من الحركةِ والعمل، وهي حقيقةٌ ضخمةٌ هائلة كفيلةٌ حين تواجهُ حقيقةَ الكُفرِ المنعزلةَ المبتوتةَ المحدودةَ أن تقهَرَها، ولكن حين يتحوَّلُ الإيمانُ إلى مظهَرٍ فإنَّ «حقيقةَ» الكفرِ تغلِبُه إذا هي صدَقَتْ مع طبيعتِها، وعمِلَتْ في مجالها؛ لأنَّ حقيقةَ أيِّ شيءٍ أقوى من «مظهَرِ» أيِّ شيء؛ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف:

١- البِشارة تُستعمَلُ في الخير، وتستعمَلُ في الشَّرِّ بقَيْدٍ، كما في هذه الآيةِ؛ يقول تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2].

٢- لَمَّا كان التَّظاهرُ بالإيمان، ثمَّ تعقيبُه بالكفر ضربًا من التَّهكُّمِ بالإسلام وأهلِه، جِيءَ في جزاء عملِهم بوعيدٍ مناسبٍ لتهكُّمِهم بالمسلمين، فجاء به على طريقةِ التَّهكُّم؛ إذ قال: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ فإنَّ البِشارةَ هي الخبَرُ بما يُفرِحُ المُخبَرُ به، وليس العذابُ كذلك[3].

٣- أنَّه يَنبغي لنا أنْ نصارِحَ المنافقين بأنْ نبشِّرَهم- سواءٌ بلفظ: (أبشِروا)، أو

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٣).

بلفظ: (اعلَموا)- ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ حتَّى يَرتدِعوا عن نِفاقِهم[١].

٤- أنَّ المنافقين مُستحقُّون للعذابِ الأليم؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، واللَّام هنا للاستحقاقِ[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: نَصَّ مِن صفاتِ المنافقين على أشدِّها ضررًا على المؤمنين، وهي: موالاتُهم الكفَّارَ، واطِّراحُهم المؤمنين، ونبَّه على فَسادِ ذلك؛ ليدَعه مَن عسى أنْ يقَعَ في نوعٍ منه من المؤمنين، غفلةً أو جَهالةً أو مُسامَحةً[٣].

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ التَّرهيبُ العظيمُ من موالاةِ الكافرين، وتَركِ موالاةِ المؤمنين، وأنَّ ذلك مِن صفاتِ المُنافقين، وأنَّ الإيمانَ يقتضي محبَّةَ المؤمنين وموالاتَهم، وبُغْضَ الكافرين وعداوتَهم[٤].

٧- لا تَناقُضَ بين قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ لأنَّ القدرةَ الكاملةَ لله، وكلُّ مَن سواه فبإقدارِه صار قادرًا، وبإعزازِه صار عزيزًا؛ فالعِزَّةُ الحاصلة للرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام وللمؤمنين لم تحصُلْ إلَّا من اللهِ تعالى، فكان الأمرُ عند التَّحقيق أنَّ العِزَّةَ جميعًا للهِ[٥].

٨- ظاهرُ الآية ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾- بقَطْعِ النَّظرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٦).

عن آياتٍ أخرى-: أنَّه لا يجبُ الإنكارُ على الكافرِ بآياتِ الله المُستهزِئ بها؛ لأنَّه إنَّما نهى عن القعودِ معهم، ولم يأمُرْ بالإنكارِ عليهم، ولكن يُقال: الجوابُ عن هذا: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما أراد أن يُبيِّنَ حُكمَ المشارِكين، ونهيَهم عن ذلك، أي: إنَّ هذا المُنكَرَ يُفهَمُ مِن نهيِنا عن الجلوسِ معهم ألَّا نُقِرَّ المنكَرَ، فالصَّواب: أنَّ هذه الآيةَ لا تدلُّ على ارتفاع النَّهيِ عن هذا المنكَر، سواءٌ دلَّتْ عليه أو سكتت عنه، فلدينا نصوص أخرى تدلُّ على وجوب إنكار المنكَرِ[١].

٩- أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ لقوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، فلمَّا كانوا يكفُرون بآياتِ الله ويستهزئون بها نُهِي عن القعودِ معهم، ثمَّ أذِن لنا بالقعودِ معهم إذا خاضُوا في حديثٍ غيرِه[٢].

١٠- أنَّ المشارِكَ لفاعل المنكَرِ كفاعل المنكَرِ؛ لقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، والآيةُ وإن كانت لا تدلُّ على المشارِك صراحة، وإنَّما تدلُّ على أنَّ الجالسَ معهم له حُكمُ الفاعل، لكن إذا كان الجالسُ- يعني: القاعد- معهم له حُكمُ الفاعل، فالمشارِكُ مِن باب أَولى[٣].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، هذا تعليلٌ للنَّهي، أي: إنَّكم إن قعَدْتم معهم تكونوا مِثلَهم وشركاءَ لهم في كفرهم؛ لأنَّكم أقررتموهم عليه، ورضِيتموه لهم، ولا يجتمعُ الإيمانُ بالشَّيء وإقرارُ الكفرِ والاستهزاءِ به، ويؤخذ من الآيةِ أنَّ إقرارَ الكُفر بالاختيار كفرٌ، وأنَّ مَن رضِي بالكفر فهو كافرٌ، ويؤخذُ منه أنَّ إقرارَ المنكَرِ والسُّكوتَ عليه منكَرٌ، وأنَّ مَن رضِيَ بمُنكَرٍ يراه وخالَط أهلَه وإن لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُباشِرْ، كان في الإثمِ بمنزلة المباشِرِ[(١)].

١٢- قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فيه الدَّلالةُ الواضحةُ على النَّهيِ عن مجالَسةِ أهلِ الباطل من كلِّ نوعٍ من المبتدِعة والفَسَقةِ عند خوضِهم في باطلِهم[(٢)].

١٣- قوله تعالى: ﴿جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ﴾ فيه أنَّ النَّارَ لصِنفَيْن من العالَم، المنافقين والكافرين، أمَّا الصِّنفُ الثَّالث وهم المؤمنون فلهم الجنَّةُ، وهؤلاء الأصنافُ الثَّلاثةُ هم المذكورون في أوَّلِ سورةِ البقرة[(٣)].

١٤- بيانُ شدَّةِ عداوةِ المنافقين للمُؤمنين؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾، أي: يَنتظرون السَّاعةَ الَّتي يكونُ فيها الضَّررُ على المؤمنين، لكن قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[(٤)] [الفتح: ٦].

١٥- أنَّ المنافقين لهم حظٌّ من الفَيْءِ، ويُؤخذُ مِن قوله: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ المنافِقَ يُعامَلُ بالظَّاهرِ، فيُعطَى ما يُعطاه المسلِمُ[(٥)].

١٦- أنَّ المنافقين أشدُّ مِن الكفَّار؛ لأنَّ اللهَ بدأ بهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾، وجميعُ الآيات الَّتي فيها الجمعُ بين المنافقين والكفَّار يُقدِّمُ اللهُ فيها المنافقين؛ كقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، إلَّا في آيةٍ واحدة، بسببٍ، وهي قوله: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٧). ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٨).

ﵟالنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَﵞ [التحريم: ٩]؛ وذلك لأنَّ جهادَ الكفَّار يكون بالسِّلاحِ علَنًا، وجهادَ المنافقين يكونُ بالعِلمِ والبيانِ، وليس بالقتال(١).

١٧- إثباتُ الخِداعِ لله عزَّ وجلَّ، أي: إنَّه جلَّ وعلا يَخدَعُ مَن يُخادِعُه؛ لقوله تعالى: ﵟوَهُوَ خَٰدِعُهُمۡﵞ(٢).

١٨- اطَّرَدَتْ سُنَّتُه الكونيَّة سبحانه في عبادِه، بأنَّ مَن مَكَرَ بالباطِلِ مُكِرَ به، ومن احتال احْتِيلَ عليه، ومن خادَعَ غيرَه خُدِع. قال الله تعالى: ﵟإِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡﵞ(٣).

١٩- في قوله تعالى: ﵟوَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰﵞ أنَّ المنافقين يُصلُّون، لكن لا تُقبَلُ منهم صلاتُهم؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﵟوَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰﵞ [التَّوبة: ٥٤] مع أنَّ النَّفقةَ نفعُها مُتعَدٍّ، ومع ذلك لا تُقبَل، فكيف بالعبادة الَّتي نفعُها غيرُ مُتعدٍّ؟ فإنَّها من بابِ أَوْلى لا تُقبَلُ(٤).

٢٠- مِن صِفاتِ المنافقين أنَّهم إذا أدَّوُا الصَّلاة مراءاةً يؤدُّونها بكسلٍ وبُرودٍ، وعدمِ نشاط؛ قال تعالى: ﵟوَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰﵞ(٥).

٢١- أنَّ حالَ المنافقين التَّردُّدُ بين الكُفرِ والإيمان، لكن الحُكم عليهم في الآخرة أنَّهم كفَّارٌ، أمَّا في الدُّنيا فيُعامَلون على ظَواهِرِهم؛ لأنَّ الأحكامَ في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦١).
(٣) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٦٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٦٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٣).

على الظَّواهِرِ، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1].

٢٢- السَّببُ في تذبذبِ المنافقين كما في قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أنَّ الفعلَ يتوقَّفُ على الدَّاعي، فإذا كان الدَّاعي إلى الفعلِ هو الأغراضَ المُتعلِّقة بأحوالِ هذا العالَم كثُرَ التَّذبذُبِ والاضطرابُ؛ لأنَّ منافعَ هذا العالَمِ وأسبابَه متغيِّرةٌ، سريعةُ التَّبدُّلِ، وإذا كان الفعلُ تبعًا للدَّاعي، والدَّاعي تبعًا للمقصود، ثمَّ إنَّ المقصودَ سريعُ التَّبدُّل والتَّغيُّر- لزِم وقوعُ التَّغيُّر في الميل والرَّغبة، وربَّما تعارَضت الدَّواعي والصَّوارفُ، فيبقى الإنسانُ في الحيرة والتَّردُّد، أمَّا مَن كانَ مَطلوبُه في فِعلِه إنشاءَ الخيرات الباقية، واكتسابَ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّة، وعلِم أنَّ تلك المطالبَ أمورٌ باقيةٌ، بريئة عن التَّغيُّرِ والتَّبدُّلِ، لا جرَمَ كان هذا الإنسان ثابتًا راسخًا؛ فلهذا المعنى وصَف اللهُ تعالى أهل الإيمانِ بالثَّباتِ فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[2] [الفجر: ٢٧].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- **قوله:** ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: الجملة استئناف ابتدائيٌّ، مَسُوقٌ للتَّنديدِ بالمنافقين[3].

- وقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضمارِ-حيث لم يقل:

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٥٢).

(بَشِّرْهم)-؛ تَعميمًا، وتَعليقًا للحُكمِ بالوصفِ(١).

٢- قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مجيءُ صِفتِهم بطريقةِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لإفادةِ تَعليلِ استحقاقِهم العذابَ الأليمَ، أي: لأنَّهم اتَّخذوا الكافرينَ أولياءَ مِن دون المؤمنينَ، أي: اتَّخذوهم أولياءَ لأجْلِ مُضادَّةِ المؤمنينَ(٢).

- وأتت ﴿مِن﴾ الدَّالَّة على بُعدِ الصِّلةِ بينهم وبين المؤمنينَ(٣).

٣- قوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: الاستفهامُ غرَضُه إنكارُ رأيِهم وإبطالُه، وبيانٌ لخيبةِ رجائِهم، وقطعٌ لأطماعِهم الفارغةِ(٤).

- والجملةُ معترضةٌ، مقرِّرةٌ لِمَا قبلها(٥).

٤- قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: فيه التفاتٌ؛ حيث خَاطَب المنافقين قبلُ بخِطابِ الغَيبةِ في قوله: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ و: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ...﴾ و﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ﴾؛ لإفادةِ تشديدِ التَّوبيخِ الَّذي يَستدعيه تَعْدادُ جناياتهم(٦)، ثمَّ خاطَب المؤمنين بضميرِ الخِطاب: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ القُربِ، وليكونَ أسرعَ للقَبولِ.

٥- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

عبَّر في قولِه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ بالضَّميرِ في ﴿مَعَهُمْ﴾، ثمَّ تلاه قولُه:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾، وهو التفاتٌ، فعبَّر بالاسمِ الظَّاهر، والإظهارُ في موضعِ الإضمارِ له فوائدُ، منها: إرادةُ العمومِ[1].

٦- **قوله:** ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾: تضمَّنَتْ هذه الآيةُ بلاغةً في اختيار الألفاظِ؛ إذ سُمِّي ظَفَرُ المسلمين (فتحًا)، وظَفَرُ الكافرين (نصيبًا)؛ لتعظيمِ شأنِ المسلِمين، وتَخسيسِ حظِّ الكافرين لخسَّةِ حظِّهم؛ لأنَّ ظَفَرَ المسلمين أمرٌ عَظيمٌ، تبتهجُ له النُّفوسُ، وتَطمئنُّ إليه القلوبُ، وتُفتَحُ لهم أبوابُ السَّماءِ حتَّى ينزِلَ على أوليائِه، وأمَّا ظَفَرُ الكافرين، فما هو إلَّا حظٌّ دَنيٌّ، ولَمْظَةٌ مِن الدُّنيا يُصيبونها[2]، وكذلك لأنَّه لا يَحصُلُ لهم فَتْحٌ يكونُ مَبدأً لنُصرتهم المستمرَّةِ، بل غايةُ ما يكونُ أن يكونَ لهم نصيبٌ غيرُ مستقرٍّ، حِكمةً مِن الله[3].

- والاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ﴾ تَقريريٌّ، أي: إنَّا قدِ استحوذْنا؛ لأنَّ الاستفهامَ إذا دخَل على نفيٍ قَرَّره[4].

٧- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾: استئنافٌ ابتدائيٌّ، فيه: زيادةُ بيانٍ لمساويهم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٥٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٠).
(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٦١).

الآيات (١٤٤ - ١٤٧)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن
تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن
تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ
ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جمْع وليٍّ، وهو النَّصيرُ، وأصل (وَلِيَ) يدلُّ على القُرْب، سواءٌ من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخرَ فهو وَلِيُّه(١).

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّة، وأصل السُّلطان: القوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(٢).

﴿ٱلدَّرْكِ﴾: مَنزِلٌ من منازلِ أهلِ النَّار، فالنَّار دركاتٌ، أي: طبقاتٌ بعضُها دونَ بعضٍ، والدَّرك: أقْصَى قعرِ البحر، وأصل (درك): هو لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووصولُه إليه(٣).

﴿وَٱعْتَصَمُواْ﴾: استمسَكوا وامتنَعوا به، والاعتصام: التَّمسُّك بالشَّيء، وأصل العِصمة: المنعُ، ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ، أي: منعَه من الجوعِ، والعِصمةُ أيضًا:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤).

الإمساكُ، والملازَمة[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ ﴾

﴿ مَّا ﴾: فيها وجهانِ: أحدهما: أنَّها استفهاميَّةٌ، وعليه تكونُ في محلِّ نصبٍ بـ: (يفعل)، وقُدِّم المفعولُ به؛ لكونِه له صدرُ الكلام، والباءُ على هذا سَببيَّةٌ متعلِّقة بـ: ﴿ يَفۡعَلُ ﴾، والاستفهامُ هنا معناه النَّفي، والمعنى: أنَّ اللهَ لا يَفعلُ بعذابِكم شيئًا؛ لأنَّه لا يجلبُ لنفسِه بعذابكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها به ضرًّا، فأيُّ حاجةٍ له في عذابِكم؟! والوجه الثَّاني: أنَّ ﴿ مَّا ﴾ نافية، كأنَّه قيل: لا يُعذِّبُكم اللهُ، وعلى هذا فالباءُ زائدةٌ (صلة)، ولا تَتعلَّق بشيءٍ[٢].

المَعنَى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ عبادَه المؤمنين عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ يُناصِرونهم، ويُصادِقونهم، ويثِقُون بهم مِن دون المؤمنين؛ فإنَّ ذلك موجِبٌ لأنْ يجعَلوا لله عليهم حُجَّةً، فيستحقُّوا العقوبةَ على ذلك.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّ مَصيرَ المنافقينَ المكانُ الأسفلُ من جَهنَّم، وخاطَب نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه لن يجِدَ لهؤلاء المنافقين مَن ينصُرُهم مِن عذابِ الله، إلَّا الَّذين تابوا مِن نِفاقِهم، وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنة، واعتَصَموا بالله، وأَخلَصوا له دِينَهم، فأولئك مع المؤمنين، وسوف يُعطي اللهُ المؤمنين

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧).

(٢) ينظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠١-٤٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣١).

ثوابًا عظيمًا.

ثمَّ يخبِرُ تعالى أنَّه في غِنًى عن عذابِهم، إنْ شكَروا وآمَنوا وكان اللهُ شاكرًا عليمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى أنَّ مِن صفاتِ المنافقين اتِّخاذَ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، المستلزمَ للنَّهيِ عن ذلك الاتِّخاذِ، نهى عبادَه المؤمنين أن يتَّصِفوا بهذه الحالةِ القبيحةِ، وأن يُشابِهوا المنافِقين، فقال[1]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: لا تَجعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لكم من غيرِ أهلِ دِينكم مِن المؤمنين، فتُؤازِروهم، وتُصاحِبوهم، وتُسِرُّوا إليهم بالمودَّةِ، وتُفشُوا أحوالَ المؤمنين الباطنةَ إليهم، وتَثِقوا بهم، وتَعتمِدوا عليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٠). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٧-٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧١-٣٧٢).

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾.

أي: هل تُريدون أن تجعَلوا لله تعالى عليكم حُجَّةً واضحةً؛ باتِّخاذِكم الكافرين أولياءَ مِن دون المؤمنين، فتَستوجبوا منه ما استوجَبَه أهلُ النِّفاقِ باستحقاقِ العقوبة[1]؟

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا نهاهم سبحانه عن فِعلِ المنافقين، استأنَف بَيانَ جزائِهم عنده[2]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقين في قَعرِ جهنَّمَ، وأسفلِ طبقاتِها يومَ القيامة، جَزاءً على كُفرِهم الغليظِ[3].

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾.

أي: ولنْ تجِدَ لهؤلاء المنافقين- يا محمَّدُ- ناصرًا يَنصُرُهم مِن الله تعالى، فيُنقِذُهم مِن عذابِه، ويَدفَعُ عنهم أليمَ عقابِه[4].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٤).

مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾.

أي: إلَّا التَّائبين مِن نِفاقِهم، الَّذين رجَعوا للحقِّ، وندِموا على سيِّئاتِهم[١].

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾.

أي: وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ؛ فعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ تعالى به، وانتهَوْا عمَّا نهاهم عنه، وأصلحوا ما أفسدوه[٢].

﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾.

أي: واعتصَموا برَبِّهم في جَميعِ أمورِهم، والْتَجَؤوا إليه في جَلْبِ مَنافعِهم، ودَفْعِ المضارِّ عنهم[٣].

﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

أي: وقَصَدوا وجهَ اللهِ تعالى بأعمالهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وسَلِمُوا من الرِّياءِ والنِّفاقِ[٤].

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فهؤلاء المُنافقون بعدَ تَوبتِهم وإصلاحِهم، واعتِصامِهم بالله تعالى، وإخلاصِهم له، مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ، يَكونون في زُمرتِهم يومَ القيامة، ويَدخُلونَ معهم الجنَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢١-٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي))

﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وسوفَ يُعطي اللهُ تعالى المؤمنين ثوابًا عظيمًا، لا يعلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ[1].

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان معنى الاستثناءِ في الآيةِ السابقةِ: أنَّه لا يُعذِّبُهم، وأنَّهم يَجِدون الشَّفيعَ بإذنِه- قال مؤكِّدًا لذلك على وجهِ الاستنتاجِ، مُنكِرًا على مَن ظَنَّ أنَّه لا يَقبلُهم بعد الإغراقِ في المهالِكِ[2]:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

أي: ما يصنَعُ اللهُ تعالى- أيُّها المنافِقون- بعذابِكم، إن شكَرْتموه على نِعَمِه، فقُمتُم بطاعتِه، وآمنتم حقًّا بما يجبُ عليكم الإيمانُ به؟ فإنَّه لا حاجةَ لله سبحانه في أن يُعذِّبَكم؛ إذ لا يَجتلِبُ إلى نفْسِه بعَذابِكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها ضرًّا[3].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى شاكرٌ لِمَن شكَر له؛ فيُثيبُهم على ما عمِلوا، أكثرَ ممَّا عمِلوا، عليمٌ بإيمانِ مَن آمَن قلبُه به، وعليمٌ بمن يستحقُّ الشُّكر مِن عبادِه، ويُجازيه على

(ص: ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٢-٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١-٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

ذلك أوفرَ الجزاء[١].

الفَوائِد التربويَّة:

١- في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: التَّحذيرُ مِن المعاصي؛ فإنَّ فاعلَها يجعَلُ لله عليه سلطانًا مُبينًا[٢].

٢- أنَّه لا بدَّ لِمَن أفسَد أن يُصلِحَ مُقابلَ إفسادِه، ولا تَكفي التَّوبةُ المجرَّدةُ، فلا بدَّ مِن إصلاحِ ما أفسَد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾[٣].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أنَّ مَن كان معتصمًا بغيرِ الله، فإنَّ مِن تحقيقِ توبتِه أن يعدِلَ عن الاعتِصامِ بغير الله إلى الاعتصامِ بالله؛ لأنَّ الدَّاءَ يُداوَى بدواءٍ مقابلٍ؛ فالاعتصامُ بغيرِ الله شِركٌ، يُداوَى بالاعتصامِ بالله عزَّ وجلَّ، ولكلِّ داءٍ دواءٌ يُناسِبُه[٤].

٤- أنَّ مِن تمام التَّوبةِ إخلاصَ المشرِكِ؛ لقوله: ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، والمنافِقون عندهم إشراكٌ؛ لأنَّهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، لذا فالإخلاصُ شرْطٌ في توبةِ المنافِقِ؛ لأنَّ ذَنْبَه بالرِّياءِ؛ فالله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ﴾[٥].

٥- قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: (((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٠)، (تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٧).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، فيه تغليظاتٌ عظيمةٌ على المنافقين؛ وذلك لأنَّه تعالى شرَط في إزالةِ العقاب عنهم أمورًا أربعة: أولها: التَّوبة، وثانيها: إصلاحُ العمل، وثالثها: الاعتصام بالله، ورابعها: الإخلاص، فإذا حصَلت هذه الشَّرائطُ الأربعةُ فعند ذلك قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقُلْ: (فأولئك مؤمنون)، ثمَّ أوقَع أجرَ المؤمنين في التَّسويفِ؛ لانضمام المنافقين إليهم، فقال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وهذه القرائنُ دالَّةٌ على أنَّ حالَ المنافق شديدٌ عند الله تعالى(١).

٦- خصَّ اللهُ تعالى الاعتِصامَ والإخلاصَ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ﴾، مع دخولِهما في قوله: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾، فهما من جملةِ الإصلاحِ؛ وذلك لشدَّةِ الحاجةِ إليهما، خُصوصًا في هذا المقام الحرِجِ الَّذي يمكِّنُ مِن القلوبِ النِّفاقَ، فلا يُزيله إلَّا شدَّةُ الاعتصامِ بالله، ودوامُ اللَّجَأِ والافتقارِ إليه في دفعِه، ولكونِ الإخلاصِ منافيًا كلَّ المنافاة للنِّفاق؛ فذَكَرهما لفضلِهما، وتوقُّفِ الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنة عليهما، ولشدَّةِ الحاجةِ في هذا المقامِ إليهما(٢).

٧- الحثُّ على الشُّكرِ وعِظَمُ فَضْلِه، يُرشِدُ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا﴾، فقرَن سبحانه الشُّكرَ بالإيمانِ وأخْبَر أنَّه لا غرَضَ له في عذابِ خلْقِه إنْ شَكَروا وآمَنوا به(٣).

٨- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٢١١).
(٣) ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص:١١٦).

أنَّ مَن لم يشكُرِ اللهَ، أو مَن لم يُؤمِنْ به فإنَّه عُرْضةٌ للانتقامِ والعذاب؛ لأنَّ اللهَ سبحانه نفى العذابَ عمَّن شكَر وآمَن، وهذا يدلُّ على أنَّ مَن لم يشكُرْ ويؤمِنْ فإنَّه معرَّضٌ لعقابِه، وهذا هو الواقعُ؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١] [الأنفال: ٢٥].

الفوائدُ العِلميَّة واللَّطائِف:

١- في هذه الآية: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾: دليلٌ على كمالِ عدلِ اللهِ، وأنَّ الله لا يُعَذِّبُ أحدًا قبل قيام الحُجَّةِ عليه[٢].

٢- أنَّ اللهَ سبحانه له سلطانٌ وحُجَّةٌ على مَن خالَفَ أمْرَه، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى حين ذكَر إرسالَ الرُّسلِ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾، فهنا لو لم يُرسَلِ الرُّسُلَ صارتِ الحُجَّةُ للنَّاسِ على اللَّهِ، وإذا أَرسَل الرُّسلَ وبُيِّنَتِ الأحكامُ صارتِ الحُجَّةُ للهِ على العباد[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه وجوبُ موالاةِ المؤمنين ومُناصرتِهم؛ لأنَّ المؤمنين إخوةٌ، فما أصابَ أحدَهم فقد أصاب الآخَرَ، وما حصَلَ مِن ضررٍ وجَب على جميعِ المؤمنين إزالتُه، على حسَبِ الحالِ والإمكان[٤].

٤- النهيُ عن ائتمانِ أهلِ الشِّركِ والثِّقةِ بهم؛ يُبيِّن ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٣).
(٤) ((المصدر السابق)).
(٥) ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٧٢).

٥- الأعمالُ المشروعةُ لا يُنهَى عنها خوفًا مِن الرِّياء، بل يُؤمَر بها، وبالإخلاصِ فيها، ونحن إذا رأينا مَن يَفعلُها أَقرَرْناه، وإنْ جزَمْنا أنَّه يفعلُها رياءً؛ فالمنافِقون الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ فهؤلاء كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمسلمون يُقِرُّونَهم على ما يُظْهِرُونه من الدِّينِ، وإنْ كانوا مُرائِينَ، ولا يَنهَوْنَهم عن القيامِ بالظَّاهر؛ لأنَّ الفسادَ في ترْك إظهارِ المشروعِ أعظمُ مِن الفَسادِ في إظهارِه رياءً[١].

٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، والسَّببُ في كونِ المنافقِ أشدَّ عذابًا من الكافرِ؛ لأنَّه مِثلُه في الكفر، وضمَّ إليه نوعًا آخَرَ من الكُفرِ، وهو الاستهزاءُ بالإسلامِ وبأهله، وبسببِ أنَّهم لَمَّا كانوا يُظهِرون الإسلامَ يمكِنُهم الاطِّلاعُ على أسرار المسلمين، ثمَّ يُخبِرون الكفَّارَ بذلك، فكانت تتضاعَفُ المِحنةُ مِن هؤلاء المنافقين؛ فلهذه الأسبابِ جعَل اللهُ عذابهم أزيدَ مِن عذابِ الكفَّار[٢] فهم شرُّ أهلِ النَّار بما جمَعوا بين الكفرِ والنِّفاقِ ومُخادعةِ الله والمؤمنين وغشِّهم؛ فأرواحُهم أسفلُ الأرواحِ، وأنفسُهم أخَسُّ الأنفسِ[٣].

٧- إنَّما كان مُستقَرُّ المنافقين ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ ذلك أخفى ما في النَّار وأسترُه وأخبَثُه، كما أنَّ كُفرَهم أخْفَى الكُفرِ وأخبثُه وأسترُه[٤].

٨- في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أنَّ طَبقاتِ النَّار تُسمَّى دركاتٍ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها مُتدارِكةٌ متتابِعةٌ إلى أسفلَ، كما أنَّ الدَّرجَ متراقيةٌ

---

(١) ((سجود التلاوة معانيه وأحكامه)) لابن تيمية (ص:٩٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٥/ ٣٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٣٩).

إلى فوقَ[١].

٩- أنَّ هؤلاء المنافقين ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وهذا لا يَعني أنَّ غيرَهم لا يُشاركونهم، بل قد يُشارِكُهم غيرُهم، لكنَّنا نجزِمُ بأنَّ المنافقين ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ﴾، وأنَّ مَن سواهم قد يكونون فيه، وقد لا يكونون فيه[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لَمَّا كان المُنافِقُ متَّصِفًا بنقائضِ هذه الأوصافِ؛ مِن الكُفرِ وفَساد الأعمالِ، والموالاة للكافرين، والاعتزازِ بهم، والمراءاة للمؤمنين- شرَط في تَوبتِهم ما يُناقِضُ تلك الأوصافَ، وهي التَّوبةُ مِن النِّفاقِ، وهي الوصفُ المحتوي على بقيَّةِ الأوصافِ من حيثُ المعنى، ثمَّ فصَّل ما أجمَلَ فيها، وهو الإصلاحُ للعَملِ المستأنَفِ، المقابِلُ لفسادِ أعمالهم الماضية، ثمَّ الاعتصامُ بالله في المستقبَل، وهو المقابِلُ لموالاةِ الكافرين، والاعتماد عليهم في الماضي، ثمَّ الإخلاص لدِين اللهِ، وهو المقابلُ للرِّياء الَّذي كان لهم في الماضي[٣].

١١- في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾، أنَّ المنافقَ تُقبَلُ توبتُه، وأنَّ مَن اتَّصَف بهذه الصِّفات فإنَّه يكونُ مع المؤمنين، ولو كان قبل ذلك منافقًا؛ لأنَّ هذه الصِّفاتِ تنتشلُه من النِّفاقِ إلى الإيمان، فهذه معيَّةُ المؤمنين، لا شكَّ أنَّها منزلةٌ عالية، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٣).

وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(١)].

١٢- لَمَّا ذكَر أنَّ هؤلاء مع المؤمنينَ لم يقُلْ: (وسوف يُؤتيهم أجرًا عظيمًا)، مع أنَّ السِّياقَ فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾؛ لأنَّ هذه القاعدةَ الشَّريفة لم يزَلِ اللهُ يُبدِئُ فيها ويُعيدُ: إذا كان السِّياقُ في بعضِ الجزئيَّاتِ، وأراد أن يُرتِّبَ عليه ثوابًا أو عقابًا، وكان ذلك مُشتركًا بينه وبين الجِنس الدَّاخِل فيه، رتَّبَ الثَّوابَ في مقابلةِ الحُكمِ العامِّ الَّذي تندرج تحتَه تلك القضيةُ وغيرُها؛ ولئلَّا يُتوهَّمَ اختصاصُ الحُكمِ بالأمر الجُزئيِّ؛ فهذا مِن أسرارِ القرآن البديعةِ؛ فالتَّائبُ مِن المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابُهم[(٢)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾: استئناف ابتدائيٌّ؛ لأنَّه توجيهُ خِطابٍ بعدَ الانتهاءِ من الإخبارِ عن المنافِقين بطريقِ الغَيبة[(٣)]، وقد نُهوا عن موالاةِ الكَفَرةِ صَريحًا في هذه الآية، وإنْ كان ما تقدَّمَ في بيانِ حالِ المنافقين، مَزْجرةً عن ذلك؛ مُبالغةً في الزَّجر والتَّحذير[(٤)].

٢- قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾: استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ النَّهيَ عن اتِّخاذِ الكافرين أولياءَ ممَّا يبعَثُ النَّاسَ على معرفةِ جزاء هذا الفِعل، مع قصد التَّشهيرِ بالمنافقين، والتَّسجيل عليهم، أي: إنَّكم إنِ استمررتُم على موالاةِ الكافرين، جعَلتُم للهِ عليكم حُجَّةً واضحةً على فَسادِ إيمانكم، فهذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٦).

تعريضٌ بالمنافقين[١].

- والاستفهام في قولِه: ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ مُستعمَلٌ في معنى التَّحذيرِ والإنذار[٢].

٣- **قوله:** ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذ هي عَودٌ إلى أحوالِ المنافقين، وتأكيدُ الخبر بـ: (إنَّ) لإفادة أنَّه لا مَحِيصَ لهم عنه[٣].

٤- **قوله:** ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أتى بـ(سوف)؛ لأنَّ إيتاءَ الأجرِ يكونُ يومَ القيامة، وهو زمانٌ مستقبَل ليس حاضرًا، و(سوف) أبلغُ في التَّنفيسِ من السِّينِ[٤].

٥- قوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾: جملة استئنافيَّةٌ مسُوقةٌ لبيانِ أنَّ مدارَ تعذيبِهم وجودًا وعَدَمًا إنَّما هو كُفرُهم، لا شيء آخَر، فيكون مُقرِّرًا لِمَا قبله من إثابتِهم عن توبتِهم[٥].

- وقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ -على القولِ بأنَّ ﴿مَّا﴾ استفهاميَّة- مُفيدٌ للنَّفيِ على أَبلغِ وجهٍ وآكَدِه[٦].

- وقوله: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾: فيه تقديمُ الشُّكرِ على الإيمان؛ لأنَّ العاقلَ ينظُرُ إلى ما عليه من النِّعمةِ العظيمة في خَلْقِه، وتَعريضِه للمنافعِ، فيشكُرُ شُكرًا مبهَمًا، فإذا انتهى به النَّظرُ إلى مَعرفةِ المنعِمِ آمَنَ به، ثمَّ شكَر شُكرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

مُفصَّلًا، فكان الشُّكرُ متقدِّمًا على الإيمانِ، وكأنَّه أصلُ التَّكليفِ ومدارُه[١].

٦- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾: اعْتِراضٌ في آخرِ الكلام، وهو إعلامٌ بأنَّ اللهَ لا يُعطِّلُ الجزاءَ الحسَنَ عن الَّذين يُؤمنون به، ويَشكُرون نِعمَه الجمَّةَ، والإيمانُ بالله وصفاتِه أوَّلُ درجاتِ شُكرِ العبدِ ربَّه[٢].

- وأتَى بصِفة الشُّكر ﴿شَاكِرًا﴾ باسمِ الفاعِل بلا مبالغةٍ؛ ليدلَّ على أنَّه يَتقبَّلُ ولو أقلَّ شيءٍ مِن العمل، ويُنمِّيه[٣].

- وأتَى بصفة العِلم ﴿شَاكِرًا﴾ على صِيغةِ (فعيل)؛ للمُبالغةِ في وصْفِه سبحانه بالعِلمِ بجميعِ المعلوماتِ[٤]، وفيه تحذيرٌ، وندبٌ إلى الإخلاصِ للهِ تَعالَى[٥]، مع ما في الجَمْعِ بين صِفتَي ﴿شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ مِن البَلاغةِ والمناسبةِ الحَسنةِ للسِّياق.



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٥).

الآيات (١٤٨ - ١٥٢)

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾
إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ
يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: السُّوء اسمٌ جامعٌ للآفات، ثم استُعمل في كلِّ ما يُستقبحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسان(١).

﴿سَبِيلًا﴾: فِعلًا وطريقًا، والسَّبِيلُ: الطَّريق الذي فيه سُهولة، وأصل (سبل): امْتِدَادُ شَيْءٍ(٢).

﴿مُّهِينًا﴾: مُذِلًّا، والهوان: الاستخفاف، أو أن يُذَلَّ الإنسانُ من جهة متسلِّط، مستخِفٍّ به، وأصله يدلُّ على احتقارٍ، وحقارة في الشيء(٣).

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٣).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٣٩٥).
(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

في هذا الاستثناءِ قولان: أحدهما: أنَّه استثناء منقطع، ويكون المستثنى ﴿مَن﴾ في موضِعِ نصْب، تَقديرُه: لكنْ مَنْ ظُلِمَ له أنْ يَنتصِفَ مِن ظالِمِه بما يُوازي ظُلَامتَه. والثاني: أنَّه متَّصل، و﴿مَن﴾ مُستثنًى مِن (أحَد) المُقدَّرِ الذي هو فاعلٌ للمَصدرِ ﴿ٱلْجَهْرَ﴾، والمعنى: لا يحبُّ أن يَجهرَ أحدٌ بالسُّوء إلَّا مَن يُظلَم فيَجهر؛ كأنْ يَدعوَ الله بكشفِ السُّوءِ الذي أصابه، أو يَشكوَ ذلك إلى إمام، أو حاكمٍ، فعلى هذا يجوزُ أن يكونَ المستثنَى ﴿مَن﴾ في موضِع رفْعٍ بدلًا مِن المستثنَى منه المحذوفِ؛ إذ التقديرُ: أنْ يَجهَرَ أحدٌ. وأنْ يكونَ في موضِع نصْب على أصلِ الاستِثْناء مِن (أحد) المقدَّر، والتقديرُ: لا يُحبُّ اللهُ أنْ يَجْهَرَ أحدٌ بالسُّوءِ إلَّا المظلومُ، أو المظلومَ- رفعًا ونصبًا. وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجمالي:

يُخبِر تعالى أنَّه لا يُحبُّ أن يجهرَ أحدٌ مِن عبادِه بالسيِّئ من القول، إلَّا مَن ظُلِم؛ فلا حرَجَ عليه أن يخبر بما أسيء إليه، كأن يشتكيَ ممَّن ظلَمه، أو يقولَ للنَّاس: إنَّه ظالم، أو يَدْعوَ عليه، وكان الله سميعًا عليمًا.

ثم يُخاطب عبادَه قائلًا لهم: إنَّهم إنْ يُظهروا الخير أو يُخفوه، أو يَعفوا عمَّن أساء إليهم؛ فإنَّه جلَّ وعلا عَفوٌّ يصفَحُ عن ذنوب عباده مع قُدرته على معاقبتِهم عليها؛ فلْيَعفوا هم أيضًا عمَّن أساء إليهم.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الذين يَكفُرون بالله ورُسله، ويُريدون أن يُفرِّقوا بين الله ورُسُله؛ بالإيمانِ به عزَّ وجلَّ والكُفرِ بالرُّسل، ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسل، ونكفُر ببعضٍ منهم، ويريدون بهذا أن يَسلُكوا طريقًا يُوصلهم إلى اللهِ، فأخبر تعالى أنَّ هؤلاء هم الكافرون حقًّا، ولا ينفعهم ما يَدَّعون من إيمانهم ببعض

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٣٤: ١٣٨).

الرُّسل، وتوعَّدهم تعالى بكونِه أعدَّ للكافرين عذابًا مُخزيًا مُذِلًّا.

وأمَّا الذين آمَنوا بالله ورُسُله ولم يُفرِّقوا بَينهم؛ إذْ آمنوا بهم جميعًا، فوعَدهم الله- ووعْدُه الحقُّ- بأنَّه سوف يُعطيهم جزاءَ إيمانهم، وسيُثيبهم عليه، وكان الله غفورًا رحيمًا.

تفسير الآيات:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا شوَّه الله حالَ المنافقين، وشَهَّر بفضائحِهم تشهيرًا طويلًا، كان الكلامُ السَّابق بحيث يُثير في نفوس السَّامعين نُفورًا من النِّفاق وأحواله، وبُغضًا للملموزين به، وخاصَّة بعد أنْ وصفَهم باتِّخاذ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، وأنَّهم يَستهزئون بالقرآن، ونَهَى المسلمين عن القعود معهم؛ فحَذَّر اللهُ المسلمين من أن يَغيظهم ذلك على مَن يَتوسَّمون فيه النِّفاق، فيُجاهروهم بقول السُّوء، ورخَّص لِمَن ظُلِم من المسلمين أن يَجهرَ لظالِمِه بالسُّوء؛ لأنَّ ذلك دفاعٌ عن نفسه[١]، فقال تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُبغض - أيُّها الناسُ - جَهْرَ أحدٍ منكم بالقول السيِّئ، كالشَّتمِ والقَذْف والسَّبِّ، ونحوِ ذلك[٢].

﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣١-٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٠).

أي: أمَّا مَن ظُلم؛ فلا حرَجَ عليه أن يُخبِرَ بما أُسيء به إليه، كأنْ يدعوَ على مَن ظلَمَه ويتشكَّى منه، أو أن يقول له: أنت ظلمتني، أو يقول للناس: إنه ظالم، من غير أن يَكذِبَ عليه، ولا يَزيد على مظلمتِه، ولا يَتعدَّى بشَتمِه غيرَ ظالِمِه[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى سميعٌ لِمَا تَجهرون به من سوءِ القولِ وغير ذلك من أقوالِكم، عليمٌ بما تُخفون منها، وعليمٌ بنِيَّاتكم ومَصدرِ أقوالكم، ومُحْصٍ ذلك كلَّه عليكم، فيُجازي كلًّا منكم بحَسَبه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فاحْذروا أن تقولوا ما لا يَرضاه، أو أن تُخفوا في قلوبِكم ما لا يحبُّه[٢].

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لـمَّا نَهَى الله سبحانه عن الجَهرِ بالسُّوء، ورخَّص فيه لِمَن ظُلِم، ندَب المرخَّصَ لهم إلى العفوِ وقولِ الخيرِ[٣]؛ فقال:

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾.

أي: إن تُظهروا - أيُّها الناسُ - جميلًا من القول أو الفِعل، أو تتركوا إظهارَه فتُخفوه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨١-٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٢-٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).

﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾.

أي: أو تَصْفَحوا عن إساءةِ مَن أساء إليكم بقولٍ أو فِعل[١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾.

أي: فإنَّ الله تعالى يَصفَح عن ذُنوب عبادِه، مع قُدرتِه على عِقابهم عليها؛ فاعْفوا أنتم أيضًا- أيُّها الناسُ - عمَّن أتى إليكم ظُلمًا، ولا تَجهروا له بالسُّوء من القول، وإنْ قدَرتُم على الإساءةِ إليه، كما يَعفو عنكم ربُّكم مع قُدرتِه على عِقابِكم، وأنتم تَعصونه، والجزاءُ من جِنس العملِ؛ فمَن عفَا للهِ سبحانه عفَا اللهُ تعالى عنه[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ الكافرين بالله تعالى وبرُسله عليهم السَّلام مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم[٣].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: ويُريدون أنْ يُؤمنوا بالله تعالى، ويَكفُروا برُسُلِه الَّذين أرْسلَهم إلى خَلْقِه؛ فيُكذِّبوهُم[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٢-٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾.

أي: ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسُل، ونكفُر ببعضهم، كما فعلتِ اليهود؛ فكَفَروا بعيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، وزَعَموا الإيمانَ بموسى عليه السَّلام. وكما فعَلَتِ النَّصارى؛ فكفروا بمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وزَعَموا الإيمانَ بعيسى عليه السَّلام(١).

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

أي: ويُريدون بإيمانهم ببعض الرُّسل دون بعضٍ سُلوكَ طريقٍ يُوصلهم إلى الله تعالى، ويُنجِّيهم من عذابِه(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قبلَها:

جاءَ ذِكر هذه الآية عقِبَ ما قبلَها؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ مرتبة هؤلا الكفَّار الذين وصَفَهم اللهُ تعالى متوسِّطةٌ بين الإيمانِ والكُفر(٣)، فقال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾.

أي: إنَّ كُفرَ هؤلاء الكفار محقَّقٌ لا محالة، وهم مُستحقُّونَ عذابَ الله تعالى حقًّا؛ فاستيقِنوا ذلك أيُّها المؤمنون، ولا يُشكِّكنَّكم في أمْرِهم انتحالُهم الكذبَ بدَعْوى أنَّهم يُقرُّون ببعض الرسل؛ فلو كانوا مؤمنين حقًّا بِمَن زعَموا الإيمانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢).

بهم، لآمَنوا بغيرِهم من الرُّسل عليهم السَّلام[١].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ لهؤلاء الكفَّار وغيرهم من الكافِرين عذابًا مخزيًا ومُذلًّا لهم، كما تَكبَّروا عن الإيمانِ الحقِّ بالله تعالى، واستهانوا بـِمَن كفَروا به من الرُّسل عليهم السَّلام[٢].

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله عزَّ وجلَّ حالَ الذين يؤمنون ببعض، ويَكفُرون ببعض، ذكَر حالَ الذين يَجمعون في الإيمانِ بين الجميع[٣]، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

أي: إنَّ المؤمنينَ بالله تعالى حقًّا، وبجميعِ رُسلِه الكرام عليهم السَّلام، دون أن يُفرِّقوا بينهم بالإيمانِ ببعضهم والكُفرِ ببعضهم[٤].

﴿أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: إنَّ هؤلاءِ المؤمنين بالله تعالى ورُسُله عليهم السَّلام جميعًا، سوف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢-٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣-٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٧-٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

يُعطيهم اللهُ عزَّ وجلَّ جزاءَهم وثوابَهم على إيمانهم به سبحانه وبجَميعِ رُسلِه عليهم السَّلام[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ لِمَن آمَن به وبجميعِ رُسله، فيَغفِر لهم السيِّئات، رحيمٌ بهم بتفضُّله عليهم بالهدايةِ إلى طريق الحقِّ، وتقبُّل الحسَنات[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾: حُسْن دِين الإسلام، وأنَّه يدعو إلى التراضي، وعدَمِ الجهر بالسوء، وأنْ لا نفضحَ أحدًا بسوئه؛ ولهذا كانتِ الغِيبةُ من كبائر الذُّنوب، وهي ذِكرُك أخاك بما يكره[٣].

٢- عدالةُ الإسلام، ووجْه ذلك: أنَّه رخَّص للمظلوم أن يجهرَ بالقول، لكن بحسَب مظلمتِه ولا يَزيد؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[٤].

٣- في قوله سبحانه: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾: أنَّ الدينَ الإسلاميَّ لا يَكبِت النفوسَ، بل يوسِّع لها، ويَشرح الصُّدور، وجهُ ذلك: أنَّه رخَّص للمظلوم أن يجهر بالسُّوء بقدر مظلِمته؛ لأنَّ ذلك تنفيسٌ عن نفسِه بلا شكٍّ[٥].

٤- يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أنَّ مَن كان كاملَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإيمان، عاليَ الأخلاق، فلا فَرقَ عنده في إبداء الخير وإخفائِه من جِهة نفْسِه؛ فهو يُرجِّح أحدَ الأمرين على الآخر بنيَّة صالحة، أو منفعة بيِّنة، ومَن ليس كذلك ينبغي أن يُرجِّح الإخفاءَ؛ حتى لا يكون له هوًى فيه، ومن بواعث الإبداءِ قصدُ القدوة، ومن بواعث الإخفاءِ قصدُ السِّتر، وحِفظ كرامة مَن يُوجَّه إليه الخيرُ، كالصدقة على الفقراء المتعفِّفين[١].

٥- أنَّ الإحسانَ إلى النَّاس يكونُ إمَّا بإعطاء الخير ظاهرًا أو خفيًّا، وإمَّا بدفْع السوء، وذلك بالعفوِ عنه؛ لقوله: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾؛ فالعفو عن السوء خيرٌ، فيُستفاد من ذلك فضيلةُ العفوِ عن السُّوءِ[٢].

٦- الإشارةُ إلى أنَّ مَن عفَا عن الخَلْق عفوًا في محلِّه فلْيُبشر بعفو الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾[٣].

٧- في قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ... فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾: إرشادٌ إلى التفقُّه في معاني أسماء الله وصِفاته، وأنَّ الخَلْق والأمر صادرٌ عنها، وهي مقتضيةٌ له، ولهذا تُعلَّل الأحكامُ بالأسماءِ الحُسنى؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر عمَلَ الخيرِ، والعفوَ عن المسيء رتَّب على ذلك بأنْ أحالنا على معرفةِ أسمائه، وأنَّ ذلك يُغنينا عن ذِكر ثوابِها الخاصِّ[٤].

٨- قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ فيه استحبابِ العفوِ مع القُدرة، والإشارة إلى أنَّه إذا كان الله تعالى مبالغًا في العفو عمَّن أساء مع كمال قُدرته على المؤاخذة ، فأنتم مِن باب أوْلَى عليكم أن تعفوا؛ لأنَّكم ليس لديكم القدرة

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٢١٢).

في الانتصار للنَّفس، والانتقام مِن المجرم كالذي عندَ الله عزَّ وجلَّ[١]، وإيرادُه في معرض جواب الشَّرط ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا ...﴾ يدلُّ على أنَّ العمدةَ هو العفوُ مع القُدرة[٢].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إباحةُ الجهرِ بالسُّوء للمظلومِ أو مشروعيَّته له هو من بابِ الضَّرورات؛ لأنَّه ارتكابُ أخفِّ الضَّررينِ، والضروراتُ تُقدَّر بقَدرِها، كما قال أهلُ الأصول؛ فلا يجوزُ للمظلومِ أن يتَّبع هواه في الاسترسال والتَّمادي في الجهرِ بالسوء، بما لا دَخلَ له في منْع الظلمِ والتَّخلُّص منه، وأَطْرِ الظالم على الحقِّ[٣].

٢- في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ بعد ذكر ما يُمنع وما يُباح مِن الكلام: تحذيرٌ مِن التَّكلُّم بما يُغضِب الله، وفيه أيضًا ترغيبٌ في القول الحسَن؛ فهو سبحانه سميعٌ يسمعُ أقوالَكم، وعليمٌ بنيَّاتِكم ومصدرِ أقوالِكم[٤].

٣- أنَّ معاقِد الخيراتِ على كثرتِها محصورةٌ في أمرين: صِدقٍ مع الحقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْق، والذي يتعلَّقُ بالخَلق محصورٌ في قِسمين: إيصالُ نفْعٍ إليهم، ودَفْعُ ضرَرٍ عنهم؛ فقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارةٌ إلى إيصال النَّفْع إليهم، وقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ إشارةٌ إلى دفْع الضَّرَر عنهم، فدخل في هاتينِ الكلمتينِ جميعُ أنواع الخيرِ وأعمال البِرِّ[٥].

٤- أنَّ عفو الله تعالى أكملُ أنواع العَفو؛ لأنَّه عفوٌ مع القُدرة؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤).

ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾[١].

٥- كلمة ﴿قَدِيرًا﴾ قد أفادتْ بوضعها هنا الدَّلالةَ على عِظمِ الجزاءِ على العمل الذي رغَّبَتْ فيه الآية[٢].

٦- الثَّوابُ والعِقابُ يكونانِ مِن جِنسِ العملِ في قدَرِ اللهِ تعالى وفي شَرْعِه؛ يُبيِّن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وهَذا مِن العَدْلِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ[٣].

٧- قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يتضمن الإيمانَ بكلِّ ما أخبر الله به عن نفْسِه، وبكلِّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ من الأخبار والأحكام[٤].

٨- أنَّ الكفر ببعض الرُّسُل كفرٌ بالجميع؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، ويدلُّ على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مع أنَّ نوحًا كان أوَّلَ الرُّسُل، ومع ذلك جعل تكذيب قومِه له تكذيبًا لجميعِ الرُّسل؛ لأنَّ التكذيبَ بالرسول كأنَّه تكذيبٌ بالجنس، أي: بجِنس الرِّسالة[٥].

٩- إنَّما قال: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ مع أنَّ التفريق يَقتضي شيئين فصاعدًا، إلَّا أنَّ لفظ (أحَد) يستوي فيه الواحدُ والجمْع، والمذكَّر والمؤنَّث، ويدلُّ عليه وجهان: الأوَّل: صحَّة الاستثناء. والثاني: قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٦] [الأحزاب: ٣٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٧).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤).

١٠- في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ ﴾ تمام مِنَّة الله سبحانه على العِباد؛ حيث سمَّى الثواب أجْرًا، ومن المعلوم أنَّ الأجر ثابتٌ لزومًا للمُستأجَر، والذي أوجب هذا الأجرَ هو اللهُ تعالى؛ أوجبَه على نفْسِه، وهذا يدلُّ على تمامِ فضْله عزَّ وجلَّ ومِنَّته[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله تعالى:** ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ...﴾: فيه إيجاز بالحَذْف، والتقدير: (لا يحبُّ الله الجهرَ بالسُّوءِ مِن القول ولا الإسرارَ به...) كما يُعلَم مِن نهيِه تعالى عن النَّجْوى بالإثم والعُدوان ومعصية الرَّسول، وأمْره بالتناجي بالبرِّ والتقوى فقط. وإنما خصَّ الجهر هنا بالذِّكر؛ لمناسبةِ بيان مفاسدِ الكفَّارِ والمنافقين في هذا السِّياق، ولأنَّ الجهرَ بالسُّوءِ أشدُّ ضررًا من الإسرارِ به; لأنَّ ضررَه وفسادَه يَفشُو في جمهورِ الناس، حتى لا يكادَ يَسلَمُ منه أحدٌ[٢].

٢- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: خبرٌ فيه تهديدٌ وتحذيرٌ مِن التعدِّي في الجهر المأذونِ فيه، يعني فليتَّقِ اللهَ ولا يقُلْ إلَّا الحق، ولا يقذف مستورًا بسوء؛ فإنَّه يصير عاصيًا لله بذلك، وهو تعالى سميعٌ لِما يقوله، عليمٌ بما يضمره[٣]، فيوشك أن يُوقِع العقوبةَ بمَن خالف أمْرَه وعصاه.

٣- **قولُه:** ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: جِيء بالمضارعِ هنا؛ للدَّلالة على أنَّ هذا أمرٌ متجدِّد فيهم مستمرٌّ؛ لأنَّهم لو كفروا في الماضي ثم رجعوا لَمَا كانوا أحرياءَ بالذمِّ[٤].

٤- **قوله:** ﴿أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا﴾: (حَقًّا) مصدر مؤكِّد لمضمون

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٩).

الجُملة الخبريَّة، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا، أي: يَقينًا محقَّقًا[١].

- وأفاد تعريفُ جُزأي الجُملة، والإتيان بضمير الفَصْل (هم)؛ تأكيدَ قصْرِ صفة الكفر عليهم، بتنزيل كُفر غيرِهم في جانب كُفرهم منزلةَ العَدم[٢]. والإتيان بضمير الفَصْل فيه أيضًا؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ ذلك الإيمانَ ينفعهم[٣].

٥- **قوله:** ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾: فيه إظهارٌ في مقام الإضمارِ- حيث قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقُل: (لهم)-؛ ذمًّا لهم، وتَجسيدًا لكفرهم كأنَّه بمنزلةِ المرئيِّ بالبصر. والإظهارُ في موضِع الإضمارِ ليس تطويلًا، وزيادة بلا فائدةٍ، بل له فَوائِدُ؛ منها: قصْدُ العموم، وتطبيقُ الوَصْف على أولئك الذين يَعودُ الضميرُ عليهم لو كانَ موجودًا، وكذلك بَيانُ عِليَّة الحُكم، فمثلًا: في قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، لو قال: (أَعتَدْنا لهم) لم يَتبيَّن لماذا أعدَّ لهم هذا العذابَ، لكن لَمَّا قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، كأنَّ هذا الوصفَ يُفيد العِليَّة، أي: إنَّ العِلَّة في إعدادِ العَذابِ المهين لهم هو الكُفرُ[٤].

٦- **قوله:** ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ...﴾ **الآية إلى آخِرها:** جِيءَ بها لمقابلةِ المسيئين بالمحسنين، ومقابلةِ النَّذارةِ بالبشارة على عادةِ القرآن[٥]، وهو من محاسنُ بلاغته، فالقرآن مثانٍ، إذا ذكر شيئًا ذكر ضدَّه[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٠).

٧- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾: فيه التعبيرُ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تَعظيمًا لهم، وجاءت بصيغة البعيدِ؛ للدَّلالة على علوِّ منزِلتِهم[١].

- والتَّصدير بـ(سوف)؛ لتأكيدِ الوعد، والدَّلالة على أنَّه كائن لا محالة، وإنْ تأخَّر[٢].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢ / ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٤٩).

الآيات (١٥٣ - ١٦٢)

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم
مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ
وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ
عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن
قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ
سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿جَهْرَةً﴾: أي: علانيةً ظاهرًا، وأصل الجهر: إعلانُ الشيءِ وكشفُه، وعلوُّه[1].

﴿الصَّاعِقَةُ﴾: النَّار التي تَنزلُ من السَّماء عندَ اشتداد الرَّعد، أو الصَّوت الشَّديد من الجوِّ، والوَقعُ الشَّديدُ منَ الرَّعْدِ، أو كلُّ عذاب مُهلِك (الموت -العذاب-

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

النار)، ومنه: صَعِق، إذا مات، وأصل (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوت[١].

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: جمْع بيِّنة، وهي: الدَّلالة الواضحة؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكَشف[٢].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّة، وأصْل السُّلطان: القُوَّة والقهر، من التَّسلُّط؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٣].

﴿ٱلطُّورَ﴾: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وهو يُطلق على الجبَل الشَّاهق، أو اسم لكلِّ جبل، أو الجبل المُنبِت، وأصل (طور): الامتدادُ في شيءٍ من مكانٍ أو زمان[٤].

﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: الميثاق: العقد المؤكَّد بيمينٍ وعهد، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): العقد والإحكام[٥].

﴿لَا تَعْدُواْ﴾: لا تَتعدَّوا وتُجاوزوا ما أُمرتُم به، وأصْل التَّعدِّي: التَّجاوزُ في الشَّيء، والتقدُّم لِمَا يَنبغي الاقتصار عليه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤-٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١، ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٦) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨).

﴿غَلِيظًا﴾: أَيْ: شَدِيدًا، وخَشنًا، والغِلظة ضد الرِّقَّة(١).

﴿نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: أي: نبْذِهم إيَّاه بعدَ القَبول به، وتركِهم العملَ به، وأصل النَّقض ضِدُّ الإبرام: وهو فكُّ تركيبِ الشيء، وردُّه إلى ما كان عليه أوَّلًا؛ فنقض البناء: هدمُه، ونقض المُبرَم: حَلُّه(٢).

﴿غُلْفٌ﴾: جمْع أغلف، أي: كأنَّها في غِلاف لا تَفهم، ولا تَعقِل شيئًا ممَّا يُقال، وأصل الغلف: الغشاوة، وغشيان شيءٍ لشيء(٣).

﴿طَبَعَ﴾: ختَم عليها؛ فلا يَصل إليها هُدًى ولا نورٌ(٤).

﴿بُهْتَٰنًا﴾: أي: ظُلمًا، ويُطلَق الْبُهْتَانُ على الكَذِبُ، وعلى كلِّ فِعل مُستبشَع يُتعاطى باليد والرِّجل، مِن تناوُل ما لا يجوز، والمشيِ إلى ما يَقبُح(٥).

﴿ٱلْمَسِيحَ﴾: هو عيسى عليه السَّلام؛ وسُمِّي عيسى بالمسيح؛ لأنَّه كان لا يَمسحُ بيدِه ذا عاهةٍ إلَّا برِئ(٦).

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣٩٦).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).
(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥).
(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (١ / ١٤٨).
(٦) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص:٧٦٧-٧٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥).
وثمَّة أقوالٌ أخرى عن سبب تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح؛ فمنها: أنَّه سُمي به لسياحته في الأرض. ومنها: لأنَّه خرَج مِن بَطنِ أُمِّه ممسوحًا بالدُّهن. ومنها: لأنَّه كان أمسحَ الرِّجلين، أي: ليس لرِجله أخمص- والأخمص: ما جفا عن الأرض من باطن الرِّجل. يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص:١٢٣).

﴿صَلَبُوهُ﴾: علَّقوه، وشدُّوا صُلبَه على خَشَبٍ؛ ليَقتلوه[(١)].

﴿شَهِيدًا﴾: شاهدًا على مَن كَفَرَ به وكذَّبه، ولِمَن آمَن به وصَدَّقه، والشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حَصَل بمشاهدة بصيرة أو بصَر[(٢)].

﴿الرِّبَوٰاْ﴾: أصْل الرِّبا الزِّيادة، وخُصَّ في الشَّرع بالزِّيادة على رأسِ المالِ دون وجْه حقٍّ[(٣)].

﴿الرَّٰسِخُونَ﴾: الثَّابتون، جمْع: راسخ، ورُسوخُ الشَّيءِ في الشَّيء، هو ثبوتُه وولوجُه فيه[(٤)].

مشكل الإعراب:

١- **قوله:** ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾

﴿جَهْرَةً﴾: مصدَر، أو مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال؛ وعليه: فيجوز أن تكون ﴿جَهْرَةً﴾ من صِفة القول أو السُّؤال، أو من صِفة السَّائلين، أي: فقالوا مُجاهِرين، أو: سألوا مجاهرين؛ فتكون في محلِّ نصْبٍ على الحال، أو منصوبةً على المصدَر مِن نوع الفِعل (أرنا)؛ فإنَّ الجهرة نوعٌ من الرُّؤية، مثل (قعَد القرفصاءَ)، ويجوز أن تكون نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: رؤية جهرة؛ فحينئذٍ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٤٦٥)، ((تفسير الخازن)) (١/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩).

تكون نائبةً عن المفعول المطلَق[١].

٢- قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾

﴿رَسُولَ﴾: بدلٌ من ﴿رَسُولَ﴾، أو عطفُ بيان، أو صِفة له، أو صِفة لـ﴿عِيسَى﴾ عليه السَّلام؛ هذا على أنَّ الكلامَ ما زالَ لليهودِ، وقالوه على سَبيلِ التهكُّم والاستهزاءِ، كقولِ فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوزُ أنْ يَضعَ اللَّهُ الذِّكرَ الحسَنَ مكانَ ذِكرِهم القبيحِ في الحِكاية عنهم؛ رفعًا لعيسى عمَّا كانوا يَذكُرونه به، وتعظيمًا لِمَا أرادوا بمثلِه، وقيل غيرُ ذلك[٢].

قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾

﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ﴾: مستثنى مُنقطِع، وهو منصوب؛ لأنَّ اتباع الظنِّ ليس من جِنس العِلم، والنَّصبُ هو أصلُ الاستثناءِ المنقطع في لُغةِ الحجاز، ويَجوزُ في لُغة تميم الإِبدالُ من (عِلمٍ) لفظًا فيجرُّ، أو على الموضِع فيُرفَعُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿عِلْمٍ﴾ مَرفوعُ المحلِّ على الابتداءِ، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ فيه[٣].

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٦٤-٤٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ٣٦٧-٣٦٨) و(٤/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٤).

(٣) القول بأنَّ الاستثناء منقطع هو الصَّحيح الذي لم يذكر الجمهورُ غيرَه. وقيل: إنَّه متصل؛ إذ

قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾

﴿يَقِينًا﴾: في نَصْبه أوجه؛ منها: أنَّه حالٌ منصوبة من واوِ الجماعةِ في ﴿قَتَلُوهُ﴾، أي: وما قتلوه مُتيقِّنين لقتْله أنَّه عيسى عليه السَّلام أو غيره. ومنها: أنه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: قَتْلًا يَقينًا؛ فيكون نائبًا عن المفعول المطلق. ومنها: أنَّه منصوبٌ بِفِعلٍ مِن لفظه، حُذِف للدَّلالة عليه، أي: ما تيقَّنوه يقينًا، ويكون مؤكِّدًا لمضمون الجملة المنفية قبله، وقيل غير ذلك[(١)].

٣- **قوله:** ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾

﴿كَثِيرًا﴾ منصوبٌ على أنه نعتٌ لمفعول به محذوف، أي: أُناسًا كثيرًا. أو على أنَّه نائبٌ عن المفعول المطلَق (وهو المصدر)، أي: صَدًّا كثيرًا. وقيل غير ذلك[(٢)].

٤- **قوله:** ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّـٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّـٰسِخُونَ﴾: لكِنْ: مخفَّفة، وهي حرفُ استدراكٍ لا عمَلَ لها. والرَّاسخون: مبتدأ مرفوع، وخبره إمَّا قوله ﴿يُؤْمِنُونَ ...﴾ أو قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ على ما

العِلم والظنُّ يَضمُّهما جِنس أنَّهما من معتقدات اليقين؛ يقول الظانُّ على طريق التجوُّز: (علمي في هذا الأمر كذا)، إنما يريد ظني، ورُدَّ هذا القول بأنَّ الظنَّ ما ترجَّح فيه أحد الطرفين، واليقين ما جُزِم فيه بأحدهما، وعلى تقدير التسليم به فاتباعُ الظنِّ ليس من جنس العِلم، بل هو غيره، فهو منقطع أيضًا، أي: ولكنَّ اتباعَ الظن حاصلٌ لهم. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥١-١٥٢).

سيأتي بيانُه.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾: على قِراءة الجمهور بالياء[١]؛ ففي إعرابه عدَّة أوجه: أظهرُها: أنه منصوبٌ على القطع الذي يُفيد المدح، أي: وأمْدَح - أو: أعني، أو: أخصُّ - المقيمين، وهذا القطع مفيدٌ لبيانِ فضلِ الصلاة، فكثرَ الكلامُ في الوصفِ بأن جعل في جملةٍ أُخرى. وعلى هذا الوجه يجب أن يكونَ خبرُ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هو جملة: ﴿يُؤْمِنُونَ ...﴾، وليس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾؛ لأنَّ القطعَ إنَّما يكونُ بعدَ تمامِ الكلام.

وقيل: إنَّه مجرورٌ عطفًا على (مَا)؛ أي: يُؤمنون بِـما أُنزل إليك وبالمقيمين الصَّلاة، والمراد بهم: الملائكة أو الأنبياء. وقيل: التقديرُ: وبدِين المقيمين، فيكون المرادُ بهم: المسلمين. وعليه يكون الخبرُ جملةَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾، وتكون جملة (يُؤمِنون بما ...) جملةَ اعتراضٍ؛ لأنَّ فيه تأكيدًا وتسديدًا للكلام، ويكون (يؤمنون) يعود على (الراسخون) و(المؤمنون) جميعًا، ويجوزُ أن تكون جملة (يؤمنون) حالًا منهما. وقيل غير ذلك[٢].

---

(١) وقُرِئ بالواو (والمقيمون)، ولا إشكالَ في إعرابها.

(٢) قال السَّمين الحلبي- بعد حكاية أوجه الإعراب وتخريجاتها في هذه القراءة-: (وقد زعَم قومٌ لا اعتبارَ بهم أنَّها لحن، ونقَلوا عن عائشةَ وأبان بن عثمان أنَّها خطأ من جِهة غلَط كاتِب المصحف، قالوا: وأيضًا فهي في مصحَف ابن مسعود بالواو فقط؛ نقله الفراء، وفي مُصحَف أُبيٍّ كذلك، وهذا لا يصحُّ عن عائشةَ ولا أبان. وما أحسنَ قولَ الزمخشريِّ رحمه الله: ولا يُلتفت إلى ما زَعَموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف، وربَّما التفت إليه مَن لم ينظر في الكتاب، ومَن لم يعرف مذاهبَ العرب، وما لهم في النَّصب على الاختصاص من الافتنان، وغَبِي عليه أنَّ السابقين الأوَّلين الذين مَثَلُهم في التوراة ومثَلُهم في الإنجيل كانوا أبعدَ هِمَّةً في الغَيرة عن الإسلام، وذبِّ المطاعن عنه من أنْ يقولوا ثُلمةً في كتاب الله؛ ليسدَّها مَن بعدهم، وخرقًا يرفوه مَن يَلحق بهم) ((الدر المصون)) (٤/ ١٥٥)، وينظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٠)، وينظر أيضًا: ((مفاتيح التفسير)) للدكتور أحمد سعد الخطيب (ص: ٧٠٩- ٧٢٨) تحت مصطلح «اللحن»؛ فقد عالج هذه الفرية (ادِّعاء اللحن في القرآن الكريم أو في

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾: في رفْعه أوجهٌ؛ أظهرها: أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، ويكون من باب القَطعِ على المدح المذكور في نَصْب (والمقيمين). ومنها: أنَّه معطوفٌ على الضمير المستكنِّ في (الرَّاسخون)، وجاز ذلِك للفَصل. ومنها: أنَّه معطوفٌ على الضَّمير في (المؤمنون)، أو على الضَّمير في (يؤمنون). ومنها: أنَّه مبتدأٌ أوَّل، وخَبَره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾، فيكون (أولئك) مبتدأً ثانيًا، و (سنؤتيهم) خبرَ المبتدأ الثاني، والجملةُ خبرَ المبتدأِ الأوَّل (المُؤتونَ). وعلى هذا الوجهِ يجبُ أنْ يكونَ خبرُ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هو جُملة: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ أيضًا.

و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: كلٌّ منهما مفعولٌ به لاسم الفاعِل العامِل عمَلَ فِعله (المقيمين) (الْمُؤتُونَ)[1].

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنَّ أهل التوارة من اليهود يَطلُبون منك على سبيلِ التعنُّت أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء، فيَنبغي ألَّا تكترثَ لذلك؛ فقد سألوا موسى ما هو أعظمُ من ذلك، بأنْ يُريهم اللهَ عِيانًا، فعُوقبوا بالصَّعق، بسبب ما ارتكبوه، ثم أنْجاهم اللهُ فعادوا لقبيح أفعالهم، فعَبَدوا العِجلَ بعدَما رأوا الآياتِ الواضحةَ التي جاء بها موسى، ثم عفَا الله عن ذلك، وأعطى موسى آياتٍ بيِّناتٍ، وحججًا واضحاتٍ، تدلُّ على صِدق ما جاء به.

ثم أخبَر تعالى أنَّه رفَعَ فوقَهم الجبلَ؛ تخويفًا لهم حين امتنعوا عن العمل بالتوارة التي أُخذَ عليهم العهد الموثَّق أن يلتزموا بها، وأخبر أنَّه أمَرَهم تعالى

بعض قراءاته) من خلال مناقشة الآثار والحُكم عليها، وتوجيه معنى اللَّحن أيضًا.

(١) يُنظر في إعراب هذه الآية وتفصيل الأوجه فيها: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٢)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥٢- ١٥٥)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣١).

عند دُخولهم أحدَ أبواب بيت المقدس، أن يَدخُلوه وهم سجودٌ، ونهاهم عن الاعتداء يومَ السبت؛ فيَقعوا فيما حرَّمه عليهم، وأخَذ عليهم سبحانه عهدًا مؤكَّدًا شديدًا أنْ يفعلوا ما أُمروا به، ويَجتنبوا ما نُهوا عنه.

ثم أخبر تعالى أنَّ طَرْدَهم من رحمته كان بسبب نَقْضهم للعهودِ التي عاهدوا اللهَ عليها، وكُفرِهم بآيات الله، وقَتْلِهم الأنبياءَ بلا سببٍ يستوجب قتْلَهم، وبسببِ قولهم: إنَّ قلوبهم في أغلفةٍ وأغطية، فلا يعقلون بها، وقد كذَبوا في ذلك، بل ختَم الله عليها؛ بسببِ كُفرهم، فلا يؤمنون بما طُلب منهم الإيمانُ به إلَّا بشيءٍ يسير، كذلك كان إبعادُهم من رحمته سبحانه وتعالى بسبب كُفرِهم واتِّهامهم مريمَ بالوقوع في الزِّنا كذبًا وافتراءً. وبقولهم: إنَّهم قتَلوا المسيح عيسى ابنَ مريم رسولَ الله تعالى، وما قتلوه وما صَلبوه، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخَرَ فظنُّوه عيسى عليه السَّلام، وأمَّا الذين اختلفوا في شأنِه من اليهود والنصارى فهُم في شكٍّ وحَيرة منه، وليس معهم سوى مُجرَّدِ ظُنون، وما قتلوه متيقِّنِين من أنه عيسى عليه السَّلام، بل رفَعَه الله إليه فلم يَنالوا منه عليه السَّلام، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ثمَّ أخبَر تعالى أنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد أن يَنزل عيسى في آخِرِ الزمان إلَّا وسيُؤمن به قبلَ موته، وسيكون عليه السَّلام شاهدًا عليهم يومَ القيامة.

وبيَّن اللهُ سبحانه بعدَ ذلك أنَّه بسببِ ظُلم اليهود وصَدِّهم عن سبيله كثيرًا، حرَّم عليهم بعضَ الطيِّبات التي كان أَحلَّها لهم من قبلُ؛ عقوبةً لهم على ذلك، وعلى أخذهم للرِّبا وقد نُهوا عنه، وعلى استيلائِهم على أموال النَّاس بدون وجهِ حقٍّ، وأعدَّ الله لِمَن كَفَر منهم عذابًا مؤلِمًا.

ثم وضَّح تعالى أنَّه ليس كلُّ اليهود متَّصفين بتلك الصِّفات السيِّئة؛ فالذين ثبَت العلمُ في صُدروهم وانتفعوا به، والمؤمنون منهم باللهِ وكُتبه ورُسله

جميعًا، هؤلاء يؤمنون بما أُنزل إلى رسولِ الله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو القُرآن، وبما أُنزل من قبله من الكتُب المتقدِّمة، والذين يُقيمون الصَّلاة على أتمِّ الوجوه، ويُعطون الزكاة لِمَن يستحقُّها، والذين يُؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخِر وما يكون فيه، أولئك وعَدَ الله أنَّه سيُؤتيهم أجرًا وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة.

تفسير الآيات:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى معاذيرَ أهل الكتابين في إنكارهم رِسالةَ محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أعقَبَ ذلك بذِكر شيءٍ من اقتراحهم مجيءَ المعجزات على وَفقِ مطالبهم[١]، فقال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: يسألك أهلُ التوراة من اليهود يا محمَّد، على سبيل التعنُّت والعِنادِ أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملةً واحدة، مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ، كما كانت ألواحُ التَّوراة، يَشهَدُ لك بالصِّدق، ويأمُرهم باتباعك[٢].

﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٣٨-٦٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣).

أي: لا يَعظُمنَّ عليك- يا محمَّد- سؤالُهم ذلك، ولا تعجبنَّ منه؛ فإنَّه ليس بغريبٍ من أمرهم، بل سبَق لهم طلبُ ما هو أعظمُ من ذلك من موسى عليه السَّلام، الذي يَزعُمون أنَّهم يؤمنون به(١)!

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾.

أي: فقالوا لموسى عليه السَّلام: نُريد رُؤيةَ الله تعالى عِيانًا نَنظُر إليه؛ كي نُصدِّقَك(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥].

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾.

أي: فعُوقبوا بالصَّعق؛ بسببِ عُدوانهم وعِنادهم فهَلَكوا، ثم أحياهم اللهُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

أي: ثم اتَّخذ هؤلاء الذين سألوا موسى رؤيةَ ربِّهم عِيانًا، بعدَما أحياهم اللهُ تعالى من صَعقتِهم، اتخذوا العجلَ إلهًا يعبدونه، مِن بعدِ ما رأوا بأبصارهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨).

الأدلَّةَ الواضحةَ، والمعجزاتِ الباهرةَ التي جرَت لموسى عليه السَّلام[(١)]!

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾.

أي: فعَفَوْنا لعبدةِ العجل عن عِبادتهم إيَّاه. وقد جعَل الله تعالى توبتَهم: أن يَقتُل بعضُهم بعضًا[(٢)].

كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

أي: وأَعطينا موسى عليه السَّلام حُجَّةً واضحة، تُبين عن صِدقه ونبوَّته، وهي الآياتُ البيِّنات، والحُجَجُ الباهرات التي أُعطِيها[(٣)].

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾.

أي: حين امتَنعوا من العملِ بالتوراة التي عُهِد إليهم الالتزامُ بها عهدًا مؤكَّدًا، رفَعْنَا فوق رؤوسهم جبلًا لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهِدوا عليه، ويَعمَلوا به بقوَّة[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨-٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٠٨-٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٠-٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾.

أي: وأمَرْناهم أن يَخضعوا لله سبحانه بالفِعل والقولِ عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يَضعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم[1].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

أي: وقُلنا لهم: لا تَتجاوزوا في يوم السَّبت ما أُبيح لكم إلى ما حُرِّم عليكم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وأَخذْنا عليهم عهدًا مؤكَّدًا شديدًا؛ بأنْ يَعملوا بما أمرَهم اللهُ تعالى به، ويَنتهوا عمَّا نهاهم عنه[3].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٩-٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢١).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾.

أي: فبسببِ نقضِهم عهودَهم، التي عاهدوا اللهَ تعالى أن يأخذوا بها، طَرَدْناهم وأبعدناهم من رحمتِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ...﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وبسبب كُفرهم بالأدلَّة والحُجج والمعجزاتِ، التي شاهدوها دالَّةً على الحقِّ بوضوحٍ(٢).

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

أي: وبسببِ قيامِهم بقَتْلِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام بغير سببٍ يَستحقُّون به القتل(٣).

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

أي: وبسببِ قولهم: قلوبُنا داخلةٌ في غِلاف وأَغطيةٍ، فلا نَعقِل بها(٤).

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٥-٦٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٣).

﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَموا من أنَّ قلوبَهم غُلف؛ فقد كذَبوا في ذلك، وإنَّما ختَم الله تعالى على قلوبِهم؛ بسببِ كُفرهم(١).

﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

أي: فلا يؤمنون إلا بشيءٍ يسيرٍ ممَّا وجب عليهم الإيمانُ به، لكنَّه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنَّه مغمورٌ بما كفروا به، كإيمانهم ببعضِ الأنبياء وكُفرهم ببعضهم(٢).

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾.

أي: وبسبب كُفرهم وبسبب افترائِهم على مريمَ عليها السَّلام برَمْيِها بالوقوعِ في الزِّنا(٣).

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾.

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وبسببِ دَعواهم قتْل عيسى عليه السَّلام(٤).

---

(١) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٧).

أمَّا قوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فقيل: إنَّها من قول الله تعالى؛ فهم لا يُقرُّون بأنه رسول، لكن الله تعالى قال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ كأنَّه يقول: إنَّه لا يستحقُّ أن يُقتَل؛ لأنَّه رسول الله.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾.

أي: والحقُّ أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى عليه السَّلام، ولم يَصلِبوه كما يَدَّعون، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخرَ؛ فظنُّوه هو[1].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: وإنَّ الذين اختلفوا من اليهود والنَّصارى في شأنِ عيسى عليه السَّلام- هل هو الذي قُتِل وصُلِب أم غيره- يُخالج نُفوسَهم الشكُّ، وتنتابهم الحَيرةُ من هذا الأمر[2].

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: مِن غير أن يكونَ لهم عِلمٌ جازم بمَن قتلوه حقًّا؛ أهو عيسى عليه السَّلام أم غيره، وإنَّما غايةُ ما لديهم هو مجرَّدُ ظنونٍ، لا تَرقى إلى درجةِ اليقين[3].

وقيل: بل هذا من كلامهم، وإنَّما قالوه على سبيل التهكُّم، يعني: الذي يزعم أنه ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ويدَّعي لنفسه هذا المقام، كقول قريش لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٧).

(١) واختار هذا القولَ في معنى ﴿شُبِّهَ لَهُمۡ﴾: الواحديُّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٠٠)، والقرطبيُّ في ((تفسيره)) (٦/ ٩)، وابنُ كثير في ((تفسيره)) (٢ / ٤٤٩)، والسعديُّ في ((تفسيره)) (ص: ١٣٢)، والشنقيطيُّ في ((أضواء البيان)) (١/ ٢٠١)، وفي ((العذب النمير)) (٢/ ٤٠٢)، وابنُ عثيمين في ((تفسير سورة النساء)) (٢/ ٤٣٨). =

= وقيل: يحتملُ أن يكونَ المعنى: ولكن شُبِّه لليهودِ الأولين والآخرين خبرَ صلبِ المسيحِ، أي: اشتبه عليهم الكذبُ بالصدقِ، فيكونُ من بابِ قولِ العربِ: خُيِّل إليك، واختلطَ على فلانٍ. وليس ثمة شبيهٌ بعيسى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦٠)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦١)، ((تفسير الواحدي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور))

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

أي: وما قتَلوه متيقِّنين أنَّه عيسى عليه السَّلام(١).

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا من أنَّهم قتلوه وصلبوه، ولكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رفعه إليه في السَّماء؛ فلم يَظفروا به(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذو قدْرٍ عظيمٍ، منيع الجَناب، غالبٌ على أمره، قاهرٌ لأعدائه، منتقِمٌ منهم، ذو حكمةٍ في تدبيره وقَضائه؛ فيضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به سبحانه، ومِن عِزَّته وحِكمته عزَّ وجلَّ: رفْعُه لعيسى عليه السَّلام، ومنعُ أعدائه من الوصول إليه(٣).

(٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١).

(١) وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ في ((تفسيره)) (٧/ ٦٦١)، والواحديِّ في ((الوجيز)) (ص: ٣٠٠)، وابنِ كثيرٍ في ((تفسيره)) (٢/ ٤٤٩)، وجعَله ابنُ عاشور أحدَ الاحتمالاتِ في ((تفسيره)) (٦/ ٢٣).
وقيل: أي: عدم قتْل عيسى عليه السَّلام، أمرٌ يَقينيٌّ لا شكَّ فيه. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
وذهب ابنُ عثيمينَ إلى حمل الآية على كلا المعنيين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

مُناسبةُ هذه الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى فضائح اليهود، وقبائحَ أفعالهم، وأَوْضَح أنَّهم قَصدوا قتْل عيسى عليه السَّلام، وأنَّه ما حصَل لهم ذلك المقصود، وأنَّه حصَل لعيسى أعظمُ المناصب، وأجلُّ المراتب- بَيَّن تعالى أنَّ هؤلاء اليهودَ الذين كانوا مبالغين في عَداوته، لا يخرُج أحدٌ منهم من الدُّنيا إلَّا بعدَ أن يؤمن به[١]، فقال:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾.

أي: إنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكِتاب بعد نُزولِ عيسى عليه السَّلام في آخِر الزَّمان، عند اقترابِ السَّاعة، وظهورِ علاماتها الكِبار، إلَّا آمَن به قبلَ موته عليه السَّلام[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((والذي نَفْسي بيدِه، ليُوشِكنَّ أن يَنزلَ فيكم ابنُ مريمَ حَكمًا عدلًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويَفيضَ المالُ حتى لا يقبلَه أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدُّنيا وما فيها. ثم يقولُ أبو هريرةَ: واقرؤوا- إنْ شئتم-: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾))[٣].

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾.

سورة النساء)) (٢/ ٤٤٨-٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٢-٦٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٨) واللفظ له، ومسلم (١٥٥).

أي: ويوم القِيامة يكونُ عيسى عليه السَّلام شاهدًا على أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، الذين تعارَضتْ أقوالُهم فيه؛ بتكذيبِ مَن كفَر به منهم، وتَصديق مَن آمَن به منهم، فيما أَتاهم به من عند الله، وبإبلاغِه رسالةَ ربِّه ومولاه، وشاهدًا على أعمالهم التي شاهدَها منهم قبلَ رفْعِه إلى السَّماء، وبعد نُزوله إلى الأرض[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّن فَضائحَ أعمالِ اليهودِ، وقبائحَ الكافرين وأفعالَهم، ذكَر عقيبَه تشديدَه تعالى عليهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٢]، فقال:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

أي: فبسبب ظُلم اليهود- بما ارْتكبوه من الذُّنوب العَظيمة- حرَّم الله تعالى عليهم؛ عقوبةً لهم، عددًا من الطيِّبات التي أحلَّها لهم سبحانه من قبلُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٥-٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٢-٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

أي: وبسببِ صدِّهم أنفُسَهم عن اتِّباع الحقِّ، وصدِّهم النَّاسَ أيضًا عن طريقِ الهُدى صدًّا كثيرًا، فقد قالوا على الله تعالى الباطِلَ، وبدَّلوا كتابَ الله، وحرَّفوا معانيَه عن وجوهِه، وكتَموا ما فيه- كأمْر مُحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبيان صِفته للنَّاس- وقتَلوا خلقًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام[١].

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾.

أي: وبسببِ تَناوُلِهم الرِّبا، والحال أنَّهم قد نُهوا عن أخْذه، فقامتْ عليهم الحُجَّةُ في ذلك[٢].

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

(ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٦).

قال ابنُ كثير في قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾: (وهذا التحريم قد يكون قدريًّا، بمعنى: أنه تعالى قيَّضهم لأنْ تأوَّلوا في كتابهم، وحرَّفوا وبدَّلوا أشياءَ كانت حلالًا لهم، فحرَّموها على أنفسهم؛ تشديدًا منهم على أنفسِهم، وتضييقًا وتنطُّعًا. ويحتمل أن يكون شرعيًّا، بمعنى: أنه تعالى حرَّم عليهم في التوراة أشياءَ كانت حلالًا لهم قبل ذلك) ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٧-٤٥٩).

أي: وبسبب استيلائِهم على أموالِ الناسِ بغير حقٍّ[١].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

أي: وهيَّأْنا للكفَّارِ من هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا[٢].

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى معايبَ أهلِ الكتاب، ذكَر الممدوحين منهم[٣]، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: ليس كلُّ اليهود على تِلك الأوصاف السيِّئة؛ فالذين ثبَت العِلمُ النافع في قلوبِهم، ورسَخَ الإيقانُ في أفئدتهم، والمؤمنون بالله تعالى وجميعِ كُتبِه ورُسلِه عليهم السَّلام[٤].

﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٨-٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٧-٤٦٨).
وقيل: المراد بالمؤمنين هنا أصحابُ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).
وقال ابن عاشور: (وعطف ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ ثناءً عليهم بأنَّهم لم يسألوا نبيَّهم أنْ يُريهم الآياتِ الخوارق للعادة؛ فلذلك قال: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: جميعهم، ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، أي: القرآن، وكفاهم به آيةً، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ على الرُّسل، ولا يُعادون رسل الله تعصُّبًا وحمية) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٨).

أي: يُؤمِنون بالقُرآنِ الذي أُنزل إليك يا محمَّدُ، وبالكتُب السابقة التي أُنزلتْ على الأنبياء عليهم السَّلام من قَبْلك[١].

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: والذين يُؤدُّون الصلاةَ على وجه الاستقامة والتَّمام، فيأتون بها تامَّةَ الشروط، مستوفيةَ الأركان والواجبات، ويُكمِّلونها بالمستحبَّات[٢].

﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: والذين يُعطون زكاةَ أموالهم أهلَها، المستحقِّين لها[٣].

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

أي: والذين يُؤمنون باللهِ تعالى، ويُؤمنون بالبَعثِ بعد الموت، والجزاءِ على الأعمالِ؛ خيرِها وشرِّها[٤].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أولئك الذين هذه صِفتُهم- ممن جمعوا بين العِلم والإيمانِ والعملِ الصالح- سنُعطيهم جزاءً وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧١-٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

الفوائِد التربويَّة:

١- النَّظر إلى عاقبة التعنُّت في الدِّين؛ قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ فأخذتْهم الصاعقة بتعنُّتِهم، وسؤالِهم ما ليس لهم أن يَسألوه[١].

٢- أنَّ الذَّنب كلَّما عظُم كان أسرعَ للعقوبة؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، والفاء تدلُّ على الترتيب والتعقيب؛ ولهذا أخذتْهم الصَّاعقةُ في الحال، فماتوا جميعًا[٢].

٣- أنَّ مَن تحيَّل على محارمِ الله مِن هذه الأمَّة ففيه شبهٌ من اليهود، سواء كان في البَيع أو في الشِّراء، أو فيما أحلَّ الله من الطعام وحرَّم، أو في النِّكاح، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[٣].

٤- الكُفر المتزايد يَزيد تَعاصي القلوب عن تلقِّي الإرشاد؛ يستفاد ذلك من قول الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

٥- وجوب اقتِناع الإنسان بحُكم الله، ورِضاه بقَدَره، فوجوب اقتناعه بحُكم الله؛ لأنَّه إذا آمن أنه لحِكمةٍ، وجَبَ أن يقتنع به؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ ولهذا كان السَّلف الصالح لا يُقنعون النفوسَ عند الإشكال إلَّا بالنُّصوص، وأمَّا الرِّضا بقضائه، فالمراد: أنْ يرضَى الإنسان بقضاء الله لا بالمقضيِّ؛ لأنَّ المقضيَّ فيه تفصيل، لكن القضاء من حيثُ هو قضاءُ الله يجب عليه أن يَرضَى به، وهذا من تمامِ توحيد الربوبيَّة[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٥٠).

٦- اقتراف الذُّنوب والظُّلم موجبٌ للتَّشديد في الدُّنيا والآخِرة، وجامع لنكد الدَّارين؛ وسبب لحرمان الخير الشرعيِّ والقدريِّ، قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وفي ذلك بيانُ فُحش الظُّلم، والتقبيح له، والتحذير منه[1].

٧- أنَّ الجزاءَ مِن جِنس العَمل؛ قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾؛ فمُنعوا مستلذَّات تلك المآكِل بما مَنَعوا أنفسَهم وغيرَهم من لذاذةِ الإيمان[2].

٨- في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بيانُ فَضيلةِ العالِمين بأحكام اللهِ تعالى، العامِلين بتِلك الأحكام[3].

٩- أنَّ العِلم سببٌ للإيمان؛ لقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولا شكَّ أنَّه كلَّما ازداد الإنسان علمًا، ازداد إيمانًا وبصيرةً بتوفيق الله عزَّ وجلَّ[4].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ فيه الاستدلالُ على حالتهم بحالةِ أسلافهم، من قَبيل الاستدلال بأخلاق الأُمم والقبائل على أحوالِ العَشائر منهم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٢)..

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٤).

٢- دِفاع اللهِ تعالى عن الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّه سلَّاه وقال: لا تتعجَّبْ، ولا تستكبِرْ هذا السؤالَ ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾[١].

٣- أنَّ اليهودَ اتَّخذوا العجل إلهًا عن عِلمٍ، فليس لهم عُذرٌ؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، ومعلوم أنَّ المذنب بعد العِلم أشدُّ من المذنبِ عن غير عِلمٍ[٢].

٤- أنَّ ما جاءت به الرُّسلُ فهو حُجَّة ظاهرة لا تَخفى إلَّا على مَن أعْمَى اللهُ قلبَه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾[٣].

٥- إثباتُ الأسباب، وأنَّ لها أثرًا في حُصولِ المسبَّبات؛ لقوله: ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾؛ فإنَّ الباء للسببيَّة[٤].

٦- قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ فيه دليل على العُذر بالجهل[٥].

٧- أنَّ إيمانَ بني إسرائيل إيمانُ إكراه؛ لأنَّ أيَّ قادرٍ يقول: أنا سأُسقط عليك حجارةً من السَّماء إنْ لم تؤمن، فيؤمن المُهدَّدُ على إكراه، وعليه: فالمؤمن على إكراهٍ لا بدَّ أن يكون إيمانه ضعيفًا، إذا زال الإكراهُ ربما يَرجِع إلى الكفر؛ قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ ...﴾[٦].

٨- مِن أحسنِ الطُّرق لمحاجَّة الخصمِ المبطل، أنَّه إذا صدَر منه اعتراضٌ باطلٌ قد يكونُ شبهةً له ولغيرِه في ردِّ الحقِّ- أن يُبيِّن مِن أحواله الخبيثة وأفعاله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤١٨).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٥).

الشنيعة أقبحُ ما صدَر منه؛ ليَعلمَ كلُّ أحدٍ أنَّ هذا الاعتراضَ ممَّن هذا حاله، وأن له مقدماتٍ ينبغي أن يُجعل معها؛ ليُكتفَى بذلك شرُّهم، وينقمع باطلُهم، فلَمَّا كان المرادُ من تعديد ما عدَّد اللهُ من قبائحهم هذه المقابلة لم يَبسُطْها في هذا الموضِع، بل أشار إليها، وبسَطَها في غير هذا الموضِع، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات[١].

٩- إثباتُ الأسباب الشرعيَّة، وكذلك إثبات الأسباب القدريَّة من باب أَوْلى؛ لقوله: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ والباء للسببيَّة، وإثبات الأسباب المؤثِّرة في مُسبَّباتها من مقتضى حِكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الشيء لو وقَع صُدفةً هكذا لكان سفهًا، والإنسان الذي يفعل الشيءَ اعتباطًا بدون سبب موجب له لا يعدُّ حكيمًا، لكن الذي يفعل الشيء بأسبابه والمؤثرات فيه هذا هو الحكيم، والله عزَّ وجلَّ قد ربط المسبباتِ بالأسبابِ، ولكن لقصورِنا ونقصِنا قد نعلمُ السببَ وقد لا نعلمُه[٢].

١٠- أنَّ نقْضَ الميثاق سببٌ لِلَعنةِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الآيةَ على تقديرِ محذوف، وهو: (لعنَّاهم)، أي: فبما نقضهم ميثاقهم.... لعنَّاهم[٣].

١١- أنَّ كلَّ مَن احتجَّ بالقَدَر على الشَّرْع، فحُجَّتُه داحضةٌ؛ لأنَّ هؤلاء احتجُّوا بقدَرِ الله على شَرْعِه، حيث قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ فأبطل اللهُ تعالى حُجَّتَهم بقوله: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، فمن كفَر، ولم يعلمِ اللهُ فيه خيرًا، طبَع على قلبِه؛ فلا يَهتدي أبدًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] فمَن زاغ عن الحقِّ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٩).

السبب[١].

١٢- في قوله تعالى: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ الآيات لله، وآياتُ الله تعالى نوعان: كونيَّة وشرعيَّة؛ فالكونيَّة جميعُ المخلوقات، فكلُّ المخلوقات دالَّةٌ على خالقها عزَّ وجلَّ، وعلى قُدرتِه وعِلمه، وحِكمتِه ورحمته، وغير ذلك ممَّا يتعلَّق بهذه المخلوقات، والآيات الشرعية: هي ما أنزله الله على رسله من الوحي[٢].

١٣- عُتوُّ بني إسرائيل؛ حيث اعْتَدَوْا على مَن أتَوْا بشَرْع يَهدُون الناس به، فقتلوا: ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، بل قتَلوا ﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] ولو كانوا غيرَ أنبياء[٣]!

١٤- أنَّ قتْلَ الأنبياء لا يُمكن أن يكون بحَقٍّ، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بيانٌ للواقِع، وليس قيدًا احترازيًّا، وهو كثيرٌ في القرآن[٤].

١٥- أنَّ اليهود باؤوا بإثم قَتْل المسيح أَخْذًا بإقرارهم؛ لأنَّ الله جعَلَ الإقرارَ شهادة، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] ولهذا نقول: اليهود قتَلوا المسيح حكمًا ولم يقتلوه واقعًا؛ لأنهم أقروا بأنهم قتلوه، ولكنهم لم يقتلوه واقعًا في الحقيقة، فحكم قتل المسيح ثابت على اليهود بإقرارهم[٥].

١٦- نِسبة الإنسان إذا لم يكُن له أبٌ إلى أُمِّه، وتُؤخذ من قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٢٩، ٤٣٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٣١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٤٣).

١٧- فائدة نحويَّة: أنَّ الإنسان إذا اشتهر بلقبِه، فلا بأس أن يُقدَّم على اسم العَلَم؛ لأنَّه قدَّم المسيح، في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، وإلَّا فالأصل أن يُقدَّم الاسم أولًا، ثم اللَّقب، ثم الكُنية، لكن إذا اشتهَر باللَّقب فإنَّه يُقدَّم، مثل أن تقول: (الإمام أحمد بن حنبل)، أو (أحمد بن حنبل الإمام)؛ فالأوَّل مُقدَّم؛ لأنَّه مشتهرٌ به(١).

١٨- سَفاهةُ النَّصارى وقِلَّة تمييزهم؛ إذ إنَّهم يَعبُدون الصَّليب ويُعظِّمونه، ولو كانوا عُقلاءَ لكسروه؛ صليبٌ يُصلَب عليه نبيُّهم، ثم يذهبون إلى تقديسه! لو أُخِذ بظاهر الحال لقِيل: هذا دليلٌ على بُغضهم لعيسى، حيث قدَّسوا ما عُذِّب به، وهو الصَّليب، لكن هم يدَّعون أنَّ هذا تعظيمٌ لعيسى عليه الصَّلاة والسَّلام(٢).

١٩- إثباتُ علوِّ الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾(٣).

٢٠- أنَّ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسَّلام حيٌّ؛ لقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾، وهذا يقتضي رَفْعَه برُوحه وجَسَدِه، كما عُرِج بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ برُوحه وجسَدِه إلى السموات(٤).

٢١- أنَّ الكتابيَّ قد يؤمن إيمانَ اضطرارٍ إمَّا عند موته- على قول-، أو إذا نَزَل عيسى، ولكن النصوص تدلُّ على أنَّ الإيمانَ الاضطراريَّ لا ينفع، وأنَّ الإيمان لا ينفع إذا حضَر الأجلُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، ولكن الإيمان الاضطراري في غير هذا الحال قد يَرْسَخُ في قلْبِ المرء،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقد يُؤمِنُ أولًا خوفًا من السَّيف، ثم يَرسَخُ الإيمان في قلبه ويثبت، ويكون إيمانًا حقيقيًّا يُثاب عليه، وينجو به من النَّارِ[١].

٢٢- قوله تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾ فيه التحذيرُ من كلِّ أنواع الصدِّ عن سبيلِ اللهِ؛ فالصَّد لا يتقيَّد بصيغةٍ معيَّنة، بل كلُّ ما فيه صدٌّ عن سبيل الله سواء بالتخذيل، أو بالإرجاف، أو بالإيعاد، أو بالوعد، أو بغير ذلك فإنَّه داخلٌ في التَّحذير من ذلك[٢].

٢٣- في قوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ جاء الوصف بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ ليكون أشدَّ في الذمِّ، وإنْ كان لا مفهومَ له؛ لأنهم لو صدُّوا قليلًا، لكان لهم نصيبٌ من الإثم، إنما الغاية هي الكثرةُ[٣].

٢٤- أنَّ المتعاطِين للرِّبا من هذه الأمَّة مُشبهون لليهود؛ لقوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾[٤].

٢٥- أنَّ أخْذ الرِّبا مُحرَّمٌ، سواء كان للأكْل، أو للشُّرب، أو للبس، أو للاقتناء، أو لأيِّ غرَضٍ كان؛ لعموم قوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[٥].

٢٦- قول الله تعالى: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾ في الآية دليل على أنَّ النهي للتحريم[٦].

٢٧- أنَّ الحُجَّة لا تقوم إلَّا بعدَ بُلوغها، وأنَّ مَن فعَل شيئًا لا يَدري عن

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥).

حُكمه، فهو غير مُؤاخَذٍ به؛ لقوله: ﴿وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾[١].

٢٨- أنَّه لا يمكن أنْ يتمَّ الإيمان إلَّا بالإيمان بما جاء به الرسولُ عليه الصلاة والسَّلام؛ لقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فكلُّ إنسان يدَّعي أنه مؤمنٌ دونَ أن يُؤمنَ بما أُنزل على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فإنَّه كافرٌ، وكاذب في دَعواه؛ لأنَّ دِينَ الإسلام الذي جاء به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ ناسخٌ لجميع الأديان[٢].

٢٩- الإشارة إلى أنَّه لا نبيَّ بَعد محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لقوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ ولم يقُلْ: (من بعدك)، وهذا هو الواقع، لكن الآية فيها الإشارةُ، وليس فيها التصريح[٣].

٣٠- فضيلةُ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزكاة؛ لأنَّ الله تعالى نصَّ عليهما من بين سائر الأعمال، وإقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة قرينتانِ في كتابِ الله[٤]. وأيضًا لَمَّا كانتِ الصلاةُ أعظمَ دعائم الدِّين، نُصب قولُه: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ على المدحِ من بين هذه المرفوعات؛ إظهارًا لفضلِها[٥].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾: جيء بالفِعل المضارع هنا ﴿يَسْأَلُكَ﴾؛ إمَّا لقصْد استحضارِ حالتهم العجيبة في هذا السُّؤال، حتى كأنَّ السامعَ يَراهم، وإمَّا للدَّلالة على تَكرارِ السؤالِ، وتجدُّدِه المرةَ بعد الأخرى، بأنْ يكونوا ألَحُّوا في هذا السؤال؛ لقصد الإعناتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٠٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٣).

٢- **قوله:** ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ﴾: الفاء في (فَقَدْ) فاء الفصيحة، دالَّة على مُقدَّر دلَّت عليه صيغةُ المضارع المراد منها التعجُّب، أي: فلا تعجب من هذا؛ فإنَّ ذلِك شنشنةٌ- أي: عادةٌ- قديمةٌ لأسلافهم مع رسولِهم؛ إذ سألوه معجزةً أعظم من هذا(١).

- وفيه: إسنادُ السُّؤال إليهم، وإن كان وُجِد من آبائهم في أيام موسى عليه السَّلام- وهم النقباء السَّبعون-؛ لأنَّهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم، ومُضاهين ومُشاكِلين لهم في التعنُّت(٢).

٣- **قوله:** ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ فيه عطفُ جملة اتِّخاذهم العجلَ بحرف (ثم) المفيدِ في عطفِه الجُملَ معنى التَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ اتخاذهم العجل إلهًا أعظمُ جُرمًا ممَّا حُكِيَ قبله(٣).

٤- **قوله:** ﴿فَعَفَوْنَا﴾: عبَّر الربُّ الجليل عن نفْسه سبحانه بضمير الجَمْع؛ للتَّعظيم، وليست للتعدد كما زعَم النصرانيُّ الخبيث؛ فإنَّ النصرانيَّ يقول: الآلهة متعدِّدة(٤).

٥- **قولُه تعالى:** ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف، حيث نزَع الجارَّ فقال: ﴿فَوْقَهُمُ﴾ ولم يقل: (مِنْ فَوقِهم)؛ لأنَّه لَمَّا كان الطور قد ملأ جِهةَ الفوق بأنْ وارى جميعَ أبدانهم، ولم يسلم أحدٌ منهم من ذلك، نَزَع الجار؛ دلالةً على ذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٢١)، ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣١٦).

(٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٥).

(٤) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤١٧).

(٥) ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٥٦).

٦- **قوله تعالى:** ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾: فيه مناسبةٌ حسنةٌ؛ فإنَّه قال في سورة آل عمران: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ٢١]؛ فلكونِه هنا في سورة النساء في سِياق طَعنِهم في القُرآنِ، الذي هو أعظمُ الآياتِ، عبَّر- مع جَمْع الكثرة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وتنكير ﴿حَقّٖ﴾- بالمصدرِ المُفْهِم ﴿قَتْلهم﴾؛ لأنَّ الاجتراءَ على القَتلِ صارَ لهم خُلقًا وصِفةً راسخةً، بخِلاف ما مَضَى في آل عِمران؛ فإنَّه بالمضارع ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ الذي ربَّما دلَّ على العُروضِ[١].

٧- **قوله تعالى:** ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ... وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ فيه عطف قوله: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ﴾ مرةً ثانية على قوله: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾، ولم يَستغنِ عنه بقولِه: ﴿وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وأُعيد مع ذلك حرفُ الجر الذي يُغني عنه حرفُ العطف؛ قصدًا للتأكيد، واعتُبر العطفُ لأجْل بعد ما بين اللَّفظينِ، ولأنَّه في مقام التهويلِ لأمر الكُفر، فالمتكلِّم يَذكُره ويُعيده؛ ليري أنه لا ريبةَ في إناطة الحُكم به[٢].

٨- **قوله:** ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾: فيه استدراك[٣]؛ لرَفْع التوهُّم، والمستدرَك هو ما أفادَه قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾؛ من كون هذا القولِ لا شُبهة فيه، وأنَّه اختلاق محض؛ فبيَّن بالاستدراك أنَّ أصل ظنِّهم أنهم قتلوه أنَّهم توهَّموا أنَّهم قتلوه[٤].

---

(١) ((المصدر السابق)) (٥/ ٤٦٢).

(٢) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ١٨).

(٣) الاستدراك: هو رفع توهُّم يتولَّد من الكلام السابق رفعًا شبيهًا بالاستثناء، وهو معنى (لكن)، وهو من البديع، ويُشترط فيه زيادة نُكتة طريفة على معنى الاستدراك؛ لتُحسِّنَه وتُدخِلَه في البديع، وإلَّا فلا يعد منه؛ وهو قسمان: قسم يتقدَّم الاستدراك تقريرٌ وتوكيد؛ إمَّا لفظًا أو معنى لما أخبر به المتكلِّم، وهذا هو الأكثرُ الذي بَنى عليه فحول أرباب البديعيات أبياتهم، وقسم لا يتقدَّمه ذلك. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨)، ((أنوار الربيع)) لصدر الدين المدني (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٠).

٩- **قوله:** ﴿يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ فيه تأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كقولك: ما قتلوه حقًّا، أي حقَّ انتفاءُ قتْلِه حقًّا، وفيه تهكُّم؛ لأنَّه إذا نفى عنهم العلمَ نفيًا كليًّا بحرف الاستغراق (ما)، ثم قيل: وما علموه علمَ يقين وإحاطة، لم يكُن إلَّا تهكُّمًا بهم(١)،ونُصب ﴿يَقِينًا﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق المؤكِّد لمضمون جملة قبله؛ لأنَّ مضمون ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ انتفاءَ قتلهم إيَّاه أمرٌ متيقَّن؛ فصحَّ أن يكون يقينًا مؤكدًا لهذا المضمون(٢)، فاليقين هنا عائد إلى نفي القتل، والذي أوجب هذا أنَّ اليهود لهم دِعايةٌ قويَّة فيما يذهبون إليه؛ فمِن أجْل هذه الدِّعاية القوية قُوبلوا بهذه التأكيدات التي تدلُّ على أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى، وهذا من رحمة الله وحِكمته، أما كونه من رحمته؛ فلئلَّا يعلق في قلوب المسلمين من هذه الدعاية، وأمَّا كونه من حِكمة الله؛ فلأجْل أن يتبيَّن الأمرُ كما هو، حتى لا يكون ملتبسًا(٣).

١٠- **قوله:** ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: تذييل حسنٌ ومناسبٌ لقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّه لَمَّا عزَّ فقد حقَّ لعزه أن يُعزَّ أولياءَه، ولَمَّا كان حكيمًا؛ فقد أتْقن صُنع هذا الرفع، فجعله فِتنةً للكافرين، وتبصرةً للمؤمنين(٤)، وفيه مناسبة حسنة في ختْم الآية بهذَينِ الاسمينِ الكريمين؛ وَجهُها أنَّ هؤلاءِ اليهود جاؤوا مغالبين يُريدون أن يقتُلوا رسولًا من رسل الله عزَّ وجلَّ، فناسب أن يختم الآية بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فالحَكيمُ هنا محمولٌ على معنى الحُكم، وهو أظهرُ مِن حمْله على مَعْنى الحِكمة؛ فإنَّ الحَكيمَ يأتي لهذا وهذا، يعني: هو الحاكِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٤).

عزَّ وجلَّ؛ ولذلك منَعَ هؤلاءِ مِن إفسادِهم وقتْلهم النبيَّ[(١)].

١١- **قوله:** ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ...﴾:

- فيه: تنكير (ظلم) للتعظيم[(٢)].

- وتقديم السَّبب (الظُّلم) على المسبَّب (تحريم الطيِّبات)؛ للتَّنبيه على فُحش الظلم، والتقبيح له، والتحذير منه[(٣)]، وأيضًا هذا التقديم يُفيد الحصر، أي: حرَّم عليهم ذلك بسبب الظُّلمِ لا بسببٍ آخَرَ، وقد أبهم ما حرَّم عليهم هنا; لأنَّ الغرضَ من السياق العبرةُ بكونه عقوبةً، لا بيانُه في نَفْسِه، كما أبهم الظلم الذي كان سببًا له; ليعلمَ القارئ والسامع أنَّ أيَّ نوع من الظلم يكون سببًا للعقاب في الدُّنيا قبل الآخرة[(٤)].

- والإظهار في مقام الإضمار- حيث قال: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، ولم يقل: (فبظُلمهم)-؛ حتى تأتيَ الضمائر متتابعةً من قوله: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم﴾ إلى آخره؛ ولأنَّ في الموصول وصِلته من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ما يَقتضي التنزُّهَ عن الظُّلم، لو كانوا كما وَصَفوا أنفسهم، فصدور الظُّلم عن الذين هادُوا محلُّ استغراب[(٥)].

١٢- **قولُه:** ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ فيه استدراكٌ ناشئ على ما يُوهمه الكلام السابق ابتداءً من قوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من توغُّلهم في الضلالة حتى لا يُرجى لأحد منهم خيرٌ وصلاحٌ، فاستدرك بأنَّ الراسخين في العِلم منهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٦).

ليسوا كما تُوهِّم؛ فهم يؤمنون بالقرآن مِثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه[(١)]، وكان مجيء (لكن) هنا في غايةِ الحُسن؛ لأنَّها داخلةٌ بين نَقيضينِ وجَزائهما، وهم الكافِرون والعذابُ الأليم، والمؤمنونَ والأجرُ العظيم[(٢)].

١٣- **قوله:** ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فيه ذكر الخَاصِّ بعد العامِّ، فإنَّ الإيمان بهذا داخلٌ في قولِه قبلَه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ وذلك لأهميَّته؛ فإنَّ مدارَ الإيمان كلِّه على الإيمانِ بالله؛ لأنَّا نؤمن بأنَّ الرُّسل رسل الله، وأنَّ الكتب كتب الله، وأنَّ الملائكة عباد الله، وهلمَّ جرًّا، فالركيزةُ الأولى هي الإيمان بالله عزَّ وجل، وما بعدَه يُعدُّ فروعًا أو جِهاتٍ متعدِّدةً من الإيمان بالله[(٣)].

١٤- **قوله:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- فيه: بيان علوِّ مرتبةِ هؤلاء المتَّصفين بهذه الصفات، يُؤخَذ ذلك من الإشارة إليهم بإشارة البعيد، ولم يقل: (هؤلاء)، ولم يقل: (فإننا سنؤتيهم)، بل قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والإشارة إلى المشار إليه بالبُعد تدلُّ على علوِّ مرتبته، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] مع أنَّه بين أيدينا، لكن لعلوِّ مرتبته أُشير إليه بإشارة البَعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾[(٤)].

- تنكير ﴿أَجْرًا﴾، ووصفه بـ﴿عَظِيمًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أجرٌ عظيم لا تُتصوَّر عظمتُه[(٥)].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧٦).

الآيات (١٦٢ - ١٦٦)

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ
إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ
وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ
نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا
يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ
بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ ﴾.

غريب الكلمات:

﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: جمْع سِبْط، وهم ذُرِّيَّةُ يعقوبَ عليه السلام، وهم اثْنَا عشر سبطًا مِن اثْنَي عشر ولدًا ليعقوبَ عليه السلام، وسُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان مِن كلِّ واحد منهم سِبطٌ، أي: أمَّة عظيمة، والسِّبطُ بمنزلةِ القبيلةِ، والسِّبط: الجماعةُ يَرجعون إلى أَبٍ واحدٍ، وأصلُ السِّبط: امتدادُ شيءٍ، وقيل: أصلُ السِّبْطِ شَجرةٌ ملتفَّةٌ كثيرةُ الأغصانِ؛ وسُمُّوا الأسباطَ؛ لكثرتِهم، فكما أنَّ الأغصانَ مِن شجرةٍ واحدةٍ، كذلك الأسباطُ كانوا مِن يَعقوبَ عليه السلام(١).

﴿زَبُورٗا﴾: الزَّبور هو الكِتابُ المنزَّلُ على داود عليه السَّلام، والزَّبور يُطلَقُ على كلِّ كتابٍ ذي حِكمة، من الزَّبر، وهو الكِتابة والقِراءة؛ فأصل (زبر): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وتوثيقِه، وعلى قِراءةٍ وكتابةٍ وما أشْبَهَ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٩٧- ٢٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، = = ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة

﴿حُجَّةٌ﴾: دَلالة مبيِّنة للمَحجَّة، وبُرهان وسُلطان[1].

مشكل الإعراب:

١- **قوله:** ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾:

﴿رُسُلًا﴾: قِراءة الجُمهور بالنَّصب في الموضِعين، وفي نصْبه ثلاثة أوجه: الأوَّل: أنَّه منصوبٌ على الاشتغال، أي: بِفِعل محذوفٍ، تقديرُه: وقَصصنا رُسلًا، على حَذْف مضاف، أي: قصصنا أخبارَهم، فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ -ومثله ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾- لا محلَّ له؛ لأنَّه مفسِّرٌ لذلك العاملِ المضمَر (قصصنا). الثَّاني: أنه منصوبٌ عطفًا على معنى الآية قبلها ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾، أي: أَرسَلنا ونبَّأْنا نوحًا ورُسُلًا. الثالث: أنَّه منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ به لفِعل محذوف، والتقدير: (وأَرْسَلْنا رسلًا)، وعلى الوجهين الأخيرين فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ - ومثله ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾ - في محلِّ نصب؛ لأنَّه صِفةٌ لـ ﴿رُسُلًا﴾[2].

٢- **قوله:** ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

﴿رُّسُلًا﴾: منصوبٌ على أنَّه بَدَلٌ من قولِه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ في قِراءة النَّصب. أو مَنصوبٌ على القَطع المراد منه المدحُ، وتقديرُه: أعني - أو أمدح - رُسلًا. وقيل: منصوبٌ على الحالِ الموطِّئة[3]، وقيل: منصوبٌ على أنَّه

الأريب)) لابن الجوزي (١ / ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٥٩-١٦٠)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٦).

(٣) معنى الحال الموطِّئة، أنَّها ليستْ مقصودةً، إنَّما المقصودُ صِفتُها، مِثل: (مررت بزيدٍ رجلاً صالحًا)، فـ (رجلًا) حالٌ وليستْ مقصودةً، إنَّما المقصودُ وَصْفُها. يُنظر: ((الدر المصون))

مفعولٌ به لفِعل محذوف، أي: أَرْسَلْنا رسلًا[1].

المعنى الإجمالي:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، بأنَّه أَوْحى إليه مِثلَ ما أوحى إلى نوحٍ والأنبياء مِن بعدِه، وأوحى اللهُ إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ، وعيسى، وأيُّوب ويُونسَ، وهارون وسُليمان، عليهم جميعًا السَّلام، وأعطى سبحانه وتعالى داودَ عليه السَّلام كتابًا اسمُه الزَّبور.

وأخبره تعالى أنَّه أَوْحى إلى رُسلٍ قد قص عليه نبأهم في القرآن قبلَ أن تنزلَ هذه الآية، وأنَّ هناك رسلًا غيرَهم قد أَوْحى الله إليهم، لكن لم يقصصْ عليه أخبارَهم في كتابِه، وقد كَلَّم الله موسى تكليمًا بدون واسطةٍ.

هؤلاء الرُّسل أرسلهم اللهُ إلى عِباده مبشِّرين لأهل الطاعة بسعادة الدَّارين، ومنذرين للعصاةِ والمكذِّبين بالشَّقاء في الدُّنيا والآخرة؛ وذلك حتى لا يكونَ للناس أيُّ عُذرٍ يحتجُّون به بعدَ إرسال الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا.

ثم يقول الله لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: إنْ يكفُرْ بك يا محمَّدُ مَن كفر، فإنَّ الله يَشهَدُ بما أَنزله عليك من كتاب عظيم، وهو القُرآن الكريم، فإنَّه أَنزله تعالى بعِلمه، والملائكةُ كذلك يَشهدونَ على صِدق ما جِئتَ به؛ فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُ مَن كذَّب، ولا كُفرُ مَن كَفَر، وحَسْبُك بربِّك تعالى شاهدًا على صِدق ما أَتيتَ به.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ

للسمين الحلبي (٤/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦١)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٦).

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا حَكَى الله تعالى أنَّ اليهود سألوا الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء، وذكَر تعالى بعده أنَّهم لا يطلُبون ذلك لأجْل الاسترشاد، ولكن لأجْل العِناد واللِّجاج، وحكى أنواعًا كثيرةً من فضائحهم وقبائحهم، وامتدَّ الكلامُ إلى هذا المقام- شَرَع سبحانه في الجوابِ عن تِلك الشبهة، بأنه لم يكنْ عدمُ إنزالِ الكتابِ على هؤلاء الأنبياءِ المذكورين في الآية دفعةً واحدةً مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ قادحًا في نبوَّتهم، بل كفى في إثبات نبوَّتهم ظهورُ نوعٍ واحدٍ من أنواع المعجزات عليهم، علمنا أنَّ هذه الشبهة زائلةٌ، وأنَّ إصرارَ اليهودِ على طلبِ هذه المعجزةِ باطلٌ(١)، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

أي: إنَّا أعلمناك- يا محمدُ- بشرعِنا، كما أعلمنا أيضًا نوحًا ومَن جاء بعدَه مِن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ(٢).

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (١/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٧-٤٧٨).

قال ابن عاشور: (والتشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ تشبيهٌ بجنسِ الوحي، وإن اختلفت أنواعهُ، فإنَّ الوحيَ إلى النبيء صلَّى الله عليه وسلَّم كان بأنواع من الوحي... بخلاف الوحي إلى غيره ممن سمَّاهم الله تعالى فإنَّه يحتمل بعضًا من الأنواعِ، على أنَّ الوحي للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان منه الكتاب القرآن، ولم يكنْ لبعضِ مَن ذكر معه كتابٌ) ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

لَمَّا ذكَر سبحانه اشتراكَ النبيين في وحيه إليهم، خصَّ بعضَهم بالذِّكر[١]، فقال:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾.

أي: وأعلمنا بشرعنا أيضا كلًّا مِن إبراهيمَ وإسماعيلَ، وإسحاقَ ويعقوبَ والأنبياء من ذرية يعقوب، وعيسى، وأيُّوبَ ويونسَ وهارون وسليمانَ عليهم الصَّلاة والسَّلام[٢].

﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾.

أي: وأَعْطينا داودَ عليه السَّلام كتابًا يُسمَّى بالزَّبور[٣].

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: وأَوْحينا إلى رُسلٍ قد أتَيْنا على ذِكرهم لك في القُرآن من قبلِ نُزولِ هذه الآية[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٧-٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤-٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

أي: وأَوْحينا أيضًا إلى رُسلٍ آخرين لم نَأتِ على ذِكرهم لك في القُرآن(١).

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

أي: وخاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ بكلامِه مُوسى عليه السَّلام دون واسطةٍ، بكلامٍ واضحٍ بحرف وصوت، سِمعه منه مُوسى عليه السلام(٢).

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

أي: أَرسلتُهم رسلًا إلى عِبادي، مبشِّرين مَن أطاعني، وآمَن برُسلي بالسَّعادةِ الدنيويَّة والأُخرويَّة، ومُحذِّرين مَن عصاني وكذَّب رُسلي بشقاوةِ الدَّارين(٣).

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: لئلَّا يَبقَى لمعتذرٍ عُذرٌ؛ فلا يحتجُّ مَن كفر بالله تعالى، وضلَّ عن سبيله بأنَّ الرِّسالة لم تبلغْه(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٢-٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٣-٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٤).

إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((ولا أَحدَ أحبُّ إليه العذرُ من اللهِ؛ ومن أجلِ ذلك بعَثَ المبشِّرين والمنذرين...))[١].

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((وليسَ أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من اللهِ؛ مِن أجْلِ ذلك أَنزلَ الكتابَ، وأرسل الرُّسلَ))[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى ذُو عزَّة، ومِن عِزَّته: قَهرُه وانتقامُه ممَّن كفَر به وعصاه بَعدَ بلوغِ رِسالتَه إليه، وهو ذو حِكمةٍ سبحانه، فيَضع كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائق به، ومِن حِكمته عزَّ وجلَّ: أنْ أَرْسل إلى عِبادِه الرُّسلَ، وأنزل عليهم الكتُبَ[٣].

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّه أَوْحى إلى رسوله محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، كما أَوْحى إلى إخوانِه من المُرسَلين عليهم السَّلام- أخبَرَ هنا بشهادتِه تعالى على

(١) رواه البخاري (٧٤١٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٩).
(٢) رواه مسلم (٢٧٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

رِسالتِه، وصِحَّة ما جاء به[١]، فقال:

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾.

أي: وإنْ كفَرَ بك مَن كفر يا محمَّد، فالله تعالى يَشهَدُ لك بأنَّه أَنزل عليك القرآنَ العظيم[٢].

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾.

أي: إنَّ إنزالَ الله تعالى للقرآنِ صادرٌ عن عِلم؛ فيعلم بماذا نزَلَ وكَيف نزَل، وعلى مَن نزَل، ويعلم حالةَ الذي أَنزله عليه، وكذلك نزَلَ القرآنُ مشتملًا على عُلومٍ إلهيَّة، وأحكامٍ شرعيَّة، وأخبارٍ غَيبيَّة، ممَّا هو مِن عِلم الله تعالى الذي أراد أن يُطلع العِبادَ عليه[٣].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾.

أي: ويَشهد لك بصِدقِ رِسالتك، وصِحَّة ما أُنزل عليك، ملائكةُ الله جلَّ وعلا؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُ مَن كذَّبك[٤].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أي: وحَسْبُك بالله شاهدًا على صِدقك دون مَن سواه مِن خَلْقِه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٨).

الفوائِد التربويَّة:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ...﴾، فكلُّ محسنٍ له من الثَّناء الحسَن بين الأنام بحسَبِ إحسانِه، والرسل- خصوصًا المسمَّون في هذه الآية- في المرتبةِ العُليا من الإحسان(١).

٢- قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ الدَّاعي إلى الله أن يُعامِل الناسَ بما كانتْ تُعامِلُ به الرُّسلُ أقوامَها؛ فتارةً يُبشِّر، وتارةً يُنذر؛ لأنَّه إنْ سلك سبيلَ البشارة دائمًا أدخلَ الناسَ في الإرجاء، وإنْ سلَك سبيلَ الإنذار دائمًا أَدْخل الناس في القُنوط واليأس(٢).

٣- بيانُ رَحمةِ الله تعالى بعِباده؛ حيث أَرْسل إليهم الرُّسلَ يُعلِّمونهم ويُرشدونهم، ويَهدونهم إلى دِين الله، ولولا الرحمةُ ما أَرسلَ إليهم، قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾(٣).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- في ذِكر هؤلاء الرُّسل وتَعدادهم من التنويه بِهم، والثناء الصَّادق عليهم، وشَرْح أحوالهم ما يزدادُ به المؤمنُ إيمانًا بهم، ومحبَّةً لهم، واقتداءً بهَدْيهم، واستنانًا بسُنَّتهم، ومعرفةً بحقوقهم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾(٤).

٢- خَصَّ بعضَ النبيِّين الذين جاؤوا من بعد نوح بالذِّكر؛ لشهرتِهم، وعلوِّ مقامِهم عند أهل الكتاب، فقال: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٤).

وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾[(١)].

٣- أنَّ أوَّل الرُّسُل نوحٌ عليه السَّلام؛ لقوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهذا هو الحقُّ، وليس قَبلَه رسول، أمَّا النبوَّة فكانتْ قبل نوح؛ فإنَّ آدمَ عليه الصلاة والسَّلام كان نبيًّا[(٢)].

٤- بدأ اللهُ تعالى بذِكر نوحٍ؛ لأنَّه أقدمُ نبيٍّ مُرسَل ذُكر في كتُب أهلِ الكِتاب، وإنَّما تنهض الحُجَّةُ على الناس إذا كانت مُقدِّماتها معروفةً عندهم[(٣)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ... وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ عُطفت جملة ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ على ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ولم يُعطف اسم داود على بقيَّة الأسماء المذكورة قبله؛ للإيماءِ إلى أنَّ الزبور مُوحًى بأنْ يكون كتابًا[(٤)]، كسائرِ الكتبِ المنزلةِ.

٦- ما أَخْبَرَ اللهُ به في كتابِه من تكليمِ موسى وسَمْعِ موسى لكلامِ اللهِ؛ يدلُّ على أنَّه كَلَّمَه بصوتٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال في كتابِه عن موسى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ففرَّق بينَ إيحائِه إلى سائرِ النبيِّين وبينَ تكليمِه لموسى؛ فلو كان تكليمُه لموسى إلهامًا أَلْهَمَه موسى من غيرِ أن يَسمَعَ صوتًا، لم يكُن فرقٌ بينَ الإيحاءِ إلى غيره والتَّكليمِ له[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣٥).
(٥) ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣١-٥٣٢).

٧- إثباتُ التعليل لأحكام الله القدريَّة، كما هو ثابتٌ في الأحكام الشرعيَّة، ويُؤخذ من لام التَّعليل في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهذا ثابتٌ بأدلَّة كثيرة، أوصلها بعضُهم إلى ألف دليلٍ على أنَّ أفعال الله وأحكامه مُعلَّلة، ولو لم يكُن مِن ذلك إلَّا اسم الله (الحكيم)، لكان هذا كافيًا؛ فكلُّ ما فَعَله فلِحِكمة، وكل ما شرَعه فلِحِكمة[١].

٨- أنَّ الله تعالى يحبُّ الإعذارَ من الناس؛ لأنَّه أرسل الرسل؛ قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾[٢].

٩- الآية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ مُطلقَة، والمتبادر منها أنَّ مِن حِكمة إرسال الرُّسل قَطْعَ حُجَّة الناس، واعتذارهم بالجهل، عندما يُحاسبهم الله تعالى في الآخِرة، ويَقضي بعذابهم، ومفهومُه ومفهومُ سائرِ الآيات: أنَّه لولا إرسالُ الرُّسل، لكان للناس أن يحتجُّوا في الآخِرة على عذابها، وعلى عذاب الدنيا الذي كان أصابَهم بظُلمهم. واستدلَّ بها كثيرٌ من العلماء على امتناع مؤاخذةِ الله الناس وتعذيبهم على تَرْكِ الهداية التي لا تُعرَف إلَّا من الرُّسلِ عليهم السَّلام، ويستدلُّون بآيةِ الإسراء ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥] على نجاةِ أهلِ الفَترة وكلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوة[٣].

١٠- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾ العُذر بالجَهل حتى في أصول الدِّين؛ لأنَّ الرسلَ يأتون بالأصول والفروع، فإذا كان الإنسانُ جاهلًا لم يأتِه رسولٌ، فله حُجَّةٌ على الله، ولا يمكن أن تثبُتَ الحُجَّةُ على الله إلَّا إذا كان معذورًا، لكن العذر بالجهل ليس على إطلاقِه من كلِّ وجهٍ، فيُشترط

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٠).

عدمُ التَّفريط في التعلُّم، فإنْ كان مفرِّطًا فلا عذر[١].

١١- إثبات الشَّهادة لله، من قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وهو سبحانه وتعالى شاهدٌ على كلِّ أعمال الخلق، وعلى كلِّ ما يَحدُث في السَّماء والأرض[٢].

١٢- يُستفادُ من قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أنَّ إنزال الله للقرآن كان بعِلمِه، فلا يتطرَّق إليه أيُّ خلل؛ لأنَّه يعلم متى نزل، وبماذا نزل، وكيف نزل، وعلى مَن نزل، ولا يمكن أن يتطرَّق اختلافٌ أو ادِّعاءُ نقْص أو ادِّعاء زيادة؛ لأنَّ الله أنزله بعِلمه؛ أي: أن إنزاله مقرونٌ بعلم الله، فمَن ادَّعى أنَّ فيه زيادةً أو نقصًا، فقد رمى الله تعالى بالجهل؛ لأنَّ الله أنزله بعِلمه سبحانه، وكذلك نزَل القرآنُ بما يعلم الله تعالى أنَّه مُصلِحٌ للخلق[٣].

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أنَّ الملائكة ذاتُ عقول، فهي تعلمُ، وتسمع، وتقول، خلافًا لِمَن قال: إنَّهم لا عقولَ لهم[٤].

١٤- في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ عنايةُ الله سبحانه وتعالى برسولِه، وبما أوحاه إليه؛ حيث ذكَر أنَّ الله يشهد به، وكذلك الملائكة، وكثرةُ سِياق الأدلَّة على الشيء تدلُّ على العناية به، وهو كذلك[٥].

١٥- قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ الأمورُ العظيمة لا يُستشهد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليها إلَّا الخواصُّ، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وكفى بالله شهيدًا[١].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فيه التأكيد بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بهذا الخبر، أو لتنزيل المردود عليهم منزلةَ مَن يُنكر كيفيةَ الوحي للرُّسل[٢].

٢- **قوله:** ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ فيه: تشبيهٌ بجِنس الوحي، وإنِ اختلفتْ أنواعه؛ فإنَّ الوحي إلى محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان بأنواع من الوحي، ورد بيانُها في حديثِ عائشةَ في الصحيحِ عن سؤالِ الحارثِ بنِ هشامٍ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: كيف يأتيك الوحي[٣]؟ بخلاف الوحي إلى غيره ممَّن سماهم الله تعالى؛ فإنَّه يحتمل بعضًا من الأنواع، على أنَّ الوحي لمحمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان منه الكتابُ (القرآن) ولم يكن لبعضِ مَن ذُكِر معه كتاب[٤].

٣- **قوله:** ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾:

غيَّر الأسلوب: فعدَل عن العَطفِ إلى ذِكر فِعْلٍ آخَر- حيث لم يقل: (وإلى موسى)، أي: وأَوْحينا إلى موسى-؛ لأنَّ لهذا النوعِ من الوحي مزيدَ أهميَّة[٥].

و﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكِّد لفِعله، والتوكيد بالمصدر يَرجِع إلى تأكيد النِّسبة وتحقيقها، مِثل (قد) و(إن)، وقد أكَّد هنا بالمصدر؛ دَلالةً على وقوع الفِعل على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

(٣) رواه البخاري (٢)، ومسلم (٢٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٥).

حقيقتِه لا على مجازِه؛ فمعنى قوله: ﴿تَكْلِيمًا﴾ هنا: أنَّ الله تعالى كلَّم موسى كلامًا حقيقيًّا، بحيث لا يحتمل أنَّ الله أرسل إليه جبريلَ بكلام، أو أَوْحى إليه في نفْسِه(١). والقاعدةُ: أنَّ التوكيدَ بالمصدرِ يَنفي احتمالَ المجازِ، ويَرْفَعُ تَوهُّمَه(٢).

٤- **قولُه تعالى:** ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

لَمَّا كان المرادُ استغراقَ النَّفي لجميع الزمان المتعقَّب للإرسال، أسقط الجارَّ، فقال: ﴿بَعْدَ﴾ ولم يقل: (مِنْ بَعْد)، أي: انتفى ذلك انتفاءً مستغرقًا لجميعِ الزَّمان الذي يوجد بعد إرسالِ الرُّسل، وتبليغهم للناس(٣).

وفيه: إظهارٌ في مقام الإضمار في **قوله:** ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ -حيث لم يقُلْ: (بعدهم)-؛ للاهتمام بهذه القضية، وللدلالة على استقلالها في الدَّلالة على معناها؛ حتى تسير مسرَى الأمثالِ(٤).

٥- **قوله:** ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ فيه: استدراك عن مفهوم ما قبله؛ لأنَّ ما تقدَّم من قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ مسوقٌ مساق بيان تعنُّتِهم ومكابرتهم عن أن يشهدوا بصِدق الرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وصِحَّة نِسبة القرآن إلى الله تعالى؛ فكان هذا المعنى يستلزمُ أنَّهم يأبون من الشهادة بصِدق الرسول، وأنَّ ذلك يُحزن الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فجاء الاستدراكُ بقوله: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾، أي: لم يشهدْ أهلُ الكتاب، لكن اللهُ شَهِدَ، وشهادةُ الله خيرٌ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسَّبت (١/ ٢٥٣)، وينظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٣).

شهادتهم[١].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٤).

الآيات (١٦٧ - ١٧٠)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿وَصَدُّواْ﴾: أَعْرَضوا وعدَلوا، ويُطلق الصدُّ أيضًا على الانصرافِ عن الشَّيءِ، والامتناع عنه، وأصْل (صد): الصَّرْف والمنْع[١].

مشكلُ الإعراب:

قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾

﴿خَيْرًا﴾: منصوبٌ على أنَّه خبَرُ (كان) المحذوفةِ مع اسمِها، والتقديرُ: فآمِنُوا يَكُنِ الإيمانُ خيرًا لَكُم[٢]. أو مَنصوبٌ بِفِعلٍ مَحذوفٍ واجبِ الإضمارِ، تقديرُه: وأْتُوا أو اقْصُدوا خيرًا لكم؛ لأنَّه لَمَّا أمَرَهم بالإيمان؛ فهو يُريدُ إخراجَهم من أمْرٍ، وإدخالَهم فيما هو خيرٌ منه. وقيل: إنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن المصدرِ الذي تَضمَّنه الفِعلُ، والتَّقدير: فآمِنوا حالَ كَونِ الإيمانِ خيرًا. وقيل غير ذلِك[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٢) وقد ردَّ بعضُهم هذا المذهب بأنَّ (كان) لا تُحْذَف مع اسمِها دونَ خبرِها إلاَّ فيما لا بدَّ له منه، وممَّا يُضعِّف ذلك المذهبَ أنَّ (يكن) المقدَّرةَ هنا جوابُ شَرطٍ محذوف؛ فيَصيرُ المحذوفَ الشرطُ وجوابُه، أي: إنَّ التقديرَ: إنْ تُؤمنوا يكنِ الإيمانُ خيرًا، فَحُذِفَ الشرطُ، وهو (إنْ تُؤمِنوا) وجوابُه، وهو (يكُنِ الإيمانُ)، وأُبقِي معمولُ الجواب وهو (خيرًا). ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٣)،

المعنى الإجمالي:

يُخبر تعالى أنَّ الذين كفروا، وأعْرَضوا عن سلوك طريق الحقِّ، ومنعوا غيرَهم من سلوكِه، قد ضلُّوا ضلالًا عظيمًا.

ويخبر أيضًا أنَّ الذين كفروا، وظَلموا أنفسَهم بعدمِ إيمانهم لم يكُن الله ليغفر لهم ذُنوبهم، ولم يكن ليُوفِّقَهم لسلوكِ الطَّريق القويم الذي يُوصل لنعيمه، لكن سيَهديهم إلى سلوك طريق الباطِل الموصل لجهنم؛ ليمكثوا فيها أبدًا، وكان هذا الأمرُ على الله هيِّنًا يسيرًا.

ثم خاطَب الله تعالى جميعَ الناس، قائلًا لهم: إنَّ ما أتاهم به رسولُ الله محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو الحقُّ من عنده جلَّ وعلا؛ فلْيُؤمنوا به؛ فهذا خيرٌ لهم في الدارين، فإنْ أَبَوْا وكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنهم، فهو الذي يملكُ جميعَ ما في السَّموات والأرض، وكان الله عليمًا حكيمًا.

تفسير الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أخبر سبحانه عن رسالة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، وأخبر برسالة خاتمهم محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وشهِد بها، وشهِدتْ ملائكتُه- لزم من ذلك ثبوتُ الأمر المقرَّر والمشهود به، فوجَب تصديقُهم، والإيمانُ بهم واتِّباعُهم، لذا أتبع ذلك بوصْفِ مَن كفر بهم، وصدَّ عن سبيل الله زجرًا عن مِثل حاله، وتقبيحًا لِمَا أبدى من ضلاله[1]، فقال:

((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٩- ٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الكفَّار الذين أعرضوا عن اتِّباع الحقِّ، وسَعَوْا في منْع الناس من اتِّباعه[١].

﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾.

أي: قد انحرَفوا عن طريق الحقِّ، وبَعُدوا منه بعدًا عظيمًا[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾.

أي: إنَّ الكفَّارَ الظالمين لأنفسِهم بالكُفر، وبالصدِّ عن سبيلِه، ومخالفةِ أوامرِه، وارتِكابِ نواهيه[٣].

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾.

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليسترَ عليهم ذُنوبَهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بها[٤].

﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾.

أي: ولم يكُنِ الله تعالى ليوفِّقَهم لسلوك طريق الحقِّ الذي يَصِلُون به إلى الجنة[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٥-٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٤-٤٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي))

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩﴾.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: لكنَّ اللهَ تعالى يَهديهم لسلوك طريق الباطِل، الذي يَصِلون به إلى جهنَّمَ، فيمكثون فيها بلا نهايةٍ(١).

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: إنَّ تخليدَ هؤلاء الكفَّار في جهنَّمَ أمرٌ هيِّنٌ على الله تعالى، الذي لا يَصعُب عليه شيءٌ سبحانه(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أجاب عن شُبهة اليهودِ على الوجوه الكثيرة، وبيَّن فسادَ طريقتهم، ذكَر خطابًا عامًّا يعمُّهم، ويعمُّ غيرَهم في الدعوة إلى دِين محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام(٣)، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: يَا أيُّها الناسُ إنَّ ما أتاكم به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ من الله تعالى فهو حقٌّ، وبَعْثَته عليه الصَّلاة والسَّلام حقٌّ(٤).

(ص: ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٦-٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين-

﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾.

أي: فآمِنوا بما جاءكم به محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ واتَّبعوه، فإنَّ الإيمان به خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرة من الكُفر به(١).

كما قال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وإنْ كفرتُم بالرسول صلَّى الله عليه وسلَّمَ وبما جاء به، فاعْلَموا أنَّ الله تعالى غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّر بكُفركم؛ إذ يملك جميعَ ما في السَّموات وما في الأرض(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عليمٌ بما أنتم صائرون إليه من الإيمان أو الكفر، عليمٌ بمَن يستحقُّ الهدايةَ منكم فيَهديه، وبمَن يستحقُّ الضلالة منكم فيُضِلُّه، حكيمٌ في جميع أقواله وأفعالِه وشَرْعه وقدَره، فيضع سبحانه كلَّ شيءٍ في موضعِه اللائق به(٣).

سورة النساء)) (٢/ ٤٩٨-٥٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٦٩٧-٦٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠١).

الفوائِد التربويَّة:

١- الكُفر والظُّلم من شأنهما أن يُخيِّمَا على القلب بغشاوةٍ تمنعُه من وصول الهُدَى إليه، فليحذرْ منهما، يُرشد إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾(١).

٢- وجوبُ الإيمان بالحقِّ ممَّن جاء به؛ لقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ﴾(٢).

٣- في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أنَّ الإيمانَ كلَّه خيرٌ؛ خيرٌ في الدنيا، وخيرٌ في الآخرة، فالإيمان خيرٌ للمؤمنين في أبدانهم، وقلوبِهم وأرواحهم؛ وذلك لِمَا يَترتَّب عليه من المصالح والفوائد؛ فكلُّ ثوابٍ عاجِلٍ وآجِل فمِن ثمرات الإيمان، فالنَّصر والهُدى، والعلم والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجَنَّة وما اشتملَتْ عليه من النَّعيم، كلُّ ذلك مُسبَّب عن الإيمان، حتى في المعيشة وإنْ كانت ضنكًا، فهي عند المؤمن خيرٌ(٣).

٤- في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ نادى الله تعالى جميعَ الناس في سِياق خِطاب أهل الكتاب؛ لأنَّ الحُجَّة إذا قامت عليهم بشهادة الله تعالى بنبوَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ووجَب عليهم الإيمانُ به، فبالأَوْلى تقومُ على غيرهم ممَّن ليس لهم كتابٌ ككتابهم(٤).

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- أنَّ مَن آمن واستقام على سبيل الله، ودعا الناسَ إليه فهو على الهُدَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٣)..

(٤) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٥).

ويُعرف ذلك من المقابِل والضدِّ؛ فإنَّه إذا ثبَت الحُكم لشيءٍ ثبَتَ نقيضُه لضده؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾[1].

٢- إثبات الأفعال الاختياريَّة لله عزَّ وجلَّ؛ يعني: أنَّه يفعل ما يشاءُ بإرادته متى شاء؛ لقوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، والمغفرة فِعلٌ اختياريٌّ، وهذا الذي عليه السَّلَفُ الصالح أهلُ السُّنة والجماعة[2].

٣- إثبات الخلودِ الأبديِّ؛ لقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، والخلودُ الأبديُّ يتضمَّن أبديَّةَ المكان الذي يكون فيه الخلودُ، وعلى هذا يكونُ في الآية دليلٌ واضحٌ على أبديَّة الخلود في النَّار[3].

٤- عمومُ رِسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لجميعِ الناس؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[4].

٥- إلزامُ قَبول ما جاء به الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عقلًا، كما هو لازمٌ شرعًا؛ ووجه ذلك قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾، فإذا كان من ربِّنا، وهو مالكُنا وخالقُنا والمتصرِّف فينا كيف يشاء، وجب علينا قَبولُه[5].

٦- أنَّ ما جاء به الرسولُ عليه الصَّلاة والسَّلام هو الحقُّ، ولا يصحُّ أن يُقال: كلُّ ما يُنسب للرسول حقٌّ، بل كلُّ ما جاء به؛ لأنَّ هناك أحاديثَ ضعيفةً، وأحاديثَ موضوعة[6].

٧- إثبات الربوبيَّة العامَّة؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بالإضافة إلى قوله: ﴿مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٠٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

رَّبِّكُمْ ﴾، وربوبيَّة الله سبحانه وتعالى عامَّة وخاصَّة؛ فالعامة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، والخاصة كقوله: ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النساء: ٦٥]، والأمثلة على هذا كثيرة[١].

٨- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يفيد أنَّ إرسالَ الرُّسل من مقتضى الربوبيَّة؛ لأنَّه تصرُّفٌ في الخَلق، وفِعل من أفعال الله، وكلُّ ما كان كذلك فهو داخلٌ تحت مضمون الربوبيَّة[٢].

٩- قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا من إقامة العِلَّة مقام المعلول؛ إذ المراد: أنَّ الله تعالى له الغِنى المطلَق، فإنْ تستمرُّوا على كُفرانكم، يكُنْ الكفران شرًّا لكم، ولا يضرُّه تعالى من ذلك شيءٌ[٣].

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه -على جَعْلِ الفِعل (صَدَّ) متعدِّيًا- إِيجازٌ بالحذف، حيث حذفَ المفعول، وتقديره: (الناسَ)، أي: وصدُّوا الناسَ عن سبيل الله؛ لقصد التَّكثير[٤].

٢- **قوله:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ ...﴾ بيان لجملة ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ لأنَّ السامع يترقب معرفة جزاء هذا الضلال؛ فبينته هذه الجملة[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

وإعادة الموصول وصِلته في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون أن يذكر ضميرهم؛ لتبنى عليه صلة (وظلموا)، ولأنَّ في تكرير الصلة تنديدًا عليهم[١]. وقد يُقصد بـ(الظلم) هنا الشرك، كما هو شائع في استعمال القرآن كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فيكون من عطف الأخصِّ على الأعم في الأنواع[٢].

٣- **قوله**: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾: الإتيان بلام الجحود في (ليغفر) أبلغُ من الإتيان بالفعل المجرَّد عنها؛ فالجملةُ التي على صيغةِ جحودٍ تقتضي تحقيقَ النفيِ[٣].

٤- قوله: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ فيه: استثناء[٤] لتأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه؛ لأنَّ الكلام مسوق للإنذار، والاستثناء فيه رائحةُ إطماعٍ، ثم إذا سِمع المستثنى تبيَّن أنَّه من قبيلِ الإنذارِ[٥].

وفيه: تهكُّم؛ لأنَّه استثنى من الطَّريق المعمول لـ(يهديهم)، وليس الإقحامُ بهم في طريقِ جهنَّمَ بهدًى؛ لأنَّ الهدى هو إرشادُ الضالِّ إلى المكانِ المحبوبِ؛ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإقحام بهم في طريق النار ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾؛ إذ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٧).

(٤) الاستثناء: هو المذكور في كتب النحو، وهو: إخراج (بإلاَّ) أو إحدى أخواتها تحقيقًا أو تقديرًا من مذكور أو متروك، والمراد بالمخرج تحقيقًا: المتصل، كقام القوم إلا زيدًا، وبالمخرج تقديرًا: المنقطع، نحو: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾؛ فإنَّ الظنَّ وإن لم يدخل في العلم تحقيقًا؛ فهو في تقدير الداخل فيه؛ إذ هو مستحضر بذكر العلم؛ لكثرة قيامه مقامه، فهو مُخرَج منه تقديرًا، وبالمذكور التام كهذين المثالين، وبالمتروك المفرغ نحو: ما ضربت إلا زيدًا. وشرط كونه من البديع: أن يتضمَّن ضربًا من المحاسن زائدًا على ما يدلُّ عليه المعنى اللغوي. يُنظر: ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لصدر الدين المدني (١/ ١٩١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨).

هم عبيدُه يصرفُهم إلى حيثُ يشاء، ولأنَّه لا يُعجزُه شيءٌ سبحانه وتعالى(١).

٥- **قوله:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾: فيه: توجيهُ الخِطابِ إلى النَّاس جميعًا؛ ليكون تذييلًا وتأكيدًا لِمَا سبقه؛ إذ قد تهيَّأ من القوارع السالفة ما قامت به الحجةُ، واتَّسعت المحجةُ، فكان المقامُ للأمرِ باتِّباعِ الرسولِ والإيمانِ(٢).

٦- **قوله:** ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾:

فيه تعدية الفِعل إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿جَآءَكُمُ﴾ ترغيبًا لهم في الإيمان؛ لأنَّ الذي يجيء مهتمًّا بناسٍ يكون حقًّا عليهم أنْ يتَّبعوه، وأيضًا في طريقِ الإضافةِ من قوله: ﴿رَّبِّكُمْ ﴾ ترغيبٌ ثانٍ؛ لِمَا تدلُّ عليه من اختصاصهم بهذا الدِّين، الذي هو آتٍ مِن ربِّـهم(٣).

- وإيرادهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام بعنوان الرِّسالة ﴿ٱلرَّسُولُ ﴾؛ لتأكيدِ وجوبِ طاعتِه، والتعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطبين (رَبِّكم)؛ للإيذان بأنَّ ذلك لتربيتِهم وتبليغِهم إلى كمالِهم اللائقِ بهم؛ ترغيبًا لهم في الامتثالِ بما بعدَه مِن الأمرِ(٤).

- وذَكر ﴿ٱلرَّسُولُ ﴾ هاهنا مُعرَّفًا بـ (ال) وهي للعهد الذهني؛ لأنَّ أهل الكتاب قد بُشِّروا به، وكانوا ينتظرون بَعثتَه(٥).

٧- **قوله:** ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾:

- فيه: تعريضٌ بالمخاطَبين، أي: إنَّ كفرَكم لا يُفلتُكم من عِقابه؛ لأنَّكم

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٨-٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٥).

عبيدُه؛ لأنَّ له ما في السَّموات وما في الأرض[(١)].

- ولم يُؤكَّد بتكرير (ما)، وإنْ كان الخطابُ مع المضطربين؛ لأنَّ قيامَ الأدلَّة أوصل إلى حدٍّ من الوضوحِ بشهادةِ الله ما لا مَزيدَ عليه[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٨).

الآيات (١٧١ - ١٧٥)

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا
ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن
يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن
يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ
عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ
وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا
﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ
إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾.

غريبُ الكلمات:

﴿لَا تَغۡلُواْ﴾: لا تُجاوزوا الحدَّ، وترتفِعوا عن الحقِّ، أو لا تَزيدوا ولا تُفرِطوا فيه، وأصل الغُلوِّ: الإفراط ومجاوزة الحدِّ، والزِّيادة(١).

﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: أمَر بها، أو أَعْلَمَ بها، وأصْلُ الإلقاء: طرْح الشيءِ حيث تَلْقاه(٢).

﴿يَسۡتَنكِفَ﴾: يَأنَف، مِن: نكف الدَّمعَ، إذا مَسَحه عن خدِّه بإصبعيه، أنفةً

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٢٥).

من أن يُرى أثَرُ البكاء عليه، وأصلُ (نكف): يدلُّ على قطْعِ شيءٍ، وتنحيتِه[١].

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: يَبعثُهم ويَجمُعهم، والحشر: إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحربِ ونحوها، وأصلُ (حشر): السَّوْق، والبَعْث والانبعاث[٢].

﴿وَلِيًّا﴾: أصْل (ولي) يدلُّ على القُرْب، سواء من حيث: المكان، أو النِّسبة، أو الدِّين، أو الصَّداقة، أو النُّصرة، أو الاعتقاد، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٣].

﴿نَصِيرًا﴾: ناصرًا، وعونًا، وأصل (نصر): يدلُّ على إتيان خيرٍ، وإيتائِه[٤].

﴿بُرْهَٰنٌ﴾: حُجَّةٌ ودَلالةٌ واضحة، وأصله: وضوحُ الشَّيء[٥].

﴿وَٱعْتَصَمُواْ﴾: استمَسَكوا، وامتنعوا به، وأصلُ العِصمة: المنْعُ- ومنه يُقال: عَصَمَه الطَّعامُ؛ أي: مَنعَه من الجوع-، والإمساكُ، والملازمةُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢، ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٢٧).

﴿وَفَضۡلٍ﴾: أي: عطاءٍ زائِد؛ فأصلُ الفضل الزِّيادة، وكلُّ عَطيَّة لا تلزم مَن يُعطي، يُقال لها: فضل، والإفضالُ: الإحسانُ[١].

مشكل الإعراب:

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾.

﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ مِن هذا المبتدأِ والخبرِ في محلِّ نصبٍ بالقولِ أي: ولا تقولوا: «آلهتنا ثلاثةٌ» يدلُّ عليه قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وقيل: تقديره: الأقانيمُ ثلاثةٌ أو المعبود ثلاثة، وقيل: تقديرُه: اللهُ ثالثُ ثلاثةٍ، ثم حُذف المضاف، وأقيم المضافُ إليه مُقامه، موافقةَ قوله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾[٢] [المائدة: ٧٣].

قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾[٣]

﴿خَيۡرٗا﴾ مَنصوبٌ على أنَّه خبرُ (كان) مَحذوفةٍ مع اسمِها، والتقديرُ: انْتَهُوا يَكُنِ الانتهاءُ خيرًا. أو منصوبٌ بِفعلٍ مَحذوفٍ واجبِ الإِضمارِ، تقديرُه: انتُهوا وأْتُوا خيرًا لكم. وقيل غير ذلِك[٤].

المعنى الإجمالي:

يُوجِّه الله تعالى الخِطاب إلى أهل الكتاب بأنْ لَا يُجاوزوا الحقَّ في الدِّين،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢).

(٢) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٦-١٦٧)، ((إعراب القرآن الكريم)) للدعاس (١/ ٢٣٨).

(٣) الكلامُ في إعرابِ هذه الآيةِ مِثل الكلام في إعرابِ قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ وقد تقدَّم.

(٤) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤١١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١٦٤-١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٤٩-٥٠، ٥٨).

فيُفرِطوا في عقيدتهم، وينهاهم عن الافتراء على الله؛ بنِسبة الصاحبة والولد إليه، ويُؤكِّد لهم أنَّ عيسى رسولٌ من رسل الله، خَلَقه بكلمتِه التي ألقاها إلى مريمَ، وليس ابنًا له، كما يعتقدون؛ فليؤمنوا بالله وجميعِ رُسله، ولا يقولوا: إنَّ الآلهة أو الأرباب ثلاثة، ثم أمرهم أن يَنتهوا عن هذه المقولةِ الشَّنيعة، والاعتقادِ الكُفري، فإن انتهاءهم عن ذلك خيرٌ لهم، فما مِن إله إلَّا إلهٌ واحدٌ هو الله تعالى، تنزَّه أن يكون له ولد؛ فإنَّ جميع مَن في السموات والأرض خَلْقُه وعبيده؛ فكيف يكون له منهم الزوجةُ أو الولد؟! وكفَى به سبحانه وتعالى وكيلًا.

ثم بيَّن تعالى أنَّ عيسى بن مريم عليه السلام لن يأنفَ أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكةُ المقرَّبون يأنفون من ذلك، ومَن يأنفْ من عِبادة الله ويمتنع عنها، فإنَّ الله سيحشرهم جميعًا إليه، وسيُعاملهم بما يستحقُّونه؛ فأمَّا مَن آمن وعَمِل الصالحاتِ، فسيؤتيهم اللهُ ثوابَ أعمالهم وافيًا، ويَزيدُهم من فضله الواسع، وأمَّا مَن أَنِف وامتنع وتكبَّر، فسيُعذِّبه الله عذابًا موجعًا، ولن يجدَ مَن يتولَّاه، أو ينصره من دون الله.

ثم وجَّه الله تعالى الخطابَ للناس كافَّةً، أنَّه قد جاءهم منه حُججٌ وأدلَّة قاطِعة تُبيِّن الحقَّ من الباطل، وأنزل إليهم القرآن، نورًا واضحًا يَهتدون به؛ فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، والمعتمدون عليه في كلِّ شؤونهم، فسيُدخلهم الله تعالى في رحمته، ويَزيدُهم من فضله الواسع، وسيدلُّهم ويُوفِّقهم لسلوك الطَّريق القويم، الموصل إلى مَرْضاته.

تفسير الآيات:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن

﴿يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لمَّا دحض الله تعالى شُبهات اليهود، وأقام الحُجَّة عليهم، وقدْ غلَوا في تحقير عيسى عليه السلام وإهانته، والكُفرِ به، ففرَّطوا كلَّ التفريط - قفَّى بدَحْض شُبهات النصارى الذين غلَوا في تعظيمه وتقديسه، فأَفرطوا كلَّ الإفراط[1]، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

أي: يا أهلَ الإنجيل من النَّصارى، لا تتجاوزوا الحقِّ في دِينكم فتُفْرِطُوا فيه؛ فإنَّهم قد تجاوزوا حدَّ التصديق بعيسى عليه السَّلام، حتى رفَعوه عن مقام النبوَّة والرِّسالة إلى مقام الربوبيَّة، الذي لا يَليقُ بغير الله عزَّ وجلَّ[2].

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾.

أي: ولا تَفتروا على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تَجعلوا له صاحبةً وولدًا[3].

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما المسيحُ - أيُّها النصارى الغالُون في دِينهم - ابنٌ لله تعالى، كما تَزْعُمون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

ولكنَّه عيسى ابنُ مريم، لا نَسبَ له غير ذلك، فهو عبدٌ من عباد الله تعالى، وخَلْقٌ من خلْقه، ورسولٌ من رُسله[١].

كما قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وعن عُمرَ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، قال: ((لا تُطْروني[٢]، كما أطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبدُه، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه))[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ رجلًا قالَ: يا مُحمَّدُ، يا سيِّدَنا وابنَ سيِّدِنا، وخَيرَنا وابنَ خيرِنا، فَقالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يا أيُّها الناسُ، عليكُم بقولِكُم، ولا يَستَهْوينَّكمُ[٤] الشَّيطانُ، أَنا مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله، عبدُ اللهِ ورسولُه، واللهِ ما أُحبُّ أنْ ترفعوني فوقَ منزلَتي الَّتي أَنزلَني اللهُ عزَّ وجلَّ))[٥].

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٢) لا تُطرُوني: أي: لا تُجاوزا الحدَّ في مَدْحي، ولا تكذبوا فيه. ينظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٢٣)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٤) يَستَهْوينَّكمُ الشَّيطانُ: يَذهبنَّ بهواكِم وعُقولِكم، أو يُحيِّرنَّكم، أو يُزيِّنن لكم هَواه فيُغويكم ويُضلكم. ينظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٣٢٩).

(٥) رواه أحمد (١٢٥٧٣)، وعبد بن حميد في ((المنتخب)) (١٣٠٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٠٦)، وابن حبان (٦٢٤٠).

صحح إسناده على شرط مسلم، ابن عبد الهادي في ((الصارم المنكي)) (٤٥٩)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١١)، وصحح الحديث الألباني في ((غاية المرام)) (١٢٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (١٣٢)

أي: خَلَقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريلُ عليه السَّلام إلى مريم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

أي: إنَّ عيسى عليه السَّلام رُوحٌ مِن خَلْق الله سبحانه؛ فقد أَرسل اللهُ تعالى جبريلَ عليه السَّلام، فنَفَخ في فَرْج مريمَ عليها السَّلام، فحمَلتْ بإذن الله عزَّ وجلَّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وعن عُبادَةَ بنِ الصَّامت رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((مَن شَهِدَ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجَنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، أَدْخَله اللهُ الجنةَ على ما كان من العملِ))(٣).

وفي روايةٍ: ((أدخله اللهُ مِن أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثَّمانيةِ شاء))(٤).

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٨-٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨-٥٠٩).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨).

(٤) رواه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) واللفظ له.

أي: فآمِنوا بالله تعالى الواحدِ الأحد، الذي لا صاحبةَ له ولا ولدَ، وآمِنوا بِرُسله، وبما جاؤوكم به من عند الله عزَّ وجلَّ[(١)].

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾.

أي: ولا تقولوا: الأربابُ ثلاثةٌ، فتجعلوا عيسى وأمَّه شَريكينِ لله سبحانه وتعالى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ...﴾ الآية [المائدة: ١٧-٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ...﴾ الآية [المائدة: ١١٦].

﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾.

أي: انتَهوا عن قولِ ذلِك واعتقادِه، فإنَّ الانتهاء عن ذلك خيرٌ لكم[(٣)].

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: ما الله سبحانه بثالثِ ثلاثةٍ، ولكن الله تعالى هو المنفردُ بالألوهيَّة، الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١).

لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له؛ فلا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ[١].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾.

أي: تنزَّه وتقدَّس الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عن أن يكونَ له ولدٌ[٢].

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: إنَّ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض مُلكه وخَلقُه وعَبيدُه؛ فكيف يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟![٣].

كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا * لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا * وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾.

أي: وحسْبُ الخلق كلِّهم اللهُ تعالى وحده، فهو القائمُ بشؤون كلِّ شيء، والحافظ لكلِّ شيء والمدبِّر له، فلا يُحتاج معه إلى غيرِه سبحانه؛ من ولدٍ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢).

صاحبةٍ، أو غيرهما[١].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى غلوَّ النصارى في عيسى عليه السَّلام، وذكَر أنَّه عبدُه ورسولُه، ذكر هنا أنَّه لا يستنكفُ عن عبادة ربِّه، لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فنزَّههم عن الاستنكافِ، ونفْيُ الشَّيءِ فيه إثباتُ ضدِّه[٢] فقال:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾.

أي: لن يأنفَ ويمتنعَ عيسى عليه السَّلام عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

أي: ولن يأنفَ ويمتنع أيضًا من الإقرارِ لله تعالى بالعبوديَّة له وحده، ملائكتُه المقرَّبون[٤].

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢، ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٦-٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠).

قال ابنُ عُثَيمين: (قوله: ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ هل هي صفةٌ كاشفة أو صِفة قَيْد؟ الجواب: يحتمل أن تكون صِفة كاشفة؛ لأنَّ الملائكة مقرَّبون إلى الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن تكونَ قيدًا، وعلى هذا الاحتمال يكون الملائكةُ فيهم المقرَّبون، وفيهم مَن ليس بمقرب. فالله أعلم) ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠).

أي: ومَن يأنفْ ويمتنعْ عن عِبادة ربِّه، ويَترفَّعْ عنها ويتعالَ عليها[١].

﴿فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾.

أي: فسيبعثُ الله سبحانه يومَ القيامة المستنكفين والمستكبرين عن عِبادته، فيجمعهم جَمِيعًا عنده، فيفصل بينهم بحُكمه العَدْل[٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: فأمَّا الذين جمَعوا بين الإيمان المأمور به، وعَملِ الأعمال الصالحات من واجباتٍ ومُستحبَّات[٣].

﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾.

أي: فيؤتيهم من الثَّواب على قدْرِ إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، جزاءً وافيًا كاملًا[٤].

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدهم على ما لهم من الأجور والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة، زيادةً من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٨ - ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النساء)) (٢/ ٥٢٠ - ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢١-٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

فضله وإحسانِه، وسَعَةِ كرَمه ورحمتِه سبحانه[١].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾.

أي: وأمَّا الذين أَنِفوا وامتنعوا عن عبادةِ الله تعالى، وترفَّعوا عنها، وتعالَوْا عليها[٢].

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: فسيُعذِّبهم الله تعالى عذابًا موجِعًا لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: ولا يَجِدون أحدًا من الخَلْق يتولَّاهم فيحصُل لهم ما يَطلُبون، ولا مَن يَنصرُهم فيدفعُ عنهم ما يَحذرون[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ١٧٤﴾.

مُناسبةُ الآية لِمَا قبلَها:

لَمَّا أنْ أزاح الله تعالى شُبهَ جميع المخالفين من سائر الفِرَق: اليهود،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٠٩-٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

والنصارى، والمنافقين، وأقام الحُجَّة عليهم، وأقام الأدلَّةَ القاطعة على حَشْر جميع المخلوقات، فثَبَتَ أنَّهم كلَّهم عبيدُه- عمَّ في الإرشاد لطفًا منه بهم[1]، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الناسُ قد جاءتْكم من الله تعالى حُججٌ قاطعةٌ للعُذر، وأدلَّةٌ واضحة مزيلة للشُّبهات، تُبيِّن الحقَّ وضدَّه[2].

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾.

أي: وأنزلْنا إليكم ضياءً واضحًا، هو القرآن الذي أنزله اللهُ تعالى على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، يُبيِّن لكم طريقَ الحقِّ الهادي إلى ما فيه الفوزُ الأبديُّ لكم، والنجاةُ من عذاب الله تعالى إنْ سلكتموها، واستنرتم بضَوئِه[3].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، المعتمدون عليه في جميعِ أمورِهم[4].

﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ﴾.

أي: فسيتغمَّدهم الله تعالى برحمةٍ خاصَّة، فيُوفِّقهم للخيرات، ويَجزل لهم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٢).

المثوبات، ويَدفع عنهم المكروهات، ويُدخلهم الجَنَّة، ويَزيدهم ثوابًا، ورَفعًا في درجاتهم، من فَضْله عليهم، وإحسانه سبحانه إليهم[١].

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

أي: ويُوفِّقهم ويُسدِّدهم لسلوك طريق مَن أنعم الله تعالى عليه من أهل طاعتِه، ولاقتفاء آثارِهم، واتِّباع دِينهم، فيوفِّقهم للعِلم النَّافع، والعمل الصالح[٢].

الفوائِد التربويَّة:

١- أنَّه لا يجوزُ الغلوُّ في الدِّين، سواء ما يتعلَّق بالرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أو بالأعمالِ، يُرشدنا إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، وعلى هذا: فمَن أحبَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أكثرَ من محبَّةِ الله، فهو غالٍ فيه عليه الصلاة والسَّلام، ومَن نَزَّله منزلةَ الربِّ، وزعم أنَّه يتصرَّف في الكون، فهو غالٍ فيه، ومَن زعَم أنَّ غيره ممَّن هو دونه يتصرَّف في الكون، فهو غالٍ فيه، فالغلوُّ هو مجاوزة الحدِّ في كلِّ شيءٍ[٣]، فينبغي الحَذَرُ مِن الغُلوِّ، وتعدِّي الحدودِ، والإسرافِ، ولُزومُ الاقتصادِ والاعتصامِ بالسُّنَّةِ؛ فعليهما مدارُ الدِّين[٤].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ ما يُوجب للإنسان صِدقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٢-٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٢-٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٣). وينظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥١٩)، (تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).

(٤) ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٣١).

الاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، وأن يعتمدَ على الله وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، فمن اعتمد على الله فإنَّ الله كافيه، وهو حسبُه، ومَن كان الله حسْبَه، فقد تمَّ له أمرُه[(١)].

٣- الترهيب من الكِبر؛ يُرشد إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مؤلِمًا، بما وجَدوا من لذاذة الترفُّع والتكبُّر[(٢)].

٤- أنَّ مَن آمَن واعتَصَم بالله، فإنَّه سوف ينالُ الرحمةَ العاجلةَ والآجلة؛ لقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾، والسِّين تدلُّ على القُرب، وأنعمُ الناس بالًا، وأشدُّهم انشراحًا في الصُّدور هم المؤمنون المعتصِمون بالله[(٣)].

٥- في قوله: ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدلُّ على شرف هذا البُرهان وعظمته، حيث كان من ﴿رَّبِّكُمْ﴾ الذي ربَّاكم التربيةَ الدِّينيَّة والدنيويَّة، فمِن تربيته لكم التي يُحمد عليها ويُشكر، أن أوصلَ إليكم البيِّنات؛ ليهديَكم بها إلى الصِّراط المستقيم، والوصول إلى جنَّات النَّعيم[(٤)].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- إذا نهى الله أُمَّةً عن شيءٍ، وقصَّه علينا فهو عِبرةٌ لنا كما في قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[(٥)].

٢- إثبات رِسالة عيسى ابن مريم، وبيان أنَّه لا يستحقُّ من أمر الربوبية شيئًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٢).

وتُؤخَذ من قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾[١].

٣- إطلاق السَّبب على مُسبَّبه، لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾؛ فإنَّ عيسى ليس هو الكلمة نفْسَها، لكنَّه خُلِق بالكلمة، فأُطلق السبب، وأُريد المسبَّب[٢].

٤- أنَّ عيسى عليه الصلاة والسَّلام مِن أشرف عباد الله وأكرمهم عليه؛ لأنَّه أضافه إلى نفْسه، فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، والإضافة للتخصيص والتَّكريم[٣].

٥- قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: أُمِروا بالإيمان بالله مع كونِهم مؤمنين به؛ لأنَّهم لَمَّا وصفوا الله بما لا يَليق فقد أَفسدوا الإيمان، وليكون الأمرُ بالإيمان بالله تمهيدًا للأمر بالإيمان برسله، وهو المقصود[٤].

٦- قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ﴾ (ثلاثة) خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وحُذِف؛ ليصلح لكلِّ ما يصلح تقديرُه من مذاهب النَّصارى من التثليثِ؛ فإنَّ النصارى اضطربوا في حقيقةِ تثليثِ الإلهِ[٥].

٧- الاستطراد بذِكر ما يُشارك الشيءَ، وإن لم يكُن له ذِكر؛ لقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ فإنَّها ذُكرت إلى جانب المسيح؛ لأنَّ مِن الناس مَن يَعبُد الملائكة، ويدَّعي أنهم بناتُ الله[٦].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٣، ٥١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٥٩).
(٦) يُنظر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٤).

٨- قال تعالى: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾ الاستنكاف غيرُ الاستكبار، فالاستنكافُ بالقلب؛ بأنْ يكونَ الإنسان عنده أنفةٌ وكبرياء قلبيَّة عن عبادة الله، والاستكبار أن يدَعَ العبادة، ويستكبر عنها، ويحتقرَها، ويحتقرَ الرسول؛ كقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(١) [الفرقان: ٤١].

٩- الردُّ على الجبريَّة؛ يُؤخذ من قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأضاف العملَ إليهم، والجبريَّة يقولون: إنَّ الإنسان لا يَعمل، ولا يُضاف العملُ إليه إلا مجازًا، وأنَّ عمله ليس باختياره، ولا بقَصدِه(٢).

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ بيان مِنَّة الله عزَّ وجلَّ؛ حيث سمَّى الثواب أجرًا، كأنَّه استأجر أُجراءَ يعملون فيأجرهُم، مع أنَّ فائدةَ العملِ للعامل نفْسِه، بينما الأُجراء في غير المعاملة مع الله يكون العملُ لِمَن دفَع الأجرة، أمَّا هذا فالعمل للإنسان، ومع ذلك يَأجُره الله عزَّ وجلَّ(٣).

١١- أنَّ ثواب الأعمال الصالحة يَزيد على ما قدَّره الله تعالى مِنْ أنَّ الحسنةَ بعشْر أمثالها، لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾(٤).

١٢- أنَّ القرآن الكريم نازلٌ لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ويترتَّب على هذا عمومُ رسالة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٥).

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ أنَّ القرآن الكريم فيه بيانٌ لكلِّ شيء؛ لأنَّ النور لا بدَّ أن تستبينَ به كلُّ الأشياء؛ كالنَّهار إذا طلَع بانتْ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢٩).

الأشياء، وكالحُجرة إذا أُسْرِجَتْ فلا بدَّ أن يَبِينَ منها ما كان خافيًا، فالقرآن تبيانٌ لكلِّ شيء(١).

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ لعلَّ السِّين ذُكرت؛ لتفيدَ مع تحقيق الوعد الحثَّ على المثابرة، والمداومة على العمل؛ إشارةً إلى عِزَّة ما عنده تعالى(٢).

١٥- أنَّ الرحمة تُطلق صفةً من صفات الله، وتُطلق على ما كان مِن آثارِها، وهذه الآيةُ مِن إطلاقِ آثارِ الصِّفة؛ لأنَّه قال: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾(٣).

بلاغة الآيات:

١- **قوله:** ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فيه: تجريدٌ للخطاب، وتخصيص له بالنَّصارى؛ زجرًا لهم عمَّا هم عليه من الكفرِ والضَّلال(٤)، وخُوطبوا بعنوانِ أهلِ الكتابِ تعريضًا بأنَّهم خالفوا كتابَهم(٥).

٢- **قوله:** ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾: فيه عطفُ الخاص ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ - على العامِّ ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ للاهتمام بالنَّهي عن الافتراءِ الشَّنيع(٦).

٣- **قوله:** ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

- هي جملة مبيِّنة للحدِّ الذي كان الغلوُّ عنده؛ فإنَّه مُجمَل، ومبيِّنة للمراد من

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٣٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٥١).

قول الحقِّ، ولكونِها تتنزَّل من التي قبلها منزلةَ البيان فُصِلت عنها من غير عطفٍ بالواو[١]، وأيضًا هي جملة مستأنفة؛ مسوقة لتعليل النَّهي عن القول الباطل المستلزم للأمْر بضدِّه وهو الحقُّ، أي: إنَّه مقصورٌ على رُتبة الرِّسالة، لا يتخطَّاها[٢].

- وفيه قصرُ موصوفٍ على صفة، حيثُ قصر المسيحَ على صِفات ثلاث: صفة الرسالة، وصفة كونه كلمةَ الله أُلقيت إلى مريم، وصفة كونه رُوحًا من عند الله؛ والقصدُ من هذا القصرِ إبطالُ ما أحدثه غلوُّهم في هذه الصفات غلوًّا أخرجها عن كُنهها؛ فإنَّ هذه الصفاتِ ثابتةٌ لعيسى، وهم مُثبِتون لها، فلا يُنكَر عليهم وصفُ عيسى بها؛ فأفاد القصرُ أنَّ عيسى مقصورٌ على صفة الرِّسالة، والكلمة، والرُّوح، لا يتجاوز ذلك إلى ما يُزاد على تلك الصِّفات من كون المسيح ابنًا لله، واتِّحاد الإلهية به، وكون مريمَ صاحبةً[٣].

- وقوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ﴾ فيه: تقديمُ كونه عليه السَّلام رسولَ الله في الذِّكر مع تأخُّره عن كونه كلمته تعالى، ورُوحًا منه في الوجود؛ لتحقيقِ الحقِّ من أوَّل الأمر بما هو نصٌّ فيه، غير محتملٍ للتأويلِ، وتعيين مآلِ ما يَحتمِله، وسدِّ بابِ التأويلِ الزَّائغ[٤].

٤- **قوله:** ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: فيه احتراسٌ؛ حيث أُريد بالرُّسل: جميعهم، أي: لا تكفروا بواحدٍ من رسله، وهذا بمنزلةِ الاحتراسِ عن أن يتوهَّم متوهِّمون أن يُعرضوا عن الإيمان برسالة عيسى عليه السَّلام مبالغةً في نفْي الإلهية عنه[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥١-٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥١-٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).

٥- **قوله:** ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: فيه حصْر بـ(إنَّما)؛ للدلالة على انفرادِ الله تعالى بالألوهيَّة، وأنَّ الله تعالى هو الإلهُ وحْدَه، وقوله: ﴿وَٰحِدٌ﴾ زِيادة تأكيد لذلك الحصرِ[١].

٦- **قوله:** ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه تقديم ما حقُّه التأخير ﴿لَّهُۥ﴾؛ لإفادة الحصر في انفراد الله تعالى وحده بالمُلك[٢].

٧- **قوله:** ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾:

- جملة استئنافية، مقرِّرة لِمَا سبق من التنزيه[٣].

- وفي قوله: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أظهرَ الحرفَ الذي تُقدَّر الإضافة عليه، وهو (اللام) في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾؛ لأنَّ التنكيرَ هنا أظهرُ في العبوديَّة، أي: عبدًا من جُملة العبيد، ولو قال: (عبد الله) لأوهمتِ الإضافة أنَّه العبدُ الخِصِّيص (الأخصُّ مِن الخاصِّ)، أو أنَّ ذلك علَم له[٤].

- وقوله: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فيه: إيجاز بالحذف، حيث إنَّ المراد: (ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدًا لله)[٥].

وفيه: تخصيصُ المقرَّبين لكونِهم أرفعَ الملائكة درجةً، وأعلاهم منزلةً[٦].

٨- قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٥٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٦).
وهذا على القول بأنَّ قوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صفة مقيِّدة للملائكة، وليستْ صفة كاشفة لهم كلِّهم.

فيه: بيان لحال الفريق المطويِّ ذِكرُه في الإجمال (وهو الفريق الذي لم يستنكف)، قُدِّم على بيان حال ما يُقابله؛ إبانةً لفضله، ومسارعةً إلى بيان كون حشْرِه أيضًا معتبرًا في الإجمال، وإيرادُه بعنوان الإيمان والعمل الصالح، لا بوصف عدم الاستنكاف المناسِب لِما قبله وما بعده؛ للتنبيه على أنه المستتبع لِمَا يعقبُه من الثمراتِ[١]. وتقديمُ ثوابِ المؤمنين على عِقاب المستنكفين؛ لأنَّهم إذا رأوا أولًا ثواب المطيعين، ثم شاهدوا بَعدَه عقاب أنفسهم، كان ذلك أعظمَ في الحسرةِ[٢].

٩- **قوله تعالى:** ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ جاء بصيغة الافتعال؛ للدَّلالةِ على الاجتهاد في ذلك؛ لأنَّ النفس داعيةٌ إلى الإهمال المنتِج للضَّلال[٣].

١٠- **قوله:** ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فيه: تقديم ذِكر الوعدِ بإدخال الجَنَّةِ على الوعدِ بالهدايةِ إليه، على خِلاف الترتيب في الوجودِ بين الموعودين؛ للمسارعةِ إلى التبشير بما هو المقصدُ الأصليُّ قبلُ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٥٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٢٦٣).

الآية (١٧٦)

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾.

غريب الكلمات:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: يَسألُونَك عن بيانِ الحُكم، ويَطلُبون الفتوى، والفُتيا والفتوى هي الجوابُ عمَّا يُشكِل من الأحكام، وأصل (فتي): تَبيين حُكم[1].

﴿الْكَلَالَةِ﴾: هو الرَّجُل يموت ولا ولدَ له ولا والدَ، مصدرٌ من تَكلَّله النَّسَب، أي: أحاط به؛ فالابنُ والأبُ طرفانِ للرَّجُل، فإذا مات ولم يُخلِّفْهما، فقد مات عن ذَهاب طَرفَيْه، فسُمِّي كلالةً؛ لذَهاب طرفيه المحيطينِ به[2].

﴿هَلَكَ﴾: ماتَ، وأصل (هَلَكَ): يدلُّ على كَسرٍ وسُقوطٍ؛ ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ[3].

﴿حَظِّ﴾: نصيب مقدَّر، وأصل (حظظ): النَّصِيبُ والجَدُّ[4].

﴿تَضِلُّوا﴾: تَعدِلُوا عن الطريقِ المستقيم، وأصلُ الضلال: خِلافُ الهُدى،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١ / ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ١٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦- ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ١٤)، ((المفردات)) للراغب (١ / ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (١ / ١٣٦).

وضَياعُ الشيءِ، وذَهابُه في غيرِ حقِّه[(١)].

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى لنبيِّه: يَسألُك أصحابك أن تُبيِّن لهم الحُكم الشرعيَّ في توريث الكلالة، وهو مَن مات وليس له ولدٌ ولا والدٌ يرثه، فقل لهم يا محمَّد: إنَّ الله تعالى هو الذي يفتيكم في ذلك؛ إذا مات شخصٌ ولم يترك والدًا، ولا أولادًا- لا مِن الذُّكور ولا الإناث- وترك أختًا شقيقةً أو لأبٍ؛ فإنَّ نَصيبَها من الميراث في هذه الحالة هو النِّصف، فإذا ماتت الأختُ قبلَ أخيها ولم يكُن لها ولدٌ- ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرثانِها ورث مالَها كلَّه ، فإنْ كان معه صاحبُ فرضٍ- كزوجٍ- أَخَذ فَرْضَه، وما بقِي فلأخِيها.

ثم ذكَر صُورتين أُخريين فقال: فإنْ كانتَا أُختين فأَكْثَر، فإنَّ لهما ثُلُثَيْ ما يترُك أخوهما، وإنْ كان الورثةُ لهذا الأخِ المتوفَّى إخوةً، سواء كانوا ذكورًا وإناثًا، فيأخذ الذَّكرُ مثلَ نَصيبِ اثنتين من الأخواتِ، يُبيِّن الله أحكامَه للنَّاس؛ حتى لا يَضلُّوا، والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

تفسير الآية:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

عن البَراءِ رضي اللهُ عنه قال: (آخِرُ سورةٍ نزلَتْ: بَراءةٌ، وآخِرُ آيةٍ نزلَتْ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾)[(٢)].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦) و(٦/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩).
(٢) رواه البخاري (٤٦٠٥).

وعن عُمرَ رضي الله عنهما، قال: ((إنِّي لا أَدَعُ بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلَالَة، ما راجعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في شيءٍ ما راجَعْتُه في الكَلَالَة، وما أَغْلَظَ لي في شيءٍ ما أَغْلَظَ لي فيه، حتى طَعَنَ بإصبعِه في صدري، فقال: يا عمرُ، ألَا تَكْفيك آيةُ الصَّيْفِ التي في آخِرِ سورةِ النِّساء؟ وإنِّي إنْ أَعِشْ أَقْضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القُرآنَ، ومَن لا يقرأُ القرآنَ))[١].

سبب النُّزول:

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه، قال: ((مرضتُ فأتاني رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وأبو بكرٍ يُعوداني ماشيينِ، فأُغمي عليَّ، فتوضَّأ ثم صبَّ عليَّ من وَضوئِه، فأَفقتُ، قلت: يا رسولَ الله، كيف أَقضي في مالي؟ فلمْ يردَّ عليَّ شيئًا حتى نزلتْ آيةُ الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾))[٢].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾.

أي: يَطلُب الصحابةُ منك- يا محمَّدُ- إخبارَهم عن الحُكم الشرعيِّ للكَلالة[٣].

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّد-: الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُخبركم عن حُكم الكَلالة، أي: عمَّن مات وليس له ولدٌ -ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرِثُه[٤].

---

(١) رواه مسلم (٥٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٧٢٣)، ومسلم (١٦١٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٥).

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: وقد رُوي عن عُمرَ رضي الله عنه، أنه قال: (إنِّي لأستحي أن

﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾.

أي: إذا مات إنسانٌ، وليس له ولدٌ- ذكرٌ أو أُنثى- ولا والدٌ، وله أختٌ شقيقةٌ أو لأبٍ، فإنَّها ترِثُ نِصفَ متروكات أخيها؛ مِن نقود وعَقار وأثاثٍ، وغير ذلك[(١)].

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾.

أي: إنَّ الأخَ الشَّقيقَ أو لأبٍ يرِثُ جميعَ ممتلكاتِ أُخته إذا ماتتْ، ولم يكن لها ولدٌ، ولا والد يَرِثها، فإنْ فُرِضَ أنَّ معه مَن له فرض- كزوجٍ، أو أمٍّ، أو أخٍ من أمٍّ-، صُرِفَ إليه فَرْضُه، وصُرِفَ الباقي إلى الأخِ[(٢)].

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أَلْحِقوا الفرائضَ بأهلها، فما بقِيَ فهو لأَوْلى رَجُلٍ ذَكَرٍ))[(٣)].

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

أي: فإنْ كان لِمَن يموت كلالةً، أُختان شقيقتان أو لأبيه، فلهما ثُلُثَا ما ترَك أخوهما، وكذا ما زاد على الأُختين، فله حُكمهما[(٤)].

أُخالِفَ فيه أبا بكر). وكان أبو بكر رضي الله عنه، يقول: هو ما عدَا الولدَ والوالد.

وهذا الذي قاله الصِّدِّيق عليه جمهورُ الصَّحابة والتابعين والأئمَّة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمَّة الأربعة، والفقهاء السبعة، وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدلُّ عليه القرآن، كما أرشد الله أنَّه قد بيَّن ذلك ووضَّحه في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٢-٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٦-٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٧-٥٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (١٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٤-٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾.

أي: وإنْ كان للميِّت إخوةٌ من الذكور والإناث، فنصيبُ الذَّكر منهم من التركة مِثلُ نصيب اثنتين من أَخواتِه، وذلك إذا كان الميِّت يُورَث كلالةً، وكان إخوته وأخواته شقيقات أو لأبيه(١).

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾.

أي: يبيِّن الله تعالى لكم أحكامَه، ومنها قِسمة مواريثكم، وحُكم الكلالة فيها؛ كيلَا تضلُّوا في أمْر المواريث وقِسمتها، فتجوروا عن الحقِّ، وتُخطئوا الصواب(٢).

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بجميع الأشياء، وما فيه المصلحةُ لعِباده، ومن ذلك: قِسمة مواريثِهم، وما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من أقرباء المتوفَّى، ويعلم أيضًا حاجتَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٧).

قال القرطبيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ ...﴾ [النساء: ١٢]: (ذكَر الله عزَّ وجلَّ في كِتابه الكلالة في موضعين: آخِرَ السُّورة، وهنا، ولم يذكر في الموضعين وارثًا غير الإخوة؛ فأمَّا هذه الآية فأجمع العلماءُ على أنَّ الإخوة فيها عنى بها الإخوة للأم، لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾، وكان سعد بن أبي وقَّاص يقرأ: (وله أخٌ أو أخت من أُمِّه)، ولا خلافَ بين أهل العلم أنَّ الإخوة للأب والأمِّ أو الأب ليس ميراثُهم كهذا؛ فدلَّ إجماعهم على أنَّ الإخوة المذكورين في آخِر السورة هم إخوةُ المتوفَّى لأبيه وأمِّه أو لأبيه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ [النساء: ١٧٦]، ولم يختلفوا أنَّ ميراث الإخوة للأمِّ ليس هكذا؛ فدلَّت الآيتانِ أنَّ الإخوة كلَّهم جميعًا كلالة). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨).

إلى العِلم والبيان[١].

الفوائِد التربويَّة:

١- في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ الحثُّ على العِلم؛ بالرجوع إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّنا لا نعلم بيانَ اللهِ عزَّ وجل إلَّا عن طريق الكتاب والسُّنَّة، وكل إنسان يفرُّ من الضلال ويُريد البيانَ والهدى، فنقول: طريق ذلك أن تَحرِصَ على اتِّباع الكتاب والسُّنَّة[٢].

٢- حقيقٌ بِمَن أُقيم في منصبِ الإفتاءِ أنْ يُعِدَّ له عُدَّتَه، وأن يتأهَّبَ له أُهْبَتَه، وأنْ يعلَمَ قدْرَ المَقامِ الذي أُقيمَ فيه، ولا يكونَ في صَدْرِه حَرَجٌ مِن قولِ الحقِّ والصَّدْعِ به؛ فهو المنْصِبُ الذي تولَّاه بنَفْسِه ربُّ الأربابِ، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ وكفَى بما تولَّاه اللهُ تعالى بنَفْسِه شَرَفًا وجلالةً[٣].

الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ ...﴾ فيه حِرصُ الصَّحابة رضي الله عنهم على معرفة الحقِّ[٤].

٢- أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قد يُشكل عليه بعضُ الشيء، فيُفتي اللهُ تعالى به؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ولم يقُلْ: فأفْتِني فأُفْتيَهم[٥].

٣- في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾: إطلاقُ الإفتاء على الله، وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٣).

(٣) ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٤٠).

فِعلٌ من الأفعال، وإنْ كان هو قولًا، ويجوزُ أن نشتقَّ منه وصفًا لله، ولا يجوز أن نشتقَّ من ذلك اسمًا لله؛ لأنَّ الوصف أوسعُ وأعم[١].

٤- أنَّ ترتيب الآيات توقيفيٌّ، ووجه ذلك: أنَّ هذه الآية لها صِلةٌ بآيات المواريث التي في أوَّل السورة، ولو كان اجتهاديًّا، لكان مقتضى الاجتهاد أن تُربط مع أخواتها، وأنْ تُذكر هناك، لكن لَمَّا كان ترتيبُ القرآن توقيفيًّا في آياته، صار محلُّها هنا[٢].

٥- المرادُ بالأختِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ الأختُ الشقيقةُ أو التي للأبِ فقط، بقرينةِ مخالفةِ نَصيبها لنصيبِ الأُخت للأمِّ المقصودة في آية الكلالة الأُولى، وبقرينة قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾؛ لأنَّ الأخَ للأمِّ لا يرثُ جميعَ المالِ إنْ لم يكن لأخته للأمِّ ولدٌ؛ إذ ليس له إلَّا السُّدُسُ[٣].

٦- أنَّ الميراث يَدخُل في ملك الوارث شاءَ أم أبى، وتُؤخذ من قوله: ﴿فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ﴾؛ فاللَّام للتَّمليك[٤].

٧- أنَّ الرقيق المملوك لا يَرِث، وتُؤخذ من اللام التي هي للتمليك؛ إذ إنَّ العبد المملوك لا يملك، فالعبدُ المملوك مُلكُه لسيِّده، ولأنه لو وَرِث الأخ من أخته إذا كان رقيقًا، لكان حقيقة الأمرِ أنَّ سيِّدَه هو الذي ورِثَ، وهو أجنبيٌّ منها[٥].

٨- تفضيل الذَّكَر على الأُنثى في التَّعصيب؛ لقوله: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ والحِكمة: فضل الذُّكورة على الأُنوثة؛ ولأنَّ الذَّكر عليه مُتطلَّبات في الحياة من

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نكاحٍ، وإنفاقٍ على غيرِه، وغير ذلك[١].

٩- الردُّ على أهل التفويض في صِفات الله عزَّ وجلَّ، الذين يقولون: إنَّنا لا نعلم معانيَ صفاته عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يلزمُ من ذلك أنْ لا بيانَ في القرآن، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾، ولأنَّ الضَّلال في بابِ الصِّفات أعظمُ من الضَّلال في بابِ الأحكامِ؛ لأنَّ الضَّلال في باب الصِّفات يَتعلَّقُ بالخالق عزَّ وجلَّ، والضَّلال في الأحكام إنَّما هو في العِبادة، وبينهما فَرْقٌ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ النُّكتة في الاكتِفاء بنَفْي الولد، وعدم اشتراط نفْي الوالد في الآية، مع أنَّه لا بدَّ من كونه- أيضًا- لا والدَ له، تظهر بوجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّه داخلٌ في مفهومِ الكلالة لُغةً.

الوجه الثَّاني: أنَّ الأكثر أنَّ الإنسان يموت عن تَرِكة، بعد موت والديه؛ لأنَّ المال الذي يتركُه إمَّا أن يكون وَرِثه منهما، وإمَّا أن يكون اكتسبه، وإنَّما يكون الكسبُ في سِنِّ الشباب والكهولة، ويقلُّ في هذه الحال بقاءُ الوالدين، فلمْ يُراعَ في الذِّكر إيجازًا.

الوجه الثالث- وهو العُمدة-: أنَّ عدم إرث الإخوة والأخوات مع الوالد الذي يُدلون به قدْ عُلِم من آيات الفرائض التي أُنزلت أولًا، وتَقدَّمت في أوائل السورة، ومضَتِ السُّنَّة في بيانها، والعمل بها على ذلِك، وعُلم أيضًا من القاعدة القياسيَّة المأخوذةِ من تلك الآيات، ومِن هذه الآية، وهي كونُ الأصل في الإرث أن يكونَ للذَّكَر مِن كلِّ صِنف مِثلُ حظِّ الأُنثيين، ومن قاعدة حَجْب

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٤٣).

الوالد لأولادِه[١].

١١- قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ عبَّر بالعدد، فقال: ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ دون (أختين)؛ لأنَّ الكلام في الإخوة، والعِبرة في الفَرْض بالعدد[٢].

١٢- من مباحث اللَّفظ والأسلوب في الآية: أنَّها تدلُّ على أنَّ المعلوم من السِّياق له حُكمُ المذكور في اللَّفظ، حتَّى في إعادة الضمير عليه؛ فلا يَتعيَّن تقديرُ لفظ المرء في بيان مرجِع ضَمير ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾، بل يصحُّ أن نقول: إنَّ المعنى: ﴿وَهُوَ﴾، أي: أخوها، ﴿يَرِثُهَآ﴾... إلخ، ومثله قوله: ﴿فَإِن كَانَتَا﴾: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾[٣].

١٣- قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية الأخيرة (هذه) ذيلٌ للسورة في فتوى متمِّمة لأحكام الفرائض التي في أوائلها، وأمَّا فائدة الأحكام أو المسائل التي تُجعل ذيلًا أو مُلحَقًا لكتاب أو قانون؛ فهي أنَّ الذهنَ يَتنبَّهُ إليها أفضلَ تنبُّهٍ، فلا يَغفُل عنها، كما يَغفُل عمَّا يكون مندمجًا في أثناء أحكام أو مسائل كثيرة من ذلك النوع، فكأنَّ جَعْل هذه الآية مفردةً على غير فواصل السورة يُراد به توجيهُ النفوس إليها؛ لئلَّا تغفل عنها[٤].

١٤- في هذه السُّورة لطيفةٌ عجيبة، وهي أنَّ أوَّلها مشتملٌ على بيان كمال قُدرة الله تعالى؛ فإنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وهذا دالٌّ على سَعَة القُدرة، وآخِرَها مشتملٌ على بيان كمال العِلم، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾، وهذان الوصفان هما اللذان بهما تَثبُتُ الرُّبوبيَّة

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٩١).
(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ٩٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٩٥).

والإلهيَّة والجلالة والعِزَّة، وبهما يجبُ على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنواهي، منقادًا لكلِّ التكاليف(١).

بلاغة الآية:

١- **قوله:** ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: عبَّر بصيغة المضارع؛ لأنَّ شأن السُّؤال يتكرَّر، والتعبيرُ بصيغة المضارع في مادَّة السؤال طريقةٌ مشهورة، فشاع إيرادُه بصيغة المضارع، نحو: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقد يغلب استعمالُ بعض صِيغ الفعل في بعض المواقع، ومنه غَلبةُ استعمال المضارع في الدُّعاء في مقام الإنكار: كقول عائشة رضي الله عنها: (يَرْحَمُ اللهُ أبا عبد الرحمن)(٢)- تعني: ابن عمر. وقولهم: (يغفر الله له)، ومنه غلبة الماضي مع لا النافية في الدعاء إذا لم تُكرَّر (لا)، نحو: فلا رجَعَ. على أنَّ (**الْكَلَالَةِ**) قد تكرَّر فيها السؤال قبل نزول الآية وبعدَها(٣).

٢- **قوله:** ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾: فيه تقديمُ المسنَد إليه ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للاهتمام لا للقَصر؛ إذ قد عَلِم المستفتون أنَّ الرسول لا يَنطِق إلَّا عن وحيٍ؛ فإنهم لَمَّا استفتوه فإنما طلبوا حُكم الله، فإسناد الإفتاءِ إلى الله تنويهٌ بهذه الفَريضة(٤).

٣- **قوله:** ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞ﴾: فيه إيجازٌ بالحذف؛ إذ التَّقدير: (ويرث الأختَ امرؤٌ إن هلكت أختُه، ولم يكنْ لها ولدٌ)، وعُلم معنى الأُخوَّة مِن قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾، وهذا إيجازٌ بديعٌ، ومع غايةِ إيجازِه فهو في غايةِ الوضوحِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٧٧٥)، ومسلم (١٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٦٧).

٤- **قوله:** ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾: **قوله:** ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أصله (لئلَّا تَضِلُّوا)، حُذفت منه اللامُ و(لا)، وهو تعليلٌ لـ(يبين)، والمقصودُ التعليلُ بنفيِ الضَّلال لا لوقوعِه؛ لأنَّ البيان يُنافي التضليلَ، فحُذفت (لا) النافية، وحَذْفها موجودٌ في مواقِع من كلامِهم إذا اتَّضح المعنى[1].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تمَّ بحمد الله تعالى المجلَّد الثَّالث

ويليه المجلدُ الرَّابع، وأوَّله

تفسير سورة المائدة



الفهرس







الفهرس

تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّساءِ ٥
أسماءُ السُّورةِ: ٧
فضائلُ السُّورة وخَصائصُها: ... ٧
بيانُ المَكِّي والمَدنيِّ:......... ٩
مقاصدُ السُّورةِ: ٩
موضوعاتُ السُّورةِ:......... ١٠
الآية (١)................... ١٣
غَريبُ الكَلِمات: ١٣
مُشكِل الإعراب:........... ١٣
المَعنى الإجمالي:........... ١٤
تَفسيرُ الآية: ١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:.... ٢١
بَلاغَةُ الآية: ٢٤
الآيات (٢ – ٦) ٢٨
غَريبُ الكَلِمات: ٢٨
مُشكِلُ الإعراب: ٣٠
المَعنى الإجمالي:........... ٣١
تَفسيرُ الآيات:............... ٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:.... ٤٥
بَلاغَةُ الآيات: ٤٨
الآيات (٧ – ١٠) ٥٥
غريبُ الكلمات: ٥٥
المَعنَى الإجمالي:............ ٥٥
تَفسيرُ الآيات:............... ٥٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:.... ٦٣
بَلاغَةُ الآيات: ٦٤
الآيات (١١ – ١٤) ٦٧
غَريبُ الكَلِمات: ٦٧
مُشكِلُ الإعراب:............ ٦٨
المَعنَى الإجمالي:............ ٦٩
تَفسيرُ الآيات:............... ٧١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:.... ٨٥
بَلاغَةُ الآيات: ٨٩
الآيات (١٥ – ١٨) ٩٤

غَريبُ الكَلِمات: ٩٤
مُشكِلُ الإعراب: ٩٥
المَعنَى الإجمالي: ٩٦
تَفسيرُ الآيات: ٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٠٤
بَلاغَةُ الآيات: ١٠٦
الآيات (١٩ - ٢٢) ١٠٩
غَريبُ الكَلِمات: ١٠٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ١١٠
المَعنَى الإجمالي: ١١٠
تَفسيرُ الآيات: ١١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١١٨
بَلاغَةُ الآيات: ١٢١
الآية (٢٣) ١٢٤
غَريبُ الكَلِمات: ١٢٤
المَعنَى الإجمالي: ١٢٥
تَفسيرُ الآية: ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٣٠
بَلاغَةُ الآية: ١٣٢
الآيتان (٢٤ - ٢٥) ١٣٣
غريبُ الكَلِمات: ١٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٣٤
المَعْنى الإجماليُّ: ١٣٧
تفسيرُ الآيتين: ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٤٧
بَلاغةُ الآيتين: ١٥٣
الآيات (٢٦ - ٢٨) ١٥٦
غريبُ الكَلِمات: ١٥٦
المَعْنى الإجماليُّ: ١٥٦
تفسيرُ الآياتِ: ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ١٦١
بَلاغةُ الآياتِ: ١٦٣
الآيات (٢٩ - ٣١) ١٦٧
غريبُ الكَلِمات: ١٦٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٦٧
المَعْنى الإجماليُّ: ١٦٨

تفسيرُ الآياتِ:................ ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ١٧٤
بَلاغةُ الآياتِ: ١٧٧
الآيات (٣٢ – ٣٥) ١٧٩
غريبُ الكَلِمات: ١٧٩
المَعْنى الإجماليُّ:.......... ١٧٩
تفسيرُ الآياتِ:................ ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ١٨٦
بَلاغةُ الآياتِ: ١٨٨
الآيتان (٣٤ – ٣٥).......... ١٩١
غريبُ الكَلِمات: ١٩١
مُشكِلُ الإعرابِ: ١٩٣
المَعْنى الإجماليُّ:.......... ١٩٤
تفسيرُ الآيتين:................ ١٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٠٢
بَلاغةُ الآيتين: ٢٠٥
الآيات (٣٦ – ٤٢) ٢٠٧
غريبُ الكَلِمات: ٢٠٧
المَعْنى الإجماليُّ:.......... ٢١٠
تفسيرُ الآياتِ:................ ٢١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٢٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٣٢
الآية (٤٣) ٢٣٦
غريبُ الكَلِمات: ٢٣٦
المَعْنى الإجماليُّ:.......... ٢٣٧
تفسيرُ الآياتِ:................ ٢٣٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٤٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٤٧
الآيات (٤٤ – ٤٦) ٢٥٠
غريبُ الكَلِمات: ٢٥٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ٢٥١
المَعْنى الإجماليُّ:.......... ٢٥١
تفسيرُ الآياتِ:................ ٢٥٢
الفوائد التَّربويَّة: ٢٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٥٨

بَلاغةُ الآياتِ: ٢٦٠
الآيتان (٤٧ – ٤٨)......... ٢٦٣
غريبُ الكَلِمات: ٢٦٣
المَعْنى الإجماليُّ:............ ٢٦٤
تفسيرُ الآيتين:................ ٢٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٦٨
بَلاغةُ الآيتين: ٢٧١
الآيات (٤٩ – ٥٧) ٢٧٤
غريبُ الكَلِمات: ٢٧٤
المَعْنى الإجماليُّ:............ ٢٧٦
تفسيرُ الآياتِ:................ ٢٧٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٢٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٢٨٨
بَلاغةُ الآياتِ: ٢٩٣
الآيتان (٥٨ – ٥٩)......... ٢٩٦
غريبُ الكَلِمات: ٢٩٦
مُشكِلُ الإعرابِ:............ ٢٩٦
المَعْنى الإجماليُّ:............ ٢٩٧
تفسيرُ الآيتين:................ ٢٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: .. ٣٠٣
بَلاغةُ الآيتين: ٣٠٧
الآيات (٦٠ – ٦٥) ٣٠٩
غريبُ الكَلِمات: ٣٠٩
المَعْنى الإجماليُّ:............ ٣١٠
تفسيرُ الآياتِ:................ ٣١١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٢٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٢٥
الآيات (٦٦ – ٧٠) ٣٣٢
غريبُ الكَلِمات: ٣٣٢
المَعْنى الإجماليُّ:............ ٣٣٢
تفسيرُ الآياتِ:................ ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٤٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٤٣
الآيات (٧١ – ٧٦) ٣٤٥
غريبُ الكَلِمات: ٣٤٥
مُشكِلُ الإعرابِ:............ ٣٤٦

المَعْنى الإجماليُّ:........... ٣٤٦
تفسيرُ الآياتِ:............... ٣٤٧
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٥٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٦١
الآيات (٧٧ - ٧٩) ٣٦٤
غريبُ الكَلِمات: ٣٦٤
مُشكِلُ الإعرابِ:............ ٣٦٤
المَعْنى الإجماليُّ:........... ٣٦٥
تفسيرُ الآياتِ:............... ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٧٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٣٧٨
الآيات (٨٠ - ٨٤) ٣٨١
غريبُ الكَلِمات: ٣٨١
المَعْنى الإجماليُّ:........... ٣٨٣
تفسيرُ الآياتِ:............... ٣٨٤
الفَوائِد التربويَّة: ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٣٩٦
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٠١
الآيات (٨٥ - ٨٧) ٤٠٥
غريبُ الكَلِمات: ٤٠٥
المَعْنى الإجماليُّ:........... ٤٠٦
تفسيرُ الآياتِ:............... ٤٠٦
الفَوائِد التربويَّة: ٤١١
الفوائد العلميَّة اللَّطائف: ٤١٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٤١٥
الآيات (٨٨ - ٩١) ٤١٩
غريبُ الكَلِمات: ٤١٩
المَعْنى الإجماليُّ:........... ٤٢١
تفسيرُ الآياتِ:............... ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٤٣٠
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٣٥
الآيتان (٩٢ - ٩٣).......... ٤٣٩
غريبُ الكَلِمات: ٤٣٩
مُشكِلُ الإعرابِ:............ ٤٤٠
المَعْنى الإجماليُّ:........... ٤٤٠
تفسيرُ الآيتين:............... ٤٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّة: ٤٤٩

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٤٥١
بَلاغةُ الآيتين: ٤٥٩
الآيتان (٩٥ – ٩٦)......... ٤٦٥
غريبُ الكَلِمات: ٤٦٥
مُشكِلُ الإعرابِ:........... ٤٦٥
المَعْنى الإجماليُّ:........... ٤٦٦
تفسيرُ الآيتين:.............. ٤٦٦
الفَوائِد التربويَّة: ٤٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف:... ٤٧٠
بَلاغةُ الآيتين: ٤٧٣
الآيات (٩٧ – ١٠٠)....... ٤٧٩
غَريبُ الكَلِمات: ٤٧٩
المَعنَى الإجماليُّ:........... ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ:.............. ٤٨٠
الفوائد التَّربويَّة: ٤٨٧
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:... ٤٨٨
بَلاغةُ الآياتِ: ٤٩٢
الآيات (١٠١ – ١٠٤) ٤٩٥
غَريبُ الكَلِمات: ٤٩٥
المَعنَى الإجماليُّ:........... ٤٩٦
تَفسيرُ الآياتِ:.............. ٤٩٧
الفَوائِد التربويَّة: ٥٠٩
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:... ٥١٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٢٠
الآيات (١٠٥ – ١٠٩) ٥٢٥
غَريبُ الكَلِمات: ٥٢٥
المَعنَى الإجماليُّ:........... ٥٢٦
تَفسيرُ الآياتِ:.............. ٥٢٧
الفَوائِد التربويَّة: ٥٣٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٥٣٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٣٧
الآيات (١١٠ – ١١٣) ٥٤٠
غَريبُ الكَلِمات: ٥٤٠
المَعنَى الإجماليُّ:........... ٥٤٠
تَفسيرُ الآياتِ:.............. ٥٤١
الفَوائِد التربويَّة: ٥٤٧
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف:... ٥٤٧
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٥٠
الآيات (١١٤ – ١٢٢) ٥٥٢
غَريبُ الكَلِمات: ٥٥٢

مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٥٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٥٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٥٦
الفَوائِد التربويَّة: ٥٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائف: ... ٥٧١
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٧٨
الآيات (١٢٣ - ١٢٦) ٥٨٣
غَريبُ الكَلِمات: ٥٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٥٨٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٥٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٥٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٥٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٥٩٤
بَلاغةُ الآياتِ: ٥٩٩
الآية (١٢٧) ٦٠٣
غَريبُ الكَلِمات: ٦٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٠٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٠٤
تفسير الآية: ٦٠٥
الفوائد التَّربويَّة: ٦٠٨
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٦٠٩
بَلاغةُ الآية: ٦١١
الآيات (١٢٨ - ١٣٠) ٦١٢
غَريبُ الكَلِمات: ٦١٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦١٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٦١٥
تَفسيرُ الآياتِ: ٦١٦
الفَوائِد التربويَّة: ٦٢٢
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٢٣
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٢٨
الآيات (١٣١ - ١٣٤) ٦٣١
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٣٢
الفَوائِد التربويَّة: ٦٣٧
الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: .. ٦٣٩
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٤٠
الآيات (١٣٥ - ١٣٧) ٦٤٣
غَريبُ الكَلِمات: ٦٤٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٤٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٤٤

تَفسيرُ الآياتِ: ٦٤٥
الفوائد التَّربويَّة: ٦٥١
الفوائد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٦٥٢
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٥٨
الآيات (١٣٨ – ١٤٣) ٦٦١
غَريبُ الكَلِمات: ٦٦١
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٦٣
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٦٥
الفوائد التَّربويَّة: ٦٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِف: ... ٦٧٥
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٨٠
الآيات (١٤٤ – ١٤٧) ٦٨٣
غَريبُ الكَلِمات: ٦٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ٦٨٤
المَعنَى الإجماليُّ: ٦٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ٦٨٥
الفَوائِد التربويَّة: ٦٨٩
الفوائدُ العِلميَّة واللَّطائِف: ... ٦٩١
بَلاغةُ الآياتِ: ٦٩٤
الآيات (١٤٨ – ١٥٢) ٦٩٧
غريب الكلمات: ٦٩٧
مشكل الإعراب: ٦٩٧
المعنى الإجمالي: ٦٩٨
تفسير الآيات: ٦٩٩
الفوائِد التربويَّة: ٧٠٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٠٦
بلاغة الآيات: ٧٠٨
الآيات (١٥٣ – ١٦٢) ٧١١
غريب الكلمات: ٧١١
مشكل الإعراب: ٧١٤
المعنى الإجمالي: ٧١٨
تفسير الآيات: ٧٢٠
الفوائِد التربويَّة: ٧٣٣
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٣٤
بلاغة الآيات: ٧٤٠
الآيات (١٦٣ – ١٦٦) ٧٤٦
غريب الكلمات: ٧٤٦
مشكل الإعراب: ٧٤٧
المعنى الإجمالي: ٧٤٨

تفسير الآيات: ٧٤٨
الفوائِد التربويَّة: ٧٥٤
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٥٤
بلاغة الآيات: ٧٥٨
الآيات (١٦٧ - ١٧٠) ٧٦١
غريبُ الكلمات: ٧٦١
مشكلُ الإعراب: ٧٦١
المعنى الإجمالي: ٧٦٢
تفسير الآيات: ٧٦٢
الفوائِد التربويَّة: ٧٦٦
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٦٦
بلاغة الآيات: ٧٦٨
الآيات (١٧١ - ١٧٥) ٧٧٢
غريبُ الكلمات: ٧٧٢
مشكلُ الإعراب: ٧٧٤
المعنى الإجمالي: ٧٧٤
تفسير الآيات: ٧٧٥
الفوائِد التربويَّة: ٧٨٥
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٨٦
بلاغة الآيات: ٧٨٩
الآية (١٧٦) ٧٩٣
غريب الكلمات: ٧٩٣
المعنى الإجمالي: ٧٩٤
تفسير الآية: ٧٩٤
الفوائِد التربويَّة: ٧٩٨
الفوائِد العِلميَّة واللَّطائف: ... ٧٩٨
بلاغة الآية: ٨٠٢
الفهرس ٨٠٥

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠